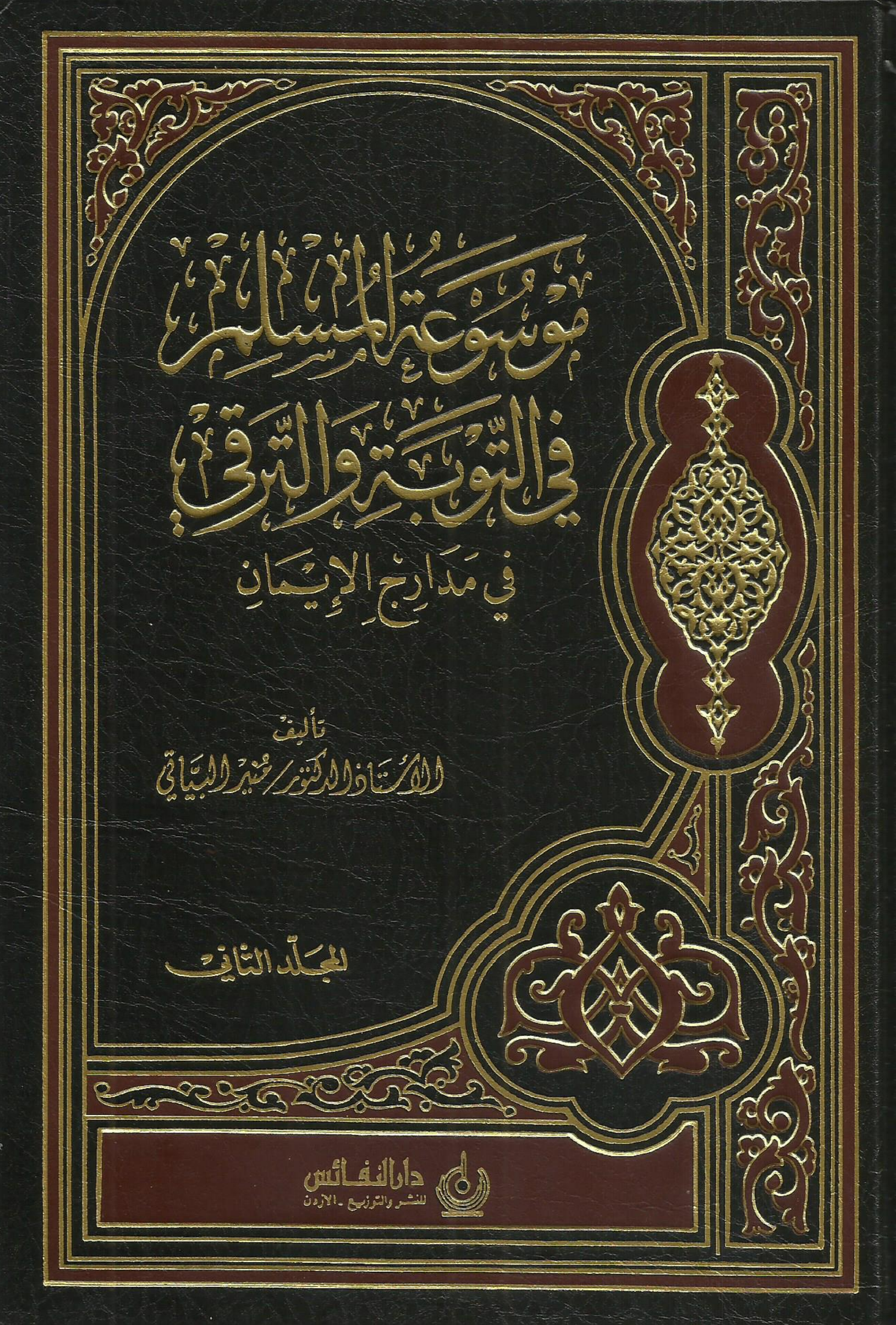
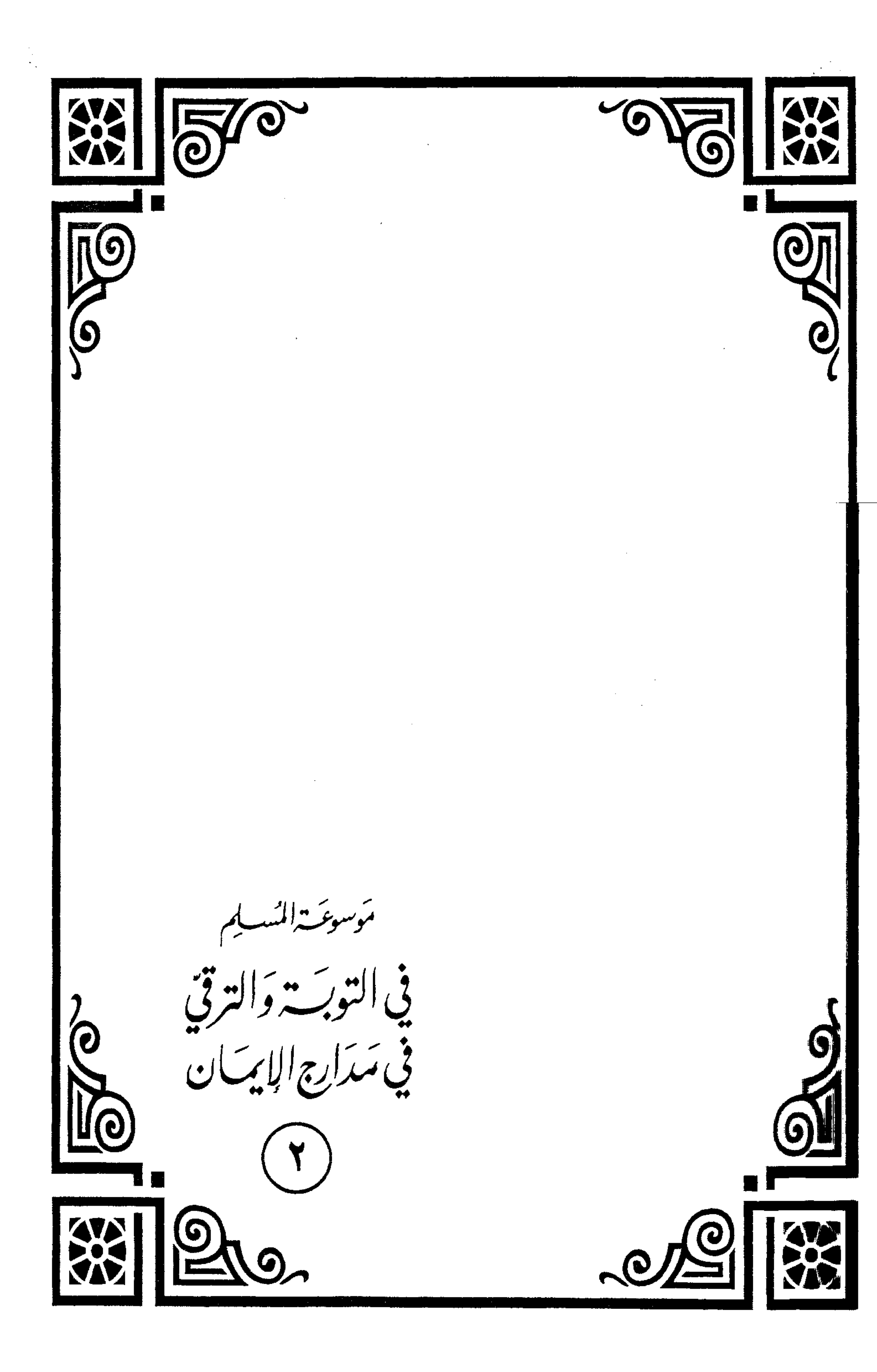

موسوعة المسلم
في التوبة والترقي
في مدارج الإيمان
تأليف
الأستاذ الدكتور/ منير البياتي
المجلد الثاني
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن



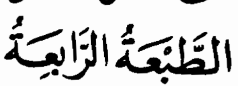
موسوعة المسلم

في التوبة والترقي في مدارج الإيمان

٢







١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٠/٥/١٧١٨

٢٤٦
البياتي، منير
موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان/منير البياتي. ط٢.- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
( ) ص.
ر.إ: ٢٠١٠/٥/١٧١٨
الواصفات: الايمان// الاسلام// العبادات/





العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن

هاتف: 5693940 6 00962

فاكس: 5693941 6 00962

Email: alnafaes@hotmail.com

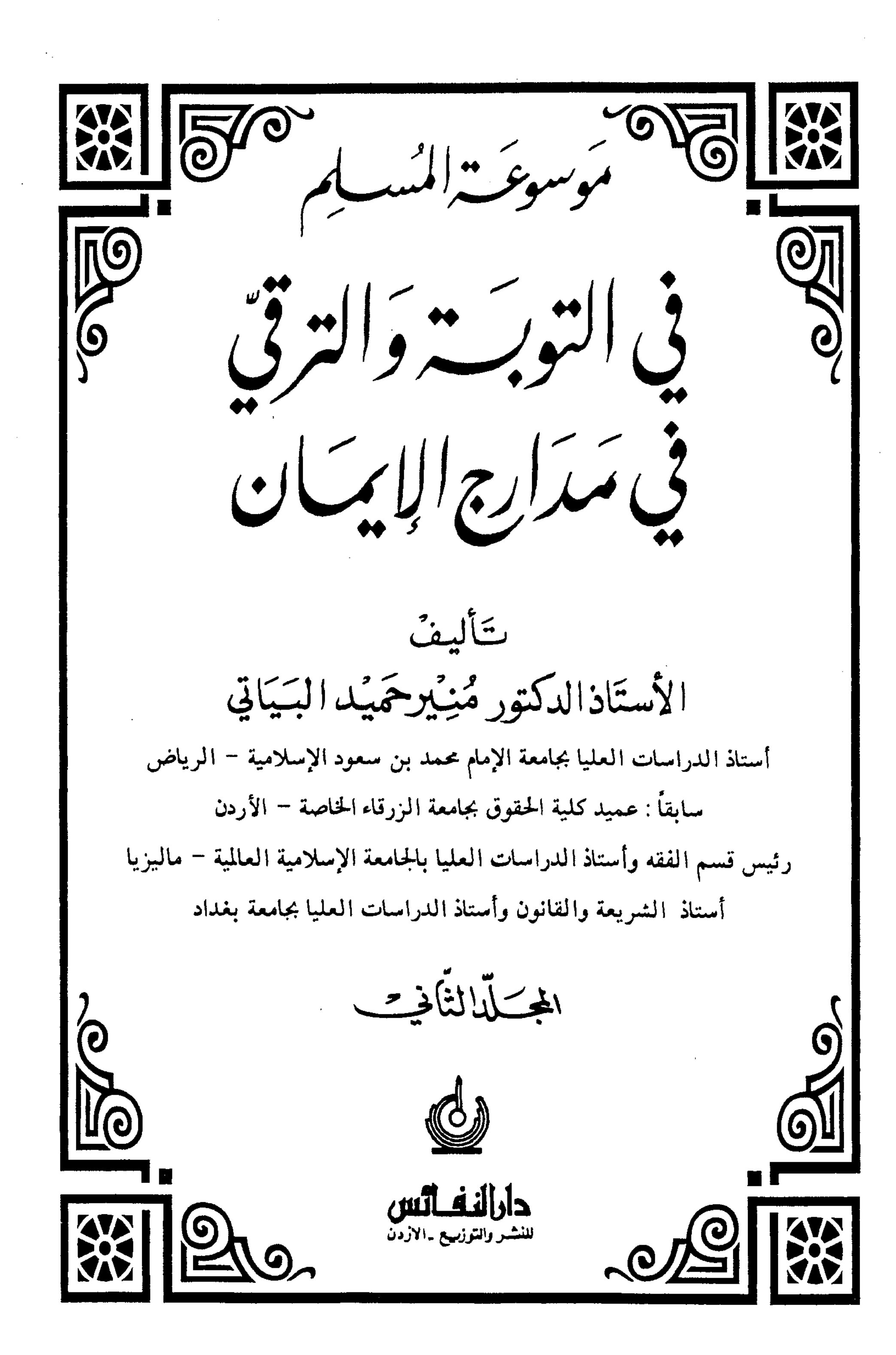
www.al-nafaes.com











موسوعة المسلم

في التوبة والترقي في مدارج الإيمان

تأليف

الأستاذ الدكتور مُنير حميد البياتي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

سابقاً: عميد كلية الحقوق بجامعة الزرقاء الخاصة - الأردن

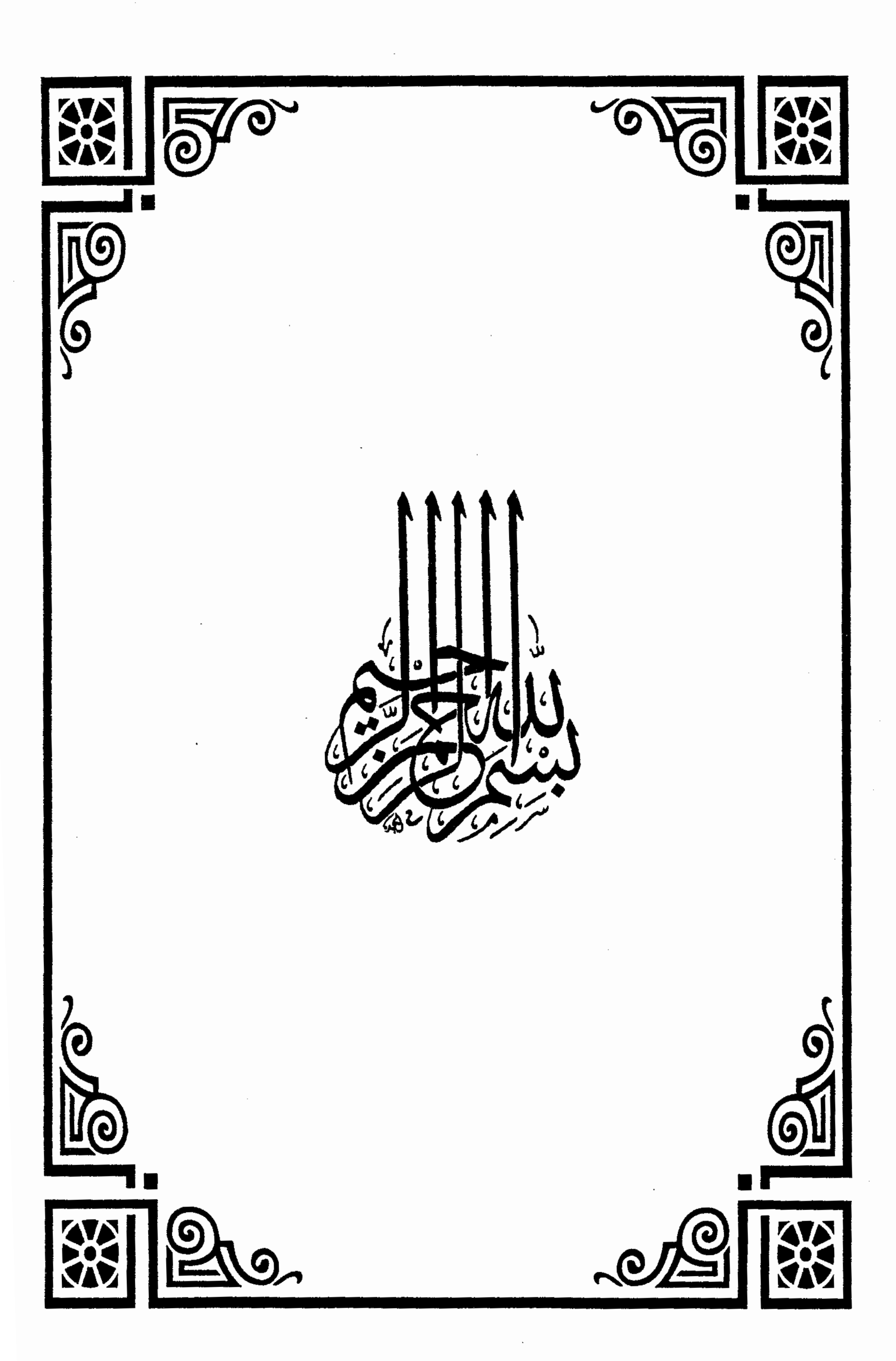
رئيس قسم الفقه وأستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

أستاذ الشريعة والقانون وأستاذ الدراسات العليا بجامعة بغداد

المجلد الثاني

دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن


بسم الله الرحمن الرحيم








الباب الرابع

الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها

وفيه فصلان:

- الفصل الأول: أقسام الذنوب ومتعلقاتها
- الفصل الثاني: التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات










الباب الرابع

الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها

٩٠١- تمهيد وتقسيم البحث:

الكلام في الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها يستلزم بيان ذلك فصلين:

نخصص الفصل الأول: لبيان أقسام الذنوب ومتعلقاتها من حيث انقسامها إلى كبائر وصغائر، وذنوب القلب وذنوب الجوارح، وذنوب مقتصرة على حق الله تعالى وذنوب فيها ظلم العباد، وذلك في ثلاثة مباحث متتالية.

ونخصص الفصل الثاني: لبيان التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات، وذلك بتقديم مقدمة جامعة ومختصرة عن التوبة من ذلك كله، ثم نبين التوبة من فعل المحرمات في مبحث أول، ثم التوبة من ترك الواجبات في مبحث ثان.











أقسام الذنوب ومتعلقاتها

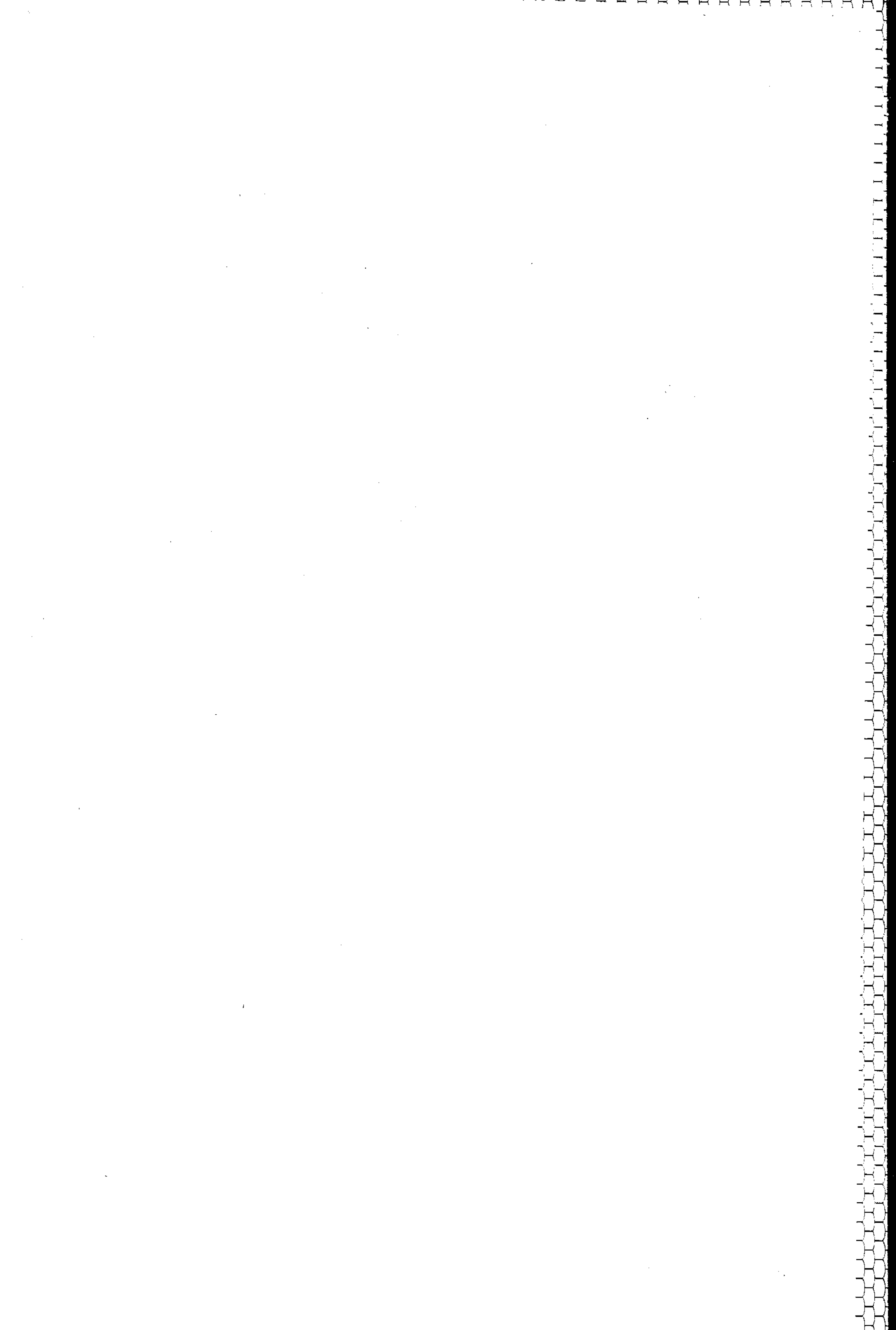
وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر.
- المبحث الثاني: ذنوب القلب وذنوب الجوارح.
- المبحث الثالث: الذنوب المقتصرة على حق الله والذنوب التي فيها ظلم العباد.







الفصل الأول

أقسام الذنوب ومتعلقاتها

٩٠٢- تمهيد: أقسام الذنوب أو المعاصي:

تنقسم الذنوب من حيث شدة حرمتها إلى كبائر وصغائر.

وتنقسم من حيث كونها من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح إلى ذنوب القلب وذنوب الجوارح.

وتنقسم من حيث تعلقها بظلم العباد إلى ذنوب في حق الله من غير تعلق بظلم العباد وذنوب فيها ظلم العباد.

وفيما يلي نلقي ضوءاً على كل من هذه الأقسام تمهيداً للدخول بعد ذلك في موضوع الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها بالتفصيل.

المبحث الأول
انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر

٩٠٣- الذنوب مختلفة في شدة حرمتها:

لا شك أن الذنوب والمعاصي تختلف في شدة حرمتها وشدة العقاب عليها فكبائر الإثم والفواحش غير اللمم، والسبع الموبقات غير محقرات الذنوب، والزنا بمعنى الوطء غير النظر واللمس ونحوها، وإن اشتركت كلها في الحرمة.

ونجد أساس هذا التقسيم في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال جمهور العلماء من السلف والخلف.

٩٠٤- أساس تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر في القرآن الكريم:

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله عز وجل: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]. وفي القرآن أيضاً وصف لبعض الذنوب بشدة الحرمة التي تدل على أنها من الكبائر أو ترتيب العقوبة عليها بالنار في الآخرة والحد في الدنيا ونحو ذلك.

٩٠٥- أساس تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر في السنة النبوية:

وفي السنة النبوية مثل ذلك فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٩١٤]، وهذا دال على أنها من الكبائر. وبالمقابل قال ﷺ : (إياكم ومحقرات الذنوب) والمقصود بها الصغائر التي لا يبالي بها الإنسان لكن تراكمها قد يرديه حين تجتمع عليه.

---

(٩١٤) متفق عليه: البخاري (٢٥٦٠) و(٦٣٥١) ومسلم (١٢٩). وأيضاً: النسائي (٣٦١١) وأبو داود (٢٤٩٠).

وتقسيم الذنوب والمعاصي إلى كبائر وصغائر هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من السلف والخلف، وللمزيد من البيان نقدم نماذج من أقوال العلماء الجامعة في ذلك.

٩٠٦- أقوال العلماء في انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر وضوابط تحديدهما:

٩٠٧- أولاً - قول ابن تيمية في انقسام الذنوب وتحديد الضابط لمعرفة ذلك:

٩٠٨- الصغيرة: ما دون الحدين، حد الدنيا، وحد الآخرة:

تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر وفي بيان الضابط الذي تعرف به الكبيرة والصغيرة فقال: «أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس وذكره أبو عبيد وأحمد بن حنبل وغيرهما وهو: أن الصغيرة ما دون الحدين، حد الدنيا، وحد الآخرة، وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا، وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر، ومعنى قول القائل: وليس فيها [أي الصغيرة] حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، أي وعيد خاص كالوعيد بالنار والغضب واللعنة، وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا.

فكما أنه يفرق في العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع والقتل وجلد مائة أو ثمانين، وبين العقوبات التي ليست بمقدرة وهي التعزير، فكذلك يفرق في العقوبات التي يعزر الله بها العباد بين العقوبات المقدرة كالغضب واللعنة والنار وبين العقوبات المطلقة.

٩٠٩- ما يعد من الكبائر وفقاً للضابط السابق:

وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل:

٩١٠- أ- كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة:

كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة: كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة.

٩١١- ب - كل ما جاء فيه وعيد خاص:

وكالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص، كما قال في الفرار من الزحف: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ

أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٩١٢- ج - كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة أو ليس منا أو ليس مؤمناً:

وكذلك كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة، ولا يشم رائحة الجنة، وقيل فيه: من فعله فليس منا وأن صاحبه آثم، فهذه كلها من الكبائر كقوله ﷺ :(لا يدخل الجنة قاطع)[٩١٥]، وقوله: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر)[٩١٦]، وقوله: (من غشنا فليس منا)[٩١٧]، وقوله: (من حمل علينا السلاح فليس منا)[٩١٨]، وقوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو حين ينهبها مؤمن)[٩١٩]... ولكن المؤمن المطلق في باب الوعد والوعيد وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب: هو المؤدي للفرائض المجتنب المحارم، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق، فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين إذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة، وهذا معنى قول من قال: أراد به نفي حقيقة الإيمان أو نفي

---

(٩١٥) متفق عليه: البخاري (٥٥٢٥) ومسلم (٤٦٣٦) و (٤٦٣٧). وأيضاً: أبو داود (١٤٤٥) وأحمد (١٦١٣٢) و(١٦١٦٢) و(١٦١٧١).

(٩١٦) رواه مسلم (١٣١) و(١٣٣) واللفظ له، وأبو داود (٣٥٦٨) - بلفظ: مثقال حبة من خردل من كبر-، وابن ماجة (٥٨) و(٤١٦٣) وأحمد(٣٧١٨)

(٩١٧) رواه مسلم (١٤٦) وابن ماجة (٢٢١٦) وأحمد (٩٠٢٧) والدارمي (٢٤٢٩).

(٩١٨) متفق عليه: البخاري (٦٣٦٦) ومسلم (١٤٦).

(٩١٩) متفق عليه: البخاري (٢٢٩٥) ومسلم (٨٦).

كمال الإيمان، فإنهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب، فإن ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد، والفقهاء يقولون [مثلاً]: الغسل ينقسم إلى كامل ومجزئ، ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزئ لم يكن مذموماً، فمن أراد بقوله نفي كمال الإيمان أنه نفي الكمال المستحب فقد غلط، وهو يشبه قول المرجئة، ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب، وهذا مطرد في سائر ما نفاه الله ورسوله مثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، ومثل الحديث المأثور: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[٩٢٠]، ومثل قوله ﷺ: (لا صلاة إلا بأم القرآن)[٩٢١] وأمثال ذلك، فإنه لا ينفي مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب في ذلك، لا لانتفاء بعض مستحباته، فيفيد هذا الكلام: أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به وإن كان معه بعض الإيمان، فإن الإيمان يتبعض ويتفاضل، كما قال ﷺ: (يخرج من النار من في قلبه ذرة من الإيمان)[٩٢٢].

والمقصود هنا: أن نفي الإيمان أو الجنة أو كونه من المؤمنين، لا يكون إلا عن كبيرة، فأما الصغائر فلا تنفي هذا الاسم... فيعرف أن هذا النفي لا يكون لترك مستحب ولا لفعل صغيرة، بل لفعل كبيرة»[٩٢٣].

ثم مضى شيخ الإسلام ابن تيمية يقيم الدليل بصورة مفصلة على أن الضابط الذي ذكره هو أولى من سائر الضوابط الأخرى للتمييز بين الكبائر والصغائر[٩٢٤].

---

(٩٢٠) رواه أحمد (١١٩٣٥) و(١٢١٠٨) و(١٢٧٢٢)و(١٣١٤٥).

(٩٢١) رواه أبو داود (٦٩٧) بلفظ «لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب» و(٩١٦٤)، وأحمد (٢١٦١٧) بلفظ مقارب.

(٩٢٢) متفق عليه: البخاري (٤٢) بلفظ «وفي قلبه وزن ذرة من إيمان»، ومسلم (٢٨٥) بلفظ مقارب.

(٩٢٣) الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٢٩٥-٢٩٧ (مسألة:٧٧٨).

(٩٢٤) الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٢٩٧ وما بعدها.

٩١٣- ثانياً – قول ابن القيم في انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر وتحديد الضابط الذي تعرفان به:

٩١٤-١- انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع:

قال ابن القيم[٩٢٥]: «والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن، والسنة، وإجماع السلف، وبالاعتبار، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ

---

(٩٢٥) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣١٥ وما بعدها، مع التشذيب والاختصار. وانظر أيضاً: الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:١٩، ولكن الغزالي رحمه الله له رأي آخر متفق مع الجمهور في جانب ومختلف معه في جانب آخر، فهو بعد أن أورد أقوال السلف في التمييز بين الكبائر والصغائر وعلق عليها قال: فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه... [كبيرة لأن] ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهى عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات، ولا يبعد تنـزيلها على شيء من هذه الاحتمالات، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] وقول رسول الله ﷺ (الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر)، فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك: أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى: ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه، فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها، فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ: (ثلاث من الكبائر) [أخرجه الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاث الحديث]، وفي بعضها: (سبع من الكبائر) [رواه الطبرانى في الأوسط من حديث أبى سعيد: الكبائر سبع، وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر: من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر، الحديث، ثم عدهن سبعاً. وفي الصحيحين حديث أبى هريرة: اجتنبوا السبع الموبقات]، ثم ورد: أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر، وهو خارج عن السبع والثلاث، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده =

﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي الصحيحين عن النبي [ﷺ] أنه قال:(الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر).

وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الإسفراييني أنه قال: الذنوب كلها كبائر وليس فيها صغائر، فليس مراده أنها مستوية في الإثم بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء في الحرام، وإنما المراد أنها بالنسبة إلى عظمة من عصي بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى، والذي جاء في لفظ الشارع تسمية ذلك: لَمَماً، ومحقرات،كما في الحديث: (إياكم ومحقرات الذنوب) وقد قيل: إن اللمم المذكور في الآية من الكبائر، حكاه البغوي وغيره، قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء اللمم من الاجتناب، إذ معناه: لا يصدر منهم ولا تقع منهم الكبائر إلا لمماً، والجمهور على أنه استثناء من الكبائر [وليس من الاجتناب]، وهو منقطع، أي: لكن يقع منهم اللمم...، ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا في فصلين: أحدهما: في اللمم ما هو؟، والثاني: في الكبائر وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين...

٩١٥-٢- تحقيق معنى اللمم:

فأما اللمم فقد روي عن جماعة من السلف أنه: الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس... قال السدي قال أبو صالح: سئلت عن قول الله عز وجل: (إلا اللمم) فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم.

= الشرع، وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها. نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته... ثم مضى الغزالي رحمه الله يعلل ويشرح ما تقدم ذكره في كلام طويل (انظر: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص: ١٩-٢٢).

والجمهور على أن اللمم: ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس،كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة وفيه: (والعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى).

وقال الكلبي اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس مالم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه، وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب أي ما خطر عليه، قال الحسين بن الفضل، اللمم: النظر من غير تعمد فهو مغفور، فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب، وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله: إن تغفر اللهم تغفر جماً، وأي عبد لك لا ألما، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن اللمم ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم فالله لا يؤاخذهم به وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها. فإن اللمم إما أنه يتناول هذا وهذا ويكون على وجهين كما قال الكلبي، وأن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم وغور علومهم...

٩١٦-٣- تحديد الكبائر عند ابن القيم وضابطها:

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة، وفى الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي [ﷺ] قال:

(الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)، وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي [ﷺ]: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)، وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: (قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك؟ قال، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي [ﷺ]: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي [ﷺ] قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبدالرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي [ﷺ] قال: (من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)، وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي [ﷺ] قال: (إن من أكبر الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله)، قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقال: كل شيء عصي الله به فهو كبيرة، من عمل شيئاً منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فهو كبيرة.

وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

وقال الضحاك : هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا أو عذابا في الآخرة. وقال الحسين ابن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً نحو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء:٢]، ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨]، ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦]، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]...

وقال السدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبار والسيئات مقدماتها وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها واحتج بقول النبي [ﷺ]: العينان تزنيان والرجلان تزنيان ويصدق ذلك كله الفرج أو يكذبه.

وقيل: الكبائر ما يستصغره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته، واحتج أرباب هذه المقالة بما روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات).

قلت: أما قول السدي الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبار فبيان للشيء بنفسه، فإن الذنوب الكبائر هي الكبائر، وإنما مراده أن المنهي عنه قسمان: أحدهما: ما هو مشتمل على المفسدة بنفسه، ونفس فعله منشأ المفسدة، فهذا كبيرة، كقتل النفس، والسرقة، والقذف، والزنا، الثاني: ما كان من مقدمات ذلك ومباديه كالنظر واللمس والحديث والقبلة الذي هو مقدمة الزنا، فهو من الصغائر، فالصغائر من جنس المقدمات، والكبائر من جنس المقاصد والغايات.

وأما من قال: ما يستصغره العباد فهو كبائر، وما يستكبرونه فهو صغائر، فإن أراد أن الفرق راجع إلى استكبارهم واستصغارهم فهو باطل، فإن العبد يستصغر النظرة ويستكبر الفاحشة، وإن أراد أن استصغارهم للذنب يكبره عند الله، واستعظامهم له يصغره عند الله تعالى فهذا صحيح، فإن العبد كلما صغرت ذنوبه عنده كبرت عند الله، وكلما كبرت عنده صغرت عند الله، والحديث إنما يدل على هذا المعنى، فإن الصحابة لعلو مرتبتهم عند الله وكمالهم كانوا يعدون تلك الأعمال موبقات، ومن بعدهم لنقصان مرتبتهم عنهم وتفاوت ما بينهم صارت تلك الأعمال في أعينهم أدق من الشعر...

وقيل: الكبائر: الشرك وما يؤدي إليه، والصغائر: ما عدا الشرك من ذنوب أهل التوحيد...

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر ما تعلق به أحد الحدين، ومرادهم بالحدين عقوبة الدنيا والآخرة، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا كالزنا وشرب الخمر والسرقة والقذف، أو عليه وعيد في الآخرة كأكل مال اليتيم والشرب في آنية الفضة والذهب وقتل الإنسان نفسه وخيانته أمانته ونحو ذلك فهو من الكبائر، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما في قوله هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع».

المبحث الثاني
ذنوب القلب وذنوب الجوارح

٩١٧- القلب أساس صلاح دين المرء وفساده:

القلب هو أساس صلاح دين المرء أو فساده، قال ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٩٢٦]، ثم إن القلب هو مستقر التقوى، قال ﷺ: (التقوى هاهنا، وأشار بيده إلى صدره ثلاث مرات)[٩٢٧] وأيضاً فالقلب مستقر الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة، والأخلاق مرتبطة بالإيمان أو النفاق ارتباطاً حتمياً، وإنما أصل الإيمان أو النفاق في القلب، قال تعالى في المؤمنين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] وقال في المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وأكثر من ذلك أن كل الاعتقادات الباطلة التي هي من قبيل الشرك أو الكفر مستقرها القلب أيضاً.

وعلى ذلك، وكما أن هنالك العبادات القلبية مثل محبة الله وخشيته والتوكل عليه والإنابة إليه ونحوها وهي من أعظم العبادات، فهنالك الكبائر القلبية التي ينطوي عليها القلب والتي يجب على المؤمن أن يتوب منها إذا وُجد شيءٌ منها في قلبه.

٩١٨- الناس غالباً ما يغفلون عن الكبائر القلبية فلا يتوبون منها مع خطرها العظيم:

والناس غالباً يعتنون بالكبائر الظاهرة التي يمارسونها بالجوارح فيتوبون منها طلباً للنجاة في الآخرة ويغفلون عن الكبائر القلبية فلا يتوبون منها مع أن النجاة في الآخرة بسلامة القلب قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] قال جمهور المفسرين: سليم من الشرك والنفاق، وقال بعضهم: سليم من

---

(٩٢٦) متفق عليه: البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦).

(٩٢٧) رواه أحمد (٧٤٠٢) و(١٩٤٠٥).

كل ما بطن من الآثام التي مستقرها القلب ضمن أقوال في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام:١٥١]. قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] نظيره: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فقوله: ما ظهر نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، وما بطن ما عقد عليه القلب من المخالفة، وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء»(٩٢٨)

وجاء في تفسير «زاد المسير» بعد أن أورد أقوالاً للسلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]: «والرابع أنه عام في الفواحش وظاهرها علانيتها وباطنها سرها قاله قتادة، والخامس أن ما ظهر أفعال الجوارح، وما بطن اعتقاد القلوب، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع وفي تفسير قوله: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) »(٩٢٩).

ومقصودنا: التنبيه إلى الكبائر التي ينطوي عليها القلب ووجوب التوبة منها.

٩١٩- وجوب التوبة من الكبائر القلبية:

جاء في «بلغة السالك»: (و) يجب كف (القلب عن الفواحش) جمع فاحشة: كل مستقبح عظم من قول أو فعل ويحرم العزم على قبيح منهما، ثم بين بعض القبيح الذي يجب كف القلب عنه اعتناء به لما يترتب عليه من المفاسد الكثيرة دنيا وأخرى بقوله: (كالحقد) التصميم على البغضاء. (والحسد) تمني زوال نعمة المحسود قال ﷺ : (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والعشب). (والكبر): رد الحق على قائله واحتقار الناس، والتكبر: إظهار العظمة ورؤية الغير حقيراً بالنسبة له فيصير صفته العجب قال الشعراني: إن إبليس إذا ظفر من ابن آدم بإحدى أربع قال: لا أطلب منه غيرها: إعجابه بنفسه، واستكثار عمله، ونسيانه ذنوبه، وزيادة الشبع وهو أعظمها، لأن الثلاثة تنشأ عنه. (وظن السوء): فإنه من أعظم ما نهى الله عنه، وهو باب تمكن

---

(٩٢٨) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ١٣٣.

(٩٢٩) تفسير زاد المسير ج: ٣ ص: ١٤٨.

الشيطان من القلب حتى يفسده ويتعب صاحبه وينشأ عنه بغض المظنون به سوء، ويحصل بينهما خلل كثير، وربما كان بريئاً فيزداد إثم الظان وخصوصاً في مثل أهله، وليس شيء أحسن من اتباع ما أمر الله به رسوله ﷺ ورزقنا اتباعه... (و) تجب (التوبة من ذلك) المذكور»[930].

---

(٩٣٠) بلغة السالك المعروف بـ (حاشية الصاوي على الشرح الصغير) ج:٤ ص:٧٣٦ ومعلوم أن ما ذكره من فواحش القلب هو على سبيل التمثيل لا الحصر، ويمكنك الرجوع إلى كتاب « الزواجر عن اقتراف الكبائر » للهيتمي فقد أحصى عدداً كبيراً من الكبائر القلبية.

المبحث الثالث
الذنوب المقتصرة على حق الله والذنوب التي فيها ظلم العباد

٩٢٠-١- الذنوب المقتصرة على حق الله:

فمن الذنوب ما هو مقتصر على مخالفة أمر الله تعالى ونهيه من غير اشتمال الذنب على ظلم للعباد كالزنا وشرب الخمر والتفريط بالواجبات كترك الصلاة والصوم ونحو ذلك، والتوبة من هذا كله وأمثاله يكون بالإتيان بالتوبة بأركانها من الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود، وقضاء للفوائت على تفصيل للفقهاء في ذلك، وأن يفعل ذلك خشية من الله تعالى أو حياء منه وطلباً للنجاة في الآخرة.

٩٢١-٢- الذنوب التي فيها ظلم العباد:

ومنها ما يكون مشتملاً على أمرين: مخالفة الأمر والنهي الإلهي، وظلم العباد، كالقتل، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والقذف ونحو ذلك، والتوبة من هذا يلزم لها إضافة إلى ما تقدم رد مظالم العباد، وهو ما سموه بالتحلل من حقوق الغير.

ومن العلماء من جعل رد مظالم العباد واجباً متمماً للتوبة وليس ركناً فيها - في بعض الذنوب على تفصيل في ذلك سيأتي في موضعه - أي أنه واجب مستقل لابد من أدائه، ولا تبرأ الذمة إلا بأدائه، فيتوب الله تعالى عليه فيما يتعلق بحق الله حيث كان قد خرق حرمة الأمر والنهي الإلهي وتصح توبته بقدر تعلق الأمر بمخالفة أمر الله تعالى، ويبقى عليه أداء حقوق العباد، لأن حقوق العباد لا تسقطها التوبة، فإما أن يؤديها التائب في الدنيا، وإلا أخذت من حسناته في الآخرة وفاء لحقوق العباد وهذا هو الأصل، أو يعوض الله تعالى المظلوم من عنده حتى يرضيه بفضله وكرمه وإحسانه.

والآن وقد انتهينا من بيان أنواع تقسيمات الذنوب، من حيث انقسامها إلى صغائر وكبائر، وذنوب القلوب وذنوب الجوارح، وذنوب مقتصرة على حق الله وذنوب فيها ظلم العباد، يحسن بنا أن ندخل في موضوع الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها بالتفصيل، وهو موضوع الفصل الثاني القادم إن شاء الله تعالى.








الفصل الثاني

التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات

وفيه تمهيد ومبحثان:

- تمهيد: مقدمة جامعة ومختصرة في التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات.
- المبحث الأول: التوبة من فعل المحرمات.
- المبحث الثاني: التوبة من ترك الواجبات.









الفصل الثاني

التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات

٩٢٣- تمهيد وتقسيم:

التوبة من المعاصي يشمل التوبة من فعل المحرمات كبائرها وصغائرها، الباطنة منها والظاهرة، المقتصرة منها على انتهاك حرمة حق الله، والمشتملة منها على ظلم العباد، وكذلك التوبة من التفريط بالواجبات الشرعية كأركان الإسلام وما هو واجب من شعب الإيمان وكل ما ورد الأمر به على سبيل الوجوب فكلها يشملها عند التفريط بها معنى المعصية وتستلزم التوبة.

وإحصاء المعاصي جميعاً غير ممكن، وضابطها أن كل مخالفة لأحكام الإسلام عمداً هو معصية، وهذا يشمل مخالفة أحكام العقيدة، وما هو واجب من العبادات مع ترك البدع، وما هو واجب من الأخلاق مع ترك المحرم منها، وإيقاع المعاملات على النحو الذي أمر به الشرع من غير مخالفة عمداً، وارتكاب أي من جرائم الحدود أو القصاص أو التعزير(٩٣١)، وباختصار فإن المعصية هي مخالفة أي من المأمورات على سبيل الوجوبّ وفعل أي من المنهيات على سبيل التحريم.

ومقصودنا في هذا الفصل بيان التوبة من فعل المحرمات وكيفيتها، وهو ما سنخصص له المبحث الأول، وكذلك التوبة من التفريط بالواجبات الشرعية وكيفيتها وهو ما سنخصص له المبحث الثاني.

---

(٩٣١) وقد حاول الهيتمي في كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) إحصاء الكبائر فقط مستقصياً ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات والجنايات فبلغت (٥٦٧) كبيرة، وقد استخلصها مبوبة على أبواب الفقه: العبادات، والمعاملات، والجنايات.

وقبل الدخول في ذلك بالتفصيل رأينا أن من المفيد أن نقدم له بمقدمة جامعة، ومختصرة، للإمام الغزالي، مشذبة من قبلنا مع المحافظة على عبارة الغزالي، غرضنا منها استحضار فكر القارئ الكريم مع الصورة الكلية للتوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات - مع أن العلماء لهم آراء أخرى تتفق أو تختلف جزئياً عنها - تمهيداً للدخول التفصيلي في الموضوع بعد ذلك.

٩٢٤- مقدمة جامعة ومختصرة في التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات :

قال الإمام الغزالي رحمه الله[٩٣٢]: «قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم، والندم، والعزم، دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، فلا بد من بيانها.

أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي، وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار.

فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر (جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة)[٩٣٣]، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة... فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من

---

(٩٣٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٤-٣٩.

(٩٣٣) قال العراقي: «حديث جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبدالله رواه ابن أبى الدنيا في التوبة قال: جالسوا التوابين فإن رحمه الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضاً: التائب أسرع دمعاً وأرق قلباً» (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان، ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب. [قلت: والصحيح أنه يتضرر من الذنب من كلا الوجهين فإن هذه الأعمال مضرة، ومفسدتها على صاحبها وغيره ظاهرة].

وأما القصد الذي ينبعث منه هو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض وهو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت

وشرط صحتها[٩٣٤] فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة، وشهراً شهراً، ويوماً يوماً، ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها؟

---

(٩٣٤) ما ذكره الإمام الغزالي هنا على أنه (شرط) لصحة التوبة العامة محل نظر، فأكابر العلماء لا يعدون ذلك (شرطاً)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً، لأن التوبة تتضمن عزماً عاماً فعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور، فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو =

فان كان قد ترك صلاة، أو صلاها في ثوب نجس، أو صلاها في نيّة غير صحيحة لجهله بشرط النية، فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض، فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبه في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، فيقضي جميع ذلك فإن ذلك لا يجزيه أصلاً، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه العلماء.

وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً، قال ﷺ :(من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانيا)[٩٣٥]، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج.

فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها.

= حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شملته». (ابن تيمية: الفتاوى الكبرى: ج٢ ص٣٥٥ وما بعدها)، قلت: وفي كل الأحوال فذنوب الماضي التي تتضمن ظلم العباد - وهي داخلة في التوبة العامة - يجب فيها التحلل من حقوق الغير على النحو الذي فصلناه عند الكلام على أركان التوبة في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٩٣٥) سنن الدارمي (١٧١٩).

ثم ينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير وضوء [٩٣٦]، واعتقاد بدعة، وشرب خمر، وسماع ملاه، وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذاً من قوله ﷺ: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[٩٣٧]، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس

---

(٩٣٦) جاء في المغني لابن قدامة المقدسي في الفقه الحنبلي والمقارن: (١/ ٩٨) مسألة (١٩٩): « قال: ولا يمس المصحف إلا طاهر يعني طاهراً من الحدثين جميعاً. روي هذا عن ابن عمر والحسن وعطاء وطاووس والشعبي والقاسم بن محمد وهو قول مالك والشافعي وأصحاب الرأي، ولا نعلم مخالفاً لهم إلا داود فإنه أباح مسه. واحتج بأن (النبي ﷺ كتب في كتابه آية إلى قيصر.) وأباح الحكم وحماد مسه بظاهر الكف، لأن آلة المس باطن اليد، فينصرف النهي إليه دون غيره. ولنا قوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون). وفي (كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر). وهو كتاب مشهور، رواه أبو عبيد في فضائل القرآن وغيره، ورواه الأثرم، فأما الآية التي كتب بها النبي ﷺ فإنما قصد بها المراسلة، والآية في الرسالة أو كتاب فقه أو نحوه لا تمنع مسه، ولا يصير الكتاب بها مصحفا، ولا تثبت له حرمته إذا ثبت هذا فإنه لا يجوز له مسه بشيء من جسده؛ لأنه من جسده، فأشبه يده. وقولهم: إن المس إنما يختص بباطن اليد؛ ليس بصحيح؛ فإن كل شيء لاقى شيئاً فقد مسه» انتهى. وجاء في الموسوعة الفقهية (١٧/ ١٢٧): « (لا يجوز للمحدث مس المصحف كله أو بعضه عند فقهاء المذاهب الأربعة، لقوله تعالى: (لا يمسه إلا المطهرون) ولقوله ﷺ: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر) واتفقوا على جواز تلاوته لمن كان محدثاً حدثاً أصغر بغير لمس. واستثنى بعضهم من المنع مسه في حالات خاصة كما إذا كان بحائل أو عود طاهرين أو في وعائه وعلاقته، أو لمعلم ومتعلم لغرض التعليم، أو كان حمله في حال الحدث غير مقصود، كأن كان في صندوق ضمن الأمتعة، ويكون القصد حمل الأمتعة وفي داخلها قرآن. ولتفصيل كل هذه المسائل مع آراء الفقهاء راجع مصطلح (مصحف) في الموسوعة الفقهية الكويتية.

(٩٣٧) قال العراقي: «حديث اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه» (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله[٩٣٨] وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو.

فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى...

---

(٩٣٨) مسألة تقبيل المصحف تكلم فيها أهل العلم وأنها لم ترد عن السلف ولا عن النبي ﷺ بسند صحيح، ولا يصح ما روي في ذلك عن بعض الصحابة، وعليه فهو من البدع المحدثة، ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

ومن فتاوى أهل العلم في ذلك ما يأتي:

١- فتوى لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله من فتاوى مجلة الدعوة العدد (١٦٤٣) هل يجوز تقبيل القرآن؟

الجواب: لا حرج في ذلك لكن تركه أفضل لعدم الدليل، وإن قبّله فلا بأس. وقد روي عن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه كان يقبله ويقول: «هذا كلام ربي»، لكن هذا لا يحفظ عن غيره من الصحابة ولا عن النبي ﷺ، وفي روايته نظر، لكن لو قبّله من باب التعظيم والمحبة لا بأس، ولكن ترك ذلك أولى.

٢- أجابت اللجنة الدائمة للإفتاء عن سؤال وُجِّه إليها حول الموضوع بالفتوى التالية: لا نعلم لتقبيل الرجل القرآن أصلاً. وفي جواب آخر: لا نعلم دليلاً على مشروعية تقبيل القرآن الكريم وهو أُنزل لتلاوته وتدبره وتعظيمه والعمل به. فتاوى اللجنة الدائمة (رقم ٤١٧٢).

٣- وجاء في الآداب الشرعية (٢/ ٢٧٣ ط. الرسالة) لابن مفلح ما نصه: وعنه (أي جاء عن الإمام أحمد) التوقف فيه (أي في تقبيل المصحف) وفي جعله على عينيه. قال القاضي في الجامع الكبير: إنما توقف عن ذلك وإن كان فيه رفعة وإكرام لأن ما طريقه القُرَب إذا لم يكن للقياس فيه مدخل لا يُستحب فعله وإن كان فيه تعظيم إلا بتوقيف ألا ترى أن عمر لما رأى الحجر قال: لا تضر ولا تنفع ولولا أن رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتُك. اهـ. رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن تلك إحياء... والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد [قلت: ويقابله أيضاً بالدعوة إلى الإسلام وهداية الضالين وإحياء قلوبهم بنور الإيمان فقد سمى القرآن هذا إحياء، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]]، وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة.

ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد: إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض.

أما النفوس: فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويُحكِّمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء.

وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن أمر هذه إلى الوالي حتى [إذا] أقام عليه الحد، وقع موقعه. وتكون توبته [مع الاستتار بستر الله تعالى وعدم الإقرار لدى ولي الأمر بقصد إقامة الحد] صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فرده الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين:

فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته، فقال رسول الله ﷺ : (لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم)[٩٣٩]، وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني، فردها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ما عزاً، فوالله إني لحبلى، فقال ﷺ : أما الآن فاذهبي حتى تضعي، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال، مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت)[٩٤٠].

وأما القصاص وحد القذف فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه[٩٤١].

---

(٩٣٩) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله: لقد تاب توبة الحديث أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

(٩٤٠) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله ﷺ لقد تابت توبة الحديث أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

(٩٤١) عبارة الإمام الغزالي: «فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه» تثير التباساً إذا فهمت على أنه يقصد أن على القاذف أن يتحلل ممن قذفه وجوباً، لأنه في الغالب يترتب عليه مفاسد كثيرة كالقتل والقطيعة وخراب البيوت وغير ذلك، وإنما يقصد الغزالي - على ما أفهم من عبارته - : أن ذمة القاذف لا تبرأ إلا بأن يحلله المقذوف لأنه صاحب الحق أو صاحب المظلمة، وبدون هذا التحليل من المقذوف للقاذف تبقى المظلمة مطالباً بها القاذف في الآخرة، وهذا شأن (التحليل) الذي يختص به المظلوم، أما (الاستحلال) الذي يختص به صاحب الجناية، ومتى يكون هذا الاستحلال جائزاً ومتى لا يكون، فله حكم آخر عند الغزالي، حيث قال بعد عبارته تلك بقليل كلاماً آخر يتعلق بالاستحلال، قال: «فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته، أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد أنسد عليه طريق الاستحلال، فليس له أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة، فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب، وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها». أما تفصيل أحكام الاستحلال في القذف والسب والشتم والغيبة ونحوها وبيان أقوال العلماء فيها فقد قدم ابن القيم رحمه الله تحقيقاً قيماً بشأنها خلص =

وإن كان المتناوَل مالاً تناوله: بغصب، أو خيانة، أو غُبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره.

فهذا طريق كل تائب في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريباً، فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات.

هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة: فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً، وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار، كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام [٩٤٢].

= منه - بعد ذكر أقوال العلماء - إلى أن الصواب عدم الاستحلال في كل ما من شأنه أن يثير العداوة والبغضاء والمفسدة المحضة، (انظر: تحقيق ابن القيم لهذه المسألة في الفقرة ٩٩٢ من هذا الكتاب).

(٩٤٢) يراجع في هذا كتاب الحلال والحرام ضمن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة: فيطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم، ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدية عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادَّخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يُحمِّله من سيئاته.

فإن كان في جملة جنايته على الغير: ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته، أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به، [أي يعظم أذاه لو أخبره ولذلك لا ينبغي أن يخبره قاصداً الاستحلال] فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له أن يستحل منها[٩٤٣]، ثم تبقى له مظلمة، فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها.

ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه، فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين، وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله

---

(٩٤٣) في الأصل: (فليس له أن لا يستحل منها) وهو خطأ كما يدل عليه السياق، والصواب ما أثبتناه.

فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة(٩٤٤)، فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات.

هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال: فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جازماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال(٩٤٥) فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه.

---

(٩٤٤) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد وفي رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها، وفي رواية فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء بموضع الاقتباس نفسه).

(٩٤٥) واضح أن الغزالي هنا يتكلم عن توبة شاملة عن ذنوب العمر كله ونحن قد قسمنا - في فصل سابق - التوبة من حيث شمولها للذنوب إلى: التوبة من ذنب معين، والتوبة الشاملة عن ذنوب العمر كله. وقول الغزالي بشأن ما يعين على التوبة واستمرارها: «ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت، وقلة الأكل والنوم...» هو قول محل تفصيل: فإن بعض ذلك نافع في تصفية القلب لما فيه من عدم التعلق بالدنيا وملاذها، ولما فيه من النشاط =

فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه، ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات، وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها، وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة... ».

وبعد هذا العرض الشامل والمختصر الذي قدمه الإمام الغزالي والذي رأيناه صالحاً لأن يكون تمهيداً ومدخلاً ضرورياً، ندخل في التفاصيل الأعمق مبينين أقوال العلماء والمذاهب الفقهية، وسنتناول ذلك في مبحثين رئيسين: نخصص المبحث الأول: للتوبة من فعل المحرمات، ونتناول في المبحث الثاني : التوبة من التفريط بالواجبات، وما يلزم التائب في كل منهما.

= والقوة على الطاعة، ولكن الزيادة في ذلك مضرة بالعقل والقلب والبدن. كما أن تعليق حصول التوبة وتحققها على ذلك هو محل نظر أيضاً، وفي كل الأحوال فإن الاقتداء بأحوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان في توباتهم هو الصواب الذي تتحقق به التوبة المطلوبة شرعاً.

المبحث الأول
التوبة من فعل المحرمات

وفيه إحدى وعشرون فقرة:

- إحداها: التوبة من الكفر.
- الثانية: توبة المسلم من الكفر هازلاً أو غاضباً.
- الثالثة: توبة الداعي إلى الكفر وإلى البدعة.
- الرابعة: التوبة من فواحش القلب الباطنة (الكبائر القلبية).
- الخامسة: التوبة من النفاق.
- السادسة: التوبة من معصية العصر الكبرى (العلمانية).
- السابعة: التوبة من الرياء.
- الثامنة: توبة النساء من التبرج وإبداء الزينة المحرمة والتسبب في الفتنة.
- التاسعة: التوبة من الزنا.
- العاشرة: التوبة من اللواط.
- الحادية عشرة: التوبة من المساحقة.
- الثانية عشرة: التوبة من القتل.
- الثالثة عشرة: توبة من تكررت ردته.
- الرابعة عشرة: التوبة من القذف.
- الخامسة عشرة: التوبة من السرقة.
- السادسة عشرة: التوبة من شهادة الزور.
- السابعة عشرة: التوبة من التولي في الزحف.
- الثامنة عشرة: توبة من غصب أموالاً وتعذر ردها إلى أصحابها أو ورثتهم.
- التاسعة عشرة: توبة من قبض مالاً أجرة على محرم كالزانية، أو قيمة محرم كالخمر.
- العشرون: التائب من الغصب وقد تعذر عليه رد المال إلى صاحبه أو ورثته، ما حكم نمائه ومن له حق مطالبته في القيامة؟.
- الحادية والعشرون: خاتمة في الاستحلال.

٩٢٥- تمهيد وتقسيم:

قد علمت أن المحرمات منها هو مقتصر على انتهاك حرمة حق الله كالزنا والشرب والنظر واللمس ونحوها، والتوبة من هذا تكون: بالندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود إليها، خوفاً من عقاب الله أو حياء منه، ومنها ما يشتمل على ظلم العباد أيضاً في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم أو قلوبهم، وهذا يستلزم فوق ما ذكرناه التحلل من حقوق الغير برد المظلمة أو الاستحلال منها على خلاف بين العلماء في رد المظالم والاستحلال هل هو شرط في صحة التوبة أم هو من تمامها وليس شرطاً فيها، أي أنه واجب مستقل، فتصح التوبة بدونه ولكن لا تبرأ ذمة التائب من هذه المظلمة، فيأخذها المظلوم من حسنات ظالمه يوم القيامة، أو يعوض الله تعالى المظلوم من عنده إن شاء.

وقد رأينا أن طريقة البحث في هذا الموضوع لا ينبغي أن يقصد بها استعراض أكبر عدد من المحرمات وبيان كيفية التوبة منها، لأن المنهيات معروفة ومشتهرة في دار الإسلام لأنها دار شيوع الأحكام الشرعية ولذلك لا يعذر الجاهل بها، قال العلماء: الجهل بالأحكام الشرعية في دار الإسلام ليس بعذر، ومثل هذا الاستقصاء يخرج عن قصدنا في موضوع التوبة وكيفيتها، بل ينبغي أن يكون البحث في هذا الموضوع يتحرى فيه الاقتصار على ما فيه إجابة على ما تكثر أسئلة الناس بشأن التوبة منه، من خلال نقل أقوال العلماء والمذاهب الفقهية، أو ما فيه تحذير لهم مما هو من قبيل الكبائر ولا يعرفون أنها كبائر، ومن ذنوب فشت في الناس وعمت بها البلوى فتحتاج إلى إلقاء مزيد من الضوء عليها بقصد التحذير منها وتجنبها والتوبة منها، وبعضها ذنوب حديثة تساهل الناس فيها كاستمراء الحكم بغير ما أنزل الله وعزل الشريعة الإسلامية عن الحكم، أو التساهل في موالاة الكافرين ونحو ذلك.

وهذا المقصد يتحقق إذا استعرضنا عدداً من المحرمات التي تحقق المقاصد التي ذكرناها مبينين أحكامها وكيفية التوبة منها وما إذا كانت هنالك بعض الشروط الإضافية لصحة التوبة منها أو لتمامها، ومذكرين بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية بشأنها، وقد جعلنا ذلك في إحدى وعشرين فقرة على النحو الآتي:

٩٢٦- أولاً - التوبة من الكفر:

توبة الكافر إسلامه بأن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً ﷺ رسول الله صادقاً من قلبه ثم يكون عليه من الواجبات ما على المسلمين من أركان الإسلام وشعب الإيمان،

والالتزام بالحلال والحرام على نحو ما شرع الإسلام، وقد أجمع العلماء أنه ليس على الكافر الأصلي إذا تاب أن يقضي ما فاته من الفرائض منذ بلوغه حتى إسلامه مهما طال الزمن لقوله ﷺ : (الإسلام يجب ما كان قبله)[٩٤٦]، وقد دعا القرآن الكريم الكافرين للإسلام ووعدهم بالتوبة عليهم من الكفر الذي كانوا عليه مهما كان قد صدر منهم من عمل حال كفرهم، إذا انتهوا عنها حال إسلامهم، قال تعالى في سياق مخاطبة الكافرين: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

٩٢٧- ثانياً - توبة المسلم من الكفر هازلاً أو غاضباً:

من كفر من المسلمين هازلاً اعتبر مرتداً وتجري عليه أحكام المرتد إلا أن يتوب ويجدد إسلامه لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وكذا يكون كافراً من استهزأ بالرسول ﷺ أو بالقرآن، ومعلوم أنه إذا كفر عامداً غير هازل فيكون مرتداً من باب أولى وكتب الفقه قد بينت أحكام المرتد بالتفصيل، وكذا إذا فعل ذلك غاضباً ففي كل هذه الأحوال لا يكون هزله أو غضبه عذراً لدفع صفة الردة عنه ما دام أنه عاقل بالغ مختار.

وتكون توبته بتجديد إسلامه مع الندم والإقلاع والعزم على أن لا يعود، وسواء كان هازلاً أو عامداً أو غاضباً فالراجح من أقوال العلماء عندنا أنه يستتاب فإن فلم يتب أجري عليه حد الردة وهو القتل فيموت كافراً غير تائب فإن تاب قبلت توبته باطناً وظاهراً على رأي فريق من الفقهاء وخلي سبيله مع عقوبة تعزيرية، وقال آخرون لا يستتاب وإنما يلزمه الحد بكل حال فإن تاب توبة نصوحاً فإنما تصح توبته باطناً أي بينه وبين الله تعالى وتكون مقبولة عند الله تعالى ولكنها لا تقبل لدفع الحد عنه، وفي كل الأحوال السابقة التي تصح فيها توبته باطناً وظاهراً إذا تاب يجوز لولي الأمر أن يعاقبه بعقوبة تعزيرية وجيعة ورادعة حتى مع توبته[٩٤٧].

---

(٩٤٦) أخرجه أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و(١٧١٥٩).

(٩٤٧) انظر تفاصيل أحكام الردة في باب الردة في كتب الفقه وكذلك في كتاب الصارم المسلول لابن تيمية فقد أولى هذا الموضوع عناية خاصة.

٩٢٨- ثالثاً - توبة الداعي إلى الكفر وإلى البدعة

٩٢٩-١- الداعي إلى الكفر أشد من الكافر:

الداعي إلى الكفر أشد من الكافر من غير دعوة إلى الكفر، ولذلك كانت أحكام ردته عن الإسلام يشملها ما قلناه من الأحكام الشرعية في الفقرة السابقة من حيث استحقاقه عقوبة الردة، ومن حيث صحة توبته باطناً وظاهراً فيسقط عنه الحد، أو باطناً فقط فلا يسقط عنه الحد.

٩٣٠-٢- حكم توبة من دعا إلى الكفر والبدعة وأضل كثيراً من الناس ثم تاب:

ولكن الكلام في هذه الفقرة يتعلق بتوبته الباطنة بينه وبين الله تعالى هل تقبل وقد دعا إلى الكفر وأضل كثيراً من الخلق، ومثل ذلك صاحب البدعة الذي دعا إلى بدعته وأضل بها قوماً كثيرين هل تقبل توبته؟ وما حكم الذين أضلهم؟ وكيف تصح توبته وهو غير قادر على إصلاح ما أفسد؟ فهذه المعاني ونحوها هي الموجبة لبيان حكم توبة من دعا إلى كفر أو إلى بدعة.

والحقيقة أن تحقيق هذه المسألة وبيان حكمها مهم جداً مع ما حدث في العالم الإسلامي لناس كثيرين من تبني غير الإسلام عقيدة ومنهجاً للحياة والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله كما هو حال من وقع ضحية للشيوعية أو العلمانية وغيرهما من المبادئ الوافدة من دار الكفر إلى دار الإسلام وشيوعها في ديار المسلمين، فصار من هؤلاء دعاة إلى الكفر أضلوا به خلقاً كثيراً من أنصاف المثقفين والمثقفات وفتنوهم عن دينهم، ودعاة إلى بدع تنقض الإيمان أضلوا بها خلقا كثيرا ممن سيقول لهم المفتونون يوم القيامة: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:٣١] فيجيبونهم: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢] ويقول المفتونون: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١] فيجيبونهم: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١]. فما حكم هؤلاء الداعين إلى الكفر وإلى البدع الناقضة للإيمان إذا عادت عقولهم إلى رؤوسهم في الدنيا فصاروا يعقلون، واستمعوا إلى هدي القرآن فصاروا يسمعون، وشاء الله أن ينجيهم من أن يكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

[الملك: ١٠] بأن يهديهم في الدنيا بعد الضلال، ويحي قلوبهم بعد الموات، ويزيل عن قلوبهم العمى، وعن أسماعهم الوقر، وعن أبصارهم الغشاوة، من قبل أن يأتي أحدهم الموت فينظر إلى أيامه الماضية فيرى نفسه قد أفنى العمر في ضلال يخدمه، وباطل مزين يلهث وراءه، وعمل حابط كان مفتوناً به يصارع به أهل الهدى والحق ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١] هذا، مع من أضلهم من الخلق بالدعوة إلى كفره أو بدعته، وهل تصح توبة هؤلاء وهم لا يقدرون على إصلاح ما أفسدوه وإنقاذ من فتنوه وهداية من أضلوه؟؟.

٩٣١-٣- تحرير ابن تيمية لمسألة من دعا إلى كفر أو بدعة وأضل الناس ثم تاب:

لقد حرر هذا الموضع شيخ الإسلام ابن تيمية ونحن ننقل تحريره للمسألة - مشذباً - مع المحافظة على عبارته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة، الكفر والشرك وغيرهما يغفرها لمن تاب منها، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى، بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة، و هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً [يعني: قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وفيها رد على طوائف ورد على من يقول إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته ويحتجون بحديث إسرائيلي فيه: أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك كأبي علي الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعة وما يحتج به وما لا يحتج به بل يروون كل ما في الباب محتجين، وقد حكى هذا طائفة قولا في مذهب أحمد أو رواية عنه، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر، وتوبة من فتن الناس عن دينهم. وقد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل، وكانوا من أحسن الناس إسلاماً وغفر الله لهم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم: (يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله)[٩٤٨]، وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء:٥٧] قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم، ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم وإن كانوا هم أضلوهم أولاً.

وأيضا فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا واتبعه، وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم، وأما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد.

ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه، من الدعاء إلى الهدى[٩٤٩]، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنة، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير»[٩٥٠].

٩٣٢- رابعاً - التوبة من فواحش القلب الباطنة (الكبائر القلبية):

أما كبائر الباطن - بعد الكفر والشرك - فيجب على المكلف معرفتها ليعالج إزالتها ويتوب منها لأن من كان في قلبه مرض منها لم يلق الله - والعياذ بالله - بقلب سليم. فمن تلك الكبائر: النفاق، والكبر والفخر والخيلاء، والحسد، والغل والحقد، والغضب لغير الله والغيظ لغير الله، والرياء، والبخل، والإعراض عن الحق، ونحوها.

---

(٩٤٨) أخرجه أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و١٧١٥٩).

(٩٤٩) وهذا من مكملات توبتهم وحسنها وليس شرطاً فيها فإن العمل بضد ما سبق من المعصية هو من كمالها، وهو من العمل الصالح الذي يرفع صاحبه درجات ويكون أرجى لقبول توبته وتكفير ذنبه.

(٩٥٠) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٣-٢٥.

٩٣٣-١- فواحش القلب الباطنة أسوأ أثراً على صاحبها وأكثر بقاء وأصعب توبة:

وهذه الكبائر وأمثالها يذم العبد عليها أعظم مما يذم على الزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من كبائر البدن، وذلك لعظم مفسدتها، وسوء أثرها، ودوامه، فإن آثار هذه الكبائر تدوم بحيث تصير حالاً وهيئة راسخة في القلب فتفسده وتهلك صاحبه، ولا يتذكر ضرورة التوبة منها، بخلاف آثار معاصي الجوارح أي الكبائر الظاهرة فإنها سريعة الزوال، تزول بالتوبة الصادقة والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. قال ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[٩٥١]، والقلب ملك الأعضاء وهي جنوده وتابعة له، فإذا فسد الملك فسدت الجنود كلها، فمن أعطي قلباً سليماً من هذه الأمراض فليحمد الله تعالى، ومن وجد في قلبه مرضاً من هذه الأمراض وجب عليه أن يعالجه حتى يزول، فإن لم يعالجه أثم ببقاء هذه الأمراض في قلبه بصورة دائمة من غير أن يعالجها ويتوب منها مع أنها من الكبائر.

وما ذكرناه من الكبائر القلبية التي تفسد القلب كلها داخلة في أصل كبير هو (سوء الخلق) ومكان دراسة كيفية معالجتها والإتيان بأضدادها من الخصال الخلقية التي يجمعها (حسن الخلق) هو علم الأخلاق[٩٥٢].

والتوبة من الكبائر القلبية التي ذكرناها وأمثالها أكثر صعوبة من التوبة من الكبائر الظاهرة كالزنا والسرقة ونحوها.

٩٣٤-٢- سر الفرق بين الكبائر القلبية وكبائر الجوارح:

وسر الفرق بينهما في التوبة هو في ركن (الإقلاع عن الزلة في الحال) بوصفه واحداً من أركان التوبة، فقد علمت أن أركانها: الندم، والإقلاع عن الزلة في الحال، والعزم على أن

---

(٩٥١) متفق عليه: البخاري (٥٠) ومسلم (٢٩٩٦).

(٩٥٢) وللغزالي رحمه الله باع طويل في كيفية معالجتها في كتابه «إحياء علوم الدين» عند الكلام عليها في ربع المهلكات وربع المنجيات من كتابه المذكور، ولابن القيم رحمه الله عناية خاصة بها أيضا في كتابه «مدارج السالكين» وغيره، وقد اعتنى بمعالجتها أيضاً من المحدثين فضيلة شيخنا العلامة الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه «أصول الدعوة» وكتابه «المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة» وكتبنا عنها مبحثاً في كتابنا «النظم الإسلامية» ضمن النظام الأخلاقي الإسلامي تحت عنوان وسائل اكتساب الأخلاق وتقويمها، فليرجع إلى هذه المصادر ونحوها.

لا يعود إليها في الاستقبال، خوفاً من الله تعالى أو حياء منه. ففي الكبائر الظاهرة كالزنا والسرقة، عندما يتوب المذنب نادماً على ما فعل يكون الذنب قد انقضى أصلاً فلا يبقى متلبساً به، وبذلك يتحقق ركن الإقلاع عن الزلة في الحال إذا تاب منها، إلا في الذنوب التي يكون متلبساً بها ويمكنه التوقف حالاً عن استمرار التلبس بها كالربا بأن يتوقف عنه حالاً أو تبرج النساء بأن تتوقف المرأة عنه حالاً وتتوب إلى الله فيتحقق ركن (الإقلاع عن الزلة في الحال)، أما في حالة الكبائر القلبية: كالكبر، والعجب بالنفس، والنفاق، والرياء، والحسد، ونحوها فإنها خصال خلقية وليست أفعالاً عارضة، والخصال الخلقية المذمومة منها والمحمودة هي نفسها التي يصطلح عليها بـ (الأخلاق) وهي تعرف بأنها: (هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال في سهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية)[٩٥٣] أي أنها صفات في القلب راسخة وهي منبع للأفعال تصدر عنها الأفعال في صورة طبع وسجية، فمن كان طبعه الكبر صدرت منه أفعال المستكبرين، أو كان قلبه يتصف بصفة النفاق، صدرت عنه أفعال النفاق المعروفة والمسماة بشعب النفاق، وعرف بعض العلماء الأخلاق أيضاً بأنها: «مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس وفي ضوئها وميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح، ومن ثم يقدم عليه أو يحجم عنه»[٩٥٤].

٩٣٥-٣- كيفية إخلاء القلب من الكبائر القلبية:

فإذا كانت الكبائر القلبية هي عبارة عن صفات للقلب مذمومة أو (هيئة في النفس راسخة) حسب تعريف الغزالي أو كانت (مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس) فإن إزالتها من القلب أو من النفس لا تتحقق بمجرد الرغبة في إزالتها أو العزم المؤكد على ذلك، وإن كانت هذه الرغبة وذلك العزم هو أول خطوات العلاج، وإنما تحتاج إلى معالجات لها بأضدادها ومراغمة الشيطان وتحتاج إلى وقت وصبر ومجاهدة حتى تزول ويتأكد المبتلى بها من زوالها واجتثاثها من قلبه وإخلاء القلب منها وغرس الخصال الإيمانية والأخلاق القرآنية والنبوية بدلاً عنها في القلب[٩٥٥].

---

(٩٥٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٣ ص:٤٦.
(٩٥٤) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص: ٧٩.
(٩٥٥) لمعرفة تفاصيل كيفية إخلاء القلب من الكبائر القلبية يراجع للمؤلف كتاب (النظم الإسلامية) مبحث: وسائل اكتساب الأخلاق وتقويمها.

وعندما يتم إخلاء القلب من الكبيرة من تلك الكبائر كالكبر أو النفاق أو الرياء أو الحسد وغيرها من الكبائر القلبية فعندئذ يكون قد تحقق ركن (الإقلاع) لأن الإقلاع عن الذنب أو الزلة أو الكبيرة في الحال لا يتحقق وهو متلبس بها وإن كان نادماً عليها لأن الندم وحده لا يكفي مالم يتحقق الإقلاع عن التلبس بها، والإقلاع عن الذنب والتلبس به نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون مقلعاً عن الذنب متلبسا به.

فعلى كل مسلم ومؤمن أن يشتغل بإصلاح قلبه وسلامته لأن النجاة بالقلب السليم مع العمل الصالح ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

٩٣٦-٤- ما تجره الكبائر القلبية على صاحبها من الخسران:

فأي خير يبقى للإنسان إذا كان الكبر قد ذهب بمحبة الله تعالى له ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وتسبب في صرف الله له عن آياته ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وإذا كانت ذرة منه تحرمه الجنة لقوله ﷺ: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر)[٩٥٦] وإذا كان بكبريائه ينازع الله جبار السماوات، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار)[٩٥٧]، وإذا كان الكبر الذي منع إبليس من تنفيذ الأمر الإلهي بالسجود لآدم ﵇ قد تسبب في إهباطه من سماواته إلى أرضه وطرده طرد الأبد ولعنه لعن الأبد، فإذا كان هذا شأن الكبر وهو من الكبائر القلبية فكم يكون حرياً بالمسلم والمؤمن أن يشتغل بإزالته من قلبه والتأكد من زواله والتوبة منه.

ومن أكبر أنواع الكبر الاستكبار على شريعة الإسلام بدعوى أنها قديمة ورجعية!! - سفهاً بغير علم - واتباع المناهج الأرضية والسبل المختلفة خلافاً للأمر والنهي الإلهي الوارد بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(٩٥٦) رواه مسلم (١٣١)، (١٣٣)، وأبو داود (٣٥٦٨) بلفظ مثقال حبة من خردل، وابن ماجة (٥٨) و٤١٦٣)، وأحمد (٣٧١٨).

(٩٥٧) مسلم (٤٧٥٢) وأبو داود (٣٥٦٧) واللفظ له، وابن ماجة (٤١٦٤) وأحمد (٧٠٧٨).

ولو استعرضنا النصوص القرآنية والنبوية في كل كبيرة من كبائر القلب التي يجمعها وغيرها من ذنوب القلب مصطلح (سوء الخلق) لوجدناها تنسب صاحبها إما إلى الشرك أو إلى النفاق.

ولذلك جاء في السنة النبوية: (إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم)[٩٥٨]، وأخرج الترمذي: (خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق)[٩٥٩]. والخطيب: (سوء الخلق شؤم)[٩٦٠]، وأيضاً: (إن لكل ذنب توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا وقع فيما هو شر منه) »[٩٦١].

وهذا لأن سوء الخلق أصل للأعمال المحرمة الناتجة عنه وهي فروع له فإذا تاب من الفرع والأصل باق وقع في ذنوب أخرى لأن القلب مغرس الفواحش ومنبع الطاعات. ولذلك كان سوء الخلق شؤماً على صاحبه في الدنيا والآخرة، قال ﷺ : (الشؤم سوء الخلق)[٩٦٢]، ثم انظر إلى أثر خصلة واحدة من خصال سوء الخلق وهي البغضاء حيث قال ﷺ : (والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)[٩٦٣]، ومثل ذلك قوله ﷺ : (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[٩٦٤].

٩٣٧-٥- البديل المنجي: حسن الخلق:

أما حسن الخلق فإن مما يتحصل من النصوص النبوية بشأن حسن الخلق وبشأن صاحبه قوله ﷺ : (ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة)، وأن صاحبه يدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم ودرجات الآخرة وشرف المنازل، وإن حسن الخلق يذيب الخطيئة

---

(٩٥٨) قال العراقي: حديث إن العبد ليبلغ من سوء خلقه درك جهنم، أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد. (انظر: تخريج العراقي لأحاديث «الإحياء» ٣/ ٥٢).

(٩٥٩) أخرجه الترمذي: (١٨٨٥) وقال: حديث غريب. وأورده البخاري في الأدب المفرد (٢٨٢).

(٩٦٠) سنن أبي داود (٤٤٩٤) و(٤٤٩٥) ومسند أحمد (١٥٤٤٩).

(٩٦١) المعجم الصغير (٥٥٣)، والترغيب والترهيب (٤٠٣٩)، وكشف الخفاء (١٤٩٨) وقال: إسناده ضعيف.

(٩٦٢) أخرجه أحمد (٢٣٤٠٨).

(٩٦٣) أحمد (١٣٥٥) و(١٣٣٨)، و مالك (١٤٠٥).

(٩٦٤) المنذري: الترغيب والترهيب ج:١ ص:٤٢.

كما تذيب الشمس الجليد، وإنه يُمن، وإن أقرب الناس منه ﷺ مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً، وإن أحسن الخلق خلق رسول الله ﷺ، وإن أفضل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، وإنه أفضل الأعمال وأثقل ما وضع في الميزان يوم القيامة. وقال ﷺ في تعريفه لحسن الخلق: «هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك) »[٩٦٥] وهذا تعريف للشيء بعلاماته وبعض شعبه، كما عرف النفاق بعلاماته الثلاث أو الأربع وسمى كل واحدة منها خصلة أو شعبة من النفاق، ولأن تلك الشعب والعلامات التي هي من علامات وشعب حسن الخلق دالة على ما وراءها من قلب قد رسخ فيه الإيمان وأقبل على الرحمن وأعرض عن خصومات أهل الدنيا وصار همه الآخرة وتلك العلامات والشعب التي ذكرها النبي ﷺ هي أقوى ما يدل على ذلك. وقالت عائشة رضي الله عنها في خلق النبي ﷺ: (كان خلقه ﷺ القرآن)[٩٦٦].

٩٣٨- خامساً - التوبة من النفاق:

وقد أفردناه بالذكر لخطره وأهميته وشيوعه على الرغم من أنه مشمول بما ذكرناه في الفقرة السابقة من التوبة من الكبائر الباطنة.

٩٣٩- النفاق من فواحش القلب:

والنفاق من الكبائر التي أطلق عليها بعض العلماء: فواحش القلب لأن الفاحشة اسم لما كبر من الذنوب وتجاوز الحد في كبره فسمي فاحشاً، وهذا من حيث عموم المعنى اللغوي والشرعي لكلمة الفاحشة، ولكنها اختصت بالزنا في الاستعمال وصارت مصطلحاً عليه.

قال ابن القيم: «وأما الفحشاء والمنكر فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة وهي الفعلة الفحشاء والخصلة الفحشاء وهي ما ظهر قبحها لكل أحد واستفحشه كل ذي عقل سليم ولهذا فسرت بالزنا واللواط وسماها الله فاحشة لتناهي قبحها وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح والقذف ونحوه»[٩٦٧].

---

(٩٦٥) انظر هذه المعاني وغيرها بشأن حسن الخلق في كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» للهيتمي.

(٩٦٦) أخرجه أحمد (٢٣٤٦٠) و(٢٤١٣٩) و٢٤٦٢٩).

(٩٦٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٧١.

٩٤٠- النفاق نفاقان: نفاق هو كفر، ونفاق دونه:

والنفاق نفاقان: نفاق كفر وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر وصاحبه ملحق بالكافرين في أحكام الآخرة، والنوع الثاني: النفاق ذو الشعب الثلاث أو الأربع التي تدل عليه كما قال ﷺ: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[٩٦٨] وقوله ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[٩٦٩].

٩٤١- علامات النفاق كثيرة:

وليس معنى ذلك أن تلك الشعب التي تدل على النفاق مذكورة في الحديث الشريف على سبيل الحصر وإنما هي تعريف للشيء ببعض علاماته التي تدل عليه، وقد جاء في صحيح مسلم: (من علامات المنافق ثلاثة...)[٩٧٠]، ولأننا نعلم يقيناً أن هنالك علامات وشعباً أخرى في القرآن الكريم والسنة النبوية هي من شعب النفاق وخصاله وعلاماته كقوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٤٠]، وقوله ﷺ: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه مات على شعبة من نفاق)[٩٧١]، ومثل هذا في القرآن الكريم والسنة النبوية كثير.

ولذلك وجب على المسلم أن يعرف تلك العلامات والشعب جميعاً وعلى سبيل الاستقصاء من القرآن والسنة لكي يتجنبها ويتوب منها إذا وجدت فيه، وبعضها خفي يحتاج إلى محاولة لاكتشافه في النفس للتوبة منه وتجنبه.

---

(٩٦٨) متفق عليه: البخاري (٣٢) و(٢٤٨٥)، ٥٦٣٠)، مسلم (٨٩).

(٩٦٩) متفق عليه: البخاري (٣٣)، (٢٩٤٢)، مسلم (٨٨).

(٩٧٠) رواه مسلم (٩٠).

(٩٧١) أخرجه مسلم: (١٩١٠).

٩٤٢- استقصاء ابن القيم لعلامات النفاق وحالاته وأفعال أصحابه:

من أجل ذلك استقصى العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله علامات النفاق وأحوال أهله وقدمها بأسلوب بديع، وصياغة رصينة ومؤثرة، وبعبارة مشرقة، هي من أحاسن الكلام، نقدمها فيما يلي - مشذبة - مع المحافظة على عبارة ابن القيم.

٩٤٣- أ- النفاق داء عضال كثيرا ما يخفى على صاحبه:

قال ابن القيم رحمه الله[٩٧٢] : «وأما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

٩٤٠- ب - وهو نوعان: أكبر وأصغر

فالأكبر: يوجب الخلود في النار، في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه.

٩٤١- ج - القرآن وصف أهل النفاق وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم:

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم، ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها، وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها.

(٩٧٢) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص: ٣٤٧ وما بعدها.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٢]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون، ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً، خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور، وإن كان لا بد فعلى سبيل الاجتياز.

أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا - لما حلت بساحتهم - مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين، وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين أجهل لكنها أسلم!!...

لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]. من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق، ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلها واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشراً واستكباراً، فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفئ ذلك النور وبقيت نارا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨].

صاب عليهم صيب الوحي وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وضعت عليهم في المساء والصباح، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وجدوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رؤوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين، فقيل ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي وعوده وعيده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع ولا يهتدي ببصره البصير ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يعرفون بها، مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم والله الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين تيعر(٩٧٣)، إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين ينظرون: أيهم أقوى وأعز قبيلاً

---

(٩٧٣) اليُعارُ، كغُرابٍ: صَوْتُ الغَنَم أو المِعْزَى، أو الشديدُ من أصْواتِ الشَّاءِ، يَعَرَتْ تَيْعِرُ وتَيْعَرُ، كيَضْرِبُ ويَمْنَعُ، يُعاراً... (انظر: القاموس المحيط الجزء: ١ الصفحة: ٤٣٩٩).

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم؟ وأن النسب بيننا قريب، فيا من يريد معرفتهم: خذ صفتهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه[٩٧٤]، فتراه عند الحق نائماً، وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليتجنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

---

(٩٧٤) المين - بفتح الميم وسكون الياء -: الكذب. (انظر: النهاية في غريب الأثر: ٤/ ٣٨٣).

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنّة رسوله رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

فكيف لهم بالفلاح والهدى بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً؟ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم فلا يجدون له مسيغاً، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء:٦٣].

تباً لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان؟ وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان؟ فالقوم في شأن وأتباع الرسول في شأن، لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً، يعرف مضمونه أولو البصائر فقلوبهم منه على حذر إجلالاً له وتعظيماً، فقال تعالى تحذيراً لأوليائه وتنبيهاً على حال هؤلاء وتفهيماً، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢].

تباً لهم برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان فلما رأوا طول الطريق وبعد الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم فما متعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا،... فكيف حالهم عند اللقاء وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا

بعد ما عاينوا الحق وأبصروا، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣].

أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً، وألطفهم بياناً، وأخبثهم قلوباً، وأضعفهم جناناً، فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها لئلا يطأها السالكون، ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شرق الموتى، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب، ولا يشهدون الجماعة بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، هذه معاملتهم للخلق وتلك معاملتهم للخالق، فخذ وصفهم من أول المطففين وآخر والسماء والطارق فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٥]، فما أكثرهم وهم الأقلون، وما أجبرهم وهم الأذلون، وما أجهلهم وهم المتعالمون، وما أغرهم بالله إذ هم بعظمته جاهلون، ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦].

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم... ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠-٥١]، وقال تعالى... ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كره الله طاعاتهم لخبث قلوبهم وفساد نياتهم فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره لميلهم إلى أعدائه فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها، ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر وبينها لهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه فهي في وجهه كالبنيان المرصوص فباعها بمحصل من الكلام الباطل... فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦-٢٨].

أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم وفلتات اللسان، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد، كيف والناقد البصير قد كشفها لكم: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٩-٣٠].

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله جل جلاله للعباد وقد كشف عن ساق، ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون، ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم وهو أدق من الشعرة وأحد من الحسام وهو دحض مزلة مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام، فقسمت بين الناس الأنوار وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب وأعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة ينادون مَنْ تقدمهم من وفد الإيمان ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم تبدو لناظر الإنسان: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور فقد طفئت أنوارنا ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور، ﴿ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾ [الحديد:١٣] حيث قسمت الأنوار، فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار، كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق، فهل يلوي اليوم أحد على أحد في هذا الطريق، وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق، فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار: ﴿ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ ﴾ [الحديد: ١٤] نصوم كما تصومون ونصلي كما تصلون ونقرأ كما تقرؤون ونتصدق كما تصدقون ونحج كما تحجون فما الذي فرق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الحديد: ١٤] ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد وكل ظلوم كفور ﴿ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٤-١٥].

لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش

والسباع في الفلوات، سمع حذيفة ﷺ رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين، فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك.

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: يا حذيفة نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله منهم؟ قال: لا ولا أزكي بعدك أحداً، وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ذكره البخاري، وذكر عن الحسن البصري: ما أمنه إلا منافق وما خافه إلا مؤمن، ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال أن يرى البدن خاشعا والقلب ليس بخاشع .

تالله لقد ملئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء، ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربع استحكم نبات النفاق وبنيانه، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار، فإذا شاهدوا سيل الحقائق ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وكشف المستور و ﴿ بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ٩-١٠] تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم وكانت آذانهم واعية.

فهذه والله أمارات النفاق فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية.

إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دعوا إلى الطاعة وقفوا، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٦١] صدفوا، وإذا

دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان والخزي والخسران، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلى وعودهم، فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون، ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

وشرط في توبة المنافق الإخلاص لأن ذنبه بالرياء فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦] ».

٩٤٢- سادساً - التوبة من معصية العصر الكبرى (العلمانية):

من أجل معرفة أن العلمانية هي من أكبر الكبائر التي قد يقع فيها المسلم، وأنها ذنب عظيم يجعل صاحبه واقعاً في النفاق بنوعيه الأكبر والأصغر اللذين فصلهما العلامة ابن القيم أحسن تفصيل وأدقه في الفقرة السابقة عند الكلام على التوبة من النفاق أخذاً من القرآن الكريم والسنة النبوية.. من أجل معرفة ذلك لابد من معرفة حقيقة العلمانية.

فالعلمانية - بفتح العين وسكون اللام - مصطلح محدد يعني: (الدنيوية) أو (اللادينية)، وليس لها صلة بكلمة (العلم) ومشتقاتها، بل هي مشتقة من (العالم) بمعنى (الدنيا)[٩٧٥]. وكلمة العلمانية ترجمة غير دقيقة للأصل الإنكليزي (SECULARIZM) المشتقة من كلمة (SECULAR) التي معناها من حيث هي صفة: دنيوي، غير ديني، مدني، فيكون معنى كلمة (SECULARIZM أي العلمانية): (الدنيوية أو اللادينية)، ومفهومها الدقيق: تنظيم الحياة بطريقة دنيوية خالصة وإقصاء الدين وفصله عن تنظيم حياة المجتمع والدولة، أي إقامة الحياة على أسس دنيوية بعيدة عن تعاليم الوحي الإلهي (الدين) في جميع أنظمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية وغيرها، بحيث لا يكون للدين أي سلطان أو توجيه لحياة المجتمع والدولة، ولذلك عرف الباحثون والكتاب العلمانية بأنها: فصل الدين عن الدولة.

---

(٩٧٥) انظر مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط مطبعة مصر ١٩٦١: ج ٢ مادة علم.

وسبب نشوئها في الغرب الخصومة بين الكنيسة التي كان لها نفوذ كبير في الحكم وفي قيادة المجتمع من جهة، وبين الفلاسفة وعلماء الفلك ورجال العلوم الصرفة من مخترعين ومكتشفين وغيرهم من جهة أخرى. حيث حاربت الكنيسة العلماء وقتلتهم وأحرقت بعضهم علناً، معتبرة علومهم الدنيوية خروجاً على الدين بينما هي في صالح البشرية، مما ولد خصومة لا رجعة فيها بين الكنيسة والمجتمع، فطلق الناس الكنيسة ودينها جملة وتفصيلاً، ولجؤوا إلى تنظيم حياتهم ومجتمعهم على أسس دنيوية لا دخل للدين بها، وهذا هو فصل الدين عن المجتمع والدولة.

وساعد على ذلك أن الديانة المسيحية لا تتضمن سوى الجانب الروحي، أما الجانب التشريعي لتنظيم المجتمع والدولة في شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون ومختلف أنواع (المعاملات) فهي تكاد تكون خالية منه. وهذا بخلاف الإسلام الذي أنزله الله منهجاً كاملاً للحياة البشرية إلى يوم القيامة، في جانبها الروحي، وجانبها التشريعي الذي ينظم حياة الفرد والمجتمع والدولة، رحمة للعالمين وتحقيقاً لمصالحهم في الدارين.

وقد استخدمت العلمانية قوى العنف والاحتلال والاستيلاء والتخريب - وهو ما شاعت تسميته بـ (الاستعمار) وليس فيه من معنى الإعمار والتعمير نصيب استخدمت ذلك لإقصاء الشريعة الإسلامية عن الحياة والتشريع فأدخلت القوانين الوضعية منذ ذلك الوقت بحكم المحتل إلى ديار المسلمين بديلة عن الشريعة الإسلامية، وهي المأساة التي لا تزال تعاني منها معظم دول العالم الإسلامي حتى اليوم، وكذلك استخدمت الغزو الفكري، واستخدمت أيضاً التجمعات اللادينية للدعوة إلى (الدنيوية) في تنظيم المجتمع والدولة والتي يقودها أعداء الإسلام كمنظرين، وأنصاف المثقفين والمثقفات كمخدوعين، ولكن الصحوة الإسلامية بذلت جهوداً كبيرة جداً ونجحت إلى حد بعيد في توعية الأمة وتبصيرها بمخاطر العلمانية على العقيدة والشريعة وأنها سلخ للأمة عن دينها وثوابتها وأصالتها وهويتها وحضارتها.

٩٤٣- العلمانية دعوة إلى إقصاء الكتاب والسنة ونبذهما في تنظيم المجتمع والدولة:

ويتبين مما تقدم أن المسلم الذي يقتنع بالعلمانية إنما يقتنع بضرورة إقصاء العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية عن تنظيم المجتمع والدولة بحيث لا يكون هنالك سلطان للقرآن الكريم والسنة النبوية في تنظيم المجتمع والدولة، ومثل هذا الاعتقاد الذي

يعطل الكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً لا شك أنه يفضي إلى نقض الإيمان من أساسه، ومن هنا كان كبيرة من أعظم الكبائر التي تفضي بصاحبها إلى خسارة الأبد في نيران الجحيم، لأن خلاصة الإسلام: طاعة الله ورسوله، وخلاصة العلمانية: معصية الله ورسوله والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ورفض القرآن الكريم والسنة النبوية أن يكون لهما سلطان على تنظيم المجتمع والدولة. ونبذ تعاليمهما وراء الظهر وهو فعل الكافرين قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]، وأوجب القرآن الحكم بما أنزل الله دون غيره، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣]، وجعل عدم الحكم بما أنزل الله والعدول إلى غيره من قبيل الكفر والظلم والفسوق، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]. ولا يخفف من هذه المعصية أن العلمانية تقر بالشعائر التعبدية الفردية ولا تعترض عليها، لأن هذا هو نفسه الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

٩٤٤- ما يفعله التائب الذي أضل الناس بالعلمانية والماركسية وعموم البدع الكفرية والنفاقية:

التائب من المبادئ الكفرية أو البدعية أو النفاقية المضلة للناس - وقد كان مفتوناً بها سابقاً قبل التوبة، يدعو إليها سفهاً بغير علم، وجهلاً بالإسلام ومبادئه الربانية العظيمة - كالدعوة إلى الماركسية أو الدعوة إلى العلمانية وسائر المناهج الأرضية المناقضة للإسلام والتي تفسد الفكر وتصد الناس عن سبيل الله القويم وصراطه المستقيم.. التائب من هذه المبادئ عموماً جعل الله توبته مشروطة بشروط إضافية مضادة لما كان عليه حاله

من الضلال والإضلال فشرط في توبته: إصلاح ما أفسده حسب الإمكان، وإخلاص دينه لله بدلاً من خيانة عهد الله وخيانته لله ولدينه ولرسوله وللمؤمنين، والاعتصام بالله بدلاً من موالاة الكافرين والمشركين عملاً أو فكراً. وهذه الشروط الإضافية بعضها يعالج حال التائب نفسه ليسمو به عن المستوى الهابط الذي كان فيه، وبعضها الآخر يتعلق بما تولد عن أفعاله السابقة على التوبة من فتنة وضرر للغير.

قال ابن القيم «فإن كان المتولد [من دعوته المضلة قبل التوبة] متعلقاً بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعة، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان»[٩٧٦].

٩٤٥- سابعاً - التوبة من الرياء:

وهو الآخر من الكبائر القلبية أفردناه بالذكر لخطورته وشيوعه.

وهو من الكبائر لأن الإنسان يقصد بعمله غير وجه الله، فهو يقدم ما ظاهره العبادة الخالصة والعمل الصالح ولكن مريداً به ما يحصل له من منفعة من الناس تصيداً للثناء

---

(٩٧٦) عدة الصابرين ج: ١ ص: ٥٥ والشرط الذي ذكره ابن القيم وارد في الآية الكريمة في التوبة من النفاق: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

عليه ومباهاة بنفسه واستشرافاً للجاه والحصول على مال ونحو ذلك من المقاصد الخبيثة مستخدماً عبادة الله تعالى وسيلة لذلك خلافاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

والرياء من شعب النفاق كما مر بك سابقاً قال الله تعالى في وصف المنافقين ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وجاء في الحديث الشريف: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك)[٩٧٧] أي إذا أشرك العبد في النية فالله غني عن عمله وليكن عمله لمن أشركه في قصده رياء وليطلب أجره منه يوم القيامة!!. وفي الحديث الآخر جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ : لاشيء له، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ : لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه)[٩٧٨]. وعلى ذلك فالرياء يحبط العمل ويذهب بأجره إضافة إلى لحوق الإثم بصاحبه لكونه قصد غير الله، ولهذا سمى النبي ﷺ الرياء بالشرك الأصغر.

فمن ذلك «ما رواه أحمد: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا انظروا هل تجدون عندهم جزاء)، وفي الترمذي وابن ماجه وأحمد: (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك).

وفي سنن ابن ماجه: (إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية). وأخرج الترمذي الحكيم: (الشرك أخفي في أمتي من دبيب النمل على الصفا). ونحو ذلك في السنة كثير»[٩٧٩].

---

(٩٧٧) مسلم (٥٣٠٠)، وابن ماجة (٤١٩٢) واللفظ له، وأحمد (١٥٢٧٨).

(٩٧٨) سنن النسائي (٣٠٨٩) وجاء في فتح الباري أن الحديث «رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد» (انظر فتح الباري ج:٦ ص:٢٨).

(٩٧٩) انظر هذه النصوص وغيرها في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي ج:١ ص:٦٢وما بعدها.

وفي حديث الثلاثة الذين تمحضت نيتهم لغير الله تعالى أو غلبت في القصد إلى العمل دليل على الأمرين: حبوط العمل، والإثم. «ففي مسلم والنسائي وأحمد والحاكم: (إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتي به فعرفه - أي الله - نعمته فعرفها: قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛ ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمته، فقال: فماذا عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها قال: كذبت ولكنك فعلته ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)[٩٨٠].

والتوبة من الرياء تكون بعلاجه بضده وهو الإخلاص وتجريد النية لله تعالى في الأقوال والأفعال والسلوك، والعبد كلما حسن علمه وحاله في الإسلام وأقبل إقبالاً جاداً على الله والدار الآخرة ولم تغره الحياة الدنيا ازداد إخلاصه الذي هو علاج الرياء[٩٨١] ولذلك كان من شرط التوبة من النفاق - والرياء نوع منه - الإخلاص، والاعتصام بالله تعالى زيادة على أركان التوبة المعروفة وهي: الندم، والإقلاع، والعزم، قال تعالى في شرط توبة المنافقين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

٩٤٦- ثامناً - توبة النساء من التبرج وإبداء الزينة المحرمة والتسبب في الفتنة:

٩٤٧- تمهيد - في أهمية المشكلة وخطورتها وأسبابها:

من المصائب العظيمة التي ابتلي بها العالم الإسلامي شيوع منكر تبرج الكثير من نساء المسلمين وبناتهم في داخل دار الإسلام التي هي دار شيوع الأحكام الشرعية والالتزام بها، حتى صار هذا التبرج عرفاً مألوفاً شائعاً.

---

(٩٨٠) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر ج:١ ص:٦٤.

(٩٨١) وللغزالي في كتابه إحياء علوم الدين مباحث مهمة في معالجة الرياء وبيان دوائه وكذلك ابن القيم في بعض كتاباته وانظر أيضاً: الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي: ج: ١ ص: ٦٢ وما بعدها.

وشيوع منكر من المنكرات بصورة جماعية من خصائصه أنه يستجلب العقوبة الجماعية، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال القرطبي في تفسيرها: «قال ابن عباس أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب... ومقصود الآية: واتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح»[٩٨٢]. فيهلكون مهلكاً واحداً من حيث العقوبة الدنيوية ويصدرون مصادر شتى مختلفة يوم القيامة حيث يبعثون على نياتهم وأعمالهم[٩٨٣].

ومعلوم أن سبب شيوع هذا المنكر هو انتقال العدوى من المجتمعات الغربية الإباحية إلى دار الإسلام بواسطة الغزو الفكري والثقافي الذي ينتقل عن طريق وسائل الإعلام وغيرها التي تفعل فعلها مع ضعف الدين في النفوس، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبل أولياء الأمور في الدولة والأسرة، مما سبب ضعف المناعة ضد جراثيم الغزو الفكري والاجتماعي فكثر ضحاياه، ومن هذه الضحايا الكثير من بناتنا وأخواتنا من نساء المسلمين.

فمئات الآلاف من النساء المسلمات في المجتمعات الإسلامية في دار الإسلام، بل الملايين،لم يعدن يلتزمن باللباس الإسلامي الشرعي، بل يلبسن اللباس الذي يكشف ما حرم الله ورسوله كشفه من أجسادهن، في صورة لباس كشفت فيه المرأة ما لا يحل كشفه من جسدها، أو لباس يشف عما تحته، أو لباس يصف ما تحته وصفاً دقيقاً وهو الأكثر شيوعاً كما هو الحال في لبس السروال (البنطلون) الذي يكاد ينطق عما تحته ويسميه فيقول هذا الموضع اسمه كذا، وهذا المكان اسمه كذا، وهذا معنى لفظ النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (كاسيات عاريات)[٩٨٤]، فهي كاسية بطريقة لا تمنع عنها أن توصف بأنها عارية، وربما

(٩٨٢) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٣٩١ و ٣٩٣.

(٩٨٣) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٣٩٣.

(٩٨٤) أخرج مسلم وغيره: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)، وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم: (يكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرحال ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة =

عذرت نفسها بأنها غطت شعرها استجابة لأمر الله! فهؤلاء جميعا هن من ضحايا هذا الغزو الفكري والثقافي، وضحايا هوى النفس وشهوتها. ويعز علينا أن يكنَّ على هذه الحال مع أن الكثرة الكاثرة منهن يصلين ويصمن ويلتزمن أركان الإسلام.

وبعض العلماء عد ارتكاب هذه المعصية من قبيل الكبائر حتى لو ارتكبتها المرأة مرة أو مرتين من غير مداومة واستمرار[(٩٨٥)]، أما استمرار المرأة على ارتكاب هذه المعصية فإنه يجعلها كبيرة في كل الأحوال لأنه (لا صغيرة مع الإصرار) ومعلوم أن المرأة المتبرجة مصرة على هذه المعصية عندما تتخذها حالاً دائمة لها في لباسها. أي أنها تمارس ذنباً مستمراً مستصحباً ما دامت غير تائبة منه.

والكثير من هؤلاء النسوة يلتزمن الخلق المستقيم عموماً، فيما عدا قضية التبرج، فترى إحداهن تصلي وتصوم وتعمل الكثير من العمل الصالح، ولكنها تقنع نفسها بأنها ما دامت أخلاقها مستقيمة فإنها لا يضيرها هذا التبرج لأن العبرة بالجوهر لا بالمظهر، وهذا من خداع الشيطان، لأن الحق: أن العبرة بطاعة الله ورسوله في الجوهر والمظهر، وأن من أهداف الشيطان الكثيرة والمتنوعة كشف العورات قال تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ولأن الله تعالى أوجب حجاب المرأة في القرآن الكريم والسنة النبوية وحرم تبرج المرأة وإبداء زينتها للأجانب، وهذا يكفي لأن تحاسب المرأة نفسها على هذه الكبيرة وتتوب منها، لا أن تحاجج عنها وتنبري لإيجاد العذر لنفسها فيها.

وإذا عدنا إلى الجوهر فقد قلنا سابقاً: إن القلب هو مغرس الفواحش ومنبع الطاعات بناء على قول الرسول ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[(٩٨٦)]، وعلى ذلك: فإذا كانت معاني الإيمان في

= البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات) وأبو داود مرسلاً عن عائشة: إن أختها (أسماء رضي الله عنها دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت زمن الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه) (انظر الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي: ج:١ ص: ٢٥٨-٢٥٩).

(٩٨٥) انظر: الهيتمي: الزواجر ج: ٢ ص: ٧١ حيث أورد: (الكبيرة التاسعة والسبعون بعد المائتين: خروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة ولو بإذن الزوج).

(٩٨٦) متفق عليه: البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦)، وأيضا الدارمي (٢٤١٩).

قلب المرأة هي الغالبة ظهرت طاعة الله ورسوله في جميع الأعمال ومعها التوبة عند وقوع المعصية، وإذا كان الهوى هو الغالب على القلب وتغلب على معاني الإيمان ظهرت آثار الهوى على الجسد في صورة معصية لله ورسوله من غير مبالاة أو اكتراث.

وقد لاحظت من خلال تدريسي لآلاف الطالبات خلال أكثر من خمسة وثلاثين عاماً في مختلف الجامعات في العالم الإسلامي أن الكثيرات منهن منساقات في صورة السياق جماعي وراء عرف شائع من غير جزم في إرادة معصية الله ورسوله أو عناد - والعرف الفاسد يفسد الآلاف المؤلفة - فتراها إذا فهمت أبعاد هذه المعصية كما اعتبرها الإسلام وكما قررتها النصوص القرآنية والنبوية صارت في حيرة من أمرها لأنها لا ترغب أن تكون صاحبة كبائر.

والموضوع له أبعاد أخرى كثيرة في الكلام عليه تتعلق بالهجمة الشرسة في العصر الحديث على عفاف المرأة وحقها في المحافظة على نفسها وشرفها، ورغبة شر البرية في سيدة الرذيلة في كوكب الأرض مستخدمين مختلف وسائل الإكراه والمكر والخداع، ومستخدمين لذلك المؤتمرات الدولية طارحين فيها مشروعات اتفاقيات دولية ملزمة لحمل الدول المختلفة وبشكل خاص دول العالم الإسلامي على تنفيذ مخطط إفساد المرأة بشكل شامل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

٩٤٨- تقسيم البحث في معصية التبرج ومتعلقاتها وعلاجها:

ولكننا نطوي الكلام الآن فيما أشرنا إليه - وربما عدنا إليه في كتاب آخر غير هذا الكتاب إن شاء الله تعالى - ونقتصر الآن على بيان أمرين مهمين لهما دورهما الكبير في معرفة أبعاد هذه المعصية ومتعلقاتها وفي التوبة منها:

الأمر الأول: بيان آداب المرأة في الإسلام وهذا يتضمن لباسها وسلوكها وكلامها ومشيها ونحو ذلك، فكله داخل في المعصية إذا خالفت فيه الأمر والنهي الإلهي، ويستلزم التوبة.

والأمر الثاني: في بيان أسباب إصرار المرأة على معصية التبرج وملحقاتها، ومعالجة تلك الأسباب لإحراز التوبة.

ونظرا لخطورة هذا الموضوع، وسعة انتشار الفتنة فيه، وعموم البلوى به، وأثره الكبير على حالة (التقوى) التي هي قاعدة المجتمع الإسلامي في دار الإسلام، في مقابل (الإباحية) التي هي قاعدة المجتمعات الغربية المادية العلمانية[٩٨٧]، ولأن التقوى هي المقصود الأول من التوبة، لأن الإنسان بالمعصية ينـزل عن التقوى، وبالتوبة يرجع إليها، فقد رأيت أن هذا الموضوع يحتاج إلى شيء من البسط والإيضاح فإن التوبة إنما تكون بعد معرفة الذنب سواء أكان اقتحاماً للمحرمات، أو تركاً للواجبات الشرعية، وفيما يلي بيان ذلك:

٩٤٩- الأمر الأول - بيان آداب المرأة في الإسلام من حيث لباسها وسلوكها وكلامها ومشيها ونحو ذلك:

إن سلوك المرأة وآدابها في الإسلام مؤسس على نظر الإسلام للمرأة نظراً يختلف عن نظر المجتمعات المادية لها، فالإسلام ينظر إلى المرأة جوهرة نفيسة تصان، وداعية إلى الخير، ومسهمة في بناء الأخلاق والمثل، وينبوع الحياة والتربية والإصلاح، وسكناً نفسياً وقلبياً وجسدياً للرجل في صورة زواج شرعي مستقر، وأنها تستحق من الدولة والمجتمع في الإسلام كل الضمانات الاقتصادية التي تمكنها من أداء هذا الدور، ويعدها الإسلام إن هي فعلت ذلك ولم تخرج عليه، وقامت بهذا الدور الحضاري العظيم ابتغاء رضوان الله تعالى، بالفوز العظيم في جنات النعيم. بينما تنظر الحضارات المادية إلى المرأة في الشرق والغرب على السواء أداة لإشباع شهوة الرجل، ومتعة تباح لكل طالب، تبيح جسدها متى شاءت وكيف شاءت بدعوى الحرية الشخصية، وخادمة للشهوة، والآلة والمكتب، فإن لم تكن كذلك فلا ضمان لها في العيش، في ظل حضارة مادية خالصة.

وفي ضوء نظر الإسلام هذا إلى المرأة نفهم تشريعات الإسلام وتوجيهاته بشأن سلوك المرأة وآدابها والضوابط التي وضعها في ذلك. أرأيت إلى (السياج) تبنيه الدولة في طريق جبلي ليحمي السالكين من التردي في الوديان السحيقة، فهل يكون مخلصاً، وعنده حظ من العقل من يقول بإلغاء هذا (السياج) بدعوى أنه قيد يقيد حرية السالكين،

---

(٩٨٧) العلمانية - بفتح العين وسكون اللام - مصطلح محدد يعني: (الدنيوية) أو (اللادينية)، وليس لها صلة بكلمة (العلم) ومشتقاتها، بل هي مشتقة من (العالم) بمعنى (الدنيا) (انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مطبعة مصر ١٩٦١: ج ٢ مادة علم)، وتعد العلمانية من معاصي العصر الكبرى التي تجمع بالنسبة للمسلم الذي يقتنع بها النفاق الأكبر والأصغر، وقد شرحناها وبينا كيفية التوبة منها في فقرة سابقة.

وليأخذ السالكون حريتهم في المسير، بدعوى التحرر من القيود، ولو باتجاه الوادي السحيق؟! فهذا المثل بعينه هو مثل ما شرعه الإسلام بشأن سلوك المرأة وآدابها، وفي ضوء ذلك نفهم أيضاً لماذا يرفض الإسلام كل كلام بشأن هدم هذا السياج، ونفهم أيضا لماذا تدخل الإسلام بتشريعات تفصيلية في القرآن والسنة بشأن سلوك المرأة وآدابها، غير قابلة للتغيير، ولم يترك ذلك ويسكت عنه ليخضع للتطور وفقاً لأهواء الناس كما هو الحال في الحضارات المادية، ونفهم أيضا لماذا تكون هذه الضوابط التي شرعها الإسلام في سلوك المرأة وآدابها، هي السبيل لإسهام المرأة في المجتمع الإسلامي في بناء حضارة روحية مادية بدلاً من أن تكون أداة للهدم والانحلال والتفسخ والسقوط.

ذلك أن المرأة في نظر الإسلام ليست نصف المجتمع فحسب بل هي مربية النصف الآخر أيضاً، والقادرة أعظم القدرة على إصلاحه أو إفساده، ومن هنا أرادها الإسلام سبباً للإصلاح والتقدم الحضاري بكل ما رسم لها من ضوابط وآداب في السلوك واللباس والوظيفة الاجتماعية وغيرها، ولم يسمح لها قط بأن تلقي بالمجتمع في مهاوي الردى، إذ يستحيل بناء حضارة روحية مادية كالتي بناها الإسلام وأسعد بها العالم، ولا نزال نمجدها ونعلي رؤوسنا وأقدارنا بالانتساب إليها، إلا بقيام المرأة بدورها فيها على الوجه الذي رسمه الإسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار العوامل الأخرى لقيام الحضارة، ولكنها جميعاً لا تغني بدون دور المرأة الذي ذكرناه، ونبين فيما يلي بإيجاز تام تشريعات الإسلام بشأن سلوك المرأة وآدابها.

فمع ما وضعه الإسلام من أحكام شرعية تتعلق بفعل الواجبات والمندوبات، والكف عن المحرمات والمكروهات التي خوطب بها الرجل والمرأة على السواء، فإن هناك منهيات والتزامات تتعلق بالمرأة، بعضها يشاركها فيها الرجل وبعضها الآخر خصت بها وحدها، تتعلق بسلوكها وآدابها، وهذه المنهيات والالتزامات الغرض منها أن تحفظ للمرأة عفافها وكرامتها ودينها، وتحفظ للرجل دينه واستقامته وفكره عن طريق ممارسة المرأة لسلوك خاص وآداب معينة أرشدتها إليها الشريعة، تحقيقا للمصالح الأخروية والدنيوية المقصودة من تشريعها في الإسلام نبين أهمها فيما يأتي:

٩٥٠- أ - حظر خلوة المرأة بالأجانب:

فلا يجوز للمرأة في الإسلام أن تمكّن رجلاً يحل لها نكاحه من أن يختلي بها، لأن الخلوة وسيلة لدخول الشيطان بينهما، واشتداد وسوسته بإثارة الغريزة، وتهييج الشهوة، وتزيين

الخطيئة، كما إن الخلوة ترفع المعوقات والموانع أمام ممارسة الحرام، فتهيئ ظرفه وتسهل وقوعه، وتضعف قدرة الرجل والمرأة على التزام حدود الشرع، ولهذا جاء نهي الشرع عن الخلوة قال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم فإن ثالثهما الشيطان)[٩٨٨]، وهذا النهي يشمل الرجل كما يشمل المرأة، ولكن المرأة في الخلوة هي صاحبة التمكين، فإذا مكنت من الخلوة وقعت الخلوة وإذا امتنعت عنها انتفت في أغلب الأحوال، والأصل في المؤمنة أنها حريصة على عفتها، وحريصة على دينها، وحريصة على أن تسد منافذ الشيطان فتعين الرجل على شيطانه، ولا تعين شيطانه عليه بارتضائها الخلوة، وذنب المرأة في التمكين من الخلوة يساوي ذنب الرجل في الدعوة إليها، وقد يزيد عليه، ولمثل هذا المعنى قدم القرآن الكريم المرأة في المسؤولية واستحقاق العقاب في جريمة الزنا بصفتها صاحبة التمكين، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]، ولولا التمكين ما وقعت الجريمة في عامة الأحوال.

وإزاء هذا النهي الصريح في الشريعة، ومنع الخلوة في شرع الله الذي يعلم خبايا النفوس، وما جبلت عليه من القابلية للغواية والفجور التي قال عنها تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] لا يجوز لمسلم إذا أراد أن يحتفظ بإسلامه أن ينساق مخدوعاً فيردد ما يقوله بعض المتحذلقين من أعوان إبليس من أنه لم تعد هنالك ضرورة لمنع الخلوة في الثقافة والعلم والمدنية، حيث يقدر كل من الرجل والمرأة المسؤولية، وحيث يجب أن يتعودا الثقة بنفسيهما بدون رقابة، فلا ضرر من الخلوة عليهما، إلى غير ذلك من التبريرات، لأن هذا القول فوق ما يتضمن من تكذيب لعلم الله تعالى بأحوال النفس البشرية وهو خالقها، فإنه أيضاً مكذِّب علمياً، ومكذِّب بالواقع، فالإنسان هو الإنسان بغرائزه الفطرية وشهواته واستعداد نفسه قديماً وحديثاً، فالله تعالى خلق الرجل رجلاً وركب فيه الميل إلى الأنثى، وخلق الأنثى أنثى، وركب فيها الميل إلى الرجل، فلا هو ولا هي ولا أدعياء الثقافة ولا أهل الأرض جميعاً بقادرين أن يغيروا خلق الله، ولذلك فإن الحكمة من منع الخلوة تشمل المثقف والمثقفة، كما تشمل الجاهل والجاهلة سواء بسواء، وأيضاً فإن الثقافة والعلم ليس من شأنها أن تقتلع الغرائز من

---

(٩٨٨) مسند أحمد (١٤١٢٤) واللفظ له، وانظر أيضا: الترمذي (١٠٩١) و(٢٠٩١).

النفوس فتعصمها من الوقوع في الخطيئة، فذلك غير مقدور عليه، وإنما المقدور عليه هو تشذيب هذه الغرائز والشهوات في النفس الإنسانية، وهذا لا يكون من عمل الثقافة، وإنما هو من عمل الإيمان بالله تعالى وتقواه والاستحياء منه، والرغبة في رضوانه والخوف من عقابه وممارسة العبادات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥] وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقال أيضا: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وإذا علمت أن الخلوة من أعظم الكيد الذي يمكن بسببه أن يصبو نبي إلى المرأة - لولا العصمة بسبب النبوة - ولذلك يتضرع إلى الله تعالى ويدعوه أن يصرف عنه كيدهن لئلا يصبو إليهن، كما تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، وإذا علمت أيضاً أن رسول الله ﷺ وهو يمنع الخلوة يوجه كلامه مباشرة إلى صحابته الكرام، وهم على ما هم عليه من درجة عظيمة من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، فيقول في الحديث الذي أوردناه قبل قليل (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة) ثم يقرر الحقيقة بقوله: (فإن ثالثهما الشيطان)، وفي الرواية الأخرى: (لا يخلون أحدكم بامرأة...)[٩٨٩] إذا علمت كل هذا فما بالك بأثر الخلوة على من كان قلبه خاوياً من الإيمان وكانت عامة أحواله انقياداً للهوى ومتابعة للشيطان، وإن كان من أكبر أدعياء الثقافة والعلم؟!.

ويظهر مما تقدم أن منع الشريعة للخلوة إنما هو تشريع واقعي حكيم مبني على علم الله تعالى بأحوال النفس البشرية التي خلقها، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] وأن على المرأة المسلمة أن تلتزم به بوصفه جزءاً من سلوكها وآدابها في الإسلام.

وكما منعت الشريعة المرأة من الخلوة كذلك منعتها من السفر لوحدها من غير زوج أو ذي رحم محرم منها، على التفصيل الذي ذكره الفقهاء بشأن مسافة السفر أو مدته أو

---

(٩٨٩) صحيح مسلم (٢٣٩١)، ومسند أحمد (١٠٩).

أحواله، والغرض من هذا المنع هو سد منافذ الشيطان التي تسببها وحدة المرأة وغربتها من جهة، وطمع الفساق بها من جهة أخرى، وقد ورد هذا النهي في قوله ﷺ : (لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافر إلا مع ذي محرم)[٩٩٠].

٩٥١- ب - الأصل عدم اختلاطها بالرجال إلا لضرورة أو حاجة:

فالإسلام لا يبيح للمرأة أن تختلط بالرجال لغرض الأنس أو الترفيه أو التسلية، أو إشباع الرغبة في النظر إليها من العيون الخائنة والشهوات الجائعة، أو غير ذلك من المقاصد الفاسدة التي لا يخلو منها الاختلاط كلاً أو بعضاً، إذ الإسلام يريد مجتمعاً عفيفاً، نظيفاً في واقعه، ونظيفاً في فكره، لا يعاني من سعار جنسي دائم، وشهوة متأججة لا يقر لها قرار، لذلك، كان الأصل عدم الاختلاط بالرجال تحقيقاً لمقاصد الإسلام، إذ الاختلاط ذريعة إلى ما ذكرنا من المفاسد، فوجب سد الذريعة.

ذلك أن الإسلام لا يسمح بأن تسود في المجتمع روح شهوانية مستعرة قلقة بسبب التبرج والاختلاط بل يسعى الإسلام لأن تسود المجتمع روح عقلانية متزنة تمثل حالة صحية يتطلبها المجتمع الإسلامي. فمما لا شك فيه أن هذه العوامل من تبرج، واختلاط الجنسين على الوجه الحر، ووجود عدد كبير من النساء والرجال بدون نكاح في المجتمع، كلها تفضي إلى أن توجد في المجتمع تلك الروح الشهوانية المستعرة التي تجعل النفوس مهيأة للوقوع في الخطايا والآثام، وبخاصة الوقوع في جريمة الزنا وما تجره على المجتمع من ويلات تتمثل في كساد الزواج، وخراب البيوت، والقتل ثأراً للعرض، والأمراض الفتاكة، تلك النتائج الخطيرة التي يبتغي الإسلام منع حصولها وذلك بسد المنافذ المفضية إليها، والقضاء على ما يسهل وقوعها.

ومما يدل على أن الأصل في الاختلاط الحظر، وأنه لا يجوز إلا لضرورة أو حاجة، أن الإسلام شرع من التشريعات ما يجنب المرأة الاختلاط، وأجازه لها استثناء من ذلك الأصل، فالإسلام في سبيل عدم الاختلاط بالرجال لم يفرض على المرأة صلاة الجمعة، ولم يوجب عليها صلاة الجماعة، ولا يستحب لها اتباع الجنائز، وإذا حضرت للصلاة في

(٩٩٠) أخرجه أحمد بهذا اللفظ (١٨٣٣).

المسجد، وجب عليها أن تقف مع النساء في الصف الأخير خلف الرجال، فإذا كان الأمر هكذا في بيوت الله فكيف يجوز الاختلاط في غير أماكن العبادة؟![٩٩١].

وقد كان النبي ﷺ إذا سلم - أي أنهى صلاته - مكث قليلا، وكانوا يرون أن ذلك كيما ينفذ النساء قبل الرجال[٩٩٢] وكان النساء يحضرن صلاة العيد، وكان مكانهن في المصلى مستقلا عن مكان الرجال، وكان النبي [ﷺ] إذا فرغ من خطبة العيد للرجال يأتي النساء فيذكرهن[٩٩٣]. وعن أبي سعيد الأنصاري أنه سمع النبي ﷺ، وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال ﷺ للنساء: (استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق - أي تركبن حقها وهو وسطها - عليكن بحافات الطريق فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به)[٩٩٤].

قال القرطبي بمناسبة كلامه عن اجتماع الرجال والنساء في زيارة القبور بوصفه مثالاً: «... وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحل، فبينما الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن وبالعكس، فرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً مأجوراً، وهذا واضح»[٩٩٥].

ومع ذلك إذا كان هنالك ضرورة أو حاجة لأن تختلط المرأة بالرجال جاز ذلك الاختلاط بقدر تلك الضرورة أو الحاجة. فقد كانت المرأة في صدر الإسلام تختلط بالرجال في الجهاد، فتداوي الجرحى وتسقي الجيش، وتعد الطعام وتشترك أحياناً في القتال فعلاً، وكل هذا يستلزم الاختلاط، فكان جائزاً للضرورة وكذلك يجوز الاختلاط للحاجة، فيجوز خروج المرأة للشراء أو التكسب، أو مباشرة بعض الأعمال المباحة فتستعمل وسائل النقل العامة، من سيارة عامة، أو قطار، فتختلط من أجل ذلك بالرجال، وتتعامل معهم مباشرة، وهذا كله مع التزامها بآداب الإسلام في النظر، والمشي والكلام، واللباس، وغيرها.

---

(٩٩١) د.عبدا لكريم زيدان: أصول الدعوة ص ١٢٠.
(٩٩٢) البخاري (٧٩٣) وأحمد (٢٥٤٢٦).
(٩٩٣) متفق عليه: البخاري (٩٠٨) ومسلم (١٤٦٦).
(٩٩٤) رواه أبو داود (٤٥٨٨).
(٩٩٥) القرطبي: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: ج:١ ص:٢٦.

٩٥٢- ج - حرمة إبداء زينتها إلا ما ظهر منها:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١] وواضح من هاتين الآيتين الكريمتين أن الشريعة لا تطالب النساء بما تطالب به الرجال من غض الأبصار وحفظ الفروج فقط، بل تطالبهن بأمور خاصة بهن لم تطالب بها الرجال كما هو الحال في الأمر بإخفاء الزينة في الآية الكريمة.

وعلى ذلك يحرم على النساء أن يظهرن أمام الرجال متزينات لأن هذا مثار الفتنة التي تخالف مقاصد الإسلام، أما الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] فمعناه أنها غير مؤاخذة بما ظهر من زينتها من غير قصد وتعمد، كأن تحف الرياح شيئاً من ردائها فيظهر شيء من زينتها، وكذلك ما كان ظاهراً لا يمكن إخفاؤه كالرداء والثياب، وهذه هي الزينة الظاهرة التي يجوز إبداؤها على رأي ابن مسعود، ﷺ، أو هي الكحل والخاتم على رأي ابن عباس ﷺ، أو هي الوجه والكفان على رأي بعض العلماء[٩٩٦].

٩٥٣- د - الالتزام باللباس الشرعي وحرمة التبرج:

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فالخمر في الآية الأولى جمع خمار، وهو ما يخمر به أي يغطي به الرأس، والجيوب جمع جيب، وهو الصدر، فالمراد في الآية الكريمة بضرب النساء بخمرهن على جيوبهن أن يغطين رؤوسهن وأعناقهن وصدورهن بكل ما فيها من زينة وحلي على خلاف ما كان عليه حال النساء في الجاهلية. قال ابن كثير في تفسيره: (كانت المرأة منهن - أي نساء

---

(٩٩٦) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ١٢٠ نقلاً عن أحكام القرآن لابن عربي المالكي ١٣٥٦/٢ وما بعدها.

جاهلية - تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقرطة أذنها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن)[٩٩٧] وجاء في الكشاف للزمخشري: (كانت جيوبهن - أي نساء الجاهلية - واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة، فأمرن - أي نساء المؤمنين - بأن يستدلنها من قدامهن حتى يغطينها)[٩٩٨].

فخلاصة معنى الخمار الذي يضرب على الجيوب هو ما يغطي به الرأس وينسدل على العنق والصدر لإخفائهما.

وأما المراد بقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فإن الجلباب هو الملاءة التي تغطي جسم المرأة، وتلبس فوق ثيابها فلا يظهر منها شيء، ويمكن القول بأن ما تلبسه النساء المؤمنات اليوم من رداء كامل، يؤدي نفس الغرض، على أن يكون موافقاً للمواصفات الشرعية، بأن لا يكون ضيقاً يصف جسدها ويخبر عما تحته، فتكون كما وصف رسول الله ﷺ، كاسية عارية، وأن لا يكون شفافاً يشف عما تحته، فقد حرم النبي الكريم ﷺ، اللباس الذي يصف، واللباس الذي يشف، بقوله ﷺ : (سيكون في آخر أمتي نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت، العنوهن فإنهن ملعونات)[٩٩٩] وكذلك حرم الإسلام أن تتشبه المرأة بالرجل في اللباس أو غيره، فقال ﷺ : (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال)[١٠٠٠]. وعن أبي هريرة ﷺ : (لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[١٠٠١]، وكذلك نهى الإسلام أن يكون لباس المرأة خارج بيتها معطراً.

---

(٩٩٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج: ٣ص: ٣٨٤.
(٩٩٨) الزمخشري: الكشاف : ج:٣ ص:٣٨٤.
(٩٩٩) رواه مسلم في باب اللباس ص ١٣٥ وأحمد ٣/ ٣٥٦ و٤٤٠ وانظر أيضاً المنذري الترغيب والترهيب ٣/ ٩٥
(١٠٠٠) رواه البخاري (٥٤٣٥) والترمذي (٢٧٠٨) وأبو داود (٣٥٧٤) وابن ماجة (١٨٩٤) وأحمد (٢١٥٠) و(٧٥١٧).
(١٠٠١) رواه أبو داود (٣٥٧٥) وأحمد (٧٩٥٨).

ونخلص مما تقدم أنه يجب لأن يكون لباس المرأة شرعياً أن تتوفر فيه مقاصد الشرع في ستر جسم المرأة وتجنب الفتنة، وذلك يتم بتوافر الشروط الشرعية فيه - بصرف النظر عن قابلية اللباس من حيث المبدأ للتطور والتغير حسب الزمان والمكان ما دامت الشروط الشرعية متوافرة فيه - فيكون اللباس شرعياً إذا كان ساتراً لجميع بدنها، وأن لا يكون زينة في نفسه، ولا شفافاً، ولا ضيقاً يصف بدنها، ولا مطيباً، ولا مشابهاً للباس الرجال، ولباس الكفار، ولا ثوب شهرة(١٠٠٢).

٩٥٤- هـ - الالتزام بآداب النظر والمشي والكلام وغيرها:

فأما آداب النظر في الإسلام فإنها تخص الرجل والمرأة، فكما حرم الله تعالى في القرآن على الرجال النظر إلى النساء لئلا يجري الأمر من التلذذ بالنظر، إلى الولوع بالجمال، إلى الوقوع في الغرام، إلى التلبس بالحرام، فأمر القرآن الرجال بالغض من أبصارهم، وشددت فيه السنة النبوية، كذلك أمر القرآن النساء بالغض من أبصارهن في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، فلا يحل للنساء أيضاً أن ينظرن إلى الرجال عمداً، بل عليهن إذا وقع نظرهن عليهم أن يصرفنه إلا نظرة الفجاءة، ونظر المخطوبة إلى خاطبها، وإلا النظر إليهم عن بعد وهم يمشون في الأسواق أو يمارسون أعمالاً مباحة، فإنه من الجائز للمرأة لعدم الفتنة، كما نقل عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تنظر مع النبي ﷺ إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب في المسجد، أما نظرهن إلى الرجال عمداً وجهاً لوجه في المجالس فالأصل عدم جوازه، وهو داخل في النهي الوارد في الآية الكريمة، وللمرأة من حق النظر إلى خاطبها قبل الموافقة على الزواج به، مثلما له من حق النظر إلى المخطوبة.

أما نظرة الفجاءة، فإنها جائزة للرجل والمرأة، ولا مؤاخذ فيها، ويراد بها النظرة المفاجئة مرة واحدة، ولكن لا يحل لأحد - رجلاً كان أو امرأة - إذا نظر إلى الآخر وأحس من النظرة لذة ورغبة في المعاودة للتلذذ أن يعود إلى النظر إليه بعد نظرة الفجاءة هذه، فقد

(١٠٠٢) وأجاز فريق من الفقهاء إظهار الوجه والكفين من غير زينة، وقيّده بعضهم بشرط أمن الفتنة. (انظر: المؤلف: النظم الإسلامية ص١٩٩، ود. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، ص١٢٠ نقلاً عن: أحكام القرآن لابن العربي المالكي، ج:٢، ص: ٣٥٦، وناصر الدين الألباني: حجاب المرأة المسلمة، ص ٨٩.

جاء عن النبي ﷺ، إنه قال لعلي ﷺ: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة)[١٠٠٣] وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري)[١٠٠٤].

ومن آداب الإسلام للمرأة في الخروج والمشي ألا تمشي مشية تثير فتنة أو إغراء، تثير من خلالها مشاعر الرجل للتفكير فيها، أو في زينتها التي تخفيها، قال تعالى مرشداً المرأة إلى الأدب في المشي: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، لأنها في ذلك توقع الرجل في أحد إثمين: إثم سوء الظن بها، أو إثم النظر إليها، وكلاهما حرام. قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: «لا تضرب برجليها ليسمع قعقعة خلخالها، فإذا فعلت ذلك بالتبرج والتعرض للرجال فهو حرام»[١٠٠٥] ويقاس على حرمة ما تفعله المرأة من الضرب برجلها ليعلم ما تخفي في زينتها، وهو ما كانت تفعله النساء في الجاهلية، إذ تضرب برجلها الأرض ليظهر صوت خلخالها أو نحوه من الزينة المخفية لتثير انتباه الرجل إلى زينتها أو إلى وجودها، وهو ما نهت عنه الآية الكريمة، يقاس عليه كل فعل من أفعال المرأة إذا كان يثير حواس الرجال ومشاعرهم - لا بصرهم أو سمعهم فقط - لأنه ينافي الغاية التي لأجلها نهي النساء عن إظهار زينتهن، ومن ثم فقد نهى النبي ﷺ النساء أن يخرجن من بيوتهن متطيبات متعطرات، فعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات)[١٠٠٦] أي غير متطيبات - وقال ﷺ أيضاً: (لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل)[١٠٠٧].

ومن آدابها الإسلامية في الكلام واللمس، أن يكون كلامها مشروعاً ليس فيه ما ينهى عنه الشرع، وأن يكون هذا الكلام المشروع بعيداً عن الخضوع بالقول، بأن يكون قولها جزلاً وكلامها فصلاً، ليس فيه الميوعة واللين على نحو يطمع قلب السامع فيها قال تعالى:

(١٠٠٣) رواه أبو داود (١٨٣٧) وأحمد (١٣٠٢) والدارمي (٢٥٩٣).
(١٠٠٤) رواه مسلم واحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.
(١٠٠٥) ابن العربي المالكي: أحكام القرآن ص ١٣٦.
(١٠٠٦) رواه أبو داود (٤٧٨) وأحمد (٩٢٧٠) و والدارمي (١٢٤٨).
(١٠٠٧) رواه النسائي (٥٠٤١) وأبو داود (٣٦٤٣) وابن ماجة (٣٩٩٢) وأحمد (٧٠٥٢).

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢] وهذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى نساء النبي ﷺ أصلاً، إلا أنه يسري على نساء المسلمين لأن نساء النبي ﷺ قدوتهن في ذلك، وقد قال العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة: «أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يحدث في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين المطمع للسامع، وأخذ عليهن أن يكون قولهن معروفاً... »[١٠٠٨]، وكذلك لا يجوز للمرأة في الإسلام أن تمكن الأجانب عنها من لمس جسدها، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ كان يصافح الرجال في بيعة العقبة، ولا يصافح النساء، فدل ذلك على عدم جوازه من الرجل للمرأة وبالعكس، فعن عروة أن عائشة رضي الله عنها، أخبرته عن بيعة النساء فقالت: (ما مس رسول الله يد امرأة قط إلا أن يأخذ عليها، فإذا أخذ عليها – أي شروط البيعة – فأعطته قال: اذهبي فقد بايعتك)[١٠٠٩].

تلك هي باختصار تام أهم المبادئ التي جاء بها الإسلام في سلوك المرأة وآدابها، أرادها الإسلام سياجاً يحمي المجتمع من السقوط، وقصد من ورائها الحيلولة دون نشوء المفاسد في المجتمع، باستئصال الأسباب التي لأجلها توجد تلك المفاسد، وقد تكلمنا قبل الآن عن أهداف هذه المبادئ والتشريعات، ومزاياها وثمراتها فمن ضعفت نفسه، أو قصرت همته عن الالتزام بها – رجلاً أو امرأة – ولم يستطع تجنب مخالفتها كلها أو بعضها لقصور في نفسه أو ضعف في إيمانه، أو جهل بأهميتها وثمراتها غير عابئ بالجزاء الأخروي، فليس له أن يبرر ما هو عليه من مخالفة وعصيان وتقصير عن طريق التجريح بمبادئ الإسلام وشرائعه وانتقاصها أو الإتيان بالتأويلات الفاسدة لأجل أن يثبت خطأه صواباً!، وذنبه ثواباً!!، فإن ذلك من أقبح ما يلجأ إليه المذنب إذ يضيف إلى ذنبه ذنباً آخر أكبر منه بكثير هو الكفر إذا وقع في جحد نصوص القرآن الصريحة أو انتقاصها.

وقد شاهدنا وسمعنا كثيراً من الجاهلات بأسرار التشريع الإسلامي ممن اتخذن دينهن لهواً ولعباً وغرتهن الحياة الدنيا يدافعن عن التبرج مع انتسابهن إلى الإسلام ويطالبن بتغيير قوانين الأحوال الشخصية المبنية على الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين

(١٠٠٨) ابن العربي المالكي: أحكام القرآن ص ١٢٣.
(١٠٠٩) أخرجه مسلم (٣٤٧١) وأبو داود (٢٥٥٢) وأحمد (٢٣٦٨٥).

الغربية الفاسدة والمتخبطة محلها، مع جهلهن بمقدار التخبط الذي تنطوي عليه قوانين الأسرة في الغرب، والتي لا تساوي شيئاً يذكر أمام تشريعات الأسرة في الشريعة الإسلامية، ويطالبن بالزواج المدني الذي ينبذ كتاب الله وسنة رسوله بشأن ما هو حلال وما هو حرام، ويرفضن السنن الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ بشأن سفر المرأة مع زوج أو ذي محرم، كل ذلك بدعوى حقوق الإنسان وحقوق المرأة وانسياقاً وراء الغزو الفكري والثقافي الغربي الذي أدخل في حقوق الإنسان حق الإنسان في الزنا بالتراضي باعتباره واحداً من الحريات الشخصية الداخلة في حقوق الإنسان التي أقرتها القوانين الغربية، فانقلب تعريف الحق الذي هو: مصلحة مشروعة يحميها القانون، انقلب - بشأن هذه القضية - إلى: مفسدة مؤكدة يحميها القانون!!!، وأحرى بمثل هؤلاء النسوة أن ينظرن في حالهن قبل أن يدركهن الموت وتفوت فرصة التوبة، وأن يتركن هذا الجهل والضلال والنظرة السطحية للأمور، وأن يتعلمن العلم الحق، ويتركن معاندة الله ورسوله، ويستنقذن أنفسهن من النار، والموفق من وفقه الله إلى التوبة، والمخذول من حجب الله عنه توفيقه ووكله إلى نفسه الأمارة بالسوء وهواها. والله المستعان.

٩٥٥- الأمر الثاني - بيان أسباب إصرار المرأة على معصية التبرج وملحقاتها، ومعالجة تلك الأسباب:

وأما سبب إصرار المرأة على معصية التبرج وإبداء الزينة وملحقات ذلك، فهي نفسها الأسباب الباعثة على الإصرار على كل معصية يصر عليها الإنسان، وهي الآفات المانعة من التوبة والصارفة عنها، وهي موجودة كلاً أو بعضاً في العاصي بحيث سببت له الإصرار، ولا يشترط وجودها كلها فيه، وهي: حب الدنيا وشهواتها، وطول الأمل، والتعلق بالرجاء من غير عمل، والقنوط من رحمة الله، والشك في وعد القرآن (وهذا كفر)، والاحتجاج بالقدر، وتزيين الشيطان لكل ما تقدم.

وقد شرحنا هذه الأسباب بالتفصيل في فصل سابق تحت عنوان: «البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة» فارجع إليه. ولترجع إليه ابنتنا وأختنا الواقعة ضحية الإصرار، وتزن نفسها بميزانه، وتحاول اكتشاف نفسها من الداخل، وتدرس العلاج لحل عقدة الإصرار الوارد في نهاية ذلك الفصل، ليعينها ذلك في التوبة النصوح من معصية الإصرار على التبرج وملحقاته، ولكي تتعلم كيف تزكي نفسها بالتوبة وطاعة الله ورسوله، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته، فتحرز التقوى، لتعرض يوم

القيامة على الله تعالى نفسا زكية محبوبة عند الله يقال لها: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤] ويقال لها ساعة الموت: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فإن استعصت عليك نفسك وأبت طاعة الله ورسوله ورغبت أن تبقى لاهية القلب أمارة بالسوء ظالمة جاهلة فقولي لها:

يا نفس: إلى متى أريد لك الجنة وتريدين لي النار؟.

يا نفس: ألم تسمعي بقول ربنا جل جلاله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ [المعارج: ١١-١٦].

وحاوريها ولتجبك:

يا نفس: هل تشكين في صدق الله ورسوله وأننا إليه راجعون وعليه معروضون وعنده محاسبون؟ ستقول: لا.

يا نفس: فهل تستطيعين أن لا تموتي؟ ستقول: لا.

يا نفس: فهل تستطيعين أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء أو تعجزينه هرباً؟ ستقول: لا.

يا نفس: فإذا كان لم ينفع معك (العلم) بكل هذا، ولم يردعك عن الإصرار على المعصية فتعالي أذيقك شيئاً فلعل (الذوق) ينفع معك.. تعالي معي إلى المطبخ وها قد أشعلت لك نار الطباخ وسأضع يدك داخل النار عشر دقائق فقط!!.

ستقول: لا، أرجوك لا تفعلي فإن يدي ستشوى وكيف أصبر على ذلك؟

قولي لها: فخمس دقائق فقط!!.

ستقول: لا، إن ذلك كاف لأن يغلي دماغي من شواء يدي، لا أقدر على ذلك.

قولي لها: فدقيقة واحدة فقط!! ستون ثانية ليس أكثر!!.

ستقول: ومن يقدر على ذلك حتى أقدر عليه، إنه الشواء بالنار فمن يقدر عليه ولو لنصف دقيقة أو أقل؟.

قولي لها: ولكن لا بد لك من (الذوق) على كل حال، لأنه لم ينفع معك (العلم)، فخذي يدها رغماً عنها وضعيها في النار (عشر ثوان) فقط ولا تسمحي لها بالفرار أو الانفلات، واستمعي إلى بكائها وصراخها وصياحها وعويلها، ثم خلي بينها وبين النار وقولي لها وهي لا تزال تطلق الآهات والزفرات والدموع: كيف وجدت مس النار يا لاهية القلب، غافلة عن يوم الحساب، أمارة بالسوء؟ وهذه نار الدنيا فكيف بنار الآخرة؟ وكيف إذا كان الإحراق بالنار ساعة كاملة، وليس يدك فقط بل جسمك كله!! فكيف إذا كان يوماً؟ فكيف إذا كان شهراً أو شهوراً؟ فكيف إذا كان سنة أو سنوات؟ فكيف إذا كان الإحراق مئات السنين وآلاف السنين؟ فكيف إذا كان مئات الآلاف من السنين؟ فكيف إذا كان مستمراً أبد الآبدين؟؟!!.

ثم قولي لها: هل فقهت الآن معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

واسأليها: هل لك أن تقايسي بين الدنيا والآخرة؟ بين متاع نكد زائل ونعيم دائم مقيم في جنات النعيم كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠] فتقايسون بينهما وتختارون الخالد الباقي الشريف على الزائل الفاني الوضيع الذي مهما تمتعت به فإن الموت آت بعده، ثم الجزاء والخلود، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

ثم اختمي الحوار معها وقولي: هيا إلى التوبة قبل فوات الأوان، هيا قبل أن يخطفك الموت ويذهب بك إلى ربك حيث ليس معك عما عملت جواب، ولا يؤذن لك بالاعتذار أو الاستعتاب، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] وقال: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

فهيا إلى التوبة واسألي اللاتي تبن إلى الله قبلك من النساء - وكثير منهن مشهورات شهرة واسعة -، اسأليهن وغيرهن عن حسن حياتهن بعد التوبة ونعيمها في العبادة والطاعة والتنقل في رياض مناجاة رب العالمين، فقد صارت الواحدة منهن تكره أن تعود إلى حياة الضياع والتبرج والمعصية كما تكره أن تقذف في النار، وصارت تبكي نادمة على سوء أيامها الأول، داعية ربها العفو الغفور أن يغفر زلتها، ويقيل عثرتها، ويرحم دمعتها، ويلحقها بالصالحين ويدخلها في جنات النعيم، وصارت الواحدة منهن بعد التوبة تشتاق إلى القرآن اشتياق الظمآن، وإذا ذكر النبي المصطفى ﷺ أمامها دمعت عيناها وودت لو تشتري رؤية رسول الله بأهلها ومالها.

فسارعي يا أختاه، وسابقي يا بنتاه، وقولي: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤] فإن العمر قصير، والأجل قريب، والرسول بك رؤوف رحيم يدعوك ويناديك إلى ترك المعصية وإلى طاعة ربك من قبل أن تفلت من بين يديك الفرصة، والله من فوقك حاضر ناظر سامع شهيد، ينظر ماذا أنت فاعلة؟. والله يتولاك بالتوفيق ويصرف عنك الخذلان، والله المستعان.

٩٥٦- تاسعاً - التوبة من الزنا:

حرم الله تبارك وتعالى الزنا لما فيه من المفاسد الكبرى، فهو يفضي إلى اختلاط الأنساب، وخراب البيوت، والقتل ثأراً للعرض، وكساد الزواج، والأمراض المستعصية القاتلة كالإيدز الذي يحصد سنوياً الملايين ويذهب بهم إلى القبور في ظل شيوع المبادئ الإباحية الغربية وإقرار القوانين الغربية لها بدعوى الحرية الشخصية.

٩٥٧- تعريف العلماء للزنا:

وقد عرف العلماء الزنا الموجب للحد بتعريفات عدة:

عرفه الحنفية بأنه: «وطء مكلف طائع مشتهاة حالاً أو ماضياً في قبل خال من ملكه وشبهته في دار الإسلام، أو تمكينه من ذلك، أو تمكينها.

وعرفه المالكية: بأنه وطء مكلف مسلم فرج آدمي لا ملك له فيه بلا شبهة تعمداً.

وهو عند الشافعية: إيلاج حشفة أو قدرها في فرج محرم لعينه مشتهى طبعاً بلا شبهة.

وعرفه الحنابلة: بأنه فعل الفاحشة في قبل أو في دبر»[1010].

٩٥٨- تشديد القرآن والسنة في النهي عن الزنا:

وقد نهت الشريعة الإسلامية عن قربان الزنا في كتاب الله وسنة رسوله، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله جل شأنه ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. وفي السنة النبوية عن النبي ﷺ أنه سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال (الفم والفرج)[1011].

وذكر الله تعالى جريمة الزنا مقترنة بجريمتي الإشراك بالله، والقتل، لبيان شدة حرمتها، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨].

٩٥٩- الزنا يرفع الإيمان من القلب ساعة وقوعه:

وفي السنة النبوية أن الزنا يرفع الإيمان أي يزيله ساعة وقوع الزنا، قال ﷺ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[1012]، وفي السنة أيضا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان، كان عليه كالظلة، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان)[1013].

«وعن ابن عباس أنه كان يعرض على مملوكه الباءة ويقول من أراد منكم الباءة زوجته فإنه لا يزني زان إلا نزع الله منه ربقة الإيمان فإن شاء أن يرده إليه رده بعد وإن شاء أن يمنعه منعه»[1014].

(١٠١٠) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج٢٤ ص: ١٨.
(١٠١١) أخرجه ابن ماجة (٤٢٣٦)، وأحمد (٧٥٦٦) و (٨٧٣٤).
(١٠١٢) البخاري (٢٢٩٥)، ومسلم (٨٦).
(١٠١٣) أخرجه أبو داود (٤٠٧٠).
(١٠١٤) ابن حزم: المحلى ج: ١١ ص: ١٢١، ومصنف ابن أبي شيبة ج:٤ ص:٤٦، ونوادر الأصول في أحاديث الرسول: ج:١ ص:٢٧٤، وتحفة الأحوذي: ج: ٧ ص:٣١٤ وتغليق التعليق: ج:٥ ص:٢٣٠.

٩٦٠- كلام ابن القيم في تشديد الشريعة في الزنا وبيان طرق الوقاية منه:

وقد تكلم ابن القيم في بيان الحكمة من تشدد الشرع في تحريم الزنا، وفي بيان طريق الوقاية منه فقال[(١٠١٥)]: «ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحمايه الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سننه... قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنا.

وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول... ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار في الدنيا، وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال... وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٧]، وهذا يتضمن ثلاثة أمور: من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك...

وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة، ولهذا قيل من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه... فينبغي للعبد أن

(١٠١٥) ابن القيم: الجواب الكافي: ج:١ ص:١٠٥

يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر ما علا تتبيراً»[1016].

٩٦١- حفظ البصر أصل حفظ الفرج:

«... فأما اللحظات [وهي النظرات] فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك، وقد قال النبي ﷺ: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية)[1017]، وفي المسند عنه ﷺ (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورث في قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة)[1018]هذا معنى الحديث، وقال (غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم)[1019]...

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة

(١٠١٦) ابن القيم: الجواب الكافي: ج:١ص:١٠٥-١٠٦ مع التشذيب والاختصار والمحافظة على عبارة ابن القيم.

(١٠١٧) أخرجه أبو داود (١٨٣٧)، وأحمد (١٣٠٢) و(٢١٨٩٦) و(٢١٩١٣) و(٢١٩٤٣)، كلها بلفظ (وليست لك الآخرة)، والدارمي (٢٥٩٣) بلفظ (فإن الأولى لك والآخرة عليك).

(١٠١٨) أخرجه أحمد (٢١٢٤٧) بلفظ (ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها). وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٣٤٩ حديث رقم (٧٨٧٥) قال: حدثنا أبو بكر بن إسحاق أنبأ محمد بن غالب ثنا إسحاق بن عبد الواحد القرشي ثنا هشيم عن عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١٠١٩) أحمد (٢١٦٩٥) بلفظ: (... واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم). والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٨٠٦٦) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: (اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر علي ألم ما بعده...»[1020].

٩٦٢- مراتب فاحشة الزنا:

ونصوص السنة النبوية الصحيحة دالة على أن إثم جريمة الزنا - على عظمه - يتغلظ بحسب الأحوال، فهي أعظم إثماً إذا وقعت مع حليلة الجار أو امرأة الغازي في سبيل الله أو من الشيخ الكبير السن أو من المحصن، وكذلك في الأماكن الشريفة أو الأوقات الشريفة.

وبالجملة فمراتب هذه الفاحشة متفاوتة من حيث الإثم والجزاء في الآخرة بحسب مفاسدها وإن تساوت في العقوبة الدنيوية - وهي الجلد للبكر والرجم للمحصن - فالمتخذ خدناً من النساء والمتخذة خدنا من الرجال - على عِظَم جرمه - أقل شراً من المسافح والمسافحة مع كل أحد، والمستخفي بما يرتكبه أقل إثماً من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثماً من المخبر المحدث للناس به، فهذا بعيد من عافية الله تعالى وعفوه كما قال النبي [ﷺ]: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يستر الله تعالى عليه ثم يصبح يكشف ستر الله عنه يقول يا فلان فعلت البارحة كذا وكذا فيبيت ربه يستره ويصبح يكشف ستر الله عن نفسه) أو كما قال، وفي الحديث الآخر عنه: (من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)[1021].

«وفي الحديث الآخر (إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة)[1022]، وكذلك الزنا بذات الزوج أعظم إثماً من الزنا بالمرأة التي لا زوج لها لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه وإفساد فراشه عليه، والزنا بحليلة الجار أعظم من الزنا ببعيدة الدار لما اقترن بذلك من أذى الجار وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به، وكذلك الزنا بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثماً عند الله من الزنا بغيرها ولهذا يقام له يوم القيامة ويقال له خذ من حسناته ما شئت.

(١٠٢٠) المرجع السابق: ج:١ ص:١٠٦ مع الاختصار.

(١٠٢١) إغاثة اللهفان ج: ٢ ص: ١٤٧ (بتصرف).

(١٠٢٢) شعب الإيمان: ٦/ ٩٩، والفردوس بمأثور الخطاب: ٢/ ٢٠٨، والتمهيد لابن عبد البر: ٢٤/ ٣٠٩، وفيض القدير: ١/ ٤٠٠، وصفوة الصفوة: ٤/ ٢١٧.

وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان، والمكان، والأحوال، وبحسب الفاعل: فالزنا في رمضان ليلاً أو نهاراً أعظم إثماً منه في غيره، وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثماً منه فيما سواها.

وأما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنا من الحر أقبح منه من العبد ولهذا كان حده على النصف من حده، ومن المحصن أقبح منه من البكر، ومن الشيخ أقبح منه من الشاب، ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم الشيخ الزاني، ومن العالم أقبح منه من الجاهل لعلمه بقبحه وما يترتب عليه وإقدامه على بصيرة، ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز»[(١٠٢٣)].

٩٦٣- بيان قبول التوبة من الزنا وأحكامها:

٩٦٤- دليل قبول التوبة من الزنا في القرآن والسنة:

وقبول الله تعالى لتوبة العبد من الزنا جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١] وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وجاء في صحيح مسلم[(١٠٢٤)] عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعو لحسن ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

(١٠٢٣) إغاثة اللهفان ج: ٢ ص: ١٤٨.

(١٠٢٤) أخرجه مسلم (١٧٤)، والنسائي (٣٩٣٨).

بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: ٥٣].

٩٦٥- ينصح التائب بهجر الأجواء والأحوال التي تسببت في خطيئة الزنا:

وإذا كان كل تائب ينصح بهجر الأجواء والأحوال التي تسببت في خطيئته كما في حديث القاتل تسعة وتسعين نفساً حيث أمر بهجران القرية التي كان فيها فإن هذا المبدأ يتأكد بدرجة أقوى وبصفة خاصة في التوبة من الزنا، لأن مقدمات الزنا لها وضع خاص فهي تحجب قدراً كبيراً من العقل وتنسي كثيراً من الناس كل النصوص التي يحفظونها.. تنسيهم إياها ساعة تلبسهم بتلك المقدمات حتى لو كان أحدهم كيساً عاقلاً كما دل على ذلك الحديث الصحيح: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل العاقل من إحداكن)[١٠٢٥] ولذلك كان من دعاء بعض الصالحين: اللهم نعوذ بك من البدايات التي تقود إلى سوء النهايات.

٩٦٦- صحة التوبة من الزنا من غير حاجة إلى الاعتراف أمام أي أحد من الناس:

وتصح التوبة من الزنا للرجل والمرأة من غير حاجة إلى الإقرار أمام أي أحد، بل تكون بين العبد وربه جل جلاله وذلك بالندم على ما فرط في جنب الله تعالى، والإقلاع عن هذه الفاحشة، والعزم في القلب على أن لا يعود إليها في الاستقبال وأن يكون ذلك خوفاً من الله تعالى أو حياء منه.

٩٦٧- توبة الزاني صحيحة ولو لم توقع عليه العقوبة الشرعية، وندب الستر:

وليس من شرط صحة التوبة من الزنا إيقاع العقوبة الشرعية على الزاني التائب، وليس مستحباً له شرعاً أن يقر على نفسه بالزنا بقصد إيقاع العقوبة عليه، بل المستحب له شرعاً الستر لقوله ﷺ (أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)[١٠٢٦].

(١٠٢٥) سبق أن قدمنا شرحا لهذا الحديث في معنى نقصان العقل والدين عند كلامنا في موضوع توبة النساء من التبرج فارجع إليه.

(١٠٢٦) موطأ مالك (١٢٩٩). وانظر أيضاً: المستدرك على الصحيحين ج:٤ ص:٢٧٢ ومجمع الزوائد ٦/ ٢٤٧ ومصنف عبد الرزاق ٧/ ٣٦٩ والمعجم الكبير ٩/ ١٧٤ وفتح الباري ١٠/ ٤٨٧ وشرح الزرقاني ٤/ ١٨٠ وسبل السلام ٤/ ١٥.

٩٦٨- زنا ماعز والغامدية ثبت بالإقرار، ولو رجعا عنه لصح الرجوع، ولصحت توبتهما من غير إقامة للحد:

أما ما ورد في السنة الصحيحة من أن ماعزاً والغامدية أقرا على نفسيهما بالزنا في واقعتين منفصلتين بقصد إيقاع العقوبة الشرعية عليهما فإنه لا يعني أن الإقرار شرط في صحة التوبة، أو أن إيقاع العقوبة شرط في صحتها أيضاً، وذلك لأن النبي ﷺ ردهما مراراً رغبة منه في أن يتركا الثبات على الإقرار، ولأن توبتهما بينهما وبين الله تعالى تصح بدون هذا الإقرار، إلا أنهما أصرا على إقامة الحد عليهما، وقد أقيم فعلاً، فكانت توبتهما أعلى من مجرد توبة، بل كانت توبة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم كما ورد في الحديث الشريف(١٠٢٧).

ولو أقر على نفسه بالزنا أمام القضاء ثم رجع عن إقراره الصحيح قبل منه رجوعه من غير اعتراض عليه أو سؤال لأن الزنا من الحدود الخالصة حقاً لله تعالى وجميعها تقبل الرجوع عن الإقرار بإرادة المقر، بل ينبغي أن يلقنه القاضي الرجوع عن الإقرار، ما دام الزنا قد ثبت بالإقرار لا بالبيّنة، ويندرئ بذلك الحد، وتصح توبته بينه وبين الله تعالى كما ذكرنا.

٩٦٩- عدة المزني بها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وتعتد المزني بها بحيضة واحدة وهو رواية عن أحمد»(١٠٢٨) والمقصود بذلك استبراء الرحم دفعاً لاختلاط الأنساب.

وجاء في «المبدع» في الفقه الحنبلي: وكذلك عدة المزني بها... أنها تستبرأ بحيضة»(١٠٢٩).

(١٠٢٧) أخرجه مسلم (٣٢٠٩) عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت يا نبي الله أصبت حداً فأقمه علي فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشكت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت فقال: (لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى). وانظر أيضاً النسائي(١٩٣١) وأبو داود (٣٨٥٢) وأحمد (١٩٠١٥) والدارمي (٢٢٢٢).

(١٠٢٨) الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٥٨٨.

(١٠٢٩) ابن مفلح: المبدع ج: ٨ ص: ١٣٤.

وقال ابن القيم: «وأما الزانية... فموجب الدليل أنها تستبرأ بحيضة فقط ونص عليه أحمد في الزانية... وهو الراجح»[(١٠٣٠)].

٩٧٠- حكم المهر للمستكرهة على الزنا:

قال ابن تيمية: «ولا يجب المهر للمكرهة على الزنا وهو رواية عن أحمد ومذهب أبي حنيفة واختيار أبي البركات وذكر أبو العباس في موضع آخر الجواب عن أبي بكر التفرقة فأوجبه للبكر دون الثيب ورواه ابن منصور عن الإمام أحمد»[(١٠٣١)].

ويرى ابن القيم أن الحرة إذا أكرهت على الزنا وجب لها المهر بكراً كانت أو ثيباً[(١٠٣٢)].

وفي المنتقى شرح الموطأ - من الفقه المالكي -: «المستكرهة لا يخلو أن تكون حرة أو أمة فإن كانت حرة فلها صداق مثلها على من استكرهها وعليه الحد وبهذا قال الشافعي وهو مذهب الليث وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ.

وقال أبو حنيفة والثوري: عليه الحد دون الصداق والدليل على ما نقوله أن الحد والصداق حقان أحدهما لله والثاني للمخلوق فجاز أن يجتمعا كالقطع في السرقة وردها قال مالك: وسواء كانت حرة مسلمة أو ذمية أو صغيرة افتضها»[(١٠٣٣)].

ويلحق بموضوع التوبة من كبيرة الزنا، التوبة من كبيرتين أخريين هما كبيرة اللواط، وكبيرة مساحقة النساء، وسنلقي بعض الضوء على هاتين الكبيرتين وكيفية التوبة منهما ضمن الفقرات الآتية.

٩٧١- عاشراً - التوبة من جريمة اللواط:

حقق ابن القيم هذه المسألة مبيناً أقوال علماء السلف والخلف فيها، ونحن نقدم تحقيقه - مشذباً - مع المحافظة على عبارته، قال:

(١٠٣٠) ابن القيم: إعلام الموقعين ج: ٢ ص: ٩٠.
(١٠٣١) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٥٥٧.
(١٠٣٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٦٦.
(١٠٣٣) سليمان بن خلف الباجي: المنتقى شرح الموطأ ج:٥ ص:٢٦٩ وانظر أيضاً: الأم للشافعي ج:٣ ص:٢٦٤.

«ولما كانت مفسدة اللواط [وهو إتيان الذكور في أدبارهم] من أعظم المفاسد، كانت عقوبتة في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات، وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنا، أو الزنا أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء على ثلاثة أقوال:

٩٧٢- أقوال الفقهاء في عقوبة جريمة اللواط:

فذهب أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك وإسحاق بن راهويه والإمام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في أحد قوليه إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن.

وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وقتادة والأوزاعى والشافعي في ظاهر مذهبه والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى عقوبته وعقوبة الزانى سواء.

وذهب الحاكم والإمام أبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير..»[١٠٣٤].

٩٧٣- أدلة التغليظ في عقوبة جريمة اللواط:

«قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة: ليس في المعاصي مفسدة أعظم من مفسدة اللواط، وهى تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه إن شاء الله تعالى، قالوا: ولم يبتلِ الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة... قالوا: والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي، إن شاء قتل، وإن شاء عفا، وحتم قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين...»[١٠٣٥].

(١٠٣٤) ابن القيم: الجواب الكافي ج: ١ ص: ١١٨.

(١٠٣٥) ابن القيم: الجواب الكافي: ج: ١ ص: ١١٩.

«... وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث، وإسناده على شرط البخاري، قالوا: وثبت عنه ﷺ أنه قال: (لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط)، ولم تجئ عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات...»[1036].

وما جاء في القرآن الكريم بشأن قوم لوط من حيث وصف ذنبهم، ومن حيث نوع العقوبات التي عاقبهم الله تعالى بها، يدل على أنه من أعظم الذنوب وأنه ربما كان أكبر من الزنا، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

«ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قُلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١]، فتأمل هل جاء ذلك أو قريباً منه في الزنا؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وسماهم مفسدين في قول نبيهم: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم فقيل له: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦]، وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاؤوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صوراً، فأقبل اللوطية إليهم يهرعون، فلما رآهم قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ

(١٠٣٦) ابن القيم: الجواب الكافي: ج: ١ ص: ١٢٠.

لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفاً على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨] فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]، فنفث نبي الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك، فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَۖ﴾ [هود: ٨١]، وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعد هلاكهم وقال أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بأن يقلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٥-٧٧].

أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم ببأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، تقلبت تلك اللذات آلاما فأصبحوا بها يعذبون.

مــآربُ كانــت في الحيــاة لأهلِهــا عِــذاباً فــصارتْ في الممــاتِ عَــذاباً

ذهبت اللذات وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات وأورثهم الشقوات، تمتعوا قليلاً وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذاباً أليماً، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات

فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] »[١٠٣٧].

٩٧٤- قبول التوبة من اللواط وصحتها:

وتصح التوبة من اللواط من غير حاجة إلى الإقرار أمام أي أحد - إذا لم تكن الواقعة ثابتة بالبينة - بل تكون التوبة بين العبد وربه جل جلاله وذلك بالندم على ما فرط في جنب الله تعالى، والإقلاع عن هذه الفاحشة، والعزم في القلب على أن لا يعود إليها في الاستقبال وأن يكون ذلك خوفاً من الله تعالى أو حياء منه.

وليس من شرط صحة التوبة من اللواط إيقاع العقوبة الشرعية على الفاعلين التائبين، وإنما العقوبة للزجر والردع إذا ثبتت الجريمة بالبينة، أو الإقرار، وليس مستحباً لأي منهما شرعاً أن يقر على نفسه باللواط بقصد إيقاع العقوبة الشرعية عليه، بل المستحب له شرعاً الستر لقوله ﷺ: (أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)[١٠٣٨].

ولو أقر على نفسه باللواط أمام القضاء ثم رجع عن إقراره الصحيح قبل منه رجوعه قياساً على الحدود الخالصة حقاً لله تعالى وجميعها تقبل الرجوع عن الإقرار بإرادة المقر بل ينبغي أن يلقنه القاضي الرجوع عن الإقرار ما دام الذنب ثابتاً بالإقرار وحده من غير وجود بينة، ويندرئ بذلك العقاب كما هو الحال في الحدود الخالصة حقاً لله تعالى، وهذا لا يمنع من العقوبة التعزيرية الموجعة.

(١٠٣٧) ابن القيم:الجواب الكافي ج: ١ ص: ١٢١-١٢٢

(١٠٣٨) موطأ مالك (١٢٩٩). وانظر أيضاً: المستدرك على الصحيحين ج:٤ ص:٢٧٢ ومجمع الزوائد ٦/ ٢٤٧ ومصنف عبد الرزاق ٧/ ٣٦٩ والمعجم الكبير ٩/ ١٧٤ وفتح الباري ١٠/ ٤٨٧ وشرح الزرقاني ٤/ ١٨٠ و سبل السلام ٤/ ١٥.

وتصح توبته بينه وبين الله تعالى كما ذكرنا بأركانها المعلومة وهي: الندم على ما فرط في جنب الله تعالى، والإقلاع عن الذنب في الحال، والعزم على أن لا يعود إليه في الاستقبال، وأن يكون ذلك خوفاً من الله تعالى أو حياء منه، ويساعده في دوام هذه التوبة إلى الموت هجرانه للأجواء والأشخاص والأحوال التي تسببت في وقوعه بهذه الكبيرة كما جاء في حديث القاتل تسعة وتسعين نفساً حيث أمر بهجران قريته من أجل دوام توبته إلى الموت.

٩٧٥- حادي عشر- التوبة من المساحقة

السحاق والمساحقة لغة واصطلاحاً: أن تفعل المرأة بالمرأة مثل صورة ما يفعل بها الرجل[١٠٣٩]، وقد مر بك سابقاً تعريف الزنا بأنه: «إيلاج حشفة أو قدرها في فرج محرم لعينه مشتهى طبعاً بلا شبهة. فالزنا والسحاق يتفقان من حيث الحرمة حيث إن كلاً منهما استمتاع محرم، ويختلفان من حيث الحقيقة والمحل والأثر»[١٠٤٠].

وذكر الهيتمي مساحقة النساء ضمن الكبائر وعرفه بنفس التعريف السابق فقال: مساحقة النساء: وهو أن تفعل المرأة بالمرأة مثل صورة ما يفعل بها الرجل). ثم قال: كذا ذكره بعضهم واستدل له بقوله ﷺ: (السحاق زنا النساء بينهن)[١٠٤١].

قال ابن تيمية: «... وعلى هذا فالمرأة المساحقة زانية كما جاء في الحديث: (زنا النساء سحاقهن) والرجل الذي يعمل عمل قوم لوط بمملوك أو غيره هو زان»[١٠٤٢].

وجاء في مجمع الزوائد: «عن واثلة قال: قال رسول الله ﷺ: (السحاق بين النساء زنا بينهن) رواه الطبراني، ورواه أبو يعلى ولفظة قال رسول الله ﷺ: (سحاق النساء بينهن زنا) ورجاله ثقات»[١٠٤٣].

وتكلم الآلوسي في تفسيره بمناسبة ذكر قوم لوط وفاحشتهم فذكر السحاق قائلاً: «وألحق بها بعضهم السحاق، وبدأ أيضاً في قوم لوط عليه السلام [أي مثلما كانت بداية اللواط

(١٠٣٩) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج:٢٤ ص:٢٥١.
(١٠٤٠) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج:٢٤ ص:٢٥١.
(١٠٤١) المعجم الكبير ج:٢٢ ص:٦٣، وفيض القدير ٣/ ٤٥٨ ولسان الميزان ٢/ ٢٨.
(١٠٤٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٢١.
(١٠٤٣) مجمع الزوائد ج: ٦ ص: ٢٥٦.

فيهم حيث ذكر معظم المفسرين نقلاً عن السلف أنه: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا قبل قوم لوط قط]، فكانت المرأة تأتي المرأة، فعن حذيفة رضي الله عنه إنما حق القول على قوم لوط عليه السلام حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال، وعن أبي حمزة رضي الله عنه ، قلت لمحمد بن علي: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء» (١٠٤٤).

وقال ابن القيم: «النساء إذا خيف عليهن المساحقة حرم خلوة بعضهن ببعض»(١٠٤٥).

وتسمية الحديث الشريف لهذا الذنب بأنه زنا لا يقصد به الزنا الموجب للحد لأن الزنا الموجب للحد له مفهومه الخاص به المستمد من القرآن والسنة والذي بنى عليه الفقهاء تعريفهم للزنا وهو زنا الرجل بالمرأة على النحو المعروف، وإنما يقصد بكون المساحقة زنا أنه نوع من أنواع الزنا وأنه معصية وقد عدها العلماء من الكبائر وأنه يستوجب العقوبة في الدنيا، والإثم والعقوبة في الآخرة، وعقوبته الدنيوية هي التعزير أي التأديب(١٠٤٦). وليست العقوبة الحد كما هو الحال في الزنا.

٩٧٦- ثاني عشر: التوبة من القتل:

شدد الله تبارك وتعالى في حرمة قتل النفس بغير حق فقال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢]، فجعل قيمة النفس الإنسانية المعصومة الدم كقيمة البشرية جميعها إماتة وإحياء، وهو تقويم للنفس البشرية لم يعرفه الفكر القانوني الوضعي قديماً وحديثاً، وشدد القرآن الكريم في قتل المؤمن فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

(١٠٤٤) الآلوسي: تفسير روح المعاني ج: ٨ ص: ١٧٣.

(١٠٤٥) ابن القيم: إعلام الموقعين ج٤ ص٣٧٨.

(١٠٤٦) وإطلاق اسم الزنا على السحاق هو من قبيل الاستعمال الشرعي العام لكلمة الزنا، فإن الشرع قد استعمل كلمة الزنا بالمعنى الخاص وبالمعنى العام أيضاً كما قال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) أخرجه مسلم (٤٨٠٢) واللفظ له، وأحمد (٧٨٦٨) وغيرهما.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وربط النبي ﷺ حرمة قتل النفس المؤمنة بأعظم الحرمات فقال في حجة الوداع فيما رواه البخاري ومسلم: (عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)(١٠٤٧).

«وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً يقول يا رب سل هذا فيما قتلني؟ فذكروا ذلك لابن عباس فتلى هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] قال الترمذي هذا حديث حسن...وفي جامع الترمذي عن نافع قال نظر عبد الله بن عمر يوما إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك) قال الترمذي هذا حديث حسن... وفي بعض السنن عنه ﷺ : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»(١٠٤٨).

٩٧٧- قول ابن تيمية - موافقاً للجمهور- أن توبة القاتل تصح وتقبل:

تكلم ابن تيمية رحمه الله بشأن توبة القاتل فبين أن القول بعدم قبول توبته قول ضعيف وأن الدليل الصحيح والقوي هو مع قول الجمهور الذي يقول بقبول توبة القاتل فقال رحمه الله: «ومن ذلك توبة قاتل النفس، والجمهور على أنها مقبولة، وقال ابن عباس لا تقبل، وعن أحمد روايتان.

(١٠٤٧) متفق عليه: البخاري (١٦٢٣) واللفظ له، ومسلم (٣١٧٩).

(١٠٤٨) ابن القيم: الجواب الكافي: ج: ١ ص: ١٠٤.

وحديث قاتل التسعة والتسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته، وهذه الآية [يعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]] تدل على ذلك، وآية النساء [يعني: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣]] إنما فيها وعيد، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠] ومع هذا فهذا إذا لم يتب.

٩٧٨- كل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة:

وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقاً به وإن تاب؟ هذا في غاية الضعف، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل [أي بالقصاص من الجاني وإن تاب] بل التوبة تُسقط حق الله، والمقتول مطالبه بحقه، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدين، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:(الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين)[1049]، لكن حق الآدمي يعطاه من حسنات القاتل، فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول. ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس، لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب، الشرك، و القتل، و الزنا، وغير ذلك من حيث الجملة، فهي [أي الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]] عامة في الأفعال، مطلقة في الأشخاص،... وكذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١] عام في الأولاد عام في الأحوال، إذ قد يكون الولد موافقاً في الدين ومخالفاً، وحراً وعبدا، واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال.

(١٠٤٩) رواه مسلم (٣٤٩٨) بلفظ: يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين، و(٣٤٩٩)، والنسائي (٣١٠٤) و(٣١٠٥)، وابن ماجه (٢٧٦٨)، وأحمد (٦٧٥٤)، ومالك ٨٧٥)، والدارمي (٢٣٠٥).

وكذلك قوله: ﴿ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾ [الزمر: ٥٣] عام في الذنوب مطلق في أحوالها، فإن الذنب قد يكون صاحبه تائباً منه وقد يكون مصراً، واللفظ لم يتعرض لذلك، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب، ونهي عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٩]، فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها كالتي كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها»(١٠٥٠).

٩٧٩- تحرير ابن القيم لتوبة القاتل وبيان صحتها وقبولها :

أما العلامة المحقق ابن القيم فقد تعرض لهذه المسألة وأورد أدلة الجمهور بقبول توبته وأدلة غيرهم بعدم قبولها وهو رأي ابن عباس وإحدى الروايتين عن أحمد، ثم بين ما رآه صواباً وهو قبول توبته وجزم به فقال: «فالصواب والله أعلم أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعاً إلى الوارث ليستوفي منه حق مورثه، سقط عنه الحقان وبقي حق المورث [المقتول لأن مظلمته بقتله وتفويت نفسه لم تعوض ولم تنجبر بالقصاص فهي مظلمة باقية وحق باق للمظلوم] لا يضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويض المقتول لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله، والتوبة النصوح تهدم ما قبلها فيعوض هذا عن مظلمته ولا يعاقب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلماً في الصف ثم أسلم وحسن إسلامه فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول ويغفر للكافر بإسلامه ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً فإن هدم التوبة لما

(١٠٥٠) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ج:١٦ ص:٢٥-٢٧ وانظر تحرير ابن القيم لهذه المسألة موافقاً لشيخه فيها وللجمهور مع مزيد من استعراض أقوال الفقهاء ومزيد من الاستدلال لصحة توبة القاتل في كتابه: مدارج السالكين: ج:١ ص: ٣٩٣-٣٩٨.

قبلها كهدم الإسلام لما قبله، وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد فعفا عنه الولي وتاب القاتل توبة نصوحاً فالله تعالى يقبل توبته ويعوض المقتول. فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده والحكم بعد ذلك لله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [النمل: ٧٨] »(١٠٥١).

٩٨٠- الترجيح: توبة القاتل تصح وتقبل:

ونحن بدورنا نرى أن الصواب في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الجمهور من قبول التوبة، للأدلة التي ساقوها، وأيضاً لأن الله تبارك وتعالى قال في وصف المؤمنين ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فهذه الآيات ذكرت الشرك والقتل والزنى ووعدت من تاب منها بالمغفرة وتبديل سيئاته حسنات فلو كان القتل لا توبة لصاحبه لما ذكر ضمن ما ذكرته الآية ضمن الأفعال التي دعت إلى التوبة منها.

٩٨١- ثالث عشر - توبة من تكررت ردته:

قد يتبادر إلى الذهن من ظاهر بعض النصوص في القرآن الكريم أن من تكررت ردته عن الإسلام لا تقبل توبته، وقد حقق هذا الموضع شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في معرض بيانه أن جميع الذنوب تقبل التوبة منها بدون استثناء وأنه ليس هنالك من لا تقبل توبته بسبب جنس الذنوب التي ارتكبها ونحن نورد تحقيقه للمسألة - مشذباً - مع المحافظة على عبارته.. قال شيخ الإسلام(١٠٥٢):

«فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء: ١٣٧]،

(١٠٥١) ابن القيم: مدارج السالكين: ج: ١ ص: ٣٩٣.
(١٠٥٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٧ وما بعدها.

قيل: إن القرآن قد بين توبة الكافر و إن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع [مع بيان قبول توبته] كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩]، وقوله: (كيف يهدي الله): أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ولهذا قال: (والله لا يهدي القوم الظالمين)، فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد، والمقصود: أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا، وكذلك قال في قوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد، قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين، ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافراً، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١].

وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً: قيل لنفاقهم، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن و قتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون هذا كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء: ١٨]، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء:١٣٧]، قال مجاهد وغيره من المفسرين ازدادوا كفرا ثبتوا عليه حتى ماتوا، قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر، فقوله: (ثم ازدادوا) بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر واستمروا على الكفر وداموا

على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهي التوبة عند حضور الموت لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره فلم يزدد بل نقص، بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه، وفي الآية الأخرى قال: (لم يكن الله ليغفر لهم)، وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً، وقيل: لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول والثاني كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: (من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)[١٠٥٣]...

والفقهاء إذا تنازعوا في قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو في الحكم الظاهر لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] ».

٩٨٢- لحوق الوعيد بالقاتل ومن تكررت ردته ونحوهم مشروط بعدم التوبة:

قد تبينا في الفقرات السابقة أن توبة القاتل ممكنة ومقبولة، وكذلك توبة من تكررت ردته، ويلزم من هذا تقديم المزيد من الإيضاح بشأن الوعيد الوارد في القرآن الكريم بشأن هاتين الحالتين وغيرهما مما جاء فيه وعيد بالخلود في النار أو بأن الله تعالى لم يكن ليغفر لهم. وقد حقق هذا الموضع شيخ الإسلام ابن تيمية وبين كيفية الجمع بين النصوص الدالة على المغفرة للذنوب جميعاً والنصوص المتضمنة للوعيد على ذنوب معينة، ونحن نقدم قوله في ذلك - مشذباً - مع المحافظة على عبارته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية «... وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبى سعيد المتفق عليه في الذي قتل تسعة وتسعين نفساً يدل على قبول توبته، وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك، ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول

(١٠٥٣) متفق عليه: البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (١٧٢)، وأيضا: أحمد (٣٦٩٢) و(٣٨٩٤)، والدارمي (١).

التوبة، فليست آية الفرقان[1054] بمنسوخة بآية النساء[1055] إذ لا منافاة بينهما، فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة، إذ نصوص التوبة مبينة لتلك النصوص، كالوعيد في الشرك، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، وغير ذلك من الذنوب.

ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب، وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة، وهذا حق، ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين، فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم، لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته، وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة، فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفي المظلومون حقوقهم لم يبق مفلساً، ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله، كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء...»[1056].

٩٨٣- رابع عشر- التوبة من القذف:

القذف هو: رمي الغير بالزنا أو نفي نسبه عنه، وهذا قذف لأمه. وقد «عرفه الحنفية والحنابلة بأنه: الرمي بالزنا، وزاد الشافعية: (في معرض التعيير)، وعرفه المالكية بأنه: رمي مكلف حراً مسلماً بنفي نسب عن أب أو جد أو بزنا»[1057]. وهو أخص من السب والشتم الذي هو رمي الإنسان بما يشينه ويعيبه من كل كلام قبيح، وعلى هذا فالسب أعم من القذف.

وجريمة القذف من الكبائر حيث ذكرت في القرآن الكريم مقرونة باللعنة لصاحبها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، وقال تعالى في عقوبتها الدنيوية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

(١٠٥٤) وهي قوله تعالى بشأن الشرك والقتل والزنا ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

(١٠٥٥) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

(١٠٥٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج:١٨ ص: ١٨٧ وما بعدها.

(١٠٥٧) الموسوعة الفقهية الكويتية:ج:٣٣ ص:٥.

٩٨٤- توبة القاذف لا تصح إلا بإكذاب نفسه وبيان الحكمة من ذلك:

وقد رجح ابن القيم وكثير من العلماء أن توبة القاذف لا تصح إلا بإكذابه نفسه، فلا تصح بينه وبين الله تعالى من غير أن يعلن أنه كان كاذبا فيما قذف به المحصن، فقال في ذلك:

«... ولذلك كان الصحيح من القولين أن توبة القاذف إكذابه نفسه لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف وهو مقصود التوبة، وأما من قال إن توبته أن يقول أستغفر الله من القذف ويعترف بتحريمه فقول ضعيف، لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب، فإن فيه حقين: حقاً لله وهو تحريم القذف فتوبته منه باستغفاره واعترافه بتحريم القذف وندمه عليه وعزمه على أن لا يعود، وحقاً للعبد وهو إلحاق العار به فتوبته منه بتكذيبه نفسه، فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقاً قد عاين الزنا فأخبره به فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب ويكون ذلك من تمام توبته؟، قيل هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله ما قال إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه، وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذي حكم الله به على القاذف وأخبر أنه كاذب عنده ولو كان خبره مطابقاً للواقع، فنقول: الكذب يراد به أمران: أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره، وهو نوعان كذب عمد وكذب خطأ، فكذب العمد معروف وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بعكك في فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشراً، فقال النبي [ﷺ]: كذب أبو السنابل، ومنه قوله: كذب من قالها، لمن قال: حبط عمل عامر، حيث قتل نفسه خطأ، ومنه قول عبادة بن الصامت: كذب أبو محمد، حيث قال: الوتر واجب، فهذا كله من كذب الخطأ، ومعناه: أخطأ قائل ذلك. والثاني من أقسام الكذب: الخبر الذي لا يجوز الإخبار به وإن كان خبره مطابقاً لمخبره، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا والإخبار به، فإنه كاذب في حكم الله وإن كان خبره مطابقاً لمخبره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب وإن كان خبره مطابقاً، وعلى هذا فلا

تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه» [(١٠٥٨)].

٩٨٥- عدم إكذاب القاذف نفسه يعدم ركن (الإقلاع) زيادة على عدم التحلل من حقوق الغير:

ولا يرد على قول ابن القيم أن يقال: فهلا جعلتم التحلل من حق المقذوف واجباً مستقلاً يمكن أن تتم التوبة بدونه ويبقى في ذمة القاذف فيأخذه المقذوف في الآخرة من حسنات القاذف مع اعتبار توبته صحيحة بينة وبين الله تعالى في الدنيا.. لا يرد هذا القول هنا في جريمة القذف خاصة، لأن عدم إكذابه نفسه يعدم ركناً من أركان التوبة وهو ركن الإقلاع عن الذنب في الحال زيادة على الإخلال بمبدأ التحلل من حقوق الغير، لأن من يقذف الغير يعد باقياً على حال القذف مصراً عليه ومتلبساً به ما دام لم يكذب نفسه ولا يزول عنه هذا التلبس إلا بإكذابه نفسه، وهذه مسألة أخرى إضافية غير مسألة التحلل من حقوق الغير.

وهذا هو السر الدقيق - حسب فهمنا - في الفرق بين القذف وغيره من الذنوب التي فيها ظلم لحقوق الغير والتي قال فيها بعض العلماء بصحة التوبة منها بينه وبين الله تعالى مع عدم التحلل من حقوق الغير والتي تبقى في ذمة الظالم ويأخذها المظلوم من حسناته يوم القيامة إن لم يتحلل منها في الدنيا، كما نقلنا سابقاً عن ابن تيمية قوله: «وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة، وهذا حق، ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين، فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم، لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته، وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة، فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلساً، ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله، كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء» [(١٠٥٩)].

(١٠٥٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص:٣٦٣- ٣٦٥.

(١٠٥٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج:١٨ ص: ١٨٧ وما بعدها.

ولا يخفى عليك أن ذلك يتعلق بالتحلل من حقوق الغير، أما في القذف فإن عدم إكذابه نفسه يعدم ركناً من أركان التوبة وهو الإقلاع عن الذنب في الحال، فيكون باقياً على قذفه متلبساً به مصراً عليه ما لم يكذب نفسه.

٩٨٦- خامس عشر - التوبة من السرقة:

السرقة في الاصطلاح الشرعي: هي أخذ العاقل البالغ نصاباً محرزاً، أو ما قيمته نصاب، ملكاً للغير، لا شبهة له فيه، على وجه الخفية[١٠٦٠].

والسرقة من الكبائر حيث رتب عليها الحد في الدنيا، قال الله تعالى فيها: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]، وهي تنفي الإيمان ساعة وقوعها، جاء «في الحديث الصحيح: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وزاد مسلم في رواية وأبو داود بعد قوله: ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن: (ولكن التوبة معروضة بعد). وفي رواية للنسائي: (فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، فإن تاب تاب الله عليه). ومر أيضاً خبر البزار: (لا يسرق سارق وهو مؤمن، ولا يزني الزاني وهو مؤمن، الإيمان أكرم على الله من ذلك). وفي رواية: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولكن التوبة معروضة)[١٠٦١].

وأساس قبول توبة السارق من القرآن الكريم - فيما سوى النصوص العامة - قوله تعالى بعد ذكر عقوبة السارق والسارقة: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩].

ومما جاء في السنة النبوية قوله ﷺ للمرأة المخزومية بعدما أقيم عليها الحد وسألت: هل لي من توبة؟ فقال لها ﷺ : (أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك). فأنزل الله

(١٠٦٠) الموسوعة الفقهية الكويتية: ج:٢٤ ص٢٩٢.

(١٠٦١) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر:ج:٢ ص: ٢٣٧.

تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٩][١٠٦٢].

«واختلف في توبة السارق إذا قطعت يده هل من شرطها ضمان العين المسروقة لربها؟ وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته أداؤها إليه إذا كانت موجودة بعينها.

وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة:

فقال الشافعي وأحمد: من تمام توبته ضمانها لمالكها ويلزمه ذلك موسراً كان أو معسراً.

وقال أبو حنيفة إذا قطعت يده وقد استهلكت العين لم يلزمه ضمانها ولا تتوقف صحة توبته على الضمان، لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء، والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع، قال وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية بخلاف التضمين فإنه غرامة وقد قطع طرفه فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال...

وأصحاب القول الأول يقولون هذه العين تعلق بها حقان حق لله وحق لمالكها وهما حقان متغايران لمستحقين متباينين فلا يبطل أحدهما الآخر بل يستوفيان معاً لأن القطع حق لله والضمان حق للمالك؛ ولهذا لا يسقط القطع بإسقاطه بعد الرفع إلى الإمام ولو أسقط الضمان سقط...

وتوسط فقهاء المدينة مالك وغيره بين القولين فقالوا إن كان له مال ضمنها بعد القطع وإن لم يكن له مال فلا ضمان عليه، وهذا استحسان حسن جداً وما أقربه من محاسن الشرع وأولاه بالقبول والله سبحانه وتعالى أعلم»[١٠٦٣].

ولا يقبل في السرقة الرجوع عن الإقرار الصحيح لأن هذا الذنب ليس من الحدود الخالصة حقاً لله تعالى وذلك لتعلق حق الغير به وهو المسروق منه، ولكن الرجوع عن

(١٠٦٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٨.

(١٠٦٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٦٥-٣٦٨ مع الاختصار.

الإقرار بالسرقة إذا كانت ثابتة به وليس بالبينة يشكل شبهة تدرأ الحد وتتحول العقوبة إلى التعزير مع ضمان المال المسروق[١٠٦٤].

٩٨٧- سادس عشر - التوبة من شهادة الزور:

قرن القرآن الكريم شهادة الزور بالرجس من الأوثان في النهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]. فمن هنا كانت من الكبائر بل من أكبر الكبائر.

وفي السنة النبوية فيما: «أخرج الشيخان عن أبي بكرة واسمه نفيع بن الحارث ﷺ قال: (كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) والشيخان: (ذكر رسول الله ﷺ الكبائر فقال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، فقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور أو قال شهادة الزور)... وابن ماجه والحاكم وصححه: (لن تزول قدما شاهد الزور حتى يوجب الله له النار)»[١٠٦٥].

وفي السنة الصحيحة والحسنة الكثير من النهي عن شهادة الزور والترهيب منها. وشاهد الزور جمع ثلاثة آثام: إثم معصية أمر الله تعالى، وإثم نصرة الظالم، وإثم خذلان المظلوم.

(١٠٦٤) وبمناسبة كلامنا عن التوبة من السرقة التي عقوبتها الدنيوية قطع اليد نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن منهجية الشريعة في الحدود خاصة وكذلك في القصاص تقوم على التشديد في العقوبة لتوليد الزجر العام من جهة، ومن جهة أخرى تقليل عدد من تنالهم عقوبات الحدود والقصاص إلى حد الندرة كما حصل في العهد النبوي والخلافة الراشدة وذلك عن طريق وسائل الشريعة الكثيرة في إسقاط عقوبات الحدود ودرئها بالشبهات، وتحويلها إلى عقوبة التعزير، وهي منهجية جنائية فريدة ومدهشة جمعت بين أقصى درجات الزجر، وأقصى درجات الرحمة في نظام جنائي واحد مما يؤهله لأن يكون البديل الأصلح عن النظم الجنائية الوضعية التي ثبت هزالها وضعفها وظلمها وعدم جدواها في تحقيق أهدافها، وربما كتبنا في ذلك فصلاً موسعا يبين منهجية الشريعة المدهشة المشار إليها قريباً في كتاب لاحق إن شاء الله تعالى.

(١٠٦٥) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر:ج:٢ ص:٣٢٠.

ولا يكفي في التوبة من شهادة الزور أن يندم عليها ويستغفر الله منها، بل عليه أن يسعى إلى نقض شهادته بالزور وعدم تركها كما هي، وعدم ترك النتائج المحرمة التي ترتبت عليها من تضييع الحقوق، وذلك بأن يشهد شهادة الحق التي ترد الحقوق إلى نصابها. وبدون هذا تبقى حقوق المظلومين بسبب شهادته في ذمته يأخذونها من حسناته يوم القيامة.

٩٨٨- سابع عشر- التوبة من التولي من الزحف:

بين الله تعالى أن الإيمان يجعل المؤمنين يتغلبون على ضعف عددهم من الكافرين في القتال على الأقل فقال تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

ومن هنا ورد تحريم الفرار من الزحف في حالة القتال ضد الكفار ولو كانوا ضعف عدد المؤمنين، وعد ذلك من الكبائر، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وعلى ذلك يكون التولي من الزحف من الكبائر التي تستجلب غضب الله ودخول النار إلا أن يتوب صاحب هذا الذنب توبة نصوحاً.

وجاء في السنة النبوية قوله ﷺ فيما أخرجه «الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: (اجتنبوا السبع الموبقات - أي المهلكات - قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات). وأحمد والنسائي: (سئل ﷺ عن الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، وفرار يوم الزحف). والطبراني في تفسيره: (أنه ﷺ قيل له ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف) وفي رواية له: (الإشراك بالله، والفرار من الزحف، وقتل النفس)»[١٠٦٦].

(١٠٦٦) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:٢ ص: ٢٨٣.

وقد أورد الهيتمي كبيرة الفرار من الزحف وعرفها فقال «الفرار من الزحف : أي من كافر أو كفار لم يزيدوا على الضعف إلا لتحرف لقتال أو لتحيز إلى فئة يستنجد بها)... قال الشافعي ﷺ : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا، ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما المشهور عنه» (١٠٦٧).

والتوبة من الفرار من الزحف بدون عذر تكون بالندم والعودة إلى مقاتلة الكافرين إذا كان القتال لا يزال قائماً، أما إذا كان القتال قد انتهى فتكون بالندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود إلى تلك المعصية في المستقبل.

٩٨٩- ثامن عشر - توبة من غصب أموالاً وتعذر ردها إلى أصحابها أو ورثتهم:

حقق هذه المسألة ابن القيم رحمه الله ذاكراً أقوال العلماء وأدلتهم، ونحن ننقل تحقيقه - مشذباً ومختصراً - مع المحافظة على عبارته، قال(١٠٦٨):

«وأما في حقوق العباد فيتصور في مسائل:

إحداها: من غصب أموالاً ثم تاب، وتعذر عليه ردها إلى أصحابها أو إلى ورثتهم، لجهله بهم، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك، فاختلف في توبة مثل هذا:

فقالت طائفة: لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه فقد تعذرت عليه التوبة، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا.

قالوا: فإن هذا حق للآدمي لم يصل إليه، والله سبحانه لا يترك من حقوق عباده شيئاً بل يستوفيها لبعضهم من بعض، ولا يجاوزه ظلم ظالم، فلا بد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه، ولو لطمة، ولو كلمة، ولو رمية بحجر.

قالوا: وأقرب ما لهذا في تدارك الفارط منه أن يكثر من الحسنات ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها، ومن أنفع ما

(١٠٦٧) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر:ج:٢ ص: ٢٨٣.

(١٠٦٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٨٧ وما بعدها.

نه الصبر على ظلم غيره له وأذاه وغيبته وقذفه فلا يستوفي حقه في الدنيا ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس [هو] من حسناته، فإنه كما يؤخذ منه ما عليه، يستوفي أيضاً ما له، وقد يتساويان وقد يزيد أحدهما عن الآخر.

ثم اختلف هؤلاء في حكم ما بيده من الأموال [التي تعذر عليه ردها إلى أصحابها بعد أن تاب]:

فقالت طائفة: يوقف أمرها ولا يتصرف فيها البتة.

وقالت طائفة: يدفعها إلى الإمام أو نائبه لأنه وكل أربابها فيحفظها لهم ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة.

وقالت طائفة أخرى: بل باب التوبة مفتوح لهذا ولم يغلقه الله عنه ولا عن مذنب، وتوبته أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض فيغرمه إياها ويجعل أجرها لهم وقد غرم من حسناته بقدرها، وهذا مذهب جماعة من الصحابة كما هو مروي عن ابن مسعود ومعاوية وحجاج بن الشاعر، فقد روي أن ابن مسعود اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن فذهب رب الجارية، فانتظره حتى يئس من عوده، فتصدق بالثمن، وقال: اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له، وإن أبى فالأجر لي وله من حسناتي بقدره. وغلَّ رجل من الغنيمة ثم تاب فجاء بما غَلَّه إلى أمير الجيش فأبى أن يقبله منه، وقال:كيف لي بإيصاله إلى الجيش وقد تفرقوا؟ فأتى حجاج بن الشاعر فقال: يا هذا: إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم فادفع خمسه إلى صاحب الخمس وتصدق بالباقي عنهم فإن الله يوصل ذلك إليهم، أو كما قال، ففعل، فلما أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلي من نصف ملكي.

قالوا: وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربها بعد تعريفها، ولم يرد أن يتملكها، تصدق بها عنه، فإن ظهر مالكها خيره بين الأجر والضمان.

قالوا: وهذا لأن المجهول في الشرع كالمعدوم فإذا جهل المالك صار بمنـزلة المعدوم، وهذا مال لم يعلم له مالك معين، ولا سبيل إلى تعطيل الانتفاع به لما فيه من المفسدة والضرر

بمالكه وبالفقراء وبمن هو في يده، أما المالك فلعدم وصول نفعه إليه، وكذلك الفقراء، وأما من هو في يده فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به، ومثل هذا لا تبيحه شريعة فضلاً عن أن تأمر به وتوجبه، فإن الشرائع مبناها على المصالح بحسب الإمكان وتكميلها، وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها، وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به مفسدة محضة لا مصلحة فيها فلا يصار إليه.

قالوا: وقد استقرت قواعد الشرع على أن الإذن العرفي كاللفظي فمن رأى بمال غيره موتاً وهو مما يمكن استدراكه بذبحه فذبحه إحساناً إلى مالكه ونصحاً له فهو مأذون له فيه عرفاً وإن كان المالك سفيهاً، فإذا ذبحه لمصلحة مالكه لم يضمنه لأنه محسن، وما على المحسنين من سبيل وكذلك إذا غصبه ظالم أو خاف عليه منه فصالحه عليه ببعضه ليس الباقي لمالكه وهو غائب عنه أو رآه آيلا إلى تلف محض فباعه وحفظ ثمنه له ونحو ذلك فإن هذا كله مأذون فيه عرفاً من المالك... والصواب أنه مبني على هذه القاعدة أن الإذن العرفي كالإذن اللفظي... وإذا ثبت ذلك فمن المعلوم أن صاحب هذا المال الذي قد حيل بينه وبينه أشد رضاً بوصول نفعه الأخروي إليه، وهو أكره شيء لتعطيله أو إبقائه مقطوعاً عن الانتفاع به دنيا وأخرى، وإذا وصل إليه ثواب ماله سره ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه في الدنيا، فكيف يقال مصلحة تعطيل هذا المال عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده أرجح من مصلحة إنفاقه شرعاً بل أي مصلحة دينية أو دنيوية في هذا التعطيل، وهل هو إلا محض المفسدة؟...».

٩٩٠- تاسع عشر- توبة من قبض مالاً أجرة على محرم كالزانية أو قيمة محرم كبائع الخمر:

قبض الأموال على أفعال محرمة أو في معاوضات محرمة يستلزم التخلص منها عند التوبة، فإذا تاب والمال في يده فماذا يفعل؟

حقق هذه المسألة ابن القيم مبيناً أقوال العلماء فيها، ونحن ننقل تحقيقه - مشذباً - مع المحافظة على عبارته، قال[١٠٦٩]:

(١٠٦٩) ابن القيم: مدارج السالكين: ج: ١ ص: ٣٩٠-٣٩١.

«المسألة الثانية: إذا عاوض غيره معاوضة محرمة وقبض العوض كالزانية، والمغنى، وبائع الخمر، وشاهد الزور، ونحوهم، ثم تاب والعوض بيده.

فقالت طائفة يرده إلى مالكه إذ هو عين ماله ولم يقبضه بإذن الشارع ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح.

وقالت طائفة بل توبته بالتصدق به ولا يدفعه إلى من أخذه منه، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أصوب القولين، فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له ورضاه ببذله، وقد استوفي عوضه المحرم، فكيف يجمع له بين العوض والمعوض؟ وكيف يرد عليه مالا قد استعان به على معاصي الله ورضي بإخراجه، فيما يستعين به عليها ثانياً وثالثاً، وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع أن يقضى للزاني بكل ما دفعه إلى من زنى بها ويؤخذ منها ذلك طوعاً أو كرهاً فيعطاه وقد نال عوضه؟ وهب أن هذا المال لم يملكه الآخذ، فملك صاحبه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه، وقد سلم له ما في قبالته من النفع، فكيف يقال ملكه باق عليه ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به، فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له بذلك، وصاحبه قد رضي بإخراجه عن ملكه بذلك وأن لا يعود إليه.

فكان أحق الوجوه به صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم [وذلك بالتصدق به]، ولا يقوى الفاجر به ويعان [بإعادته إليه] و[لا] يجمع له بين الأمرين.

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام وتعذر عليه تمييزه أن يتصدق بقدر الحرام ويطيب باقي ماله، والله أعلم»[1070].

وقال ابن القيم في موضع آخر:

«فإن قيل فما تقولون في كسب الزانية إذا قبضته ثم تابت هل يجب عليها رد ما قبضته إلى أربابه، أم يطيب لها، أم تتصدق به؟»[1071] [وأجاب عن ذلك بقوله]: «...وإن كان المقبوض برضا الدافع وقد استوفى عوضه المحرم كمن عاوض على خمر أو خنـزير أو على زنا أو فاحشة فهذا لا يجب رد العوض على الدافع لأنه أخرجه باختياره واستوفى

(١٠٧٠) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٣٩٠.

(١٠٧١) ابن القيم: زاد المعاد ج: ٥ ص: ٧٧٨.

المحرم فلا يجوز أن يجمع له بين العوض والمعوض فإن في ذلك إعانة له على الإثم وتيسير أصحاب المعاصي عليه وماذا يريد الزاني وفاعل الفاحشة إذا علم أنه [يحقق] غرضه ويسترد ماله؟ فهذا مما تصان الشريعة عن الإتيان به ولا يسوغ القول به وهو الجمع بين الظلم والفاحشة والغدر ومن أقبح القبيح أن يستوفى عوضه من المزني [بها] ثم يرجع فيما أعطاها قهراً وقبح هذا مستقر في فطر جميع العقلاء فلا تأتي به.

ولكن لا يطيب للقابض أكله بل هو خبيث كما حكم عليه رسول الله ولكن خبثه مكسبه لا لظلم من أُخِذ منه.

فطريق التخلص منه وتمام التوبة بالصدقة به، فإن كان إليه [حاجة بسبب فقره] فله أن يأخذ قدر حاجته ويتصدق بالباقي، فهذا حكم كل كسب خبيث لخبث عوضه»[١٠٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وقد سئل رحمه الله عن امرأة كانت مغنية واكتسبت في جهلها مالاً كثيراً وقد تابت وحجت إلى بيت الله تعالى وهي محافظة على طاعة الله فهل المال الذي اكتسبته من حل وغيره إذا أكلت وتصدقت منه تؤجر عليه فأجاب:...

«وأما إن كانت العين أو المنفعة محرمة كمهر البغي وثمن الخمر فهنا لا يُقضي له به قبل القبض ولو أعطاه إياه لم يحكم برده فان هذا معونة لهم على المعاصي إذا جمع لهم بين العوض والمعوض ولا يحل هذا المال للبغي والخمار ونحوهما لكن يصرف في مصالح المسلمين

فإن تابت هذه البغي وهذا الخمار وكانوا فقراء جاز أن يصرف إليهم من هذا المال مقدار حاجتهم، فان كان يقدر [أن] يتجر أو يعمل صنعة كالنسج والغزل أعطى ما يكون له رأس مال، وإن اقترضوا منه شيئاً ليكتسبوا به ولم يردوا عوض القرض كان أحسن، وأما إذا تصدق به لاعتقاده أنه يحل عليه أن يتصدق به فهذا يثاب على ذلك، وأما إن تصدق به كما يتصدق المالك بملكه [معتبراً إياه حقاً مملوكاً له] فهذا لا يقبله الله، إن الله لا يقبل إلا الطيب، فهذا خبيث كما قال النبي ﷺ : مهر البغيِّ خبيث»[١٠٧٣].

(١٠٧٢) ابن القيم: زاد المعاد ج: ٥ ص: ٧٧٩.

(١٠٧٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٠٩.

٩٩١- عشرون - التائب من الغصب وقد تعذر عليه رد المال إلى صاحبه أو ورثته، ما حكم نمائه ومن له حق مطالبته في القيامة؟:

«إذا غصب مالاً ومات ربه وتعذر رده عليه تعين عليه رده إلى وارثه، فإن مات الوارث رده إلى وارثه وهلم جراً، كما بينا ذلك في فقرة سابقة.

فإن لم يرده إلى ربه ولا إلى أحد ورثته فهل تكون المطالبة به في الآخرة للمورث إذ هو ربه الأصلي وقد غصبه عليه أو للوارث الأخير إذ الحق فد انتقل إليه؟ فيه قولان للفقهاء، وهما وجهان في مذهب الشافعي...

وهكذا لو تطاولت على المال [المغصوب] سنون وقد كان يمكن ربه أن ينميه بالربح فتوبته بأن يخرج المال ومقدار ما فوته من ربح ماله، فإن كان قد ربح فيه بنفسه فقيل الربح كله للمالك وهو قول الشافعي وظاهر مذهب أحمد رحمهما الله، وقيل كله للغاصب [على اعتبار أن الذي في ذمته هو المال المغصوب دون زيادة] وهو مذهب أبي حنيفة ومالك رحمهما الله، وكذلك لو أودعه مالا فاتجر به وربح فربحه له دون مالكه عندهما وضمانه عليه، وفيها قول ثالث أنهما شريكان في الربح وهو رواية عن أحمد رحمه الله واختيار شيخنا رحمه الله وهو أصح الأقوال، فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل المال ويتصدق بذلك [لأنه تعذر عليه رده إلى مالكه أو ورثته]، وهكذا لو غصب ناقة أو شاة فنتجت أولاداً فقيل أولاده كلها للمالك فإن ماتت أو شيء من النتاج رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج، هذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عند أصحابه، وقال مالك إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها، وعلى القول الثالث الراجح يكون عليه قيمتها وله نصف النتاج والله أعلم» (١٠٧٤).

أما بشأن من يكون له حق المطالبة في الآخرة فالراجح أنه المالك لا الورثة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما من غُصِب له مال أو مطل به فالمطالبة في الآخرة له كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (من كانت لأخيه عنده مظلمة في دم أو مال أو عرض فليستحلل من قبل أن يأتي يوم لا دينار فيه ولا درهم فإن كانت له

(١٠٧٤) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٩١-٣٩٢.

حسنات أُخذ من حسناته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فألقيت عليه)[1075] فبين النبي ﷺ أن الظلامة إذا كانت في المال طالب المظلوم بها ظالمه ولم يجعل المطالبة لورثته وذلك أن الورثة يخلفونه في الدنيا فما أمكن استيفاؤه في الدنيا كان للورثة وما لم يمكن استيفاؤه في الدنيا فالطلب به في الآخرة للمظلوم نفسه والله أعلم»[1076].

٩٩٢- إحدى وعشرون - خاتمة في الاستحلال والخلاف فيه:

قد علمت أن التوبة من الذنوب التي فيها ظلم العباد تستلزم التحلل من حقوق العباد الذين ظلمهم، والأصل في ذلك أن يخرج التائب من المظلمة بأداء الحق إلى صاحبه أو استحلاله منه، فإن كان حقاً مالياً أعاده إلى صاحبه، وإن كان جناية على بدنه تحلل منها أيضاً ببذل نفسه للقصاص منه، وصاحب الحق بالخيار إن شاء اقتص وإن شاء عفى.

ولكن الأمر يختلف إذا كانت المظلمة من قبيل إيذاء الناس وظلمهم في غير مجال الاعتداء على الأموال والأبدان كالغيبة المتضمنة للانتقاص أو السب الشتم، وأكثر من ذلك قذفه في غيبته بالزنا ونحو ذلك، فهل يجب على التائب أن يعلمه بذلك ويطلب منه أن يحله منه مع ما في ذلك من الأذى الشديد للمظلوم عند سماعه ذلك؟ وقد ورد عن النبي ﷺ كما جاء في البخاري: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[1077].

حقق ابن القيم رحمه الله هذه المسألة تحقيقاً حسناً، ونحن ننقل تحقيقه - مشذبا - مع المحافظة على عبارته، قال:

«وإن كانت المظلمة بقدح فيه بغيبة أو قذف فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه [ذاكراً نص ما اغتابه أو قذفه به]، أو إعلامه أنه قد نال من عرضه [مبهماً] ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا بل يكفي في توبته أن يتوب بينه

(١٠٧٥) أخرجه البخاري (٦٠٥٣)، والترمذي (٢٣٤٣) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٩٢٤٢).

(١٠٧٦) ابن تيمة: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢١٢.

(١٠٧٧) أخرجه البخاري:(٦٠٥٣).

وبين الله تعالى من غير إعلام من قذفه واغتابه؟ [اختلف الفقهاء في ذلك]على ثلاثة أقوال، وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف هل يشترط في توبة القاذف إعلام المقذوف والتحلل منه أم لا، ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم، والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه، ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفاً بقدره فلا بد من إعلام مستحقه به لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور وهو قوله: (من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم) [١٠٧٨].

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقاً لله، وحقاً للآدمي، فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم من نفسه إن شاء اقتص وإن شاء عفا، وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه بل يكفي توبته بينه وبين الله وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه ضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه، وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدس الله روحه [وهو قول الإمام الغزالي رحمه الله الذي اعتبر إعلامه إيذاء يشكل ذنباً آخر يجب التوبة منه كما مر بك في المقدمة الجامعة في أول هذا الفصل].

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقاً وغماً وقد كان مستريحاً قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله وأورثته ضرراً في نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

(١٠٧٨) أخرجه البخاري (٦٠٥٣)، والترمذي (٢٣٤٣) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٩٢٤٢).

فإن الذي يؤذيك منه سماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل فلا يصفو له أبداً، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان [التي أوجبت الشريعة فيها الاستحلال] من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه فلا يجوز إخفاؤها عنه فإنه محض حقه فيجب عليه أداؤه إليه بخلاف الغيبة والقذف فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها [أي الحقوق المالية وجنايات الأبدان] لم تؤذه ولم تهج منه غضباً ولا عداوة، بل ربما سره ذلك وفرح به، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد، وهذا هو الصحيح من القولين كما رأيت والله أعلم» [١٠٧٩].

(١٠٧٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٩٠- ٢٩١.

المبحث الثاني
التوبة من ترك الواجبات

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: التعريف بالواجب وأقسامه ودرجة أهمية التوبة من تركه.
- المطلب الثاني : التوبة من ترك الصلاة والصيام متعمدا.
- المطلب الثالث: التوبة من ترك الزكاة والحج.
- المطلب الرابع: التوبة من ترك الجهاد.

٩٩٣- تقسيم البحث:

يتألف هذا المبحث من أربعة مطالب:

نخصص المطلب الأول: للتعريف بالواجب وأقسامه ودرجة أهمية التوبة من تركه.

ونبين في المطلب الثاني: التوبة من ترك الصلاة والصيام متعمداً.

ونوضح في المطلب الثالث: التوبة من ترك الزكاة والحج.

ونتناول في المطلب الرابع: التوبة من ترك الجهاد.

ووجه اقتصارنا على ما ذكرناه من الواجبات في المطالب الثلاثة الأخيرة أنها مع الشهادة تكون أركان الإسلام الخمسة - كما سيأتي -، وهي أهم ما يجب معرفته ومعرفة التوبة من التفريط فيه، أما وجه اختيارنا لواجب الجهاد فلأنه ذروة سنام الإسلام، فلا بد من معرفته ومعرفة التوبة من التفريط فيه.

المطلب الأول
التعريف بالواجب وأقسامه ودرجة أهمية التوبة من تركه

٩٩٤- تمهيد: معنى التوبة من ترك الواجبات:

وذلك يعني: أن يتوب المسلم مما وقع منه من ترك الواجبات الشرعية فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة.

ففي جانب العقيدة: أن يتوب من التقصير في إحراز مقومات الإيمان أي أركانه التي لا إيمان بدونها، فيرسخ في نفسه معاني العقيدة الإسلامية، ويحذر من نواقض الإيمان

- وقد بحثناها أثناء الكلام عن التوبة من ترك المحرمات - وينظر فيما هو واجب من شعب الإيمان من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح فيأتي به جميعاً ويتوب من التقصير فيه، وكلما ترقى في مدارج الإيمان تبين له ما فرط فيه سابقا فيندم عليه تائبا منه.

وفي جانب الشريعة: أن يتوب من ترك الواجبات العملية التي أوجبتها الشريعة كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد عند تعينه، ونحو ذلك.

قال ﷺ : (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)[١٠٨٠]. وقال: (أما رأس الأمر فالإسلام، فمن أسلم سلم، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله)[١٠٨١].

٩٩٥- التعريف بالواجب وبيان أقسامه :

٩٩٦- أولا - التعريف بالواجب:

في مجال العقيدة: أعظم الواجبات هو الإيمان بالله تعالى رباً خالقاً، وإلهاً معبوداً، مع الإيمان بصفاته جل جلاله، وكذلك الإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر وبالقدر. والإيمان الحق ينتج منه العمل الصالح، ولذلك يأتي الإيمان مقترناً بالعمل الصالح في القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد:٢٩]، وقد تكلمنا عن هذا، واجب الإيمان، في الفصل التمهيدي من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

ومن فوت على نفسه الإيمان بالله ومات على ذلك فلا سبيل إلى نجاته في الآخرة: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ولا سبيل إلى عفو الله عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، هذا شأن من يؤمن بالله و يشرك به غيره، فكيف بمن ينكره أصلاً؟ وبهذا الإشراك أو الجحود والإنكار يخسر الإنسان خسراناً أبدياً ويشقى شقاء لا نهاية له قال

(١٠٨٠) متفق عليه: البخاري(٧)، ومسلم (٢١).

(١٠٨١) مسند أحمد (٢١٠٥٤)، وابن ماجة (٣٩٦٣).

تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]. ومن هنا كانت واجبات القلوب من الإيمان وأركانه وشعبه وهي من العبادات القلبية مقدمة على واجبات الأبدان من العبادات العملية وأساساً لها.

والكلام على الإيمان ومتعلقاته داخل في علم أصول الدين وهو: علم إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية، العقلية القاطعة، والنقلية المتواترة. فالإيمان معه كل الأدلة القطعية عقلاً ونقلاً، والكفر ليس معه إلا العناد والكبر والظلم والجهل[١٠٨٢].

أما في مجال الأحكام العملية (الفقه): فالواجب في الاصطلاح الفقهي: هو ما طلب الشارع فعله على وجه اللزوم، بحيث يذم تاركه ومع الذم العقاب، ويمدح فاعله ومع المدح الثواب[١٠٨٣].

٩٩٧- ثانياً - أقسام الواجب[١٠٨٤]:

قسم الأصوليون الواجب إلى أربعة أقسام وفقاً لاعتبارات متنوعة: من جهة وقت أدائه، ومن جهة تقديره، ومن جهة تعيينه، ومن جهة المطالب به، وذلك على النحو الآتي:

٩٩٨-١- الواجب بالنظر إلى وقت أدائه:

وهو من هذه الجهة ينقسم إلى: واجب مطلق، وواجب مقيد. وبعض الأصوليين يسميهما: الواجب المؤقت بوقت موسع، والواجب المؤقت بوقت مضيق.

فالواجب المطلق (الموسع): هو ما طلب الشارع فعله، دون أن يقيد أداءه بوقت معين، فللمكلف أن يفعله في أي وقت شاء، وتبرأ ذمته بهذا الأداء، ولا إثم عليه في التأخير، ولكن ينبغي له المبادرة إلى الأداء، لأن الآجال مجهولة ولا يعلم الإنسان متى تحل به مصيبة الموت.

ومن هذا النوع: الحج: فهو واجب على المستطيع على التراخي، لا الفور على رأي فريق من الفقهاء: فله أداؤه في أي عام شاء من سني عمره. ومنه أيضاً: قضاء رمضان لمن أفطر بعذر مشروع، فله أن يقضيه متى شاء، دون تقيد بعام مخصوص على ما ذهب إليه

(١٠٨٢) انظر تفصيل ذلك في الفصل التمهيدي من هذا الكتاب.

(١٠٨٣) ابن حزم: إحكام الأحكام: ج:٣ ص:٣٢١.

(١٠٨٤) د. عبد الكريم زيدان: الوجيز في أصول الفقه: ص ٣١ وما بعدها (بتصرف).

فريق من الفقهاء، كالحنفية خلافاً لغيرهم. وكالكفارة الواجبة على من حنث في يمينه: فله أن يكفر بعد الحنث مباشرة، أو بعد ذلك بحين.

والواجب المقيد: هو ما طلب الشارع فعله وعين لأدائه وقتاً محدداً:

كالصلوات الخمس، وصوم رمضان، فلا يجوز أداؤه قبل وقته المحدد، ويأثم بتأخيره بعد وقته من غير عذر مشروع.

فالإلزام في الواجب المقيد: منصب على الفعل وعلى وقت معين.

والإلزام في الواجب المطلق: منصب على الفعل فقط دون وقت معين.

هذا، وإن المكلف إذا أدى الواجب في وقته بصورة صحيحة كاملة، سمي فعله: أداء، وإذا فعله في الوقت المعين ناقصا، ثم أعاده كاملا في هذا الوقت، سمي فعله الثاني: إعادة، وإذا أداه بعد الوقت سمي فعله: قضاء.

٩٩٩-٢ - الواجب بالنظر إلى تقديره وعدم تقديره:

ينقسم الواجب باعتبار بالمقدار المطلوب منه إلى: واجب محدد، وواجب غير محدد.

فالواجب المحدد: هو ما عين الشارع له مقداراً محدداً: كالزكاة، وأثمان المشتريات والمبيعات، والديات، ونحو ذلك. وهذا النوع يتعلق بالذمة، وتصح المطالبة به من غير توقف على قضاء أو تراض، لأنه محدد بنفسه، ولا تبرأ ذمة المكلف منه إلا بأدائه على الوجه الذي حدده الشارع وثبت في ذمته.

والواجب غير المحدد: هو الذي لم يحدد الشارع مقداره: كالإنفاق في سبيل الله (في غير الزكاة) فهذا ليس له حد محدود، وإنما يتحدد بمقدار حاجة المحتاج وقدرة المنفق، فمن تعين عليه سد حاجة الفقير، لزمه واجب غير محدد، فعليه أن ينفق على هذا الفقير بمقدار ما تندفع به حاجته. ومنه أيضاً: التعاون على البر، فهو واجب غير محدد، وإنما الذي يحدده نوعية البر الذي يلزم المكلف التعاون على إيجاده.

وهذا النوع من الواجب لا يثبت ديناً في الذمة: لأن الشأن فيما يثبت في الذمة أن يكون محدداً، وعلى هذا لا تثبت النفقة للزوجة في ذمة الزوج قبل الحكم بها، أو التراضي عليها عند بعض الفقهاء، كالحنفية، لأنها قبل هاتين الحالتين لا تكون محددة، فلا تثبت في

الذمة، وبالتالي لا تصح المطالبة بها عن مدة سابقة لحكم القاضي أو التراضي. وعند البعض الآخر من الفقهاء، كالشافعية وغيرهم: تثبت نفقة الزوجة ديناً في ذمة الزوج، من حين امتناعه عن النفقة، لأنه هذه النفقة عندهم واجب محدد، فمقدارها محدد بحال الزوج، ومن ثم فللزوجة المطالبة بها عن المدة السابقة لحكم القاضي أو التراضي، أي من حين امتناع الزوج عن النفقة.

١٠٠٠-٣- الواجب بالنظر إلى تعيين المطلوب وعدم تعينه:

وهو بهذا الاعتبار: واجب معين، وواجب غير معين.

فالواجب المعين: هو ما طلبه الشارع بعينه من غير تخيير للمكلف بين أمور مختلفة: كالصلاة والصيام ورد المغصوب إن كان قائماً، وحكم هذا النوع عدم براءة الذمة إلا بفعله بعينه.

والواجب غير المعين: هو ما طلبه الشارع لا بعينه، ولكن ضمن أمور معلومة، وللمكلف أن يختار واحداً منه لأداء هذا الواجب.

وقد يكون هذا الواجب واحدا من اثنين، وللمكلف أن يختار أحدهما، كما في قوله تعالى في أسرى الحرب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد: ٤]، فللإمام أن يمن على الأسرى، أو يفاديهم بغيرهم. وقد يكون الواجب غير المعين واحداً من ثلاثة أمور، ومثله: كفارة اليمين، فإن الواجب فيها على الحانث واحداً من ثلاثة أشياء، إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة، وهذا عند الاستطاعة والمقدرة أما عند عدمها فالواجب معين: وهو صيام ثلاثة أيام. وسمى البعض هذا الواجب: بالواجب المخير، لأن فيه تخييراً للمكلف.

١٠٠١-٤ - الواجب بالنظر إلى المطالب به:

الواجب بهذا الاعتبار: واجب عيني، وواجب على الكفاية.

فالواجب العيني: هو ما توجه فيه الطلب اللازم إلى كل مكلف، أي هو ما طلب الشارع حصوله من كل واحد من المكلفين، فلا يكفي فيه قيام البعض دون البعض الآخر، ولا تبرأ ذمة المكلف منه إلا بأدائه، لأن قصد الشارع في هذا الواجب لا يتحقق،

إلا إذا فعله كل مكلف، ومن ثم يأثم تاركه ويلحقه العقاب، ولا يغني عنه قيام غيره به. فالمنظور إليه في هذا الواجب: الفعل نفسه والفاعل نفسه، ومثاله: الصلاة، والصيام، والوفاء بالعقود، وإعطاء كل ذي حق حقه.

والواجب على الكفاية، أو الكفائي: هو ما طلب الشارع حصوله من جماعة المكلفين لا من كل فرد منهم، لأن مقصود الشارع حصوله في الجماعة، أي إيجاد الفعل لا ابتلاء المكلف، فإذا فعله البعض سقط عن الباقين لأن فعل البعض يقوم مقام فعل البعض الآخر، نظراً لحصول المقصود بهذا البعض، وإذا لم يقم به أحد إثم جميع القادرين. فالطلب في هذا الواجب منصب على إيجاد الفعل لا على فاعل معين، أما في الواجب العيني فالمقصود به تحصيل الفعل ولكن من كل مكلف. ومن أمثلة الواجب الكفائي: القضاء، والإفتاء، والتفقه في الدين، وأداء الشهادة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإيجاد الصناعات والحرف والعلوم التي تحتاجها الأمة، وإعداد القوة بأنواعها، ونحو ذلك مما يحقق مصلحة عامة، لأن فروض الكفاية تهدف غالبا إلى مصلحة عامة للأمة.

وإنما يأثم الجميع إذا لم يحصل الواجب الكفائي لأنه مطلوب من مجموع الأمة، فالقادر على الفعل عليه أن يفعله، والعاجز عنه عليه أن يحث القادر، ويحمله على فعله، فإذا لم يحصل الواجب كان ذلك تقصيراً من الجميع: من القادر، لأنه لم يفعله، ومن العاجز، لأنه لم يحمل القادر على فعله ويحثه عليه.

وقد يصير الواجب الكفائي واجباً عينياً، كما في الجهاد: إذا لم يحصل المقصود به، صار فرضاً عينياً على كل مكلف قادر على محاربة العدو بأي نوع من أنواع المحاربة. ومثله أيضاً: إذا شهد المكلف القادر دون غيره منكراً، فعليه إنكاره بقدر استطاعته.

١٠٠٢- ثالثاً - جنس فعل الواجبات أعظم من جنس ترك المحرمات:

وإذا كان المطلوب شرعاً على سبيل الحتم والإلزام هو فعل الواجبات وترك المحرمات، فإن النصوص قد دلت على أن جنس فعل الواجبات أكثر أهمية وأحب إلى الله تعالى من جنس ترك المحرمات، وذلك بالنظر إلى العموم وليس إلى أعيان الأفعال المفردة، لذلك ذكر الله تعالى أصحابها بالمحبة من الله تعالى قال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف:٤]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ونحو ذلك. كما إن عبادة الله هي غاية الخلق أصلا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنما تكون العبادة بالإتيان بأركان الإسلام وشعب الإيمان.

ويدل على ذلك من السنة النبوية: قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه)[١٠٨٥]، وهذا صريح في الدلالة على أن أداء الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده هو أعظم من كل شيء في التقرب إلى الله تعالى، وجاء في الصحيحين عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟: قال الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[١٠٨٦]، وقوله: (ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلي يا رسول الله، قال ذكر الله عز وجل)[١٠٨٧]، وغير ذلك من النصوص.

وأساس ذلك: أن جانب الواجبات يتضمن أركان الإسلام وشعب الإيمان، وأن الكف عن المناهي وتركها مطلوب لتكميل الطاعات ولإخلاء النفس والجسد من الأفعال التي تنافي أركان الإسلام وشعب الإيمان المطلوبة لذاتها والتي بها حياة المسلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

١٠٠٣- قول ابن تيمية في أن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات:

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، وإذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب، كعباد

(١٠٨٥) أخرجه البخاري: (٦٠٢١).

(١٠٨٦) متفق عليه: البخاري (٤٩٦)، ومسلم (١٢٢)، واللفظ للبخاري، وعبد الله هو عبد الله بن مسعود ﷺ كما جاء في فتح الباري أثناء شرحه للحديث، وكما جاء في لفظ مسلم.

(١٠٨٧) مسند أحمد: (٢١٠٦٥) واللفظ له، وابن ماجة (٣٧٨٠) ومالك (٤٤١).

مشركي الهند، وعباد النصارى، وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه»[1088].

ويكرر هذا المعنى في موضع آخر فيقول: «وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته، وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] »[1089].

١٠٠٤- قول ابن القيم في أن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات:

وقد عقد العلامة المحقق ابن القيم فصلاً قيماً ومطولاً في بيان أفضلية جنس فعل الواجبات على جنس ترك المحرمات من حيث العموم لا من حيث مفردات الأفعال، فذكر ثلاثة وعشرين وجهاً لهذا التفضيل[1090] منها[1091]: ما نقله ابن القيم عن سهل بن عبدالله: أن ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نُهِيَ عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه.

وأن فعل الواجبات أحب إلى الله [واستدل ببعض النصوص المذكورة آنفا].

وأن فعل المأمور مقصود لذاته، وترك المنهي مقصود لتكميل فعل المأمور، فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه، كما نبه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، فالمنهيات قواطع

(١٠٨٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٧١.
(١٠٨٩) ابن تيمية: رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٢٨.
(١٠٩٠) الفوائد ج: ١ ص: ١١٩-١٢٨.
(١٠٩١) الفوائد ج:١ ص: ١١٩-١٢١ (بتصرف).

وموانع صادة عن فعل المأمورات، أو عن كمالها، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.

وأن فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها، وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدم على الحمية، فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فالحمية مراد لغيرها وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها، ولهذا كلما قويت قوة الإيمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة فتأمل هذا الوجه.

وأن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، ومن ترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيء من ذلك، فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً في النار.

وأن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناج مطلقاً إن غلبت حسناته سيئاته وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته، فمآله إلى النجاة، وذلك بفعل المأمور، ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناج، ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد، فإن قيل: فهو إنما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك، قيل: يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به.

وأن امتثال الأمر عبودية وتقرب وخدمة وتلك العبادة التي خلق لأجلها الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه، فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها، ولم يخلقوا لمجرد الترك فإنه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم، بخلاف امتثال المأمور فإنه أمر وجودي مطلوب الحصول.

١٠٠٥- التفضيل من حيث الجنس والعموم لا من حيث المفردات:

[قلت: وإذا كان فعل الواجبات أعظم عند الله من ترك المنهيات مع أن كلا الأمرين مطلوب طلباً جازماً - على نحو ما أوضحنا - فإنما ذلك من حيث الجنس والعموم لا من حيث مفردات الأعمال فهنالك منهيات يكون تركها أعظم عند الله من الإتيان ببعض

الواجبات، ويتبين ذلك من فضيلة الصبر على كل منها، قال ابن القيم: «وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح [السنّة] وصوم يوم تطوعاً ونحوه فهذا فصل النزاع في المسألة والله أعلم»[1092]].

١٠٠٦- وقفة تأمل:

فإذا كان جنس فعل الواجبات أعظم أهمية من جنس ترك المحرمات من حيث الجملة على ما بينا فيما تقدم فإن هذا يقتضينا أن ننبه إلى أمرين مهمين :

الأول: أن على المسلم الذي أحرز فعل الواجبات، وهو قائم بها على كل حال، أن يحسن أداءها بعناية وجدية واهتمام لأنه أحرز أهم ما به الفوز يوم القيامة، وما بقي عليه إلا أن يرجو قبوله من الله تعالى بعد إحسانه وإتقانه والعناية به، وكل ذلك يدخل في ترسيخ الإيمان و تحسين العمل الصالح.

والثاني: أن من ترك الواجبات من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد ونحو ذلك قد صار إلى أسوأ حال حيث ترك ما تركه أعظم عند الله تعالى وأشد إفضاء إلى الهلاك يوم القيامة، فعليه أن يتدارك نفسه بالتوبة ويستنقذ نفسه من النار قبل فوات الأوان من قبل أن يخطفه الموت ويقع في العذاب المقيم أو في المشيئة لا في الرحمة والعياذ بالله تعالى.

١٠٠٧- واجبات الأبدان لا تغني عن واجبات القلوب:

«فإن العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها فيكون مقصرا في العلم، وكثيرا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها إما كسلاً وتهاوناً، وإما لنوع تأويل باطل أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك... فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست واجبات الدين عند كثير من الناس بل هي من باب الفضائل والمستحبات، فتراه يتحرج من ترك فرض أو من ترك واجب

(١٠٩٢) ابن القيم: طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٤١٥ .

من واجبات البدن وقد ترك ما هو أهم من واجبات القلوب وأفرضها، ويتحرج من فعل أدنى المحرمات وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريماً وأعظم إثماً»[١٠٩٣].

والآن وقد انتهينا من هذا المبحث الذي بينا فيه التعريف بالواجب وأقسامه وأهميته وتفضيل جنسه ودرجة أهمية التوبة من تركه، يمكننا الدخول في موضوع التوبة من ترك الصلاة والصيام متعمداً وهو موضوع المطلب الثاني القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني
التوبة من ترك الصلاة والصيام متعمداً

١٠٠٨ - تمهيد وتقسيم :

جمعنا مسألتي التوبة من ترك الصلاة والصيام في مطلب واحد لتماثلهما في أن كلاً منهما واجب مقيد أي مؤقت بأوقات معلومة لا تقبل التقديم والتأخير، فلا يجوز أداؤه قبل وقته أو بعده، ولذلك تكلم العلماء عنهما في مسألة التوبة من تركهما عمداً بدون عذر مشروع في مقام واحد،كما سنرى.

وترك الصلاة والصيام عمداً من المسلم مع بقية فرائض الإسلام هو من المصائب العظيمة التي يقع فيها الناس لقلة علمهم بمكانتها عند الله ومقدار إثم تاركها واغترارهم بالدنيا وانشغالهم بمتاعها وتلبسهم بالغفلة ونسيان الآخرة تاركين وراءهم يوماً ثقيلاً، وحساباً عسيراً، يوماً نتيجته ربح الأبد وسعادة الأبد للمؤمنين والمؤمنات، وعذاب الأبد وخسارة الأبد للكفار والمنافقين والمنافقات الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

وقد يبقى التارك للصلاة والصيام وغيرهما على تركه دهراً ثم يهديه الله فيصير أمام مسألة: ماذا يفعل بما فاته من صلاة وصيام وكيف يجبر هذا التفريط العظيم.

لذلك كان من المناسب الكلام عن مكانة الصلاة والصيام في الإسلام في فقرتين ثم الكلام بالتفصيل عن التوبة من ترك الصلاة والصيام وأقوال العلماء في إمكانية قضاء ما تركه عمداً زمن جاهليته قبل التوبة أو عدم إمكانية ذلك.

(١٠٩٣) ابن القيم: إغاثة اللهفان ج: ٢ ص: ١٨٠.

١٠٠٩- أولا - الصلاة: مكانتها وحكم تاركها

١٠١٠-١- مكانة الصلاة ومنزلتها في الإسلام:

جاء في كتاب الله العزيز بيان وجوب الصلاة، والمحافظة عليها، وآثارها، وفلاح أصحابها، ووعدهم بجنات النعيم، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ٢٤]، وقال جل ثناؤه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ ([العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩-١١]، وقال: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

بينما قال تعالى في إضاعة الصلاة ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، وقال سبحانه مخبراً عن أصحاب الجحيم: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٥]، وجعل القيام إلى الصلاة بكسل من صفات النفاق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال في الكفار: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١].

ذلك أن الصلاة لها مكانة عظيمة في الإسلام: «فهي آكد الفروض بعد الشهادتين وأفضلها، وأحد أركان الإسلام الخمسة. قال النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[١٠٩٤].

(١٠٩٤) متفق عليه: البخاري (٧) و(٤١٥٣)، ومسلم (٢٠) و(٢١).

وقد نسب رسول الله ﷺ تاركها إلى الكفر فقال: (إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[١٠٩٥] وعن عبدالله بن شقيق العقيلي قال: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة[*].

فالصلاة عمود الدين الذي لا يقوم إلا به، قال رسول الله ﷺ : (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)[١٠٩٦].

وهي أول ما يحاسب العبد عليه. قال رسول الله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[١٠٩٧].

كما أنها (آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقته الدنيا فقال ﷺ: الصلاة وما ملكت أيمانكم)[١٠٩٨].

وهي آخر ما يفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله. قال رسول الله ﷺ : (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن الصلاة)[١٠٩٩].

كما أنها العبادة الوحيدة التي لا تنفك عن المكلف، وتبقى ملازمة له طول حياته لا تسقط عنه بحال. وقد ورد في فضلها والحث على إقامتها، والمحافظة عليها، ومراعاة حدودها آيات وأحاديث كثيرة مشهورة»[١١٠٠].

(١٠٩٥) مسلم (١١٦) و(١١٧)، وأحمد (١٤٦٥٠).

(*) الترمذي (٢٦٢٢).

(١٠٩٦) ابن ماجة (٣٩٦٣)، وأحمد (٢١٠٠٨).

(١٠٩٧) النسائي (٤٦١).

(١٠٩٨) ابن ماجة (١٦١٤) و(٢٦٨٨) و(٢٦٨٩)، وأحمد (١١٧٢٥) و(٢٥٢٧٨) و(٢٥٤٣٧) و(٢٥٤٦٢) و(٢٥٥٠٢).

(١٠٩٩) أحمد (٢١١٣٩).

(١١٠٠) الموسوعة الفقهية: ج:٢٧ ص:٥١.

١٠١١-٢- حكم تارك الصلاة :

جاء في الموسوعة الفقهية: «لتارك الصلاة حالتان: إما أن يتركها جحوداً لفرضيتها، أو تهاوناً وكسلاً لا جحوداً.

فأما الحالة الأولى: فقد أجمع العلماء على أن تارك الصلاة جحوداً لفرضيتها كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كفراً كجاحد كل معلوم من الدين بالضرورة، ومثل ذلك ما لو جحد ركناً أو شرطاً مجمعاً عليه. واستثنى الشافعية والحنابلة من ذلك من أنكرها جاهلاً لقرب عهده بالإسلام أو نحوه فليس مرتدا، بل يعرف الوجوب، فإن عاد بعد ذلك صار مرتداً.

وأما الحالة الثانية: فقد اختلف الفقهاء فيها [وهي: ترك الصلاة تهاوناً وكسلاً لا جحوداً].

فذهب المالكية والشافعية إلى أنه يقتل حداً أي أن حكمه بعد الموت حكم المسلم فيغسل، ويصلى عليه، ويدفن مع المسلمين؛ لقول النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)[١١٠١] ولأنه تعالى أمر بقتل المشركين ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]، وقال ﷺ : (خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة)[١١٠٢] فلو كفر لم يدخل تحت المشيئة.

وذهب الحنفية إلى أن تارك الصلاة تكاسلاً عمداً فاسق لا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يموت أو يتوب.

وذهب الحنابلة: إلى أن تارك الصلاة تكاسلاً يدعى إلى فعلها ويقال له: إن صليت وإلا قتلناك، فإن صلى وإلا وجب قتله ولا يقتل حتى يحبس ثلاثاً ويدعى في وقت كل

(١١٠١) متفق عليه: البخاري (٢٤) و(٣٧٩) و(١٣١٢) و(٢٧٢٧) و(٦٤١٣)، ومسلم (٢٩) و(٣٠) و(٣١) و(٣٢) و(٣٣).

(١١٠٢) النسائي(٤٥٧)، وأبو داود (١٢١٠)، وأحمد (١٧٤٣٠)، ومالك (٢٤٨)، والدارمي (١٥٣١).

صلاة، فإن صلى وإلا قتل حداً، وقيل كفراً، أي لا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين... لما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[1103] وروى بريدة أن (النبي ﷺ قال: من تركها فقد كفر)[1104] وروى عبادة مرفوعاً (من ترك الصلاة متعمداً فقد خرج من الملة)[1105] وكل شيء ذهب آخره لم يبق منه شيء. ولأنه يدخل بفعلها في الإسلام، فيخرج بتركها منه كالشهادتين. وقال عمر ﵁ : لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وكذا عندهم لو ترك ركناً أو شرطاً مجمعاً عليه كالطهارة والركوع والسجود..»[1106].

١٠١٢- ثانيا - الصيام: مكانته في الإسلام وحكم تاركه :

ذكر الله تعالى الثناء على المؤمنين بأدائهم فريضة الصيام، قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وأكد فريضة الصيام بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال: ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومعلوم أن ترك صيام رمضان عامداً من غير عذر هدم لركن من أركان الإسلام لقوله ﷺ : (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)[1107]، بل إن ترك صيام يوم واحد منه بدون عذر كان ذلك من الكبائر ولم يقضه صيام الدهر كله وإن صامه.

جاء في كتاب (الزواجر): «أخرج الترمذي واللفظ له وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي: (من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا

(١١٠٣) أخرجه مسلم (١١٦) و(١١٧)، وأحمد (١٤٦٥٠).

(١١٠٤) النسائي(٤٥٩)، وابن ماجة (١٠٦٩)، وأحمد (٢١٨٥٩) و(٢١٩٢٩).

(١١٠٥) المنذري: الترغيب والترهيب:٢/ ٢١٤ أخرجه عن عبادة بن الصامت وقال ورواه الطبراني ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة بإسنادين لا بأس بهما. وانظر أيضا: مجمع الزوائد:٤/ ٢١٦.

(١١٠٦) الموسوعة الفقهية ج:٢٧ ص: ٥١.

(١١٠٧) متفق عليه: البخاري(٧)، ومسلم (٢١).

مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه). وذكره البخاري تعليقاً غير مجزوم به فقال: ويذكر عن أبي هريرة رفعه: (من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه). وأخذ بظاهر هذا الخبر علي وابن مسعود رضي الله عنهما، فقالا: «إن من أفطر يوماً من رمضان لا يقضيه صوم الدهر».. وأحمد مرسلاً: (أربع فرضهن الله في الإسلام من أتى بثلاثة لم يغنين عنه شيئاً حتى يأتي بهن جميعاً، الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت)... وظاهر - والله أعلم - أن حكمة كثرة ما جاء من الوعيد في ترك الصلاة والزكاة دون الصوم أنه لا يتركه كسلاً مع القدرة عليه إلا الفذ النادر، بخلاف ترك الصلاة والزكاة فإنه كثير في الناس بل أكثر الناس يتهاونون بالصلاة والزكاة ومع ذلك يثابرون على الصوم، ومن ثم تجد كثيرين يصومون وهم لا يصلون وكثيرين لا يصلون إلا في رمضان دون غيره»[١١٠٨].

وكل ذلك من قبيل الكبائر التي تهلك صاحبها يوم القيامة إن لم يتب قبل أن يخطفه الموت.

وبعد هذا البيان عن مكانة الصلاة والصيام في الإسلام، وقبل الدخول في موضوع التوبة من ترك الصلاة والصيام، يجدر بنا معرفة بعض المصطلحات الفقهية لأنها سترد خلال بحث توبة مَنْ ترك الصلاة والصيام عامداً وهل يجب عليه القضاء بعد التوبة؟.

١٠١٣- التعريف بالأداء والقضاء والفوائت والإعادة[١١٠٩]:

الأداء لغة: الإيصال. وفي الاصطلاح قال الحصكفي: الأداء فعل الواجب في وقته.

والقضاء لغة: من معانيها: الحكم والأداء، والقضاء اصطلاحاً: قال ابن عابدين: القضاء فعل الواجب بعد وقته.

والفوائت في اللغة جمع فائتة، من فاته الأمر فوتاً وفواتاً: إذا مضى وقته ولم يفعل. ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي. وقضاء الفوائت عند الفقهاء: قال الدردير: استدراك ما خرج وقته

(١١٠٨) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:١ ص:٣٢٣-٣٢٤.

(١١٠٩) الموسوعة الفقهية: ج٣٤ ص ٢٤-٢٥ (بتصرف).

والصلة بين الأداء وقضاء الفوائت هي أن كليهما من أقسام المأمور به، ويختلف القضاء عن الأداء في أن الأداء يختص بفعل العبادة في الوقت المحدد لها، وأن القضاء يختص بفعل العبادة في غير وقتها المحدد لها.

والإعادة في اللغة: رد الشيء ثانياً، ومنه: إعادة الصلاة. وأما في الاصطلاح: قال الحصكفي: «الإعادة فعل مثل الواجب في وقته لخلل...».

والصلة بين القضاء وبين الإعادة هي: أن القضاء لما لم يسبق فعله في وقته، والإعادة لما سبق فعله في وقته بخلل.

١٠١٤- علاقة التوبة بقضاء ما فات من صلاة وصيام:

١٠١٥-١- توبة الكافر الأصلي إسلامه ولا يقضي ما فاته من صلاة وصيام وغيرهما:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما تركه الكافر الأصلي من واجب كالصلاة والزكاة والصيام فإنه لا يجب عليه قضاؤه بعد الإسلام بالإجماع لأنه لم يعتقد وجوبه سواء كانت الرسالة قد بلغته أو لم تكن بلغته وسواء كان كفره جحوداً أو عناداً أو جهلاً ولا فرق في هذا بين الذمي والحربي... فإن الإسلام يهدم ما كان قبله» (١١١٠).

قلت: ويلحق بالكافر الأصلي في عدم وجوب قضاء ما فاته من صلاة وصيام وغيرهما كفر النفاق أي المنافق الكافر في بالباطن فقد تاب منافقون في عهد النبي ﷺ ولم يؤمروا بالقضاء، وكفر الردة فلا يقضي ما فاته أيام ردته ولا تصح منه على رأي من يقول بذلك، والجهل الذي يعذر به لعدم بلوغ الخطاب كمن أسلم حديثاً في دار الكفر ولم يعلم الواجبات والمحرمات فإذا علمها وتاب لم يجب عليه قضاء ما فاته، وغفر له ما فعله من محرم.

«فالأحوال المانعة من وجوب القضاء للواجب والترك للمحرم: الكفر الظاهر والكفر الباطن، والكفر الأصلي، وكفر الردة، والجهل الذي يعذر به لعدم بلوغ الخطاب...» (١١١١).

(١١١٠) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٧.

(١١١١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢٣.

١٠١٦-٢- توبة المسلم التارك للصلاة والصيام دهراً وهل يقضي ما فاته؟

هذه مسألة من أعظم المسائل الخاصة بالتوبة لتعلقها بحال كثير من المسلمين الغافلين الذين غرتهم الحياة الدنيا وعاشوا لها غير مبالين بترك الصلاة والصيام وبقية الواجبات، ومنهم من يعيش على هذه الحال دهراً طويلاً ولا ينتبه إلى التوبة إلا بعد عشرات السنين بعد البلوغ، ومنهم من قضى دهراً طويلاً يُقطِّع في صلاته فيصلي حيناً ويترك حيناً أو أنه فعل ذلك أياماً، فما حكم هؤلاء إذا هداه الله تعالى إلى التوبة والاستقامة؟ وهل يقضي هؤلاء كل ما فاتهم من صلاة وصيام وإن بلغت عند بعضهم أربعين سنة أو خمسين سنة؟ بحيث لا تصح توبتهم إلا بأن يقضوا كل ما فاتهم؟ أم يستأنفون العمل اعتباراً من وقت التوبة وما بعده ويقال لهم عفا الله عما سلف؟.

فهذه المسألة الخطيرة هي من الأمور التي تعم بها البلوى، وتزداد البلوى بها كلما ازداد فساد الزمان، وتحتاج إلى بيان أقوال العلماء فيها والوصول إلى ما تطمئن به النفس بإذن الله تعالى.

١٠١٧- حكم قضاء الفوائت لمن تركها متعمداً وأقوال العلماء فيه:

جاء في الموسوعة الفقهية بشأن قضاء الفوائت لمن تركها متعمداً: «فأما المتعمد في الترك:

فيرى جمهور الفقهاء أنه يلزمه قضاء الفوائت، ومما يدل على وجوب القضاء حديث أبي هريرة ﷺ : (أن النبي ﷺ أمر المجامع في نهار رمضان أن يصوم يوماً مع الكفارة)[١١١٢] أي بدل اليوم الذي أفسده بالجماع عمداً، ولأنه إذا وجب القضاء على التارك ناسياً فالعامد أولى.

(١١١٢) ابن حجر العسقلاني: تلخيص الحبير ج: ٢ ص: ٢٠٧ وقال: «وروي في بعض الروايات أنه قال للرجل واقض يوماً مكانه أبو داود من حديث هشام بن سعد عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وأعله بن حزم بهشام وقد تابعه إبراهيم بن سعد، كما رواه أبو عوانة في صحيحه ورواه الدارقطني... وله طريق أخرى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ومن طريق مالك عن عطاء عن سعيد بن المسيب مرسلاً ومن حديث ابن جريج عن نافع بن جبير مرسلاً ومن حديث أبي معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي مرسلا وقال سعيد بن منصور ثنا عبد العزيز بن محمد عن بن عجلان عن المطلب بن أبي وداعة عن سعيد بن =

ويرى بعض الفقهاء عدم وجوب القضاء على المتعمد في الترك، قال عياض: ولا يصح عند أحد سوى داود وابن عبد الرحمن الشافعي» [1113].

ولكن هذه المسألة الخطيرة تحتاج في نظرنا إلى أكثر من هذا المرور السريع بها على نحو ما حصل في «الموسوعة الفقهية»، فالأمر يحتاج إلى استقصاء آراء الفقهاء وأدلتهم والنظر فيها من جهة قوتها وصحتها وموافقة طريقة استخدامها في الاستدلال لأصول الاجتهاد الصحيح (أصول الفقه)، وذلك من أجل الوصول إلى الرأي المختار.

ولقد كان ابن حزم قد دافع عن الرأي الذي سبقه إليه داود الظاهري والذي يقول بأن المسلم التارك للفرائض إذا تاب لا يجب عليه قضاء ما فاته من صلاة وصيام ولا يصح فعله بعد وقته أصلاً، وإنما يستأنف العمل بعد التوبة قائلا: «وأما من تعمد ترك الصلاة حتى خرج وقتها فهذا لا يقدر على قضائها أبدا، فليكثر من فعل الخير وصلاة التطوع، ليثقل ميزانه يوم القيامة؛ وليتب وليستغفر الله عز وجل. وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي: يقضيها بعد خروج الوقت» [1114] ثم مضى ابن حزم في تقديم الأدلة على عدم وجوب القضاء وعدم صحته [1115] - ونسب هذا الرأي إلى السلف [1116]- وهي أدلة قوية لا يستهان بها من الناحية الأصولية والفقهية.

= المسيب: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أصبت امرأتي في رمضان فقال رسول الله ﷺ تب إلى الله واستغفره وتصدق واقض يوماً مكانه) ».

(1113) الموسوعة الفقهية ج:٣٤ ص:٢٦ وما بعدها.

(1114) ابن حزم: المحلى: ج:٢ ص:١١.

(1115) ابن حزم: المحلى: ج:٢ ص:١١ وما بعدها.

(1116) قال ابن حزم: « وممن قال بقولنا في هذا عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وسليمان وابن مسعود، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وبديل العقيلي، ومحمد بن سيرين، ومطرف ابن عبد الله، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم » (انظر: المحلى: ج:٢ ص:١١ وما بعدها).

١٠١٨- أقوال العلماء وتحقيقهم لمسألة التائب من ترك الصلاة والصيام متعمداً وهل يقضي؟

١٠١٩- أولاً - رأي ابن تيمية في مسألة التائب من ترك الصلاة والصيام متعمداً وهل يقضي ما فاته؟

تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لهذه المسألة فذكر رأي جمهور الفقهاء الذي يقول بوجوب قضاء الفوائت لمن تركها متعمداً فإذا تاب وجب عليه قضاء كل ما فاته من صلاة وصيام وغيرهما، ولكن ابن تيمية رحمه الله توقف في الاقتناع برأي الجمهور وقرر أن هذا الموضع يحتاج إلى أن يحرر - أي يبحث بدقة أكبر وشمول أكثر من أجل الوصول إلى رأي واضح الرجحان - فقال: «واختلف الناس فيمن ترك الصلاة والصوم عامداً هل يقضيه؟ فقال الأكثرون يقضيه، وقال بعضهم لا يقضيه ولا يصح فعله بعد وقته...»[١١١٧].

ثم قال: «من لم يلتزم أداء الواجب - وإن لم يكن كافرا في الباطن[١١١٨] - ففي إيجاب القضاء عليه تنفير عظيم عن التوبة، فإن الرجل قد يعيش مدة طويلة لا يصلي ولا يزكي وقد لا يصوم أيضاً ولا يبالي من أين كسب المال أمن حلال أم من حرام ولا يضبط حدود النكاح والطلاق وغير ذلك فهو في جاهلية إلا أنه منتسب إلى الإسلام، فإذا هداه الله وتاب عليه فإن أُوجب عليه قضاء جميع ما تركه من الواجبات...صارت التوبة في حقه عذاباً وكان الكفر حينئذ أحب إليه من ذلك الإسلام الذي كان عليه، فإن توبته من الكفر رحمة وتوبته وهو مسلم عذاب، وأعرف طائفة من الصالحين مَنْ يتمنى أن يكون كافراً ليسلم فيغفر له ما قد سلف لأن التوبة عنده متعذرة عليه أو متعسرة على ما قد قيل له واعتقده من التوبة، ثم هذا منفر لأكثر أهل الفسوق عن التوبة، وهو شبيه بالمؤيس للناس من رحمة الله، ووضع لآصار ثقيلة ولأغلال عظيمة على التائبين الذين هم أحباب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، والله أفرح بتوبة عبده من الواجد لماله الذي به قوامه بعد اليأس منه.

(١١١٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٨-١٩.

(١١١٨) المنافق الكافر في الباطن والمظهر للإسلام إذا تاب فحكمه حكم الكافر الأصلي في عدم وجوب قضاء ما فاته من صلاة وصيام وغيرهما فإنه يغفر له ما قد سلف بالتوبة.

فينبغي لهذا المقام أن يحرر، فإن كفر الكافر لم يسقط عنه ما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات لكون الكافر كان معذوراً بمنزلة المجتهد، فإنه لا يعذر بلا خلاف، وإنما غفر له لأن الإسلام توبة، والتوبة تجب ما قبلها، والتوبة توبة من ترك تصديق وإقرار [وهو حال الكافر]، وترك عمل وفعل [وهو حال المسلم التارك للفرائض]، فيشبه والله أعلم أن يجعل حال هؤلاء في جاهليتهم كحال غيرهم»(1119).

وقال أيضا: «والتوبة كالإسلام، فإن الذي قال: الإسلام يهدم ما كان قبله، هو الذي قال: التوبة تهدم ما كان قبلها، وذلك في حديث واحد» (1120).

وإذا كان شيخ الإسلام قد أبدى عدم قناعته برأي الجمهور على نحو ما تقدم وأبدى ميله إلى الرأي الذي يقول بأن التائب ليس عليه أن يقضي ما فاته من صلاة وصيام ورغب في أن يجعل حال المسلم الذي عاش في جاهلية وهو منتسب إلى الإسلام شبيهاً بحال الكافر الذي أسلم وغفر له ما قد سلف، والمنافق نفاقاً أكبر أي المظهر للإسلام وهو كافر في قلبه فإذا تاب غفر له ما قد سلف أيضاً حكمه حكم الكافر الأصلي، وكفر الردة أيضاً على رأي من يقول بأنه لا يقضي ما فاته حال ردته، ورغب شيخ الإسلام أيضاً - على ما نقلنا عنه في الفقرة السابقة - أن تحرر هذه المسألة قائلاً: «فينبغي لهذا المقام أن

(1119) أي كحال غيرهم ممن لا يجب عليه القضاء وهم الذين تابوا من: الكفر الأصلي، وكفر الردة، وكفر النفاق، ومن أسلم حديثاً في دار الكفر ولم يبلغه الخطاب، فهؤلاء ليس عليهم قضاء ما فاتهم وإنما يستأنفون العمل بعد التوبة. وكان ابن تيمية قد قال وهو يتكلم عن بعض هذه الأصناف غير الكافر الأصلي: «فإذا كان العفو عن الكافر لأجل ما وجد من الإسلام الماحي، والحسنات يذهبن السيئات، ولأن في عدم العفو تنفير عن الدخول لما يلزم الداخل فيه من الآصار والأغلال الموضوعة على لسان هذا النبي، فهذا المعنى موجود في التوبة عن الجهل والظلم، فإن الاعتراف بالحق والرجوع إليه حسنة يمحو الله بها السيئات، وفي عدم العفو تنفير عظيم عن التوبة، وآصار ثقيلة وأغلال عظيمة على التائبين، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي أن الله يبدل لعبده التائب بدل كل سيئة حسنة على ظاهر قوله: (يبدل الله سيئاتهم حسنات)، فإذا كانت تلك التي تاب منها صارت حسنات لم يبق في حقه بعد التوبة سيئة أصلاً، فيصير ذلك القبض والعقد من باب المعفو عنه، ويصير ذلك الترك من باب المعفو عنه، فلا يجعل تاركاً لواجب ولا فاعلاً لمحرم، وبهذا يحصل الجمع بين الأدلة الشرعية» (انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٨).

(1120) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٧.

يحرر»[١١٢١]، فقد انبرى لتحرير هذا المقام فعلاً تلميذه العلامة المحقق ابن قيم الجوزية بدقة وشمول مستعرضاً أقوال الفريقين وأدلتهم ثم انتهى إلى الترجيح. ونحن ننقل تحريره لهذه المسألة لأهميته في إيضاح وجه الرأي الذي اختاره كل فريق من الفقهاء:

١٠٢٠- ثانياً - تحرير ابن القيم لمسألة التائب من ترك الصلاة والصيام متعمدا وهل يقضي ما فاته؟:

قال ابن القيم رحمه الله[١١٢٢]:

«ومن أحكام التوبة: أن من تعذر عليه أداء الحق الذي فرط فيه ولم يمكنه تداركه ثم تاب فكيف حكم توبته؟ وهذا يتصور في حق الله سبحانه، وحقوق عباده.

فأما في حق الله: فكمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر مع علمه بوجوبها وفرضها ثم تاب وندم، فاختلف السلف في هذه المسألة:

١٠٢١- أ- قول الجمهور: على التائب قضاء الفوائت وقول غيرهم: لا يقضي:

فقالت طائفة: توبته بالندم والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة، وقضاء الفرائض المتروكة، وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم.

وقالت طائفة: توبته باستئناف العمل في المستقبل، ولا ينفعه تدارك ما مضى بالقضاء ولا يقبل منه فلا يجب عليه، وهذا قول أهل الظاهر، وهو مروي عن جماعة من السلف.

١٠٢٢- ب - حجج الموجبين للقضاء - الجمهور- كما يلخصها ابن القيم:

وحجة الموجبين للقضاء:

قول النبي [ﷺ]: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها)[١١٢٣].

قالوا: فإذا وجب القضاء على النائم والناسي مع عدم تفريطهما فوجوبه على العامد والمفرط أولى.

(١١٢١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٢١-٢٢.

(١١٢٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٧٤-٣٨٦ (مشذباً ومختصراً).

(١١٢٣) مسلم (١١٠٣) بلفظ (من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها) وأخرجه بألفاظ مقاربة - في الكتب التسعة - كل من: البخاري والنسائي وأبو داود وابن ماجة والدارمي ومالك.

قالوا: ولأنه كان يجب عليه أمران: الصلاة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحد الأمرين بقي الآخر.

قالوا: ولأن القضاء إن قلنا يجب عليه بالأمر الأول فظاهر، وإن قلنا يجب عليه بأمر جديد فأمر النائم والناسي به تنبيه على العامد كما تقدم.

قالوا: ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن العبد تداركها تدارك منها ما أمكن، وقد فاتت مصلحة الفعل في الوقت فيتدارك ما أمكن منها وهو الفعل في خارج الوقت.

قالوا: وقد قال النبي [ﷺ]: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم)(١١٢٤)، وهذا قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت، وقد تعذر عليه الإتيان به في وقته، فيجب عليه الإتيان بالمستطاع.

قالوا: وكيف يظن بالشرع أنه يخفف عن هذا المتعمد المفرط العاصي لله ورسوله بترك الوجوب ويوجبه على المعذور بالنوم أو النسيان.

قالوا: ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة في الوقت، والعبادة إذا كان لها بدل وتعذر المبدل انتقل المكلف إلى البدل، كالتيمم مع الوضوء، وصلاة القاعد عند تعذر القيام والمضطجع عند تعذر القعود، وإطعام العاجز عن الصيام لكبر أو مرض غير مرجو البرء عن كل يوم مسكيناً، ونظائر ذلك كثيرة في الشرع.

قالوا: ولأن الصلاة حق مؤقت فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت كديون الآدميين المؤجلة.

قالوا: ولأن غايته أنه أثم بالتأخير وهذا لا يسقط القضاء كمن أخر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيراً أثم به أو أخر الحج تأخيراً أثم به.

قالوا: ولو ترك الجمعة حتى صلاها الإمام عمداً عصى بتأخيرها ولزمه أن يصلى الظهر، ونسبة الظهر إلى الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلى صلاتها قبل الطلوع.

(١١٢٤) متفق عليه: البخاري (٦٧٤٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

قالوا: وقد أخر النبي [ﷺ] صلاة العصر يوم الأحزاب إلى أن صلاها بعد غروب الشمس فدل على أن فعلها ممكن خارج الوقت في العمد سواء كان معذوراً به كهذا التأخير وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بني قريظة إلى بعد غروب الشمس، أو لم يكن معذوراً به كتأخير المفرط، فتأخيرهما إنما يختلف في الإثم وعدمه لا في وجوب التدارك بعد الترك.

قالوا: ولو كانت الصلاة خارج الوقت لا تصح ولا تجب لما أمر النبي [ﷺ] الصحابة يوم بني قريظة بتأخير صلاة العصر إلى أن يصلوها فيهم، فأخرها بعضهم حتى صلاها فيهم بالليل، فلم يعنفهم، ولم يعنف من صلاها في الطريق، لاجتهاد الفريقين.

قالوا: ولأن كل تائب له طريق إلى التوبة، فكيف تسد عن هذا طريق التوبة ويجعل إثم التضييع لازماً له وطائراً في عنقه؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته ومراعاته لمصالح العباد في المعاش والمعاد.

فهذا أقصى ما يحتج به لهذه المقالة.

١٠٢٣- ج - حجج نضيفها إلى ما استخلصه ابن القيم تعضد قول الجمهور بالقضاء:

[قلت: هنالك مزيد من الحجج المهمة التي يمكن أن يحتج بها لقول الجمهور القائلين بالقضاء لمن ترك الصلاة والصيام عمداً:

١ - فمما يدل على وجوب القضاء حديث أبي هريرة ﷺ : (أن النبي ﷺ أمر المجامع في نهار رمضان أن يصوم يوماً مع الكفارة)[١١٢٥] أي بدل اليوم الذي أفسده بالجماع عمداً، وهذا واضح في الدلالة على أن العامد في ترك الصيام يقضي ما فاته.

(١١٢٥) جاء في شرح الزرقاني في شرح قوله ﷺ : (وصم يوماً مكان ما أصبت) ففي هذا إلزام القضاء مع الكفارة [وهي نفس كفارة الظهار:عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا] وهو (أي الإلزام بالقضاء لليوم الذي أفسده بالإفطار عمداً) قول الأئمة الأربعة والجمهور، وأسقطه بعضهم لأنه لم يرد في خبر أبي هريرة ولا خبر عائشة ولا في نقل الحافظ لها ذكر القضاء، وأجيب بأنه جاء من طريق يعرف بمجموعها أن لهذه الزيادة أصلاً يصلح للاحتجاج (شرح الزرقاني ج: ٢ ص: ٢٣٣).

٢- ومما يدل على وجوب القضاء أيضاً قوله ﷺ : (فدين الله أحق أن يقضى) قاله النبي ﷺ للرجل الذي سأله : (يا رسول الله إن أبي مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم، قال: فدين الله أحق)[١١٢٦] وفي الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها قال: نعم قال: فدين الله أحق أن يقضى)[١١٢٧] وهذا الدليل وإن لم يحتج به الجمهور على ما ذكر الشوكاني[١١٢٨] فهو من أقوى الأدلة التي كان يمكن أن تعضد مقالتهم في وجوب القضاء. لأنه يدل على عموم دين الله من المعذور والعامد حسب ما يدل عليه اسم الجنس (دين الله) وأنه أحق بالقضاء، ومع أن ما قاله النبي ﷺ : (فدين الله أحق بالقضاء) إنما قاله في ثلاثة أحوال: النذر المطلق الذي ليس له وقت محدود الطرفين ويقبل النيابة إذا مات صاحبه، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس: (أن امرأة قالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت: نعم، قال: فصومي عن أمك)[١١٢٩]، والحالة الثانية: الحج الذي لا يفوت إلا بانقضاء العمر ويقبل النيابة أيضاً كما في الحديث المتقدم ذكره، والحالة الثالثة: في الصوم، وهو يقبل النيابة إذا مات صاحبه كما جاء في حديث المرأة التي سألت عن قضاء صوم شهر عن أمها التي ماتت - والحديث تقدم ذكره قبل قليل - فأمرها النبي ﷺ بالقضاء، نقول: مع من أن هذه الحالات الثلاث أصحابها معذورون كما في ظاهر الأحاديث، ولذلك سمح النبي ﷺ بالقضاء عنهم، إلا أن قول النبي ﷺ : (فدين الله أحق بالقضاء) يبقى فيه معنى العموم فيحتمل أن يشمل العامد في ترك الصلاة والصيام - وإن كان شموله به ظنياً -

---

(١١٢٦) أخرجه النسائي (٢٥٩١)

(١١٢٧) متفق عليه: البخاري (١٨١٧) واللفظ له، ومسلم:(١٩٣٦).

(١١٢٨) قال الشوكاني: «فإني لم أقف مع البحث الشديد للموجبين للقضاء على العامد وهم من عدا من ذكرنا على دليل ينفق في سوق المناظرة، ويصلح للتعويل عليه في مثل هذا الأصل العظيم إلا حديث (فدين الله أحق أن يقضى) باعتبار ما يقتضيه اسم الجنس المضاف من العموم، ولكنهم لم يرفعوا إليه رأساً» أي لم يحتجوا به لتعضيد رأيهم. (انظر: الشوكاني: نيل الأوطار: ج:٢ ص:٣١-وما بعدها: باب قضاء الفوائت).

(١١٢٩) متفق عليه: البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

على قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مع ملاحظة أن الصلاة لا تقبل النيابة فيقضيها صاحبها في حياته بعد أن تاب. فهذه المعاني يمكن أن تعضد رأي الجمهور في القول بالقضاء ممن ترك الصلاة والصيام متعمداً ثم تاب.

وما قلناه في الفقرتين السابقتين لا يعني أننا نفتي برأي الجمهور وحده في هذه المسألة، وإنما ذكرناهما استكمالاً للبحث، ولأنها لم ترد في تحرير ابن القيم لرأي الجمهور. ونعود الآن إلى إكمال نص تحرير ابن القيم للمسألة.

١٠٢٤- د - حجج الذين لا يوجبون القضاء كما استخلصها ابن القيم:

قال أصحاب القول الآخر [الذين لا يوجبون القضاء]:

العبادة إذا أمر بها على صفة معينة أو في وقت بعينه لم يكن المأمور ممتثلاً للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به من وصفها ووقتها وشرطها، فلا يتناولها الأمر بدونه.

قالوا: وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلاً، وكالسجود على الخد بدل الجبهة، والبروك على الركبة بدل الركوع، ونحوه.

قالوا: والعبادات التي جعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه كالعبادات التي جعل لها ظرف من المكان، فلو أراد نقلها إلى أمكنة أخرى غيرها لم تصح إلا في أمكنتها، ولا يقوم مكان مقام مكان آخر، كأمكنة المناسك من عرفة ومزدلفة والجمار والسعي بين الصفا والمروة والطواف بالبيت، فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التي جعلت أوقاتاً لها شرعاً إلى غيرها كنقلها عن أمكنتها التي جعلت لها شرعاً إلى غيرها، لا فرق بينهما في الاعتداد وعدمه، كما لا فرق بينهما في الإثم.

قالوا: فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولاً وآخراً عن زمنها إلى زمن آخر كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر.

قالوا: فأي فرق بين من نقل صوم رمضان إلى شوال أو صلى العصر نصف الليل وبين من حج في المحرم ووقف فيه؟ فكيف تصح صلاة هذا وصيامه دون حج هذا وكلاهما مخالف لأمر الله تعالى عاص آثم.

قالوا: فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله في غير أوقاتها، فكما لا تقبل قبل دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها، فلو قال: أنا أصوم شوال عن رمضان كان كما لو قال أنا أصوم شعبان الذي قبله عنه.

قالوا: فإن الحق الليلي لا يقبل بالنهار، والنهاري لا يقبل بالليل، ولهذا جاء في وصية الصديق لعمر رضي الله عنهما التي تلقاها بالقبول هو وسائر الصحابة: واعلم أن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل.

قالوا: ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعاً لم تبق تلك العبادة بعينها ولكن شيء آخر غيرها، فإذا فعلت العصر بعد غروب الشمس لم تكن عصراً فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود، وهذه ليست عصراً فلم يفعل مصليها العصر البتة، وإنما أتى بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر لا أنها هي.

قالوا: وقد ثبت عن النبي [ﷺ] أنه قال: (من ترك صلاة العصر حبط عمله)[1130]، وفي لفظ: (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)[1131]، فلو كان له سبيل إلى التدارك وفعلها صحيحة لم يحبط عمله ولم يوتر أهله وماله مع صحتها منه وقبولها، لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات، لاستدراكه بالفعل في الوقت الثاني.

قالوا: وهذه الصلاة مردودة بنص الشارع فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها مع تصريحه بردها وإلغائها، كما ثبت في الصحيح عنه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[1132]، وفي لفظ:كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد، وهذا عمل على خلاف أمره فيكون رداً، والرد بمعنى المردود كالخلق بمعنى المخلوق والضرب بمعنى المضروب، وإذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة فليست بصحيحة ولا مقبولة.

قالوا: ولأن الوقت شرط في سقوط الإثم وامتثال الأمر، فكان شرطاً في براءة الذمة والصحة، كسائر شروطها من الطهارة والاستقبال وستر العورة، فالأمر تناول الشروط تناولاً واحداً، فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها في الوجوب والأمر والشرطية.

(١١٣٠) البخاري(٥٥٩)، وأحمد(٢١٨٧٩) و(٢١٩٧٠).

(١١٣١) متفق عليه: البخاري(٥١٩)، ومسلم (٩٩٢)

(١١٣٢) متفق عليه: البخاري (٢٤٩٩)، ومسلم (٣٢٤٣).

قالوا: وليس مع المصححين لها بعد الوقت لا نص ولا إجماع ولا قياس صحيح وسنبطل جميع أقيستهم التي قاسوا عليها...

قالوا: وفي مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي [ﷺ] أنه قال: (من أفطر يوماً من رمضان لغير عذر لم يقضه عنه صيام الدهر)[(١١٣٣)]، فكيف يقال يقضيه عنه يوم مثله؟.

قالوا: ولأن صحة العبادة إن فسرت بموافقة الأمر فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له فلا تكون صحيحة، وإن فسرت بسقوط القضاء فإنما يسقط القضاء ما وقع على الوجه المأمور به، وهذا لم يقع كذلك، ولا سبيل إلى وقوعه على الوجه المأمور به، فلا سبيل إلى صحته، وإن فسرت بها أبرأ الذمة فهذه لم تبرئ الذمة من الإثم قطعاً، ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور.

قالوا: ولأن الصحيح من العبادات ما اعتبره الشارع ورضيه وقبله، وهذا لا يعلم إلا بإخباره عن صحتها أو بموافقتها أمره، وكلاهما منتف عن هذه العبادة، فكيف يحكم لها بالصحة؟.

قالوا: فالصحة والفساد حكمان شرعيان مرجعهما إلى الشارع، فالصحيح ما شهد له بالصحة أو علم أنه وافق أمره أو كان مماثلاً لما شهد له بالصحة، فيكون حكم المثل مثله، وهذه العبادة قد انتفى عنها كل واحد من هذه الأمور، ومن أفسد الاعتبار [أي: القياس] اعتبارها بالتأخير المعذور به أو المأذون فيه، وهو اعتبار الشيء بضده، وقياسه على مخالفه في الحقيقة والشرع، وهو من أفسد القياس كما سيأتي.

قالوا: وأما استدلالكم بقول النبي [ﷺ]: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها)[(١١٣٤)] فأوجب القضاء على المعذور فالمفرط أولى، فهذه الحجة إلى أن تكون عليكم

(١١٣٣) أبو داود (٢٠٤٥)، وابن ماجة (١٦٦٢)، وأحمد (٨٦٥٣)، والدارمي (١٦٥٢).

(١١٣٤) أخرجه مسلم (١١٠٢) و(١١٠٤)، والترمذي (١٦٢) وقال: حسن صحيح، وأيضاً (١٦٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٦٠٩) و(٦١١) و(٦١٣) و(٦١٥) و(٦١٦)، وأبو داود (٣٧٢) و(٣٧٤)، وابن ماجة (٦٨٨) و(٦٨٩) و(٦٩٠)، وأحمد (١٣٠٦١) و(١٣٣٢٠) و(١٣٣٤٥)، ومالك (٢٢) و(٢٣)، والدارمي (١٢٠١).

أقرب منها أن تكون لكم، فإن صاحب الشرع شرط في فعلها بعد الوقت أن يكون الترك عن نوم أو نسيان، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه، فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصي المستحق للعقوبة على من عذره الله ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية كما ثبت عنه في الصحيح: (ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر صلاة حتى يدخل وقت التي بعدها)(١١٣٥)...

قالوا: وأيضاً فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها بل وقتها المأمور به لمثله حين استيقظ وذكر، كما قال النبي [ﷺ]: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها)، فإن الله يقول: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤]، وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية أي عند ذكري أو في وقت ذكري.

قالوا: والنبي [ﷺ] ما صلى الصبح يوم الوادي بعد طلوع الشمس إلا في وقتها حقيقة.

قالوا: والأوقات ثلاثة أنواع: وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور فهي خمسة. ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهي ثلاثة فإن في حقه وقت الظهر والعصر واحد، ووقت المغرب والعشاء واحد، ووقت الفجر واحد، فالأوقات في حق هذا ثلاثة وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها. ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان [أي بسبب نوم أو نسيان] فهو غير محدود البتة، بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره لا وقت له إلا ذلك. هذا الذي دلت عليه نصوص الشرع وقواعده. وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام وهو قسم رابع فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر من حيض أو سفر أو مرض، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه ولا تقتضيه قواعده، وإنما غاية ما معكم قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر فضلاً عن يوم مثله.

(١١٣٥) النسائي (٦١١)، وأبو داود (٣٧٢)، وابن ماجة (٦٩٠)، أحمد (٢١٥٥٤).

قالوا: وأما قولكم إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر، فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة فترك أحدهما لم يسقط عنه الآخر، أما إذا كان أحدهما شرطاً في الآخر وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلا به، فكيف يقال إنه يؤمر بالآخر بدونه ويصح منه بدون وصفه وشرطه، فأين أمره الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟.

قالوا: وإن قلنا إنما يجب القضاء بأمر جديد، فلا أمر معكم بالقضاء في محل النـزاع، وقياسه على مواقع الإجماع ممتنع كما بيناه، وإن قلنا يجب بالأمر الأول فهذا فيما إذا كان القضاء نافعا ومصلحته كمصلحة الأداء كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسي، أما إذا كان القضاء غير مبرئ للذمة ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته فهذا لم يتناوله الأمر الأول، ولا أمر ثان، وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق.

قالوا: وأما قولكم إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها ما أمكن، فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن حصول المصلحة على شرط تزول المصلحة بزواله، والتدارك بعد فوات شرطه وخروجه عن الوجه المأمور به ممتنع إلا بأمر آخر من التوبة وتكثير النوافل والحسنات، وأما تدارك غير هذا الفعل فكلا ولما.

قالوا: وأما قوله: (إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم)[١١٣٦] فقد أبعد النجعة من احتج به، فإن هذا إنما يدل على أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتى بما يقدر عليه منه، كمن عجز عن القيام في الصلاة أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء أو عن إكمال الفاتحة أو عن تمام الكفاية في الإنفاق الواجب ونحو ذلك أتى بما يقدر عليه ويسقط عنه ما عجز عنه، أما من ترك المأمور به حتى خرج وقته عمداً وتفريطاً بلا عذر فلا يتناوله الحديث، ولو كان الحديث متناولا له لما توعده بإحباط عمله وتشبيهه بمن سلب أهله وماله وبقى بلا أهل ولا مال.

(١١٣٦) متفق عليه: البخاري (٦٧٤٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

قالوا: وأما قولكم إنه لا يظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط بعدم إيجاب القضاء عليه وتكليف المعذور به، فكلام بعيد عن التحقيق...، فإن هذا المعذور إنما فعل ما أمر به في وقته كما تقدم، فهو في فعل ما أمر به كغير المعذور الذي صلى في وقته، ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفاً عنه، بل لأنه غير نافع له ولا مقبول منه ولا مأمور به، فلا سبيل له إلى تحصيل مصلحة ما تركه، فأين التخفيف عنه؟.

قالوا: وأما قولكم إن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة في الوقت وإذا تعذر المبدل انتقل إلى بدله، فهل هذا إلا مجرد دعوى؟ وهل وقع النـزاع إلا في هذا؟ فما الدليل على أن صلاة هذا المفرط العامد بدل؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولاً، وبكونها مقبولة نافعة ثانياً، وبكونها بدلاً ثالثاً، ولا سبيل لكم إلى إثبات شيء من ذلك البتة، وإنما يعلم كون الشيء بدلاً بجعل الشارع له كذلك، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء، والإطعام عند العجز عن الصيام، وبالعكس كما في كفارة اليمين، فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرط المضيع بدلاً عن فعله العبادة في الوقت؟ وهل ذلك إلا القياس الذي قد تبين فساده.

قالوا: وأما قياسكم فعلها خارج الوقت على صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها فمن هذا النمط، لأن وقت الوجوب في حقه ليس محدود الطرفين كوقت الصلاة، فالوجوب في حقه ليس مؤقتاً محدوداً بل هو على الفور، كالزكاة والحج عند من يراه على الفور، فلا يتصور فيه إخراج عن وقت محدود هو شرط لفعله، نعم أولى الأوقات به الوقت الأول على الفور، وتأخيره عنه لا يوجب كونه قضاء، فإن قيل فما تصنعون بقضاء رمضان؟ فإنه محدود - على جهة التوسعة - بما بين رمضانين، ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلى رمضان آخر، ومع هذا لو أخره لزمه فعله وإطعام كل يوم مسكيناً كما أفتى به الصحابة رضي الله عنهم، وهذا دليل على أن العبادة المؤقتة لا يتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعاً، قيل: قد فرق الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين لا يجوز تقدمها ولا تأخرها، وأطلق أيام قضائه فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤]، فأطلق العدة ولم يوقتها، وهذا يدل على أنها تجزئ في أي أيام كانت، ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقييدها بأيام لا تجزئ في غيرها. وليس في الباب إلا

حديث عائشة رضي الله عنها: (كان يكون علي الصوم من رمضان فلا أقضيه إلا في شعبان من الشغل برسول الله)[١١٣٧] ومعلوم أن هذا ليس صريحاً في التوقيت بها بين الرمضانين كتوقيت أيام رمضان بما بين الهلالين، فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع وجمع بين ما فرق الله بينهما، فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأطلق أيام القضاء وأكد إطلاقها بقوله: (أخر)، وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء، بل هي قضاء وإن فعلت بعد رمضان آخر، فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد بخلاف أيام رمضان، يوضح هذا: أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله البتة، ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام اليوم الذي بعده مقامه، وسر الفرق: أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء بل هو مخَير فيها، وأي يوم صامه قام مقام الآخر، وأما غير المعذور فأيام الوجوب متعينة في حقه لا يقوم غيرها مقامها.

قالوا: وأما من ترك الجمعة عمداً فإنما أوجبنا عليه الظهر لأن الواجب في هذا الوقت أحد الصلاتين ولا بد، إما الجمعة وإما الظهر، فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم وهو مخاطب بوظيفة الوقت.

قالوا: ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلا من الظهر، فإنه إذا فاته البدل رجع إلى الأصل، وهذا إن كان القضاء ثابتا بالإجماع أو بالنص، وإن كان فيه خلاف أجبنا بالجواب المركب فنقول: إن كان ترك الجمعة مساويا لترك الصلاة حتى يخرج وقتها فالحكم في الصورتين واحد ولا فرق حينئذ عملا بما ذكرنا من الدليل، وإن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق فامتنع القياس، فعلى التقديرين بطل القياس.

قالوا: وأما تأخير النبي [ﷺ] صلاة العصر يوم الأحزاب إلى غروب الشمس فللناس في هذا التأخير هل هو منسوخ أم لا قولان: فقال الجمهور كأحمد والشافعي ومالك: هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ثم نسخ بصلاة الخوف، وكان ذلك التأخير كتأخير صلاة الجمع بين الصلاتين، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به، ويكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسي وتأخير المفرط بل أولى، فإن هذا التأخير حينئذ مأمور

(١١٣٧) مسلم (١٩٣٣).

به، فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلى مزدلفة، القول الثاني: أنه ليس بمنسوخ بل هو باق وللمقاتل تأخير الصلاة حال القتال واشتغاله بالحرب والمسايفة، وفعلها عند تمكنه منها، وهذا قول أبي حنيفة ويذكر رواية عن أحمد، وعلى التقديرين فلا يصح إلحاق تأخير العامد المفرط به، وكذلك تأخير الصحابة العصر يوم بني قريظة فإنه كان تأخيراً مأموراً به عند طائفة من أهل العلم كأهل الظاهر، أو تأخيراً سائغاً للتأويل عند بعضهم، ولهذا لم يعنف النبي [ﷺ] من صلاها في الطريق في وقتها، ولا من أخرها إلى الليل حتى صلاها في بني قريظة، لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر، وأولئك نظروا إلى المعنى والمراد منهم وهو سرعة السير، واختلف علماء الإسلام في تصويب أي الطائفتين، فقالت طائفة: لو كنا مع القوم لصلينا في الطريق مع الذين فهموا المراد وعقلوا مقصود الأمر فجمعوا بين إيقاع الصلاة في وقتها وبين المبادرة إلى الوصول ولم يفتهم مشهدهم إذ المقدار الذي سبقهم به أولئك لحقوهم به لما اشتغلوا بالصلاة وقت النـزول في بني قريظة.

قالوا: فهؤلاء أفقه الطائفتين، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد والمبادرة إلى الجهاد مع فقه النفس، وقالت طائفة: لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلى بني قريظة فهم الذين أصابوا حكم الله قطعاً، وكان هذا التأخير واجباً لأمر رسول الله [ﷺ] به فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة، والله يأمر بما يشاء فأمره بالتأخير في وجوب الطاعة كأمره بالتقديم، فهؤلاء كانوا أسعد بالنص وهم الذين فازوا بالأجرين، وإنما لم يعنف الآخرين لأجل التأويل والاجتهاد، فإنهم إنما قصدوا طاعة الله ورسوله، وهم أهل الأجر الواحد، وهم كالحاكم الذي يجتهد فيخطئ الحق، والمقصود أن إلحاق المفرط العاصي بالتأخير بهؤلاء في غاية الفساد.

قالوا: وأما قولكم هذا تائب نادم فكيف تسد عليه طريق التوبة ويجعل إثم التضييع لازماً له وطائراً في عنقه؟

فمعاذ الله أن نسد عليه بابا فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ولم يغلقه عن أحد إلى حين موته أو إلى وقت طلوع الشمس من مغربها، وإنما الشأن في طريق توبته وتحقيقها هل يتعين لها القضاء؟ أم يستأنف العمل ويصير ما مضى لا له ولا عليه؟ ويكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم في استئناف العمل وقبول التوبة؟ فإن ترك فريضة من فرائض الإسلام لا يزيد على ترك الإسلام بجملته وفرائضه.

فإذا كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة لا يشترط في صحتها إعادة ما فاته، في حال إسلامه، أصلياً كان أو مرتداً، كما أجمع عليه الصحابة في ترك أمر المرتدين لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء، فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى، والله أعلم»[١١٣٨].

١٠٢٥- هـ - حجج نضيفها إلى أدلة القائلين بعدم وجوب القضاء:

[قلت: ويمكن أن يضاف إلى الأدلة التي قدمها القائلون بعدم وجوب القضاء بالنسبة للتائب الذي ترك الصلاة متعمداً ثم تاب:

١- أن الأحاديث الصحيحة الواردة في حسن الخاتمة بالنسبة لمن بدل حسناً بعد سوء تائباً إلى الله تعالى تدل على أنه صار إلى حسن الخاتمة وأنه بذلك يدخل الجنة دون أن تذكر تلك الأحاديث أن عليه أن يجبر ما فاته من العبادات وإنما نصت على أنه بدأ يعمل بعمل أهل الجنة - بعد أن كان يعمل بعمل أهل النار ومنها ترك الصلاة والصيام - ومات على ذلك.

قال ﷺ (وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[١١٣٩] فقوله ﷺ: (فيعمل بعمل أهل الجنة) يدل على استئناف العمل من غير تعلق بأن يجبر أو يعوض ما فاته في الماضي فقد غفر له ذلك بالتوبة وصار مستأنفاً للعمل بعمل أهل الجنة، والله أعلم.

٢- إذا كان ما تركه من صلاة وصيام أيام جاهليته يمكن جبره بالقضاء ويقع صحيحاً مقبولاً منه فلماذا يغفر له الله تعالى بتوبته؟ أليس يغفر له السيئات السابقة، وتركه للصلاة والصيام أليس هو من أعظم السيئات؟ فلماذا لا يكون قابلاً للغفران بالتوبة شأنه شأن فعل المحرمات التي انعقد الإجماع على أنها تغفر بالتوبة الصحيحة. هل هنالك نص يستثنيها من المغفرة بالتوبة؟.

٣- إن تحري مقصود الشارع والاستعانة به في معرفة الرأي الراجح أمر مهم وفقه سديد وبخاصة في القضايا التي هي من قبيل المضايق - على ما سمى الشوكاني هذه

(١١٣٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٣٧٤-٣٨٦ (مشذباً ومختصراً).

(١١٣٩) متفق عليه: البخاري (٦٩٠٠)، ومسلم (٤٧٨١) واللفظ له.

المسألة - ويمكننا أن نتعرف على مقصود الشارع حيث أمر النساء بقضاء الصيام فترة الحيض والنفاس ولم يأمرهن بقضاء الصلاة، فقد جاء في الحديث الصحيح قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (كنا نحيض على عهد رسول الله ﷺ ثم نطهر فيأمرنا بقضاء الصوم ولا يأمرنا بقضاء الصلاة)[1140].

فلماذا لا يؤمرن بقضاء الصلاة مع أنهن معذورات، والأصل أن المعذور يمكن من القضاء؟ كالنائم عن الصلاة والناسي، والحائض في قضاء الصيام؟.

أرى أن العلة في ذلك هي رفع الحرج ودفع المشقة لأن قضاء صيام ثلاثة أو خمسة أو عشرة أيام - وهي أطول مدة الحيض على رأي فريق من الفقهاء - في السنة ليس فيها حرج ومشقة ورمضان يأتي في السنة مرة واحدة، بينما قضاء الصلاة شهرياً لمثل هذه المدة فيها حرج ومشقة، ولذلك رفعته الشريعة عنهن وأمرتهن بعدم القضاء دفعاً للحرج والمشقة، مع أن في عدم القضاء نقص في الدين كما ذكر ذلك النبي ﷺ[1141]، ولا شك أن كمال الدين خير من نقصه، ولكن نظراً لما في القضاء شهرياً من مشقة وحرج لم تفرضه الشريعة عليهن. هذا وهن معذورات والمعذور قررت له الشريعة أن يقضي كما في النوم والنسيان، ومع ذلك لم تشرعه في حقهن دفعاً للحرج والمشقة كما ذكرنا.

فإذا كان هذا هو مقصود الشارع فكيف نرجح أو نقطع - في اجتهادنا - أنه يقرر قضاء صلاة شهور وسنين قد تصل إلى أربعين سنة أو خمسين سنة لمن ترك الصلاة والصيام عامداً في جاهليته ثم تاب؟ هذا وهو غير معذور حتى يشرع له أن يقضي؟].

فهذه ثلاث فقرات يمكن أن تضاف إلى استدلال من يقول بعدم القضاء، أضفناها كما فعلنا ذلك سابقاً عند إيراد حجج الجمهور ضمن تحرير ابن القيم رحمه الله لهذه المسألة، فقد أضفنا هناك استدلالات إضافية تعضد رأي الجمهور الذي يقول بوجوب القضاء، وهذا وذاك فعلناه استكمالاً للبحث.

(١١٤٠) مسلم (٥٨٠)، والنسائي (٢٢٧٩) واللفظ له، وأبو داود (٢٢٩)، وابن ماجة (٦٢٣)،وأحمد (٢٣٩٥٧).

(١١٤١) حيث قال ﷺ للنساء وهو يأمر النساء بالصدقة ويحاورهن: (أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن بلى، قال: فذلك من نقصان دينها (انظر: البخاري واللفظ له: حديث رقم: ٢٩٣). ومسلم (١١٤).

١٠٢٦- ثالثاً - قول الشوكاني في قضاء الصلاة والصيام لمن تركهما عامداً:

تكلم الشوكاني عن هذا الموضوع أثناء شرحه للأحاديث الصحيحة الوارد بشأن من نسي الصلاة أو نام عنها فقال:

«عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك) متفق عليه، ولمسلم: (إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]). رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي»[١١٤٢].

ثم تناول الشوكاني الأحاديث المتقدمة بالشرح فقال: «قوله: (من نسي) تمسك بدليل الخطاب من قال: إن العامد لا يقضي الصلاة؛ لأن انتفاء الشرط يستلزم انتفاء المشروط، فيلزم منه أن من لم ينس لا يصلي، وإلى ذلك ذهب داود وابن حزم وبعض أصحاب الشافعي، وحكاه في البحر عن ابني الهادي والأستاذ، ورواية عن القاسم والناصر.

قال ابن تيمية حفيد المصنف: والمنازعون لهم ليس لهم حجة قط يرد إليها عند التنازع، وأكثرهم يقولون: لا يجب القضاء إلا بأمر جديد، وليس معهم هنا أمر، ونحن لا ننازع في وجوب القضاء فقط، بل ننازع في قبول القضاء منه وصحة الصلاة في غير وقتها، وأطال البحث في ذلك، واختار ما ذكره داود ومن معه [أي عدم القضاء]، والأمر كما ذكره، [أي أن الشوكاني يوافق ابن تيمية فيما ذكره من عدم القضاء، ويعلل ذلك قائلاً:]، فإني لم أقف مع البحث الشديد للموجبين للقضاء على العامد وهم من عدا من ذكرنا على دليل ينفق في سوق المناظرة، ويصلح للتعويل عليه في مثل هذا الأصل العظيم إلا حديث (فدين الله أحق أن يقضى) باعتبار ما يقتضيه اسم الجنس المضاف من العموم، ولكنهم لم يرفعوا إليه رأساً.

وأنهض ما جاؤوا به في هذا المقام قولهم: إن الأحاديث الواردة بوجوب القضاء على الناسي يستفاد من مفهوم خطابها وجوب القضاء على العامد؛ لأنها من باب التنبيه بالأدنى

(١١٤٢) الشوكاني: نيل الأوطار: ج:٢ ص:٣١.

على الأعلى، فتدل بفحوى الخطاب وقياس الأولى على المطلوب، وهذا مردود، لأن القائل بأن العامد لا يقضي لم يرد أنه أخف حالا من الناسي، بل بأن المانع من وجوب القضاء على العامد أنه لا يسقط الإثم عنه فلا فائدة فيه، فيكون إثباته مع عدم النص عبثاً بخلاف الناسي والنائم فقد أمرهما الشارع بذلك وصرح بأن القضاء كفارة لهما لا كفارة لهما سواه، ومن جملة حججهم أن قوله في الحديث: (لا كفارة لها إلا ذلك) يدل على أن العامد مراد بالحديث، لأن النائم والناسي لا إثم عليهما، قالوا: فالمراد بالناسي التارك سواء كان عن ذهول أم لا. ومنه قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ولا يخفى عليك أن هذا الكلام يستلزم عدم وجوب القضاء على الناسي والنائم لعدم الإثم الذي جعلوا الكفارة منوطة به، والأحاديث الصحيحة قد صرحت بوجوب ذلك عليهما...، وقد أنصف ابن دقيق العيد فرد جميع ما تشبثوا به. والمحتاج إلى إمعان النظر ما ذكرنا لك سابقاً من عموم حديث: (فدين الله أحق أن يقضى) لا سيما على قول من قال: إن وجوب القضاء بدليل هو الخطاب الأول الدال على وجوب الأداء، فليس عنده في وجوب القضاء على العامد فيما نحن بصدده تردد، لأنه يقول: المتعمد للترك قد خوطب بالصلاة ووجب عليه تأديتها فصارت ديناً عليه، والدين لا يسقط إلا بأدائه. إذا عرفت هذا علمت أن المقام من المضايق، وأن قول النووي في شرح مسلم بعد حكاية قول من قال: لا يجب القضاء على العامد أنه خطأ من قائله وجهالة، من الإفراط...، وكذلك قول المقبلي في المنار: إن باب القضاء ركب على غير أساس ليس فيه كتاب ولا سنة إلى آخر كلامه، من التفريط...»[١١٤٣].

١٠٢٧- رابعاً - رأينا في توبة من ترك الصلاة والصيام عامداً، وهل يقضي ما فاته؟:

نذكر فيما يلي استخلاصاً ضرورياً ثم نقدم رأينا على النحو التالي:

١- أن رأي جمهور الفقهاء ومنهم الأئمة الأربعة: أن من ترك الصلاة والصيام عامداً يجب عليه إذا تاب أن يقضي ما كل ما فاته خلال سني عمره من صلاة وصيام، وأنه يصح منه ويقبل، وهذا القضاء لا يرفع عنه إثم الترك الذي حصل منه وإنما ترفعه التوبة، وبهذا الرأي قال بعض فقهاء السلف رضي الله عنهم.

(١١٤٣) الشوكاني: نيل الأوطار ج:٢ ص:٣١-٣٥.

٢- أن من سوى الجمهور يقولون: بأن التائب من ترك الصلاة والصيام لا يمكنه شرعاً القضاء، ولا يصح منه، ولا يقبل منه بديلاً عن الفوائت، للأدلة المطولة التي ذكروها، ومن هذا الفريق من الفقهاء: داود الظاهري، وابن حزم، وبعض الشافعية، وابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، وأيضاً قد سبق إلى هذا الرأي بعض فقهاء السلف رضي الله عنهم.

٣- إن تحرير هذه المسألة المهمة على نحو ما تقدم، أظهر لنا عمق فقه الفقهاء من الفريقين، وفطنتهم، وحسن تعاملهم مع الأدلة الشرعية بعمق وموضوعية، وأن اختلافهم هو من نمط اختلاف المذاهب الفقهية التي هي مدارس لشرح الشريعة الإسلامية كتاباً وسنة والاستنباط منها.

٤- لا يمكن الجزم بأن أيا من الرأيين هو الصواب المقطوع به وأن الآخر هو خطأ مقطوع به، لأن المسألة خلافية اجتهادية، كما قد رأيت، وإن كلاً من الفريقين معتقد أن رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب، وأن ما توصل إليه مظنون وليس مقطوعاً به يقيناً، بمعنى أنه كاشف عن حكم الله في هذه المسألة كشفاً ظنياً لا يقينياً لخلو المسألة من دليل قطعي يتحصل به اليقين، وهذا هو الشأن في كل المسائل الخلافية الاجتهادية، لذلك يعمل بالظن الراجح فيها لدى الفقيه أو المجتهد.

٥- من كان من أهل الاجتهاد والترجيح يتوجب عليه أن يأخذ بالرأي الذي يترجح له وفقاً لقوة دليله بحسب ظنه، ويعمل به في إفتاء نفسه، لأنه متعبد بما قام في ظنه وعلمه بعد نظره في الأدلة الشرعية.

٦- من كان من عامة المسلمين فله أن يأخذ بأي من الرأيين المذكورين من غير حرج، فكلاهما سائغ شرعاً ومقبول ويجوز الإفتاء به، لأن المتعين في حقه سؤال أهل الذكر لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، وقد فعل.

٧- فإذا كان التائب يرى أنه لا يقدر على التوبة إذا كانت تستلزم قضاء كل ما فاته من صلاة وصيام، وأن هذا سيجعله يعرض عن التوبة ولا يمارسها، فيجب عليه أن يأخذ بالرأي الذي يقول بعدم قضاء ما فاته في سني عمره ويتوب ولا يترك التوبة، فإن الذين يفتونه بهذا هم من أكابر العلماء أمثال ابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، وبعض السلف، فيسوغ له شرعاً الأخذ برأيهم، بل يتعين عليه ذلك إذا توقف صلاح أمره على العمل به.

٨- وإذا كان التائب يرى أنه يقدر على التوبة مع قضاء كل ما فاته في سني عمره من غير حرج شديد، وأنه لا تقر عينه إلا بأن يقضي ما فاته، فليفعل ذلك إن شاء، فإن الذين يفتونه بهذا هم جمهور الفقهاء ومنهم الأئمة الأربعة، وبعض السلف، فيسوغ له شرعاً الأخذ برأيهم دون الرأي الآخر.

٩- أما المفتي الذي يفتي الناس الذين يرغبون بالتوبة فعليه أن يعرض على المبادر إلى التوبة الرأيين الفقهيين المذكورين، ويجوز له أن يرجح للتائب ما هو مقتنع به من الرأيين، ولكن يعلمه أن هذا على سبيل الترجيح، وأن الرأي الثاني سائغ شرعاً ومقبول منه إن شاء الله، على قاعدة: أن العامي لا مذهب له، ومذهبه مذهب من يفتيه، هذا إذا علم المفتي من هذا التائب القدرة على القضاء بدون مشقة غير مقدورة، وقلة مدة القضاء، أما إذا رأى أن المبادر إلى التوبة سيستصعب ذلك كثيراً، وقد يصرفه ذلك عن التوبة أصلاً، فعليه أن يفتيه برأي واحد هو الرأي الذي يقول بعدم القضاء، ويحببه له، ويدعوه إلى الإكثار من الاستغفار وعمل الحسنات ليثقل بها ميزانه يوم القيامة، أخذاً بعموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، وكذلك إذا رأى من حاله أنه لا يقوى على القضاء أصلاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

وبهذا ينتهي الكلام في موضوع التوبة من ترك الصلاة والصيام لنبدأ الكلام في التوبة من ترك الزكاة والحج وهو موضوع المطلب الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث
التوبة من ترك الزكاة والحج

١٠٢٨- تمهيد وتقسيم :

١٠٢٩-١- تمهيد: في بيان اختلاف الزكاة والحج عن الصلاة والصوم في مسألة التأخير:

جمعنا التوبة من ترك الزكاة والتوبة من ترك الحج في مطلب واحد بجامع أنهما ليسا من قبيل الواجب المحدود الطرفين، بخلاف الصلاة والصوم فإن كلاً منهما مؤقت بوقت محدود الطرفين لا يقبل الأداء قبل وقته ولا بعد انقضاء وقته إلا بعذر يقبله الشرع، أما الزكاة فلها - من حيث الوقت - أول، حيث تجب عند ملك النصاب وحلول الحول فتثبت في الذمة، وليس لها آخر لا تقبل بعده ما دام من تخلف عن أدائها لا يزال حياً.

وكذلك الحج له أول عند الاستطاعة وليس له آخر بحيث لا يقبل بعده خلال سني العمر إلى الموت سواء قلنا بأنه واجب على الفور أو على التراخي.

وعلى ذلك فإن تارك هذا الواجب (الزكاة أو الحج) يمكنه أداءه حيث لا يتصور خروج وقت الأداء بشكل يتعذر معه الأداء من قبل صاحبه ما دام حياً.

فإذا تاب من التقصير أو الترك للزكاة أمكنه أداء ما أخره بنفس العام أو ما تراكم عليه لأعوام عدة، وكان آثماً بالتأخير، وهو إثم يمكن أن ترفعه التوبة، ولكن الأداء يصح شرعاً ويقبل منه وتبرأ ذمته به.

ومثل ذلك في الحج على رأي من يقول بأنه على الفور عند الاستطاعة وليس على التراخي، فإذا تاب من التقصير والترك بعد أن وجب عليه في أول الاستطاعة أمكنه الأداء بعد التوبة فيصح ويقبل منه.

فلا يثور هنا الخلاف نفسه الذي رأيناه بشأن من ترك الصلاة والصيام عامداً حتى خرج وقتها فقد أجمع العلماء على امتناع الأداء عليه لخروج الوقت، واختلفوا في إمكان القضاء، وهل يقبل أو لا يقبل منه، على نحو ما قررناه في المطلب السابق.

١٠٣٠-٢- تقسيم البحث:

وفي هذا المطلب سنتكلم عن موضوع الزكاة بقدر تعلق الأمر بالتوبة من تركها والتقصير فيها مبينين: مشروعيتها ومكانتها في الإسلام، وعقوبة مانعها في الدنيا والآخرة، وكيفية خروج التائب من ذنب تركها أو التقصير في أدائها وهو من الكبائر، وكيفية إبراء ذمته منها. ونتكلم بمثل ذلك عن الحج.

وذلك في فرعين متتاليين، ومن غير دخول في تفصيل أحكام كل منهما، فذلك يطلب في موضعه من كتب الفقه.

الفرع الأول
التوبة من ترك الزكاة

١٠٣١- تقسيم البحث:

نقدم في هذا الفرع ثلاث فقرات :

نخصص الفقرة الأولى: للتعريف بالزكاة وبيان مشروعيتها وفضلها في الإسلام.

ونتكلم في الثانية: في بيان من تجب في ماله الزكاة ومصارفها وحكم مانع الزكاة وعقوبته في الآخرة.

ونتناول في الثالثة: الأحكام المتعلقة بالتوبة من ترك الزكاة أو التقصير فيها وكيفية إبراء الذمة منها بوجه عام.

الفقرة الأولى
التعريف بالزكاة ومشروعيتها وفضلها في الإسلام

١٠٣٢-١- تعريف الزكاة لغة واصطلاحا:

١٠٣٣- أ- الزكاة في اللغة:

«الزكاة لغة: النماء والريع والزيادة، من زكا يزكو زكاة وزكاء، ومنه قول علي ﷺ: العلم يزكو بالإنفاق. والزكاة أيضاً الصلاح، قال الله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ [الكهف: ٨١]. قال الفراء: أي صلاحاً، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] أي ما صلح منكم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٢١] أي يصلح من يشاء. وقيل لما يخرج من حق الله في المال (زكاة)، لأنه تطهير للمال مما فيه من حق، وتثمير له، وإصلاح ونماء بالإخلاف من الله تعالى. وزكاة الفطر طهرة للأبدان»[(١١٤٤)].

١٠٣٤- ب - الزكاة في الاصطلاح الشرعي:

«وفي الاصطلاح: يطلق على أداء حق يجب في أموال مخصوصة، على وجه مخصوص ويعتبر في وجوبه الحول والنصاب. وتطلق الزكاة أيضاً على المال المخرج نفسه، كما في قولهم: عزل زكاة ماله، والساعي يقبض الزكاة. ويقال: زكى ماله أي أخرج زكاته. والمزكي: من يخرج عن ماله الزكاة. والمزكي أيضاً: من له ولاية جمع الزكاة»[(١١٤٥)].

(١١٤٤) الموسوعة الفقهية:ج٢٣ ص:٢٢٦.

(١١٤٥) الموسوعة الفقهية:ج٢٣ ص:٢٢٦.

١٠٣٥- ج - الصلة بين الزكاة والصدقة:

والصلة بين الزكاة والصدقة أن الصدقة أعم من الزكاة حيث تطلق الصدقة ويراد بها الزكاة، وتطلق أيضاً على ما أعطيته من المال قاصداً به وجه الله تعالى على سبيل التطوع ويسمى صدقة التطوع.

١٠٣٦-٢- مشروعية الزكاة وفضلها في الإسلام:

١٠٣٧-أ- مشروعية فريضة الزكاة في الكتاب والسنة والإجماع:

الزكاة فريضة من الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، فهي ركن من أركان الدين. وقد ثبت وجوبها بالقرآن والسنة والإجماع.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠].

ومن السنة قول النبي ﷺ : (بني الإسلام على خمس)[١١٤٦] وذكر منها إيتاء الزكاة، وكان النبي ﷺ يرسل السعاة ليقبضوا الصدقات، وأرسل معاذا إلى أهل اليمن، وقال له: (أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)[١١٤٧].

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون في جميع الأعصار على وجوبها وكفر جاحدها، واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعيها كما قاتل أبو بكر المرتدين ووافقه جميع الصحابة على ذلك واستقر الإجماع على وجوبها وفرضيتها عبر العصور.

١٠٣٨-ب - فضل الزكاة:

ذكر الله تعالى المؤمنين مثنياً عليهم بأدائهم فريضة الزكاة، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] ثم وصفهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤]، وقال:

(١١٤٦) متفق عليه: البخاري (٧) و(٤١٥٣)، ومسلم (٢٠) و(٢١).

(١١٤٧) متفق عليه: البخاري (١٣٠٨)، ومسلم (٢٧).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال مبيناً عظيم أجرهم عند الله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٠] وقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقال في استحقاقهم رحمة الله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وبين أن إيتاء الزكاة من مستلزمات دين الله الحق: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ومثل ذلك في القرآن كثير.

١٠٣٩- وجوه فضل الزكاة:

ويظهر فضل الزكاة في الإسلام من وجوه كثيرة منها(١١٤٨):

أ - اقترانها بالصلاة في كتاب الله تعالى، فحيثما ورد الأمر بالصلاة اقترن به الأمر بالزكاة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]. ومن هنا قال أبو بكر في قتال مانعي الزكاة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، إنها لقرينتها في كتاب الله.

ب - أنها ثالث أركان الإسلام الخمسة، لما في الحديث (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت).

(١١٤٨) الموسوعة الفقهية ج:٢٣ ص:٢٢٩ (بتصرف).

ج - أنها من حيث هي فريضة أفضل من سائر الصدقات لأن الصدقات الأخرى معظمها تطوعية، وفي الحديث القدسي (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه).

وبعد هذا التعريف بالزكاة ومشروعيتها وفضلها في الإسلام ندخل في بيان من تجب في ماله الزكاة ومصارفها وحكم مانعها وعقوبته في الآخرة وهو موضوع الفقرة الأولى القادمة.

الفقرة الثانية
من تجب في ماله الزكاة ، ومصارفها وحكم مانعها وعقوبته في الآخرة

١٠٤٠-١- من تجب في ماله الزكاة:

اتفق الفقهاء على أن البالغ العاقل المسلم الحر العالم بكون الزكاة فريضة، رجلاً كان أو امرأة تجب في ماله الزكاة إذا بلغ المال نصاباً وحال عليه الحول، ولكل نوع من المال نصابه الخاص به. واختلفوا فيما عدا ذلك كثبوت الزكاة في مال الصغير ومال المجنون، كما اختلفوا أيضاً في سقوط الزكاة عن المال الذي أقرض للغير ديناً ونوع الدين المسقط للزكاة على النحو المفصل في كتب الفقه[١١٤٩].

١٠٤١-٢- مصارف الزكاة:

مصارف الزكاة محصورة في ثمانية أصناف، جاء النص عليها حصراً في نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠]، و «إنما» التي صدرت بها الآية أداة حصر، فلا يجوز صرف الزكاة لأحد أو في وجه غير داخل في هذه الأصناف، وقد أكد ذلك ما ورد في السنة النبوية (أن رسول الله أتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال: إن الله تعالى لم

(١١٤٩) نظر تفاصيل ذلك وغيره في باب الزكاة من كتب الفقه، وكذلك كتاب (الزكاة) لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي وهو أوسع كتاب صدر في موضوع الزكاة حسب علمنا.

يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك)[1150].

١٠٤٢- إظهار إخراج الزكاة وإعلانه:

«قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها. وقال الطبري: «أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل». وأما قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧١] فهو في صدقة التطوع، نظيرها الصلاة، تطوعها في البيت أفضل، وفريضتها في المسجد ومع الجماعة أفضل»[1151].

١٠٤٣- الحذر من الرياء والمن والأذى:

على المزكي أن يخلص نيته ويمحضها لله تعالى ويحذر شهوة النفس بالرياء فيريد بهذه العبادة المالية (الزكاة) - وكذلك في صدقة التطوع - غير وجه الله تعالى فإنه محرم ويحبط العمل ويذهب بأجره وكذلك عليه أن يحذر المن والأذى الذي يبطل الصدقات ويحبطها لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ومن هنا استحب المالكية للمزكي أن يستنيب من يخرجها خوف قصد المحمدة.

١٠٤٤-٣- حكم مانع الزكاة وعقوبته في الآخرة:

١٠٤٥- أ- حكم مانع الزكاة:

«من منع الزكاة منكراً لوجوبها، فإن كان جاهلاً ومثله يجهل ذلك لحداثة عهده بالإسلام، أو لأنه نشأ ببادية بعيدة عن الأمصار، أو نحو ذلك، فإنه يعرف وجوبها ولا يحكم بكفره لأنه معذور، وإن كان مسلماً ناشئاً ببلاد الإسلام بين أهل العلم فيحكم بكفره، ويكون مرتداً، وتجري عليه أحكام المرتد، لكونه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة»[1152].

(١١٥٠) سنن أبي داود (١٣٨٩).

(١١٥١) الموسوعة الفقهية ج: ٢٣ ص: ٣٠١.

(١١٥٢) الموسوعة الفقهية:ج:٣٢ ص ٢٣٠-٢٣١.

وأما من منع الزكاة بخلاً وشحاً غير منكر لفرضيتها وكان في قبضة الإمام فإنها تؤخذ منه جبراً عليه من غير زيادة عليها على قول الجمهور، وهذا فيمن كان مقراً بوجوب الزكاة، لكن منعها بخلاً، ولا يحكم بكفره.

فأما من كان خارجاً عن قبضة الإمام ومنع الزكاة، فعلى الإمام أن يقاتله؛ لأن الصحابة قاتلوا الممتنعين من أدائها في عهد أبي بكر ﷺ عملاً بقوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[1153] ومن حقها الزكاة، قال أبو بكر ﷺ بمحضر الصحابة: الزكاة حق المال وقال ﷺ: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. وأقره الصحابة على ذلك.

١٠٤٦- ب - عقوبة المسلم المانع للزكاة في الآخرة:

من منع الزكاة من المسلمين المقرين بفرضيتها فقد ارتكب محرماً هو كبيرة من الكبائر، وورد في القرآن والسنة ما يفيد أن عقوبته في الآخرة من نوع خاص.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥] - وقد قال النبي ﷺ: (ما أديت زكاته فليس بكنز) -، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي السنة النبوية قال ﷺ: (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك)[1154]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١١٥٣) متفق عليه: البخاري (٣٧٩)، ومسلم (٣١).

(١١٥٤) أخرجه البخاري (١٣١٥)، والنسائي (٢٤٣٦)، وابن ماجة (١٧٧٦)، وأحمد (٣٣٩٦)، ومالك (٥٣٦).

(ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح، فيكوى بها جنباه وجبينه، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت تستن عليه، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها، إلا بطح لها بقاع قرقر، كأوفر ما كانت، فتطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)(١١٥٥).

الفقرة الثالثة
التوبة من ترك الزكاة أو التقصير فيها وكيفية إبراء الذمة منها

١٠٤٧- تمهيد وتقسيم:

تثير هذه الفقرة موضوعين رئيسيين: الأول: توبة تارك الزكاة أو مؤخرها بدون عذر وهو لا يزال حياً، سواء أكان التأخير ضمن العام، أو كان الترك لأعوام عدة، والثاني: مدى إمكانية قضاء الزكاة عنه من ماله بعد موته وهل تبرأ ذمته بذلك؟ وفيما يلي بيان ذلك:

١٠٤٨- أولاً - توبة تارك الزكاة أو مؤخرها عن وقت وجوبها:

وهذا يتصور في حالتين: حالة من أخر الزكاة عن وقت وجوبها ضمن العام الذي وجبت فيه، وحالة من تركها حتى تراكمت لسنين عدة، وفيما يلي بيان أحكام التوبة في الحالتين:

١٠٤٩-١- التوبة من تأخير أداء الزكاة في وقتها الذي وجبت فيه:

قد علمت أن الزكاة تجب في المال البالغ نصاباً وتمت الشروط الشرعية المعتبرة فيه وحال عليه الحول، فالزكاة سببها النصاب وشرطها حولان الحول فبحصولهما تكون الزكاة قد وجبت على المسلم وتوجه إليه خطاب الشارع بالامتثال والأداء.

(١١٥٥) صحيح مسلم (١٦٤٨).

وهو أداء على الفور لا على التراخي على رأي جمهور الفقهاء، فإذا تأخر عن الأداء ضمن العام نفسه، أو ترك الأداء حتى تراكمت لسنين عدة فقد ارتكب المحرم ووجبت عليه التوبة من ذلك لإبراء ذمته وأداء هذا الركن من أركان الإسلام أولا، ولرفع إثم التأخير أو الترك ثانياً وهو لا يحصل إلا بالتوبة.

١٠٥٠- وجوب أداء الزكاة على الفور هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء:

جاء في الموسوعة الفقهية: «ذهب جمهور العلماء (الشافعية والحنابلة وهو المفتى به عند الحنفية) إلى أن الزكاة متى وجبت، وجبت المبادرة بإخراجها على الفور، مع القدرة على ذلك وعدم الخشية من ضرر. واحتجوا:

بأن الله تعالى أمر بإيتاء الزكاة، ومتى تحقق وجوبها توجه الأمر على المكلف بها، والأمر المطلق يقتضي الفور عندهم.

ولأنه لو جاز التأخير لجاز إلى غير غاية فتنتفي العقوبة على الترك.

ولأن حاجة الفقراء ناجزة، وحقهم في الزكاة ثابت، فيكون تأخيرها منعاً لحقهم في وقته.

وسئل أحمد: إذا ابتدأ في إخراجها فجعل يخرجها أولاً فأولاً؟ قال: لا، بل يخرجها كلها إذا حال الحول. وقال: لا يجري على أقاربه من الزكاة كل شهر، أي مع التأخير.

١٠٥١- الأعذار المبيحة لتأخير الزكاة عند الشافعية والحنابلة وغيرهم:

وقال الشافعية والحنابلة: ويجوز التأخير لعذر. ومما ذكره الشافعية من الأعذار: أن يكون المال غائباً فيمهل إلى مضي زمن يمكن فيه إحضاره، وأن يكون بإخراجها [متأخرة] أمر مهم ديني أو دنيوي، وأن ينتظر بإخراجها صالحاً أو جاراً. ومما ذكره الحنابلة أن يكون عليه مضرة في تعجيل الإخراج، مثل من يحول عليه الحول قبل مجيء الساعي، ويخشى إن أخرجها بنفسه أخذها الساعي [المكلف من ولي الأمر بجمع الزكاة] منه مرة أخرى. وكذا إن خشي في إخراجها ضرراً في نفسه أو مال له سواها، لأن مثل ذلك يجوز تأخير دين الآدمي لأجله، فدين الله أولى.

وذهب المالكية إلى أن الحاضر يجب عليه أن يخرج زكاة ما حضر من ماله وما غاب دون تأخير مطلقاً ولو دعت الضرورة لصرف ما حضر، بخلاف المسافر فله التأخير إن دعته الضرورة أو الحاجة لصرف ما معه في نفقته»[(١١٥٦)].

١٠٥٢- تأخير الزكاة بدون عذر مشروع تفريط يأثم صاحبه ويستلزم التوبة:

وعلى ما تقدم فإن تأخير الزكاة حين تجب على المسلم - بدون عذر مشروع على نحو ما ذكرناه - يعد من قبيل التفريط الذي يأثم صاحبه، ومن ثم يستلزم التوبة مع الأداء، لرفع إثم التأخير من جهة، وإبراء الذمة من الزكاة من جهة أخرى.

١٠٥٣-٢- كيفية التوبة من ترك الزكاة حتى تراكمت لسنين عدة:

كثيرون أولئك الذين يعيشون لدنياهم ممن نسوا أن وعد الله حق وغرتهم الحياة الدنيا فرضوا بمتاعها واطمأنوا بها فترى أحدهم يقضي ردحاً كبيراً من عمره في غفلة عن الآخرة وعما ينجيه فيها من طاعة الله تعالى. ومع هذه الغفلة لابد أن يكون الشح والبخل هو سيد الموقف فيكون باعثاً على ترك الزكاة، فتلك طبيعة من لم يهذب الإيمان نفسه وقلبه، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال جل ثناؤه: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ١٩-٢٦].

فإذا هداه الله تعالى ومن عليه بالتوبة أصبح أحب شيء إليه أن يجد في الشريعة طريقاً لجبر ما مضى وتعويض ما فات من قبل أن يخطفه الموت، وصار يغالب الأيام والليالي في طلب استدراك كبائر الماضي - ومنها ترك الزكاة - وتعمير الباقي من العمر في طاعة الله.

فهذه الزكاة التي فرط فيها حتى تراكم تركه لها لسنين عدة كيف يخرج من مسؤوليتها أمام الله تعالى يوم القيامة وقد تاب الآن ويريد التعويض عن هذا التفريط؟.

(١١٥٦) الموسوعة الفقهية: ج:٢٣ ص: ٣٩٥-٢٩٦.

١٠٥٤- دفع الزكاة المتراكمة لسنين يبرئ الذمة منها والتوبة ترفع إثم التأخير:

والجواب على السؤال الذي أثرناه: نعم يقدر على ذلك وقد تاب، يقدر عليه من جهة رفع إثم الترك بالتوبة، ومن جهة إبراء ذمته مما ثبت من الزكاة فيها عبر السنين وذلك بتمكين الشرع له من دفع زكاة تلك السنين واعتبارها صحيحة، وقبولها منه.

وأساس ذلك أن الزكاة - كما ذكرنا - ليست كالصلاة والصوم محدودة الطرفين من حيث الوقت، بل هي تختلف عنهما بأنها لها أول حيث تجب عند ملك النصاب وحلول الحول فتثبت في الذمة وليس لها آخر لا تقبل بعده ما دام من تعمد ترك أدائها لا يزال حياً.

وعلى ذلك فإن تارك هذا الواجب (الزكاة) يمكنه أداءه حيث لا يتصور خروج وقت الأداء بشكل يتعذر معه الأداء من قبل صاحبه ما دام حيا، فإذا تاب من التقصير أو الترك للزكاة أمكنه أداء ما أخره بنفس العام كما رأينا في الفقرة السابقة أو ما تراكم عليه لأعوام عدة، وكان آثماً بالتأخير، وهو إثم يمكن أن ترفعه التوبة، وهذا الأداء يصح شرعاً، ويقبل منه، وتبرأ ذمته به.

فلا يثور هنا نفس الخلاف الذي رأيناه بشأن من ترك الصلاة والصيام عامداً حتى خرج وقتها فقد أجمع العلماء على امتناع (الأداء) عليه لخروج الوقت، واختلفوا في إمكان (القضاء) بعد الوقت ممن كان عامداً للترك غير معذور، هل يقبل أو لا يقبل منه على نحو ما قررناه في المطلب السابق.

وفي هذا الأداء أو إخراج الزكاة عن المتراكم من السنين اتفقت كلمة العلماء على أنه «إذا أتى على المكلف بالزكاة سنون لم يؤد زكاته فيها وقد تمت شروط الوجوب، لم يسقط عنه منها شيء اتفاقاً، ووجب عليه أن يؤدي الزكاة عن كل السنين التي مضت ولم يخرج زكاته فيها»[١١٥٧]، ويكون ذلك أداء لا قضاء، لأن وقت الزكاة ليس له آخر لا يجوز أداؤها بعده، وهذا من حيث إمكان الأداء لعدم انتهاء أو خروج الوقت ووجوب الأداء في الأصل.

(١١٥٧) الموسوعة الفقهية: ج:٢٣ ص:٢٩٧.

أما من حيث (المشقة والحرج) على التائب خاصة، في مثل هذا التكليف، فيمكن أن يرد هنا نفس الخلاف بين الجمهور وبين بعض الفقهاء بالنسبة للتائب هل عليه أن يستدرك الماضي كله صلاة وصياماً وزكاة وغيرها أم يستأنف العمل بعد التوبة لقوله ﷺ (التوبة تجب ما قبلها) ويكون حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم حيث يغفر له ما قد سلف؟

وقد نقلنا لك سابقاً قول الجمهور بأن عليه أن يقضي كل ما فاته من الصلاة والصيام، ومن باب أولى عندهم الزكاة التي لن تكون قضاء بل أداء لبقاء وقت إمكان أدائها ما دام صاحبها حياً.

ونقلنا لك سابقاً قول من سوى الجمهور ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أثناء الكلام عن ترك الصلاة والصيام عامداً لسنوات عدة حيث قال بأنه ليس عليه أن يقضي كل ما فاته بل يتوب ويستأنف العمل وكلامه هناك يشمل الزكاة أيضاً - ونذكره مختصراً هنا[١١٥٨]- حيث قال: «من لم يلتزم أداء الواجب - وإن لم يكن كافرا في الباطن[١١٥٩] - ففي إيجاب القضاء عليه تنفير عظيم عن التوبة، فإن الرجل قد يعيش مدة طويلة لا يصلي ولا يزكي وقد لا يصوم أيضاً ولا يبالي من أين كسب المال أمن حلال أم من حرام ولا يضبط حدود النكاح والطلاق وغير ذلك فهو في جاهلية إلا أنه منتسب إلى الإسلام، فإذا هداه الله وتاب عليه فإن أوجب عليه قضاء جميع ما تركه من الواجبات...صارت التوبة في حقه عذابا... فيشبه والله أعلم أن يجعل حال هؤلاء في جاهليتهم كحال غيرهم»[١١٦٠].

وقال أيضاً: «والتوبة كالإسلام، فإن الذي قال: الإسلام يهدم ما كان قبله، هو الذي قال: التوبة تهدم ما كان قبلها، وذلك في حديث واحد »[١١٦١].

(١١٥٨) انظر قول ابن تيمية مفصلاً في مبحث (التوبة من ترك الصلاة والصيام وهو المبحث السابق).

(١١٥٩) المنافق الكافر في الباطن والمظهر للإسلام إذا تاب فحكمه حكم الكافر الأصلي في عدم وجوب قضاء ما فاته من صلاة وصيام وغيرهما فإنه يغفر له ما قد سلف بالتوبة.

(١١٦٠) أي كحال غيرهم ممن لا يجب عليه القضاء وهم الذين تابوا من: الكفر الأصلي، وكفر الردة، وكفر النفاق، ومن أسلم حديثاً في دار الكفر ولم يبلغه الخطاب، فهؤلاء ليس عليهم قضاء ما فاتهم وإنما يستأنفون العمل بعد التوبة.

(١١٦١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ١٧.

وجاء في شرح النيل: «عن أبي عبيدة وموسى بن علي وابن جعفر: من ترك الزكاة سنين أو الصلاة أو الصيام أو حقاً من جميع الحقوق فله أن يتوب ويصلح ما يستقبل، وليس عليه بدل ما مضى، ويؤخذ بذلك عند الحاجة لا تعمداً، وينبغي البدل إن قدر»[١١٦٢].

١٠٥٥- ترجيحنا في مسألة من ترك الزكاة حتى تراكمت لسنين وكيفية توبته:

فالذي نراه ونرجحه في هذا الخلاف ما يأتي:

١- أن من ترك الزكاة لسنوات عدة حتى تراكمت عليه في أيام جاهليته، إذا تاب، فإنه يصح منه أداؤها اتفاقاً وتقبل منه، ويحصل على ثوابها، وهذا هو الأصل، لأن وقتها له أول وجبت فيه وليس له آخر لا تقبل بعده، وهو آثم بالتأخير عن أول وقتها، وهو إثم يمكن أن ترفعه التوبة، وبهذا يحصل على ثلاثة أشياء: مزايا التوبة، وإبراء الذمة، وثواب أداء الزكاة. والأخذ بهذا الرأي هو الأحوط.

٢- أن من تاب بعد جاهليته وبعد ما تراكمت عليه الزكاة لسنوات عدة إذا كان عليه - حسب رأي الجمهور المذكور في الفقرة السابقة - مشقة زائدة بحيث قد تصرفه عن التوبة فيجوز له أن يأخذ بالرأي الثاني الذي ذهب إليه بعض الفقهاء وهو أن يستأنف العمل بعد التوبة من غير نظر إلى الزكاة التي لم يؤدها سابقاً - على ما ذكره ابن تيمية وغيره بشأن من عاش في جاهليته دهراً وهو منتسب للإسلام ثم تاب - وأنه بالتوبة يكون ما مضى من عدم التزامه أداء واجب الزكاة سابقاً بمنزلة المعفو عنه، بحيث يصير لا له ولا عليه، على أساس أن (التوبة تجب ما قبلها) وأن الله تعالى يبدل للتائبين (سيئاتهم حسنات)، فتبرأ ذمته منها بالعفو بسبب التوبة، ويحصل على مزايا التوبة، فهذان شيئان مشروطان بصحة التوبة وقبولها الذي يستتبع عفو الله تعالى عنه، أما الثالث وهو الثواب العظيم على أداء الزكاة المتراكمة فلا يحصل عليه إذ يبقى محروماً من ذلك الثواب العظيم ما دام لم يؤد تلك الزكاة[١١٦٣]. والله أعلم.

(١١٦٢) أطفيش: شرح النيل وشفاء العليل (فقه إباضي) ج:٣ ص:٢٨٦-٢٨٧.

(١١٦٣) وهذا جائز في حقوق الله تعالى التي علمنا جل شأنه متى يعفو عنها وأن التوبة تستتبع العفو بل وتبديل السيئات حسنات، أما في حقوق العباد فإن التوبة لا تسقطها وإنما يسقطها عفو صاحبها عنها، أو أداؤها، أو تعويض الله تعالى المظلوم من فضله يوم القيامة إن شاء.

١٠٥٦- ثانياً - حكم من ترك إخراج الزكاة حتى مات وهل يمكن إبراء ذمته بالقضاء عنه من ماله؟:

١٠٥٧-١- رأي جمهور الفقهاء:

جاء في الموسوعة الفقهية: «من ترك الزكاة التي وجبت عليه وهو متمكن من إخراجها حتى مات ولم يوص بإخراجها أثم إجماعاً. ثم ذهب جمهور الفقهاء إلى أن من وجبت عليه الزكاة وتمكن من أدائها فلم يفعل حتى مات وجب قضاء ذلك من تركته، لأنه متى لزم في حال الحياة لم يسقط بالموت، كدين الآدمي»[(١١٦٤)].

وجاء في موضع آخر «ذهب جمهور الفقهاء منهم مالك والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وابن المنذر، وهو مروي عن عطاء، والحسن، والزهري إلى أن من مات وعليه زكاة لم يؤدها فإنها لا تسقط عنه بالموت كسائر حقوق الله تعالى المالية، ومنها الحج والكفارات، ويجب إخراجها من ماله سواء أوصى بها أو لم يوص، وتخرج من كل ماله لأنها دين لله، فتعامل معاملة الدين، ولا تزاحم الوصايا في الثلث؛ لأن الثلث يكون فيما بعد الدين. واستدلوا بأنه حق واجب في المال، فلم تسقط بالموت كدين الآدمي...

١٠٥٨-٢- رأي الحنفية وبعض الفقهاء:

وذهب أبو حنيفة والثوري والنخعي والشعبي إلى أن الزكاة تسقط بالموت بمعنى أنها لا يجب إخراجها من تركته، فإن كان قد أوصى بها فهي وصية تزاحم سائر الوصايا في الثلث، وإن لم يوص بها سقطت، لأنها عبادة من شرطها النية، فسقطت بموت من هي عليه كالصلاة والصوم، فإن أخرجها الورثة فهي صدقة تطوع منهم...»[(١١٦٥)].

١٠٥٩-٣- الرأي الذي نختاره:

ونحن نرجح رأي الجمهور لقوة دليله، ونضيف أن قضاء زكاة العام أو الزكاة المتراكمة لسنين عن الميت أفضل له ولمصارف الزكاة، وأن الميت يمكن أن يصله خير من الورثة بسبب هذا القضاء وبخاصة إذا كانوا أولاده بسبب رابطة السببية حيث إنه سبب وجودهم في الحياة، ولهذا كان من الصدقة الجارية (أو ولد صالح يدعو له)، وبخاصة أيضاً وهم يقضون عنه من ماله قبل أن يصير تركة لهم لأنه: (لا تركة إلا بعد سداد

(١١٦٤) الموسوعة الفقهية ج: ٣٤ ص: ٤٠.

(١١٦٥) الموسوعة الفقهية: ج: ٢٣ ص: ٢٩٦-٢٩٧.

الديون) ومنها دين الله تعالى، حيث قال ﷺ: (فدين الله أحق بالقضاء)[١١٦٦]. ولا نقول بأن هذا القضاء سيقع عبادة من الميت حتى يشترط النية فيه فلا يرد علينا ما ذكره الحنفية، ولكننا نقول إن له مدخلاً في إبراء ذمته من هذا الدين بقضائه عنه وإن لم يحسب عبادة له، وهذا يوجد من جنسه في الشريعة، ألا يرى أن الزكاة تجب في مال الصغير والمجنون ويجب إخراجها من هذا المال على رأي فريق من الفقهاء مع انعدام النية؟ فهذا مثله، والله أعلم.

وهنا ننبه إلى أمر مهم: أن على من يحضر عند من حضرته الوفاة أو قبلها أن يذكره برفق بأن يوصي بإخراج الزكاة إن لم يكن أخرجها أو باستكمالها إن كانت أخرجت ناقصة ولما تكتمل، وأذكر أني فعلت هذا مع والدي رحمه الله عندما حضرته الوفاة وكان صوته خافتاً، فلما ذكرته بذلك صرخ صرخة قوية قائلاً: نعم، ومدها مطولة.

وبهذا يكون إخراج الزكاة من مال الميت بوصفه ديناً لله عليه أوصى بسداده، ويقع عبادة مبرئة للذمة، فإذا رافقت ذلك التوبة والمحتضر لم يغرغر بعد فذلك مهم وحسن إن شاء الله تعالى.

الفرع الثاني
التوبة من ترك الحج

١٠٦٠- تمهيد: ترك الحج يتصور في ثلاث حالات:

نتناول في هذا الفرع بيان توبة المسلم من ترك الحج، وتركه من الكبائر، لأن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة. وترك الحج أو التقصير فيه يتصور في ثلاث:

حالة من يعلم بأنه واجب على الفور - وهو مذهب الجمهور -، فإن لم يبادر إلى أداء الحج في أول الاستطاعة ومع توافر الشروط كان عاصياً، ووجبت عليه التوبة من معصية التأخير، إضافة إلى وجوب المبادرة إلى الحج في العام التالي.

وحالة من يقول بأنه واجب على التراخي ولكنه لم يحج مع القدرة عليه حتى مات، فيكون قد مات عاصياً، وهذا لا يمكنه التدارك بنفسه، وإنما الممكن إبراء ذمته من فريضة الحج عن طريق حج الغير عنه إذا أوصى به قبل الموت، وقيل: حتى إذا لم يوص به أيضاً.

(١١٦٦) متفق عليه: البخاري (٦٧٧١)، ومسلم (١٩٣٦) واللفظ له.

وحالة من لم يُرِد الحج ولا رغب فيه ولا نواه طوال عمره حتى مات مع وجود القدرة والاستطاعة، فهذا تارك للحج عمداً ومسؤول مسؤولية كاملة يوم القيامة عن هذا الركن من أركان الإسلام.

أما حالة من لم توجد عنده (الاستطاعة) المالية للحج واستمر كذلك حتى مات فقد سقط الفرض عنه ولا يجب القضاء عنه، فلا يدخل معنا في موضوع التوبة من ترك الحج أو التقصير فيه.

وما سنبحثه في هذا الموضوع سنقتصر فيه على ما يتعلق بالتوبة من ترك الحج أو التقصير فيه وكيفية التدارك وإبراء الذمة من هذا الفرض، من غير دخول في أحكام الحج التفصيلية، لأن مقصودنا الأساسي هو التوبة وما له صلة بها من رفع المعصية وإبراء الذمة.

١٠٦١- تقسيم البحث:

سنتكلم عن هذا الموضوع في ثلاث فقرات :

نبين في الفقرة الأولى: التعريف بالحج ومشروعيته وفضله والحكمة من فرضه والتحذير من تركه.

ونتناول في الفقرة الثانية: بيان الآراء الفقهية بشأن أداء الحج من حيث شروط الوجوب، وهل هو على الفور أم على التراخي؟

ونبحث في الفقرة الثالثة: التوبة من ترك الحج أو التقصير فيه، وكيفية إبراء الذمة من هذه الفريضة.

الفقرة الأولى
التعريف بالحج ومشروعيته وفضله والحكمة من فرضه والتحذير من تركه

١٠٦٢-١- تعريف الحج لغة واصطلاحاً :

«الحج لغة: بفتح الحاء ويجوز كسرها، هو القصد، حج إلينا فلان: أي قدم، وحجه يحجه حجاً: قصده. ورجل محجوج، أي مقصود. هذا هو المشهور. وقال جماعة من أهل اللغة: الحج: القصد لمعظم. والحج بالكسر: الاسم. والحجة: المرة الواحدة، وهو من الشواذ، لأن القياس بالفتح.

أما في الاصطلاح الشرعي فالحج هو: قصد موضع مخصوص (وهو البيت الحرام وعرفة) في وقت مخصوص (وهو أشهر الحج) للقيام بأعمال مخصوصة وهي الوقوف بعرفة، والطواف، والسعي عند جمهور العلماء، بشرائط مخصوصة»[1167].

١٠٦٣-٢- مشروعية الحج وأدلتها :

«الحج فرض عين على كل مكلف مستطيع في العمر مرة، وهو ركن من أركان الإسلام، ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.

أ- أما الكتاب: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. فهذه الآية نص في إثبات الفرضية، حيث عبر القرآن بصيغة (ولله على الناس) وهي صيغة إلزام وإيجاب، وذلك دليل الفرضية، بل إننا نجد القرآن يؤكد تلك الفرضية تأكيداً قوياً في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فإنه جعل مقابل الفرض الكفر، فأشعر بهذا السياق أن ترك الحج ليس من شأن المسلم، وإنما هو شأن غير المسلم.

ب- وأما السنة فمنها حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج)[1168]. وقد عبر بقوله: (بني الإسلام...) فدل على أن الحج ركن من أركان الإسلام. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: (خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم...)[1169]. وقد وردت الأحاديث في ذلك كثيرة جداً حتى بلغت مبلغ التواتر الذي يفيد اليقين والعلم القطعي اليقيني الجازم بثبوت هذه الفريضة.

ج- وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على وجوب الحج في العمر مرة على المستطيع، وهو من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة يكفر جاحده»[1170].

(١١٦٧) الموسوعة الفقهية:ج:١٧ ص:٢٣.

(١١٦٨) متفق عليه: البخاري (٧) و(٤١٥٣)، ومسلم (٢٠) و(٢١).

(١١٦٩) أخرجه مسلم: (٢٣٨٠)، والنسائي (٢٥٧٢)، وابن ماجة (٢٨٧٥)، وأحمد (٣٣٤٠).

(١١٧٠) الموسوعة الفقهية:ج:١٧ ص:٢٣-٢٤.

١٠٦٤-٣- فضل الحج:

«تضافرت النصوص الشرعية الكثيرة على الإشادة بفضل الحج، وعظمة ثوابه وجزيل أجره العظيم عند الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[١١٧١]. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة)[١١٧٢]... وعن عبدالله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة)[١١٧٣]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم)[١١٧٤]. (وعن عائشة رضي الله عنها، قلت يا رسول الله : نرى

الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[١١٧٥]. وعن أبي هريرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور) »[١١٧٦].

١٠٦٥-٤- حكمة مشروعية الحج:

«شرعت العبادات لإظهار عبودية العبد لربه ومدى امتثاله لأمره، ولكن من رحمة الله تعالى أن أكثر هذه العبادات لها فوائد تدركها العقول الصحيحة وأظهر ما يكون ذلك

(١١٧١) متفق عليه: البخاري (١٤٢٤)، ومسلم (٢٤٠٤).

(١١٧٢) مسلم (٢٤٠٢)، والنسائي (٢٩٥٣)، وابن ماجة (٣٠٠٥).

(١١٧٣) النسائي (٢٥٣٨)، وابن ماجة (٢٨٧٨)، وأحمد (١٦٢).

(١١٧٤) ابن ماجة (٢٨٨٣).

(١١٧٥) البخاري (١٤٢٣) و (٢٥٧٦).

(١١٧٦) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ص:٢٥-٢٦، والحديث الأخير متفق عليه: البخاري (٢٥)، ومسلم (١١٨).

في فريضة الحج. وتشتمل هذه الفريضة على حكم جليلة كثيرة تمتد في أثناء حياة المؤمن الروحية، ومصالح المسلمين جميعهم في الدين والدنيا، منها:

أ- أن في الحج إظهار التذلل لله تعالى، وذلك لأن الحاج يرفض أسباب الترف والتزين، ويلبس ثياب الإحرام مظهرا فقره لربه، ويتجرد عن الدنيا وشواغلها التي تصرفه عن الخلوص لمولاه، فيتعرض بذلك لمغفرته ورحماه، ثم يقف في عرفة ضارعاً لربه حامداً شاكراً نعماءه وفضله، ومستغفراً لذنوبه وعثراته، وفي الطواف حول الكعبة البيت الحرام يلوذ بجناب ربه ويلجأ إليه من ذنوبه، ومن هوى نفسه، ووسواس الشيطان.

ب- أنه بأداء فريضة الحج يؤدي العبد شكر نعمة المال، وسلامة البدن، وهما أعظم ما يتمتع به الإنسان من نعم الدنيا، ففي الحج شكر هاتين النعمتين العظيمتين، حيث يجهد الإنسان نفسه وينفق ماله في طاعة ربه والتقرب إليه سبحانه، ولا شك أن شكر النعماء واجب تقرره بداهة العقول، وتفرضه شريعة الدين.

ج- يجتمع المسلمون من أقطار الأرض في مركز اتجاه أرواحهم، ومهوى أفئدتهم، فيتعرف بعضهم على بعض، ويألف بعضهم بعضاً، هناك حيث تذوب الفوارق بين الناس، فوارق الغنى والفقر، فوارق الجنس واللون، فوارق اللسان واللغة، تتحد كلمة الإنسان في أعظم مؤتمر بشري اجتمعت كلمة أصحابه على البر والتقوى وعلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر، هدفه العظيم ربط أسباب الحياة بأسباب السماء»[(١١٧٧)].

١٠٦٦-٥- التحذير من ترك فريضة الحج :

ترك الحج مع القدرة عليه من الكبائر وهو إضاعة لركن من أركان الإسلام كما يدل عليه حديث (بني الإسلام على خمس...)[(١١٧٨)] وحديث جبريل ﷺ لما سأل النبي ﷺ عن (الإسلام) فأجابه النبي وصدقه جبريل عليهما الصلاة والسلام[(١١٧٩)].

(١١٧٧) الموسوعة الفقهية:ج:١٧ ص:٢٦-٢٧.

(١١٧٨) متفق عليه: البخاري (٧) و(٤١٥٣)، ومسلم (٢٠) و(٢١).

(١١٧٩) مسلم (٩)، والنسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجة (٦٢)، وأحمد (٣٤٦) والحديث كما في صحيح مسلم: (عن عبد الله بن عمر قال حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه =

ويكفي في التحذير من تركه جحوداً قوله تعالى في آية الحج نفسها: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] ثم قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

جاء في تفسير الطبري: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] يعني بذلك جل ثناؤه: ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته فأنكره وكفر به فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وعن سائر خلقه من الجن والإنس»(١١٨٠).

وقال الشوكاني في تفسيره: «قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] قيل: إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه، وقيل: المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجباً... وفي قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧] من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم وهو تعالى شأنه وتقدس سلطانه غنى لا تعود إليه طاعات عبادة بأسرها بنفع»(١١٨١).

= على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

(١١٨٠) تفسير الطبري ج: ٤ ص: ١٩.

(١١٨١) الشوكاني: فتح القدير ج: ١ ص: ٣٦٣.

وفي السنة النبوية «عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وذلك أن الله يقول: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧][١١٨٢]...، نعم صح ذلك عن عمر ﷺ ومن ثم قال: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا كل من له جدة ولم يحج فليضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين)، ومثل ذلك الحديث لا يقال من قبل الرأي فيكون في حكم المرفوع... وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد لم يحج ولم يؤد زكاة ماله إلا سأل الرجعة عند الموت، فقيل له: إنما يسأل الرجعة الكفار، وقال: وإن ذلك في كتاب الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ [المنافقون: ١٠]: أي أؤدي الزكاة ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠] أي أحج...»[١١٨٣].

هذا إذا لم يكن قد حج فإنه يندم عند الموت ويحس أنه قد فوت على نفسه ركناً من أركان الإسلام ويتمنى الرجعة من أجل التدارك. والآية الكريمة تتسع - بالمعنى الأعم- للندم على ترك الحج وغيره كالندم على عدم التوبة عن فعل المحرمات وترك الواجبات.

الفقرة الثانية
شروط وجوب الحج وهل هو على الفور أم على التراخي

١٠٦٧-١- شروط فرضية الحج:

«شروط الحج صفات يجب توفرها في الإنسان لكي يكون مطالباً بأداء الحج، مفروضاً عليه، فمن فقد أحد هذه الشروط لا يجب عليه الحج ولا يكون مطالباً به، وهذا

(١١٨٢) عد الشوكاني هذا الحديث من قبيل الحسن لغيره وبين أنه يحمل على من استحل ترك الحج فقال بعد أن أورد كل طرق هذا الحديث: « هذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، وبذلك يتبين مجازفة ابن الجوزي في عده لهذا الحديث من الموضوعات، فإن مجموع تلك الطرق لا يقصر عن كون الحديث حسناً لغيره وهو محتج به عند الجمهور، ولا يقدح في ذلك قول العقيلي والدارقطني: لا يصح في الباب شيء لأن نفي الصحة لا يستلزم نفي الحسن، وقد شد من عضد هذا الحديث الموقوف الأحاديث المذكورة في الباب، قال الحافظ: وإذا انضم هذا الموقوف إلى مرسل ابن سابط علم أن لهذا الحديث أصلاً، ومحمله على من استحل الترك، ويتبين بذلك خطأ من ادعى أنه موضوع انتهى » (الشوكاني: نيل الأوطار: ج:٤ ص:٣٣٦-٣٣٨)

(١١٨٣) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:١ ص:٣٣٠.

الشروط خمسة هي: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والاستطاعة، وهي متفق عليها بين العلماء، قال الإمام ابن قدامة في المغني: «لا نعلم في هذا كله اختلافاً» [(١١٨٤)].

«وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي فقيل الزاد والراحلة وإليه ذهب جماعة من الصحابة وحكاه الترمذي عن أكثر أهل العلم وهو الحق» [(١١٨٥)].

ومعلوم أن الحج لا يجب على من لم تتوفر فيه الاستطاعة لأن القرآن خص الخطاب بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧].

١٠٦٨-٢- وجوب الحج هل هو على الفور أم على التراخي [(١١٨٦)]**:**

اختلفوا في وجوب الحج عند تحقق الشروط هل هو على الفور أو على التراخي؟.

فذهب الجمهور أبو حنيفة في أصح الروايتين عنه وأبو يوسف ومالك في الراجح عنه وأحمد إلى أنه يجب على الفور، فمن تحقق فرض الحج عليه في عام فأخره يكون آثماً، وإذا أداه بعد ذلك كان أداء لا قضاء، وارتفع الإثم.

واستدل الجمهور على الوجوب الفوري- أي الإتيان به في أول أوقات الاستطاعة- بالآتي [(١١٨٧)]:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] ولقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] والأمر للفور.

ب- ولخبر ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً قال: (تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له) [(١١٨٨)] [وكذلك لحديث: (من ملك زاداً. وراحلة تبلغه إلى بيت

(١١٨٤) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٢٧.
(١١٨٥) الشوكاني: نيل الأوطار: ج:١ ص:٣٦٣.
(١١٨٦) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٢٤-٢٥.
(١١٨٧) الموسوعة الفقهية: ج: ١٠ ص:١١ و الموسوعة: ج:١٧ ص:٢٤-٢٥.
(١١٨٨) مسند أحمد (٢٧٢١).

الله، ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك لأن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] [(١١٨٩)].

ج- المعقول: وذلك أن الاحتياط في أداء الفرائض واجب، ولو أخر الحج عن السنة الأولى فقد يمتد به العمر وقد يموت فيفوت الفرض، وتفويت الفرض حرام، فيجب الحج على الفور احتياطاً.

وذهب الشافعي والإمام محمد بن الحسن إلى أنه يجب على التراخي [(١١٩٠)]، فلا يأثم المستطيع بتأخيره. والتأخير إنما يجوز بشرط العزم على الفعل في المستقبل، فلو خشي العجز أو خشي هلاك ماله حرم التأخير، أما التعجيل بالحج لمن وجب عليه فهو سنة عند الشافعي ما لم يمت، فإذا مات تبين أنه كان عاصياً من آخر سنوات الاستطاعة.

واستدل الشافعية ومن معهم بما يلي:

أ- أن الأمر بالحج في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران: ٩٧] مطلق عن تعيين الوقت، فيصح أداؤه في أي وقت، فلا يثبت الإلزام بالفور، لأن هذا تقييد للنص، ولا يجوز تقييده إلا بدليل، ولا دليل على ذلك. وهذا بناء على الخلاف أن الأمر على الفور أو للتراخي

ب- (أن النبي ﷺ فتح مكة عام ثمان من الهجرة، ولم يحج إلا في السنة العاشرة ولو كان واجباً على الفورية لم يتخلف رسول الله ﷺ عن فرض عليه).

قالوا: ولأن فريضة الحج نزلت بعد الهجرة سنة ست، وفتح رسول الله ﷺ مكة في رمضان سنة ثمان، وانصرف عنها في شوال من سنته. وحج الناس سنة ثمان ورسول الله ﷺ مقيم بالمدينة هو وأزواجه وعامة أصحابه، ثم في سنة تسع بعث النبي ﷺ أبا بكر

(١١٨٩) سبق ذكر هذا الحديث في حاشية سابقة وتعليق الشوكاني عليه حيث عده من قبيل الحسن لغيره وحمله على من ترك الحج مستحلا لتركه، وانظر أيضاً: (الشوكاني: نيل الأوطار: ج:٤ ص:٣٣٦-٣٣٨).

(١١٩٠) الموسوعة الفقهية: ج: ١٠ ص:١١ وأيضاً: ج:١٧ ص:٢٤-٢٥.

للحج، والنبي [ﷺ] مع عامة أصحابه في المدينة، وهم قادرون على الحج غير مشتغلين بقتال ولا غيره. ثم في السنة العاشرة حج رسول الله ﷺ. فدل على جواز التأخير.

لكن جواز التأخير عندهم مشروط بأمرين:

١- العزم على الفعل في المستقبل.

٢- وأن يغلب على الظن السلامة إلى وقت فعله.

الفقرة الثالثة
التوبة من ترك الحج وكيفية إبراء الذمة منه

١٠٦٩- تمهيد: متى يكون تأخير الحج موجباً للمسؤولية الشرعية والتوبة:

قد تبين لك من الفقرة السابقة أن مذهب الجمهور من العلماء أن الحج واجب على الفور عند القدرة عليه بتوافر شروط الوجوب ومنها الاستطاعة وانتفاء الموانع التي تحول دونه، وعلى ذلك فإن من تأخر عن الحج مع تحقق الشروط كان عاصياً ولحقه إثم التأخير، فيجب عليه - حسب رأينا - أمران: التوبة من معصية التأخير، وأن يبادر إلى الحج لئلا يزيد في التأخير وهو معصية. والأخذ برأي الجمهور - عندنا - في هذه المسألة هو الأحوط.

فأما على رأي من سوى الجمهور وهم الشافعية ومن على رأيهم ممن قالوا بأن الأمر بالحج على التراخي - حسب ما قدمنا في الفقرة السابقة مع دليله - فإنهم شرطوا فيه شرطين:

الأول: أن يكون عازماً على الحج ومستمراً على هذا العزم بأن لا يكون مهملاً له أو غير مكترث به وذلك بأن يكون مستصحباً للعزم على الحج مستقبلاً.

والثاني: أن يغلب على ظنه السلامة واستمرار الاستطاعة ليحج في المستقبل.

فإذا وفى بهذين الشرطين من جهة، وأمهله الله تعالى حتى حج فعلاً من جهة أخرى فلم يخطفه الموت، فقد حج على التراخي ووفى بهذه الفريضة من غير أن يلحقه إثم التأخير ما دام الفرض على التراخي - على رأي الشافعية ومن على رأيهم -، أما إذا مات ولم يحج فإنه يموت عاصياً وتاركاً لهذه الفريضة من غير عذر نظراً لأنه ترك المبادرة إلى الحج مع

القدرة عليه فإنه إذا مات - مع القدرة على الحج ولم يحج - يتبين أنه كان عاصياً من آخر أيام الاستطاعة على ما ذكر الشافعي رحمه الله. وهذا مع كونه كان عازماً على الحج في المستقبل وغلب على ظنه السلامة إلى حين الفعل.

أما مع عدم توفر هذين الشرطين أو أحدهما بمعنى أنه لم يكن عازماً على الحج ومستصحبا هذا العزم، أو غلب على ظنه عدم السلامة وعدم بقاء الاستطاعة ومع ذلك لم يحج فإن التأخير يكون حراماً وعدم الحج يكون تركاً له، وأنه إذا مات يكون مسؤولاً أمام الله تعالى عن هذا الركن من أركان الإسلام إذا لم يستدرك ذلك بالوصية قبل موته، أو يستدركه له الورثة ولو من غير وصية على نحو ما سنفصله بعد قليل.

فأما إن كان عازماً على عدم الحج حاضراً أو مستقبلاً فهذا مصر على معصية ترك الحج ومسؤول عنه أعظم المسؤولية يوم القيامة، وهو أقرب لأن يكون من أهل قوله تعالى في آية فرضية الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. إلا إذا تاب عن هذه المعصية قبل الموت.

والآن مَنْ مِنْ هؤلاء الأصناف، وكذلك غيرهم من أصحاب الأعذار المشروعة، يجوز الحج عنه بالنيابة في حياته، أو بعد موته، من أجل إبراء ذمته؟ والجواب عن ذلك يأتي في موضوع الحج عن الغير.

١٠٧٠- الحج عن الغير وإبراء الذمة به:

١٠٧١-١- مشروعية الحج عن الغير:

«ذهب الجمهور (الحنفية والشافعية والحنابلة) إلى مشروعية الحج عن الغير وقابليته للنيابة.

وذهب مالك على المعتمد في مذهبه إلى أن الحج لا يقبل النيابة لا عن الحي ولا عن الميت، معذوراً أو غير معذور. وقالوا: إن الأفضل أن يتطوع عنه وليه بغير الحج، كأن يهدي أو يتصدق عنه، أو يدعو له، أو يعتق.

استدل الجمهور على مشروعية حج الإنسان عن غيره بالسنة الثابتة المشهورة، وبالعقل.

أما السنة: فمنها حديث ابن عباس ﷺ قال: (جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، قالت: يا رسول الله: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا

يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم)[1191]. وعن ابن عباس أيضا: (أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال ﷺ : نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟.. اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء) [1192].

وأما العقل، فقال الكمال بن الهمام: وكان مقتضى القياس أن لا تجري النيابة في الحج، لتضمنه المشقتين البدنية والمالية، والأولى [وهي المشقة البدنية] لم تقم بالآمر [الذي أمر الغير أن يحج نيابة عنه بوصفه معذوراً]، لكنه تعالى رخص في إسقاطه بتحمل المشقة الأخرى، أعني إخراج المال عند العجز المستمر إلى الموت، [لكي يحج بهذا المال عنه] رحمة وفضلاً، وذلك بأن يدفع نفقة الحج إلى من يحج عنه، بخلاف حال القدرة فإنه لم يعذره لأن تركه ليس إلا لمجرد إيثار راحة نفسه على أمر ربه، وهو بهذا يستحق العقاب، لا التخفيف في طريق الإسقاط، وإنما شرط دوامه (أي العذر) إلى الموت لأن الحج فرض العمر... «وقال ابن قدامة: هذه عبادة تجب بإفسادها الكفارة، فجاز أن يقوم غير فعله فيها مقام فعله، كالصوم إذا عجز عنه افتدى بخلاف الصلاة». وأخذ المالكية بالأصل، وهو عدم جريان النيابة في العبادة البدنية، كالصوم»[1193].

والراجح عندي قول الجمهور وهو جواز النيابة عن الغير بشروطه لقوة دليلهم.

١٠٧٢-٢- تعلق فريضة الحج بالذمة وكيفية إبراء الذمة منها:

يفوت كثيراً من الناس ممن وجب عليهم الحج بتحقق شروطه ولم يحجوا، يفوتهم - جهلاً بالأحكام الشرعية غالباً - أن يستدركوا ذلك إذا حضرتهم الوفاة عن طريق الوصية بأن يحج الغير عنه، وهي وصية (واجبة) على من سبق أن حصلت له القدرة على الحج ولم يحج ثم حضرته الوفاة، من أجل إبراء ذمته من الفريضة. وكذلك يجب على الورثة - على رأي الشافعية - الإحجاج عنه وإن لم يوص بذلك.

(١١٩١) متفق عليه: البخاري (١٧٢١)، ومسلم (٢٣٧٥).
(١١٩٢) البخاري (١٧٢٠).
(١١٩٣) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٧٢-٧٣.

وبيان ذلك: أنه متى وجدت الاستطاعة مع توافر بقية الشروط وجب الحج، فإن حج وإلا ثبت الحج ديناً في ذمته منذ أول وقت الاستطاعة، فإذا استمرت الاستطاعة أو لم تستمر فقد تعلق فرض الحج بذمته بسببها ولا يسقط عنه فرض الحج بعدئذ بفقد الاستطاعة بعد وجودها، فإذا حضره الموت أصبح غير قادر على الحج بنفسه ووجب عليه - عند الجمهور - أن يوصي بالحج عنه لإسقاط الفريضة من ذمته، وذهب الشافعيه وهم مع الجمهور أصلا إلى أبعد من ذلك فقالوا (يجب) على الورثة الإحجاج عنه سواء أوصى بذلك أو لم يوص.

ونظراً لأن هذه الفتاوى مهمة لكل مسلم حصلت له الاستطاعة ولم يحج لأنه معرض لأن تحضره الوفاة ولم يكن قد حج بعد، فيجب أن تكون هذه الفتاوى معلومة وشائعة، أي من قبيل العلم الشائع بين الناس وليست محصورة بالفقهاء وقلة من الناس، لأنها من العلم الواجب على المسلم معرفته والذي يقوم دين المرء به مثل معرفة الصلاة والصيام، لذا فإننا نقدمها منظمة وملخصة كما يلي:

١٠٧٣-٣- متى يجب على المسلم أن ينيب غيره ليحج عنه:

يكون واجباً على المسلم المكلف - عند الجمهور - أن يستنيب غيره ليحج عنه إذا عجز عن أداء الحج الواجب عليه بنفسه، «ويشمل ذلك ما يأتي:

أ- كل من وجب عليه الحج وهو قادر على الحج بنفسه وحضره الموت يجب عليه الوصية بالإحجاج عنه عند الحنفية. سواء حجة الإسلام، أو النذر، أو القضاء. ولم يوقف الشافعية وجوب الإحجاج عنه على الوصية إجراء للحج مجرى الديون [بمعنى أنه يجب الإحجاج عنه من تركته سواء أوصى أو لم يوص](١١٩٤).

(١١٩٤) أما المالكية: فلا يوجبون عليه الوصية، ولا يسقط عنه الفرض بأداء الغير عنه - كما هو أصل مذهبهم الذي عرفناه - لكن إذا أوصى نفذت وصيته، وإن لم يوص لم يرسل من يحج عنه. [وفي الحالتين لا يوجد ما يستدرك به ويسقط الفرض من ذمته]. الموسوعة الفقهية: ج:١٧ص:٧٣-٧٤.

ب- من توفرت فيه سائر شروط وجوب الحج واختل [أي مع اختلال]شيء من شروط الأداء بالنفس، (يجب) عليه أن يحج [غيره] عن نفسه، أو يوصي بالإحجاج عنه إذا لم يرسل من يحج عنه.

ج- من توفرت فيه شروط وجوب الحج بنفسه فلم يحج حتى عجز عن الأداء بنفسه (يجب) عليه أن يُحج عنه في حال حياته، أو يوصي بالإحجاج عنه بعد موته [لأنه استطاع إليه سبيلاً ولم يفعل]. ويتحقق العجز بالموت، أو بالحبس، والمنع، والمرض الذي لا يرجى زواله كالزمانة والفالج، والعمى والعرج، والهرم الذي لا يقدر صاحبه على الاستمساك، وعدم أمن الطريق، وعدم المحرم بالنسبة للمرأة، إذا استمرت هذه الآفات إلى الموت» [١١٩٥].

وما تقدم ذكره إنما هو بالنسبة للحي. «أما الميت فعند الحنابلة والشافعية: من مات قبل أن يتمكن [أي لم تتحقق فيه الاستطاعة] من أداء الحج سقط فرضه، ولا يجب القضاء عنه، وإن مات بعد التمكن من الأداء ولم يؤد لم يسقط الفرض، ويجب القضاء من تركته» [١١٩٦].

١٠٧٤-٤- شروط النائب عن غيره في الحج:

«اشترط الشافعية والحنابلة لإجزاء الحج الفرض عن الأصيل أن يكون النائب قد حج حجة الإسلام عن نفسه أولاً، وإلا كانت الحجة عن نفسه، ولم تجزئ عن الأصيل، وهو قول الأوزاعي وإسحاق بن راهويه.

واكتفى الحنفية بأهلية المأمور لصحة الحج، بأن يكون مسلماً عاقلاً، فأجازوا أن يكون المأمور لم يحج عن نفسه حجة الإسلام...

استدل الأولون: بما أخرج أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة. قال: من شبرمة؟ قال: أخ لي، أو قريب لي. قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا. قال: حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة).

(١١٩٥) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٧٣-٧٤.
(١١٩٦) الموسوعة الفقهية: ج:٢ ص:٣٣٦.

واستدل الحنفية بإطلاق حديث الخثعمية السابق، فإنه ﷺ قال لها: (حجي عن أبيك) من غير استخبارها عن حجها لنفسها قبل ذلك، وترك الاستفصال يتنزل منـزلة عموم المقال»[1197].

ولكي يكون أداء الحج الواجب - بطريق النيابة - صحيحاً مبرئاً لذمة الأصيل نذكر هنا بعض شروطه:

١٠٧٥-٥- شروط صحة الحج الواجب عن الغير[1198]:

أ- يشترط أن يأمر الأصيل بالحج عنه، باتفاق العلماء بالنسبة للحي. أما الميت فلا يجوز حج الغير عنه [من مال التركة] بدون وصيته عند الحنفية والمالكية. واستثنى الحنفية، إذا حج أو أحج عن مورثه بغير إذنه فإنه يجزيه، وتبرأ ذمة الميت إن شاء الله تعالى، مستدلين بحديث الخثعمية، فإنه لم يفصل في حق السائل هل أوصى أو لم يوص، وهو وارث.

وتوسع الشافعية والحنابلة في الحج عن الميت فذهبوا إلى أنه: من مات وعليه حج وجب الإحجاج عنه من جميع تركته، سواء أوصى به أم لا، كما تقضى منها ديونه سواء أوصى بها أم لا. فلو لم يكن له تركة استحب لوارثه أن يحج عنه، فإن حج عنه بنفسه أو أرسل من حج عنه سقط الحج عن الميت، ولو حج عنه أجنبي جاز، وإن لم يأذن له الوارث، كما يقضى دينه بغير إذن الوارث «ومأخذهم تشبيه النبي ﷺ الحج بالدين، فأجروا على قضاء الحج أحكام الديون. فإذا مات والحج في ذمته يجب الإحجاج عنه من رأس المال ولو لم يوص، وهو مقدم على وفاء الديون، عند الشافعية.

ب- أن تكون نفقة الحج من مال الآمر [الأصيل]كلها أو أكثرها عند الحنفية، سوى دم القران والتمتع، فهما على الحاج عندهم. لكن إذا تبرع الوارث بالحج عن مورثه تبرأ ذمة الميت إن لم يكن أوصى بالإحجاج عنه إن شاء الله. أما الشافعية والحنابلة فقد أجازوا أن يتبرع بالحج عن غير الميت مطلقاً، كما يجوز أن يتبرع بقضاء دينه.

(١١٩٧) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٧٤-٧٥.

(١١٩٨) الموسوعة الفقهية: ج:١٧ ص:٧٥-٧٧ (بتصرف) ويوجد شروط تفصيلية أخرى تراجع بشأنها كتب الفقه (موضوع الحج) وقد اكتفينا بالمهم منها مع تبسيط العبارة قدر الإمكان.

ج- النية: أي نية الحاج المأمور أداء الحج عن الأصيل. بأن ينوي بقلبه ويقول بلسانه (والتلفظ أفضل): أحرمت بالحج عن فلان، ولبيك بحجة عن فلان. وإن اكتفى بنية القلب كفى ذلك، اتفاقاً. ولو نسي اسمه ونوى أن يكون الحج عن الشخص المقصود أن يحج عنه يصح، ويقع الحج عن الأصيل.

وبهذا ننتهي من الكلام في موضوع التوبة من ترك الحج، وهو خامس أركان الإسلام، ومن قبله انتهينا من الكلام في التوبة من ترك الزكاة وقبلهما انتهينا من الكلام عن التوبة من ترك الصلاة والصيام، لنبدأ الآن الكلام في، التوبة من ترك الجهاد، وهو «ذروة سنام الإسلام» كما سماه النبي ﷺ، وهو موضوع المطلب القادم إن شاء الله تعالى.

المطلب الرابع
التوبة من معصية ترك الجهاد وهي من الكبائر

١٠٧٦- التعريف بمعصية ترك الجهاد:

ترك الجهاد المطلوب شرعاً يعد من الكبائر المتفق عليها بين العلماء، وقد ذكره الهيتمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر بوصفه من الكبائر وعرفه بأنه: «ترك الجهاد عند تعينه بأن دخل الحربيون دار الإسلام أو أخذوا مسلماً وأمكن تخليصه منهم، وترك الناس الجهاد من أصله»[١١٩٩]، وترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم بحيث يخاف عليها من استيلاء الكفار بسبب ترك ذلك التحصين»[١٢٠٠].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١]: «فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال، وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها»[١٢٠١].

ونقدم فيما يلي بياناً عن أنواع الجهاد وفضله وحكم تاركه عند تعينه وكيفية التوبة من ذلك.

(١١٩٩) يعني الجهاد لتبليغ الإسلام، وهو غير جهاد الدفع.
(١٢٠٠) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:٢ ص:٢٦٩.
(١٢٠١) تفسير فتح القدير ج: ٢ ص: ٣٦٣.

١٠٧٧- أولاً - أنواع الجهاد:

١٠٧٨- أ- أنواع الجهاد من حيث ماهيته:

الجهاد في سبيل الله أنواع، قال ﷺ: (جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم)[١٢٠٢]، «فهنالك الجهاد باللسان ببيان شرائع الإسلام ودحض الأباطيل المفتراة عن الإسلام، [ودحض الشرك وأسسه وأفكاره]، والجهاد بالمال بإنفاقه في وجوه البر، ولا سيما على الغزاة المقاتلين في سبيل الله بشراء السلاح والعتاد والأرزاق لهم، والجهاد بالنفس بمقاتلة أعداء الله. وإذا أطلق الجهاد فإنه يراد به - غالباً - الجهاد بالنفس، أي القتال كما أن الجهاد بالنفس يقرن غالباً بالجهاد بالمال كما نلاحظ ذلك في آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف:١٠-١٣]»[١٢٠٣].

١٠٧٩- ب - أنواع الجهاد من حيث الغاية منه:

والجهاد - بمعنى مقاتلة العدو - من حيث الغاية منه نوعان:

الأول: الجهاد من أجل تبليغ الإسلام وإخراج الناس من عبودية العباد إلى عبودية الله رحمة بهم.

والثاني: جهاد الدفع وهو مجاهدة الكفار عندما يعتدون على أي جزء من دار الإسلام.

وقد رأينا أن نقول كلمة موجزة عن كل منهما لنعلم متى يكون التخلف عن الجهاد وتركه كبيرة من الكبائر توجب التوبة.

١٠٨٠- النوع الأول - الجهاد من أجل تبليغ دعوة الإسلام وثمراته:

وهذا النوع من الجهاد يتعلق بتبليغ دعوة الإسلام للناس خارج دار الإسلام، وإزالة الموانع من أمام هذا التبليغ رحمة بالناس بتمكينهم من الهداية من غير إكراه، عن طريق

(١٢٠٢) أخرجه أبو داود ج:٣ ص:٢٢، والنسائي: ج:٦ ص:٧، والحاكم: ج:٢ ص:٨١، وغيرهم.

(١٢٠٣) أستاذنا الدكتور عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة: ٢٧٣.

وصول الإسلام إليهم وعرضه عليهم ليختاروا بحرية تامة بينه وبين ما هم عليه، ويتحملوا مسؤولية هذا الاختيار في الآخرة، وهذا هو موضوع امتحان بني آدم في الحياة الدنيا.

١٠٨١- جهاد التبليغ لتوفير حرية العقيدة لبني آدم وهدايتهم:

وقد أثبت الواقع أنه بعد إزالة الموانع والمؤثرات المضلة عن تلك الأمم والشعوب والإطاحة بها من قبل الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجاً مختارين غير مكرهين، وصار أحدهم بعد أن عرف طريق الهداية يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار، فأبصر بعد العمى، وسمع بعد الوقر، واهتدى بعد الغي، وعلم بعد الجهل، فصار منهم العلماء، والفقهاء، والقضاة، وذاق جميع من أسلم منهم طعم حياة الإنسان المكرم بالإسلام بعد العبودية للعباد وللشهوات، وتحولوا من حياة القطيع إلى حياة عباد الرحمن، وصار منهم من يود لو يشتري رؤية رسول الله ﷺ بأهله وماله(١٢٠٤).

١٠٨٢- تضحية المسلمين واستشهادهم من اجل سعادة الناس في الدارين:

ولقد استشهد مئات الآلاف من المؤمنين، خير البرية، من أجل هذا الهدف النبيل، إنقاذ شر البرية من ظلمات كفرهم وظلمهم وشهواتهم إلى نور الإيمان بالله ورسوله، ومن الجهل بالله إلى معرفة الله وطاعته، وهي أعظم معرفة في الوجود، فضحوا بأرواحهم طاعة لله لإنقاذ أولئك الناس من شقاوة الدنيا والآخرة إلى سعادة الدارين، وزحزحتهم عن نيران الجحيم إلى الفوز العظيم في جنات النعيم. ضحوا بأرواحهم طاعة لله ومن أجل ذلك الهدف النبيل.

١٠٨٣- لا أكراه في الدين وحماية الإسلام لغير المسلمين مع تبليغهم:

ومن لم يسلم من تلك الأمم جعله الإسلام من أهل العهد (الذمة) وأصبحوا في حماية الإسلام، يحمي لهم عقيدتهم، وأماكن عبادتهم، وشعائرهم، وأنفسهم، وأموالهم، مع

(١٢٠٤) الطبراني: المعجم الأوسط ج: ٧ ص: ٨٩ حديث رقم (٦٩٣٨) قال: حدثنا محمد بن علي المروزي، ثنا الحسن بن يحيى الأزدي، ثنا عبيد الله بن عبد المجيد أبو علي الحنفي، ثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إن ناسا من أمتي يأتون من بعدي يود أحدهم أن يشتري رؤيتي بأهله وماله).

إعلامهم أنهم في الآخرة من الخاسرين بسبب ردهم لنبوة محمد ﷺ . وتلك قاعدة ثابتة تسري حتى على المسلمين: أن من رد نبوة أي نبي يكون كافراً، حتى لو رد المسلم نبوة موسى أو عيسى عليهما السلام يكون كافراً، ولذلك كان من أركان الإيمان الستة في الإسلام: الإيمان بالرسل، وهو ركن معلوم لدى كل المسلمين حتى أطفالهم، قال تعالى في وجوب الإيمان بكل الرسل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى في رد رسالة أي من الرسل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وجهاد التبليغ هذا من فروض الكفاية في الأحوال الاعتيادية إذا حصلت به الكفاية(١٢٠٥)، وفرض الكفاية واجب على الأمة بالجملة وليس فرضاً على كل فرد فيها، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا لم تقم به الأمة مع القدرة عليه أثم الجميع بتركهم أصل الجهاد. إلا إذا عين الإمام ناساً بأعيانهم واستنفرهم لهذا الجهاد فإنه يتعين في حقهم ويكون الترك منهم في هذه الحالة تركاً لواجب عيني ويكون تركه من الكبائر التي يجب التوبة منها. وكذلك يتحول فرض الكفاية إلى واجب عيني على من حضر الصف عند لقاء العدو فلا يجوز له أن يوليهم دبره ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦] على تفصيل فقهي في ذلك.

قال ابن كثير: «قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١]، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير، فدفنوه فيها» (١٢٠٦).

(١٢٠٥) المرجع السابق وفي الموضع نفسه.
(١٢٠٦) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٣٦٠.

١٠٨٤- الغاية من جهاد التبليغ الدفاع عن حرية العقيدة لبني آدم وعرض الإسلام:

فالغاية من هذا الجهاد وهدفه الأساس: الدفاع عن حرية العقيدة في كوكب الأرض للناس كافة وعرض الإسلام عليهم وتبليغهم إياه ليختاروا اختياراً حراً، وهداية الناس رحمة بهم، وإخراجهم من ظلمات عبادة العباد إلى نور عبادة الله تعالى، وإفقاد الكافرين القدرة على غزو دار الإسلام، ومن أجل أن تكون السيادة في الأرض لمبادئ الحق، والعدل والحكمة، والإحسان والرحمة، التي شرعها الله تعالى، وليس لشهوات الطواغيت، وهذا كله بعض المعنى لقوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال:٣٩].

١٠٨٥- جهاد التبليغ مبني على أسس وحقائق ليس من حق أحد مصادرتها أو معارضتها:

١٠٨٦- الحقيقة الأولى - من حق الله تعالى أن يعرض دينه وأن يطاع:

ذلك أنه من حق الله تعالى على بني آدم وهو خالقهم ومالكهم أن يعرض دينه، دين التوحيد الخالص، عليهم كافة، ليختاروا بين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى ديناً للناس كافة وبين رده برد رسالة محمد ﷺ وتحمل المسؤولية عن هذا الرد، وهو موضوع الامتحان في الحياة الدنيا - بعد بعثة محمد ﷺ - والذي يجازيهم عليه في الآخرة، وليس لأحد أن يمنع حق الله عرض دينه على بني آدم من أجل طاعة الله وعبادته التي هي الغاية من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فيها للابتلاء والامتحان، فلا بد من التبليغ ثم المسؤولية عن الاختيار، ثم الجزاء.

١٠٨٧- الحقيقة الثانية - من حق بني آدم كافة أن يعلموا دين الله تعالى ليختاروا بينه وبين ما هم عليه:

وهذا ما يمليه ويوجبه مبدأ حرية العقيدة بالمفهوم[١٢٠٧] الذي يقره ويعترف به غير

(١٢٠٧) يختلف مفهوم حرية العقيدة في الإسلام عنه في القانون الدولي الذي يجيز للإنسان أن يغير دينه وأن يرتد عنه متى شاء، حيث إن الإسلام وإن كان لا يكره غير المسلمين على الإسلام ويسميهم (أهل الذمة) ويسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ويحمي لهم أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأماكن عبادتهم، ويأمر المسلمين بالتعايش سلمياً معهم في الدنيا - مع أنه يعدهم في الآخرة من الخاسرين لردهم نبوة محمد ﷺ - إلا أن حرية العقيدة بالمفهوم الإسلامي مقيدة بعدم الردة عن =

المسلمين دولاً وأفراداً ومنظمات وتشريعات دولية، مما يفقد هذه الجهات جميعها - من الوجهة القانونية التي يحتكمون إليها - الحجة للاعتراض على عرض الإسلام والدعوة إلى التزامه. وبعد هذا العرض والتبليغ، وهذه الدعوة، جعل الإسلام لغير المسلمين أن يختاروا بإرادة حرة - بعيدا عن المؤثرات من إضلال المضلين وتخويف الطواغيت واستعباد العباد - يختارون ما يقتنعون بأن سعادتهم في الدنيا والآخرة منوطة به، ثم يكونون مسؤولين عن هذا الاختيار، وبخاصة وهو يتجاوز حدود مستقبل

= الإسلام، وعدم إحداث أي باطل في دار الإسلام يناقض تشريعات الإسلام بحجة حرية العقيدة وحرية الرأي والتعبير، ذلك أن الإسلام واجه ناساً يدخلون فيه خداعاً ثم يخرجون منه ضراراً لإحداث الفتنة والفساد في مجتمع المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢]، وقال عز وجل مخاطباً المسلم الأصلي والمسلم الذي أسلم بعد أن لم يكن مسلماً: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]. والمرتد ما كنا نعلم ردته لولا أنه أعلنها، فلو كتمها داخل نفسه لم يكن هناك سبيل لمعرفة ردته ومعاقبته عليها في الدنيا، فماذا يريد بإعلانها إذن غير الفتنة والفساد في مجتمع المسلمين؟!!، ولذلك قرر الإسلام أن يستتاب ويوضح له الحق، فإن تاب وإلا عوقب بعقوبة الردة وهي القتل حداً، لأن الردة على هذا النحو ليست حرية في العقيدة وإنما هي جريمة قبيحة بحق الإسلام والمسلمين وعدوان على دينهم ومشاعرهم وعلى النظام العام في دولتهم، والقصد الجنائي ظاهر فيها وهو إحداث الفتنة والفساد في مجتمعهم بدليل إعلانها من قبله، وعقوبة الردة هذه مبنية في الإسلام - على خلاف القانون الدولي - على أساسين:

الأول: إخلال المسلم بالوفاء بالتزامه: وبيان ذلك أن الإنسان بإسلامه مختاراً أو ارتضائه الإسلام ديناً يكون قد رتب على نفسه الالتزام بعقيدة الإسلام وأحكامه بإرادته فإذا ارتد يكون قد أخل بالتزامه إضافة إلى إساءته للدولة بتجرئه على عقيدتها عامداً لأن ردته لا تعرف إلا بإعلانها من قبله وفي ذلك خروج على النظام العام للدولة التي اتخذت الإسلام عقيدة وشريعة لها، وعلى ذلك يستحق العقاب، إذ المعروف في الشريعة والقانون أن إخلال الشخص بالتزامه يرتب عليه الجزاء.

والثاني: درء المفسدة عن المجتمع: وبيان ذلك ما ذكرناه قبل قليل من أن الدخول في الإسلام خداعاً والخروج منه ضرراً يقصد به تشويش عقائد الناس وإفسادها عليهم، وما يجره ذلك من إيقاع الفتنة بينهم، وتلك مفسدة كبرى حق الجماعة توجب العقاب، كما أن ردة المسلم الأصلي عن دينه أبلغ في الجرأة على الإسلام والمسلمين وإيقاع الفتنة والفساد عامداً فوجب درء هذه المفسدة الكبرى عن المجتمع بالعقوبة عليها. (انظر: للمؤلف: النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية، ص١٢٩ وما بعدها، ط١، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٣).

الإنسان في الدنيا إلى مستقبله في الآخرة، ومن يمنع الإنسان من هذا الحق (حرية العقيدة والاختيار) لا يمكنه أن يقدم له ضمانة بتحمل المسؤولية بدلاً عنه في الآخرة.

١٠٨٨- الحقيقة الثالثة - ليس من حق أحد من بني آدم أن يعطل الحقين المذكورين آنفاً:

وهما: حق الله على العباد في عرض دينه، دين التوحيد، والدعوة للالتزام به من غير إكراه، وحق العباد في العلم والمعرفة لدين الله، ومن منع ذلك كان متعدياً على حقين: حق الله في إرادته تبليغ دينه، وحق الإنسان في العلم. وهذا المنع والحيلولة دون هذين الحقين هو ما فعلته الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية إضافة إلى عدوانهما المباشر على الإسلام والمسلمين فأطاح الإسلام بهما وعرض دين الله على الشعوب بصورة جماعية فمن شاء أسلم ومن شاء لم يسلم وأصبح من أهل الذمة أي أهل العهد الذين شرع الإسلام حماية أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقائدهم وأماكن عبادتهم بشكل لم تظفر بمثله الأقليات في الدول الحديثة(١٢٠٨).

١٠٨٩- جهاد التبليغ فرض كفاية في الأصل وجهاد الدفع فرض عين:

وحيث إن هذا النوع من الجهاد فرض كفاية في الأصل، وإن جهاد الدفع عند تعينه يكون فرض عين فإننا نرى ضرورة التوسع في الكلام عن جهاد الدفع، ولأن حاجة الأمة إليه ماسة، مبينين أحكام الإسلام في الدعوة إليه والحث عليه، وتحريم تركه، وضرورة توبة التارك. ومعطين فكرة أيضاً عن بعض ما يتعلق بالجهاد بوجه عام.

١٠٩٠- النوع الثاني - جهاد الدفع: ماهيته، وبيان وجوبه وأنه فرض عين:

وهو مقاتلة الكفار عندما يعتدون على جزء من دار الإسلام، وهو داخل في حق الدفاع الشرعي الذي أقرته كل الشرائع السماوية، كما أقرته أيضا القوانين الدولية.

قال تعالى في وجوب جهاد الدفع: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ

(١٢٠٨) للتعرف على تفصيل ذلك راجع للمؤلف: « النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية» ص ١٢٦ وما بعدها تحت عنوان: (مستوى رفيع في حماية الحقوق والحريات الشخصية لغير المسلمين).

كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذا الأمر للوجوب ولم يصرف عن الوجوب بأي صارف. والآيات التي شرعت وجوب الجهاد كثيرة في كتاب الله العزيز.

١٠٩١- متى يكون الجهاد واجباً عينياً:

ويكون الجهاد واجباً عينياً، أي فرض عين، إذا احتل الكفار بلداً من بلاد الإسلام أو جزءاً منه، أو إذا استنفر الإمام المسلمين، وفي هذا يقول ابن العربي المالكي في تفسيره: «إذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى، كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً، وركباناً ورجالاً، عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه، حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزي الله العدو ويستنقذ الأسرى، ولا خلاف في هذا»[١٢٠٩]. فهاتان حالتان يكون فيهما الجهاد فرض عين، أما الحالة الثالثة فهي حالة لقاء العدو في جهاد التبليغ فإنه يتحول إلى فرض عين في حق من حضر المعركة[١٢١٠].

وجاء في تفسير القرطبي: «إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر[١٢١١]، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً، شباباً وشيوخاً، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا

(١٢٠٩) ابن العربي المالكي: أحكام القرآن: ج:٢ ص:٩٤٣ وانظر موافقة هذا القول لمذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل: روضة الطالبين للنووي: ج:١٠ ص: ٢١٤ والمغني لابن قدامة: ج:٨ ص:٣٦٤.

(١٢١٠) انظر: السمرقندي - من الحنفية -: تحفة الفقهاء: ٣/ ٢٩٦، والعدوي - من المالكية -: حاشية العدوي:٢/ ٢٢، والشيرازي - من الشافعية -: مغني المحتاج:٤/ ٢٢٤ والتنبيه: ١/ ٢٣٢، وابن قدامة – من الحنابلة -: المغني: ٩/ ١٦٣.

(١٢١١) جاء في (لسان العرب ج: ٤ ص: ٥٩٦): «عقر كل شيء أصله، و عقر الدار أصلها، وقيل وسطها وهو محلة القوم، وفي الحديث: (ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا)، عقر الدار بالفتح والضم أصلها، ومنه الحديث: (عقر دار الإسلام الشام) أي أصله وموضعه،... قال الأصمعي عقر الدار أصلها في لغة الحجاز فأما أهل نجد فيقولون عقر ومنه قيل العقار وهو المنـزل والأرض والضياع».

وجاء في (النهاية في غريب الأثر:٣/ ٢٧٤): «العقار بالفتح: الضيعة والنخل والأرض وغير ذلك، ومنه الحديث: (فرد عليهم عقار بيوتهم) أراد أرضهم...».

أب له، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثِّر، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض على الآخرين»(١٢١٢).

ونبه القرطبي أيضا إلى أن تهديد دار الإسلام وأهلها يوجب جهاد الدفع ولو لم يدخل العدو دار الإسلام فقال: «ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحزوة ويخزي العدو ولا خلاف في هذا»(١٢١٣). وهذا يعني أن جهاد الدفع يمكن أن يكون خارج دار الإسلام.

وقال ابن القيم: «وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه كما قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وقال النبي [ﷺ]: (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد)(١٢١٤) لأن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة، ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة، فإن قتل فيه فهو شهيد.

فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوباً ولهذا يتعين على كل أحد، ويجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن أبويه، والغريم بغير إذن غريمه، وهذا كجهاد المسلمين يوم أحد والخندق، ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين فكان الجهاد واجباً عليهم لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار... فجهاد الدفع يقصده كل أحد ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعاً وعقلاً»(١٢١٥).

(١٢١٢) تفسير القرطبي ٨/ ١٥١.

(١٢١٣) تفسير القرطبي ٨/ ١٥١-١٥٢.

(١٢١٤) النسائي(٤٠٢٦) و(٤٠٢٧)، وأحمد (١٥٦٥).

(١٢١٥) ابن القيم: الفروسية ص: ١٨٧-١٨٩

١٠٩٢- أقوال العلماء في وجوب مقاتلة المعتدين على دار الإسلام:

١٠٩٣-١- ما جاء في الموسوعة الفقهية بشأن وجوب جهاد الدفع وفرضيته:

جاء في الموسوعة الفقهية: «أما إذا دهم العدو بلداً من بلاد الإسلام، فإنه يجب النفير على جميع أهل هذا البلد، ومن بقربهم وجوباً عينياً، فلا يجوز لأحد أن يتخلف عنه، حتى الفقير، والولد، والعبد، والمرأة المتزوجة بلا إذن من: الأبوين، والسيد، والدائن، والزوج. فإن عجز أهل البلد ومن بقربهم عن الدفاع فعلى من يليهم، إلى أن يفترض على جميع المسلمين فرض عين كالصلاة تماماً على هذا التدريج. وكذلك يكون النفير فرض عين على كل من يُستنفر ممن له حق الاستنفار كالإمام أو نوابه، ولا يجوز لأحد أن يتخلف إذا دعاه داعي النفير، إلا من منعه الإمام من الخروج، أو دعت الحاجة إلى تخلفه لحفظ الأهل أو المال، لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ ﴾ [التوبة:٣٨]»[١٢١٦].

وجاء فيها أيضاً في موضع آخر: «إذا استولى الكفار على بقعة من دار الإسلام صار الجهاد فرض عين على جميع أفراد الناحية التي استولى عليها الكفار، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، أصحاء ومرضى، فإذا لم يستطع أهل الناحية دفع العدو عن دار الإسلام، صار الجهاد فرض عين على من يليهم من أهل النواحي الأخرى من دار الإسلام، وهكذا حتى يكون الجهاد فرض عين على جميع المسلمين، ولا يجوز تمكين غير المسلمين من دار الإسلام. ويأثم جميع المسلمين إذا تركوا غيرهم يستولي على شيء من دار الإسلام»[١٢١٧].

١٠٩٤-٢- ملخص أقوال العلماء في وجوب مقاتلة المعتدين على دار الإسلام:

لخص صاحب كتاب «تهذيب مشارع الأشواق» أقوال العلماء في فرضية جهاد الدفع فقال: «وإن دهم الكفار بلدة للمسلمين واحتلوها، ولم يتمكن المسلمون فيها من الاجتماع والتأهب لقتال الكفار فيجب على كل مسلم أن يواجههم بنفسه»[١٢١٨].

(١٢١٦) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٤ / ١٢٨-١٢٧.

(١٢١٧) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٢٠ / ٢٠١- ٢٠٢.

(١٢١٨) ابن النحاس الدمشقي الدمياطي، مرجع سابق، تهذيب كتابه مشارع الأشواق ص ٣٧.

«وعندما ينزل الكفار بلدة للمسلمين وجب مساعدة أهل البلدة على كل من كان على بعد مسافة قصر عنهم، إن كفى هؤلاء وأغنوا، وإن لم يكن بهم كفاية وحب النفير على الباقين الذين هم أبعد منهم...

وعند بعض العلماء أنه تجب النجدة والمساعدة على الأقربين للبلدة التي نـزل فيها الكفار ثم من يليهم بدون ضبط ولا تحديد حتى يبلغ الخبر للمسلمين بأنه قد تم تحرير تلك البلدة وإخراج الكفار منها.

وإذا احتل الكفار جبلاً أو سهلاً أو مكاناً في دار الإسلام بعيداً عن البلدان والأوطان وليس فيه سكان، فإنه يأخذ حكم البلدة التي يحتلها الكفار، ويجب على المسلمين النفير لتحرير ذلك المكان»[1219].

١٠٩٥-٣- نماذج من أقوال المذاهب الفقهية في وجوب جهاد الدفع:

١٠٩٦- أ- قول الحنفية في وجوب جهاد الدفع:

جاء في العناية شرح الهداية: «فإن هجم العدو على بلد وجب على جميع الناس الدفع تخرج المرأة بغير إذن زوجها والعبد بغير إذن المولى لأنه صار فرض عين»[1220].

وجاء في «تبيين الحقائق» قوله وهو يتكلم عن أقسام الجهاد: «وفرض عين إن هجم العدو فتخرج المرأة والعبد بلا إذن زوجها وسيده لأن المقصود لا يحصل إلا بإقامة الكل فيجب على الكل... والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١] أي اخرجوا إلى الجهاد شباباً وشيوخاً أو ركباناً ومشاة أو فقراء وأغنياء وقد جاء في التفسير خفافاً شباباً أغنياءً وثقالاً شيوخاً فقراء وهذا أبلغ... وذكر في النهاية معزياً إلى الذخيرة إذا جاء النفير إنما يصير فرض عين على من يقرب من العدو وهم يقدرون على الجهاد فأما من وراءهم ببعد من العدو فإن كان الذين بقرب العدو عاجزين عن مقاومة العدو أو قادرين إلا أنهم لا يجاهدون لكسل بهم أو تهاون افترض على من يليهم فرض عين ثم من يليهم كذلك حتى يفترض على هذا التدريج على المسلمين كلهم شرقاً وغرباً...»[1221].

(١٢١٩) ابن النحاس الدمشقي الدمياطي، مرجع سابق، تهذيب كتابه مشارع الأشواق ص ٣٨.

(١٢٢٠) البابرتي: العناية شرح الهداية: ٥/ ٤٤٢.

(١٢٢١) الزيلعي: تبيين الحقائق شرح كنـز الدقائق: ٣/ ٢٤١-٢٤٢.

وقال الكاساني: «فأما إذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد فهو فرض عين يفترض على كل واحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه»[(١٢٢٢)].

١٠٩٧- ب - قول المالكية في وجوب جهاد الدفع:

وجاء في التاج والإكليل: «تعين على كل أحد إن حل العدو بدار الإسلام محارباً لهم فيخرج إليه أهل تلك الدار خفافاً وثقالاً شباناً وشيوخاً، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مُكثِّر، وإن عجز أهل تلك البلاد عن القيام بعدوهم كان على من جاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة. وكذلك من علم أيضاً بضعفهم وأمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم[(١٢٢٣)].

وجاء في القوانين الفقهية: «ويتعين لثلاثة أسباب:... الثاني: أن يفجأ العدو بعض بلاد المسلمين فيتعين عليهم دفعه فإن لم يقدروا لزم من قاربهم فإن لم يشتغل الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع العدو»[(١٢٢٤)].

١٠٩٨- ج - قول الشافعية في وجوب جهاد الدفع:

وجاء في تحفة المحتاج: «إن دخلوا (بلدة لنا) أو صار بينهم وبينها دون مسافة القصر كان خطباً عظيماً فيلزم أهلها عيناً الدفع لهم»[(١٢٢٥)].

وجاء في «مغني المحتاج» قوله: «الثاني: يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن، فإن أمكن تأهب لقتال وجب الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن...، ومن هو دون مسافة قصر من البلدة كأهلها، ومن على المسافة يلزمهم الموافقة بقدر الكفاية إن لم يكف أهلها ومن يليهم. قيل: وإن كفوا، ولو أسروا مسلماً فالأصح وجوب النهوض إليهم لخلاصه إن توقعناه»[(١٢٢٦)].

(١٢٢٢) الكاساني: بدائع الصنائع: ٧/ ٩٨.
(١٢٢٣) التاج والإكليل لمختصر خليل: ٤/ ٥٣٩-٥٤٠
(١٢٢٤) ابن جزي: القوانين الفقهية: ١/ ٩٧.
(١٢٢٥) ابن حجر الهيتمي: تحفة المحتاج إلى شرح المنهاج:٩/ ٢٣٥.
(١٢٢٦) الشربيني : مغني المحتاج: ٦/ ٢٢ -٢٣.

وجاء في الإقناع في فقه الشافعي: «وإن سار العدو إليهم تعين فرض جهاده على كل من أطاق دفعه من المسلمين حتى يردوا»[1227].

١٠٩٩- د- قول الحنابلة في وجوب جهاد الدفع:

وجاء في الفروع لابن مفلح: «قال شيخنا: جهاد الدفع للكفار يتعين على كل أحد، ويحرم فيه الفرار من مثليهم، لأنه جهاد ضرورة لا اختيار، وثبتوا يوم أحد والأحزاب وجوباً، وكذا لما قدم التتر دمشق. عن عبد الله بن أبي أوفى مرفوعاً (لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) متفق عليه[1228].

وجاء في «الإنصاف»: «ومن حضر الصف من أهل فرض الجهاد، أو حضر العدو بلده: تعين عليه بلا نزاع. وكذا لو استنفره من له استنفاره بلا نزاع»[1229].

وجاء في المغني لابن قدامة: «وواجب على الناس إذا جاء العدو، أن ينفروا؛ المقل منهم، والمكثر... ومعناه أن النفير يعم جميع الناس، ممن كان من أهل القتال... وذلك لقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١]. وقول النبي ﷺ: (إذا استنفرتم فانفروا). وقد ذم الله تعالى الذين أرادوا الرجوع إلى منازلهم يوم الأحزاب، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]. ولأنهم إذا جاء العدو، صار الجهاد عليهم فرض عين فوجب على الجميع، فلم يجز لأحد التخلف عنه...»[1230].

١١٠٠- ثانيا - أهمية الجهاد وضرورته وأسباب تشريعه:

وتظهر أهمية هذا الجهاد الذي يتضمن الدفاع عن دار الإسلام وحمايتها: ديناً، ونفوساً، وأرضاً، وأموالاً، وأعراضاً، ونحوها، إذا عرفنا أن الكفر والشرك - عبر التأريخ - كان في حالة حرب دائمة ضد الإيمان وأهله، وهذا جزء من طبيعتها، لأن الإسلام

(١٢٢٧) الماوردي: الإقناع في فقه الشافعي: ١٧٥-١٧٦.

(١٢٢٨) الفروع لابن مفلح: محمد بن مفلح المقدسي: ٦/ ٢٠٢.

(١٢٢٩) المرداوي: الإنصاف: ٤/ ١١٧.

(١٢٣٠) ابن قدامة المقدسي: المغني: ٩/ ١٧٤.

والإيمان يتضمن دعوة لتحرير الأمم والشعوب من طغاتها الذين أضلوا الأمم التي حكموها واستعبدوها لأهوائهم وشهواتهم فجعلوها تحت وطأة عبادة العباد وعَبَّدوها لغير الله، ودعوة الإسلام لتحرير الناس من عبادة العباد ونقلهم إلى عبادة الله هي هدم لسيادتهم على الناس وحرمان لهم من أهوائهم وشهواتهم، كما إن مبادئه وأحكامه تتضمن المساواة بين سائر الناس، وهذا يتناقض مع مصالحهم، وتتضمن أيضاً أن يتركوا ما هم مترفون فيه في تربعهم على رقاب الناس من الاستمتاع بالسلطان والأموال والشهوات، وهذا ما لا يرضون به وهم يعتقدون أن الحياة الدنيا (مائدة طعام وفرصة متاع) فيريدون الاغتراف منها قبل الموت بكلتا اليدين، وفوق هذا وذاك فإنهم - لانعدام سلطان القيم والأخلاق على نفوسهم - لا يبقى محركاً لها وحاكماً عليها يحركها غير رغباتهم وأهوائهم وما يرونه مصلحة لأنفسهم فيطمعون في السيطرة على دار الإسلام وثرواتها ما دام التوسع في متاع الحياة الدنيا رأسمالهم، والعلو في الأرض وما ينتج عنه من الإفساد فيها غايتهم، هذا فوق تلبسهم بعمى القلب باعتقاد الكفر والشرك ديناً يدينون به.

١١٠١- ليس من طبيعة الكفر أن يسالم الإيمان وأن يكف عدوانه عليه:

ولذلك لا يمكن أن يسالم الكفر الإيمان ويكف عدوانه إلا إذا كان ضعيفاً، لأن طبيعة البشر من الكفار والمشركين تدعو إلى الجشع والتكالب على استعمار الأمم والشعوب والبلدان، استجابة لهوى النفس ، لأنهم - كما وضحنا - تحكمهم المصالح الذاتية الضيقة والشهوات، ولا تحكمهم المبادئ والقيم والمثل والأخلاق، التي مع فقدانها لا يبقى إلا النفوس الخبيثة والضمائر الخربة المهيأة للظلم والعدوان .

فمن هنا لابد أن يعتدي أهل دار الحرب على دار الإسلام وأهلها وأموالها ما دامت بهم قوة وقدرة. وحتى لو قُيِّدوا بمعاهدات فإنهم يتفلتون منها فيعتدون، وهم بذلك يقاتلون في سبيل الطاغوت، بخلاف قتال المؤمنين للكافرين فإنه من أجل هدف نبيل وغاية شريفة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٧٦].

وكل الأمم الكافرة عبر التأريخ كان هذا نهجها: العدوان على الإيمان وأهله، كما أخبر بذلك القرآن، ودل عليه الواقع المشاهد الملموس، قال تعالى: ﴿ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

وقال جل جلاله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

١١٠٢- الدليل من القرآن على طبيعة الكفر العدوانية ضد الإيمان:

وإذا أردت مزيداً من الأدلة على ما ذكرنا من طبيعة الكفر العدوانية ضد الإيمان وأهله، وأن هذا يمثل حقيقة دائمة تريك أهداف الكفر ومقاصده وموقفه العدواني من الإيمان فتأمل هذه الآيات الكريمة:

١- ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨].

٢- ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠].

٣- ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

٤- ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٥- ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٦- ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

٧- ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ ﴾ [النساء: ٨٩].

٨- ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

٩- ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨-٩].

١٠- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

١١- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

تلك هي بعض آيات التنزيل العزيز التي تبين مقاصد الكافرين في العالم تجاه دار الإسلام وأهلها قديماً، وحديثاً.

وعلى ذلك لا يمكن ضمان إيقاف اعتداء الكفر على الإيمان إلا بأن يسلم، أو يضطر إلى أن يسالم، فإذا أسلم انتهت إرادته للعدوان وتلاشت، وإذا سالم مضطراً انتهى شره وأمِنَّا عدوانه على الإيمان وأهله، هذا إذا لم يغدر، وصدور الغدر منه محتمل تماماً ما دام تحكمه مصالحه وشهواته وليس القيم والأخلاق. وقد افترض القرآن الكريم الغدر منه مع المسالمة أو المعاهدة، ونبه القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، وقال في حرب الكفار ضد المسلمين: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [النساء: ١٠٢].

فمن أجل ذلك شرع الجهاد، لأنه لا يمكن دفع شر الكفار عن الإيمان وأهله إلا به، وكذلك من أجل رحمة الناس بهدايتهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال جل جلاله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

١١٠٣- معنى قوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت...) الآية:

قال القرطبي في تفسيرها: « ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]، أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتل الأعداء لاستولى أهل الشرك... إذ لولا

القتال لما بقي الدين الذي ذب عنه، وأيضاً هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى، أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيَعْ، وفي زمن محمد ﷺ المساجد»[١٢٣١].

وقال الإمام أبو عبد الله الحليمي في كتابه «شعب الإيمان» بشأن معنى الآية: «أخبر الله أنه لولا دفعه المشركين بالمؤمنين، ولولا تسليط المؤمنين على المشركين لدفعهم عن الإسلام، وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم.. لولا ذلك لغلب الشرك على الأرض وارتفع الدين الحق عنها»[١٢٣٢].

مما تقدم تظهر أهمية الجهاد وبخاصة جهاد الدفع الذي لا يعذر تاركه عند تعينه بل يصبح مرتكب كبيرة من الكبائر بترك الجهاد الواجب، وتجب عليه التوبة من ذلك.

١١٠٤- ثالثا - فضل الجهاد وثوابه عند الله:

١١٠٥- أ- فضل الجهاد في القرآن الكريم:

أما فضل الجهاد وثوابه وجزاؤه في القرآن الكريم فيكفي فيه:

أن الله سبحانه بين صفات أحب الخلق إليه من الذين يختارهم الله تعالى بنفسه وذكر أن الجهاد صفة فيهم، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

(١٢٣١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٧٠.

(١٢٣٢) أشار إليه كتاب «تهذيب كتاب مشارع الأشواق في مصارع العشاق في فضائل الجهاد» للإمام أحمد بن إبراهيم بن النحاس الدمشقي الدمياطي تهذيب الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي: ص ٢٩. وهو كتاب جليل القدر ميسر للفهم في موضوع الجهاد في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله جل وعز: ﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٧٤].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وفي القرآن الكريم مثل هذا كثير.

١١٠٦- ب - فضل الجهاد في السنة النبوية:

كما أن السنة النبوية الشريفة قد ورد فيها الكثير بشأن الأمر بالجهاد والترغيب فيه. ومجموع ما يُتَحصَّل من الأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد في سبيل الله يدل على مكانته ومنزلته العظيمة في الإسلام، وتلك الأحاديث بمجموعها تنص على:

أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله، وأنه أفضل من عمارة المسجد الحرام، وأنه أحب الأعمال إلى الله، وأن المجاهد أفضل الناس عند الله، وأن الجهاد لا يعدله شيء، وأنه أفضل عند الله من العزلة والتفرغ للعبادة، وأن المجاهد خير الناس وأكرمهم على الله، وأن نوم المجاهد أفضل من قيام غيره الليل وصيامه النهار، وأن الله يرفع المجاهد في الجنة مائة درجة، وأن سياحة هذه الأمة الجهاد، وأن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وأن المجاهد في ضمان الله وكفالته وعونه وهدايته من حين خروجه حتى عودته أو استشهاده، وأن الله لا يضيع المجاهد وإنما يتولاه بلطفه ورحمته[١٢٣٣].

(١٢٣٣) انظر تفاصيل الأحاديث النبوية الواردة في كل ما ذكرناه: تهذيب كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد، مصدر سابق، ص: ٥٨ -٧٩ .

١١٠٧ - رابعاً - فضل الشهيد:

منح الله تعالى الشهيد فضلاً عظيماً، فإنه لما باع نفسه لله تعالى أكرمه الله تعالى بأن ردها إليه حالاً وفي جنات النعيم ساعة استشهاده حيا يرزق فرحاً مستبشراً ومن غير انتظار إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

١١٠٨- أقوال المفسرين في فضل الشهيد وسبب تسميته شهيداً:

١١٠٩-١- قول القرطبي:

قال القرطبي في سبب تسميته شهيداً: «وقيل: سمي شهيداً لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لاتصل إلى الجنة فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح على ما يأتي، والشهادة فضلها عظيم ويكفيك في فضلها قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠-١٢]. وفي صحيح البستي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة)[١٢٣٤].

١١١٠-٢- قول ابن كثير:

وقال ابن كثير في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤]: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون كما جاء في صحيح مسلم[١٢٣٥]: (إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم

(١٢٣٤) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١٨.

(١٢٣٥) صحيح مسلم: (١٨٨٧).

ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنـا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت: أنهم إليها لا يرجعون) »[١٢٣٦].

وقال ابن كثير أيضا في تفسير قوله تعالى: « ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٤] أي لن يذهبها، بل يكثرها، وينميها، ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده[١٢٣٧] حيث قال: حدثنا زيد ابن يحيى الدمشقي حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي رجل كانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ : (يعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان) تفرد به أحمد رحمه الله... قال أحمد أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع حدثني إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب الكندي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه. وقد أخرجه الترمذي[١٢٣٨] وابن ماجة[١٢٣٩]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وعن أبي قتادة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال: (يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين)[١٢٤٠]، وروي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. وقال أبو الدرداء

(١٢٣٦) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ١٩٨.

(١٢٣٧) مسند أحمد: (٤٢٠٠).

(١٢٣٨) الترمذي (١٦٦٣).

(١٢٣٩) ابن ماجة (٢٧٩٩)

(١٢٤٠) صحيح مسلم (١٨٨٥) و(١٨٨٦).

ﷺ قال رسول الله ﷺ: (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)[1241] والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً»[1242].

١١١١- خامساً - التحذير من ترك الجهاد:

والآيات في الأمر بالجهاد بوجه عام والتحذير من تركه كثيرة، فمن ذلك:

أ- قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ففي هذه الآية كفاية لأولي الألباب فإن فيها التحذير والتخويف والتهديد لمن ترك الجهاد بسبب إيثاره للدنيا وما فيها من المال والأهل والأزواج والمساكن ونحوها.

ب- وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

قال الإمام القرطبي بشأن تفسير هذه الآية: «هذا توبيخ من الله على ترك الجهاد، وعتاب على القعود وعدم المبادرة إلى الخروج»[1243].

وهو يدل على أن التثاقل عن الجهاد حرام على المسلم كما تدل عليه الآية

قال القرطبي: «وإذا عين الإمام قوماً، وأمرهم بالجهاد، لا يجوز لهم أن يتثاقلوا عنه، لأنه بتعيين الإمام لهم، صار الجهاد فرض عين عليهم»[1244].

(١٢٤١) رواه أبو داود (٢٥٢٢).

(١٢٤٢) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ١٧٥.

(١٢٤٣) تفسير القرطبي: ج: ٨ ص: ١٤٠.

(١٢٤٤) تفسير القرطبي: ج:٨ ص:١٤٠.

ج- وقوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

د- وقوله سبحانه: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٤].

قال بعض العلماء تعقيباً على هذه الآيات الكريمة: «فانظر - رحمك الله - إلى هذا الوعيد الشديد والخزي العظيم والوبال الأليم، لمن تخلف عن الجهاد وقعد عنه وكره الإنفاق فيه. ومع أن هذه الآيات نازلة في أقوام معينين من المنافقين، تخلفوا عن غزوة تبوك إلا أن فيها ترهيباً وتهديداً لمن فعل مثل فعلهم، وتخلف عن الجهاد الواجب عليه، وحسبك بفعله فعلاً شنيعاً، وبالوعيد عليه وعيداً فظيعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١٢٤٥].

١١١٢- وجوب الجهاد يتناول الجهاد بالمال، والإحجام عنه إلقاء للنفس بالتهلكة:

وتلك التحذيرات القرآنية من معصية ترك الجهاد عامة تشمل ترك الجهاد بالنفس وبالمال أيضاً وبخاصة أن الأمر بالجهاد بالمال اقترن غالباً في القرآن الكريم بالجهاد بالنفس نحو قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾ [التوبة: ٤١]، وأحد وجوه الحكمة في تشريع الجهاد بالمال قد وردت في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

«وقد فسر الجمهور وابن عباس الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة:

(١٢٤٥) ابن النحاس الدمشقي الدمياطي تهذيب كتاب مشارع الأشواق، مرجع سابق، ص ٤٠.

بأن لا ينفقوا أموالهم في سبيل الله فيستولي العدو عليهم ويهلكهم، وإليه ذهب البخاري ولم يذكر غيره. فكأنه قيل إن كنت من أهل الدين فأنفق مالك في سبيل الله، وإن كنت من أهل الدنيا فأنفق مالك في دفع الهلاك والضر عن نفسك.

وقيل: هي أن يُخِلّوا بالجهاد فيتعرضوا للهلاك الذي هو عذاب النار.

وقيل: هي اقتحام الحرب بحيث يقتل من غير نكاية تحصل منه للعدو، ورده بعضهم واستدل بأن رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية وإنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ فنصرناه وشهدنا معه المشاهد، فلما قوي الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نصلحها فنزلت الآية فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزاة غزاها بقسطنطينية فتوفي هنالك، ودفن في أصل سورها، وكانوا يستسقون به، واستدل أيضاً بأن جماعة من الصحابة ألقوا بنفوسهم في العدو وأثنى عليهم النبي ﷺ؛ وكذا وقع في زمن عمر لرجل فقيل ألقى بيده إلى التهلكة، فقال: كذبوا، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وكل هذه الوقائع ليس فيها أن أحداً ألقى بنفسه في العدو حتى قتل مع علمه بأنه لا تظهر منه نكاية فيهم، بل الظاهر من أحوالهم رضي الله عنهم أنهم ما أقدموا ذلك الإقدام الأعظم إلا لإيقاع نكاية في عدوهم هذا قصدهم، ثم تارة يظهر من قاصد ذلك نكاية وتارة لا، ولا يضره ذلك لأن المدار على قصد النكاية فيهم لا ظهورها، وقيل في تفسير الآية أقوال أخرى»[(١٢٤٦)].

ومن المتفق عليه عند المفسرين والفقهاء أن الوجوب في الجهاد يتناول الجهاد بالمال والنفس معا ولا يعفى المكلف من أحدهما أو كليهما إلا عند عدم الاستطاعة والقدرة.

ومن ذلك قولهم في وجوب الجهاد أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [التوبة: ٤١]: «الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للقتال فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره

(١٢٤٦) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:٢ ص:٢٦٩.

فيغزو به، كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قويا. وإن كان له مال وقوة فعليه الجهاد بالنفس والمال، ومن كان معدماً عاجزاً فعليه الجهاد بالنصح لله ورسوله لقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]»[١٢٤٧].

١١١٣- سادساً - حكم ترك الجهاد:

١١١٤- ترك الجهاد من الكبائر وأدلة ذلك من القرآن والسنة:

ترك الجهاد، سواء كان تركا لجهاد التبليغ وهو الواجب على الأمة ويلحقها الإثم عند تركه مع القدرة عليه، أو جهاد الدفع الذي هو فرض عين على النحو الذي شرحناه، فإن هذا الترك، وبخاصة جهاد الدفع عند تعينه، يعد من الكبائر التي تستوجب التوبة، وقد ورد الدليل على ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، ونذكر منهما ما يأتي:

١١١٥- أ- الدليل من القرآن الكريم على أن ترك الجهاد من الكبائر:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]. ففي الآية تهديد بالعذاب الأليم - وهو يشمل عذاب الدنيا بتسلط الكفار وعذاب الآخرة بالنار - ويشمل التهديد بالاستبدال.

وترتيب عقوبة على الفعل بالشكل المذكور في الآية يدل على أنه من الكبائر كما شرحنا ذلك عند الكلام في التمييز بين الكبائر والصغائر في فصل سابق. وكذلك من الكبائر كل فعل ورد بشأنه وعيد خاص، وهذا ينطبق على ما جاء في الآيات التالية أيضاً:

قوله سبحانه - وقد ذكرناه قبل قليل -: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨١-٨٤].

وقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

(١٢٤٧) تفسير زاد المسير ج: ٣ ص: ٤٤٣.

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]، ففي قوله تعالى: (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) وقوله: (والله لا يهدي القوم الفاسقين) تقرير لاستحقاق العقوبة الشديدة لمن فعل ذلك.

قال ابن كثير: «أي إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا): أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال: (حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) »[(١٢٤٨)].

وفي تفسير «أبو السعود» قال: « (وجهاد في سبيله) نظم حبه [أي الجهاد] في سلك حب الله عز وجل وحب رسوله ﷺ، تنويهاً لشأنه، وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يحب فضلاً عن أن يكره، وإيذاناً بأن محبته راجعة إلى محبتهما، فإن الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم، فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما، (فتربصوا): أي انتظروا، (حتى يأتي الله بأمره): عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فتح مكة، وقيل: هي عقوبة عاجلة أو آجلة، (والله لا يهدي القوم الفاسقين): الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة، فيدخل في زمرتهم هؤلاء دخولاً أولياً، أي لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم، وفي الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه لطف من ربه، والله المستعان[(١٢٤٩)].

وقال الشوكاني: «أي: [إن] كانت هذه الأشياء المذكورة في الآية أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله (فتربصوا): أي انتظروا حتى يأتي الله بأمره فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم»[(١٢٥٠)].

ويتضح مما تقدم أن القرآن الكريم جعل ترك الجهاد من الكبائر.

(١٢٤٨) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٣٤٣.

(١٢٤٩) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٥٥.

(١٢٥٠) فتح القدير ج: ٢ ص: ٣٤٧ وانظر أيضاً: روح المعاني ج: ١٠ ص: ٧١ وقال الآلوسي أيضاً: وروي عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل أنه فتح مكة. وكذا نقل الشوكاني أيضاً عن بعض السلف.

١١١٦- ب - الدليل من السنة النبوية على أن ترك الجهاد من الكبائر:

«روى أبو داود وغيره: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورغبتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم). ومسلم وغيره: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق). وأبو داود وابن ماجه: (من لم يغز ولم يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة). والترمذي وابن ماجه: (من لقي الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثلمة). والطبراني بسند حسن: (ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله تعالى بالعذاب) »[١٢٥١].

وكل ما تقدم من الأحاديث الشريفة إما أنه يتضمن وصف تارك الجهاد بالنفاق أو باستحقاق العقوبة مرتبة على الفعل وهي من الضوابط الدالة على الكبيرة.

وروى البيهقي والحاكم عن بشير ابن الخصاصية ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام، فاشترط علي: (تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله.

قلت: يا رسول الله: أما اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة، لأنه ليس لي إلا عشر ذود هن رسل أهلي وحمولتهم[١٢٥٢].

وأما الجهاد فإنهم يزعمون أن من ولى فقد باء بغضب من الله، وأخاف إن حضرني قتال كرهت الموت، وخشعت نفسي.

فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حركها، ثم قال: لا صدقة، ولا جهاد، فبماذا تدخل الجنة؟!.

قلت: يا رسول الله: أبايعك، فبايعني عليهن كلهن)[١٢٥٣].

(١٢٥١) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر: ج:٢ ص:٢٧١.

(١٢٥٢) الذود هي الإبل، فلم يكن لديه غير عشرة من الإبل، منها (رسل) أهله، والرسل بتشديد الراء وكسرها وسكون السين هو اللبن حيث كانت لشربهم من لبنها ولتنقلاتهم.

(١٢٥٣) أخرجه الحاكم في السنن الكبرى: ج:٩ ص:٢٠ ، والحاكم في المستدرك: ج:٢ ص:٨٠ وصححه ووافقه الذهبي.

ومما تقدم يتبين حكم ترك الجهاد وأنه من الكبائر سواء كان ترك الجهاد من أصله مع القدرة عليه وهو الواجب على الأمة، أو ترك جهاد الدفع الذي هو فرض عين وأشد وجوبا من سابقه.

١١١٧- سابعاً - الحكمة من تقديم الجهاد بالمال في سياق الآيات القرآنية:

والحكمة في ذلك كما ذكرها المفسرون أن الجهاد بالنفس يسبقه إنفاق الأموال في وسائل الجهاد وأدواته والتحضير والتجهيز له فذكر الجهاد بالمال متقدماً لهذه الحكمة.

قال القرطبي: «وقدم الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز فرتب الأمر كما هو في نفسه»(١٢٥٤).

وقال الشوكاني: «وقدم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد»(١٢٥٥).

١١١٨- ثامناً - الجهاد بالمال هو عمل صالح مستقل عن الزكاة المفروضة:

ومما تقدم يتبين بوضوح أن الجهاد بالمال هو عمل صالح آخر غير الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، فلو صرف زكاة ماله للجهاد في سبيل الله فهو مصرف صحيح ويحسن به أن يختار ذلك في مقاومة العدوان على دار الإسلام وهو جهاد الدفع، ولكنه لا يسمى جهاداً بالمال لأن الجهاد بالمال هو واجب آخر غير واجب الزكاة، وهو واجب غير مقدر، بخلاف الزكاة المقدرة، وتم إيجابه بنصوص مستقلة عن الزكاة كقوله تعالى ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١] وقوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾ [الصف: ١١]. وغيرها من الآيات الكثيرة الآمرة بالجهاد بالمال والنفس، وعلى ذلك فإن المكلف الغني المقتدر لا يعفى من الجهاد بالمال بعد أدائه الزكاة وصرفها في سهم (في سبيل الله).

(١٢٥٤) تفسير القرطبي ج: ٨ ص: ١٥٣ وانظر أيضا المرجع نفسه: ج: ١٨ ص: ٨٧ .

(١٢٥٥) الشوكاني: تفسيره: فتح القدير ج: ٥ ص: ٢٢٢.

قال القرطبي: «واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها، قال مالك رحمه الله: يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، وهذا إجماع أيضاً»[(١٢٥٦)].

١١١٩- تاسعاً - كيفية التوبة من كبيرة ترك الجهاد بالنفس عند تعينه:

قلنا إن الجهاد يكون فرض عين إذا احتل الكفار جزءاً من دار الإسلام أو إذا استنفر الإمام المسلمين للجهاد وحسب التفاصيل التي شرحناها أخذاً من أقوال الفقهاء، فإذا تخلف المسلم عن هذا الجهاد من غير عذر شرعي فإنه يكون مرتكباً لكبيرة ترك الجهاد في سبيل الله وتجب عليه التوبة من تلك الكبيرة وإلا لقي الله تعالى مرتكباً لكبيرة لم يتب عنها.

١١٢٠- نموذج قرآني للتوبة من ترك الجهاد:

وفي القرآن الكريم نموذج لمن ارتكبوا كبيرة ترك الجهاد عند تعينه فمنهم من تاب الله عليهم بعد أن تابوا توبة نصوحاً، ومنهم من لم يتوبوا إلى الله من تلك الكبيرة بل اعتذروا بأعذار غير مجدية ولم تتحقق فيهم أركان التوبة.

١١٢١- توبة الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك ورفيقيه:

فمن أولئك الذين تابوا من تلك الكبيرة: الثلاثة الذين خُلِّفوا، من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم:كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، ثم تابوا توبة نصوحا فقبل الله تعالى توبتهم وأخبر عن قبولها في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

(١٢٥٦) تفسير القرطبي ج: ٢ ص: ٢٤٢.

ولقد ندم هؤلاء التائبون ندماً عظيماً وبكوا كثيراً طوال خمسين يوماً تقطعت قلوبهم خلالها من الأسى والحزن والحسرة على ما فرطوا في جنب الله بتخلفهم عن الجهاد في (غزوة تبوك)، ووصف القرآن الكريم حالهم من الندم الذي ليس فوقه ندم فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [التوبة: ١١٨].

١١٢٢- قصة توبة الثلاثة الذين خلفوا كما وردت في صحيح البخاري:

وقد جاءت قصة توبتهم مفصلة في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث ونحن ننقلها من صحيح البخاري:

روى البخاري في صحيحه فقال[١٢٥٧]: (حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف، عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا[١٢٥٨] على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر[١٢٥٩] في الناس منها.

كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان[١٢٦٠] قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً[١٢٦١]، وعدواً كثيراً، فَجَلَّى[١٢٦٢] للمسلمين أمرهم

(١٢٥٧) صحيح البخاري ج: ٤ ص: ١٦٠٣ - ١٦٠٨ حديث رقم (٤١٥٦).

(١٢٥٨) تواثقنا: تعاهدنا وتبايعنا.

(١٢٥٩) أذكر عند الناس: أشهر عند الناس بالفضيلة.

(١٢٦٠) الراحلة: الناقة التي يركب عليها.

(١٢٦١) ومفازاً: المفاز والمفازة: البرية القفر وتجمع المفاوز.

(١٢٦٢) الجلاء: الوضوح والظهور.

ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينـزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت[١٢٦٣] أغدو[١٢٦٤] لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي[١٢٦٥] حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط[١٢٦٦] الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتـنـي فعلت فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[١٢٦٧] عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه[١٢٦٨] ونظره في عطفيه[١٢٦٩]، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً[١٢٧٠]، حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون

(١٢٦٣) طفق: شرع وبدأ.

(١٢٦٤) أغدو: الغدو: الخروج أول النهار.

(١٢٦٥) يتمادى بي: يستمر بي التسويف والكسل.

(١٢٦٦) تفارط: تقدم الغزاة وسبقوا.

(١٢٦٧) مغموصاً: مطعوناً في دينه، متهماً بالنفاق.

(١٢٦٨) البرد: رداء يلبس فوق الثياب.

(١٢٦٩) عطفيه: جانبيه، والمراد إعجابه بنفسه ولباسه.

(١٢٧٠) القفول: الرجوع.

فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة[١٢٧١] وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خَلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلاً[١٢٧٢]، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[١٢٧٣] علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت، وثار[١٢٧٤] رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبُّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي

(١٢٧١) البضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

(١٢٧٢) جدلاً: براعة وقوة في المنطق والكلام.

(١٢٧٣) الوجد: الحزن، وقيل الغضب.

(١٢٧٤) ثار: غضب.

أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرتُ[1275] جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله[1276] هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحقْ بنا نواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت[1277] بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع[1278] ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا

(١٢٧٥) تسور: علا وصعد السور.

(١٢٧٦) أنشده بالله: سأله وأقسم عليه.

(١٢٧٧) يمم: قصد واتجه.

(١٢٧٨) ضائع: فقير ذو عيال .

أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى[١٢٧٩] على جبل سلع، بأعلى صوته، يا كعب بن مالك: أبشر، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن[١٢٨٠] رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبي مبشرون، وركَّض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نـزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه[١٢٨١] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩][١٢٨٢].

(١٢٧٩) أوفى: صعد وارتفع.

(١٢٨٠) آذن: أعلم وأخبر.

(١٢٨١) أبلاه: أنعم عليه.

(١٢٨٢) والآيات النازلة في الثلاثة الذين تخلفوا وتابوا ومنهم كعب بن مالك هي قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ =

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦][١٢٨٣].

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه)[١٢٨٤].

وبهذا ينتهي الكلام في التوبة من ترك الجهاد، وهو آخر ما كتبناه في مبحث (التوبة من ترك الواجبات)، ومن قبله قد انتهينا من الكلام في مبحث (التوبة من فعل المحرمات) وبهما معاً انتهينا من الكلام في فصل (التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات) وبه ينتهي الباب الرابع الذي كان موضوعه (الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها)، فإذا عرفنا ذلك وتمت للمسلم توبته وجب أن يعرف الآن كيف يحافظ على هذه التوبة ويستديمها إلى آخر العمر، وهو موضوع الباب الخامس القادم إن شاء الله تعالى تحت عنوان (دوام التوبة: لزومها والثبات عليها إلى الموت).

= بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

(١٢٨٣) وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

(١٢٨٤) صحيح البخاري ج: ٤ ص: ١٦٠٣-١٦٠٨ حديث رقم (٤١٥٦)







الباب الخامس

دوام التوبة: لزومها والثبات عليها إلى الموت

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: في بيان حال التائب بعد توبته (آثار التوبة عليه).
- الفصل الثاني: في دوام التوبة إلى آخر العمر ووسائل ذلك.
- الفصل الثالث: معاودة التائب لفعل الذنب هل تبطل توبته أم تبقى صحيحة وعليه توبة جديدة؟







البَابُ الخَامِسُ

دوام التوبة : لزومها والثبات عليها إلى الموت

١١٢٣- تمهيد وتقسيم :

التائب توبة نصوحاً صادقة مخلصة يصبح حاله الإنابة إلى الله تعالى، ويصير أحب شيء إليه أن يديم الله تعالى عليه توبته بقية عمره إلى الموت، وأن لا تغلبه أهواؤه وشهواته فيرجع عن توبته بعد إذ نجاه الله تعالى بالتوبة وانتزعه من صف المخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا إلى صف التائبين المحبوبين عند الله تعالى.

ثم التائب مع ذلك لا يكون معصوماً بعد التوبة فقد يقع في الذنب الذي تاب منه، فما حكم توبته السابقة؟ وماذا عليه أن يفعل للعودة للتوبة مجدداً؟.

وعلى ذلك انقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: في بيان حال التائب بعد توبته أي آثار التوبة عليه.
- والفصل الثاني: في بيان دوام التوبة إلى آخر العمر ووسائل ذلك.
- والفصل الثالث: في بيان مسألة معاودة التائب لفعل الذنب الذي تاب منه وهل يبطل ذلك توبته ويلغيها فتصبح كأنها لم تكن؟ أم تبقى توبته السابقة صحيحة ويلزمه توبة جديدة؟ مع بيان أقوال العلماء في ذلك.









الفصل الأول

حال التائب بعد التوبة

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: ما يجب أن يكون عليه حال التائب بعد توبته.
- المبحث الثاني: بيان أقسام العباد في دوام التوبة.









الفصل الأول

حال التائب بعد التوبة

١١٢٤- تمهيد وتقسيم:

قبل أن نشرع في الكلام عن الفصل الثاني المتضمن شرح الوسائل التي تعين التائب على دوام توبته ولزومها إلى آخر العمر رأينا أن من الحسن أن نبين الحال التي ينبغي أن يكون التائب قد صار إليها بعد توبته، فجعلنا ذلك موضوع الفصل الأول. وهو يتضمن: حال الإنابة إلى الله تعالى، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة ، وقد جعلنا ذلك في مبحثين متتاليين:

المبحث الأول
ما يجب أن يكون عليه حال التائب بعد توبته
(إنابة التائب إلى الله تعالى)

١١٢٥- إنابة القلب وإنابة الجوارح:

الأصل أن التوبة النصوح تفضي بصاحبها إلى منزلة الإنابة، بمعنى أن يصبح عبداً: منيباً إلى الله في كل أحواله، منيباً إلى الله بقلبه من حيث محبة الله، وخشيته، والتوكل عليه، والافتقار إليه، والانكسار بين يديه، وطلب توفيقه، والاعتصام به، والتعوذ به من أن يكله إلى نفسه طرفة عين فيضيع ويهلك، وأن يديم عليه توفيقه ويحجب عنه خذلانه، ولذلك كان التائبون أرق أفئدة، وأسرع دمعاً.

ومنيباً إليه أيضاً بجوارحه، فتنشط جوارحه في العبادات والطاعات، فرائضها ومندوباتها، وكل ذلك من آثار التوبة التي نقلته إلى الإنابة.

١١٢٦- معنى الإنابة:

والإنابة تعني معنين - ويحدد أياً منهما السياق الذي تجيء فيه - فهي تعني: التوبة، وتعني: ما بعد التوبة من الصلة الدائمة بالله تعالى ولجوء التائب إلى ربه تعالى في كل شؤون حياته واعتصامه به، كما إنها أصلاً، أي الإنابة، صفة من صفات أهل الإيمان الصادق والاستقامة الدائمة.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٤]، وقال حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال عن نبيه داود: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ [ص: ٢٤]، وقال في وصف المؤمنين: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الروم: ٣٣١].

١١٢٧- تعريف الإنابة اصطلاحا:

«الإنابة: الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن: المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل»[(١٢٨٥)].

(١٢٨٥) ابن القيم: طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٢٧٢.

١١٢٨- درجات الناس في الإنابة:

قال ابن القيم: «الناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم والخشية والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول وأشرح صدوراً، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة.

وأقلهم المنيب عند الشدائد والضراء فقط، إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له.

١١٢٩- أعلى أنواع الإنابة:

فأعلى أنواع الإنابة: إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاء كلها رعيتها، وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة وليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه، أنابت جميع القوى والجوارح.

فأناب القلب أيضا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار.

وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه وتسليمه لها وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها.

وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت لأوامره، خاضعة له، وداعية فيه، ومؤثرة إياه على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضاً إلى مولاها، ورضاً بقضائه، وتسليماً لحكمه، وقد قيل: إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس.

وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها، فرضها وسننها، على أكمل الوجوه.

وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة، فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها وإن كانت عذبة في مباديها، فإنها عذاب في عواقبها، فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بل هذا روحه منيبة أبداً وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد، وأما أصحاب الإنابات المتقدمة فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلاً على دواعي نفسه وطبعه، والله الموفق المعين لا رب غيره ولا إله سواه»(١٢٨٦).

١١٣٠- حقيقة إنابة التائب ومستلزماتها وآثارها:

شرح ابن القيم رحمه الله حقيقة الإنابة ومستلزماتها وآثارها في كتابه القيم «مدارج السالكين»، ونحن نقدم شرحه - مشذباً ومقتصراً فيه على ما تمس الحاجة إليه - مع المحافظة على عبارته وعبارة صاحب «المنازل»(١٢٨٧). وأهمية معرفة ذلك سببها أن معرفة

(١٢٨٦) ابن القيم: طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٢٧٢-٢٧٤.

(١٢٨٧) أي كتاب منازل السائرين للهروي الذي شرحه ابن القيم في كتابه مدارج السالكين.

منزلة الإنابة مهمة للتائب لأنها تمثل الحال الحسنة التي يجب أن يكون عليها بعد التوبة النصوح. ثم هي مهمة لكل أهل الإسلام.

قال ابن القيم: «فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزل الإنابة وقد أمر الله تعالى بها في كتابه وأثنى على خليله بها فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ إلى أن قال ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١]، وقال عن نبيه داود: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ [ص: ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [ق: ٣١-٣٤]، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

١١٣١- إنابة الاضطرار وإنابة الاختيار:

والإنابة إنابتان:

إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم. [وهذه إنابة اضطرار حين يمس الناس الضر وهي غير داخلة معنا في موضوع التوبة والإنابة إلا إذا كانت مناسبة وسبباً لتحويل بعض الناس إلى الإنابة الثانية الآتي ذكرها].

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك، وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم.

والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه»[١٢٨٨].

١١٣٢- مقومات الرجوع إلى الله: إصلاحاً، ووفاءً، وحالاً:

ثم شرع ابن القيم يشرح ما قاله صاحب كتاب «منازل السائرين» في الإنابة فقال[١٢٨٩]: «قال صاحب المنازل: الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي ههنا: الرجوع إلى الحق، وهي ثلاثة أشياء:

- الرجوع إلى الحق (إصلاحاً) كما رجع إليه اعتذاراً.
- والرجوع إليه (وفاء) كما رجع إليه عهداً.
- والرجوع إليه (حالاً) كما رجعت إليه إجابة.

١١٣٣- شرح المعاني المتقدمة وبيان كيفية تحقيقها:

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان من تتمة ذلك رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته، كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٠]، فلا تنفع توبة وبطالة، فلا بد من توبة وعمل صالح، ترك لما يكره وفعل لما يحب، تخل عن معصيته وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً، والدين كله عهد ووفاء، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته:

فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى.

وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل.

وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم.

(١٢٨٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٤٣٣-٤٣٤.

(١٢٨٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٤٣٤-٤٤٠.

ومدح الموفين بعهده وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١]، وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد، فما أناب إلى الله عز وجل من خان عهده وغدر به، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة: أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً، فلا بد من الإجابة حالا، تصدق به المقال، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها، وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال، فارجع إليه إجابة بالحال، قال الحسن رحمه الله: ابن آدم لك قول وعمل، وعملك أولى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أملك بك من علانيتك.

١١٣٤- أ- كيفية الرجوع إلى الله (إصلاحاً):

قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه (إصلاحاً) بثلاثة أشياء بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات.

والخروج من التبعات هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

والتوجع للعثرات يحتمل شيئين: أحدهما: أن يتوجع لعثرته إذا عثر فيتوجع قلبه وينصدع وهذا دليل على إنابته إلى الله بخلاف من لا يتألم قلبه ولا ينصدع من عثرته فإنه دليل على فساد قلبه وموته، الثاني: أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

واستدراك الفائتات هو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها أو خير منها ولا سيما في بقية عمره عند قرب رحيله إلى الله فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها [أي لا تقوم بثمن فهي أعظم من كل ثمن] يستدرك بها ما فات، ويحيي بها ما أمات.

١١٣٥- ب - كيفية الرجوع إلى الله (وفاء):

قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه (وفاء) بثلاثة أشياء: بالخلاص من لذة الذنب، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفاً عليهم مع الرجاء لنفسك، وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة.

إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره والفكرة فيه، فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أي الحالين أعلى: حال من يجد لذة الذنب في قلبه فهو يجاهدها لله ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله؟ أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه وسكوناً إليه والتذاذاً بحبه وتنعماً بذكره؟ قيل: حال هذا أكمل وأرفع، وغاية صاحب المجاهدة أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به، فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة وتركه محابه لله وإيثاره رضا الله على هواه؟ وبهذا كان النوع الإنساني أفضل من النوع الملكي عند أهل السنة، وكانوا خير البرية، والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفي منها فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافى والمبتلى، قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه، وهذه الحال أعلى أحوالها وأرفعها، وهي التي يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله، فهو بمنزلة راكب القفار.. والأهوال ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به، والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً وراكعاً وساجداً ليس له التفات إلى غيره، فهذا مشغول بالغاية وذاك بالوسيلة، وكل له أجر ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بون، وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله، وإن كان أكثر عملاً، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم وإن كان هذا المجاهد أكثر عملاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء،... ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة، فأفضل الأعمال الإيمان بالله، والجهاد أشق منه، وهو تاليه في الدرجة، ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء، وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : (أن النبي ذكر الشهداء فقال إن أكثر شهداء أمتي لأصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته)[١٢٩٠].

(١٢٩٠) أخرجه أحمد (٣٥٨٤).

... ومن علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم مع فتحك باب الرجاء لنفسك فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك، قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً، وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شهد حقيقة الخلق وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم بل تفريطهم وإضاعتهم لحق الله وإقبالهم على غيره وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بداً من مقتهم ولا يمكنه غير ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره وكان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة [أي أن التائب المنيب يتحرى عن علل عباداته وأعماله التي تجعلها معيبة من أجل تخليصها من الشوائب]: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر، فلا إله إلا الله كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه، وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها، فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه وبين الحق والباطل ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال. ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه: من كبر، وإعجاب، وإدلال، ورؤية العمل ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب...

١١٣٦- ج - كيفية الرجوع إلى الله (حالاً):

قال: وإنما يستقيم الرجوع إليه (حالاً) بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك، وبمعاينة اضطرارك، وشيم برق لطفه بك.

الإياس من العمل يفسر بشيئين:

أحدهما: أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق والمحرك الأول، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل، فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك، بقي بلا فعل، فههنا تنفع مشاهدة القدر والفناء عن رؤية الأعمال.

والثاني: أن تيأس من النجاة بعملك، وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعفوه وفضله، كما في الصحيح عن النبي [ﷺ] أنه قال: (لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[١٢٩١]، فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل والثاني بغايته ومآله.

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أيس من عمله بداية، وأيس من النجاة به نهاية، شهد في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه، وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها، بل من جميع الجهات، وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ولا لها سبب، بل هو مضطر إليه بالذات كما أن الله عز وجل غني بالذات، فإن الغنى وصف ذاتي للرب والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً   كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وأما شيم برق لطفه بك: فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية، وأيس من عمله والنجاة به، نظر إلى ألطاف الله وشام برقها، وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة من بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر لا إله غيره ولا رب سواه»[١٢٩٢].

١١٣٧- الإنابة وعلاقتها بسلوك طريق الاستقامة:

والتائب وقد صار حاله الإنابة إلى ربه تعالى كما ذكرنا سابقاً، فإن الإنابة لا تكون تامة إلا بسلوك طريق الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، ونحن سنذكر بالتفصيل الوسائل التي تعين التائب على دوام توبته إلى آخر العمر، ولكن قبل الدخول في ذلك نرى

(١٢٩١) متفق عليه: البخاري (٥٢٤١) و(٥٩٨٦)، ومسلم (٥٠٣٧).

(١٢٩٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٤٣٤-٤٤٠.

أنه من المفيد أن نورد قاعدة ذكرها ابن القيم بوصفها طريقاً مختصرة للوصول إلى سلوك طريق الاستقامة لخصها في أمرين:

١١٣٨- طريقة مختصرة تفضي إلى سلوك طريق الاستقامة قوامها أمران:

١١٣٩-١- حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها:

«فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

١١٤٠- الطريق إلى حفظ الخواطر:

فإن قلت فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلا، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح، معذب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى، وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها، وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل.

كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها الملك في سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل أعمالها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين: أحدهما: أن لا يترك به واجباً ولا سنة، والثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها...

١١٤١-٢- صدق التأهب للقاء الله:

[وهو] من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته: فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته، واستحدث همة أخرى وعلوماً أخر، وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة، وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار، وهذا معنى ما يذكر عن المسيح أنه قال: يا بني إسرائيل إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين، ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية، ولا تصوروها، فضلاً عن أن يصدقوا بها، فيقول القائل: كيف يولد الرجل الكبير أو كيف

يولد القلب؟ ولم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة، إذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه؟ ولكن إذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدق بذلك وعلم أنه لم يولد قلبه بعد.

والمقصود: أن صدق التأهب للقاء هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة، والتوبة، والإنابة، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتفويض والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله: صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه»[١٢٩٣].

(١٢٩٣) ابن القيم:طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٢٧٤-٢٧٧.

المبحث الثاني
بيان أقسام العباد في دوام التوبة

١١٤٢- التائبون ليسوا سواء في توبتهم ودرجة إنابتهم:

قد علمت أن التائبين ليسوا سواء في مقدار إنابتهم إلى الله تعالى، كما أنهم ليسوا سواء في أقسام توبتهم من حيث التوبة عن ذنوب معينة أو التوبة العامة الشاملة عن ذنوب العمر كله، وكل هذا مؤثر في دوام توبتهم وبقائها واستمرارها إلى آخر العمر، كما أن حالهم في دوام التوبة يتأثر بمقدار علمهم وقوة إيمانهم وضعفه ومقدار أخذهم بالوسائل التي تساعدهم على الاعتصام بالتوبة وعدم معاودة الذنب أو الذنوب التي تاب منها، تلك الوسائل المهمة التي سنذكرها بعد الانتهاء من هذا الفصل الذي نحن فيه.

١١٤٣- طبقات التائبين عند الغزالي:

وقد تكلم الإمام الغزالي كلاماً مهماً في موضوع أحوال التائبين من حيث دوام التوبة ولزومها واستقامة التائب عليها، أو عدم لزومها، ومخالفة مقتضاها، فقسمهم إلى أربع طبقات، ونحن نورد كلامه في هذا الموضوع - مشذباً ومقتصراً فيه على ما تقتضيه الحاجة - مع المحافظة على عبارته، قال[١٢٩٤]:

١١٤٤- التائبون في التوبة على أربع طبقات:

«اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

١١٤٥-١- الطبقة الأولى من التائبين:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة: التوبة النصوح، واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

(١٢٩٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٣-٤٦.

وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ : (سبق المفردون المستهترون[١٢٩٥] بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً)[١٢٩٦]، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.[والإكثار من الذكر يجيء بعد التوبة والإنابة].

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات:

فمن تائب: سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها.

وإلى من: لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة، وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع، وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته، وحال هذا أعلى وأفضل...

١١٤٦-٢- الطبقة الثانية من التائبين:

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن

(١٢٩٥) جاء في (لسان العرب ج: ٥ ص: ٢٤٩) « وأما الاستهتار: فهو الولوع بالشيء والإفراط فيه حتى كأنه أهتر أي خرف، وفي الحديث: (سبق المفردون، قالوا: وما المفردون؟ قال: الذين أهتروا في ذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً... والمفردون: يجوز أن يكون عني بهم المتفردون المتخلون لذكر الله، والمستهترون: المولعون بالذكر والتسبيح، وجاء في حديث آخر:(هم الذين استهتروا بذكر الله) أي: أولعوا به، يقال: استهتر بأمر كذا وكذا أي: أولع به لا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره ». قلت: هذا معنى الكلمة كما وردت في سياق الحديث الشريف، ولكلمة الاستهتار معان أخر غيرها، جاء في (لسان العرب ج: ٥ ص: ٢٥٠) « واستهتر فلان فهو مستهتر إذا ذهب عقله فيه وانصرفت هممه إليه حتى أكثر القول فيه بالباطل، وقال النبي [ﷺ]: (المتسابان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان ويتقاولان ويتقابحان في القول) من الهِتر بالكسر، وهو الباطل والسقط من الكلام... يقال: استهتر فلان فهو مستهتر إذا كان كثير الأباطيل، والهِتر [بالكسر]: الباطل، قال ابن الأثير: أي المبطلين في القول والمسقطين في الكلام، وقيل: الذين لا يبالون ما قيل لهم وما شتموا به...».

(١٢٩٦) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله، الحديث، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنة (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في نفس موضع الاقتباس).

يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد.

وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينه الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى، إذ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢]، فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه، وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه: (خياركم كل مفتن تواب)[١٢٩٧] وفي خبر آخر: (المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً)[١٢٩٨] وفي الخبر: (لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة)[١٢٩٩].

(١٢٩٧) حديث علىّ خياركم كل مفتن تواب أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٢٩٨) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تفيء وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٢٩٩) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة، أي الحين بعد الحين (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين، ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة، وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه، بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، قال النبي ﷺ: (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون المستغفرون)(١٣٠٠) وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص:٥٤]، فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً.

١١٤٧-٣- الطبقة الثالثة من التائبين:

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، [أي بالطبقتين السابقتين]، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في

(١٣٠٠) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون أخرجه الترمذي... والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون... (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقة - مثلاً- الاحتراز عن شواغل التعلم، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين، فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين، فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير، هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان، قال ﷺ : (إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)[١٣٠١]، فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة، وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

١١٤٨-٤- الطبقة الرابعة من التائبين:

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته، فهذا من جملة المصرين.

(١٣٠١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة، ولمسلم من حديث أبى هريرة: إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث، ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة. وشهر مختلف فيه (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ...

فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم، وليت من اتجر استغنى، وليت من صام وصلى غفر له...

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة، مصر على الذنوب، غير سالك سبيل المغفرة، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين، والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم، وجنته ليست تضيق على مثلي، ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار، وإذا قيل له: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب، فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول: ما هذا الهوس، السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإنما ينال ذلك بالكسب، وهكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال [في الدنيا] ومقتضاه الفتور عن العمل لذلك الملك المقيم والنعيم الدائم؟ وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا، وينسى قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فنعوذ بالله من العمى والضلال، فما هذا

إلا انتكاس على أم الرأس، وانغماس في ظلمات الجهل، وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة: ١٢]، أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، فارجعنا نسعى، وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب» [(١٣٠٢)].

والآن وقد انتهينا من الكلام في حال التائب بعد توبته وهي الإنابة إلى الله تعالى وكذلك انتهينا من الكلام في أقسام التائبين، أي طبقاتهم من حيث دوام التوبة، حري بنا أن ندخل في موضوع الوسائل التي تساعد التائب على دوام توبته ولزومها إلى آخر العمر، وهو موضوع الفصل الثاني.

(١٣٠٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٣ - ٤٦







الفصل الثاني

وسائل دوام لتوبة ولزومها إلى آخر العمر

وفيه سبعة مباحث:

- المبحث الأول: الشكر والصبر أهم أركان دوام التوبة.
- المبحث الثاني: لزوم الاستغفار والمواظبة عليه.
- المبحث الثالث: قطع سبل الرجوع عن التوبة.
- المبحث الرابع: إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بأنواع العبادات.
- المبحث الخامس: اتباع مسلك المراغمة.
- المبحث السادس: اتخاذ القدوة الحسنة.
- المبحث السابع: المحاسبة اليومية.










الفصل الثاني

وسائل دوام التوبة ولزومها إلى آخر العمر

١١٤٩- تمهيد وتقسيم :

يتضمن هذا الفصل شرحاً لما يتعلق بدوام التوبة ولزومها إلى آخر العمر، نبين فيه الوسائل التي تعين التائب على الثبات على توبته ولزومها إلى الموت، وهي وسائل تلزم التائبين وغير التائبين، بمعنى أنها تفيد كل المسلمين والمؤمنين فائدة أساسية ومهمة للغاية.

١١٥٠- وسائل دوام التوبة لازمة لكل أهل الإسلام:

فهي بالنسبة للتائب وسائل رسوخ في التوبة، وثبات عليها، لكي يستمر عليها إلى آخر العمر. وهي بالنسبة لغير التائب (المسلم المخلط) وسائل لتحسين حاله في العلاقة مع الله تعالى ولزيادة حسناته على سيئاته في الميزان يوم القيامة ليكون من الناجين، وهذا مراد كل مسلم، كما أنها تسهل عليه سلوك طريق التوبة، فهي إذن وسائل تنفع كل المسلمين والمؤمنين ولا تخص التائبين وحدهم، لأنها أساساً من أهم وسائل الترقي في مدارج الإيمان.

١١٥١- أهم وسائل دوام التوبة والترقي في مدارج الإيمان:

ومن أهم هذه الوسائل:

١- الشكر والصبر:

شكر الله تعالى على توفيقه للتوبة.

والصبر عن المعاصي التي تاب منها، سواء كانت من قبيل ترك الطاعات، أو اقتحام المحرمات.

والشكر والصبر ركنان مهمان من أركان (دوام) التوبة.

ثم بقية الوسائل المهمة الأخرى وأهمها:

٢- لزوم الاستغفار الحق.

٣- وقطع سبل الرجوع عن التوبة وذلك بالابتعاد عن كل ما يغريه في الوقوع فيما تاب منه.

٤- وإبقاء القلب حياً على الدوام بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بالعبادات والطاعات.

٥- واتباع مسلك المراغمة للشيطان على النحو الذي سنشرحه.

٦- واتخاذ القدوة الحسنة.

٧- والمحاسبة اليومية.

وفيما يلي شرح هذه الوسائل التي تعين في دوام التوبة وثباتها إلى آخر العمر، وتعين على الترقي في مدارج الإيمان، جامعين الشكر والصبر في مبحث تفصيلي واحد بصفتهما أهم أركان دوام التوبة ومخصصين مبحثاً مستقلاً لكل من وسائل دوام التوبة الأخرى.

المبحث الأول
الشكر والصبر أهم أركان دوام التوبة

المطلب الأول
الركن الأول في دوام التوبة: شكر الله تعالى على نعمة التوبة

١١٥٢- لماذا كان الشكر وسيلة لدوام التوبة؟:

من أعظم نعم الله تعالى على العبد توفيقه للتوبة لأن معنى ذلك استنقاذه من النار ووضعه على الطريق الموصلة إلى الجنة وهذه نعمة من أعظم النعم وشكرها يستجلب المزيد منها قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]. والزيادة في التوبة رسوخ فيها ومداومة عليها وثبات قدم فيها إلى الموت، ومن هنا كان الشكر على نعمة التوبة وسيلة من وسائل بقائها ودوامها، ولذلك عددناها واحدة من الوسائل المهمة في دوام التوبة.

١١٥٣- التعريف بالشكر وبيان حقيقته وأقوال العلماء فيه:

قال القرطبي: «وأما الشكر فهو في اللغة الظهور من قوله دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف... قال الجوهري: الشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه [أي أولاك إياه] من المعروف يقال: شكرته وشكرت له وباللام أفصح، والشكران خلاف الكفران وتشكرت له مثل شكرت له»(١٣٠٣).

وقال الإمام الغزالي في بيان حد الشكر وحقيقته: «اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من: علم، وحال، وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل. فأما العلم: فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب، وبالجوارح، وباللسان»(١٣٠٤).

(١٣٠٣) تفسير القرطبي ج: ١ ص: ٣٩٧ -٣٩٨.

(١٣٠٤) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:٨١

وتكلم ابن القيم في بيان الشكر لله تعالى فقال: «هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة.

والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس: هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور:

فقيل حده [أي تعريفه]: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وما ألطف ما قال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقيل: الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة له.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

هذا معنى قول حمدون: أن يرى نفسه فيها طفيلياً.

وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة [أي: استفراغ الطاقة بالعبادات القلبية والعبادات القولية، والعبادات العملية]...

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال داود ﷺ: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة علي من عندك تستوجب بها شكراً فقال: الآن شكرتني يا داود...

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم تستوجب من عطائه.

وقال الجنيد وقد سأله سري عن الشكر وهو صبي: الشكر: أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه فقال: من أين لك هذا قال: من مجالستك .

وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر»[1305].

١١٥٤- الشكر على ثلاثة أنواع:

ومما تقدم يتبين لنا أن الشكر على ثلاثة أنواع:

شكر باللسان وهو الثناء على الله تعالى على نعمه كلها ومن أعظمها نعمة التوفيق للتوبة.

وشكر بالقلب وهو محبته وخشيته مع بقية العبادات القلبية.

وشكر بالأعمال: وهو طاعته في كل ما تضمنه الأمر والنهي الإلهي، والقيام بالمزيد من أنواع التطوعات، وقد دل على ذلك القرآن والسنة: ففي القرآن قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فجعل العمل بطاعة الله من قبيل الشكر له جل ثناؤه. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً؟)[1306].

١١٥٥- ليس بمقدور أحد أن يوفي حق الله من الشكر:

وليس بمقدور أحد أن يوفي الله تعالى حقه من الشكر على نعمه لأنها لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وأيضاً لأن العبد مهما شكر الله على نعمة فإن توفيقه للشكر نعمة أخرى تحتاج إلى شكر آخر، وهكذا إلى غير نهاية.

جاء في تفسير أبي السعود: «... ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه، ولسانه، وجوارحه، أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفى حقه، لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية»[1307].

(١٣٠٥) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٢٤٤- ٢٤٥.

(١٣٠٦) متفق عليه: البخاري (١٠٦٢) و(٤٤٥٩) و(٥٩٩٠)، ومسلم (٥٠٤٤) و(٥٠٤٥).

(١٣٠٧) تفسير أبي السعود ج: ٧ ص: ١٢٦.

١١٥٦- العلاقة بين الحمد والشكر:

١١٥٧-١- الحمد يقع على صفات الله، ويقع على آلائه ونعمائه:

حمد الله تعالى هو: الثناء عليه باللسان وبالقلب، فيحمده العبد على صفاته لأنها كلها صفات كمال ونعوت جلال، وهذا بصرف النظر عن سبق إحسان على العباد، وإنما هو حمد الله تعالى يستحقه بناء على صفاته الذاتية التي كلها كمالات، فهو محمود لذاته حتى قبل أن يخلق الخلق، وكذلك يحمده العباد على آلائه ونعمائه، فهو المحمود على صفاته، وهو المحمود على آلائه ونعمائه، بينما الشكر يكون على الآلاء والنعماء فقط ولا يكون على الصفات، فلا يقول العبد أشكر الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، ولكن يقول أشكره على آلائه ونعمائه. فالحمد من هذه الجهة أعم من الشكر. وهي جهة ما يقع عليه الحمد وما يقع عليه الشكر فالحمد يقع على الصفات وعلى الآلاء والنعماء جميعاً، بينما الشكر يقع على الآلاء والنعماء فقط

١١٥٨-٢- الشكر يكون بالقلب واللسان، ويكون بالعمل:

وبالمقابل فإن الشكر أعم من الحمد من جهة أنواعه، فإذا كان الحمد لا يكون إلا باللسان والقلب، فإن الشكر يكون بهما وبالجوارح: فشكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بالجوارح، فهو يكون: باللسان ثناء واعترافاً، وبالقلب خضوعاً واستكانة، وبالجوارح نشاطاً في الطاعات والعمل الصالح وانقياداً للأمر والنهي الإلهي وكل ذلك سببه الإحسان والنعم دون الصفات التي يختص بها الحمد.

١١٥٩-٣- ما يشترك فيه الحمد والشكر:

فسبب الحمد الصفات والآلاء والنعماء جميعاً، وسبب الشكر الآلاء والنعماء.

وأنواع الحمد اثنان: حمد باللسان وحمد بالقلب، بينما أنواع الشكر ثلاثة، شكر باللسان، وشكر بالقلب، وشكر بالعمل الصالح.

فالقدر المشترك بين الحمد والشكر هو وقوعهما بالقلب واللسان ثناء على الله تعالى، فهذا قدر مشترك بينهما يتشابهان ويتماثلان فيه.

١١٦٠-٤- ما ينفرد به كل من الحمد والشكر عن الآخر:

وينفرد الحمد بوقوعه وحده على الصفات، كما ينفرد الشكر بوقوعه وحده بالأعمال، فهذا شيء يختلفان فيه.

١١٦١- الحمد يتضمن الشكر فكان أكثر استعمالاً في لسان الشرع:

ولكون الحمد يقع على الصفات الإلهية فقد اكتسب الحمد شرفه العظيم من هنا فهو الثناء الكامل على الله تعالى، ولأنه يتضمن الشكر ويمكن أن يوضع مكان الشكر حيث إنه يشمله ويتضمنه لأن الحمد يكون أيضاً على الآلاء والنعماء، ولا يمكن للشكر أن يوضع مكانه لعدم تعلقه بالصفات، صار كل حامد لله تعالى شاكراً له ضمناً، ولما تقدم من المعاني صار الحمد أكثر استعمالاً في لسان الشرع في كتاب الله وسنة رسوله فقد افتتح كتابه العزيز جل جلاله بالحمد بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكثر ذكره في القرآن إشادة وتعظيماً للصفات الإلهية، وختم القضاء به يوم القيامة ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٧٥].

١١٦٢- قول القرطبي في العلاقة بين الحمد والشكر والعلاقة بينهما:

قال القرطبي: «الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا.. وقيل الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله، وقال الله لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فهي كلمة كل شاكر.

قلت [أي القرطبي]: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد... [والشكر] إنما يكون

مكافأة لمن أولاك معروفاً فصار الحمد أعم في الآية [أي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]] لأنه يزيد على الشكر(١٣٠٨).

١١٦٣- موقف العبد من ممارسة الحمد، والشكر، من الناحية العملية:

وبناء على ما تقدم:

فمن أراد شكر الله تعالى (بالأقوال) على إحسانه وآلائه ونعمه الدينية والدنيوية على العبد فإن صيغ الحمد بالأقوال تغنيه عن صيغ الشكر، وهي أكثر منها وروداً في الكتاب والسنة، وأكثر تداولاً في لسان المؤمنين، فليكثر العبد من استعمالها.

فقد حثنا رسول الله ﷺ عليها فقال: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك،كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها)(١٣٠٩).

وعلمنا ﷺ استعمالها في الذكر والدعاء، فعن ابن عباس قال: (كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت)(١٣١٠).

هذا مع أنه من الحسن استعمال صيغ الشكر في الذكر والدعاء - وسنورد بعضاً منها بعد قليل- حسب رغبة الحامد أو الشاكر بناء على حسن أثرها في نفسه من حيث انفعال قلبه بها، لقوله ﷺ :(ثم ليختر أحدكم من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به)(١٣١١).

(١٣٠٨) تفسير القرطبي ج: ١ ص: ١٣٣-١٣٤.

(١٣٠٩) مسلم (٣٢٨) واللفظ له، والنسائي (٢٣٩٤)، وأحمد(١٧٥٧١)، والدارمي(٦٥١).

(١٣١٠) متفق عليه: البخاري (٦٩٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٢٨٨).

(١٣١١) أبو داود (٨٢٥)

ومن أراد شكر الله (بالأعمال) فأمامه الإكثار من العمل الصالح وأنواع التطوعات من صلاة النافلة وصدقة التطوع وصيام التطوع ونحو ذلك شكراً لله تعالى على نعمه الدينية والدنيوية أخذاً من أن الرسول ﷺ قام الليل حتى تورمت قدماه الشريفتان فلما سئل عن ذلك قال: (أفلا أكون عبدا شكورا)[١٣١٢].

١١٦٤- فضل الشكر ومكانته في القرآن والسنة:

جاء بيان فضل الشكر ومنزلة العباد الشاكرين وثوابهم في القرآن الكريم وفي السنة النبوية. وفيما يلي بعض ما جاء في بيان فضل الشكر في القرآن الكريم، ثم في السنة النبوية:

١١٦٥- أ- فضل الشكر في القرآن الكريم:

١١٦٦- اثنا عشر وجهاً في بيان حسن الشكر وأهميته وثمرته:

١- جاء الأمر بالشكر في القرآن الكريم على سبيل الوجوب، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

٢- وجاء فيه النهي عن ضده وهو كفران النعم، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

٣- وقرن الشكر بالذكر في كتابه - مع أنه قال في الذكر: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] - فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٤- وسمى نفسه شاكراً وشكوراً، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وشرفهم بالانتساب إلى اسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين

(١٣١٢) متفق عليه: البخاري (١٠٦٢) و(٤٤٥٩) و(٥٩٩٠)، ومسلم (٥٠٤٤) و(٥٠٤٥) و(٥٠٤٦).

وفضلاً فقال: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢١]، وقال: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

٥- وجعل الشكر مع الإيمان مانعاً من العذاب، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧].

٦- وأثنى الله تعالى على أنبيائه الشاكرين فقال عن خليله إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

٧- ووعد أهل الشكر بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢].

٨- وقطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فجعله سببا مؤكدا للمزيد من نعمه وفضله وإحسانه على العباد الشاكرين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]. فمتى لم تر حالك في مزيد من منازل الإيمان فاستقبل الشكر.

٩- وبين أن المنتفعين بآياته هم أهل الشكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

١٠- وأهله هم القلة في العالمين وذلك لعلو رتبته فلا ينالها إلا القليل فهم خواص خلقه، قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

١١- وجعل رضا الرب عن عبده بالشكر، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

١٢- وجعل الله الحمد - متضمناً معنى الشكر- مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

١١٦٧- ب - فضل الشكر ومكانته في السنة النبوية:

عن معاذ بن جبل قال: (أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: إني لأحبك يا معاذ، فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : فلا تدع أن تقول في كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[١٣١٣].

وجاء في الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: (رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكاراً، لك ذكاراً، لك رهاباً، لك مطيعاً، إليك مخبتاً، إليك أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي)[١٣١٤].

وقال ﷺ : (من أنعم الله عز وجل عليه نعمة فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه)[١٣١٥] وذلك بشكر الله عليها ونشرها بين الناس وعدم كتمان النعم.

وعن أبي بكرة عن النبي ﷺ : (أنه كان إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خر ساجداً شاكرا لله)[١٣١٦].

وعن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل، قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبي ﷺ وأنا في أثره فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ فقال: (ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة)[١٣١٧].

«وروي عن عطاء أنه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً؟، أتاني ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال: يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي، فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك، فأذنت له، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر

(١٣١٣) النسائي (١٢٨٦) واللفظ له، وأبو داود (١٣٠١)، وأحمد (٧٦٤١).

(١٣١٤) أبو داود (١٢٩١)، وابن ماجة (٣٨٢٠) واللفظ له، وأحمد (١٨٩٣).

(١٣١٥) أحمد (١٩٠٨٧) و (٧٧٥٩).

(١٣١٦) أبو داود (٢٣٩٣).

(١٣١٧) ابن ماجة (١٨٤٦). وأحمد (٢١٤٠١).

صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠][١٣١٨]، وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً... وروي عنه ﷺ أنه قال: (ينادى يوم القيامة: ليقم الحمادون، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة، قيل: ومن الحمادون؟ قال: الذين يشكرون الله تعالى على كل حال)[١٣١٩].. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان»[١٣٢٠].

المطلب الثاني
الركن الثاني في دوام التوبة: الصبر

١١٦٨- لماذا كان الصبر من أهم وسائل دوام التوبة:

قد علمت من خلال كلامنا عن طبقات التائبين أنهم - من أجل دوام توبتهم - يحتاجون إلى الصبر بدرجات متفاوتة:

فمن تائب حولت التوبة نفسه إلى نفس مطمئنة، شاكرة، ذاكرة، قد حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فأصبحت حاجته إلى الصبر أقل من غيره لأن الطاعات صارت قرة عين له والمعاصي لا تنازعه نفسه إليها إلا نادراً فيردها بسهولة ويسر.

(١٣١٨) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فقالت: وأي أمره لم يكن عجباً الحديث في بكائه في صلاة الليل أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ، ومن طريقة ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى ابن أبي حية ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجباً، وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث.

(١٣١٩) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون الحديث أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور، وفي لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٣٢٠) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٨١.

ومن طبقات أخرى من التائبين تنازعهم أنفسهم إلى الشهوات التي تابوا منها بدرجات متفاوتة، وأحوالهم متفاوتة أيضاً في الصبر عنها، على نحو ما أوردناه عند الكلام عن أقسام العباد في دوام التوبة، وهؤلاء إن لم يلجؤوا إلى الصبر ويعتصموا به فقد تغلبهم شهواتهم فيعودون إلى الذنب، فمن هنا كان الصبر من أعظم الوسائل التي تعين التائب على دوام توبته ولزومها إلى آخر العمر.

١١٦٩- تعريف الصبر عند العلماء [١٣٢١]**:**

ذكر العلماء تعاريف عديدة للصبر منها[١٣٢٢]:

قول ابن القيم: الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وقال الجنيد وقد سئل عن الصبر: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال ذو النون المصري: الصبر: التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقيل: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

(١٣٢١) كلامنا في مبحث الصبر مختص بالصبر الحق، أي الصبر المشروع، وهو الصبر على فعل الواجبات، والصبر على ترك المحرمات، والصبر عند المصيبة، فهذا النوع من الصبر هو الذي نقصده عند إطلاق كلمة الصبر، وقد أجمع العلماء على وجوبه، ومنه ما هو مندوب كالصبر على فعل المندوبات والصبر على ترك المكروهات، وضابط ذلك: أنه الصبر المثاب عليه في الإسلام. أما الصبر الممنوع أي المحرم فلا يدخل معنا في كلامنا عن الصبر، ومثاله الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت جوعاً، أو قطع يده حتى يموت، أو تعريض نفسه للهلاك عاصياً عامداً حتى يموت، ونحو ذلك، وضابطه تحمل المشقة والمعاناة على فعل محرم في الإسلام. والحق أن مثل هذا التحمل هو استسلام واستجابة لهوى النفس، والصبر الحق في هذا الموضع هو الصبر على عدم الاستجابة لهذا الهوى ومقاومته وقمعه، فذلك هو الصبر.

(١٣٢٢) انظر هذه التعاريف وغيرها في: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٥٦ — ١٥٩ .

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجباً كيف يصبرون؟ وأنشد:

الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

وقيل: الصبر هو الاستعانة بالله.

وقيل: هو ترك الشكوى.

وفي جامع العلوم والحكم: الصبر:كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع(١٣٢٣).

ومما تقدم يتضح أن أقرب التعاريف إلى جمع معاني الصبر وأنواعه هو تعريف ابن القيم، أما التعاريف الأخرى فإنها عرفت الصبر بركن من أركانه أو أثر من آثاره، أو اقتصرت على نوع من أنواعه.

١١٧٠- تعريفنا للصبر:

وإذا كان لنا أن نجتهد في صياغة تعريف للصبر نقصد به أن يكون جامعاً مانعاً فإننا نقدم التعريف الآتي:

الصبر: هو حبس النفس عن الشكوى لغير الله، وحملها على تحمل المشقة والمعاناة الناشئة من تغليب باعث الدين على باعث الهوى بإلزام النفس فعل المأمورات وترك المحظورات، وعدم التبرم بالابتلاء .

١١٧١- أنواع الصبر:

والصبر ثلاثة أنواع:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وهذان يتعلقان بكسب العبد، إذ عليه أن يصبر على فعل القربات ويصبر على تلك المحظورات، وأيضاً وصبر على قضاء الله وقدره، وهذا وقوعه ليس من فعل العبد أو كسبه كالمصائب الخارجة عن إرادته إلا أن الصبر عليها هو من فعل العبد وكسبه.

(١٣٢٣) جامع العلوم والحكم ج: ١ ص: ١٩٥.

١١٧٢-١- الصبر على طاعة الله:

فالصبر على طاعة الله تعالى، يكون بالصبر على التكاليف الشرعية من الفرائض سواء أكانت عبادات بدنية كالصلاة والصيام، أو عبادات مالية كالزكاة، أو عبادات مركبة من مالية وبدنية كالحج فكلها فيها مشقات معلومة وكلها مقدورة للعبد ولا يوجد في الشريعة تكليف بغير المقدور، وكذلك الصبر على النوافل وأنواع التطوعات، فكلها محتاج أداؤها إلى الصبر عليها إلى آخر العمر قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ [طه: ١٣٢]، وتقل حاجة العبد إلى الصبر على العبادات عندما تكون هذه العبادات قرة عين لصاحبها، قال ﷺ بشأن الصلاة: (أرحنا بها يا بلال)[١٣٢٤]، وقال: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[١٣٢٥].

١١٧٣-٢- الصبر عن معصية الله:

والصبر عن معصية الله تعالى: يكون بمقاومة منازعة النفس إلى الشهوات والتغلب عليها بالصبر على نحو ما سنشرحه بعد قليل.

١١٧٤-٣- الصبر على قضاء الله وقدره:

والصبر على قضاء الله وقدره: فإن العبد معرض للابتلاء في نفسه وأهله وماله، فيحتاج إلى الصبر في ذلك[١٣٢٦] وإلى أن يدفع قدر الله تعالى بقدر الله، صابراً على قضائه

(١٣٢٤) أبو داود (٤٣٣٣).

(١٣٢٥) النسائي (٣٨٧٨) وأحمد (١١٨٤٥)

(١٣٢٦) وهذا النوع من الصبر على البلاء ينافي الشكوى إلى الخلق ولا ينافي الشكوى إلى الله تعالى قال ابن القيم: «والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبي إذا وعد لا يخلف ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وإنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

(انظر مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٦١).

وقدره، راضياً به، دافعاً إياه بممارسة الأسباب حسب الأمر والنهي الإلهي(١٣٢٧).

وعلى ذلك فالصبر من حيث متعلقه ثلاثة أنواع: فصبر على الطاعة حتى يؤديها، وصبر عن المعصية حتى لا يقع فيها، وصبر على المصيبة حتى لا يتسخطها.

١١٧٥- نموذج عال في الصبر عن المعصية:

قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكاً والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي

(١٣٢٧) وهناك تقسيم آخر لبعض العلماء يذكرونه عند كلامهم عن أنواع الصبر كقول ابن القيم عن هذا التقسيم إن الصبر ثلاثة أنواع أيضاً: « صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله:
فالأول: الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.
والثاني: الصبر لله: وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.
والثالث: الصبر مع الله: وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين » (انظر: ابن القيم: مدارج السالكين: ج:٢ ص: ١٥٧)، ومن ذلك قولهم: الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. (انظر: الغزالي: إحياء علوم الدين:ج:٤ ص:٨٠). ووقف رجل على الشبلي فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله، قال السائل: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، قال الشبلي: فإيش هو؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف » (انظر: مدارج السالكين:ج:٢ ص:١٥٩).

الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[(١٣٢٨)].

١١٧٦- قول الغزالي في بيان حقيقة الصبر وثمرته :

قدم الإمام الغزالي شرحاً تفصيلياً في بيان حقيقة الصبر في كلام طويل نقتطف منه ما يأتي، قال: «... كما أن (نور الهداية) أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر، فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها (باعثاً دينياً)، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها (باعث الهوى)، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى، فالصبر: عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة، فإذا قوي يقينه، أعني المعرفة التي تسمى إيماناً، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة، وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها..»[(١٣٢٩)].

(١٣٢٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٥٦- ١٥٧.

(١٣٢٩) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٦٣.

١١٧٧- بيان فضل الصبر في القرآن والسنة:

١١٧٨- أولاً - فضل الصبر في القرآن الكريم:

أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر في كتابه العزيز أمراً جازماً على سبيل الوجوب، فكان ذلك مستند إجماع العلماء على وجوبه فيما يتعلق بفعل الواجبات وترك المحرمات، والصبر على المصائب، وذكر الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً(١٣٣٠) ووصف الله تعالى الصابرين بأوصاف حسنة كثيرة، وأضاف أكثر الدرجات العالية والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة من ثمراته. ونقدم فيما يلي عشرين وجهاً من الوجوه المهمة المتعلقة بالصبر:

١١٧٩- عشرون وجهاً مما جاء في القرآن الكريم في حسن الصبر وأهميته وثمراته:

١- **الأمر به على سبيل الوجوب**: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢- **النهي عن ضده وهو ترك الصبر**: قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥] ومعلوم أن تولية الأدبار هي من قبيل ترك الصبر والمصابرة، وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فإن الوهن إنما هو نتيجة لعدم الصبر.

٣- **الثناء على أهل الصبر ووصفهم بالصدق والتقوى**: قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال في معرض الثناء على المؤمنين بصفاتهم بادئاً إياها بالصبر: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] وقد ورد الثناء على أهل الصبر في القرآن كثيراً.

(١٣٣٠) أحصيتها من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمؤلفه محمد فؤاد عبد الباقي: ص: ٥٠٧ وما بعدها.

٤- **وأوجب الله تعالى معيته للصابرين:** فهو معهم لا يتركهم لتدبيرهم ولا يكلهم لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهذه معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ورعايتهم والعناية بهم، وهي غير المعية العامة للخلق كلهم كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة: ٧]، فهذه معية العلم والإحاطة، وتلك معية النصر والرعاية والتأييد والحفظ.

٥- **إخباره بأن الصبر خير لأصحابه:** قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٢٥].

٦- **إطلاق البشرى لأهل الصبر:** قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٧- **ضمان النصر والمدد للصابرين:** قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر).

٨- **الإخبار بأن الصبر سبب للغلبة على الكافرين ولو كان عددهم الضعف:** قال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

٩- **الإخبار بأن الصبر ومعه التقوى يكون دافعاً لضرر كيد الكافرين:** قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١٠- **الإخبار بأن الصبر مضافاً إلى التقوى يوصل إلى مرتبة الإحسان:** قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام لأخوته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

١١- **الإخبار بأن أهل الصبر هم أهل العزائم**: قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

١٢- **الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر**: قال تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

١٣- **الإخبار بأن أهل الصبر الحق هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر**: قال تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وقال في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

١٤- **الإخبار من الله تعالى بأن الفوز العظيم بدخول جنات النعيم إنما نالوه بالصبر**: قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، وقال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

١٥- **واستثنى الله تعالى الصابرين في نوع الجزاء الحسن فجعله في مستوى أحسن الأعمال الصالحة التي عملوها في حياتهم**: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

١٦- **وجعل أجر الصابرين مضاعفاً**: فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤].

١٧- **وجعل أجرهم أيضاً بغير حساب:** فقال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، فما من عمل صالح إلا وأجره في الميزان يوم القيامة مقدر معلوم بحساب ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] إلا الصبر فإن أجره يصب في الميزان يوم القيامة صباً بغير حساب، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى في الحديث القدسي (الصوم لي وأنا أجزي به)(١٣٣١) فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات.

١٨- **وجعل الصبر سبباً لأن تتم كلمة الله الحسنى على عباده المؤمنين، وتنصيبهم أئمة يهدون بأمر الله:** قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وبين أن الصبر واليقين يورث أهله الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، والآيتان واردتان بحق الفئة المؤمنة المسلمة من قوم موسى عليه السلام دون غيرهم ممن قتلوا الأنبياء بغير حق، ومن لعنه الله وجعل الله تعالى منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، ومن قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٩٠].

١٩- **وجمع للصابرين بين منح وعطايا لم يجمعها لغيرهم:** فقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فجعل صبرهم سبباً لمنحهم الهدى والرحمة والصلوات مجتمعة، ومعنى الهدى والرحمة معروف، أما صلوات الله تعالى عليهم فاعرف معناها من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٢٠- **اقتران الصبر في القرآن بالمقامات العالية:** فهو يأتي مقروناً بالإسلام، والإيمان، والإحسان، كما قرنه الله سبحانه باليقين، وبالتقوى، والتوكل، وبالشكر، والعمل

(١٣٣١) متفق عليه: البخاري (٦٩٣٨)، ومسلم (١٩٤٦).

الصالح، والرحمة، ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وجاء في الأثر أن (الصبر نصف الإيمان)[1332].

«وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه: بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، [قال ابن القيم]: فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه»[1333].

وهذا الذي أوردناه من آيات التنزيل العزيز بشأن الصبر إنما هو على سبيل التمثيل الواسع لا الحصر، لأن مقصودنا بيان فضل الصبر وليس الاستقصاء.

١١٨٠- ثانياً - فضل الصبر في السنة النبوية:

قد جاء في السنة النبوية الفعلية والقولية الشيء الكثير الذي يدل على فضل الصبر ومنزلته في الإسلام.

١١٨١- أ- فضل الصبر في السنة الفعلية:

ففي السنة الفعلية:كانت حياة النبي ﷺ حافلة بالصبر، والناظر في السيرة النبوية يجدها كلها صبر، فهو يتنقل من صبر إلى صبر على الطاعة والدعوة والإيذاء والجهاد والبلاء، صابراً لحكم الله، صابراً لله، صابراً مع الله، فكل أنواع الصبر التي دعا إليها القرآن كانت متمثلة في صبره ﷺ ، وعلى ذلك فالسنة الفعلية في الصبر أوسع بكثير من السنة القولية التي أمر فيها بالصبر في مناسبات معينة.

(١٣٣٢) البيهقي: كتاب الزهد الكبير ج: ٢ ص: ٣٦١ ونصه: عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: (الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله) قال البيهقي: تفرد به يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد والصحيح المعروف أن هذا من قول ابن مسعود. وعلق ابن حجر العسقلاني عليه قائلاً: وهذا موقوف صحيح رواه الحاكم في المستدرك من حديث الأعمش مختصراً، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن علي بن زيد الصائغ عن سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن الأعمش به فوقع لنا عالياً، وقد روي مرفوعاً من وجه لا يثبت. (انظر: تغليق التعليق: لابن حجر العسقلاني ح:٢ ص:٢٢) [قلت: فالصواب أنه من قول ابن مسعود ﷺ فيكون موقوفاً، والله أعلم].

(١٣٣٣) ابن القيم: مدارج السالكين: ج٢ ص:١٥٩.

١١٨٢- ب - فضل الصبر في السنة القولية:

سنكتفي هنا بشذرات مما ورد في السنة القولية في بيان فضل الصبر على سبيل التمثيل لا الحصر:

فمما ورد في السنة القولية :

١- أخبر النبي [ﷺ] في الحديث الصحيح أن الصبر (ضياء). جاء في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها)(١٣٣٤).

٢- وأخبر ﷺ أن العبد إذا بادر إلى الصبر فإن الله تعالى يمده بالصبر فيصبره،. فقد جاء في الحديث الذي في الصحيحين: (ومن يتصبر يصبره الله). ونص الحديث: (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)(١٣٣٥).

٣- وفي الحديث الصحيح: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(١٣٣٦).

٤- ووعد النبي ﷺ المرأة السوداء التي كانت تصرع وسألته أن يدعو لها، بأن لها الجنة إن صبرت كما جاء في الصحيح: (عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة،

(١٣٣٤) مسلم (٣٢٨)، وأيضا: النسائي(٣٢٩٤)، وابن ماجة (٢٧٦)، وأحمد (٢١٨٢٨).

(١٣٣٥) متفق عليه: البخاري(١٣٧٦)، ومسلم (١٧٤٥). واللفظ للبخاري.

(١٣٣٦) مسلم (٥٣١٨) واللفظ له، وأحمد (١٨١٧١).

وإن شئت دعوت الله أن يعافيك، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها)[١٣٣٧].

٥- وأمر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض.

٦- وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى.

٧- وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر، والاحتساب فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكى يزيد في المصيبة ويذهب الأجر.

٨- وأخبر أن الصبر خير كله كما جاء في الصحيحين - وقد ذكرناه قبل قليل - قوله ﷺ: (ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر)[١٣٣٨].

٩- ودعا الأعمى إلى الصبر حين سأله أن يدعو الله له ليرد عليه بصره، ففي الحديث الشريف عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في»[١٣٣٩].

(١٣٣٧) متفق عليه: البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٤٦٧٣).

(١٣٣٨) متفق عليه: البخاري(١٣٧٦)، ومسلم (١٧٤٥).

(١٣٣٩) سنن الترمذي ج: ٥ ص: ٥٦٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. قال صاحب تحفة الأحوذي: « قال الطيبي: أسند النبي [ﷺ] الدعاء إلى نفسه وكذا طلب الرجل أن يدعو هو، ثم أمره أن يدعو هو أي الرجل، كأنه لم يرض منه اختياره الدعاء لما قال الصبر خير لك، لكن في جعله شفيعاً له ووسيلة في استجابة الدعاء ما يفهم أنه شريك فيه. فيحسن الوضوء، أي يأتي بكمالاته من سننه وآدابه،... وأخرجه النسائي وزاد في آخره فرجع وقد كشف الله عن بصره، وأخرجه أيضا ابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه: فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر، وأخرجه الطبراني...قال الطبراني... والحديث صحيح كذا في الترغيب، وقال الإمام ابن تيمية في رسالته التوسل والوسيلة بعد ذكر حديث عثمان بن حنيف هذا ما لفظه: وهذا الحديث، حديث الأعمى، قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره...» (انظر تحفة الأحوذي: ج ١٠ ص: ٢٤-٢٥). قلت: =

١٠- وحث على الرباط في العبادة وهو من أعلى أنواع الصبر فقال: (ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)(١٣٤٠).

١١- ومثله الرباط في الجهاد من حيث الصبر، قال ﷺ فيما رواه البخاري: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)(١٣٤١)، وفي صحيح مسلم: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)(١٣٤٢).

١٢- وفي كتاب الأدب للبخاري: (سئل رسول الله [ﷺ] عن الإيمان فقال: (الصبر والسماحة) ذكره عن موسى بن إسماعيل قال: حدثنا سويد قال:حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده فذكره. وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها، فإن النفس يراد منها شيئان : بذل ما أمرت به وإعطاؤه فالحامل عليه السماحة، وترك ما نهيت عنه والبعد منه فالحامل عليه الصبر(١٣٤٣).

١١٨٣- قول ابن القيم في درجات الصبر وما يعين على الصبر في كل منها:

جاء في «مدارج السالكين» في بيان درجات الصبر أنه على ثلاث درجات، وفيما يلي شرح ابن القيم لما أورده صاحب «منازل السائرين» بشأن الدرجات الثلاث، مع بيان ما الذي يعين على الصبر أو يوجده في كل واحدة منها، نورده - مشذباً - مع المحافظة على عبارتها، قال ابن القيم(١٣٤٤):

= وإيراد المصنفين للحديث في دلائل النبوة يعني أن هذه الواقعة هي واحدة من معجزات النبي ﷺ الدالة على صدق نبوته ﷺ.

(١٣٤٠) مسلم (٣٦٩)، والنسائي (١٤٣) وفيه ذكر فذلكم الرباط ثلاث مرات، ومثله ثلاث مرات في مسند أحمد (٧٦٧٨) وفي موطأ مالك (٣٤٨).

(١٣٤١) البخاري (٢٦٧٨).

(١٣٤٢) مسلم (٣٥٣٧).

(١٣٤٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٦٠ .

(١٣٤٤) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٦٤-١٦٨ .

«قال: وهو على ثلاث درجات:

١١٨٤- أ- الدرجة الأولى من الصبر:

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء على الإيمان وحذراً من الحرام، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء.

ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين.

أما السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها، والثاني الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه، وأن يبارز بالعظائم.

وأما الفائدتان: فالابقاء على الإيمان، والحذر من الحرام.

فأما مطالعة الوعيد والخوف منه: فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر والتصديق بمضمونه.

وأما الحياء: فيبعث عليه قوة المعرفة ومشاهدة معاني الأسماء والصفات، وأحسن من ذلك أن يكون الباعث عليه وازع الحب فيترك معصيته محبة له...

وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان يبعث على ترك المعصية لأنها لا بد أن تنقصه أو تذهب به أو تذهب رونقه وبهجته أو تطفىء نوره أو تضعف قوته أو تنقص ثمرته، هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان، يعلم بالوجود، والخبر، والعقل،كما صح عنه: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن، فإياكم إياكم والتوبة معروضة بعد)[١٣٤٥] وأما الحذر عن الحرام: فهو الصبر عن كثير من المباح حذراً من أن يسوقه إلى الحرام.

ولما كان الحياء من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية، كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف، ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه، ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمن وازَعَه الخوفُ: قلبُه حاضر مع العقوبة، ومن وازَعَه الحياءُ: قلبُه حاضر مع الله، والخائف مراع جانب نفسه

(١٣٤٥) متفق عليه: البخاري (٦٣١٢)، ومسلم (٨٧).

وحمايتها، والمستحيي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان، غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

١١٨٥- ب - الدرجة الثانية من الصبر:

قال: الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دواماً، وبرعايتها إخلاصاً، وبتحسينها علماً...

وذكر الشيخ: أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة، والإخلاص فيها، ووقوعها في مقتضى العلم وهو تحسينها علماً، فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة، فإن العبد إن لم يحافظ عليها دواماً عطلها، وإن حافظ عليها دواماً عرض لها آفتان: إحداهما: ترك الإخلاص فيها بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله وإرادته والتقرب إليه فحفظها من هذه الآفة برعاية الإخلاص، الثانية: ألا تكون مطابقة للعلم بحيث لا تكون على اتباع السنة، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة،كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة، فلذلك قال: بالمحافظة عليها دواماً، ورعايتها إخلاصاً، وتحسينها علماً.

١١٨٦- ج - الدرجة الثالثة من الصبر:

قال: الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن وبذكر سوالف النعم.

١١٨٧- ثلاثة أشياء تعين في الصبر على البلاء:

هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء:

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض، وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة، وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل وإنما خاصة العقل تلمح العواقب ومطالعة الغايات...والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: انتظار روح الفرج، يعني راحته ونسيمه ولذته، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف وما هو فرج معجل، وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف.

والثالث: تهوين البلية بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال، وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء، ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت فانقطعت إصبعها فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها، إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام من ملاحظة المبتلي ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء، وتلذذها بالشكر له، والرضا عنه، ومقابلة ما جاء من قبله بالحمد والشكر، كما قيل:

لـئن سـاءني أن نلتنـي بمـساءة   فقـد سرني أني خطـرت ببالكـا»[١٣٤٦]

ومما له علاقة وثيقة بالتوبة ودوامها، وهو موضوعنا، هو عدم معاودة الذنب أو الذنوب التي تاب منها، وهذا محتاج إلى مزيد من البيان لكيفية علاج الشهوة والصبر عنها. فإن الذي يوقع الناس في الذنوب أمران: الغفلة، والشهوة، فإذا زالت الغفلة وحلت محلها اليقظة فأصبح تائباً بسبب اليقظة، فقد بقي بعد ذلك ضرورة علاج الشهوة، وإنما تعالج الشهوة بالصبر.

١١٨٨- قول الغزالي في علاج الشهوة بالصبر:

قال الإمام الغزالي في علاج الشهوة بالصبر: «وطريق علاجها... حاصله: أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره، ثم يغيب ذلك

(١٣٤٦) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ١٦٤-١٦٨.

عن عينه فلا يحضره، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بد على كل حال من مرارة الصبر، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه، بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته.

ومهيج الشهوة من خارج: هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة.

ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر.

ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد.

١١٨٩- فائدة حضور مجالس الذكر لتحصيل العلم ثم الخوف ثم الصبر:

فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء، واستشعر الخوف فاتقى، وانتظر الثواب، وصدق بالحسنى، فسييسره الله تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ...

١١٩٠- الصبر عن الذنب راجع في النهاية إلى الإيمان:

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله، وهو الإيمان، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية

سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور...»[(١٣٤٧)].

١١٩١- قول الغزالي في كيفية ممارسة الصبر عملياً:

بين الغزالي كيفية ممارسة الصبر عمليا واستعماله دواء لما يحتاج إلى الصبر فقال تحت عنوان: بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه[(١٣٤٨)]:

«اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها، واستيفاء ذلك مما يطول.

١١٩٢- أمثلة على كيفية ممارسة الصبر عملياً:

ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع - مثلاً - وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ ما تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة.

١١٩٣- تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة:

فنقول: قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين إن أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

(١٣٤٧) إحياء علوم الدين ج: ٤ ص:٥٦-٥٧ وقد أوردنا تلك الأمور التي هي سبب الوقوع في الذنب سابقاً أثناء الكلام على الباعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة فلم نر إعادتها هنا منعاً للتكرار.

(١٣٤٨) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:٧٥-٨٠.

١١٩٤- أ- تضعيف باعث الشهوة ووسائله:

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن تنظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة، من حيث نوعها، ومن حيث كثرتها، فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الأفطار على طعام قليل في نفسه، ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة، إذ النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل: بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، والفرار منها بالكلية، قال رسول الله ﷺ: (النظرة سهم من سهام إبليس)[١٣٤٩] وهو سهم يسدده الملعون، ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه، فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور، فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه، وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه.

وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال، ولذلك قال ﷺ: (عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء)[١٣٥٠]...

(١٣٤٩) المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٣٤٩، ولفظه: عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر أيضاً: المعجم الكبير ١٠/ ١٧٣، ومسند الشهاب ١/ ١٩٥، والترغيب والترهيب ٣/ ٢٣، ونوادر الأصول ٣/ ١٨١، وحلية الأولياء ٦/ ١٠١، وميزان الاعتدال ١/ ٣٤٦، وكشف الخفاء ٢/ ٤٣٧.

(١٣٥٠) النسائي (٢٢٠٧) واللفظ له، والنسائي أيضاً بلفظ: من استطاع منكم الباءة فليتزوج (٢٢٠٨)، والحديث (متفق عليه) بلفظ (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء): البخاري (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٤٨٥).

١١٩٥- ب - تقوية باعث الدين ووسائله:

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر، وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وفي الأثر إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان، فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي، قوي باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً، وإن ضعف، ضعفه، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين، وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً، قليلاً قليلاً، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيستجرئ عليها، وتقوى متنه في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين، وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأول: يضاهي إطماع المصارع بالخلعة[١٣٥١] عند الغلبة، ووعده بأنواع الكرامة، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه متنه.

فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين، ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت.

ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

(١٣٥١) أي الجائزة أو العطية أو المكافأة.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر...

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس، وعن الشهوة، وعن الجاه، أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات(١٣٥٢) فاتخذه دستورك، لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول.

١١٩٦- الصبر أولاً.. ثم يصير المحبوب من الشهوات مكروها ومشقة الطاعات مشربا هنيئا:

ومن راعى التدريج [مع الجزم في إلزام النفس] ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه، كما كان يشق عليه معه، فتنعكس أموره، فيصير ما كان محبوباً عنده [من الشهوات والمعاصي] ممقوتاً، وما كان مكروهاً عنده [أو شاقاً من الصبر على مداومة الطاعات] مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق، وله نظير في العادات: فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً فيشق عليه الصبر عن اللعب، والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم، انقلب الأمر، فصار يشق عليه الصبر عن العلم، والصبر على اللعب.

١١٩٧- الصبر المحمود.. حين يثمر صبراً أعظم منه:

وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر، أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله.

وقيل: الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

(١٣٥٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (كتاب رياضة النفس) وهو ضمن « ربع المهلكات » من المصنف المذكور.

وقيل أيضاً:

الصبر يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل[١٣٥٣]

١١٩٨- قول ابن القيم في الصبر عن المعصية وأسبابه:

قال ابن القيم[١٣٥٤]: «الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

١١٩٩- عشرة أسباب ينشأ عن كل منها الصبر عن المعصية:

١٢٠٠- أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها:

وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

١٢٠١- السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه:

فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع وكان حيياً استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه.

١٢٠٢- السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك:

فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمه حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، [وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]]، وأعظم النعم: الإيمان، وذنب الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وانتهاب النهبة، يزيلها ويسلبها، وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة، وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن، وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

(١٣٥٣) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:٧٤-٨٠ (مع التشذيب والاختصار).

(١٣٥٤) ابن القيم: طريق الهجرتين: ج: ١ ص: ٤٠٨-٤١٤.

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

١٢٠٣- السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه:

وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به، وبكتابه، وبرسوله، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال بعض السلف: كفى بخشية الله علماً، والاغترار بالله جهلاً.

١٢٠٤- السبب الخامس: محبة الله:

وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده، وفي هذا قال عمر: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، يعني: أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته، فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه، وههنا لطيفة يجب التنبه لها وهي: أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها، ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك: تجردها عن الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده، أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

١٢٠٥- السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها:

وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع من قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة.

١٢٠٦- السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها:

والضرر الناشئ منها، من سواد الوجه، وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعريه من

زينته، والحيرة في أمره، وتخلي وليه وناصره عنه، وتولي عدوه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعداً له عنه، ونسيان ما كان حاصلاً له أو ضعفه ولا بد، ومرضه الذي إذا استحكم به فهو الموت ولا بد، فإن الذنوب تميت القلوب.

ومنها ذله بعد عزه.

ومنها أنه يصير أسيراً في يد أعدائه بعد أن كان ملكاً متصرفاً يخافه أعداؤه.

ومنها أنه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج فلا رعيته تطيعه إذا أمرها ولا ينفذ في غيرهم.

ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة فأخوف الناس أشدهم إساءة.

ومنها زوال الأنس والاستبدال به وحشة وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة.

ومنها زوال الرضا واستبداله بالسخط.

ومنها زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده واستبداله بالطرد والبعد منه.

ومنها وقوعه في بئر الحسرات فلا يزال في حسرة دائمة، كلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعاف أضعاف ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه، فيا لها ناراً قد عذب بها القلب في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

ومنها فقره بعد غناه، فإنه كان غنياً بما معه من رأس مال الإيمان وهو يتجر به ويربح الأرباح الكثيرة، فإذا سلب رأس ماله أصبح فقيراً معدماً، فإما أن يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير، وإلا فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله.

ومنها نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه ومنها ضعف بدنه.

ومنها زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة، فتبدل بها مهانة وحقارة.

ومنها حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس.

ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض منه ولا يعود إليه أبداً.

ومنها طمع عدوه فيه وظفره به، فإنه إذا رآه منقاداً مستجيباً لما يأمره اشتد طمعه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق.

ومنها الطبع والرين على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب منها صقل قلبه، وإن أذنب ذنبا آخر نكت فيه نكتة أخرى، ولا تزال حتى تعلو قلبه، فذلك هو الران، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد.

ومنها أن تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة، فإن القلب لا يزال مشتتاً مضيعاً حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها إعراض الله وملائكته وعباده عنه. فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده،كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه.

ومنها أن الذنب يستدعي ذنبا آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثاً، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعاً، وهلم جراً حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته، قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

ومنها علمه بفوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا ولذة ما في الآخرة،كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا.

ومنها علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه في قبره وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها، وأعمال الفجور تهوي به وتجذبه إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث يستقر به، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها، وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى، وقامت بين يديه فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق، فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلى خربة موحشة هي مأوى اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئا من متاعه؟.

ومنها أنه بالمعصية قد تعرض لمحق بركته.

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته، وفي بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: (من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟).

١٢٠٧- السبب الثامن: قصر الأمل:

وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

١٢٠٨- السبب التاسع: مجانبة الفضول:

في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات فإنها تطلب لها مصرفاً فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه فإن النفس لا تقعد فارغة بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

١٢٠٩- السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب:

فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم، ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط.

فإذا قوي سراج الإيمان في القلب وأضاءت جهاته كلها به وأشرق نوره في أرجائه سرى ذلك النور إلى الأعضاء وانبعث إليها فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته، فهو كل وقت يترقب داعيه ويتأهب لموافاته، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، ومن أقوى أسبابها: الإيمان، والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه» (١٣٥٥).

والآن وقد انتهينا - في هذا المبحث الأول - من الكلام في حال التائب بعد توبته وهي حال الإنابة وبينا أهمية الشكر والصبر بوصفهما أهم أركان دوام التوبة، لأن التوبة لا يمكن أن تدوم وتستمر إلى آخر العمر بدون الشكر والصبر، وشرحناهما مبينين أثر كل منهما في دوام التوبة، يمكننا أن نتحول في المباحث التالية إلى الكلام عن الوسائل الباقية الأخرى التي تعين التائب على دوام توبته إلى آخر العمر، وذلك في المبحث الثاني وما بعده.

(١٣٥٥) ابن القيم: طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٤٠٨- ٤١٤.

المبحث الثاني
لزوم الاستغفار والمواظبة عليه

١٢١٠- تمهيد وتقسيم :

لزوم الاستغفار والمداومة عليه هو الوسيلة الأخرى من الوسائل التي تعين التائب على دوام توبته إلى آخر العمر، وقد نبهنا سابقاً إلى أن جميع الوسائل التي تكلمنا عنها والتي سيأتي الحديث عنها تهم التائب، وتهم غير التائب أي المسلم المخلط الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهي بالنسبة للتائب تزيد في حسناته وتعينه على دوام توبته إلى آخر العمر، وبالنسبة لغير التائب تعد من أنواع العمل الصالح الذي يرجو به العبد أن تزيد حسناته على سيئاته في الميزان يوم القيامة.

والتائب وقد رجع إلى الله تعالى بعد الشرود، وعلم أن الله فرح بتوبته، وفرح هو بتوبته، وصار حاله الإنابة إلى ربه تعالى، متلبساً بالشكر، مستعيناً بالصبر، يصير أحب شيء إليه دوام الطلب من الله تعالى أن يغفر له جميع ما مضى من ذنوبه وأن يسامحه عليها ويعفو عنها ويقيه شرها وآثارها في الدنيا والآخرة، وهو يمارس الاستغفار أداة ووسيلة من أجل هذه الغاية، قال ﷺ : (الاستغفار ممحاة للذنوب)[١٣٥٦] قال القرطبي: «قال الفضيل: يقول العبد: أستغفر الله، وتفسيرها: أقلني»[١٣٥٧].

وقد قدمنا في مباحث سابقة أن الاستغفار المصحوب بالندم والعزم على الإقلاع عن الذنب هو في الحقيقة توبة، أما الاستغفار المجرد غير المصحوب بذلك فإنه دعاء بالمغفرة شأنه شأن أي دعاء يدعو العبد به ربه تبارك وتعالى.

(١٣٥٦) الفردوس بمأثور الخطاب (٤٢٨)، من حديث حذيفة. وفي التمهيد لابن عبد البر عن أبي المنذر الجهني قال: قلت يا رسول الله ما أفضل الكلام؟ قال: يا أبا المنذر قل:لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير مائة مرة في يوم، فإنك إذا قلت ذلك في يوم فأنت أفضل الناس عملاً إلا من قال مثل مقالتك، وأكثر من سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تنس الاستغفار في صلاتك فإنها ممحاة للخطايا رحمة من الله) (ج:٦ ص:٥٢). وانظر أيضاً «الإصابة» برقم (١٠٥٧٥) ج:٧ ص:٣٨٧.

(١٣٥٧) تفسير القرطبي ج: ١٨ ص: ٣٠١.

ونحن في هذا المبحث سنتناول موضوع الاستغفار:

١- من جهة تعريفه وبيان صلته بالتوبة وبالدعاء، مع بيان حاجة التائب وغير التائب إلى الاستغفار وبيان فضله، وذلك في مطلب أول.

٢- ثم نتكلم في مطلب ثان عن صيغ الاستغفار، مبينين صيغه في القرآن الكريم، ثم في السنة النبوية، ومتناولين بيان أنواعه ومناسباته وأوقاته.

٣- وأخيراً نتكلم في مطلب ثالث عن أهم الأحكام المتعلقة بالاستغفار وبخاصة حكم الاستغفار من غير التائب (المسلم المخلط) مرجحين صحته وضرورته له وانتفاعه به، والله المستعان.

المطلب الأول
تعريف الاستغفار وبيان صلته بالتوبة وبالدعاء والحاجة إليه وفضله

١٢١١- أولاً - التعريف بالاستغفار لغةً وشرعاً:

الاستغفار في اللغة: طلب المغفرة بالمقال والفعال. وعند الفقهاء: سؤال المغفرة كذلك. والمغفرة في الأصل: الستر، ويراد بها التجاوز عن الذنب وعدم المؤاخذة به، وأضاف بعضهم: إما بترك التوبيخ والعقاب رأساً، أو بعد التقرير به فيما بين العبد وربه. ويأتي الاستغفار بمعنى الإسلام. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] أي يسلمون قاله مجاهد وعكرمة. كذلك يأتي الاستغفار بمعنى الدعاء، ويأتي بمعنى التوبة[١٣٥٨].

(١٣٥٨) الموسوعة الفقهية: ٣٤-٣٥. وجاء في تفسير زاد المسير: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]: وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال:

أحدها: وما كان الله معذب المشركين وفيهم من قد سبق له أن يؤمن رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس واختاره الزجاج.

والثاني: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون الله فإنهم كانوا يلبون ويقولون غفرانك وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً وفيه ضعف لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول.

والثالث: وما كان الله معذبهم يعني المشركين وهم يعني المؤمنين الذين بينهم يستغفرون روي عن ابن عباس أيضاً وبه قال الضحاك وأبو مالك قال ابن الأنباري وصفوا بصفة بعضهم =

١٢١٢- ثانيا - صلة الاستغفار بالتوبة:

قلنا سابقاً إن الاستغفار المصحوب بالندم مع الإقلاع والعزم على عدم العودة إلى الذنب هو توبة، وإن الاستغفار المجرد غير المصحوب بالندم هو دعاء بالمغفرة.

فالاستغفار والتوبة يشتركان في أن كلاً منهما رجوع إلى الله سبحانه: الاستغفار رجوع إلى الله طلباً ودعاء، والتوبة رجوع إلى الله عملاً.

كذلك يشتركان في طلب إزالة إثم الذنوب وآثارها والمعاقبة عليها ، إلا أن الاستغفار (طلب من الله) لإزالته بنحو قول العبد رب اغفر لي أو أستغفر الله، والتوبة (سعي من الإنسان) في إزالته بالندم على الذنب والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة إليه.

وعند الإطلاق، أي إطلاق أي منهما منفرداً، يدخل كل منهما في مسمى الآخر.

وعند اقترانهما كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، يكون الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

= لأن المؤمنين بين أظهرهم فأوقع العموم على الخصوص كما يقال... أخذ أهل البصرة فلاناً ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد، والرابع: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر الله قاله مجاهد قال ابن الأنباري فيكون معنى تعذيبهم إهلاكهم فالمعنى وما كان الله مهلكهم وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه فوصفهم بصفة ذراريهم وغلبوا عليهم كما غلب بعضهم على كلهم في الجواب الذي قبله، والخامس: أن المعنى لو استغفروا لما عذبهم الله ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب وهذا كما تقول العرب ما كنت لأهينك وأنت تكرمني يريدون ما كنت لأهينك لو أكرمتني فأما إذا لست تكرمني فإنك مستحق لإهانتي [قلت: وأصلح من هذا المثال لو استشهد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]] وإلى هذا القول ذهب قتادة والسدي قال ابن الأنباري وهو اختيار اللغويين (زاد المسير ج:٣ ص: ٣٥٠-٣٥١). قلت: وهذا الوجه الأخير من وجوه التفسير هو الراجح عندي بدليل الآية الكريمة التي بعدها مباشرة والتي تذكر استحقاقهم للعذاب وليس نفيه عنهم وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] والله أعلم.

وعند المعصية يكون الاستغفار المقرون بالتوبة عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنب بالقلب والجوارح[١٣٥٩].

وجاء في مطالب أولي النهى: «الاستغفار يرد مجرداً ومقروناً بالتوبة، فإن ورد مجرداً دخل فيه وقاية شر الذنب الماضي بالدعاء والندم عليه، ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه، وهذا الاستغفار الذي يمنع الإصرار والعقوبة، وإن ورد مقروناً بالتوبة اختص بالنوع الأول، فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي، بل كان سؤالاً مجرداً فهو دعاء محض، وإن صحبه ندم فهو توبة، والعزم على الإقلاع من تمام التوبة»[١٣٦٠].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: (وأن استغفروا ربكم) عطف على الأول، (ثم توبوا إليه): أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة... وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم...»[١٣٦١].

١٢١٣- ثالثاً - صلة الاستغفار بالدعاء:

كل دعاء فيه سؤال الله تعالى الغفران فهو استغفار، وهو نوع من أنواع الدعاء، ولكن الدعاء قد يكون بطلب المغفرة فيكون استغفارا، وقد يكون بطلب شيء آخر مما يدخل في طلب العبد من خيري الدنيا والآخرة وتجنيب العبد شرهما، ومفردات ذلك كثيرة جداً، فالدعاء أعم من الاستغفار لأنه يشمله ويشمل غيره.

١٢١٤- رابعاً - التائب يلهج بالاستغفار ويمارسه بنوعيه (المصحوب بالندم وغير المصحوب به):

التائب إذا ذكر ذنبه أو ذنوبه التي تاب منها تجدد الندم في قلبه عليها تلقائياً ويشتد هذا الندم بقدر علمه وإيمانه، فالعلم يعرفه بخطرها على آخرته، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] والإيمان يُكرِّهها إليه، قال تعالى ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

(١٣٥٩) الموسوعة الفقهية ج:٤ ص:٣٥ (بتصرف).

(١٣٦٠) مصطفى الرحيباني: مطالب أولي النهى - فقه حنبلي - ج:١ ص:١٢١.

(١٣٦١) تفسير القرطبي ج: ٩ ص: ٣ ، وانظر أيضا: تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٤٣٦، وفتح القدير ج: ٢ ص: ٤٨١، وزاد المسير ج: ٤ ص: ٧٥، وروح المعاني ج: ١١ ص: ٢٠٧، وفيها توجيهات تفصيلية أخرى في تفسير الآية الكريمة.

﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهو إذا ذكر ذنوبه يستغفر عنها على أنها شيء عظيم الخطر عليه من جهة، وأنها قد أصبحت مكروهة له من جهة أخرى فيلهج بالاستغفار لكي يقيه الله تعالى أثرها وشرها، وكلما استغفر نادماً كان ذلك تجديداً لتوبته وترسيخاً لها، قال تعالى في وصف التائبين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وهذا النوع من الاستغفار هو التوبة نفسها، وحيث إنه تاب قبل ذلك - لأن كلامنا في التائب - فيكون هذا الاستغفار منه تجديداً للتوبة.

أما إذا استغفر التائب ولم يذكر ذنباً أو ذنوباً يصب استغفاره عليها فإن هذا الاستغفار يكون دعاء بالمغفرة، وهو محتاج إليه. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال ﷺ: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً)[١٣٦٢]، وقال: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)[١٣٦٣]. وهذا النوع من الاستغفار يحتاج إليه التائب ويحتاج إليه غير التائب.

١٢١٥- خامساً - الأحاديث النبوية في فضل الاستغفار[١٣٦٤]:

والأحاديث النبوية في فضل الاستغفار كثيرة مستفيضة، منها ما ذكرناه قبل قليل، ومنها ما سنورده في فقرة «صيغ الاستغفار» قريباً، ونقتصر هنا على ذكر ما لن نورده هناك، فمن ذلك:

(١٣٦٢) ابن ماجة (٣٨٠٨)، ومسند البزار (٣٥٠٨)، ونوادر الأصول ٢/ ١٣٤، وكشف الخفاء: (١٦٨٢)، وعون المعبود: ٤/ ٢٦٧ وقال: رواه ابن ماجة بإسناد حسن صحيح. قاله المنذري.

(١٣٦٣) أبو داود (١٢٩٧) واللفظ له، وابن ماجة (٣٨٠٩)، وأحمد (٢١٢٣) بلفظ: من أكثر من الاستغفار. قال المنذري: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي كلهم من رواية الحكم بن مصعب وقال الحاكم صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣٠٩).

(١٣٦٤) فضل الاستغفار في القرآن الكريم ذكرناه بالتفصيل عند الكلام سابقاً عن (مكانة التوبة ومنزلتها في الإسلام) وكذلك الأحاديث النبوية في فضله، وإنما اقتصرنا هنا على الأحاديث النبوية في فضل الاستغفار من جهة أثرة في حصول المغفرة به من أجل التذكير بضرورة ممارسته من قبل التائبين خاصة ومن قبل غير التائبين عامة.

١- جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله عز وجل: يا ابن آدم: كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت فاسألوني أعطكم، وكلكم ضال إلا من هديت فاسألوني الهدى أهدكم، ومن استغفرني وهو يعلم أني ذو قدرة على أن أغفر له، غفرت له ولا أبالي، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى رجل واحد منكم ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر، وذلك أني جواد ماجد واحد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون)(١٣٦٥).

٢- وعن أنس ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)(١٣٦٦).

٣- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: (قال إبليس وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)(١٣٦٧).

(١٣٦٥) المنذري:الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣٠٨ برقم (٢٤٩٨) وقال: رواه مسلم والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والبيهقي واللفظ له...، ولفظ الترمذي نحوه إلا أنه قال: يا عبادي.

(١٣٦٦) المنذري:الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣٠٨-٣٠٩ برقم (٢٤٩٩) وقال: رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب، العنان: بفتح العين المهملة هو السحاب، وقراب الأرض بضم القاف ما يقارب ملأها.

(١٣٦٧) المنذري: الترغيب والترهيب: ج:٢ ص:٣٠٩ برقم (٢٥٠٠) وقال: رواه أحمد والحاكم من طريق دراج وقال الحاكم صحيح الإسناد.

٤- وروي عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار)[(١٣٦٨)].

٥- وعن الزبير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار)[(١٣٦٩)].

٦- وروى الحاكم في المستدرك عن أم عصمة العوصية رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : (ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك ثلاث ساعات فإن استغفر من ذنبه لم يكتبه عليه ولم يعذبه الله يوم القيامة)[(١٣٧٠)].

٧- وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤])[(١٣٧١)].

٨- وعن علي ﷺ قال: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله به بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وقال: وحدثني أبو بكر ﷺ وصدق أبو بكر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، إلى آخر الآية [(١٣٧٢)].

(١٣٦٨) المنذري: الترغيب والترهيب: ح:٢ ص:٣٠٩ برقم (٢٥٠١) وقال: رواه البيهقي.

(١٣٦٩) المنذري: الترغيب والترهيب: ح:٢ ص:٣٠٩ برقم (٢٥٠٤) وقال: رواه البيهقي بإسناد لا بأس به.

(١٣٧٠) المنذري: الترغيب والترهيب: ج:٢ ص:٣١٠ برقم: (٢٥٠٥) وقال: رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

(١٣٧١) المنذري: الترغيب والترهيب:ج: ٢ ص:٣١٠ برقم (٢٥٠٦) وقال: رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(١٣٧٢) المنذري: الترغيب والترهيب:ج: ٢ ص:٣١٠ برقم [٢٥٠٨] وقال: رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وليس عند بعضهم ذكر الركعتين وقال الترمذي حديث حسن غريب وذكر أن بعضهم وقفه

٩- وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك - قال عبد الأعلى لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت -)[١٣٧٣].

١٠- وفي مجمع الزوائد عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: (عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب فأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون)[١٣٧٤].

١٢١٦- سادساً - غير التائب بحاجة إلى الاستغفار شأنه شأن التائب:

إذا كان التائب أشد (رغبة) في الاستغفار لأن حال الإنابة إلى الله تعالى صارت حالاً له وهي بطبيعتها تلجئه إلى الاستغفار الكثير، فإن غير التائب أشد (حاجة) إلى الاستغفار، فهو يستغفر الله طالبا منه مغفرة ذنوبه من غير أن يحقق التوبة بشروطها، وهذا الاستغفار هو بحد ذاته حسنة من الحسنات، وعملاً صالحاً بالنسبة لمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، يزيد في حسناته، لعلها ترجح على سيئاته في الميزان يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

(١٣٧٣) متفق عليه: البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (٦٩٥٣) واللفظ له. ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ قال: (إن عبداً أصاب ذنباً وربما قال أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت وربما قال أصبت فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً وربما قال أصاب ذنباً قال قال: رب أصبت أو قال أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي - ثلاثاً - فليعمل ما شاء).

(١٣٧٤) مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٠٧ وقال: رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف، وانظر أيضاً: مسند أبي يعلى: ١/ ١٢٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٠٨، و٤/ ١٧٩.

﴿خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

١٢١٧- الاستغفار نافع للعاصي وإن لم يقدر على تحقيق التوبة:

ومن هنا كان من الحرج والتضييق - حسب فهمنا - أن يقال إن من أصر على المعصية فلا ينفعه الاستغفار، فالاستغفار باب واسع شرعه الإسلام ينفع كل المسلمين، التائبين منهم وغير التائبين، ولا ينبغي أن يغلق في وجه أحد، لأنه يمثل لجوء الخلق إلى ربهم تبارك وتعالى ليقيهم شر ذنوبهم، فغير التائب باستغفاره يطلب من الله أن يقيه شر ذنبه بعفوه ورحمته، والتائب يطلب ذلك ويمارس فوقه عملاً آخر بجهده وسعيه هو الندم والإقلاع والعزم، وهو التوبة وذلك هو الأهم.

لكن عناية الشرع بالأهم لم تجعله يسقط اعتباره لحاجة غير التائب للاستغفار وانتفاعه به، وهذا الموضوع يحتاج إلى تحرير ومناقشة مستفيضة نظراً لما فهم من ظاهر أقوال بعض الصالحين من نفي فائدة الاستغفار من غير توبة كقول الفضيل رحمه الله: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين[١٣٧٥]، واستشهاد بعضهم بحديث: (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله)[١٣٧٦] ونحو ذلك، وقد يفهم البعض من هذا غلق الباب أمام عموم المسلمين المخلطين أن يستغفروا ماداموا لم يحققوا التوبة، وهو ما لا يصح في ميزان الشرع. ولكي لا يشغلنا هذا الموضوع المهم الآن نؤجل الكلام التفصيلي فيه إلى آخر هذا المبحث، ونشتغل الآن ببيان صيغ الاستغفار، تلك الصيغ التي ينتظر التائب وغير التائب منا أن نبينها بالتفصيل ليستفيد منها ويمارسها عملياً، فما هي تلك الصيغ؟

(١٣٧٥) الغزالي إحياء علوم الدين: ج:١ ص:٣١٣، والغزالي ممن ردوا على هذا القول كما سنورد رأيه في آخر هذا المبحث إن شاء الله.

(١٣٧٦) قال العراقي: حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف. (انظر: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٧).

المطلب الثاني
صيغ الاستغفار في القرآن والسنة

١٢١٨- أولا - صيغ الاستغفار في القرآن الكريم:

لقد ذكر القرآن الكريم الاستغفار طالباً إياه وحاثاً عليه بإطلاق كقوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، وقوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقوله: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، ولم يذكر صيغة هذا الاستغفار المطلوب، ومعنى ذلك أنه أحال إلى السنة النبوية لتبين تلك الصيغ حسب قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

إلا أن التنزيل العزيز ذكر في مناسبات معينة بعض الصيغ للاستغفار كقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧]، وذكر أيضاً بعض الصيغ الخاصة باستغفار التائب، قال القرطبي: «وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦]، وقال يونس: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] »(١٣٧٧).

وبناء على ما تقدم يتبين أن كتاب الله العزيز قد أحال على السنة النبوية في بيان بقية صيغ الاستغفار وهي الأكثر، فالسنة النبوية الشريفة تعد تطبيقاً عملياً للقرآن الكريم: شارحة له، ومبينة لأحكامه، ومفصلة لمجمله، ومخصصة لعامه، ومقيدة لمطلقه، وآتية بحكم جديد لم يرد فيه، وكل ذلك وحياً من الله تعالى، قال جل وعز: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ

(١٣٧٧) تفسير القرطبي: ج:١ ص:٣٢٤.

﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]. فلنجتهد أن نحفظ قدر ما نستطيع من الصيغ المأثورة ونستغفر بها.

١٢١٩- ثانياً - صيغ الاستغفار في السنة النبوية:

١٢٢٠- تمهيد: في بيان كثرة استغفار النبي ﷺ وأنواع الاستغفار:

١٢٢١-١- استغفار النبي ﷺ:

لم يكن أحد من الأولين والآخرين أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ فهو سيد التائبين وسيد المستغفرين يدل على ذلك فعله ﷺ من جهة، وكثرة الصيغ التي استغفر بها وشرعها لأمته من جهة ثانية كما سيأتي بيانه. «وقد ثبت أنه ﷺ كان يستغفر في اليوم الواحد سبعين مرة ، ومائة مرة ، بل كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة) »[١٣٧٨].

١٢٢٢-٢- أنواع الاستغفار:

صيغ الاستغفار المأثورة كثيرة، منها:

أ- ما هو استغفار مطلق عن المناسبة والتوقيت.

ب- ومنها ما قاله النبي ﷺ ضمن عبادة معينة أو بعد عمل معين أو في وقت معين، وهذا لا يمنع بعد الإتيان بها على النحو الذي رسمه الشرع أن يختار من كل صيغ الاستغفار أحبها إليه متى شاء ومن غير قيد لقوله ﷺ : (ثم ليتخير أحدكم من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به)[١٣٧٩] لأن الاستغفار يكون نافعاً لصاحبه بقدر ما تنفعل به نفسه ويكون أشد وقعاً عليها وأكثر تأثيرا فيها فيولد لها عبادات قلبية من محبة وخشية وخشوع ونحوها.

ونذكر فيما يلي أهم صيغ الاستغفار في السنة النبوية المتعلقة بالنوعين وذلك في فقرتين:

(١٣٧٨) الموسوعة الفقهية: ج:٤ ص:٣٧.

(١٣٧٩) البخاري (٧٩١)، وأبو داود (٨٢٥) واللفظ له.

١٢٢٣- الفقرة الأولى: أهم صيغ الاستغفار المطلقة عن المناسبة والتوقيت:

وهذه الصيغ من الاستغفار حري بالمسلم حفظها وترديدها في كل حين فهي مطلقة عن المناسبة والتوقيت، وأهم هذه الصيغ ما يأتي:

١- سيد الاستغفار: وهو ما رواه البخاري عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)[١٣٨٠].

٢- ومن أفضل أنواع الاستغفار أن يقول العبد: (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه)[١٣٨١].

٣- وقد ثبت أنه ﷺ كان يستغفر في اليوم الواحد أكثر من سبعين مرة[١٣٨٢]، ومائة مرة[١٣٨٣]، بل كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة)[١٣٨٤].

(١٣٨٠) البخاري (٥٨٣١) و(٥٨٤٨) واللفظ له، والنسائي(٥٤٢٧)، وأبو داود (٤٤٠٨)، وابن ماجة (٣٨٦٢)، وأحمد (١٦٤٨٨).

(١٣٨١) أبو داود (١٢٩٦) ولفظه: (من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف). قال المنذري: رواه أبو داود والترمذي... قال الحافظ: وإسناده جيد متصل فقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير أن بلالاً سمع من أبيه يسار وأن يساراً سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ... ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرطهما إلا أنه قال يقولها ثلاثا (الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣١٠-٣١١).

(١٣٨٢) البخاري (٥٨٣٢) ولفظه: عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة). وابن ماجة (٣٨٠٦)، وأحمد (٧٤٦١).

(١٣٨٣) مسلم (٤٨٧٠) ولفظه: عن أبي بردة عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)، وأبو داود(١٢٩٤)، وابن ماجة (٣٨٠٥). وأحمد (٤٤٩٦).

(١٣٨٤) أبو داود (١٢٩٥) ولفظه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم).

٤- وأمر أصحابه ﷺ أن يستغفروا ويتوبوا، ويتموا ذلك سبعين مرة، ففي الحديث الشريف عن أنس بن مالك قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر فقال لنا: استغفروا، فاستغفرنا، فقال لنا: أتموها سبعين مرة فما من عبد ولا أمة استغفر الله في يوم وليلة سبعين مرة إلا غفر الله له سبعمائة ذنب، وقد خاب عبد أو أمة أصاب في يوم وليلة سبعمائة ذنب)(١٣٨٥).

٥- وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك، قالت: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخر السورة)(١٣٨٦).

٦- وعن ابن بريدة قال حدثت عن الأشعري أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم إني أستغفرك لما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، إنك أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير)(١٣٨٧).

٧- وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)(١٣٨٨).

٨- وعن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: (أيها الناس: اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم)(١٣٨٩).

(١٣٨٥) البيهقي: شعب الإيمان ١/ ٤٤٢ برقم (٦٥٢)، والمنذري: الترغيب والترهيب ٢/ ٣١١ برقم (٢٥١٠)، و الأصبهاني: حلية الأولياء ٣/ ١٠٩، وابن الجوزي: العلل المتناهية ٢/ ٨٣٥ برقم (١٣٩٧)، وأبو محمد الأنصاري: طبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ٨٦ برقم (٢٦٢).

(١٣٨٦) مسلم (٧٤٧).

(١٣٨٧) أحمد (١٨٦٦٩).

(١٣٨٨) متفق عليه: البخاري (٧٩٠)، ومسلم (٤٨٧٦).

(١٣٨٩) أحمد (١٨٧٨١).

٩- وفي الصحيحين عن ابن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (رب اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي، وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير)[١٣٩٠].

١٠- وعن حذيفة بن اليمان أنه أتى النبي ﷺ فقال: بينما أنا أصلي إذ سمعت متكلماً يقول: (اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، بيدك الخير كله، إليك يرجع الأمر كله، علانيته وسره، فأهل أن تحمد، إنك على كل شيء قدير، اللهم اغفر لي جميع ما مضى من ذنبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني عملاً زاكياً ترضى به عني، فقال النبي ﷺ : ذاك ملك أتاك يعلمك تحميد ربك)[١٣٩١].

١١- وعن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من خلقه، فليتوضأ وليصل ركعتين، ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، أسألك ألا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضاً إلا قضيتها لي، ثم يسأل الله من أمر الدنيا والآخرة ما شاء فإنه يقدر)[١٣٩٢].

١٢- ومن صيغ الاستغفار أن تقول: (اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي)، فقد أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: واذنوباه واذنوباه فقال هذا القول مرتين أو ثلاثاً، فقال له رسول الله ﷺ :(قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي، فقالها، ثم قال: عد، فعاد، ثم قال: عد، فعاد، فقال: قم فقد غفر الله لك)[١٣٩٣].

(١٣٩٠) متفق عليه: البخاري(٥٩١٩) واللفظ له، ومسلم (٤٨٩٦).

(١٣٩١) أحمد (٢٢٢٦٦).

(١٣٩٢) ابن ماجة (١٣٧٤) .

(١٣٩٣) المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٧٢٨ برقم (١٩٩٤) وقال الحاكم: حديث رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح، ولم يخرجاه.

١٣- الاستغفار بالكلمات التي تلقاها آدم من ربه قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]:

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل في الكلمات: فقال ابن عباس والحسن وسعيد ابن جبير والضحاك ومجاهد هي قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]... قال ابن عطية وهذا يقتضي أن آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود...

وعن ابن عباس ووهب بن منبه أن الكلمات: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

وقال محمد بن كعب هي قوله: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أرحم الراحمين»(١٣٩٤).

ولا يفوتنا أن نذكر هنا بأن من آكد أوقات الاستغفار: السحر (آخر الليل) لقوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقوله: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، وللسنن الواردة في ذلك، ومنها الحديث الصحيح: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)(١٣٩٥)، وسيأتي الكلام على الاستغفار وقت السحر بعد قليل.

١٢٢٤- شرح حديث سيد الاستغفار:

ولكي يستشعر المسلم عمق معاني الاستغفار ويتذوق حلاوتها نقدم شرحاً موفقاً لحديث سيد الاستغفار من كلام العلامة ابن القيم رحمه الله:

(١٣٩٤) تفسير القرطبي ج: ١ ص: ٣٢٤ .

(١٣٩٥) متفق عليه: البخاري (٦٩٤٠)، ومسلم (١٢٦١).

قال ابن القيم: «...أن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله، وهو صادق في طلبه، لم يبق له نظره في سيئاته حسنة البتة، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض والفقر الصرف، لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه، وعيوب عمله، علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله، فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله، فإن خلص له عمل وحال مع الله، وصفاً له معه وقت، شاهد منة الله عليه به، و[أنه] مجرد فضله، وأنه ليس من نفسه ولا هي أهل لذاك، فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله، لأنه متى تطلبها رآها، وهذا من أجل أنواع المعارف، وأنفعها للعبد، ولذلك كان سيد الاستغفار: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، فتضمن هذا الاستغفار:

الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده.

والاعتراف بأنه خالقه، العالم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه، وتقصيره فيه[١٣٩٦].

والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي له سواه.

ثم التزام الدخول تحت عهده وهو أمره ونهيه الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل وقدر الطاقة[١٣٩٧].

ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب ولأهل معصيتك بالعقاب.

فأنا مقيم على عهدك مصدق بوعدك.

(١٣٩٦) في الأصل (وتقصير فيه).

(١٣٩٧) ولذلك جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: (لن يدخل أحداً عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب) (البخاري: ٥٢٤١).

ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تعذني من شره وإلا أحاطت بي الهلكة، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك.

وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك علي.

وأقر وألتزم وأبخع بذنبي.

فمنك النعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة.

فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تعفيني من شره، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار وهو متضمن لمحض العبودية فأي حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ومنة الله عليه فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه»[١٣٩٨].

١٢٢٥- الفقرة الثانية: صيغ الاستغفار ذات المناسبات المعينة مع جواز تكرارها في أي وقت:

نذكر فيما يلي صيغاً للاستغفار قالها النبي ﷺ في عبادة معينة أو بعدها أو بعد عمل معين أو في وقت معين أو مناسبة معينه، فيحسن بالعبد الإتيان بها على تلك الأوضاع اقتداء بالنبي ﷺ وطاعة لأمره والتزاماً بسنته القولية والفعلية، ونحن نذكرها على سبيل المثال مع التوسع وليس الحصر.

هذا مع ضرورة التنبه إلى أن بعض المواضع التي سنذكر فيها الاستغفار توجد لها أدعية مأثورة أخرى مهمة للغاية غير الاستغفار فينبغي الحرص عليها، كما أن بعض الأوقات وبعض العبادات تختص بصيغ مأثورة من الاستغفار تكون أفضل من غيرها وينبغي التقيد بألفاظها قدر المستطاع.

ولكن ما قلناه لا يمنع - بعد الإتيان بها على الوجه المذكور - أن يقتبس المسلم منها ما يشاء لاستغفاره المطلق فيدعو ويستغفر به متى شاء إذا كان قلبه ينفعل به أكثر من غيره فيولد له عبادات قلبية، كما ذكرنا ذلك سابقاً.

(١٣٩٨) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٢١-٢٢٢.

ونذكر فيما يلي قدراً مهماً من تلك الصيغ[1399]:

١٢٢٦- أولاً - الاستغفار في الطهارة:

١٢٢٧-١- الاستغفار عقب الخروج من الخلاء:

يندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة ، وعند الخروج من الخلاء، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ : (كان إذا خرج من الغائط قال غفرانك)[1400]. ووجه سؤال المغفرة هنا كما قال ابن العربي - هو العجز عن شكر النعمة في تيسير الغذاء، وإيصال منفعته، وإخراج فضلته.

١٢٢٨-٢- الاستغفار بعد الوضوء:

يسن الاستغفار ضمن الأذكار الواردة عند إتمام الوضوء، روى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، كتب في رق ، ثم جعل في طابع ، فلم يكسر إلى يوم القيامة)[1401] وقد وردت صيغ أخرى تتضمن الاستغفار عقب الانتهاء من الوضوء وأثناءه يذكرها الفقهاء في سنن الوضوء.

١٢٢٩- ثانياً - الاستغفار عند دخول المسجد والخروج منه:

يستحب الاستغفار عند دخول المسجد وعند الخروج منه. لما ورد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: (كان رسول الله إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، وقال:

(١٣٩٩) الموسوعة الفقهية الكويتية:ج:٤ ص: ٣٧-٤٥ (مع تصرف منا حذفاً وإضافةً وتنسيقاً وعزواً للآيات وتخريجاً للأحاديث)، ومن أراد المزيد فموطن بيان صيغ الاستغفار غالباً كتب السنة والأذكار والآداب ، في أبواب الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة، وكذلك بعض المراجع المتخصصة بها كالأذكار للنووي وغيره، وأيضاً بعض المصادر الجامعة بين الفقه وعلم الأخلاق والزهد ككتاب إحياء علوم الدين للغزالي وغيره.

(١٤٠٠) أبو داود (٢٨)، وابن ماجة (٢٩٦)، وأحمد (٢٤٠٦٣)، والدارمي (٦٧٧).

(١٤٠١) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٧٥٢ برقم (٢٠٧٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، مجمع الزوائد: ١/ ٢٣٩، والسنن الكبرى: ٦/ ٢٥، ومسند ابن أبي شيبة: ٦/ ١١٣، والمعجم الأوسط: ٢/ ١٢٣، والترغيب والترهيب: ١/ ١٠٥، وعمل اليوم الليلة للنسائي: ١/ ١٧٣، وتحفة الأحوذي: ١/ ١٥١، وتحفة المحتاج: ١/ ١٩٢، وتلخيص الحبير: ١/ ١٠٢، وسبل السلام: ١/ ٥٦، ونيل الأوطار: ١/ ٢١٦.

رب اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، وقال: رب اغفر لي، وافتح لي أبواب فضلك)[١٤٠٢].

١٢٣٠- ثالثاً - الاستغفار في الصلاة وعقبها[١٤٠٣]:

١٢٣١-١ - الاستغفار في افتتاح الصلاة:

جاء عدد من أدعية الافتتاح في الصلاة، ومنها الدعاء الذي يتضمن الاستغفار، وأخذ بذلك الشافعية مطلقاً، والحنفية والحنابلة في صلاة الليل، منها ما رواه أبو بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ : (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت التواب الرحيم)[١٤٠٤]. ومحل الاستغفار في دعاء الافتتاح يذكره الفقهاء في سنن الصلاة ، أو في كيفية الصلاة.

١٢٣٢-٢- الاستغفار في الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين:

يسن الدعاء بالمغفرة في الركوع عند الشافعية، والحنابلة. روت عائشة رضي الله عنها كما جاء في الصحيحين قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه

(١٤٠٢) ابن ماجة (٧٦٣)، وأحمد (٢٥٢١٢).

(١٤٠٣) من الأحاديث الجامعة في الاستغفار الخاصة بالصلاة ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٩٠): (عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ : أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك، وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وإذا رفع قال: اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت). (وانظر أيضاً: النسائي: ٨٨٧).

(١٤٠٤) متفق عليه: البخاري(٧٩٠)، ومسلم (٤٨٧٦).

وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن)[1405] أي يحقق قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣]. إلا أن الشافعية يجعلون ذلك للمنفرد، ولإمام قوم محصورين رضوا بالتطويل.

وفي السجود يندب الدعاء بالمغفرة كذلك عند المالكية، والشافعية، والحنابلة، لحديث عائشة السابق، ولما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره)[1406].

وفي الجلوس بين السجدتين يسن الاستغفار عند الحنفية، والمالكية، والشافعية، وهو قول عن أحمد، والأصل في هذا ما روى حذيفة (أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول بين السجدتين: رب اغفر لي ، رب اغفر لي)[1407].

وإنما لم يكن الاستغفار واجباً في هذه المواضع بل مستحباً، لأن النبي ﷺ لم يعلمه المسيء صلاته. والمشهور عند الحنابلة أنه واجب، وهو قول إسحاق وداود، وأقله مرة واحدة، وأقل الكمال ثلاث، والكمال للمنفرد ما لا يخرجه إلى السهو، وبالنسبة للإمام: ما لا يشق على المصلين.

١٢٣٣-٣ - الاستغفار بعد التشهد الأخير:

يندب الاستغفار بعد التشهد الأخير ، وورد في السنة (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[1408].

(١٤٠٥) متفق عليه: البخاري (٧٧٥)، ومسلم (٧٤٦).

(١٤٠٦) مسلم (٧٤٥) وأبو داود (٧٤٤).

(١٤٠٧) أحمد (٢٢٢٨٦)، وتمام الحديث: عن حذيفة أنه صلى مع رسول الله ﷺ من الليل، فلما دخل في الصلاة قال: الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، قال: ثم قرأ البقرة ثم ركع، وكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول سبحان ربي العظيم، ثم رفع رأسه فكان قيامه نحواً من ركوعه وكان يقول لربي الحمد لربي الحمد، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه وكان يقول سبحان ربي الأعلى سبحان ربي الأعلى، ثم رفع رأسه فكان ما بين السجدتين نحواً من السجود وكان يقول رب اغفر لي رب اغفر لي، قال: حتى قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، شعبة الذي يشك في المائدة والأنعام.

(١٤٠٨) متفق عليه: البخاري(٧٩٠)، ومسلم (٤٨٧٦).

١٢٣٤-٤ - الاستغفار بعد التسليم:

يسن الاستغفار عقب الصلاة - بعد التسليم - ثلاثاً، لما روى ثوبان قال: (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام) قال الوليد فقلت للأوزاعي كيف الاستغفار قال تقول أستغفر الله أستغفر الله [١٤٠٩].

وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: (كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)[١٤١٠].

وجاء عنه ﷺ أنه قال: (من استغفر الله تعالى في دبر كل صلاة ثلاث مرات فقال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر الله عز وجل ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف)[١٤١١].

١٢٣٥- رابعاً - الاستغفار وقت قيام الليل:

جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: (اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت)[١٤١٢].

وفي النسائي عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة بما كان رسول الله ﷺ يستفتح قيام الليل، قالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك: (كان رسول الله ﷺ

(١٤٠٩) مسلم (٩٣١)، والنسائي (١٣٢٠) وابن ماجة (٩١٨).

(١٤١٠) أبو داود (١٢٩٠)، وأحمد (٧٥٧٢).

(١٤١١) المناوي: فيض القدير: ج:٦ ص:٥٧.

(١٤١٢) متفق عليه: البخاري (٦٩٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٢٨٨).

يكبر عشراً، ويحمد عشراً، ويسبح عشراً، ويهلل عشراً، ويستغفر عشراً، ويقول اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة)[١٤١٣].

١٢٣٦- خامساً - الاستغفار في الاستسقاء:

«لا خلاف بين الفقهاء في أنه يحصل الاستسقاء بالاستغفار وحده.

غير أن أبا حنيفة يقصره على ذلك، مستدلا بقول الله سبحانه ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١١]، لأن الآية دلت على أن الاستغفار وسيلة للسقيا. بدليل (يرسل السماء عليكم مدراراً)، ولم تزد الآية الكريمة على الاستغفار، وروي عن عمر ﷺ أنه خرج إلى الاستسقاء ولم يصل بجماعة، بل صعد المنبر، واستغفر الله ، وما زاد عليه، فقالوا: ما استسقيت يا أمير المؤمنين، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي بها يستنزل الغيث.

وبقية الفقهاء والقائلون بندب صلاة الاستسقاء والخطبتين، أو الخطبة الواحدة، يسن عندهم الإكثار من الاستغفار في الخطبة، وتبدل تكبيرات الافتتاح التي في خطبتي العيدين بالاستغفار في خطبتي الاستسقاء عند المالكية، والشافعية، وصيغته كما أوردها النووي في مجموعه: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ويكبر كخطبتي العيدين عند الحنابلة، ونفى الحنفية التكبير ولم يتعرضوا للاستغفار في الخطبة»[١٤١٤].

١٢٣٧- سادساً - الاستغفار للأموات:

الاستغفار عبادة قولية يصح فعلها للميت. وقد ثبت في السنة الاستغفار للأموات، ففي صلاة الجنازة ورد الدعاء للميت بالمغفرة، لكن لا يستغفر لصبي ونحوه. وتفصيل أحكامه يذكرها الفقهاء في صلاة الجنازة. وعقب الدفن يندب أن يقف جماعة يستغفرون للميت، لأنه حينئذ في سؤال منكر ونكير، روى أبو داود بإسناده عن عثمان قال: (كان النبي ﷺ إذا دفن الرجل وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبت فإنه الآن يسأل)[١٤١٥] وصرح بذلك جمهور الفقهاء.

(١٤١٣) النسائي (١٥٩٩) وأبو داود (٦٥٢)، وابن ماجة (١٣٤٦).

(١٤١٤) الموسوعة الفقهية:ج:٤ ص:٣٧ وما بعدها .

(١٤١٥) أبو داود (٢٨٠٤).

ومن آداب زيارة القبور عند الحنفية والمالكية، والشافعية، الدعاء بالمغفرة لأهلها عقب التسليم عليهم، واستحسن ذلك الحنابلة. وهذا كله يخص المؤمن، أما الكافر الميت فيحرم الاستغفار له بنص القرآن والإجماع.

١٢٣٨- سابعاً - الاستغفار عن الغيبة:

اختلف العلماء في حق الذي اغتاب، هل يلزمه استحلال من اغتيب، مع الاستغفار له، أم يكفيه الاستغفار؟[١٤١٦].

الأول: إذا لم يعلم من اغتيب فيكفي الاستغفار، وهو مذهب الشافعية، والحنابلة، وقول للحنفية، ولأن إعلامه ربما يجر فتنة ، وفي إعلامه إدخال غم عليه. لما روى الخلال بإسناده عن أنس مرفوعا (كفارة من اغتيب أن يستغفر له)[١٤١٧]. فإن علم فلا بد من استحلاله مع الاستغفار له.

(١٤١٦) ولهذا الموضوع تفصيل أكثر ذكرناه في مبحث (التوبة من فعل المحرمات) في موضوع الاستحلال من حق الغير.

(١٤١٧) إسماعيل العجلوني الجراحي: كشف الخفاء ج: ٢ ص: ١٤٥-١٤٦ برقم (١٩٣٢) وقال عن الحديث : (كفارة من اغتبته أن تستغفر له) رواه الخرائطي في المساوي والبيهقي في الشعب والدينوري في المجالسة وابن أبي الدنيا وغيرهم عن أنس مرفوعاً، ولفظ بعضهم: (كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته) وفي سنده عنبسة بن عبد الرحمن ضعيف جداً كما في المقاصد، ورواه الخرائطي من وجه آخر عن أنس مرفوعاً بلفظ:(إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول اللهم اغفر لنا وله) وهو ضعيف أيضاً لكن له شواهد، فعند أبي نعيم وابن عدي في الكامل عن سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: (من اغتاب أخاه فاستغفر له فهو كفارة له) وفي سنده سليمان بن عمرو النخعي اتهم بالوضع، وعند الدارقطني بسند فيه حفص الأبلي ضعيف عن جابر رفعه:(من اغتاب رجلاً ثم استغفر له من بعد ذلك غفرت له غيبته)، ورواه البيهقي عن أبي هريرة بلفظ: (الغيبة تخرق الصوم والاستغفار يرقعه فمن استطاع منكم أن يجيء غداً بصومه مرقعاً فليفعل) قال عقبه موقوفاً وسنده ضعيف، وعن ابن المبارك إذا اغتاب رجل رجلاً فلا يخبره ولكن يستغفر له، وعن محبوب قال سألت علي ابن بكار عن رجل اغتبته ثم ندمت قال: لا تخبره فتغري قلبه ولكن ادع له وأثن عليه حتى تمحو السيئة بالحسنة، وللحاكم وصححه والبيهقي وقال إنه أصح مما قبله عن حذيفة قال: كان في لساني ذرب على أهلي لم يعدهم إلى غيرهم فسألت النبي ﷺ فقال: (أين أنت عن الاستغفار يا حذيفة إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة) قال في المقاصد: وهو عند البيهقي بنحوه من حديث أبي موسى، وبمجموع هذه يبعد الحكم عليه بالوضع. وإن كان أصح =

الثاني: يكفي الاستغفار سواء علم الذي اغتيب أم لم يعلم، ولا يجب استحلاله، وهو قول الطحاوي من الحنفية. والمالكية على أنه لا بد من استحلال المغتاب إن كان موجوداً، فإن لم يجده، أو أحداً من ورثته استغفر له. وفي استحلال الورثة خلاف بين الفقهاء يذكر في التوبة.

١٢٣٩- ثامناً - الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات:

اتفق الفقهاء على أنه يسن التعميم في الدعاء بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات، فعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة)[١٤١٨].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: (قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه فقال أعرابي وهو في الصلاة اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي لقد حجرت واسعاً يريد رحمة الله)[١٤١٩].

ولا بأس أن يخص الإنسان نفسه بالدعاء، لحديث أبي بكرة، وأم سلمة، وسعد بن أبي وقاص: (اللهم إني أعوذ بك، وأسألك...) إلخ وهذا يخص نفسه الكريمة، ذلك ما لم يكن في القنوت، وخلفه من يؤمن، لخبر ثوبان (لا يؤم رجل قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم، فإن فعل فقد خانهم)[١٤٢٠].

= منه حديث أبي هريرة رفعه: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليستحله منها)... وقال في التمييز حديث الترجمة ضعيف وله شواهد كمال.

(١٤١٨) مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢١٠ وقال: رواه الطبراني وإسناده جيد. وفي مصنف عبد الرزاق عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عبد يدعو للمؤمنين والمؤمنات إلا رد الله عليه عن كل مؤمن ومؤمنة مضى أو هو كائن إلى يوم القيامة بمثل ما دعا به) (مصنف عبد الرزاق: ج:٢ ص:٢١٧).

(١٤١٩) البخاري (٥٥٥١) واللفظ له، والنسائي (١٢٠١)، وأبو داود (٧٤٨)، وابن ماجة (٥٢٣)، وأحمد (٦٩٥٧).

(١٤٢٠) أبو داود (٨٣)، وابن ماجة (٩١٣)، وأحمد (٢١٢١١).

١٢٤٠- تاسعاً - الاستغفار عند النوم:

يستحب الاستغفار عند النوم - مع الأدعية الأخرى الخاصة بالنوم والآيات - ليكون الاستغفار خاتمة عمله إذا رفعت روحه، روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري: قال: قال رسول الله ﷺ : (من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت مثل رمل عالج، وإن كانت مثل عدد ورق الشجر)[١٤٢١].

١٢٤١- عاشراً - الدعاء بالمغفرة للمشمت:

يسن للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شمته بقوله: «يرحمك الله» فيقول له العاطس: «يغفر الله لنا ولكم» أو يقول له: «يهديكم الله ويصلح بالكم» أو يقول: «يرحمنا الله وإياكم ويغفر لنا ولكم»، لما في الموطأ عن نافع أن ابن عمر كان إذا عطس فقيل له: يرحمك الله ، قال: يرحمنا الله وإياكم ويغفر لنا ولكم.

١٢٤٢- حادي عشر - اختتام الأعمال بالاستغفار:

المتتبع للقرآن الكريم والأذكار النبوية يجد اختتام كثير من الأعمال بالاستغفار ، فقد أمر النبي ﷺ في آخر حياته بالاستغفار بقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ٣].

وفي اختتام الصلاة ، وتمام الوضوء يندب الاستغفار كما تقدم.

١٢٤٣- ثاني عشر- الاستغفار في نهاية المجالس:

والاستغفار في نهاية المجلس كفارة لما يقع في المجلس، فعن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخره إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، فقال رجل يا رسول الله: إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، فقال:كفارة لما يكون في المجلس)[١٤٢٢].

(١٤٢١) أحمد (١٠٦٥٢).

(١٤٢٢) أبو داود (١٨٩٣٣) ، وجاء في سنن النسائي عن عائشة (أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس مجلساً، أو صلى، تكلم بكلمات فسألته عائشة عن الكلمات فقال: إن تكلم بخير كان طابعاً =

والمجلس الذي كثر فيه اللغط يحتاج إلى الاستغفار من باب أولى، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)[١٤٢٣] .

١٢٤٤- ثالث عشر - الاستغفار في وقت السحر (آخر الليل):

ذكرنا سابقاً أن من آكد أوقات الاستغفار: السحر (آخر الليل) لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] وللحديث الصحيح: (ينزل ربنا تبارك وتعالى[١٤٢٤] كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)[١٤٢٥] .

= عليهن إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارة له: (سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك) (النسائي:١٣٢٧))، وجاء فيه أيضاً: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (كفارة المجالس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك) (أحمد: ٨٤٦٢)، وأيضا الدارمي (٢٤٥٣).

(١٤٢٣) أحمد (١٠٠١٢).

(١٤٢٤) اختلف العلماء في بيان معنى (ينزل ربنا) فأهل التأويل أولوا ذلك بأن معناه: ينزل ملك ربنا تبارك وتعالى، والحنابلة ومن معهم قالوا بأن ظاهر النص مراد ومعنى ذلك أن ربنا ينزل، فيكون المعنى: النزول معلوم لوقوع الإخبار به، والكيف مجهول، فهو نزول بكيفية تليق بجلاله تبارك وتعالى لا نعلمها ولكننا نعلم أنها منفي عنها التشبيه والتمثيل لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأيضا لقوله تعالى في وصف نفسه جل جلاله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فكما أنه سميع بصير مع نفي التشبيه والتمثيل، فإنه ينزل مع نفي التشبيه والتمثيل، وبكيفية تليق بجلاله لا نحيط بها علماً. والقاعدة في ذلك أن لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه ووصفه رسوله ﷺ من غير تأويل، مع نفي التشبيه والتمثيل، وهو الفهم المستمد من القرآن الكريم مباشرة في نفي ما نفاه الله عن نفسه وهو التشبيه والتمثيل، وإثبات ما أثبته الله لنفسه وهو حقيقة الصفات، اقرأ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا مع الإقرار بعدم الإحاطة به علما ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، جل جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

(١٤٢٥) متفق عليه: البخاري (٦٩٤٠)، ومسلم (١٢٦١).

قال القرطبي أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]... «وخص السحر بالذكر لأنه مظان القبول ووقت إجابة الدعاء، قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف: ٩٨]: إنه أخر ذلك إلى السحر»(١٤٢٦).

ونص الحديث الذي أشار إليه القرطبي كما في المستدرك على الصحيحين ورد بمناسبة تعليم النبي ﷺ لعلي كرم الله وجهه دعاء حفظ القرآن حيث علمه إيقاعه وقت السحر فقال ﷺ: «(فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وهي قول أخي يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨]»(١٤٢٧).

قال القرطبي: «وقال أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة، وقال سفيان الثوري: بلغني أنه إذ كان أول الليل نادى مناد ليقم القانتون، فيقومون كذلك يصلون إلى السحر، فإذا كان ثم السحر نادى مناد: أين المستغفرون فيستغفر أولئك ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نشروا من قبورهم...

قال نافع: كان ابن عمر يحيي الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة ثم يسأل، فإذا قلت نعم قعد يستغفر.

وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: يا رب: أمرتني فأطعتك، وهذا سحر، فاغفر لي، فنظرت فإذا هو ابن مسعود...

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاري عن شداد بن أوس وليس له في الجامع غيره عن النبي ﷺ قال: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن

(١٤٢٦) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٣٨.
(١٤٢٧) المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ٤٦١.

قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليلته قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)...»[١٤٢٨].

والمختار عندنا إضافة إلى سيد الاستغفار ما ذكرناه من صيغ الاستغفار المطلق آنفا فتخير منها أشدها وقعا في قلبك لقوله ﷺ : (ثم ليتخير أحدكم من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به)[١٤٢٩].

المطلب الثالث
الأحكام المتعلقة بالاستغفار

١٢٤٥- تمهيد وتقسيم:

نذكر فيما يلي الحكم التكليفي للاستغفار، ثم تكفير الذنوب به، ثم نبين الصيغة المنهي عنها في الاستغفار، ثم حرمة الاستغفار للكافرين، وأخيرا حكم الاستغفار الواقع من غير التائب وهو الموضوع المهم الذي وعدنا بإيراده في آخر هذا المبحث.

١٢٤٦- أولا - الحكم التكليفي للاستغفار:

«الأصل في الاستغفار أنه مندوب إليه ، لقول الله سبحانه. ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [المزمل: ٢٠] يحمل على الندب ، لأنه قد يكون من غير معصية، أي: استغفار يراد به الذكر والدعاء، بمعنى الدعاء بالمغفرة من غير تذكر معصية يستغفر منها، لكنه قد يخرج عن الندب إلى الوجوب... وكالاستغفار من المعصية. وقد يخرج إلى الكراهة [عند البعض] كالاستغفار للميت خلف الجنازة ، صرح بذلك المالكية. وقد يخرج إلى الحرمة ، كالاستغفار للكفار»[١٤٣٠].

١٢٤٧- ثانياً - تكفير الذنوب بالاستغفار:

«الاستغفار إن كان بمعنى التوبة فإنه يرجى أن يكفر به الذنوب إن توافرت فيه شروط التوبة ، يقول الله سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ

(١٤٢٨) تفسير القرطبي ج: ٤ ص:٣٩-٤٠ والحديث أخرجه: البخاري (٥٨٣١) و(٥٨٤٨)، والنسائي (٥٤٢٧)، وأبو داود (٤٤٠٨)، وابن ماجة (٣٨٦٢)، وأحمد (١٦٤٨٨).

(١٤٢٩) البخاري (٧٩١)، وأبو داود (٨٢٥) واللفظ له.

(١٤٣٠) الموسوعة الفقهية: ج:٤ ص: ٣٥.

﴿ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، ويقول رسول الله ﷺ : (من استغفر الله تعالى في دبر كل صلاة ثلاث مرات ، فقال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف)[١٤٣١] ...

فإن كان الاستغفار على وجه الافتقار والانكسار دون تحقق التوبة ، فقد اختلف الفقهاء في ذلك: فالشافعية قالوا: إنه يكفر الصغائر دون الكبائر، وقال المالكية والحنابلة: إنه تغفر به الذنوب، ولم يفرقوا بين صغيرة وكبيرة، وهو ما صرحت به بعض كتب الحنفية. لقوله ﷺ : (الاستغفار ممحاة للذنوب) »[١٤٣٢].

وأخرج البخاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (من ألهم خمسة لم يحرم خمسة: من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة لأن الله يقول: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول لأن الله يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]، ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة لأن الله تعالى يقول: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩] »[١٤٣٣].

١٢٤٨- ثالثاً- الصيغة المنهي عنها في الاستغفار:

الصيغة المعلقة على المشيئة منهي عنها في الاستغفار فليس للعبد أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت أو ما يشبهها.

(١٤٣١) المناوي: فيض القدير: ج:٦ ص:٥٧ .

(١٤٣٢) الموسوعة الفقهية: ج:٤ ص:٤٣ والحديث في الفردوس بمأثور الخطاب (٤٢٨)، من حديث حذيفة. وفي التمهيد لابن عبد البر عن أبي المنذر الجهني قال: قلت يا رسول الله ما أفضل الكلام؟ قال: يا أبا المنذر قل:لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير مائة مرة في يوم، فإنك إذا قلت ذلك في يوم فأنت أفضل الناس عملاً إلا من قال مثل مقالتك، وأكثر من سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تنس الاستغفار في صلاتك فإنها ممحاة للخطايا رحمة من الله) (ج:٦ ص:٥٢). وانظر أيضا « الإصابة » برقم (١٠٥٧٥) ج:٧ ص:٣٨٧.

(١٤٣٣) تفسير الدر المنثور ج: ٥ ص: ٩.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء لا مكره له)[1434].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)[1435].

١٢٤٩- رابعاً - حرمة الاستغفار للكافر:

اتفق الفقهاء على أن الاستغفار للكافر محظور، للنصوص الصريحة الواردة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقوله: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾ [المائدة: ٧٣]، مع قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]، بل بالغ بعضهم فقال: إن الاستغفار للكافر يقتضي كفر من فعله، لأن فيه تكذيباً للنصوص الواردة التي تدل على أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وأن من مات على كفره فهو من أهل النار. وجوز الحنابلة الدعاء للكافر الحي بالهداية، ولا يستبعد ذلك من غيرهم، كذلك استظهر بعضهم جواز الدعاء لأطفال الكفار بالمغفرة، لأن هذا من أحكام الآخرة[1436].

(١٤٣٤) متفق عليه: البخاري٦٩٢٣ واللفظ له، ومسلم (٤٨٢٩).

(١٤٣٥) مسلم (٤٨٣٨)، وأبو داود (١٢٦٨)، وابن ماجة (٣٨٤٤)، وأحمد (٧٠١٣)، ومالك (٤٤٥).

(١٤٣٦) الموسوعة الفقهية: ج:٤ ص:٤٣.

١٢٥٠- خامساً - حكم الاستغفار الواقع من غير التائب ومدى قبوله منه:

قدمنا في مباحث سابقة أن الاستغفار المصحوب بالندم والعزم على الإقلاع عن الذنب هو في الحقيقة توبة، أما الاستغفار المجرد غير المصحوب بذلك فإنه دعاء بالمغفرة شأنه شأن أي دعاء يدعو العبد به ربه تبارك وتعالى.

إلا أن قولنا هذا يبدو متعارضاً مع ظاهر ما قاله بعض أهل الصلاح والفضل من أن الاستغفار من غير إقلاع عن الذنب هو توبة الكذابين، واستشهادهم بحديث (المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بآيات ربه)[١٤٣٧]، وقول بعضهم: أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقولهم: الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير؟. قال القرطبي: «قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين»[١٤٣٨].

وقد رددت هذا القول على ظاهره بعض التصانيف المهمة، ومن ذلك ما جاء في الموسوعة الفقهية حيث جاء فيها ما نصه: «الاستغفار المطلوب: هو الذي يحل عقدة الإصرار، ويثبت معناه في الجنان، لا التلفظ باللسان، فإن كان باللسان - وهو مصر على المعصية - فإنه ذنب يحتاج إلى استغفار كما روي: (التائب من الذنب، كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه) »[١٤٣٩].

قلت: وهذا القول إذا أخذ على ظاهره دل على أن المقيم على المعصية ليس له أن يستغفر منها استغفاراً مجرداً عن التوبة، فإما أن يتوب فيقبل استغفاره وإما أن يستغفر بلا توبة فيكون استغفاره ذنبا، وإذا كان ذنبا وجب أن يكف عنه. فإذا لم يحقق التوبة فيجب أن يكف عن الاستغفار. وهذه النتيجة مرفوضة شرعاً بدون شك.

(١٤٣٧) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله أخرجه ابن أبى الدنيا في التوبة ومن طريقة البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٤٣٨) تفسير القرطبي ج: ٩ ص: ٣.

(١٤٣٩) الموسوعة الفقهية: ج:٤ ص:٣٥-٣٦ وحديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بربه أخرجه ابن أبى الدنيا في التوبة ومن طريق البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء ٤/ ٤٧).

ونظراً لأن هذه الأقوال تحتاج إلى بيان يدفع ما قد يفهم منها ظاهراً من أن استغفار مئات الملايين من المسلمين غير التائبين (أي المخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) والذين يمارسون الاستغفار من غير توبة، هو استغفار لا قيمة له، وأنهم لا استغفار لهم ما دام استغفارهم من غير إقلاع عن الذنب، وأن استغفارهم باللسان ذنب يحتاج إلى استغفار، فقد اقتضانا هذا إلى تحرير هذه المسألة ونقل أقوال العلماء الراسخين في العلم بشأنها.

١٢٥١- بيان مقصود أهل الفضل والصلاح بشأن الاستغفار من غير توبة:

وقبل أن نورد أقوال بعض العلماء المهمة في هذه المسألة نزيد في إيضاح فكرة أن الاستغفار المجرد هو دعاء، وهو شيء آخر غير التوبة، وأنه قد تحصل به المغفرة وإن كان صاحبة لم يحقق التوبة، وأنه يصلح سبباً مستقلاً من أسباب المغفرة، وأنه مع ذلك لا يداني التوبة فضلاً وأهمية ومكانة وميزات وثمرات.

وأيضاً فإن أهل الفضل والصلاح الذين نقلنا بعض أقوالهم فيما سبق والذي رددته الموسوعة الفقهية على ظاهره لم يقصدوا قط أن يقولوا للناس إن استغفاركم من غير إقلاع عن المعصية هو ذنب تأثمون عليه.

فمما لا شك فيه أن غاية أصحاب تلك الأقوال توجيه الناس إلى الأفضل والأكمل وهو الاستغفار مع حل عقدة الإصرار مما يفضي بهم إلى التوبة.

١٢٥٢- الكلام من مقام الإحسان له شأن آخر:

ذلك أن الذي يتكلم من مرتبة الإحسان - ممن بلغوها أو حاولوا، ولا نزكي على الله أحداً - وهي كما جاءت في حديث جبريل ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١٤٤٠]، يرى أعماله وأعمال الخلق مملوءة بالتقصير في رعاية حق الله تعالى، ويراها أقل من أن تليق عبادة للرب جل جلاله والوفاء بحقه، بل لو جمعت عبادة الثقلين وكانت لواحد من الخلق لبقيت أقل من أن تليق عبادة للرب والوفاء بحقه جل ثناؤه، ومن هنا فإنهم ينظرون إلى أعمالهم على أنها لا تساوي شيئاً بالقياس إلى ما يجب للرب

(١٤٤٠) متفق عليه: البخاري (٤٨) و(٤٤٠٤)، ومسلم (٩) و(١٠) و(١١).

تبارك وتعالى، وإنما هي جهد المقل وبضاعة مزجاة، فيرون استغفارهم يحتاج - لما فيه من التقصير - إلى استغفار كثير، بل من حقه أن يضيف أن صلاتنا وصيامنا تحتاج إلى استغفار كثير.

وعلى ذلك وجب أن يفهم كلام هؤلاء الفضلاء على أنه ليس المقصود منه بيان الحكم التكليفي للاستغفار من الناحية الفقهية، من حيث الوجوب والندب والحرمة وغيرها من أقسام الحكم التكليفي، فالكلام من مقام الإحسان غير الكلام من مقام الفقه، ومن أمثلته أيضاً قول بعضهم: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فالذي في مقام المقربين يرى أعماله السابقة يوم كان في مرتبة الأبرار - أصحاب اليمين - مملوءة بالتقصير في حق الرب جل جلاله - فيراها سيئات يتوب عنها، وإن كانت هي في ذاتها حسنات، وهي في حقيقة الأمر ليست سيئات بالمصطلح الشرعي للسيئة التي تجر الإثم على صاحبها.

١٢٥٣- الاستغفار المجرد سبب أصلي من أسباب المغفرة غير معلق على التوبة:

قد ذكرنا ذلك سابقا عند الكلام على حل عقدة الإصرار ونعيده هنا لمناسبته وأهميته فنقول:

قد بان لنا أن الاستغفار مع الندم وما يفضي إليه من الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة إليه مستقبلاً هو توبة، وأن الاستغفار من غير ندم ومن غير تذكر ذنب يستغفر عنه أو مع تذكره هو في حقيقته دعاء بطلب المغفرة من الله تعالى، بمعنى أنه نوع من أنواع الدعاء. وهو بهذا الوصف - وإن لم يقترن بالتوبة - فإنه يكون صالحاً لأن يعد سبباً مستقلاً من أسباب المغفرة.

وعلى ذلك فالاستغفار المجرد من غير توبة سبب للمغفرة ولكن لا يقطع له بحصول المغفرة باستغفاره، وهو يأخذ حكم الدعاء الذي يكون فيه خير لصاحبه في كل الأحوال وإن لم تعجل له الإجابة. وهو ليس توبة معلولة، لأنه ليس توبة أصلاً، كما أنه ليس توبة الكذابين في كل الأحوال كما فهم من بعض عبارات أهل الفضل والصلاح من أن الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين، فإن قولهم هذا معناه أنه كاذب إذا ادعى أن هذا الاستغفار يساوي التوبة، أو أنه تائب بهذا الاستغفار، فتوبته المزعومة هذه توبة الكذابين فعلاً، وكلامنا ليس فيها، وإنما كلامنا في الاستغفار المجرد بنية الاستغفار

باعتباره نوعاً من الذكر والعبادة يتضمن طلب المغفرة من الله تعالى لا بنية التوبة، ومن هذا يتبين أن إصراره على الذنب لا يضاد الاستغفار منه - ولكنه يضاد التوبة لأنه لا توبة مع الإصرار على الذنب - فمثلما يسبح، ويحمد، ويهلل، ويكبر، فله أن يستغفر بل هو أحوج إلى الاستغفار من غيره.

والاستغفار من غير التائب نوع من العبادة ونوع من عمل الحسنات الماحية، وقد يحصل له من الخشوع ما يمحو الله به خطيئته فينفعه الله بهذا الاستغفار، وأقل ما فيه أن هذا العبد المذنب علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، وأنه خائف من الله بقدر ما، ولذلك طلب المغفرة، وأنه شغل قلبه ولسانه، أو حتى لسانه فقط، بالذكر، عن الاشتغال بمباح أو مكروه أو حرام. فكيف لا ينفعه هذا الاستغفار وهذا حال كل المخلطين من أهل الإسلام وحال الكثير من الصالحين أيضا؟، فما من مسلم إلا وله ذنوب عليه أن يتوب منها ولما يتب منها بعد، وقد تكون له ذنوب لا يعلمها، وله وذنوب نسيها، وذنوب تتجدد له كل يوم تقتضي الاستغفار، من ذنوب السمع والبصر والفؤاد وبقية الجوارح، هذا مع ذنوب التقصير في الواجبات، فإن لم تساعده نفسه على التوبة النصوح الصادقة الشاملة التي فيها النجاة والتي تسمو على الاستغفار المجرد بأنها تبدل السيئات حسنات وترفع صاحبها أعلى الدرجات وتجعل صاحبها حبيب الرحمن، نقول: إن لم تساعده نفسه على التوبة لقلة يقظته وضعف همته فعليه أن يتدارك نفسه بعمل الحسنات الماحية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، والاستغفار واحد منها، أو هو أحد أسباب المغفرة المستقلة. ومن لم يقدر على الأكمل فلا ينبغي أن يترك الأقل، وإن كان أقل منه بكثير، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن المعصية: «يزول موجبها بأشياء: أحدها: التوبة، والثاني: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال...»[١٤٤١].

(١٤٤١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥٥.

وقال ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: «وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع من غير إقلاع عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله[١٤٤٢] ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داع دعوة مجردة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان بين إحدى ثلاث، إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها، وإما أن يصرف من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله إذا نكثر، قال : الله أكثر) ، فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة، وإذا لم تحصل فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء، وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان، الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة»[١٤٤٣].

ومما تقدم يظهر أن الاستغفار هو في الأصل سبب مستقل من أسباب المغفرة غير معلق قبوله على التوبة، إلا أنه قد تحصل به المغفرة وقد لا تحصل، بخلاف التوبة التي قطع القرآن والسنة بحصول المغفرة بها. وفي حالة عدم حصول المغفرة به فإنه لا يكون بلا نفع لصاحبه بل هو من الحسنات التي تكتب في صحيفة أعماله كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(١٤٤٢) معنى العبارة (وهذا يأس من رحمة الله) غير مستقيم مع السياق ولا بد من وجود نقص في الكلام في « الفتاوى الكبرى » ج:٢ ص:٣٥١ ، فرجعنا إلى « مجموع الفتاوى » ج:١٠ ص:٣١٩ فوجدنا أن العبارة مطابقة لما في الفتاوى الكبرى وهي قوله (وهذا يأس من رحمة الله) ونحن نرى أن العبارة لم تنقل صحيحة من الأصل المخطوط وأن قبلها كلام لم ينقل من الأصل ونقدرها بأن يقال: فإن قيل إن استغفاره هذا لا يجلب رحمة الله له لأنه غير تائب من الذنب الذي يستغفر منه، قلنا إن في ذلك تثبيطاً له عن الاستغفار، وهذا يأس... إلخ ، أو نحو هذا الكلام. والله أعلم.

(١٤٤٣) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥١.

١٢٥٤- تحرير مسألة الاستغفار المجرد الواقع من غير التائب:

معلوم أن الاستغفار مع التوبة هو الكمال وهو الأول فيما ندعو أنفسنا والمسلمين إليه، ولكن الاستغفار باللسان مواطئاً للقلب من غير توبة يمكن أن يعد الثاني، وهو ناقص بالنسبة للأول، وأن الاستغفار باللسان فقط من غير توبة ومن غير أن يكون له أثر في القلب هو الثالث، وهو ناقص بالنسبة للأول والثاني، وهو أضعف شيء بالنسبة لهما، ولكنه أفضل من السكوت وأفضل من اشتغال اللسان بغيره من المباح واللغو وغيره.

وواضح تماماً أن هذا الموضوع يحتاج إلى تحرير لإزالة التعارض الظاهري مع قول من قال: إن الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكذابين، وأنه ذنب يجب الاستغفار منه ما دام لم يحل عقدة الإصرار. وكذلك من أجل البرهان على أن الاستغفار سبب مستقل من أسباب المغفرة وإن كان لا يقطع بحصول المغفرة به خلافاً للتوبة.

وقد انتقينا أفضل ما نراه مناسباً علمياً من أجل بيان القول السديد في هذا الموضوع من كلام حجة الإسلام الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى:

١٢٥٥-١- قول الإمام الغزالي في الاستغفار الحاصل من غير التائب:

نورد فيما يلي كلام الإمام الغزالي - مشذباً ومختصراً - مع المحافظة على عبارته: قال رحمه الله: «... فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار؟ وفي الخبر: (المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله)[١٤٤٤]، وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير؟.

فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر، ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ

(١٤٤٤) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقة البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

ﭐللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان، ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا، وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا(١٤٤٥).

فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار: نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة، فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ : (ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة)(١٤٤٦)، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب.

وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها... وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة.

فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار، من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧] صدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان

(١٤٤٥) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾ [الأنفال: ٣٣] الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أخرجه أحمد من قول أبى موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله علي أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه في تفسيره. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٤٤٦) حديث أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوي (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في: الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ١ ص: ٣١٢).

الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصي فلا تنفيها، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط، وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري... أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة.

فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا.

بل أقول: الاستغفار باللسان أيضا حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل، فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول.

وما ذكره حق، فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع، يدفع جملة من المعاصي:

فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً، سبق لسانه إلى ما تعود فقال: أستغفر الله، ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك.

ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعود الفضول قال: لعنه الله.

فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير، وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ومعاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان... [وقول] رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير، فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فإن هذه أمور تثبت بالإضافة، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي، ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث، رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عبادة فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى، وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه»(١٤٤٧).

١٢٥٦-٢- قول الإمام ابن تيمية في الاستغفار الواقع من غير التائب:

ونقدم فيما يلي بعضاً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة - مشذباً ومختصراً - مع المحافظة على عبارته، وقد استخلص فيه عشرة أسباب لمغفرة الذنوب وزوال عقوبتها ذكرناها مفصلة في فقرات سابقة من هذا الكتاب، ونكتفي هنا بذكر الثلاثة الأول منها لتعلقها بما نحن فيه من تحرير مسألة الاستغفار الواقع من غير التائب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١٤٤٨): «...وأيضا قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب:

أحدها: التوبة: وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وأمثال ذلك.

(١٤٤٧) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج: ٤ ص: ٤٧-٤٩.

(١٤٤٨) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٨٧-٥٠١.

السبب الثاني: الاستغفار: كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء، قال ذلك في الثالثة أو الرابعة)[1449] وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم)[1450]، وقد يقال على هذا الوجه: الاستغفار هو مع التوبة كما جاء في حديث: (ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم مائة مرة)، وقد يقال: بل الاستغفار بدون التوبة ممكن واقع، وبسط هذا له موضع آخر، فإن هذا الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به عام في كل تائب، وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب كما في حديث البطاقة بأن قول لا إله إلا الله ثقلت بتلك السيئات لما قالها بنوع من الصدق والإخلاص الذي يمحو السيئات، وكما غفر للبغي بسقي الكلب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان، وأمثال ذلك كثير[1451].

السبب الثالث: الحسنات الماحية: كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ : (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[1452]، وقال: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1453]، وقال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1454]، وقال: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[1455] وقال: (فتنة الرجل

(١٤٤٩) متفق عليه: البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (٤٩٥٣).

(١٤٥٠) أخرجه مسلم (٤٩٣٦)، والترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (٢٤٩٢).

(١٤٥١) وقال في موضع آخر: «وأما الاستغفار بدون التوبة فهذا لا يستلزم المغفرة ولكن هو سبب من الأسباب» ابن تيمية: منهاج السنة النبوية: ج: ٦ ص: ٢١٢

(١٤٥٢) أخرجه مسلم (٣٤٤)، وأحمد (٨٨٣٠).

(١٤٥٣) متفق عليه: البخاري (٣٧) و(١٧٦٨) و(١٨٧٥)، ومسلم (١٢٦٨).

(١٤٥٤) متفق عليه: البخاري (١٧٦٨) و(١٨٧٥)، ومسلم (١٢٦٨).

(١٤٥٥) متفق عليه: البخاري (١٤٢٤) و(١٦٩٠) و(١٦٩١)، ومسلم (٢٤٠٤).

في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[١٤٥٦]، وقال: (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه)[١٤٥٧]، وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح، وقال: (الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)[١٤٥٨].

وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا: الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة كما قد جاء في بعض الأحاديث: (ما اجتنبت الكبائر)، فيجاب عن هذا بوجوه:

أحدها: أن هذا الشرط جاء في الفرائض كالصلوات الخمس والجمعة وصيام رمضان وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلابد أن يكون لها ثواب آخر، فان الله سبحانه يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر [بأعمال صالحة أخرى غير التوبة ومنها الاستغفار المجرد] كما في قوله: (غفر له وان كان فر من الزحف)، وفي السنن: (أتينا رسول الله في صاحب لنا قد أوجب، فقال: أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار)...

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[١٤٥٩] إن حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم، فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر.

(١٤٥٦) متفق عليه: البخاري (٤٩٤) و(١٣٤٥) و(١٧٦٢) و(٣٣٢١) و(٦٥٦٧)، ومسلم (٥١٥٠).
(١٤٥٧) متفق عليه: البخاري (٦٢٢١)، ومسلم (٢٧٧٦) و(٢٧٧٧).
(١٤٥٨) ابن ماجة (٤٢٠٠)، وأحمد (٢١١١٦).
(١٤٥٩) متفق عليه: البخاري (٢٧٨٥) و(٤٥١١)، ومسلم (٤٥٥٠).

الرابع: أنه قد جاء في غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فان أكملها وإلا قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك(١٤٦٠) ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب، فإن ترك المستحب لا يحتاج إلى جبران، ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول، فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات...

ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحظور لأن الإخلال بذلك سبب للذم والعقاب وإن جاز مع إخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب، كما عليه أن يحتمي من السموم القاتلة وإن كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية، والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم، ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته، بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها إلى رفع الضرر عنهم، ولهذا قيل: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله، ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب، قال بعضهم لشيخه: إني أذنب، قال: تب، قال ثم أعود، قال: تب، قال: ثم أعود، قال: تب، قال: إلى متى؟ قال: إلى أن تحزن الشيطان. وفى المسند عن علي عن النبي [ﷺ] أنه قال: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)(١٤٦١)...

ثم مضى ابن تيمية رحمه الله يذكر الأسباب السبعة الباقية للمغفرة وزوال العقوبة على الذنب - والتي ذكرناها مفصلة في فقرات سابقة من هذا الكتاب - ثم قال:

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه،كما قال تعالى فيما يروي عنه رسول الله [ﷺ]: (يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)»(١٤٦٢).

(١٤٦٠) النسائي (٤٦٢) و(٤٦٣)، وابن ماجة (١٤١٥) ولفظه: عن أبي هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول إن أول ما يحاسب به العبد المسلم يوم القيامة الصلاة المكتوبة فإن أتمها وإلا قيل انظروا هل له من تطوع فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك)، وأحمد (١٦٠١٩)، والدارمي (١٣٢١).

(١٤٦١) أحمد (٥٧١) و(٧٦٩). قال العراقي: «ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي أن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب» (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء ٤/ ٥).

(١٤٦٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٥-٤٦ والحديث أخرجه مسلم (٤٦٧٤).

قلت: وإنما ذكرنا كل هذا التفصيل من أجل البرهان على أن الاستغفار المجرد، ومن غير توبة، ومن غير إقلاع عن المعصية، وسواء استذكر صاحبه المعصية فاستغفر عنها أو لم يستذكرها، أو لم تخطر في باله ساعة الاستغفار، هو في الحقيقة حسنة من الحسنات، وأنه بوصفه دعاء بطلب المغفرة لا بد أن يكون له ثواب، ولكنه يأخذ حكم الدعاء، فلا يقطع له بالمغفرة، قال ﷺ: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نكثر، قال: الله أكثر)[١٤٦٣].

وبعد: فإن التوبة الصادقة المخلصة تبقى فوق الاستغفار المجرد عن التوبة بدرجات عظيمة حتى لو كان الاستغفار بالقلب واللسان، ولها من المزايا ما ليس للاستغفار المجرد، فهي المختصة بأنها تفضي إلى محبة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وهي وحدها التي تستجلب استغفار الملائكة الخاص ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [غافر: ٧]، والإفضاء إلى المغفرة الموعودة وعدا مؤكدا: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وهي وحدها المختصة بتبديل السيئات حسنات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]، إلى غير ذلك من مزايا التوبة وثمراتها العظيمة.

ومن جهة ثانية فإن التائب، وقد نقلته التوبة إلى منزلة الإنابة، سيجد نفسه يلهج بالاستغفار ويواظب عليه، مما يعينه على حفظ توبته ودوامها إلى آخر العمر، فإن التوبة التي يرافقها الاستغفار على الدوام حرية بأن تدوم وتبقى إلى الموت إن شاء الله تعالى، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن بعض العلماء عد الاستغفار من التائب ركنا في التوبة وهو مذهب الظاهرية، قال ابن حزم: «والتوبة... : تكون بالندم، والإقلاع، والعزيمة على أن لا عودة أبدا ، واستغفار الله تعالى»[١٤٦٤].

وبهذا ننتهي من الكلام في الاستغفار بوصفه وسيلة من الوسائل التي تعين التائب في لزوم توبته والثبات عليها إلى آخر العمر، وقد توسعنا فيه بما ينفع التائبين وغيرهم لأهميته، ونتابع الآن الكلام في الوسائل الأخرى التي تساعد التائب على حفظ توبته ورعايتها إلى الموت، والله المستعان.

(١٤٦٣) أحمد (١٠٧٠٩) واللفظ له، و (٩٤٠٩) بلفظ : (ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة إلا أعطاها إياه إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له).

(١٤٦٤) ابن حزم: المحلى: ١/ ٧٠ ، مسألة: ٨٨.

المبحث الثالث
قطع سبل الرجوع عن التوبة
(الابتعاد عن كل ما يغريه في الوقوع فيما تاب منه)

١٢٥٧- المقصود بقطع سبل الرجوع عن التوبة:

المقصود بهذه الوسيلة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر: أن يقطع التائب على نفسه السبل التي تسحبه إلى الوراء وترده عن توبته، فتجعله لا يصونها ولا يرعاها، وتعيده إلى الذنب أو الذنوب التي تاب منها.

ومعلوم أن للشيطان الرجيم دوراً كبيراً في ذلك لأنه قد أغاظته توبة التائب أعظم إغاظة فهو يسعى لاستعادته إلى صفه بعد أن أفلت منه بالتوبة النصوح.

والتائب محتاج إلى الصبر لدفع هوى النفس وكيد الشيطان، وقد عرفنا الصبر سابقاً بأنه: هو حبس النفس عن الشكوى لغير الله، وحملها على تحمل المشقة والمعاناة الناشئة من تغليب باعث الدين على باعث الهوى بإلزام النفس فعل المأمورات وترك المحظورات. وعدم التبرم بالابتلاء .

وقد ذكرنا سابقاً عند الكلام على طبقات التائبين أن هناك طبقة من التائبين تصبح التوبة قرة عين لها، وحلاوة الإيمان تملأ قلوب أصحابها، فيحسون بأنهم يعيشون في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة، وذلك عندما تكون محبتهم لله تعالى قد أغنتهم وكفتهم عن كل ما سواها فصاروا يكرهون العودة إلى المعاصي والضلال كما يكرهون أن يقذفوا في النار، وهذا شيء يعرفه التائبون ويتذوقونه، ومن هذا المعنى قوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[١٤٦٥]. وهؤلاء أبعد عن الرجوع عن توبتهم بإذن الله وتوفيقه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأنعام: ٨٠].

(١٤٦٥) متفق عليه: البخاري (١٥) و(٦٤٢٨)، ومسلم (٦٠) واللفظ له.

وطبقات أخرى أقل من هؤلاء مرتبة يجاهدون منازعة النفس وهواها فيحتاجون إلى المزيد من الصبر لرعاية توبتهم والمحافظة عليها إلى آخر العمر.

وهؤلاء وأولئك محتاجون إلى أن يساعدوا أنفسهم ويمكنوها من الصبر بالابتعاد عن كل ما يغريهم في الوقوع فيما تابوا منه - شعارهم في ذلك: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهو شعار يصلح أن يتخذه التائب بخاصة والمسلم بعامة دستوراً له في حياته يعصمه من كل معصية توشك أن تلم به.

١٢٥٨- أسباب وقوع التائب في الذنوب التي تاب منها ومعالجتها:

ومن جملة ما يغريهم في الوقوع فيما تابوا منه ستة أشياء:

التساهل في البدايات التي تجر إلى سوء النهايات، ثم النفس، والشيطان، والمكان، والخلان، وضعف الإيمان وهو أشدها أثراً.

وقد تكلمنا في مباحث سابقة عن الثلاثة الأول منها، فيبقى الكلام على أثر المكان، والخلان، أما ضعف الإيمان فقد خصصنا لمعالجته مبحثاً مستقلاً تحت عنوان: إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات، بوصفه أحد الوسائل المهمة من وسائل لزوم التوبة إلى آخر العمر.

١٢٥٩- التائب بحاجة إلى نهج جديد في حياته من حيث المكان والخلان:

وفيما يلي الكلام على المكان والخلان وضرورة أن ينهج التائب نهجاً جديداً في حياته: فيلازم صحبة الأخيار ويفارق صحبة الأشرار مكاناً وأشخاصاً:

١٢٦٠- ملازمة صحبة الأخيار ومفارقة صحبة الأشرار مكاناً وأشخاصاً:

من الضروري للتائب بخاصة وللمسلم بعامة أن يقطع الطريق على نفسه في إمكان وقوع المعصية منه، وذلك بمفارقة المكان الذي يسهل وقوع المعصية أو يتسبب فيها، ومفارقة رفقة السوء التي تساعد على الوقوع فيها، أي الابتعاد عن الظروف والبيئة المناسبة للمعصية، واستبدال غيرها بها، ولا يكون ذلك إلا بالملازمة لصحبة الأخيار والمفارقة والهجر لصحبة الأشرار مكاناً وأشخاصاً:

١٢٦١- أولاً - ملازمة صحبة الأخيار والبيئة الصالحة [١٤٦٦]:

التائب محتاج إلى التحول إلى بيئة صالحة مكاناً وأشخاصاً، وقوام ذلك: العيش في جو إيماني يسوده الإيمان والعمل الصالح، ويشيع فيه المعروف وينحسر المنكر ويجد فيه التائب من يصاحبهم من الصالحين المتخلقين بأخلاق الإسلام، فهذه المصاحبة والمخالطة تؤدي إلى الاستفادة والاقتباس، اقتباس الأخلاق الحسنة والاستعلاء والتسامي عن الأخلاق السيئة ومقتضياتها، وتعظيم حرمات الله إحرازا للتقوى، لأن رؤية الصالحين ومجالستهم والسماع منهم تؤثر في النفس وتقنعها، وتنمي فيها القدرة على ممارسة الأخلاق الحسنة ونبذ الأخلاق الرديئة بما في ذلك المعاصي جميعاً.

وقد أوصى القرآن الكريم بمصاحبة الأخيار، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

ومثل ذلك جاء في السنة النبوية، فقال ﷺ : (لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي)[١٤٦٧]، فالمصاحبة والمخالطة لمن هو من أهل الصلاح والتقوى والخلق الحسن طريق إلى الإقتداء به، والاقتباس منه، ومحاكاته في صفاته وأخلاقه والتزامه بالطاعات وتجنبه المحرمات. ومن السنة أيضاً ما ورد في حديث قاتل المائة فقد أمر بالتحول إلى بيئة صالحة مع أناس يعبدون الله فيعبد الله معهم، وسيرد مزيد من الإيضاح بشأن هذا الحديث في الفقرة التالية.

١٢٦٢- ثانيا - مفارقة صحبة الأشرار مكاناً وأشخاصاً [١٤٦٨]:

ومعنى ذلك هجر البيئة الفاسدة ورفقة السوء لأنها كالمكان الموبوء الذي يجلب المرض للشخص السليم المعافى، ويزيد في مرض من هو قليل العافية.

(١٤٦٦) انظر في هذا المعنى للمؤلف: النظم الإسلامية ص١١٦.

(١٤٦٧) النووي: رياض الصالحين ص ١٤٧ والحديث رواه الترمذي.(٢٣١٨).

(١٤٦٨) انظر في هذا المعنى للمؤلف: النظم الإسلامية ص ١١٨-١١٩.

١٢٦٣- الإنسان يتأثر بالبيئة سلباً وإيجاباً:

ذلك الإنسان يتأثر بالبيئة سلباً وإيجاباً، يدل على ذلك قوله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١٤٦٩]، ففي الحديث بيان لتأثر الإنسان بالبيئة المحيطة به. ومثل ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)[١٤٧٠].

فإن البيئة الفاسدة بما فيها من رفقاء السوء من شياطين الإنس تسهل وقوع الإنسان في الحرام وتهيئ له ظروفه بسهولة ويسر، وترفع المعوقات فتختصر الطريق إلى الوقوع في المحرمات وممارسة المعاصي وسيئ الأخلاق، إذ هي مألوفة في هذه البيئة غير مستنكرة، كما إن البيئة الفاسدة يصعب معها ممارسة الأخلاق الإسلامية السامية والثبات على الطاعات وأدائها الأداء الحسن من غير تشتت قلب إلا بمشقة زائدة وصبر كثير. ومع هجر البيئة الفاسدة ينبغي التحول - كما ذكرنا من قبل - إلى البيئة الصالحة التي يسود فيها الصلاح والتقوى ويكثر فيها الصالحون الطيبون، لأنها تقوي في الإنسان معاني الإيمان وتساعده على ممارسة الأخلاق الإسلامية الحسنة وتشجعه على لزوم الطاعات.

ولا يجوز للمسلم أن يعاشر رفقة السوء ويختار البيئة الفاسدة بحجة أنه قوي الإيمان متين الأخلاق، وأن فساد تلك البيئة وسوء تلك الرفقة لا يؤثر عليه، فإن هذا من تلبيس إبليس ووساوسه ليقربه بالتدريج من جو المعصية، ويسهل وقوعه فيها، ويضعف قدرته على الثبات على معاني الإيمان وممارسة شعائر الإسلام.

١٢٦٤- نهي القرآن والسنة عن اختيار البيئة الفاسدة:

وقد نهى القرآن الكريم عن اختيار البيئة الفاسدة، واعتبر من اختارها فقد ظلم نفسه إذا أضاع دينه وإيمانه، فقال تعالى فيمن بقي من المسلمين يساكن المشركين في بيئتهم

(١٤٦٩) البخاري (١٢٩٦) ومسلم (باب معنى كل مولود يولد على الفطرة)، وأبو داود (٤٠٩١)، وأحمد(٦٨٨٤)، ومالك(٥٠٧).

(١٤٧٠) المنذري: الترغيب والترهيب ج: ٤ ص: ٢٤ وقال: رواه البخاري ومسلم.

الفاسدة ولم يهاجر مع المؤمنين إلى بيئتهم الإسلامية الصالحة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]. وقال تعالى في رفقة السوء: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. وقال تعالى حكاية عن أهل النار وقد سألهم المؤمنون عن سبب دخولهم سقر: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، قال القرطبي في تفسيرها: «أي: كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم»[١٤٧١]. وقريب من هذا المعنى في النهي عن مجالسة أهل الباطل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال صاحب زاد المسير في تفسيرها: «في من أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: المشركون، والثاني: اليهود، والثالث: أصحاب الأهواء، والآيات: القرآن، وخوض المشركين فيه: تكذيبهم به واستهزاؤهم، ويقاربه خوض اليهود وخوض أهل الأهواء بالمماراة والخصومات، قوله تعالى: (فأعرض عنهم): فاترك مجالستهم حتى يكون خوضهم في غير القرآن، (وإما ينسينك)... والمعنى: إذا أنساك الشيطان فقعدت معهم ناسياً نهينا لك، فلا تقعد بعد الذكرى... قال ابن عباس: قم إذا ذكرته»[١٤٧٢].

وتأسيسا على كل ما تقدم ينصح التائب إلى الله تعالى بترك معايشة البيئة الفاسدة السابقة وقطع حباله وصلاته بها قطعا تاما، والتحول إلى بيئة صالحة تساعده في أن يعبد الله تعالى، وأن تنمو في نفسه أخلاق الإيمان والتقوى ليتمكن من فتح صفحة بيضاء ناصعة البياض في حسن صلته مع الله تعالى ليس فيها رذائل الأخلاق والمعاصي، ونستدل لذلك بما ورد عن النبي ﷺ الذي ورد فيه حكاية توبة رجل ممن كانوا قبلنا وقد قتل مائة نفس ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة

(١٤٧١) تفسير القرطبي: ج:١٩ ص:٨٧ وانظر أيضا فتح القدير ج:٥ ص:٣٣٣.

(١٤٧٢) تفسير زاد المسير: ج:٣ ص:٦١.

نفس فهل له من توبة؟ فقال: (نعم ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء)(١٤٧٣).

١٢٦٥- شعار التائب: «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه »:

فمن أجل أن يحفظ التائب توبته ويرعاها ويصونها يحتاج أن يكون موقفه من الذنوب جميعا موقف التقوى والحذر الشديد، معتصماً بربه جل جلاله، منيباً إليه، شاكراً صابراً، فإذا جاذبته نفسه إلى المعصية، أو وسوس له الشيطان بها، أو دعاه إليها قرناء السوء، أو هيأتها له البيئة الفاسدة، وجب عليه أن يتفكر بتوبته، ولقاء ربه، وعاقبة ذنبه، فيقابل دعوة السوء والمعصية والذنب بشعاره الجديد الذي اتخذه دستوراً لحياته: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣].

إن هذا الشعار الذي أطلقه يوسف ﷺ أمام أصعب امتحان هو في الحقيقة يصلح للنجاح أمام كل الابتلاءات بالمعصية المتعلقة بضلال العقول وشهوات البطون والفروج.. يصلح للنجاح والثبات أمام شهوات المال والجاه والجنس وجميع أنواع المعاصي، فالعفة عنها، والورع بشأنها جميعا ينبغي أن يكون شعار المسلم التقي بعامة، والتائب بخاصة، فكلما دعي إلى معصية هتف: (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه).

(١٤٧٣) متفق عليه: البخاري(٣٢١١)، و مسلم (٤٧٦٩) ولفظه فيه: (حدثنا محمد بن المثنى ومحمد ابن بشار واللفظ لابن المثنى قالا حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن أبي الصديق عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال: لا، فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة قال قتادة فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره).

إن هذا الشعار لا يقتصر على رفض الفاحشة وإنما يمتد إلى كل المعاصي الأخرى التي شأن المؤمن أن لا يفعلها وشأن التائب أنه تخلص منها ونبذها وراءه، فكلما وجد نفسه أمام خيارين: خيار معصية الله تعالى ولو كانت معها الدنيا بحذافيرها، وخيار طاعة الله تعالى ولو مع العنت والضيق، اختار طاعة الله ورضوانه، وهتف بقلبه ولسانه: (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)، فإذا جعل ذلك شعاره ودستوره في الحياة حفظ توبته ورعاها وصانها إلى آخر العمر، وزاده الله ترقياً في مدارج الإيمان حتى يجد حلاوة الإيمان في قلبه تفوق كل حلاوة وكأنها جنة يعيش القلب فيها، فيكره أن يرجع إلى سابق عهده من الذنوب كما يكره أن يقذف في النار، ويحبب الله له الإيمان ويزينه في قلبه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويجعله من الراشدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات:٧-٨].

١٢٦٦- قول ابن القيم في المخالطة وماذا يفعل من ابتلي بمخالطة البيئة الفاسدة:

قال ابن القيم: «وأما مفسدات القلب الخمسة فهي... : كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام. فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب فنذكر آثارها التي اشتركت فيها وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه وآفات النفس والعمل وقطاع الطريق بنوره، وحياته، وقوته، وصحته، وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه، وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه إن لم تصمه وتبكمه، وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام، فهي عائقة له عن نيل كماله، قاطعه له عن الوصول إلى ما خلق له وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه، فإنه لا نعيم له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنه الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة،

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام، وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً.

وهذه الأشياء الخمسة قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها...

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا وكم جلبت خلطة الناس [في غير دعوة أو نصيحة أو عمل مشروع] من نقمة ودفعت من نعمة، وأنزلت من منحة وعطلت من منحة، وأحلت من رزية وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس...، وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزناً وألماً وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنةً وذماً من بعضهم لبعض...

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات.

فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكنه أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً.

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه، فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان،... وعزيمة صادقة وفراغ من التعلق بغير الله تعالى والله تعالى أعلم»[١٤٧٤].

والآن وقد انتهينا من الكلام في قطع التائب لسبل الرجوع عن توبته إلى الذنوب التي تاب منها، مستفيداً من وسيلة ملازمة صحبة الأخيار ومفارقة صحبة الأشرار وهجرهم مكاناً وأشخاصاً، نتحول إلى الكلام عن حاجة التائب إلى إبقاء قلبه حياً بمعاني الإيمان وتنشيط جوارحه بأنواع الطاعات، وسيلة لدوام توبته إلى آخر العمر.

(١٤٧٤) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٤٥٤-٤٥٦.

المبحث الرابع
إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بأنواع العبادات

١٢٦٧- تمهيد وتقسيم:

وهذه هي الوسيلة الأخرى من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر: وهي تتضمن أمرين اثنين يوصلان إليها:

١- أن يبقي التائب قلبه حياً بمعاني الإيمان: فإن تلبس القلب بمعاني الإيمان نور وحياة له ويقظة مستمرة تمنع من الوقوع في المعصية، وبعكسه ضعف معاني الإيمان وهزالها في القلب فإنها ظلمات وخراب له، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

٢- وأن ينشط جوارحه بأنواع العبادات والطاعات ويحافظ على هذه الحال: لأن ذلك يزكي النفس فيجعلها نفسا زكية متنافرة ذاتياً مع المعاصي والذنوب ويجعل التائب أبعد عن الرجوع عن توبته.

وعلى ذلك نقسم هذا المبحث إلى مطلبين :

- المطلب الأول: في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان.
- والمطلب الثاني: في تنشيط الجوارح بأنواع العبادات.

وفيما يلي بيان ذلك وبيان الوسائل الموصلة إليه.

المطلب الأول
إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان

١٢٦٨- تمهيد وتقسيم:

يحتاج التائب بخاصة والمسلم بعامة إلى إبقاء قلبه حياً بمعاني الإيمان لئلا تحصل له فترة وقد تطول فترته، أو يحصل له ضعف في الإيمان فيساعد على معاودة الذنوب التي تاب منها، فإن ارتكاب المعصية من ضعف الإيمان كما قررنا ذلك سابقاً.

١٢٦٩- حياة القلب بالعبادات القلبية والعملية:

والقلب يبقى حياً بمعاني الإيمان بقدر ما فيه من (العبادات القلبية)، وبقدر ما يمارس العبد من الطاعة التي تزيد في الإيمان، فالعبادات القلبية من محبة الله وخشيته والإنابة إليه والتوكل عليه ومطالعة صفاته بالقلب والأنس بذكره ومناجاته ، وأيضاً بدوام ذكر اليوم الآخر وحضوره في القلب - فإن التفكر في نعيم الآخرة ينسيه كل شهوات الدنيا، والتفكر في عذاب الآخرة يوجد الخوف الذي يحرق مواقع الشهوات المحرمة في القلب .. نقول: كل ذلك يعمل على إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان ويشكل وسيلة عظيمة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر.

١٢٧٠- محركات القلوب في السير إلى الله تعالى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته، فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء. وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

١٢٧١- كيف يحرك العبد قلبه في السير إلى الله تعالى:

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب؟ قلنا يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلابد أن يثير ذلك عنده باعثا.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه.
وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء»(١٤٧٥).

١٢٧٢- ثلاثة أشياء يحتاجها أهل الإسلام عامة والتائبون خاصة:

ومع أهمية جميع العبادات القلبية إلا أننا سنركز في هذا المطلب على ثلاثة أشياء يحتاج إليها أهل الإسلام والإيمان في الأرض كلها أعظم الحاجة، ويحتاج إليها التائبون بوصفها واحدة من الوسائل التي تساعدهم في بقاء توبتهم ودوامها إلى الموت، وهي: محبة الله تعالى أولاً، والخوف منه وخشيته ثانياً، والتفكر في اليوم الآخر ثالثاً. وسنتكلم عن ذلك في ثلاث فقرات:

- الفقرة الأولى: محبة الله تعالى وأثرها في دوام التوبة.
- الفقرة الثانية: الخوف من الله تعالى وأثره في دوام التوبة.
- الفقرة الثالثة: التفكر في الآخرة وأثره في دوام التوبة.

الفقرة الأولى
محبة الله تعالى وأثرها في دوام التوبة

١٢٧٣- المحبة أعلى صفة يحبها الله في المؤمن:

قد ذكر الله تعالى في التنزيل العزيز أنه لو اختار عباداً بنفسه فإنه يختارهم ممن تكون أول صفة فيهم محبة الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي

(١٤٧٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩٥-٩٦.

ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ووضع القرآن الكريم: الدنيا وما فيها من الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن.. وضع كل ذلك في إحدى كفتي الميزان، ووضع في الكفة الأخرى: حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وأمر بتفضيل حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله على الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

١٢٧٤- سببان أساسيان لنشوء محبة العبد لله تعالى:

ومحبة العبد لربه تبارك وتعالى تنشأ في القلب من سببين رئيسين كبيرين:

١٢٧٥- السبب الأول: مطالعة أسمائه وصفاته:

وكلها صفات كمال، ونعوت جمال وجلال، فلا يزال العبد يطالعها ويستذكرها حتى يشهدها القلب، فإذا شهدها القلب صار قرة عينه العيش في رياضها، والتنعم بذكرها، والنفس مجبولة على حب الكمالات فيكون هذا سبباً لمحبته لربه جل جلاله فهو المحبوب لذاته وصفاته.

١٢٧٦- السبب الثاني: مطالعة آلائه ونعمائه وإحسانه:

فقد خلق الله تعالى هذا الوجود على الوجه الأتم بالحق، فكان الإنسان ممن خلق، خلقه معجزة من نطفة فإذا هو روح وجسد وعقل، سمع وبصر وفؤاد، خلقه بيديه تشريفاً، وأسجد له ملائكته تكريماً، وشرع تكريمه، وتفضيله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وجعل تكريمه وتفضيله ديناً واجب الاتباع والتطبيق: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

أنعم على الإنسان، ورحمه وشرفه، بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي ختمها بالقرآن العظيم روحاً، ونوراً، وهدىً، وفرقاناً، وبصائر، ليقيم حياته على نهج الصراط المستقيم:

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وجعل كتابه ورسوله فضلاً ورحمة تستدعي الشكر والفرح: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وضمن كتابه ما به سعادة الإنسان في الدارين.

وأنعم عليه بأن سخر له ما في السماوات من شمس وقمر، وما في الأرض من جماد وحيوان وشجر، وبحر ونهر، وجنات معروشات وغير معروشات، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والنعمة والفضل والإحسان كلها تستدعي محبة المنعم المحسن جل جلاله.

فهو المحبوب لذاته وصفاته، وهو المحبوب لآلائه ونعمائه وإحسانه.

١٢٧٧- محبة الله تفضي إلى الطاعة وتمنع من المعصية:

ويمكن القول إن محبة الله «هي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها.

وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده، وفي هذا قال عمر: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، يعني: أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته، فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه.

١٢٧٨- المحبة الحاملة على الطاعة والمانعة من المعصية شرطها الإجلال والتعظيم:

وههنا لطيفة يجب التنبه لها وهي: أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة،

وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم.

فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١٤٧٦].

١٢٧٩- المحبة: حقيقتها ودرجاتها وثمراتها عند ابن القيم:

وقد تكلم ابن القيم في موضوع المحبة في أكثر من كتاب فأجاد وأفاد، ونحن نورد ما قاله في «مدارج السالكين» أثناء شرحه لكتاب «منازل السائرين» - مشذباً ومختصراً ومقتصراً فيه على ما تمس إليه الحاجة - مع المحافظة على عبارته، قال[١٤٧٧]:

«ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة المحبة: وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوِّئُهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

(١٤٧٦) ابن القيم: طريق الهجرتين ج: ١ ص: ٤٠٩.

(١٤٧٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٣ ص: ٦-٤٢ (مع تشذيب واختصار كثير بحذف جميع الاستطرادات التي نقدر أن القارئ الكريم ليس بحاجة إليها، وإضافة عناوين جانبية تساعد في الإيضاح والتركيز على المهم، وإضافات ضرورية في مواضعها محصورة بين معقوفتين، مع عزو الآيات، وتخريج الأحاديث).

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون:

من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويداً وتجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضا والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح:

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زاداً إليهم وسر على ... طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وأحي بذكراهم سراك إذا ونت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا
وإما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا

أول نقدة من أثمان المحبة بذل الروح فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟:

بدم المحب يباع وصلهم ... فمن الذي يبتاع بالثمن

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمناً، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

١٢٨٠- برهان صدق المحبة:

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل هذه

الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، فلما عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة وأن لها شأناً، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معا، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

١٢٨١- تعريف المحبة:

لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

الثاني: العلو والظهور، ومنه حبب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد وحبب الكأس منه.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه حب البعير وأحب إذا برك ولم يقم، قال الشاعر:

حلـــت عليـــه بـــالفلاة ضربـــا ضرب بعـــير الـــسوء إذ أحبـــا

الرابع: اللب، ومنه حبة القلب للبه وداخله، ومنه الحبة لواحدة الحبوب إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حب الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة فإنها: صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه وأشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإرداته وهمومه على محبوبه، فاجتمعت فيها المعاني الخمسة...

١٢٨٢- قالوا في تعريف المحبة:

... رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها وشواهدها، والكلام على ما يحتاج إليه منها:

الأول: قيل: المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم. وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة، والصحيحة والمعلولة.

الثاني: إيثار المحبوب على جميع المصحوب. وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

الثالث: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها، وهو أكمل من الحدين قبله، فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة .

الرابع: محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب لذاته. وهذا أيضاً من أحكام الفناء في المحبة: أن تنمحي صفات المحب، وتفنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه وأخذه منه.

الخامس: مواطأة القلب لمرادات المحبوب. وهذا أيضاً من موجباتها وأحكامها والمواطأة: الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه.

السادس: خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة. وهذا أيضاً من أعلامها وشواهدها وآثارها أن يقوم بالخدمة كما ينبغي، مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم.

السابع: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. وهذا قول أبي يزيد وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها، والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيا منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

الثامن: استكثار القليل من جنايتك واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من الذي قبله لكنه مخصوص بها من المحب.

التاسع: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة . وهو لسهل بن عبد الله وهو أيضا حكم المحبة وموجبها .

العاشر: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب. وهو للجنيد وفيه غموض، ومراده: أن استيلاء ذكر المحبوب وصفاته وأسمائه على قلب المحب حتى لا يكون الغالب عليه إلا ذلك ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلا بها فيصير شعوره وإحساسه بدلاً من شعوره وإحساسه بصفات نفسه، وقد يحتمل معنى أشرف من هذا: وهو تبدل صفات المحب الذميمة التي لا توافق صفات المحبوب بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته، والله أعلم .

الحادي عشر: أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء. وهو لأبي عبدالله القرشي، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها، والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك فتأخذه منه له.

الثاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب. وهو للشبلي، وكمال المحبة يقتضي ذلك، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

الثالث عشر: إقامة العتاب على الدوام. وهو لابن عطاء، وفيه غموض، ومراده: أن لا تزال عاتباً على نفسك في مرضاة المحبوب، وأن لا ترضى له فيها عملاً ولا حالاً.

الرابع عشر: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي أيضاً، وفيه كلام سنذكره إن شاء الله في منزلة الغيرة، ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أن يكون مثلك من محبيه.

الخامس عشر: إرادة غرست أغصانها في القلب فأثمرت الموافقة والطاعة.

السادس عشر: أن ينسى المحب حظه في محبوبه وينسى حوائجه إليه، وهو لأبي يعقوب السوسي، ومراده: أن استيلاء سلطانها على قلبه غيبه عن حظوظه وعن حوائجه واندرجت كلها في حكم المحبة.

السابع عشر: مجانبة السلو على كل حال. وهو للنصرآباذي وهو أيضاً من لوازمها وثمراتها كما قيل:

مرت بأرجاء الخيال طيوفه ... فبكت على رسم السلو الدارس

الثامن عشر: توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب .

التاسع عشر: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب، وهو لمحمد بن الفضل ومراده: توحيد المحبوب بالمحبة.

العشرون: غض طرف القلب عما سوى المحبوب غيرة وعن المحبوب هيبة. وهذا يحتاج إلى تبيين: أما الأول فظاهر، وأما الثاني فإن غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء الهيبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم، وقد قيل: إن هذا تفسير قول النبي ﷺ : (حبك الشيء يعمي ويصم)[١٤٧٨]، أي: يعمى عما سواه غيرة، وعنه هيبة، وليس هذا مراد الحديث، ولكن المراد به: أن حبك للشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه فلا تراها ولا تسمعها وإن كانت فيه، وليس المراد به ذكر المحبة المطلوبة المتعلقة بالرب، ولا يقال في حب الرب تبارك وتعالى حبك الشيء، ولا يوصف صاحبها بالعمى والصم، ونحن لا ننكر المرتبتين

(١٤٧٨) أبو داود (٤٤٦٥)، وأحمد (٢٠٧٠٥) و(٢٦٢٦٨).

المذكورتين، فإن المحب قد يعمى ويصم عنه بالهيبة والإجلال، ولكن لا توصف محبة العبد لربه تعالى بذلك وليس أهلها من أهل العمى والصمم، بل هم أهل الأسماع والأبصار على الحقيقة، ومن سواهم هم البكم العمي الصم الذين لا يعقلون.

الحادي والعشرون: ميلك للشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سراً وجهراً ثم علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول ذلك .

الثاني والعشرون: المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: لمت بعض الإباحية فقال لي ذلك، ثم قال: والكون كله مراده فأي شيء أبغض منه؟ قال الشيخ فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض أفعالاً وأقوالاً وأقواماً وعاداهم فطردهم ولعنهم فأحببتهم تكون موالياً للمحبوب أو معاديا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرا وافتضح بين أصحابه وكان مقدماً فيهم مشاراً إليه، وهذا الحد صحيح وقائله إنما أراد: أنها تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه، لا المراد الذي قدره وقضاه...

الثالث والعشرون: المحبة بذل المجهود وترك الاعتراض على المحبوب. وهذا أيضاً من حقوقها وثمراتها وموجباتها.

الرابع والعشرون: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم   لكن سكري نشا من رؤية الساقي

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ التي غاية صاحبها أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه وقهره له، فمحبة الله أعلى وأجل من أن تضرب لها هذه الأمثال وتجعل عرضة للأفواه المتلوثة والألفاظ المبتدعة، ولكن الصادق في خفارة صدقه.

الخامس والعشرون: أن لا يؤثر على المحبوب غيره، وأن لا يتولى أمورك غيره.

السادس والعشرون: الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

السابع والعشرون: المحبة سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام. قلت: أما سفر القلب في طلب المحبوب فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره .

الثامن والعشرون: أن المحبة هي مالا ينقص بالجفاء ولا تزيد بالبر. وهو ليحيى بن معاذ، بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته، فلا ينقص ذلك جفاؤه ولا يزيده بره، وفي ذلك ما فيه، فإن المحبة الذاتية تزيد بالبر، ولا تنقصها زيادتها بالبر، وليس ذلك بعلة، ولكن مراد يحيى: أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية فإذا جاء البر من محبوبه لم يجد في القلب مكاناً خالياً من حبه يشغله محبة البر، بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب، ومع هذا فلا يزيل الوهم، فإن المحبة لا نهاية لها، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره، فلا نهاية لمحبته، بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحد منهم كان ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله، ولهذا لا تسمى محبة العبد لربه عشقاً، كما سيأتي، لأنه إفراط المحبة، والعبد لا يصل في محبة الله إلى حد الإفراط البتة، والله أعلم.

التاسع والعشرون: المحبة أن يكون كلك بالمحبوب مشغولاً وذلك له مبذولاً.

١٢٨٣- نموذج جامع في المحبة:

الثلاثون: وهو من أجمع ما قيل فيها، قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده... فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين.

١٢٨٤- الأسباب العشرة المنشئة لمحبة الله في القلب (كيف توجد المحبة في قلبك):

في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة :

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان، والقلب، والعمل، والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة...

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق.

١٢٨٥- بماذا نبدأ لإيجاد المحبة في القلب؟ :

[قلت: فإن قلت فأي سبب من هذه الأسباب العشرة أبدأ به للسير في طريق المحبة؟ فأقول: ابدأ بالأسباب الثلاثة الأولى فإنها ستقودك إلى الباقيات.

فإن قلت: فإني أريد البدء بواحد منها فأيها أبدأ به؟ قلت: ابدأ بالثالث منها وهو الذكر الكثير، فإذا اشتغلت بالذكر الكثير معتنياً بأذكار الصباح والمساء وأذكار اليوم والليلة، وكانت لك جلسات ذكر طويلة وكثيرة تفرغ فيها فكرك وقلبك لذكره، تقول

فيها مثلاً: لا إله إلا الله، كثيراً، تقولها موقناً بها حريصاً على مواطأة القلب للسان، أو تسبح كثيراً، أو تستغفر كثيراً، أو تحمد كثيراً، أو تصلي على النبي ﷺ كثيراً، كما علمنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، فإن هذا الذكر الكثير وبخاصة: لا إله إلا الله، سوف يجلو القلب جلاء، ويذهب الرين المتراكم عليه فيجعله كالصفحة البيضاء أو المرآة الصافية التي أزيل عنها الصدأ فيصير القلب صالحاً لتلقي النور والتأثر به، وهذا النور الذي يشرق في القلب مع توالي الذكر يحركه للسير في طريق المحبة، ولأن كثرة ذكر المحبوب تجعل القلب معلقاً به، مشتاقاً لكتابه وهو أعلى الذكر، ولذلك وصف الله تعالى الذكر المطلوب من المؤمن بالذكر الكثير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فإذا أضفت إلى ذلك التفكر في آلائه ونعمائه وإحسانه وأولها أنه مَنَّ عليك بالإيمان واختارك من بين خلقه فأهّلك لذكره رحمة بك وفضلاً وإحساناً، وتقريباً لك، فعند ذلك يسجد قلبك له سجدة خاشعة لا يقوم منها إلى يوم اللقاء، ويجذبك إلى طريق محبته ويسهل عليك ممارسة بقية الأسباب العشرة الجالبة للمحبة ويحببها إليك. وسيأتي مزيد كلام عن الذكر في فقرة خاصة به، لنعرف أنواعه وكيفية ممارستها والعمل بها].

١٢٨٦- محبة العبد لربه ومحبة الرب لعبده:

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده... فأهل (يحبهم ويحبونه) على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله، وكذلك عندهم: محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب...

وجميع طرق الأدلة عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداً تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده، وقد ذكرنا [والكلام لابن القيم] لذلك قريباً من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة، وذكرنا فيه فوائد المحبة وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها...

١٢٨٧- الدليل من القرآن والسنة على المحبة:

١٢٨٨- أولاً - الدليل من القرآن على المحبة:

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر: أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين في الأنداد، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: (يحبونهم كحب الله)، فإن فيها قولان:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]، أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهي تسمى آية المحبة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، وقال: (يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها: فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل [الله] لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقد ذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه: أرقاء رحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم، فلما ضمن (أذلة) هذا المعنى عداه بأداة على، قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده. وعلى الكافرين [وهي العلامة الثانية] كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية ‏ ‏ ‏ يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧]، فذكر المقامات الثلاث: الحب وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب، ومن المعلوم قطعاً أنك لا

تتنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه...

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فجعل إرادته غير إرادة الآخرة، وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة.

١٢٨٩- ثانيا - الدليل من السنة على المحبة:

كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع: عن النبي [ﷺ] أنه كان يدعو: (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[١٤٧٩]، فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه...

وفي الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله [ﷺ]: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)[١٤٨٠].

(١٤٧٩) النسائي(١٢٨٨) و(١٢٨٩). وأحمد(١٧٦٠٥).

(١٤٨٠) متفق عليه: البخاري (١٥) و(٢٠) و(٦٤٢٨)، ومسلم (٦٠) و(٦١).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله [ﷺ]: (يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)(١٤٨١).

وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي [ﷺ]: (إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)(١٤٨٢) وذكر في البغض عكس ذلك(١٤٨٣).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ قل هو الله أحد لأصحابه في كل صلاة وقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي [ﷺ]: أخبروه أن الله يحبه.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي [ﷺ] أنه قال: (كان من دعاء داود اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد)(١٤٨٤).

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي أن النبي [ﷺ] كان يقول في دعائه: (اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب)(١٤٨٥).

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]،

(١٤٨١) البخاري (٦٠٢١)، وأحمد (٢٤٩٩٧).

(١٤٨٢) متفق عليه: البخاري(٢٩٧٠)، ومسلم (٤٧٧٢).

(١٤٨٣) مسلم (٤٧٧٢)، وأحمد (٧٣٠٦) و(٨١٤٤) و(٨٩٨٤)، ومالك (١٥٠٢).

(١٤٨٤) سنن الترمذي(٣٤٩٠)ج:٥ ص:٥٢٢ وقال: حديث حسن.

(١٤٨٥) سنن الترمذي (٣٤٩١) وتحفة الأحوذي: ج:٩ ص:٣٢٥، وجامع العلوم والحكم: ج:١ ص:٣٦٣، وفتح القدير للمناوي: ج:٢ ص:١٠٩، وميزان الاعتدال: ج:٣ ص:٢٥٠.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله في ضد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكم في السنة أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا، وإن الله يحب كذا وكذا، كقوله: أحب الأعمال إلى الله الصلاة على أول وقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله، وأحب الأعمال إلى الله الإيمان بالله ثم الجهاد في سبيل الله ثم حج مبرور، وأحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه، وقوله: إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، وأضعاف أضعاف ذلك، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد وهو من محبته للتوبة وللتائب.

١٢٩٠- المحبة أساس جميع مقامات الإيمان والإحسان:

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعةً له، بمعنى: مألوه، وهو الذي تألهه القلوب، أي: تحبه وتذل له، وأصل التأله: التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال: عبده الحب وتيمه، إذا ملكه وذلّله لمحبوبه.

فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة؟ والرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه، وكذلك الزهد في الحقيقة هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته، وكذلك الحياء في الحقيقة إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم وأما مالا يكون عن محبة فذلك خوف محض، وكذلك مقام الفقر فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها وهو أعلى أنواع الفقر، فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى

من يحبه، ولا سيما إذا وحده في الحب ولم يجد منه عوضاً سواه، هذا حقيقة الفقر عند العارفين، وكذلك الغنى هو غنى القلب بحصول محبوبه، وكذلك الشوق إلى الله تعالى ولقائه فإنه لب المحبة وسرها كما سيأتي، فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب معطل لذلك كله، وحجابه أكثف الحجب، وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله، وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام، فإن الخلة كمال المحبة...

١٢٩١- مراتب المحبة:

أولها: العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب...

الثانية: الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة: وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور، فاسم الصفة منها صب، والفعل صبا إليه يصبو صباً وصبابة، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف، ويقال: صباً وصبوة وصبابة، فالصبا: أصل الميل، والصبوة: فوقه، والصبابة: الميل اللازم وانصباب القلب بكليته.

الرابعة: الغرام: وهو الحب اللازم للقلب الذي لا يفارقه بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سمي عذاب النار غراماً للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: الوداد: وهو صفو المحبة وخالصها ولبها، والودود من أسماء الرب تعالى، وفيه قولان: أحدهما: أنه المودود قال البخاري رحمه الله في صحيحه: الودود الحبيب، والثاني: أنه الواد لعباده أي المحب لهم، وقرنه باسمه الغفور إعلاماً بأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه ويوده، فحظ التائب نيل المغفرة منه ، وعلى القول الأول الودود في معنى الحبيب يكون سر الاقتران أي اقتران الودود بالغفور استدعاء مودة العباد له ومحبتهم إياه باسم الغفور.

السادسة: الشغف: يقال: شغف بكذا فهو مشغوف به، وقد شغفه المحبوب: أي وصل حبه إلى شغاف قلبه كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب بحيث يحجبه عن غيره، قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب، قال صاحب هذا القول، المعنى: أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب، والشغاف غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب، قال السدى: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب. وقرأ بعض السلف: شعفها بالعين المهملة، ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب وبلغ بها أعلى مراتبه ومنه شعف الجبال لرؤوسها.

السابعة: العشق: وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه، وعليه تأول إبراهيم ومحمد بن عبد الوهاب: ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال محمد: هو العشق. ورفع إلى ابن عباس رضي الله عنهما شاب وهو يعرفه قد صار كالخلال فقال: ما به؟ قالوا: العشق، فجعل ابن عباس رضي الله عنهما عامة دعائه بعرفة الاستعاذة من العشق. وفي اشتقاقه قولان: أحدهما: أنه من العشقة، محركة، وهي نبت أصفر يلتوي على الشجر فشبه به العاشق، والثاني: أنه من الإفراط، وعلى القولين فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا العبد في محبة ربه، وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه كان في خفارة صدقه ومحبته.

الثامنة: التتيم: وهو التعبد والتذلل يقال: تيمه الحب أي ذلّـله وعبده، وتيم الله عبدالله، وبينه وبين اليتم الذي هو الانفراد تلاق في الاشتقاق الأوسط وتناسب في المعنى، فإن المتيم المنفرد بحبه وشجوه كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل، هذا كسره يتم، وهذا كسره تتيم.

التاسعة: التعبد: وهو فوق التتيم فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها، ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة وصفه الله بها في أشرف مقاماته، مقام الإسراء، كقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، ومقام الدعوة، كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]، ومقام التحدي، كقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى

رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة، وكذلك يقول المسيح عليه السلام لهم إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: (اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[١٤٨٦]، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى وكمال مغفرة الله له، وحقيقة العبودية: الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب، تقول العرب: طريق معبد: أي قد ذللته الأقدام وسهلته.

العاشرة: مرتبة الخلة: التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، كما صح عنه أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)[١٤٨٧]، وقال: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن)[١٤٨٨]، والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه، والخلة: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلا

وهذا هو السر الذي لأجله والله أعلم أمر الخليل بذبح ولده وثمرة فؤاده وفلذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه تعلقت به شعبة من قلبه، والخلة منصب لا يقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد ليخرج المزاحم من قلبه، فلما وطن نفسه على ذلك وعزم عليه عزماً جازماً، حصل مقصود الأمر فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة فحال بينه وبينه وفداه بالذبح العظيم، وقيل له:

(١٤٨٦) حديث الشفاعة متفق عليه بلفظ متقارب: البخاري (٤٣٤٣)، ومسلم (٢٨٧) ولفظه فيه: (... اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتوني فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي...).

(١٤٨٧) مسلم (٨٢٧)، وابن ماجة (١٣٨).

(١٤٨٨) متفق عليه : البخاري (٤٤٧)، ومسلم (٨٢٧) و(٤٣٩٥).

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥]، أي عملت عمل المصدق ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٥]، نجزي من بادر إلى طاعتنا فنقر عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا وإبقاء الولد وسلامته، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمحبه وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً، وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه وأهل الألباب والبصائر منهم، فما كل أحد يجيب داعيها ولا كل عين قريرة بها، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين وسائر أهل اليمين في أطرافها:

فما كل عين بالحبيب قريرة ... ولا كل من نودي يجيب المناديا
ومن لا يجب داعي هداك فخله ... يجب كل من أضحى إلى الغي داعيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
ووالله لو أضحى نصيبك وافرا ... رحمت عدواً حاسداً لك قاليا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت ... على حاله فارحمه إن كنت راثيا
خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل باديا
فجالت وصالت فيه حتى إذا الـ ... ـنهار بدا استخفت وأعطت تواريا
فيا محنة الحسناء تهدى إلى امرئ ... ضرير وعنين من الوجد خاليا
إذا ظلمة الليل انجلت بضيائها ... يعود لعينيه ظلاما كما هيا
فضن بها إن كنت تعرف قدرها ... إلى أن ترى كفؤاً أتاك موافيا
فما مهرها شيء سوى الروح أيها الـ ... ـجبان تأخر لست كفؤاً مساويا
فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ ... ـمحبة في ظهر العزائم ساريا
وأدلج ولا تخش الظلام فإنه ... سيكفيك وجه الحب في الليل هاديا
وسقها بذكراه مطاياك إنه ... سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا
وعدها بروح الوصل تعطيك سيرها ... فما شئت واستبق العظام البواليا
وأقدم فإما منية أو منية ... تريحك من عيش به لست راضيا
فما ثم إلا الوصل أو كلف بهم ... وحسبك فوزاً ذاك إن كنت واعيا

أمـا سـئمت مـن عيـشها نفـس والـه ... تبيـت بنـار البعـد تلقـى المكاويـا
أمـا موتـه فـيهم حيـاة وذلـه ... هـو العـز والتوفيـق مـا زال غاليـا
أمـا يـستحي مـن يـدعي الحـب بـاخلا ... بـما لحبيـب عنـه يـدعوه ذا ليـا
أمـا تلـك دعـوى كـاذب لـيس حظـه ... مـن الحـب إلا قولـه والأمانيـا
أمـا أنفـس العـشاق ملـك لغـيرهم ... بإجمـاع أهـل الحـب مـا زال فاشـيا
أمـا سـمع العـشاق قـول حبيبـة ... لـصب بهـا وافي مـن الحـب شـاكيا
ولمـا شـكوت الحـب قالـت كـذبتني ... فـمالي أرى الأعـضاء منـك كواسـيا
فـلا حـب حتـى يلـصق القلـب بالحـشا ... وتخـرس حتـى لا تجيـب المناديـا
وتنحـل حتـى لـيس يبقـى لـك الهـوى ... سـوى مقلـة تبكـي بهـا وتناجيـا

١٢٩٢- المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس:

قال صاحب المنازل رحمه الله: المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس، يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب وأنسه بالمحبوب في حالتي بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلى أنها بين الهمة والأنس: لأن المحبة لما كانت هي نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب، كانت الهمة من مقومات حبه وجملة صفاته، ولما كان الطلب بالهمة قد يعرى عن الأنس وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه وطمعه بالوصول إليه - فمن هذين يتولد الأنس - وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس، فصارت المحبة قائمه بين الهمة والأنس.

ويريد بالبذل والمنع أحد أمرين: إما بذل الروح والنفس لمحبوبه ومنعها عن غيره فيكون البذل والمنع صفة المحب، وإما بذل الحبيب ومنعه فتتعلق همة المحب به في حالتي بذله ومنعه.

ويريد بالإفراد معنيين: إما إفراد المحبوب وتوحيده بذلك التعلق، وإما فناؤه في محبته بحيث ينسى نفسه وصفاته في ذكر محاسن محبوبه حتى لا يبقى إلا المحبوب وحده، والمقصود: إفراد المحب لمحبوبه بالتوحيد والمحبة، والله أعلم .

... قال: وما دونها أغراض لأعواض، يعني: ما دون المحبة من المقامات فهي أغراض من المخلوقين لأجل أعواض ينالونها، وأما المحبون فإنهم عبيد والعبد ونفسه وعمله ومنافعه ملك لسيده فكيف يعاوضه على ملكه؟ والأجير عند أخذ الأجرة ينصرف والعبد في الباب لا ينصرف، فلا عبودية إلا عبودية أهل المحبة الخالصة، أولئك هم الفائزون بشرف الدنيا والآخرة، وأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

... قال: والمحبة هي سمة الطائفة، وعنوان الطريقة، ومعقد النسبة. يعني: سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم. وعنوان طريقتهم: أي دليلها، فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق. ومعقد النسبة: أي النسبة التي بين الرب وبين العبد، فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب، وليس في العبد شيء من الربوبية ولا في الرب شيء من العبودية، فالعبد عبد من كل وجه والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه، ومعقد نسبة العبودية هو المحبة، فالعبودية معقودة بها بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية، والله أعلم.

١٢٩٣- درجات المحبة الثلاث وحقيقة كل منها وآثارها:

قال: وهي على ثلاث درجات:

١٢٩٤- الدرجة الأولى [من درجات المحبة]:

محبة تقطع الوساوس، وتلذ الخدمة، وتسلي عن المصائب.

قوله: تقطع الوساوس، فإن الوساوس والمحبة متناقضان، فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب، والوساوس تقتضي غيبته عنه حتى توسوس له نفسه بغيره، فبين المحبة والوساوس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة، فعزيمة المحبة تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره وذلك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغا لوسواس الغير لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟:

لا كان من لسواك فيه بقية ... فيها يقسم فكره ويوسوس

قوله: وتلذ الخدمة، أي المحب يلتذ بخدمة محبوبه فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخلي في أثناء الخدمة، وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله: وتسلى عن المصائب، فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك، والله أعلم.

١٢٩٥- المحبة: كيف تنبت؟ وكيف تثبت؟ وكيف تنمو؟:

قال: وهي محبة تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة، وتنمو على الإجابة بالفاقة.

قوله: تنبت من مطالعة المنة.

أي: تنشأ من مطالعة العبد منة الله عليه ونعمه الباطنة والظاهرة، فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وليس للعبد قط إحسان إلا من الله، ولا إساءة إلا من الشيطان، ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه، وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد، فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته، أشرقت ذاته، فرأى فيه نفسه وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وهذا النور: كالشمس في قلوب المقربين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين، وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسها.

قوله: وتثبت باتباع السنة.

أي: ثباتها إنما يكون بمتابعة الرسول في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدم

أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعن وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً فلست على شيء.

وتأمل قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب.

قوله: وتنمو على الإجابة بالفاقة.

الإجابة بالفاقة: أن يجيب الداعي بموفور الأعمال وهو خال منها كأنه لم يعملها، بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام، فإن طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عمل أو حال أو مقام، وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحض والفاقة المجردة، ولا ريب أن المحبة تنمو على هذا المشهد وهذه الإجابة، وما أعزه من مقام وأعلاه من مشهد؟ وما أنفعه للعبد وما أجلبه للمحبة؟ والله المستعان.

١٢٩٦- الدرجة الثانية من درجات المحبة:

قال: الدرجة الثانية: محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتعلق القلب بشهوده، وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات، والنظر إلى الآيات والارتياض بالمقامات.

هذه الدرجة أعلى مما قبلها باعتبار سببها وغايتها، فإن سبب الأولى: مطالعة الإحسان والمنة، وسبب هذه: مطالعة الصفات وشهود معاني آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة، وحصول الملكة في مقامات السلوك وهو الارتياض بالمقامات، ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها.

فقوله: تبعث على إيثار الحق على غيره.

أي: لكمالها وقوتها، فإنها تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجا بذكره، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وتعلق القلب بشهوده، لفرط استيلائه على القلب، وتعلقه به، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وقوله: وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات.

يعني: إثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعاً، فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة، وكلما أكثر قلبه من مطالعتها ومعرفة معانيها ازدادت محبته للموصوف بها...

وقوله: والنظر إلى الآيات.

أي: نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة، وفي آياته المسموعة، وكل منهما داع قوي إلى محبته سبحانه، لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته وسبوغ نعمته، فإدامة النظر فيها داع لا محالة إلى محبته، وكذلك الارتياض بالمقامات فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان كانت محبته أقوى، لأن محبة الله له أتم، وإذا أحب الله عبدا أنشأ في قلبه محبته.

[قلت: والدرجتان الأولى والثانية السابق ذكرهما تمثلان المحبة المعروفة التي تحصل في الواقع للكثير من المؤمنين والمؤمنات بعد ممارسة أسبابها الجالبة لها، ومن نالهما أو نال نصيباً حسناً منهما فهو على خير كثير إن شاء الله، وهي كافية لعمارة القلب بالمحبة التي تدفع إلى العمل الصالح بهمة واشتياق وصاحبه مستأنس قرير العين، وتمنع العبد من المعاصي حياء من الله تعالى، وتمنعه من الرجوع عن توبته إلى معاودة الذنوب التي تاب منها فتكون وسيلة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر. أما الدرجة الثالثة الآتي ذكرها فهي لا تتصف بالعموم، وإنما هي تحصل من حيث الواقع للقليل من السالكين إلى الله تعالى بطريق المحبة وحقيقتها أن تبهره صفات محبوبه فيغيب عن نفسه أمام مشاهدة القلب للصفات ولا يستطيع أن يعبر عن هذه الحال بعبارة ولا إشارة، إلا أن حصولها لبعض السالكين لا يعني أنها أكمل من غيرها لأن محبة الرسل والأنبياء لربهم أكمل منها ولا يحصل لهم أن يغيبوا عن أنفسهم ويفنوا في وارد المحبة، ولا يجعلون حصوله غاية لهم، ونحن نذكر هذه الدرجة الثالثة استكمالاً للبحث في موضوع المحبة].

١٢٩٧- الدرجة الثالثة من درجات المحبة عند بعض السالكين:

قال: الدرجة الثالثة: محبة خاطفة تقطع العبارة، وتدفع الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت.

يعني: أنها تخطف قلوب المحبين لما يبدو لهم من جمال محبوبهم ويشير الشيخ بذلك إلى الفناء في المحبة والشهود، وإن العبارة تنقطع دون حقيقة تلك المحبة ولا تبلغها، ولا تصل إليها الإشارة، فإنها فوق العبارة والإشارة، وحقيقتها عندهم: فناء الحدوث في القدم واضمحلال الرسوم في نور الحقيقة التي تظهر لقلوب المحبين فتملك عليها العبارة والإشارة والصفة فلا يقدر المحب أن يعبر عما يجده لأن واردها قد خطف فهمه والعبارة تابعة للفهم فلا يقدر المحب أن يشير إليه إشارة تامة، والعبارة عندهم تحت الإشارة وأبعد منها ولذلك جعل حظها القطع وحظ الإشارة الدفع فإن مقام المحبة يقبل العبارة، وهذه الدرجة الثالثة لا تقبل إشارة ما ولا تقبل عبارة... وعندهم إنما تمتنع العبارة والإشارة في مقام التوحيد حيث لا يبقى للمحبة رسم ولا اسم ولا إشارة وهو الغاية عندهم...

والصواب: أن توحيد المحبة أكمل من هذا التوحيد الذي يشيرون إليه، وأعلى مقاماً وأجل مشهداً، وهو مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخواص المقربين، وأما توحيد الفناء فدونه بكثير، وليس ذلك من مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن توحيدهم توحيد بقاء ومحبة لا توحيد فناء وغيبة وسكر واصطلام، ولما كان المحب عند أرباب الفناء لم يخلص إلى مقام توحيد الفناء بالكلية بل رسوم المحبة معه بعد، جعلوا المحبة هي العقبة التي ينحدر منها إلى أودية الفناء كما تقدم.

والصواب الذي لا ريب فيه عند أرباب التحقيق والبصائر أن لسان المحبة أتم، ومقامها أكمل، وحالها أشرف، وصاحبها من أهل الصحو بعد السكر والتمكين بعد التلوين والبقاء بعد الفناء، ولسانه نائب عن كل لسان، وبيانه واف بكل ذوق، ومقامه أعلى من كل مقام، فهو أمين على كل من دونه من أرباب المقامات، لأن مقامه أمير على المقامات كلها...

وأما كون نعوت المحبة لا تتناهى: فلأن لها في كل مقام نسبة وتعلقاً به، وهي روح كل مقام والحاملة له، وأقدام السالكين إنما تتحرك بها، فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تتناهى نعوتها البتة، والله أعلم.

... قوله: وأوجبتها العقول [أي المحبة في الدرجتين الأولى والثانية]: يريد أن العقل يحكم بوجوبها، وهو كما قال، فإن العقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد وكل ما سواه، وكل من لم يحكم عقله بهذا فلا تعبأ بعقله، فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر تدعو كلها إلى محبته سبحانه، بل إلى توحيده في المحبة، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول، كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده ... ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق ... محبته في اللقا والمغيب
فمن لم يكن عقله آمراً ... بذا ماله في الحِجا من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى ... محبة فاطرها من قريب
أليست على ذاك مجبولة ... ومفطورة لا بكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب ... لذات الجمال وذات القلوب
أليس جميلاً يحب الجمال ... تعالى إله الورى عن نسيب
أما بعد ذلك إحسانه ... بداع إليه لقلب المنيب
أليس إذا كملا أوجبا ... كمال المحبة للمستجيب
فمن ذا يشابه أوصافه ... تعالى إله الورى عن ضريب
ومن ذا يكافئ إحسانه ... فيألهه قلب عبد منيب
وهذا دليل على أنه ... إلى كل ذي الخلق أولى حبيب
فيا منكراً ذاك والله أنـ ... ـت عين الطريد وعين الحريب
ويا من يحب سواه كمثـ ... ـل محبته أنت عبد الصليب
ويا من يوحد محبوبه ... ويرضيه في مشهد أو مغيب
ولو سخط الخلق في وجهه ... لقال هواناً ولو بالنسيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس ... بكيد العدو وهجر الرقيب»[1489]

(١٤٨٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٣ ص: ٦-٤٢ (مع تشذيب واختصار كثير بحذف جميع الاستطرادات التي نقدر أن القارئ الكريم ليس بحاجة إليها، وإضافة عناوين جانبية تساعد في الإيضاح والتركيز على المهم مع عزو الآيات وتخريج الأحاديث).

والآن وقد انتهينا من الكلام في محبة الله تعالى بوصفها أحد الأركان المهمة في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان، والذي هو سبب مهم للغاية في دوام التوبة ولزومها إلى آخر العمر، ننتقل إلى الركن الثاني من ذلك وهو الخوف والخشية من الله تعالى ومن وعيده، فإنه سبب في إبقاء القلب حياً راسخ الإيمان، وهو موضوع الفقرة التالية .

الفقرة الثانية
الخوف من الله تعالى وأثره في دوام التوبة

١٢٩٨- الخوف من الله ركن في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان:

الخوف هو الوسيلة الأخرى التي يجب على المسلم بعامة والتائب بخاصة التزامها على سبيل الوجوب، وهو يمثل ركناً من أركان إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان، وهو بالنسبة للتائب يعينه إعانة كبرى على دوام توبته إلى آخر العمر.

١٢٩٩- تعريف الخوف:

عرف الإمام الغزالي الخوف: قال: اعلم أن الخوف: عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال[١٤٩٠].

وعرفه صاحب المنازل واعتمده ابن القيم فقال: «قال صاحب المنازل: الخوف هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر. قال ابن القيم: يعني: الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد»[١٤٩١].

«قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس.
وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.
وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام. وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه.
وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره»[١٤٩٢].

(١٤٩٠) الغزالي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:١٥٥.
(١٤٩١) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٥١٤.
(١٤٩٢) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٥١٢.

١٣٠٠- الخوف من الله والخوف من عذابه:

وعلى ذلك فالخوف يتضمن ألم القلب وحرقته وانخلاعه من طمأنينة الأمن عند استشعاره وتذكره إمكان حلول المكروه في الاستقبال، وهذا يحصل بأمرين:

الأول: معرفة صفات الهيبة والجلال والجبروت لله تعالى فهو: الجبار المتكبر، الحكم العدل، العزيز القاهر فوق عباده، المعز المذل، مالك الملك الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، يفعل ما يشاء ولا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل، مستغن عن خلقه، فلو شاء أن يهلك من في السماوات والأرض لم يمنعه مانع من ذلك: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، فمن عرف صفات الجلال هذه خافه وخشيه وهابه.

والثاني: تصديق الوعد والوعيد، فيحصل الخوف من توقع فوات الوعد بجنات النعيم، والخوف من توقع حلول الوعيد في نيران الجحيم بسبب المعاصي إذا عامله الله بعدله لا برحمته وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. والخوف من العقوبة مطلوب شرعا، وهو خوف العامة - وهو أقل رتبة من الأول - وهو الخوف الذي يصح به الإيمان، ويتولد من: تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة. فإذا ذكر جنايته وهو مصدق بالوعيد صار خائفاً من العاقبة.

وعلى ذلك فالخوف خوفان: خوف من الله تعالى، وخوف من عقوبته، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] نظيره: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] وقد مضى الكلام فيه، أي: يخافون الله، ويخافون عذابه الذي هو بالغيب وهو عذاب يوم القيامة»[١٤٩٣]. وجاء في تفسير زاد المسير: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] فيه أربعة أقوال: أحدها: يخافونه ولم يروه قاله الجمهور، والثاني: يخشون عذابه

(١٤٩٣) تفسير القرطبي ج: ١٨ ص: ٢١٣.

ولم يروه قاله مقاتل، والثالث: يخافونه من حيث لا يراهم أحد قاله الزجاج، والرابع: يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إذا كانوا بين الناس قاله أبو سليمان الدمشقي»[١٤٩٤].

١٣٠١- الخوف والخشية من لوازم الإيمان وهو فرض على كل أحد:

فالخوف من الله تعالى ومن عقابه من لوازم الإيمان لأنه نتيجة للإيمان بالله وصفاته، واليوم الآخر والجزاء فيه، ومن ثم كان حكمه الوجوب، فهو فرض على كل أحد، ومن خلا قلبه من مخافة الله تعالى ومخافة عقوبته فإن ذلك دليل على موت القلب فلا يخاف مقام الله ولا يخاف معصيته فلا يتألم القلب من المعصية، لأنه: ما لجرح بميت إيلام. وخلو القلب من الخوف من الله واليوم الآخر صفة الكافرين، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر:٥٣].

١٣٠٢- الخوف المحمود: ما دفع إلى الطاعة وحجز عن المعصية:

والخوف المحمود ما حجز عن المعاصي ودفع صاحبه للعمل بالأمر والنهي الإلهي وسلوك طريق الاستقامة. فإذا كان الخوف قاصراً عن ذلك لم يدفع إلى الحذر والعمل فيكون عديم الفائدة أو قليلها، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه، وإذا زاد الخوف عن حده وهو التوسط الذي يفي بالغرض منه - وهو الدفع للعمل بالأمر والنهي الإلهي وسلوك طريق الاستقامة - فقد يفضي إلى اليأس والقنوط فيكون داء يحتاج إلى مداواته بأدوية الرجاء.

١٣٠٣- لطيفة في الفرق بين الخوف من الله تعالى وجنس الخوف المطلق:

وفي رأيي أن الخوف من الله تعالى والخوف من عقابه يختلف عن جنس الخوف المطلق، ذلك أن المؤمن يفرح بوجود الخوف في قلبه لأنه يعلم أنه ينفعه في العاقبة ويكون سبباً لنجاته وسعادته في الآخرة، ويتألم أن يجد قلبه خاوياً من الخوف والخشية ويحاول استجلابه لأنه من لوازم الإيمان، وأيضاً لأن كل شيء يخافه الإنسان يهرب منه إلا الله فإنك إذا خفته تهرب إليه وتلجأ إليه وتقترب منه ولسان حالك يقول: (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك). ألا ترى أن خوف الإنسان من سيل جارف سيغرقه ويهلكه، يبكيه

(١٤٩٤) تفسير زاد المسير ج: ٥ ص: ٣٥٦.

وهو مذعور فزع مبلس تعيس، وأن خوفك من الله وخشيتك منه تبكيك وأنت سعيد بهذا البكاء من خشية الله وتجد فيه حلاوة الإيمان والقرب من الرحمن.

١٣٠٤- الخوف من الله يفضي إلى السكينة:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]: «... وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه، ونظير هذه الآية: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٣٤-٣٥]، وقال: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل: الفزع من عذاب الله، فلا تناقض، وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته»[١٤٩٥].

١٣٠٥- لا يصح أن يسكن الخوف وحده في القلب:

ومع ذلك لا يصح أن يسكن الخوف وحده في القلب بل يجب أن يوجد في القلب: الخوف والرجاء والمحبة، فكلها مطلوبات شرعية تجعل القلب حياً بالإضافة إلى بقية العبادات القلبية كالإنابة والتوكل ونحوها.

فالخوف: يدفع إلى الحذر والمجاهدة والاستزادة من عمل الحسنات ومسابقة الأيام والليالي في إحراز المزيد من العمل الصالح المنجي يوم القيامة. والعمل الصالح يسعد القلب ويزكي النفس، فصار الخوف سبباً في سعادة القلب. وبهذا يختلف الخوف من الله عن جنس الخوف المطلق.

والمحبة: تفعل مثل ذلك وزيادة عند المحبين الصادقين، حيث تلذ الخدمة وتجعل العبادة مقرونة بالهمة والأنس فتدفع إلى المزيد، لأنها تصبح قرة العين.

(١٤٩٥) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٣٦٥-٣٦٦.

والرجاء: يفعل فعلين: الأول: موازنة الخوف إذا تجاوز حد الاعتدال، ورده إلى الاعتدال والتوسط بدواء الرجاء، والثاني: إنشاء المحبة في القلب وزيادتها لأنه يشعر العبد بعظيم رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته وكرمه وفضله وإحسانه، وذلك داع للمحبة. وكل ذلك أسباب تفضي إلى رضوان الله وتقود الإنسان إلى الاستقامة وإلى الكمال المقدور له. فالخوف من الله ومن عقابه أحد الأسباب المفضية بالإنسان إلى الكمال.

١٣٠٦- السير إلى الله بالمحبة والخوف والرجاء:

«القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا [ساعة الموت] يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن تكون الغالب عليه الخوف فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه»[١٤٩٦].

١٣٠٧- فضل الخوف ووجوبه ومكانته وثمراته في القرآن والسنة :

١٣٠٨- أولاً - في القرآن الكريم:

قد ورد في التنزيل العزيز ذكر الخوف والخشية والإشفاق والرهب في مواضع كثيرة: إيجاباً لها، وثناء على أهلها، وبياناً لما يجب الخوف منه، وتقريراً للغرض منه. وإخباراً بثمرته وعاقبته، وفيما يلي تفصيل ذلك في إحدى وثلاثين فقرة:

١٣٠٩- أحدٌ وثلاثون وجها في القرآن في بيان فضل الخوف ومكانته وثمراته:

١- الأمر به على سبيل الوجوب وجعله علامة للإيمان: كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

(١٤٩٦) ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص:٥١٧.

ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١]، وقال: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمٗا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان: ٣٣].

٢- الإخبار بأن انتفاء الخوف من الله واليوم الآخر صفة الكافرين، كقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ ﴾ [الأنعام: ٨١] وقوله: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأٓخِرَةَ ﴾ [المدثر: ٥٣] وقاله: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٣- وأخبر الله تعالى أن تخويف العباد منه ومن عقابه مقصود من مقاصد الشرع، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥-١٦]، وقال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأٓيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفٗا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

٤- الإخبار من الله تعالى بأن الخوف من الله وخشيته سبب لنوال الجنة وأكثر، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وأن الخشية سبب للفوز كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الزمر: ٥٢].

٥- الإخبار بأن خشية الرب تبارك وتعالى بالغيب سبب للمغفرة والأجر الكبير والأجر الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٞ كَبِيرٞ ﴾ [الملك: ١٢]، وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٖ وَأَجْرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

٦- وأخبر أن رضوان الله تعالى - وهو أكبر شيء لقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ﴾ [التوبة: ٧٢] - يكون لمن خشي ربه، قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

٧- البيان بأن الخوف في الدنيا من الرب تعالى ومن شر يوم القيامة وصف للمؤمنين وسبب لوقايتهم شر ذلك اليوم، قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠-١٢]، وقال: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

٨- وبين الله تعالى أن الخشية من الرب تعالى والخوف من سوء الحساب - مع أعمال صالحة أخرى - هي وصف لأولي الألباب من المؤمنين الذين يدخلون الجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ إلى قوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد: ١٩-٢٣].

٩- وأخبر أن الأنبياء الذين عبدهم الضالون من اليهود والنصارى إنما هم عباد لله، وبين حالهم بأنهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، فقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال عنهم: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

١٠- وأخبر أن خشية الله وحده دون سواه هي من علامات الهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وعسى من الله واجبة لأنها كلمة رجاء ممن يملك الأمر والإجابة.

١١- وبين أن وصف المتقين حقيق بالذين يخشون ربهم بالغيب ويشفقون من الساعة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

١٢- الإخبار منه تعالى أن أهل الخوف من يوم القيامة لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأنهم يجزون بالأحسن من أعمالهم التي عملوها في

الدنيا مع الزيادة فوق ذلك من فضله، قال عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

١٣- وبين أن الخشية مع الإنابة هي وصف كل أواب حفيظ وهم أهل التقوى الذين يدخلون الجنة بسلام في يوم الخلود، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

١٤- البيان بأن الخوف من الله مع الطمع فيما عنده باعث عظيم على العمل باجتهاد في عبادة الله وهو يغلب الرغبة في النوم بحيث يضحي العابد بها، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

١٥- الإخبار بأن الإيمان يستلزم الإشفاق من الساعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

١٦- وأخبر أن المشفقين في الدنيا يمن الله عليهم في الآخرة ويقيهم العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦-٢٧].

١٧- وبين أن المسارعة في الخيرات التي وصف بها المقربين من عباده هي حال أهل الرغب والرهب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وأن الخشية أول الأسباب المهمة - بعد الإيمان - في إيجاد حال المسارعة في الخيرات والسبق إليها، واستحقاق الثناء عليهم بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

١٨- وأخبر أن الهدى والرحمة يكونان لأهل الرهبة من الله قال تعالى: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

١٩- الإعلام منه تعالى بأن الخوف من مقام الله ووعيده سبب للتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

٢٠- البيان بأن الذين ينتفعون بالآيات ويأخذون منها العبرة هم أهل الخوف من الآخرة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧] وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٦].

٢١- الإخبار بأن أهل الخوف والخشية هم المنتفعون بالإنذارات النازلة من الله تعالى إلى العباد: قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١] وقال: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٢-٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨].

٢٢- وبين أن صاحب الخشية له أولوية في تعليمه والعناية به وإجابة سؤاله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ٨-١٠]، نزلت بمناسبة انشغال النبي ﷺ بدعوة صناديد قريش إلى الإسلام وتأجيل إجابة الأعمى على سؤاله وقد جاء يسعى وهو يخشى.

٢٣- وأخبر أن الخوف صارف عن معصية الله، قال تعالى حكاية عن الصالح من ابني آدم: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥].

٢٤- وأخبر أن الخشية الحقة سببها العلم، العلم بالله وصفاته وأفعاله وآياته في الأنفس والآفاق جل جلاله، فالعلماء من العباد هم أهل الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. فمن لم يخش الله فليس بالعالم المقصود بالآية مهما كان علمه، لكن العلم سبب لمعرفة الله تعالى وخشيته.

٢٥- وأعلم الله تعالى العباد بأنه تعالى يمتحن عباده لكي يتبين ويظهر في الواقع من يخافه بالغيب، قال تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

٢٦- وأخبر أن الخشية حال تورث تأثراً عظيماً بالقرآن تجعل جلود أهل الخشية تقشعر بسبب الخشية عند سماع القرآن، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

٢٧- وبين أن أدب المؤمنين مع ربهم في الدعاء أن يدعوه: خائفين منه، راجين رحمته، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف:٢٠٥] وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

٢٨- وأخبر أن الأصل إفراد الله تعالى بالخشية، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]، وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. وقال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

٢٩- وأخبر أن ضعف الإيمان يفضي إلى قلة خشية الله ومساواة خشية الناس بها أو غلبة خشية الناس، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧]، وبين أن ترك خشية الناس توكلاً على الله تستتبع زيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

٣٠- وأخبر أن الأنبياء يخافون على أقوامهم عذاب يوم القيامة: فمن ذلك ما أخبر به القرآن حكاية عن نبينا ﷺ: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]، وقال حكاية عن نوح: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦]، وقال حكاية عن شعيب: ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤]، وقال حكاية عن هود: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٥].

٣١- وأخبر بأن الخوف من الله وخشيته ليست شأن الإنس والجن وحدهم، بل الكون كله يخشى الله، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [الشورى: ٥]، وقال: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٩-٩١]، وقال: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال عن الملائكة: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: ٥٠].

١٣١٠- ثانياً - فضل الخوف والخشية في السنة النبوية:

نذكر فيما يلي نماذج من السنة النبوية في فضل الخوف من الله ومن عقابه على سبيل التمثيل وليس على سبيل الاستقصاء. فمن ذلك:

١- أخبر النبي ﷺ أن الخوف من الله وخشيته تصرف عن المعصية وتجعل العين تفيض بالدمع من خشية الله وأن ذلك يجعل العبد في ظل عرش الرحمن يوم القيامة: فعن

أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)(١٤٩٧).

٢- وعن عائشة أنها قالت: يا رسول الله في هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] يا رسول الله: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال: لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل)(١٤٩٨).

٣- وبين النبي ﷺ أن المقصود من الخوف: المسارعة إلى الأعمال التي تقود إلى الجنة من فعل الطاعات وتجنب المعاصي فقال ﷺ: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)(١٤٩٩).

٤- وفي صحيح مسلم في رواية أخرى لحديث جبريل عليه السلام بشأن درجة الإحسان: (أن تخشى الله كأنك تراه)، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: سلوني، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه... قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت)(١٥٠٠).

(١٤٩٧) متفق عليه: البخاري (٦٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٧١٢).

(١٤٩٨) أحمد(٢٤١٠٢) واللفظ له وابن ماجة (٤١٨٨)، ولفظ ابن ماجة: يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يتقبل منه، ومثله لأحمد (٢٤٥٢٣).

(١٤٩٩) الترمذي ٢٤٥٠ واللفظ له، والمستدرك على الصحيحين (٧٨٥١)، والترغيب والترهيب ج: ٤ ص: ١٣١ حديث رقم (٥١١١) قال المنذري: رواه الترمذي وقال حديث حسن، وقال: أدلج بسكون الدال: إذا سار من أول الليل، ومعنى الحديث: أن من خاف ألزمه الخوف إلى السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق. واستشهد به ابن كثير وغيره أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] (انظر تفسير ابن كثير: ج: ٤ ص: ٢٧٩).

(١٥٠٠) مسلم (١١) والرواية المشهورة: الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه) وهي متفق عليها في البخاري ومسلم ورواها معظم أهل السنن، ولفظها في مسلم: (عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد =

٥- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يلج النار أحد بكى من خشية الله عز وجل حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري امرئ أبداً، وقال أبو عبد الرحمن المقرئ في منخري مسلم أبداً)[١٥٠١].

٦- وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله على النار)[١٥٠٢].

٧- وعن أبي ريحانة أنه كان مع رسول الله ﷺ في غزوة فسمعه ذات ليلة وهو يقول: حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله، وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله، قال: وقال الثالثة فنسيتها، قال أبو شريح سمعت من يقول ذاك: حرمت النار على عين غضت عن محارم الله، أو عين فقئت في سبيل الله عز وجل)[١٥٠٣].

٨- وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عينان لا تمسها النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[١٥٠٤].

= سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).
أما رواية مسلم المذكورة في المتن فقد ورد مثلها (أن تخشى الله كأنك تراه) في مسند أبي عوانة ٤/ ١٩٤، ومجمع الزوائد ١/ ٤٠، والسنن الكبرى ٣/ ٤٤٦، والترغيب والترهيب ٣/ ١٢ ومسند البزار ١/ ٢٧٣ وغيرهم.

(١٥٠١) النسائي (٣٠٥٧)، وأحمد (١٠١٥٦) واللفظ له.

(١٥٠٢) ابن ماجة (٤١٨٧).

(١٥٠٣) أحمد (١٦٥٨١) والدارمي واللفظ له (٢٢٩٣).

(١٥٠٤) سنن الترمذي برقم (١٦٣٩) ج: ٤ ص: ١٧٥، وشرحه تحفة الأحوذي ج:٥ ص:٢٢١، والحاكم في المستدرك (٢٤٣٠) ج:٢ ص:٩٢ بلفظ: (حرم على عينين أن تنالهما النار: عين =

٩- وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله)[١٥٠٥].

١٠- وعن عباس العمي قال: بلغني أن داود النبي ﷺ كان يقول في دعائه: (سبحانك اللهم أنت ربي تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السماوات والأرض، فأقرب خلقك منك منزلة أشدهم لك خشية، وما علم من لم يخشك؟ وما حكمة من لم يطع أمرك؟)[١٥٠٦].

١١- وجاء في البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]: يهم بالمعصية فيذكر الله عز وجل فيتركها[١٥٠٧]. قال القرطبي في تفسير الآية: «والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية، فمقام مصدر بمعنى القيام، وقيل خاف قيام ربه عليه، أي: إشرافه وإطلاعه، بيانه: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه»[١٥٠٨].

١٢- ومما يظهر مقام خشية الله تعالى وأثرها في المغفرة ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له، وقال غيره: مخافتك يا رب)[١٥٠٩].

= بكت من خشية الله وعين باتت تحرس الإسلام وأهله من أهل الكفر)، والترغيب والترهيب للمنذري (١٩١٨) وقال: رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

(١٥٠٥) ابن ماجة (١٣٢٩).

(١٥٠٦) الدارمي (٣٤٠).

(١٥٠٧) صحيح البخاري: تفسير سورة الرحمن.. وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري: تفسير سورة الرحمن، قال: وصله الفريابي وعبد الرزاق جميعاً من طريق منصور عن مجاهد بلفظ: إذا هم بمعصية يذكر مقام الله عليه فيتركها.

(١٥٠٨) تفسير القرطبي: ج:١٧ ص:١٧٦.

(١٥٠٩) متفق عليه: البخاري (٣٢٢٢) واللفظ له وأيضا (٣٢٢٠) و (٦٩٥٢)، ومسلم:(٤٩٤٩).

١٣- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا قال: (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة، وإذا أمِنني في الدنيا أخفته يوم القيامة)[١٥١٠].

١٤- وعن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: (كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف)[١٥١١].

ومن المأثور من أقوال السلف في ذلك نورد شيئاً مما جاء في البخاري وكتب السنن:

ففي البخاري (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر): «وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً، وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل، ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق ما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] »[١٥١٢].

وفي سنن الدارمي عن مالك بن مغول قال: قال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، فقال: العالم من يخاف الله[١٥١٣].

وفيه أيضا عن مسلم عن مسروق قال: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه، قال: وقال مسروق: المرء حقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر ذنوبه فيستغفر الله تعالى منها»[١٥١٤].

(١٥١٠) صحيح ابن حبان (٦٤٠).

(١٥١١) ابن ماجة (٤٢٥١).

(١٥١٢) البخاري: باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(١٥١٣) الدارمي (٢٦٠).

(١٥١٤) الدارمي (٣١٦).

١٣١١- قول الإمام الغزالي في الخوف وآثاره:

للإمام الغزالي كلام طويل في الخوف نورده - مشذباً كثيراً ومختصراً، ومقتصراً فيه على ما تمس الحاجة إليه مستحدثين العناوين الجانبية الضرورية - مع المحافظة على عبارته:

١٣١٢- التعريف بحقيقة جنس الخوف وماهيته بوجه عام:

قال[١٥١٥]: اعلم أن الخوف: عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

... ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضاً من: علم، وحال، وعمل.

أما العلم: فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده، فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو: تفاحش جنايته، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام، خالياً عمن يتشفع إليهم في حقه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف.

وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف، بل عن صفة المخوف، كالذي وقع في مخالب سبع، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالباً، وإن كان افتراسه بالاختيار.

وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق. فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف...

(١٥١٥) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:١٥٥-١٧٣ (بتصرف).

١٣١٣- الخوف من الله والخوف من الجناية والعاقبة:

... الخوف من الله تعالى:

تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع.

وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي.

وتارة يكون بهما جميعاً.

وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، واستغنائه، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فتكون قوة خوفه. فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال ﷺ: (أنا أخوفكم لله)[١٥١٦]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات:

١٣١٤- آثار الخوف على البدن والجوارح والصفات:

أما في البدن: فبالنحول والصفار والغشية... والبكاء...

وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل.

ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه، وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفاً؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام.

وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعَب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا

(١٥١٦) حديث أنا أخوفكم لله أخرجه البخاري من حديث أنس والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له وللشيخان من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات... فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه، لا متسع فيه لغيره، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين.

وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

١٣١٥- مقدار الخوف الواجب شرعا وآثار الخوف المحمود:

وأقل درجات الخوف ما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات. [قلت: وهذا هو المقدار الواجب شرعاً من الخوف].

ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً. فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه، ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه[١٥١٧].

وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، وهو الصدق في التقوى. فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار: لا يبني مالا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه، فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً.

ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة، وأعلى منه

(١٥١٧) وهذا أثر من آثار التقوى، في رأينا، أما تعريف التقوى على رأي بعض العلماء فهو ما نقله ابن القيم عن طلق بن حبيب واعتمده فقال: قال طلق بن حبيب: التقوى: « العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله »، قال ابن القيم: وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له، فالصيام والقيام: هو الطاعة، والإيمان: مراقبة الآمر لا شيء سواه، والاحتساب: رجاء ثوابه. (انظر: ابن القيم: مدارج السالكين: ج:١ ص: ٤٦٢).

الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً، ووراؤه اسم الصديق والمقرب، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل...

١٣١٦- بيان درجات الخوف وما هو محمود منه :

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكلما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط.

بل الخوف: سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى...

وكذلك الخوف له قصور، وله إفراط، وله اعتدال، والمحمود: هو الاعتدال والوسط.

١٣١٧- الخوف القاصر وآثاره:

فأما القاصر منه: فهو الذي يجرى مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع [قلت: أي من جهة عدم تأثيره في الكف عن المحظورات والدفع إلى الطاعات، أما من جهة ثوابه عند الله فإن السنن النبوية قد دلت على أجر عظيم للذين تدمع عيونهم من خشية الله]، وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن، ولذلك قال الفضيل ابن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبت، وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً.

١٣١٨- الخوف المفرط وآثاره:

وأما المفرط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضاً، لأنه يمنع من العمل... فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط،

وهو الحمل على العمل... فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم. وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها.

وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور.

فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم.

١٣١٩- فائدة الخوف المحمود:

وفائدة الخوف: الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة، والعبادة، والفكر، والذكر، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم...

فإذن: الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة.

وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره:

فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع، فهذا أقصى ما يُحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل، فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه، ولو كان محموداً لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول...

١٣٢٠- بيان سبب الخوف وأقسامه بالإضافة إلى ما يخاف منه:

١٣٢١- أ- سبب الخوف:

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه: أما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضى إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة، وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت.

فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه.

١٣٢٢- ب - أقسام الخوف بحسب سببه :

ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة.

١٣٢٣-١- القسم الأول من أسباب الخوف (الخوف من مكروه لغيره) :

فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدرى أنه يحدث في بقية عمره، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل.

فهذه كلها مخاوف ولكل واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف.

فمن يخاف استيلاء العادة عليه يواظب على الفطام عن العادة، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس، وهكذا، إلى بقية الأقسام، وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب...

وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى

خوفه وإن كان في طاعة الصديقين[١٥١٨]، وأما الآخر فهو في عرضة الغرور والأمن إن واظب على الطاعات.

فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى...

١٣٢٤-٢- القسم الثاني من أسباب الخوف: (الخوف من مكروه لذاته):

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة، تختلف أحوال الخائفين فيها.

وأعلاها رتبة هو: خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق...، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

١٣٢٥- بيان فضيلة الخوف المحمود والترغيب فيه:

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

(١٥١٨) وبعض أهل الخصوص ممن غلبت عليه المحبة يبين حال أهل القرب من الله تعالى على النحو الآتي: قال صاحب المنازل: « **الدرجة الثالثة**: درجة الخاصة، وليس في مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا (هيبة الجلال)، وهي أقصى درجة يشار إليها في غاية الخوف ». وقال ابن القيم في شرح ذلك: يعني أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه، فليس خوفهم خوف وحشة كخوف المسيئين المنقطعين- لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم والمحبة لهم - وهذا بخلاف هيبة الجلال فإنها متعلقة بذاته وصفاته، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم، وهي أعلى من درجة خوف العامة. (انظر: مدارج السالكين: ج:١ ص:٥١٦).

١٣٢٦- أولاً - معرفة فضل الخوف بالتأمل والاعتبار:

أما الاعتبار: فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه، فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته.

وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى؟

١٣٢٧- ثانياً - معرفة فضل الخوف بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار:

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار: فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته: جمع الله تعالى للخائفين: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان، قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وصفهم بالعلم لخشيتهم، وقال عز وجل: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم...

١٣٢٨- العلم ثم الخوف ثم الورع والتقوى:

فإذن إن نظر إلى مثمره: فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته: فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها،كما صار

الحمد مخصوصاً بالله تعالى، والصلاة برسول الله ﷺ، حتى يقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد ﷺ وآله أجمعين، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، وإنما التقوى: عبارة عن كف بمقتضى الخوف[1519]، كما سبق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١]، وقال عز وجل: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فأمر بالخوف، وأوجبه، وشرطه في الإيمان.

فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه...

وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير.

وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط.

وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو...

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامي.

وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

(١٥١٩) والتعريف الجامع للتقوى ما نقله ابن القيم عن طلق بن حبيب أن التقوى هي: «العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله (انظر مدارج السالكين ج:١ ص:٤٦٢) ونرى أن تعريف الغزالي للتقوى بأنها: « عبارة عن كف بمقتضى الخوف» يستلزم أن يكون المقصود بذلك كف النفس عن المحرمات والمكروهات وكفها عن ترك الطاعات باعتبار أن ترك الطاعة الواجبة حرام.

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال ﷺ: قال الله عز وجل: (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة)[١٥٢٠]،...

وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لُبه...

وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين.

وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً؟ فقال أشدهم خوفاً اليوم، وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: لا، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)[١٥٢١].

(١٥٢٠) حديث لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٢١) حديث عائشة قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني قال لا الحديث رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروي هذا الحديث عن عبدالرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه، وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس...

١٣٢٩- فضل البكاء من خشية الله:

بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم: ٥٩-٦١]...

وقال ﷺ: (لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع)[١٥٢٢].

وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: (أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك)[١٥٢٣]...

وقال ﷺ : (ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت في سبيل الله سبحانه وتعالى)[١٥٢٤]...

وقال ﷺ : (سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله)[١٥٢٥] وذكر منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

وقال أبو بكر الصديق ﷺ : من استطاع أن يبكي فليبك، ومن لم يستطع فليتباك.

(١٥٢٢) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.(انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٢٣) حديث قال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: أمسك عليك لسانك، الحديث، أخرجه الترمذي وقال: حسن. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٢٤) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب . (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٢٥) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع...

وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي، فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق ﷺ فقال:كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة، فقال رسول الله ﷺ (كلا لم ينافق حنظلة، فقلت: يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه، فقال ﷺ : يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة)[١٥٢٦]فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب...

١٣٣٠- الأصلح في حق العباد من غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما:

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان.

وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود.

(١٥٢٦) حديث حنظلة كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا الحديث، وفيه نافق حنظلة الحديث، وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة أخرجه مسلم مختصراً (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل.

وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل...

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا...

ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين[١٥٢٧].

فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه، وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال ﷺ: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر - وفي رواية إلا قدر فواق ناقة - فيسبق عليه الكتاب)[١٥٢٨] فيختم له بعمل أهل النار... فكيف يؤمن ذلك؟.

(١٥٢٧) حديث أن حذيفة كان خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر منافقاً تمامه لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط الحديث. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٢٨) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية إلا قدر فواق ناقة الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار، وللبزار وللطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث، ليس فيه تقدير زمن للعمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة.

ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]، وقال عز وجل: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وأين مثل عمر ﷺ ، فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف.

إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار...

١٣٣١- عند حضور الموت غلبة الرجاء هي الأصلح:

فإذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت: فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل، ثم لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه.

١٣٣٢- لا ينبغي لمسلم أن يفارق الدنيا إلا وهو محب لله:

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى، حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه، والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه.

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه.

فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب، فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن، ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر.

فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب، إضافة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وإضافة إلى ما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب... فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا ﷺ إذ قال: (اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد)[١٥٢٩].

والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)[١٥٣٠]، و[في الحديث القدسي] قال تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[١٥٣١]، ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة

(١٥٢٩) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث أخرجه الترمذي من حديث معاذ. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣٠) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه أخرجه مسلم من حديث جابر. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣١) الحديث متفق عليه بلفظ (أنا عند ظن عبدي بي): البخاري (٦٨٥٦) و(٦٩٥١)، ومسلم (٤٨٣٢) و(٤٨٤٩) و(٤٨١٥) و(٤٩٢٧)، وأحمد (١٥٤٤٢) واللفظ له.

قال لابنه: يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه، وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: أن حببني إلى عبادي، فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي.

فإذن غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

١٣٣٣- بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف:

... اعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، والثاني الخوف منه.

فأما الخوف منه: فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وأما الأول: فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير.

وأما الثاني وهو الأعلى: فأن يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه، قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨]، ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية...

فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء، أما رسولنا ﷺ فهو (سيد الأولين والآخرين) الحديث[١٥٣٢] وكان أشد الناس خوفاً...

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو ﷺ يقول: (شيبتني هود وأخواتها)[١٥٣٣]... سورة الواقعة، وإذا الشمس كورت، وعم يتساءلون، فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد، كقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها، وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٢-٣]... وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٢-١٤]، وفي عم يتساءلون: ﴿يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]... وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١]، وقول عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]... وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] إلى آخر السورة، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران...

(١٥٣٢) حديث سيد الأولين والآخرين أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة أنا سيد ولد آدم ولا فخر الحديث. (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣٣) حديث شيبتني هود وأخواتها الحديث أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

ومن عرف حقَّ المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة... وقال تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [هود: ١١٩]، فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه(١٥٣٤)...

وكيف يؤمَن تغير الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأن القلب أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجل: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [المعارج: ٢٨]، فأجهل الناس مَنْ أمِنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن...

فإن كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء.

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أني

(١٥٣٤) الطمع في تداركه على أساس قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، وكان عمر يطوف بالكعبة ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

قال القرطبي بعد أن روى بعض أقوال السلف: « قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخلق والرزق لا تتغير فالآية فيما عدا هذه الأشياء وفي هذا القول نوع تحكم، قلت - أي القرطبي- : مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد وإنما يؤخذ توقيفا فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم، وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب ﷺ وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم وهو قول الكلبي، وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحُ واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب...(انظر: تفسير القرطبي ج: ٩ ص:٣٢٩-٣٣٠).

بريء من النفاق كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً، وله علامات كثيرة. قال ﷺ : (أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منها ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا خاصم فجر)[١٥٣٥] وفي لفظ آخر: وإذا عاهد غدر. وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير... قال الحسن: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، واختلاف اللسان والقلب، واختلاف المدخل والمخرج، ومن الذي يخلو عن هذا المعاني، بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة، ونسي كونها منكراً بالكلية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة، فكيف الظن بزماننا؟ حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[١٥٣٦].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[١٥٣٧]، وقال بعضهم: علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من الحق، وقيل: من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك، وقال رجل لابن عمر رحمه الله: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[١٥٣٨]... فقد عرفت بهذا

(١٥٣٥) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣٦) حديث حذيفة إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقا الحديث أخرجه أحمد من حديث حذيفة (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣٧) حديث أصحاب رسول الله ﷺ إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث أخرجه البخاري من حديث أنس وأحمد والبزار من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٣٨) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

أن خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأن سببه أمور تتقدمه منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك...

فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما، ولذلك قال ﷺ: (العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار)[(١٥٣٩)] »[(١٥٤٠)].

١٣٣٤- منزلة الإشفاق: حقيقتها وآثارها عند ابن القيم:

تكلم ابن القيم عن منزلة الإشفاق في «مدارج السالكين» أثناء شرحه لكتاب «منازل السائرين» ونظراً لارتباطها بمنزلة الخوف فقد رأينا أنها تكمل الموضوع، وسنورد كلامه في منزلة الإشفاق - مشذباً- مع المحافظة على عبارته وعبارة صاحب المنازل:

١٣٣٥- الصلة بين الخوف والخشية والرهبة والوجل:

قال ابن القيم[(١٥٤١)]: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الإشفاق، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

الإشفاق: رقة الخوف وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

ولهذا قال صاحب المنازل: والإشفاق: دوام الحزن مقروناً بالترحم، وهو على ثلاث درجات.

(١٥٣٩) حديث العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى الحديث أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ... ، وذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغاً، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٥٤٠) الغزالي: إحياء علوم الدين: ج:٤ ص:١٥٥-١٧٣ (بتصرف).

(١٥٤١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٥١٧-٥٢٠.

١٣٣٦- درجات الإشفاق الثلاث:

الأولى: إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد:

أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية.

وإشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع:

أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنة رسوله، ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل: إما بتركه، وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه فيذهب ضائعاً ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٦]، قال عمر بن الخطاب ﷺ للصحابة رضي الله عنهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين: قال: يا ابن أخي قل ولا تحقرن نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث الله إليه الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله[١٥٤٢].

قال: **الدرجة الثانية**: إشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق: أي يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل.

قال: وعلى القلب أن يزاحمه عارض: والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة، كل سبب يعوق السالك.

قال: وعلى اليقين أن يداخله سبب: هو الطمأنينة إلى من بيده الأسباب كلها، فمتى داخل يقينه ركون إلى سبب وتعلق به واطمأن إليه قدح ذلك في يقينه، وليس المراد قطع الأسباب عن أن تكون أسباباً والإعراض عنها فإن هذا زندقة وكفر ومحال، فإن الرسول سبب في حصول الهداية والإيمان، والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة ودخول الجنة،

(١٥٤٢) البخاري (٤٥٣٨).

والكفر سبب لدخول النار، والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها، ولكن الذي يريد أن يحذر منه: إضافة يقينه إلى سبب غير الله، ولا يتعلق بالأسباب بل يفنى بالمسبب عنها...

قال: **الدرجة الثالثة:** إشفاق يصون سعيه عن العجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ويحمل المريد على حفظ الجد: الأول: يتعلق بالعمل، والثاني: بالخلق، والثالث: بالإرادة، وكل منها له ما يفسده، فالعجب: يفسد العمل كما يفسده الرياء فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه، والمخاصمة للخلق: مفسدة للخلق فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه، والإرادة: يفسدها عدم الجد وهو الهزل واللعب فيشفق على إرادته مما يفسدها، فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحاله والله المستعان» (١٥٤٣).

والآن وقد انتهينا من الكلام في الخوف من الله تعالى وخشيته وبينا وجوبه على كل أحد، وأنه لابد منه لإبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان بوصفه وسيلة لدوام التوبة إلى آخر العمر، ننتقل إلى الكلام على الركن الثالث الذي يعمل على إبقاء القلب حياً وهو التفكر في الآخرة.

الفقرة الثالثة
التفكر في الآخرة وأثره في دوام التوبة

١٣٣٧- التفكر في الآخرة ركن في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان:

التفكر في الآخرة هو الركن الثالث في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان وهو مرتبط بالركنين السابقين: محبة الله تعالى، والخوف منه وخشيته، فإن محبة الله تعالى تجعل صاحبها ممن أراد الآخرة وسعى لها سعيها، والخوف منه وخشيته تجعل صاحبها يخاف من الحجاب عن الله في الآخرة، ويخاف من وعيده، وعلى ذلك كان التفكر في الآخرة الركن الثالث في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان، فلا يمكن أن توجد محبة الله بمعزل عن التفكر في الآخرة وإرادة القرب منه، كما لا يمكن أن توجد خشية الله بمعزل عن التفكر في الآخرة كذلك، فكلاهما يستلزم التفكر في الآخرة، وصاحب القلب الذي يخلو من التفكر في الآخرة قلبه

(١٥٤٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٥١٧-٥٢٠.

منكوس قد غرته الحياة الدنيا ورضي بها وانغمس فيها وامتلأ بها فلم يعد فيه متسع للتفكر في الآخرة، كما أنه خاو من محبة الله وخشيته. ومن كان هذا حاله فليبك على موت قلبه.

فالتفكر في الآخرة متكامل مع محبة الله وخشيته، وبها مجتمعة يبقى القلب حياً بمعاني الإيمان، وذلك مطلوب من كل المسلمين والمسلمات، وبالنسبة للتائب يكون ذلك وسيلة من وسائل دوام التوبة وبقائها إلى آخر العمر.

١٣٣٨- المراد بالتفكر في الآخرة:

المراد بالتفكر في الآخرة: التفكر فيما أعده الله تعالى من فوز عظيم ونعيم مقيم أبدي خالد جزاءً على الإيمان والعمل الصالح، ونهي النفس عن الهوى، وما أعده من عذاب مقيم في نيران الجحيم جزاءً على خبث القلب ونفاقه والعمل بعمل أهل النار، وإن الإنسان صائر بلا شك إلى أحد هذين المصيرين: فإما ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، مع المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، وأما مع الذين قال فيهم تبارك وتعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، وأنه عما قريب راحل عن هذه الدنيا ومفارق أهلها بلا وداع وصائر إلى منازل الآخرة وأولها القبر ومحاسب على أعماله ومجزي بها، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وأنه بعد الموت لو كان بيده أن يفتدي بالدنيا وما فيها من أجل الحصول على حسنة واحدة أو دفع سيئة واحدة عنه لفعل، ولكن أنى له ذلك وقد خطفه الموت وانقطع عمله؟.

وعلى ذلك، وللنجاة من هذا المصير والفوز العظيم برضوان الله وجنات النعيم يجدر بالمؤمن أن يحرص على كل عمل صالح وعلى كل خصلة خلقية حسنة عنده وينميها، ويفرح بها ويعتبرها كالجوهرة النفيسة الغالية لا يفرط بها أبداً ولا يحقر من الخصال الخلقية الحسنة شيئاً بأن يراها قليلة الأهمية فيتركها، أو خصلة خلقية سيئة يستهين بأمرها

وشرها فيتعاطاها ويتطبع عليها، فرب صفة طيبة ترفعه عند الله تعالى الدرجات العالية، ورب صفة سيئة خبيثة تدخله النار، فَلِم التفريط والمخاطرة، ألا يرى إلى مدح الله نبيه إسماعيل بصفة طيبة فيه، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٤]، بينما يقول الرسول ﷺ في امرأة تصلي وتصوم ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها: (لا خير فيها هي من أهل النار)[١٥٤٤]، فالكيس من يحرص على كل معروف مهما قل، ويتجنب كل منكر مهما صغر اتقاء النار، قال ﷺ: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)[١٥٤٥]...»[١٥٤٦].

١٣٣٩- التفكر في الآخرة واجب شرعاً:

قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠].

قال القرطبي في تفسيرها: «أي كذلك يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنائها فتزهدون فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبون فيها»[١٥٤٧].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [الحشر: ١٨].

قال الطبري في تفسيرها: «... وقوله: (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) يقول: ولينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك... عن قتادة: قوله:

(١٥٤٤) المنذري: الترغيب والترهيب: ج:٣ ص:٣٥٦ والحديث رواه أحمد والبزار والحاكم.

(١٥٤٥) المنذري: الترغيب والترهيب: ج:٢ ص:١٠ والحديث متفق عليه: البخاري (١٣٢٨)، ومسلم (١٦٩٠).

(١٥٤٦) أ.د. منير البياتي: النظم الإسلامية: ص ١٢٠-١٢١ (بتصرف).

(١٥٤٧) تفسير القرطبي ج: ٣ ص: ٦٢.

(اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد): ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد، وغد يوم القيامة»[١٥٤٨].

وقد ذم القرآن الكريم من نسي الحساب في الآخرة على ما قدمت يداه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال في أصحاب النار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال فيهم: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]. وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

كما أن الإيمان باليوم الآخر - وهو ركن من أركان الإيمان - والذي ورد في القرآن كثيراً جداً مقروناً بالإيمان بالله لا يكون مؤثراً وفاعلاً إلا بإحضاره في القلب وذلك عن طريق التفكر في الآخرة، وهو أنفع شيء للقلب وأعظم دافع إلى مسابقة الأيام والليالي في تقديم العمل الصالح المنجي يوم القيامة، فبالتفكر في الآخرة والمقايسة بينها وبين الدنيا يعلم العبد قصر أيامه في الدنيا «وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء، فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء، والعبد منساق زمنه وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم، وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع، فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا في أحب الأمور إلى الله، فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟»[١٥٤٩].

ويكفي من أجل المقايسة بين الدنيا والآخرة أن يتدبر قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

(١٥٤٨) تفسير الطبري ج: ٢٨ ص: ٥٢.
(١٥٤٩) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٤٤٨.

ولسنا نريد التفصيل في هذا الموضع فقد بسطنا القول فيه عند الكلام في «رجوع العالمين إلى رب العالمين» في الباب الأول من هذا الكتاب حيث الكلام على: الموت وما بعده من حياة البرزخ، وقيام الساعة، والبعث والنشور، والحشر، والعرض والحساب، والميزان، والصراط، ومن ثم استقرار الناس فريقين: فريق في جنات النعيم قد سعد سعادة الأبد وربح ربح الأبد، وفريق في نيران الجحيم قد شقي شقاوة الأبد وخسر خسارة الأبد.

فكل ما جاء في التنزيل العزيز من كلام الله تبارك وتعالى عن تلك الحقائق المذكورة إنما هو تقرير لحقيقتها من جهة، ودعوة للإيمان بها وللتفكر بها من جهة أخرى، وعدم نسيانها والغفلة عنها، وبقدر حضورها المؤثر والفاعل في القلب يحيى القلب بها، وبقدر الغفلة عنها والنسيان لها يمرض القلب أو يموت.

والمطلوب في هذه الفقرة (التفكر في الآخرة) ليس المعرفة العقلية لكل ذلك والتصديق به فقط، وإنما حضوره في القلب بصورة دائمة، وذلك هو الذي يجعل القلب معلقا بالآخرة ويجعل صاحبه ربانياً يُسخِّر كل شؤون دنياه من أجل آخرته التي يحسب حسابها في كل ما يمارسه من عمل في هذه الدنيا، ذاكراً على الدوام في ليله ونهاره أن دنياه دار امتحان وابتلاء وفناء، وأنها ساعة من نهار، وأنها عشية أو ضحاها، وأن آخرته دار جزاء وخلود وبقاء.

ولذلك نركز في هذه الفقرة على الأسباب الموصلة إلى التفكر في الآخرة وإحضارها إلى القلب من أجل أن نمارس تلك الأسباب عملياً، فما أهم تلك الأسباب؟

١٣٤٠- الأسباب الموصلة إلى التفكر في الآخرة:

الأسباب الموصلة إلى التفكر في الآخرة وحضورها الدائم في القلب أهمها اثنان:

الأول: قصر الأمل، والثاني: تدبر القرآن.

١٣٤١-١- قصر الأمل وأثره في التفكر في الآخرة:

«فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب،

ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا ويرغبه في الآخرة.

فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قصر الأمل شاهد من شواهد اليقين يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه فكل منهما يسير إلى الآخر فيوشك أن يلتقيا سريعاً، ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٣-١١٤]، وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٣-١٠٤].

وخطب النبي [ﷺ] أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه...

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار»[(١٥٥٠)].

١٣٤٢-٢- تدبر القرآن وأثره العظيم في التفكر في الآخرة:

ما من قارئ يقرأ في القرآن الكريم سورة أو أقل إلا ويجد دعوة إلى الجنة وتحذيراً من النار، فالتنزيل العزيز قد وضح مشاهد الآخرة أعظم توضيح وبينها أعظم تبيين، وقد جاء ذلك بأسلوب معجز ومؤثر يهز النفس الإنسانية هزاً ويضعها أمام الآخرة وجهاً

(١٥٥٠) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص:٢٤٩-٤٥١.

لوجه كأنها تراها رأي العين، ولذلك كان مجرد القراءة في القرآن بفهم، ولو كان فهماً بسيطاً، أو تلاوة بعض آياته من غير غفلة، أو سماعها من غير غفلة، كافياً لتحفيز التفكر في الآخرة، إضافة إلى تدبره المطلوب شرعاً، ولذلك كانت قراءة القرآن من قبيل الواجب، قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢]، فإن هذه القراءة والتلاوة كافية للذكرى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، قال ابن كثير في تفسيرها: «أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس»[1551]، وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٠-٣٤] ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي من كان له عقل واستمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، فأعاره سمعه وعقله واستمع بقلب حاضر من غير غفلة[1552].

فإذا وصل الأمر إلى التأمل والتدبر المطلوب شرعاً كانت الآخرة أكثر حضوراً في القلب ولا بد.

قال ابن القيم: «وأما التأمل في القرآن فهو: تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ

(١٥٥١) تفسير ابن كثير: ج:٤ ص:٢٦٥.

(١٥٥٢) قال ابن كثير: وقوله عز وجل: (إن في ذلك لذكرى) أي لعبرة لمن كان له قلب أي لب يعي به، وقال مجاهد عقل، (أو ألقى السمع وهو شهيد) أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه،... وقال الضحاك العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد (تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٢٣٠).

يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتجعل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه: الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضرورية للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها.

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقاً والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا

نكد ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل...» [(١٥٥٣)].

١٣٤٣- شواهد الإيمان في القلب تفضي إلى الهمة والعمل:

والتفكر في الآخرة يزيد أثره وفائدته كلما ازداد المسلم إيماناً وعلماً وقامت في قلبه شواهد الإيمان التي يبصر بها الحقائق بيقظة فيتأثر بها وتدفعه إلى العمل للآخرة مبتغياً الدار الآخرة - غير ناس نصيبه من الدنيا، يسوس دنياه الفانية بما يرضي الله من أجل آخرته -، فبقدر ما يقوم في قلب العبد من العلم والتصديق والصدق والإخلاص تتجلى أمامه حقيقة الدنيا والآخرة فيقايس بينهما ثم يجد نفسه تتوق إلى المسارعة والمسابقة في طلب النجاة من النار والفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ [الحديد: ٢١].

فالعمل يكون على حسب حال القلب وما استقر فيه من شواهد الإيمان.

قال ابن القيم: «فالعمل إنما هو على الشواهد، وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله، ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارة يعلم بها حقيقة الأمر:

فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها، قد بعدت بهم وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمر الشراب، أضحكتهم قليلاً وأبكتهم طويلاً، سقتهم كؤوس سمها بعد كؤوس خمرها فسكروا بحبها وماتوا بهجرها.

(١٥٥٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٥١- ٤٥٢.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقاً، فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار ومحط الرحال ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي [ﷺ]: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع؟)[١٥٥٤]، وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها واضطرامها وبعد قعرها وشدة حرها وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها: فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفا، ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، فيراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، ثم قيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٤-١٦]، فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يسحبون وفي النار كالحطب يسجرون ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإذا شربوه قطع أمعاءهم في أجوافهم وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

(١٥٥٤) ابن ماجة (٤٠٩٨)، وأحمد (١٧٣٢٦) و (١٧٣٢٨) و (١٧٣٣٢) و (١٧٣٣٣).

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إضافة إلى ما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لبن الذهب والفضة وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك وأبرد من الكافور وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال النبي [ﷺ]: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]، ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم)[١٥٥٥].

(١٥٥٥) ابن ماجة (١٨٠).

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً .

هذا وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد ويغيب به العبد عنها كلها، وهو شاهد جلال الرب تعالى وجماله وكماله وعزه وسلطانه وقيوميته وعلوه فوق عرشه وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه: قيوماً قاهراً فوق عباده، مستوياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، آمراً ناهياً، مرسلاً رسله ومنزلاً كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دعي، ويقيل إذا استقيل، أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء ...

لو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم ثم كان كل الخلق على تلك الصفة ثم نسب إلى علم الرب تعالى لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنقرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته كسمعه وبصره وسائر نعوت كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى نياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها... يقبض سماواته بإحدى يديه والأرضين باليد الأخرى فالسماوات السبع في كفه كخردلة في كف العبد... لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد وتندرج فيه الشواهد كلها، ومن هذا شاهده فله سلوك وسير خاص ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة أو معرفة مجملة .

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد.

خليلي لا والله ما أنا منكما إذا علم من آل ليلى بدا ليا

والمقصود أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية، وهو المثل الأعلى الذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه في سورة النحل وسورة الروم وسورة الشورى، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبيه والمنيبين إليه من هذا الشاهد، وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة، وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه، فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه، وأعظم الناس حظاً في ذلك معترف بأنه لا يحصى ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثنى عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحة وإن أطنبوا أن الذي فيك أعظم

لك الحمد كل الحمد لا مبدأ له ولا منتهى والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب ونزاهته من الأوصاف المذمومة والإرادات السفلية، وخلوه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، هو كرسي هذا الشاهد الذي يجلس عليه، ومقعده الذي يتمكن فيه، فحرام على قلب متلوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة متعلق بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله:

نزه فؤادك عن سوانا وائتنا فجنابنا حل لكل منزه

إذا طلعت شمس التوحيد، وباشرت جوانبها الأرواح، ونورها البصائر، تجلت بها ظلمات النفس والطبع، وتحركت بها الأرواح في طلب من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازل العبودية منزلاً منزلاً، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد.

إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية: رأى أن الأمر كله لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢-٣]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنبوات والكتب والشرائع، والمحبة والرضا، والكراهة والبغض، والثواب والعقاب، وشاهد الأمر نازلا ممن هو مستو على عرشه، وأعمال العباد صاعدة إليه ومعروضة عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى نضرة وسروراً، ويَقْدِم إلى ما لم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثوراً.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائماً بهذه الصفة، قد وسع من هي صفته كل شيء رحمة وعلماً، وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه، فاستوى على عرشه برحمته لتسع كل شيء كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العزة والكبرياء والعظمة والجبروت فله شأن آخر.

وهكذا جميع شواهد الصفات، فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها، فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد البتة» (١٥٥٦).

وبهذا ننهي الكلام في (إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان) بوصفه وسيلة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر، بحثنا فيه من العبادات القلبية: المحبة، والخوف، والتفكر في الآخرة، لننتقل إلى الشق الثاني المتعلق بتنشيط الجوارح بالطاعات والعبادات بوصفه وسيلة من وسائل لزوم التوبة ودوامها إلى آخر العمر.

(١٥٥٦) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٣ ص: ٢٥٠-٢٥٦ (بتصرف).

المطلب الثاني
تنشيط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات وأثره في دوام التوبة

١٣٤٤- تميد وتقسيم:

قد ذكرنا سابقاً أن محركات القلوب في السير إلى الله تعالى ثلاثة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء. وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره... وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء»[١٥٥٧].

وقد مر بك ذلك كله بالتفصيل.

١٣٤٥- علاقة القلب بنشاط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات:

فإذا بني القلب بناء إيمانياً بوجود المحبة والخوف والرجاء مع التفكر الدائم في الآخرة أمكن عندئذ للجوارح أن تنشط بأنواع العبادات والطاعات وتعبد الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، لأن الباعث على المزيد من العمل الصالح بهمة ونشاط وحماس أصبح موجوداً ومستقراً في القلب، فقد أصبح القلب حياً، والقلب ملك والجوارح جنوده تأتمر بأمره فبحياته: تحيا وتنشط وتعمل، وبضعفه ومرضه: تعصي وتخمل وتكسل، وبموته: تموت وتضيع وتهمل.

١٣٤٦- تقسيم الموضوع:

وسنتناول موضوع تنشيط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات في فقرتين:

(١٥٥٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩٥ -٩٦.

نخصص الأولى: لتزكية النفس بأنواع العبادات والطاعات وأثر ذلك في دوام التوبة.

ونتناول في الثانية: ممارسة الذكر الكثير وأثره في دوام التوبة.

الفقرة الأولى
تزكية النفس بأنواع العبادات والطاعات وأثرها في دوام التوبة

١٣٤٧- بعد التوبة عمل صالح:

لا تنفع توبة وبطالة، بل لا بد أن يخرج التائب مما تاب منه إلى ما تاب إليه وهو العمل الصالح قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٠]، وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج: ٧٧]، وقال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

والتائب وقد ترك مألوفاته السابقة وتاب منها محتاج إلى إشغال جوارحه وتنشيطها بالطاعات، لأن النفس إن لم يشغلها التائب بالخير شغلته بالشر، وبخاصة إذا كانت لها سابق عهد بالمحرمات المشتهيات فلابد من إشغالها بالطاعات التي يجد حلاوتها في قلبه فتعوضه عن كل حلاوة غيرها.

١٣٤٨- لا تزكية للنفس بدون الأعمال الصالحة التي شرعها الإسلام:

وبممارسة الطاعات المفروضة والمندوبة تزكو النفس فتصبح نفساً طيبة تتنافر ذاتياً مع المعاصي فيكون ذلك وسيلة من الوسائل التي تحفظ للتائب توبته فتدوم إلى آخر العمر.

١٣٤٩- تزكية نفوس المؤمنين جزء من وظيفة النبوة:

والقرآن قد بين أن وظيفة النبوة تتكون من شطرين: شطر تعليم، وشطر تزكية، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

١٣٥٠- اقتران الإيمان والعمل الصالح في القرآن الكريم:

والقرآن الكريم قد ذكر العمل الصالح - وهو ممارسة العبادات المفروضة والمندوبة - مطلوباً مع الإيمان ومقترناً به في الكثير من المواضع كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، ومثل ذلك في القرآن كثير.

ومعلوم أن إيمان العبد يزيد وينقص، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

«وصح عن الحسن أنه قال: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، ونحوه عن سفيان الثوري»[١٥٥٨]. وروي مثله وبلفظه عن أنس ابن مالك[١٥٥٩].

١٣٥١- الجزاء إنما هو على الأعمال:

والجزاء في الآخرة إنما هو على الأعمال كما بين القرآن الكريم، كقوله تعالى في المؤمنين: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٤]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وكقوله تعالى في الكافرين: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

(١٥٥٨) حاشية ابن القيم ج: ١٢ ص: ٢٩٤.

(١٥٥٩) الفردوس بمأثور الخطاب (٥٢٣٢).

١٣٥٢- العلم يراد للعمل:

ولذلك كان العلم إنما يراد للعمل، فإن لم يفض العلم إلى العمل كان حجة على صاحبه يوم القيامة، قال تعالى في تزكية النفس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل: من تعلم تزكيتها، لأن التزكية تنتج من أفعال يقوم بها المسلم فتزكو نفسه وهي ممارسة الأعمال الصالحة، كما أن الخائب الذي دساها إنما دساها بأعمال تجعلها نفساً خبيثة.

١٣٥٣- تعريف تزكية النفس:

ويمكن تعريف تزكية النفس بأنها: تطييب النفس بممارسة العبادات المفرضة والمندوبة وكفها عن الهوى المتمثل في فعل المحرمات والمكروهات.

١٣٥٤- أثر العبادات والطاعات في تزكية النفس ودوام التوبة:

ولا يزال التائب يزكي نفسه بالطاعات المفروضة والمندوبة حتى إذا جاءه ملك الموت وجد نفساً طيبة قد طيبها صاحبها بعمل الصالحات فيتوفاها على هذه الحال، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وكما جاء في الحديث الشريف حيث يخاطبها الملائكة: (اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان... وإذا كان الرجل السوء، قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وابشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج...)[١٥٦٠].

وممارسة العبادات والطاعات الواجبة منها والمندوبة تشعر الإنسان بحلاوة الإيمان وبروعة الصلة بالله تعالى وتنشئ حباً عميقاً من العبد لربه تبارك وتعالى يحرص العبد على دوامه فيندفع لتنميته بمزيد من العمل الصالح ابتغاء رضوان الله، ويخاف انقطاع هذا الحب بممارسة المحرمات فيبتعد عنها بل يجد نفسه عازفة عنها بصورة تلقائية كلما ازدادت

(١٥٦٠) ابن ماجة (٤٢٥٢) واللفظ له، وأحمد (٨٤١٤) و(٢٣٩٣٨).

ممارسته للعبادات والطاعات، وبخاصة المندوبة منها بعد إحسان الفرائض، فتزكو نفسه وتتسامى على الشهوات، ويطهر قلبه من الصفات الذميمة ويشرق النور في جنبات روحه ويكون أسهل شيء وهو بهذه الحال ممارسة العمل الصالح ومحاسن الأخلاق، والعزوف عن المحرمات وسوء الخلق بكل مفرداته.

وعلى ذلك فإن تزكية النفس على هذا الوجه أي بالعبادات وأنواع الطاعات يجعل النفس مزرعة لحسن الأخلاق تنبت فيها الخصال الخلقية الحسنة بكل سهوله ويسر وتجتث منها الخصال الخلقية السيئة بكل سهولة ويسر أيضاً، وهو ما يحتاج إليه التائب من أجل دوام توبته.

١٣٥٥- أمثلة من القرآن والسنة على أثر العبادات في التزكية:

وقد أكد القرآن الكريم هذه الثمرات الخلقية العظيمة الناتجة من ممارسة العبادات والطاعات .

فقال تعالى في الصلاة مبيناً ثمراتها الخلقية: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال أيضا: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

وبين القرآن الكريم أن الزكاة تطهر النفس من البخل والشح وتزكيها وتسمو بها، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وذكر أثر الصوم في تزكية النفس إذ يعلم الصبر على مفارقة شهوات الجسد والتسامي عنها ويعود الإنسان الإخلاص مع الله تعالى بعيداً عن الرياء وغير ذلك من الفضائل الخلقية التي جمعها بكلمة (التقوى)، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وذكر الثمرات الخلقية لممارسة عبادة الحج من الاستعلاء على الشهوات وتصفيه أقوال الإنسان وأفعاله من الرفث والفسوق والجدال وتعليمه الحلم وسعة الصدر، وإنفاق المال في سبيل الله تعالى والتواضع والبعد عن الكبر والعجب بالنفس، والغرور، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ

﴿ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال أيضا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

ومثل ذلك يقال في آثار سائر العبادات والطاعات.

وأشارت السنة النبوية إلى مثل ذلك في بيان الآثار الخلقية وتزكية النفس فتجعلها نفساً زكية محبوبة عند الله تعالى بممارسة الطاعات المفروضة والمندوبة، ففي الحديث القدسي: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها رجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[١٥٦١].

فما بالك بحال تائب قد صيرته ممارسة الطاعات المفروضة والمندوبة يسمع ويبصر بنور الله، ويبطش ويمشي بمعية الله له في كل ذلك.

وهكذا تكون ممارسة العبادات والطاعات المفروضة والمندوبة مزكية للنفس الإنسانية سامية بها، منشئة أخلاقاً وأحوالاً جديدة في التائب وتجعل في نفسه قابلية عجيبة لاكتساب الحسن من الأخلاق وتقويم المعوج منها، ونبذ السيئ منها، بيسر وسهولة، فهي من أعظم الوسائل لاكتساب الأخلاق الإيمانية الجديدة تمكنه من حال الاستقامة على الصراط المستقيم ولزوم توبته وحفظها ورعايتها ودوامها إلى آخر العمر.

الفقرة الثانية
ممارسة الذكر الكثير وأثره في دوام التوبة

١٣٥٦- الذكر الكثير يجلو القلب ويصله بالرب جل جلاله:

ممارسة الذكر الكثير تجلو القلب وتزيل عنه الرين والصدأ فتصله بالرب تبارك وتعالى وصلاً دائماً وتنشئ المحبة التي هي روح مقامات الإسلام والإيمان والإحسان. فتجعل العبد يعيش في رياض الذكر فرحاً مسروراً قرير العين متغلباً على منازعة النفس

(١٥٦١) البخاري (٦٠٢١)، وأحمد (٤٩٩٧) و(٢٤٩٩٧).

ورعوناتها وشهواتها، فيعوضه حلاوة الإيمان ويعصمه من الرجوع عن توبته أو نقضها، ومن هنا عددناه وسيلة من الوسائل المهمة في دوام التوبة والثبات عليها إلى آخر العمر، وكل ذلك يحتاجه التائب وغير التائب.

١٣٥٧- وصف الذكر بـ (الكثير) مقصود لذاته:

والذي يثمر الثمرات التي ذكرناها هو الذكر الكثير دون الذكر القليل، ومن هنا جاء طلب الذكر في القرآن الكريم والدعوة إليه موصوفاً بوصف (الكثير) في كثير من المواضع وجعل ذلك صفة المؤمنين، بينما قال في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. فلا يتأتى من المنافق الذكر الكثير فإنه أثقل شيء عليه.

قال تعالى في طلب الذكر (الكثير) والحث عليه ووصف المؤمنين به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال لموسى وهارون: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢].

وقد جاء في السنة النبوية مثل ذلك كما سنرى بعد قليل.

١٣٥٨- كلام ابن القيم في الذكر وأنواعه وثمراته:

وقد تكلم ابن القيم عن الذكر وأنواعه وثمراته في «مدارج السالكين» كلاماً عالياً ونافعاً جداً نورده - مختصراً ومشذباً بقدر ما تمس إليه الحاجة - مع المحافظة على عبارته، قال[١٥٦٢]: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الذكر، وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون وفيها يتجرون وإليها دائماً يترددون، والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه

(١٥٦٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٤٢٣-٤٣٧ (بتصرف).

اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضـــنا تـــداوينا بـــذكركم فنـــترك الـــذكر أحيانـــا فننـــتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلمهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً[١٥٦٣].

وإذا واطأ في ذكره قلبه لسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء.

(١٥٦٣) لا يوصف الله تعالى بالاشتياق أي اشتياقه إلى عبده وإنما يوصف بالمحبة كما جاءت به النصوص، وابن القيم من أكثر العلماء دقة في انتقاء الكلمة وانتقاء العبارة وهو من المتمسكين بأن الله تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه رسوله ﷺ ، وبالمقارنة مع أقواله في ذلك في جميع مؤلفاته ينبغي أن تفهم كلمة الاشتياق التي ذكرها هنا على أن المقصود بها زيادة المحبة لا غير.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان، قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم.

١٣٥٩- فضل الذكر في القرآن والسنة ووجوبه وآثاره:

١٣٦٠- أولاً - فضل الذكر في القرآن: وجوبه شرعاً وآثاره وثمراته:

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع : الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها فمتى عُدِمَتْه كانت كالجسد بلا روح.

[وفيما يلي] تفصيل ذلك:

١٣٦١-١- الأمر بالذكر مطلقاً ومقيداً:

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك، والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

١٣٦٢-٢- النهي عن ضده من الغفلة والنسيان:

وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾ [الحشر: ١٩].

١٣٦٣-٣- تعليق الفلاح بالإكثار من الذكر:

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] [الجمعة: ١٠].

١٣٦٤-٤- الثناء على أهل الذكر وحسن جزائهم:

وأما الثناء على أهله وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥].

١٣٦٥-٥- خسران من كان لاهياً عن الذكر:

وأما خسران من لها عنه: فكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

١٣٦٦-٦- ذكر الله لعبده جزاء لذكره:

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له: فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٣٦٧-٧- الإخبار بأن الذكر أكبر من كل شيء:

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء: فكقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية، هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، وما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

١٣٦٨-٨- جعل الذكر المسك الذي تختم به الأعمال الصالحة:

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختم به الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختم به الصلاة، كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ ﴾ [النساء:١٠٣] وختم به الجمعة كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا، وإذا كان آخر كلام العبد أدخله الله الجنة.

١٣٦٩-٩- الذاكرون هم أولو الألباب المنتفعون بالآيات:

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته وهم أولو الألباب والعقول: فكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

١٣٧٠-١٠- الذكر يصاحب الأعمال فيكون روحها:

وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه بل هو روح الحج ولبه ومقصوده، كما قال النبي [ﷺ]: (إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله)[١٥٦٤]، وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه)[١٥٦٥]، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يستشهد به، وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال، كما قال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرماح شواجر ... نحوي وبيض الهند تقطر من دمي

وهذا كثير في أشعارهم وهو مما يدل على قوة المحبة، فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء فيها غير نفسه يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليل على صدق المحبة، والله أعلم.

(١٥٦٤) أبو داود (١٦١٢)، وأحمد (٢٣٢١٥) و(٢٣٣٢٨) و(٢٣٣٢٩)، والدارمي (١٧٨٠).

(١٥٦٥) سنن الترمذي (٣٥٨٠) وجاء في شرحه في تحفة الأحوذي ج: ١٠ ص: ٢٩: «قوله: إن عبدي كل عبدي: أي عبدي حقاً الذي يذكرني وهو ملاق قرنه بكسر القاف وسكون الراء: عدوه المقارن المكافىء له في الشجاعة والحرب، فلا يغفل عن ربه» (تحفة الأحوذي ج: ١٠ ص: ٢٩). وانظر الحديث أيضا في:جامع العلوم والحكم ج:١ ص:٤٤٩، وفيض القدير للمناوي ج:٢ ص:٣١٠، وميزان الاعتدال ج:٥ ص:١٠٥.

١٣٧١- ثانيا - فضل الذكر في السنة النبوية:

١٣٧٢-١- الذاكرون هم أهل السبق:

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ قال: (كان رسول الله يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال: (سيروا هذا جمدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)[١٥٦٦] والمفردون: إما الموحدون، وإما الآحاد الفرادى.

١٣٧٣-٢- ذكر الله خير الأعمال وأزكاها وأرفعها للدرجات:

وفي المسند مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل)[١٥٦٧].

١٣٧٤-٣- الجالسون للذكر تحفهم الملائكة وينالون الرحمة والسكينة وذكر الله لهم:

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: (سمعت الأغر قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله [ﷺ] قال: (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)[١٥٦٨]، وهو في صحيح مسلم.

١٣٧٥-٤- أهل الذكر يباهي الله بهم ملائكته:

ويكفي في شرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في صحيح مسلم عن معاوية ﷺ (أن رسول الله خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟

(١٥٦٦) مسلم (٣٨٣٤) واللفظ له، وأحمد(٧٩٤٠) و(٨٩٦٤).

(١٥٦٧) ابن ماجة (٣٧٨٠)، وأحمد (٢٠٧١٣) و(٢١٠٦٥) و(٢٦٢٤٩)، ومالك (٤٤١).

(١٥٦٨) مسلم (٤٨٦٨)، وأحمد(١١٤٤١).

قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني: أن الله يباهي بكم الملائكة)[١٥٦٩].

١٣٧٦-٥- التشبث بالذكر ومفارقة الدنيا واللسان رطب من ذكر الله:

وسأل أعرابي رسول الله [ﷺ]: أي الأعمال أفضل؟ فقال: (أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله)[١٥٧٠].

وقال له رجل: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتشبث به، فقال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)[١٥٧١].

١٣٧٧-٦- تسمية النبي ﷺ للذكر برياض الجنة وجعله معرفاً للعبد منزلته عند الله:

وفي المسند وغيره من حديث جابر قال: خرج علينا رسول الله [ﷺ] فقال: (أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة)، قلنا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر)[١٥٧٢].

وقال: (اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه)[١٥٧٣].

(١٥٦٩) مسلم (٤٨٦٩)، والترمذي(٣٣٧٩) وقال: حديث حسن غريب، وتحفة الأحوذي ج:٩ ص:٢٢٩ والنسائي (٥٣٣١) وأحمد (١٦٣٣٢)، وصحيح ابن حبان (٨١٣)، ومصنف ابن أبي شيبة(٢٩٤٦٩)، ومسند أبي يعلى (٧٣٨٧)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥٣٢)ج:١ ص:٤٠٠، واستشهد به صاحب فتح الباري ج:١١ ص:٢١٠.

(١٥٧٠) صحيح ابن حبان (٨١٨) ج: ٣ ص: ٩٩ بلفظ: (عن معاذ بن جبل قال ثم سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله)، وباللفظ نفسه في موارد الظمآن (٢٣١٨)، ومثله في مجمع الزوائد ج:١٠ ص:٧٤، والطبراني - مسند الشاميين - ج:١ ص:١٢٢ والمعجم الكبير(١٨١) ج:٢٠ ص:٩٣، وشعب الإيمان للبيهقي (٥١٦)، والترغيب والترهيب (٢٢٩١)، واستشهد به صاحب فتح الباري ج:١٣ ص:٥٠٩.

(١٥٧١) ابن ماجة(٣٧٨٣)، وأحمد(١٧٠٢٠) و(١٧٠٣٧).

(١٥٧٢) سنن الترمذي(٣٥٠٩)، وأحمد(١٢٠٦٥) واللفظ له، وانظر: المستدرك على الصحيحين (١٨٢٠).

(١٥٧٣) المستدرك على الصحيحين (١٨٢٠) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ومجمع الزوائد ج: ١٠ ص:٧٧، والمعجم الأوسط (٢٥٠١)، ومسند أبي يعلى (١٨٦٥)، والترغيب =

١٣٧٨-٧- الذكر غراس الجنة:

وروى النبي [ﷺ] عن أبيه إبراهيم ليلة الإسراء أنه قال له: (أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم: أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[١٥٧٤]، رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

١٣٧٩-٨- جعل النبي ﷺ الذكر علامة القلب الحي وتركه علامة القلب الميت:

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ : (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحي والميت)[١٥٧٥]، ولفظ مسلم: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه: مثل الحي والميت)[١٥٧٦]، فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر، وفي اللفظ الأول جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت، فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات.

ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وكما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم فهي القبور الدوارس
وأرواحهم في وحشة من حبيبهم ... ولكنها عند الخبيث أوانس

= والترهيب (٢٣٢٥) وقال: رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(١٥٧٤) سنن الترمذي(٣٤٦٢)، والترغيب والترهيب (٣٢٨٨) وقال: رواه الترمذي والطبراني في الصغير والأوسط وزاد ولا حول ولا قوة إلا بالله... قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(١٥٧٥) البخاري (٥٩٢٨).

(١٥٧٦) مسلم (١٢٩٩).

وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: (إذا كان الغالب على عبدي ذكري، أحبني وأحببته) وفي آخر: (فبي فافرحوا، وبذكري فتنعموا)، وفي آخر: (ابن آدم: ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك وتهرب إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا، يا ابن آدم: ما تقول غداً إذ جئتني؟) وفي آخر: (ابن آدم: اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب، وارض بنصرتي لك فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك، وفي الصحيح: في الأثر الذي يرويه رسول الله [ﷺ] عن ربه تبارك وتعالى: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[١٥٧٧]...

١٣٨٠- أنواع الذكر ودرجاته:

الذكر ثلاثة أنواع:

ذكر الأسماء والصفات ومعانيها والثناء على الله بها وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهي والحلال والحرام.

وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي.

وأنه ثلاثة [درجات][١٥٧٨] أيضاً:

ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان وهو أعلاها.

وذكر بالقلب وحده وهو في الدرجة الثانية.

وذكر باللسان المجرد وهو في الدرجة الثالثة...

قال[١٥٧٩]: «والذكر: هو التخلص من الغفلة والنسيان». والفرق بين الغفلة والنسيان: أن الغفلة ترك باختيار الغافل، والنسيان ترك بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ولم يقل: ولا تكن من الناسين، فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه.

(١٥٧٧) متفق عليه: البخاري (٦٨٥٦)، ومسلم (٤٨٣٢) و(٤٨٥١).

(١٥٧٨) في الأصل (أنواع) ولا يستقيم المعنى بها لأن الكلام في مراتب الذكر ودرجاته، ولعل الذي في الأصل خطأ مطبعي.

(١٥٧٩) أي صاحب كتاب منازل السائرين، فالعبارة بين علامتي الاقتباس: « » له، وشرحها لابن القيم.

قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الذكر الظاهر: من ثناء، أو دعاء، أو رعاية».

يريد بالظاهر: الجاري على اللسان المطابق للقلب لا مجرد الذكر اللساني فإن القوم لا يعتدون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وأما ذكر الدعاء: فنحو: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، و: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، والله ناظر إلي، الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه: رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة: فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال والتصريح به، كما في الحديث: (أفضل الدعاء الحمد لله)[١٥٨٠]، قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله ابن جدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء

إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تَعَرُّضِه الثناء

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله، فكيف برب العالمين؟ والأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات، والاعتصام من الوساوس والشيطان، والله أعلم.

قال: «الدرجة الثانية: الذكر الخفي، وهو الخلاص من القيود، والبقاء مع الشهود، ولزوم المسامرة».

(١٥٨٠) ابن ماجة (٣٧٩٠).

يريد بالخفي ههنا: الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات، وهذا ثمرة الذكر الأول.

ويريد بالخلاص من القيود: التخلص من الغفلة والنسيان والحجب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه.

والبقاء مع الشهود: ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتى كأنه يراه.

ولزوم المسامرة: هي لزوم مناجاة القلب لربه: تملقا تارة، وتضرعا تارة، وثناء تارة، واستعظاما تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب، وهذا شأن كل محب وحبيبه، كما قيل:

إذا مـــا خلونـــا والرقيـــب بمجلـــس فـــنحن ســـكوت والهـــوى يـــتكلم

قال: «الدرجة الثالثة: الذكر الحقيقي: وهو شهود ذكر الحق إياك...» إنما سمي هذا الذكر في هذه الدرجة حقيقياً لأنه منسوب إلى الرب تعالى، وأما نسبة الذكر للعبد فليست حقيقية، فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقي، وهو شهود ذكر الحق عبده، وأنه ذكره فيمن اختصه وأهله للقرب منه ولذكره فجعله ذاكرا له.. والله المستعان وهو سبحانه أعلم»[١٥٨١].

وبهذا ننتهي من الكلام في إبقاء القلب حياً بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات بوصفه وسيلة من وسائل لزوم التوبة ودوامها إلى آخر العمر، لنبدأ الكلام في وسيلة أخرى: وهي اتباع مسلك المراغمة، وهو موضوع المبحث الخامس القادم إن شاء الله تعالى.

(١٥٨١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٢ ص: ٤٢٣-٤٣٧ (بتصرف).

المبحث الخامس
اتباع مسلك المراغمة للشيطان وأثره في دوام التوبة

١٣٨١- بيان حقيقة مسلك المراغمة:

مراغمة الشيطان بأن يفعل التائب ضد ما يوسوس به الشيطان فيغيظه، ويحاربه، ويعاديه، ويرغم أنفه، يعد وسيلة من أهم وسائل محافظة التائب على توبته وصيانتها ورعايتها ودوامها إلى آخر العمر.

وأصل المراغمة: من الكره، والمغاضبة، والمنابذة، والمعاداة، والإهانة، والإذلال.

جاء في القاموس المحيط: «الرغم: الكره،... والمراغمة: الهجران، والتباعد، والمغاضبة. وراغمهم: نابذهم، وهجرهم، وعاداهم،... والمراغم، بالضم وفتح الغين: المذهب، والمهرب، والحصن،...»(١٥٨٢).

(١٥٨٢) القاموس المحيط ج: ١ ص: ٩٩٥٨. وجاء في لسان العرب: «رغم : الرَّغم والرِّغم والرُّغم [بالحركات الثلاث] الكره. والمرغمة مثله. قال النبي: (بعثت مرغمة)، المرغمة: الرغم، أي بعثت هواناً وذلاً للمشركين... والرغم: الذلة. ابن الأعرابي: الرغم التراب، والرغم الذل، والرغم القسر، قال: وفي الحديث: وإن رَغِم أنفه: أي ذل، رواه بفتح الغين. وقال ابن شميل: على رَغْم من رَغَم بالفتح أيضاً، وفي حديث معقل بن يسار: رغم أنفي لأمر الله: أي ذل وانقاد،... وفي الحديث: (إذا صلى أحدكم فليلزم جبهته وأنفه الأرض حتى يخرج منه الرَّغْم) معناه: حتى يخضع ويذل، ويخرج منه كبر الشيطان، وتقول: فعلت ذلك على الرغم من أنفه... والمرغم: الأنف وهو المرسن والمخطم والمعطس... وفي الحديث أنه ﷺ : (قال: رغم أنفه، ثلاثاً، قيل: من يا رسول؟ قال: من أدرك أبويه أو أحدهما حياً ولم يدخل الجنة). يقال: أرغم الله أنفه، أي: ألزقه بالرغام وهو التراب، هذا هو الأصل ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف والانقياد على كره، وفي الحديث : (وإن رغم أنف أبي الدرداء) أي: وإن ذل، وقيل: وإن كره. وفي حديث سجدتي السهو: (كانتا ترغيماً للشيطان)،... ورغم فلان أنفه: خضع . وأرغمه: حمله على ما لا يقدر أن يمتنع منه... والرغام: الثرى، والرغام بالفتح: التراب... أبو عمرو: الرغام: دقاق التراب، ومنه يقال: أرغمته، أي: أهنته وألزقته بالتراب... والمراغمة : الهجران والتباعد، والمراغمة: المغاضبة، وأرغم أهله وراغمهم: هجرهم، وراغم قومه: نبذهم وخرج عنهم وعاداهم، ولم أبال رغم أنفه: أي وإن لصق أنفه بالتراب... والمراغم: السعة والمضطرب، وقيل: المذهب والمهرب في الأرض. وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ [النساء:١٠٠] معنى مراغماً: مهاجراً، المعنى: يجد في الأرض مهاجراً لأن =

ونقصد بعملية المراغمة: أن التائب لا يكتفي بالكف عن فعل ما يوسوس به الشيطان ويدعو إليه، وإنما يكف من جهة، ويفعل ما هو ضد ذلك من جهة أخرى.

والأصل أن التائب توبة نصوحاً قد صار حاله الإنابة إلى الله تعالى وسعى إلى تجديد مسلكه في الحياة وإلى تغيير الخصال الخلقية المرفوضة شرعاً وتبديلها بالخصال الخلقية المطلوبة شرعا، ومعلوم أن الشريعة الإسلامية قدمت قائمتين مفصلتين أشد التفصيل بالأخلاق المطلوبة شرعاً ومعظمها من شعب الإيمان، وبالأخلاق المرفوضة شرعاً وكلها محرمات أو مكروهات، وكثير منها من الكبائر.

١٣٨٢- حرص الشيطان على زرع الخصال الخلقية المحرمة أكبر من حرصه على معصية عارضة:

وحرص الشيطان على السعي لزرع الخصال الخلقية المحرمة في المسلم والوسوسة بها ودعوته إليها أكبر من حرصه على إيقاع المسلم في فعل محرم عارض، لأن الخصال الخلقية تشكل في النهاية طبعاً وسجية لها صفة الدوام والاستمرار.

ومسلك المراغمة ينطوي على مراغمة وسوسة الشيطان في الحالتين: حالة الخصلة الخلقية المحرمة وحالة المعصية العارضة.

والتائب ينبغي عليه التخلص من الخصال الخلقية المحرمة شرعاً والتي هي بالنسبة له من مخلفات الماضي فماذا يفعل من أجل ذلك؟

الذي يعينه في ذلك أعظم العون - زيادة على ما ذكرناه سابقاً من الوسائل - أن يعالج الخصال الخلقية المحرمة شرعاً بمسلك المراغمة، أي معالجة الخصلة الخلقية السيئة بضدها، وذلك بالقيام بالأعمال المضادة للأخلاق التي يراد التخلص منها، والمناقضة لمقتضاها، وقد سمى بعض العلماء هذا المسلك بمسلك التضاد أو المراغمة للشيطان(١٥٨٣).

وبيان ذلك: أن الشيطان يعمل على بقاء الخلق الرديء، وتعميقه في نفس صاحبه، وتزيينه وتسويغه بالمبررات الباطلة التي يلقيها في نفس صاحبه لكي يستمرئ الخلق

= المهاجر لقومه والمراغم بمنزلة واحدة... وقال المفضل في قوله فعلته على رغمه: أي على غضبه ومساءته. يقال: أرغمته: أي أغضبته. (لسان العرب - مختصرا -: ج:١٢ ص:٢٤٥-٢٤٨).

(١٥٨٣) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ١١٣.

الرديء ويستسهله، فإذا تعمد المسلم مناقضة هذا الخلق بأعمال معاكسة له تماماً كان في هذا قطع الطريق على الشيطان وإرغاماً له بالتحدي والانتصار على وساوسه، وكيد الشيطان ضعيف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فيخنس أمام يقظة المسلم وتحديه، لأن الشيطان يستغل الغفلة وهي منفية هنا، فيرغم على أن يخنس مثلما يخنس مع ذكر الله تعالى، ولهذا وصفه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، فإذا خنس الشيطان انفسح الطريق أمام إزالة الخلق الرديء وتثبيت ما هو ضده من عمل طيب أو خلق كريم.

ويمكن الاستدلال لذلك بما قاله النبي ﷺ لرجل شكا إليه قسوة قلبه، فقال له ﷺ: (امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين)[١٥٨٤]، وهذه مضادة تماماً لقسوة القلب.

١٣٨٣- أمثلة على مسلك المراغمة الذي ينبغي أن يمارسه المسلم بعامة والتائب بخاصة:

والمراغمة للشيطان بالقيام بضد ما يوسوس به تجعله يخنس لأن النتائج تكون لغير صالحه.

فإذا وسوس بنظرة آثمة إذا بالمؤمن يكف عن ذلك، وفوق ذلك ينوي صياماً تطوعاً.

وإذا وسوس بحسن امرأة أجنبية ورغبه في مواقعتها إذا بالمسلم يدعو الله متضرعاً أن يصرف عنه كيدهن لئلا يصبو إليهن ويدعو بالدعاء الذي دعا به النبي ﷺ للشاب الذي أعلم النبي ﷺ بأنه راغب في الزنا فمسح النبي ﷺ على صدر الشاب ودعا له: (اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه)[١٥٨٥] فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

(١٥٨٤) المنذري: الترغيب والترهيب ج:٣ ص:٣٤٩. والحديث رواه أحمد(٨٦٥٧).

(١٥٨٥) وتفصيل الواقعة كما جاءت في الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد: «روى أبو أمامة أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله تأذن لي في الزنا، فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: قربوه، ادن، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ : أتحبه لأمك؟ فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟ [قال العراقي]: رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحد: لا، جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه، وقالا جميعاً في حديثهما أعني ابن =

فإذا وجد المسلم في نفسه مثل ذلك فليدعو مخلصاً: اللهم طهر قلبي، واغفر ذنبي، وحصن فرجي، وفوق ذلك ينوي - مثلاً - التشديد على نفسه في التقيد بحضور صلاة الجماعة في المسجد، أو يزيد في ممارسة أنواع العمل الصالح، يفعل ذلك مراغمة للشيطان بمناسبة وسوسته.

وإذا وسوس ببخل أو شح وزينه في عين صاحبه إذا بالمسلم يتصدق وينوي صلاة تطوع.

وإذا وسوس بسماع أغنية محرمة ليجعله ممن يشتري لهو الحديث ولينبت النفاق في قلبه، إذا بالمسلم يكف عن ذلك ويذهب يتوضأ ويفتح القرآن ليتلوه ويتدبر آياته.

وإذا وسوس بالكبر والعجب بالنفس، إذا بالمسلم يتعمد التواضع وفوق ذلك ينوي قيام الليل، ويكثر من الدعاء بسيد الاستغفار.

وإذا وسوس بالغضب ليوقد جمرة في قلب ابن آدم تخرجه عن حد الاستقامة، إذا بالمسلم يسكت لسانه ويكظم غيظه، وفوق ذلك يعفو ويصفح، وينوي عمل بر كصدقة أو صيام أو نحو ذلك.

وإذا وسوس بالتشكيك في الله تعالى نافثاً سمومه في القلب المؤمن ليخربه، إذا بالمسلم يعمل - كما علمه رسول الله ﷺ - بضد ذلك فيردد: (آمنت بالله ورسوله ﷺ)[١٥٨٦]، ويزيد على ذلك بعمل بر كالإكثار من الاستغفار.

وإذا وسوس بالطمع في قبول رشوة، إذا بالمسلم يكف ويستغفر وفوق ذلك يعمل بضدها فيتصدق.

= عوف والراوي الآخر: فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعني من الزنا » (انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء: إحياء علوم الدين:ج: ٢ ص: ٣٣٤-٣٣٥).

(١٥٨٦) أحمد (٢٠٨٦٤) ولفظه: (عن عمارة بن خزيمة الأنصاري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: يأتي الشيطان الإنسان فيقول: من خلق السماوات؟ فيقول الله، ثم يقول: من خلق الأرض؟ فيقول الله، حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: (آمنت بالله ورسوله ﷺ).

وإذا أوقعه بذنب، إذا بالمسلم يسارع إلى التوبة والاستغفار ويكفر الذنب بها، ويضيف إلى ذلك عمل حسنة ماحية - كصدقة يطفئ بها الخطيئة - أو غيرها من أعمال البر يختارها مساوية للذنب أو أكبر منه، ينال بها مغفرة وثواباً، وترفع درجته عند الله، حتى يقول الشيطان ليتني لم أوقعه في الذنب.

فهذا وأمثاله يشعر المؤمن بحلاوة نصر الله له على الشيطان، ويجعل الشيطان هو الخاسر إذ تسبب في دفع المسلم إلى مزيد من عمل البر وحصول عكس مراده عناداً من المسلم، طاعة للرحمن ومراغمة للشيطان، فيخنس لهذا السبب، فيستريح المؤمن من شره لفترة من الوقت، لأن وسوسة الشيطان تصبح بهذا المسلك فرصة ومناسبة للأعمال الصالحة والبر وسبباً لها، خلافاً لمقصود الشيطان .

ومن تعبد الله تعالى بمراغمة عدوه الشيطان الرجيم كان على درجة عالية من حسن الإيمان. فسبحان من جعل الشيطان وهو المنصب لفعل الشر سبباً - رغم أنفه - لفعل البر والعمل الصالح من المؤمن المتعبد لله تعالى بمراغمة عدوه الشيطان الرجيم.

وبهذا المسلك يزعزع المؤمن كيان الخلق الرديء في نفسه ليحل محله الخلق الحسن، وبالاعتياد والاستمرار يزول الخلق الرديء ويصبح الخلق الحسن بديلاً عنه.

ومما يدل على جدوى أسلوب المراغمة للشيطان بالقيام بضد ما يزينه من الخلق الرديء قوله ﷺ : (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع)[١٥٨٧]، وهذه صورة عملية لكظم الغيظ المنافي للغضب، ومثل ذلك قوله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضا)[١٥٨٨].

١٣٨٤- عبادة الله بمراغمة عدوه لها صلة بدرجة الصديقين:

وقد سمى ابن القيم هذه الأحوال بعبودية المراغمة، فقال عن صاحبها: «فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية

(١٥٨٧) المنذري: الترغيب والترهيب ج:٣ ص:٤٥٠ والحديث رواه أبو داود (١٥١)، وأحمد (٢٠٣٨٦).

(١٥٨٨) المنذري: الترغيب والترهيب ج:٣ ص:٤٥٢ والحديث رواه أبو داود (٤١٥٢) وأحمد (١٧٣٠٢).

خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له.

وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى في مثل رسول الله [ﷺ] وأتباعه: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية.

وشرع النبي [ﷺ] للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: (إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان)[١٥٨٩]، وفي رواية: (ترغيماً للشيطان)[١٥٩٠] وسماها: (المرغمتين).

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين [أي: عند قتال أعداء الله]، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول، وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله وصاحب هذا المقام

(١٥٨٩) المستدرك على الصحيحين: ١/ ٤٦٨، وصحيح ابن خزيمة: ٢/ ١١٠، وصحيح ابن حبان: ٦/ ٣٨٧، وابن ماجة: ١/ ٣٨٢.

(١٥٩٠) صحيح مسلم ١/ ٤٠٠، رقم (٥٧١). وصحيح ابن حبان: ٦/ ٣٩٠، وسنن الدارمي: ١/ ٤١٩، وسنن النسائي: ٣/ ٢٧، ومسند أحمد: ٣/ ٨٣.

إذا نظر إلى الشيطان ولاحظه في الذنب راغمه بالتوبة النصوح فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى»[1591].

فإذا سلك التائب مسلك المراغمة للشيطان وجعله شعاراً دائماً له - وهو يستحق أن يكون شعاراً لكل المؤمنين والمؤمنات - أمكنه بعون الله تعالى ليس المحافظة على توبته ودوامها إلى آخر العمر حسب، بل التقدم إلى مزيد من حسن الصلة مع الله تعالى والترقي في مدارج الإيمان.

(١٥٩١) ابن القيم: مدارج السالكين ج:١ ص:٢٢٦-٢٢٧.

المبحث السادس
اتخاذ القدوة الحسنة وأثره في دوام التوبة

١٣٨٥- حاجة التائب إلى القدوة الحسنة:

يحتاج التائب بخاصة، والمسلم بعامة، إلى القدوة الحسنة، يقتدي بها، ويتأسى بها، ويقتفي أثرها، ويحاكيها في سلوكه وأفعاله وأقواله وتروكه وأحواله عامة. فإن ذلك يعينه أعظم العون على الاستقامة والمحافظة على توبته ودوامها إلى آخر العمر.

١٣٨٦- الرسول ﷺ خير قدوة على الإطلاق:

وخير قدوة على الإطلاق رسول الله ﷺ، الهادي البشير الذي أرسله الله رحمة للعالمين، صاحب الموقف المحمود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى، سيد الأولين والآخرين الذي وصفه ربه جل جلاله بالخلق العظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

١٣٨٧- خلاصة ما جاء في منزلة الرسول ونعم الله عليه:

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]: «عن جبير بن نفير قال حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت (كان خلق رسول الله ﷺ القرآن)[١٥٩٢]... ومعنى هذا: أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيةً له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل»[١٥٩٣].

قال جعفر بن محمد: من تمام نعمته عليه: أن جعله حبيبه، وأقسم بحياته، ونسخ به شرائع غيره، وعرج به إلى المحل الأعلى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى،

(١٥٩٢) مسلم (١٢٣٣)، والنسائي(١٥٨٣)، وأبو داود (١١٤٤)، و أحمد (٢٣٤٦٠) و(٢٤١٣٩) و(٢٤٦٢٩) والدارمي(١٤٣٩).

(١٥٩٣) تفسير ابن كثير ج:٤ ص:٤٠٣.

وبعثه إلى الأسود والأحمر، وأحل له ولأمته الغنائم، وجعله شفيعاً مشفعاً، وسيد ولد آدم، وقرن ذكره بذكره، ورضاه برضاه، وجعله أحد ركني التوحيد»[١٥٩٤].

وجاء في كتاب «الشفا»: «... فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال [أي خصال حسن الخلق] إلى ما لا يأخذه عَدٌّ، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال: من فضيلة النبوة والرسالة، والخُلَّة والمحبة، والاصطفاء، والإسراء والرؤية، والقرب، والدنو، والوحي، والشفاعة، والوسيلة[١٥٩٥]، والفضيلة[١٥٩٦]، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود[١٥٩٧]، والبُراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنِّذارة، والمكانة عند ذي العرش، والطاعة ثَمَّ[١٥٩٨]، والأمانة، والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضا والسُّؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ووضع الوزر[١٥٩٩]، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر[١٦٠٠] والأغلال عنهم، والقَسَم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات، والعُجْم[١٦٠١]، ... وإسماع الصم، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، [وأنه نبي الحنيفية

(١٥٩٤) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص٩٢.

(١٥٩٥) الوسيلة: منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله. قال ﷺ: (وأرجو أن أكون أنا هو) رواه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله عمرو.

(١٥٩٦) الفضيلة: أي المرتبة الزائدة على سائر الأخلاق (فتح الباري ٢/ ٩٥).

(١٥٩٧) قال ابن الجوزي: والأكثر على أن المراد بالمقام المحمود: الشفاعة، انظر: الفتح ٢/ ٩٥.

(١٥٩٨) ثم - بالفتح -: هناك.

(١٥٩٩) وضع الوزر: تخفيف وتسهيل حمل أعباء النبوة والرسالة. (انظر: «كلمات القرآن» لمخلوف).

(١٦٠٠) الإصر: الثقل. وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١٦٠١) العجم - بضم العين -: جمع عجماء وهي البهيمة.

السمحة، ونبي التوبة] إلى ما لا يحويه محتفل[١٦٠٢]، ولا يحيط بعلمه إلا مانِحُه ذلك ومفضِّله به، لا إله غيره، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة، والحسنى. والزيادة التي تقف دونها العقول، ويحار دون أدانيها الوهم»[١٦٠٣].

وقد أرشدنا الله تعالى إلى اتخاذه قدوة بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

واتخاذ الرسول ﷺ قدوة حسنة يقتضي التأسي به في سائر أفعاله وأحواله عدا خصوصياته وما كان مقتصرا عليه بصفة النبوة.

١٣٨٨ - المصاحبة للنبي ﷺ بالفكر والشعور:

وإذا فات المسلم اليوم صحبة رسول الله ﷺ فلا يفوته أن يصاحبه مصاحبة شعور وتفكر، فيستشعر نفسه في مجلسه وبين يديه يتعلم منه كما تعلم منه أصحابه الأبرار، ويراه ويسمعه من خلال أفعاله وأقواله ﷺ ، ومن خلال دراسة سيرته العطرة، وشمائله الكريمة، وأخلاقه العظيمة، فيقتدي به في كل ذلك، بعد أن تنشأ في نفسه المحبة الصادقة لشخصه الكريم والتعلق به تعلقا يملأ شغاف القلب، فيجد المؤمن نفسه منساقاً إلى الاقتداء به ومحاكاته في أفعاله وصفاته بدافع المحبة والاشتياق.

ويدخل في باب الأسوة والقدوة أيضاً الاقتداء بسيرة الصالحين صحابته الأبرار، وآل بيته الأطهار، كالخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرة بالجنة، وأصحاب بدر، وكل من مدحهم القرآن وأثنى عليهم كأصحاب بيعة الرضوان الذين قال فيهم: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]، والمهاجرين الذين قال فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠]، والأنصار الذين قال فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ

(١٦٠٢) محتفل: احتفل بالأمر: عني به.
(١٦٠٣) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ٩٩-١٠٠.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] »[١٦٠٤].

١٣٨٩- ما يُمكّن المسلم من اتخاذ النبي ﷺ قدوة ومثلاً أعلى:

إن رغبة المسلم بعامة والتائب بخاصة في اتخاذ النبي ﷺ أسوة وقدوة والاستفادة العظمى من هذا التأسي والاقتداء يستلزم أن يوسع علمه ومعرفته في مسألتين:

الأولى: مقتضى الإيمان بنبوة محمد ﷺ ولوازم هذا الإيمان الذي لا إيمان بدونه .

والثانية: واجبات المسلم تجاه شخص النبي ﷺ وما له من حقوق على المسلم. وفيما يلي بيانهما:

١٣٩٠- المسألة الأولى - معرفة مقتضى الإيمان بنبوة محمد ﷺ ولوازمه والعمل بها[١٦٠٥]:

الإيمان بنبوة محمد ﷺ نبياً ورسولاً يقتضي التسليم المطلق والتام لما جاء به أو أخبر عنه، وتصديقه وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه دون حرج أو ضيق أو مناقشة أو جدال أو تعقيب أو أخذ البعض وترك البعض الآخر، فإن كل هذه الأشياء تناقض مقتضى الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً، وتناقض اتخاذه أسوة وقدوة كما أرشد القرآن بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولهذا جاءت النصوص القرآنية كلها تؤكد وتبين هذه الأمور وغيرها التي هي مقتضيات الإيمان بنبوته ﷺ فمن هذه النصوص الواردة في القرآن العظيم قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]

(١٦٠٤) المؤلف: النظم الإسلامية ص١١٧-١١٨.

(١٦٠٥) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص:٣٣ وما بعدها. (بتصرف).

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

فهذه النصوص وأمثالها في القرآن كثير تذكر المؤمنين بمقتضى إيمانهم بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبلوازم هذا الإيمان، فمرة تأمرهم بطاعته؛ لأن طاعته هي طاعة لله، وإن جزاء المطيعين جنات النعيم، وإن جزاء المخالفين عذاب النار، وطوراً تبين لهم أن الإيمان بمحمد ﷺ يستلزم أخذ ما أمر به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه وأن ما يقضي به ﷺ واجب الطاعة لا خيار فيه للمسلم، وأن الرجوع عند الاختلاف يجب أن يكون إلى الله والرسول، وإن الإيمان الحقيقي بمحمد ﷺ يستلزم الرضا بما يحكم ويقضي به ويخبر عنه، وتارة تبين نصوص القرآن أن المخالفة لأمر رسول الله ﷺ وعصيانه سبب لعذاب الله ومقته وإن على المخالفين له أن يحذروا الفتنة والعذاب الأليم.

١٣٩١- من التناقض الإيمان بالنبي ﷺ ثم منازعته في بعض ما جاء به:

والواقع أن ما تذكره هذه النصوص هو النتيجة المنطقية للإيمان بمحمد ﷺ والرضا به رسولاً، لأن من التناقض ومن غير المقبول في العقل السليم أن يؤمن الإنسان بمحمد ﷺ ثم ينازعه في بعض ما جاء به، أو لا يرضى بما جاء به، أو ينصب نفسه معقباً لبعض ما جاء به، أو يتمرد على بعض ما جاء به، إلى غير ذلك مما لا يتفق أبداً ومقتضى الإيمان به. إن الإنسان إذا آمن بأن فلاناً بارع في الطب مبرز فيه فإنه يتقبل منه ما يقوله في شؤون الطب وما يخبره به عن مرضه وسبل علاجه ويتبع توجيهاته في الأكل والشرب وفيما يأخذ ويترك، ولا يسوغ لنفسه معارضته أو مناقشته، فإذا كان هذا المسلك سليماً ومعقولاً بالنسبة للطبيب مع احتمال خطئه فيما يقول ويوصي به فكيف يجوز لمن آمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً أن يعارضه أو يناقشه؟.

١٣٩٢- المسألة الثانية - معرفة المسلم واجباته تجاه النبي ﷺ والعمل بها[١٦٠٦]**:**

إن واجب المسلم نحو الرسول ﷺ بعد أن أنعم الله عليه بالإيمان به تصديقه بكل ما يخبر عنه وطاعته في كل ما يأمر به، والانتهاء عن كل ما ينهى عنه، وقبول ذلك بتسليم تام ورضا تام كما بينا في الفقرة السابقة، وذكرنا النصوص القرآنية الدالة على ذلك، ومن واجباتنا الأخرى نحوه - بأبي هو وأمي - ﷺ ما يأتي:

١٣٩٣- أولاً - محبته أكثر من الدنيا وما فيها من النفس والوالد والولد والأهل والمال والناس أجمعين:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[١٦٠٧].

(١٦٠٦) د. عبد الكريم زيدان أصول الدعوة ص:٣٥ وما بعدها (بتصرف).

(١٦٠٧) متفق عليه: البخاري (١٤)، ومسلم (٦٣) واللفظ له.

وفي صحيح مسلم والنسائي: (حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)[١٦٠٨].

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: (والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال: والله لأنت أحب إلي من نفسي)[١٦٠٩].

فدل ذلك على أن محبة الرسول ﷺ من لوازم الإيمان وأن هذه المحبة يجب أن تكون مقدمة على محبة ما ذكرته الآية وذكره الحديث الشريف من النفس والوالد والولد والأخ والزوجة والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، والمحبة الصادقة تدعو إلى الطاعة والمتابعة له، فهذا هو الذي يحبه ويرضاه، والمسارعة إلى ما يرضيه ﷺ مما أمرنا الله به وهو من لوازم المحبة الصادقة، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦٢].

١٣٩٤- المحبة الناقصة وكيفية معالجتها:

وقد يقول البعض إنني أحس بمحبة الرسول ﷺ في قلبي ولكن ليس بالقدر المذكور في الآية والحديث والذي هو من لوازم الإيمان، فما العمل؟ وكيف أحصل ذلك في قلبي؟ والجواب: إن المحبة تأتي من معرفة المحبوب: معرفة فضله عليك بعد فضل الله تعالى، ومعرفة شخصه وما اتصف به من الكمالات، فإن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها، ومجبولة على محبة من اتصف بالكمالات والنبي ﷺ جمعها معا.

١٣٩٥- الأسباب الجالبة لمحبة المسلم للنبي ﷺ:

الأسباب الجالبة لمحبة المسلم للنبي ﷺ كثيرة ومتنوعة، ولكن مردها إلى سببين كبيرين: الأول: معرفة فضل النبي ﷺ علينا وعلى عباد الله كافة في الدنيا والآخرة، والثاني: اتصاف النبي ﷺ بالكمالات الجالبة للمحبة، وفيما يلي بيان لهذين السببين الكبيرين وما يتفرع منهما:

(١٦٠٨) مسلم (٦٢)، والنسائي (٤٩٢٨).

(١٦٠٩) البخاري (٦١٤٢).

١٣٩٦- السبب الأول - معرفة فضل النبي ﷺ علينا في الدنيا والآخرة:

ويتجلى ذلك في جانبين عظيمين: أحدهما: الرحمة والمنفعة الحاصلة لنا في الدنيا بالاهتداء برسالته. وثانيهما: الرحمة والمنفعة الحاصلة للأمة في الآخرة بشفاعته ﷺ. وفيما يلي بيانهما:

١٣٩٧- أ- الرحمة والمنفعة الحاصلة لنا في الدنيا بالاهتداء برسالته:

فأما فضل النبي ﷺ علي وعليك وعلى سائر أهل الإسلام والإيمان فلأنه سبب لأعظم منفعة ظفرنا بها في الحياة على الإطلاق وهي الإيمان بالله ورسوله ودينه، الإيمان الموصل إلى جنات النعيم والمنجي من نيران الجحيم، وهو أعظم ما يجب أن يفرح به الإنسان على الإطلاق، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال القرطبي في تفسير الآية: «قوله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته) قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام. وعنهما أيضاً: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله. وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن على العكس من القول الأول. وقيل غير هذا، (فبذلك فليفرحوا) إشارة إلى الفضل والرحمة»[١٦١٠].

وقال ابن كثير في تفسيرها: «وقوله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، (هو خير مما يجمعون) أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة»[١٦١١].

قال صاحب فتح الباري: فإذا تأمل النفع الحاصل له [أي للمسلم] من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره لأن النفع الذي

(١٦١٠) تفسير القرطبي ج: ٨ ص: ٣٥٣.

(١٦١١) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٤٢٢.

يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من هذا المعنى أتم لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم»(١٦١٢).

فكتاب الله العزيز الذي تفتديه بروحك وقلبك وتتنعم بالتنقل بين رياض سوره وآياته إنما وصلك عن طريق رسول الله ﷺ. ولقد كان من حرص النبي ﷺ على كمال حفظه وتبليغه أنه كان يقرأ الآيات النازلة عليه فيحرك لسانه بها ليحفظها، يفعل ذلك خشية أن تضيع منه كلمة أو يفلت منه حرف، وجبريل عليه السلام ما يزال متصلاً به لم ينته بعد من الوحي إليه، وفي هذا من المشقة والشدة ما فيه، فنهاه الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، وطمأنه أن الله جامعه له في صدره، من غير أن يحرك لسانه به، ومقرئه إياه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧-١٨]: فانتظر حتى ينتهي الوحي ثم اقرأ ما نزل عليك تجده منقوشاً في صدرك، وزيادة على ذلك سنلهمك فهم معناه ونبينه لك: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩](١٦١٣).

وكل سنة نبوية تعلمتها من كلامه وأفعاله وأحواله بلغها وحياً من ربه تعالى واهتديت بها، إنما جاءتك منه ﷺ.

(١٦١٢) فتح الباري ج: ١ ص: ٥٩- ٦٠.

(١٦١٣) قال ابن كثير في تفسيرها: هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى: جمعه في صدره والثانية: تلاوته، والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) أي بالقرآن، كما قال تعالى: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً) ثم قال تعالى: (إن علينا جمعه) أي في صدرك (وقرآنه) أي أن تقرأه (فإذا قرأناه) أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى (فاتبع قرآنه) أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك (ثم إن علينا بيانه) أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. (تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٤٥٠).

فكل توحيد خالص حصل لك، وتوبة تبتها، وصلاة صليتها، وزكاة فعلتها، وصوم صمته، وحج أديته، وجهاد جاهدته أو نويته أو حدثت نفسك به، إنما تعلمته بواسطته ﷺ، ومثل ذلك شعب الإيمان كلها.

وكل تسبيحة سبحتها وتحميدة وتهليلة وتكبيرة تحركت بها شفتاك فحصلت بها على الحسنات والثواب العظيم وصارت غراساً لك في رياض الجنة إن شاء الله، إنما تعلمتها منه ﷺ ، ومثل ذلك كل دعاء مأثور.

وبالجملة فكل هدى اهتديت به فكان سبباً في الثواب العظيم، وأوجد في قلبك الرجاء برحمة الله والفوز العظيم بجنات النعيم والنجاة من نيران الجحيم فصرت تدعو الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، إنما تعلمته بواسطة رسول الله ﷺ .

فمن أولى منه ﷺ بالحب؟.

١٣٩٨- عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم:

وقد كان ذلك على يدي رسول من أنفسنا، يعز عليه هلاكنا، حريص على هداية الناس وهدايتنا، بنا رؤوف رحيم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال القرطبي في تفسير الآية: «... قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل في معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدي قال حدثنا عبد الله بن محمد الخزاعي قال سمعت عمرو بن علي يقول سمعت عبد الله بن داود الخريبي يقول في قوله عز وجل: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) قال: أن تدخلوا النار (حريص عليكم) قال: أن تدخلوا الجنة. وقيل: (حريص عليكم): أن تؤمنوا. وقال الفراء: شحيح بأن تدخلوا النار، والحرص على الشيء الشح عليه أن يضيع ويتلف. (بالمؤمنين رءوف رحيم) الرؤوف: المبالغ في الرأفة والشفقة... وقال الحسين بن الفضل لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ فإنه قال: (بالمؤمنين رءوف رحيم) وقال: (إن الله بالناس لرءوف رحيم). وقال عبد العزيز بن يحيى: نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رءوف رحيم، عزيز عليه ما

عنتم، لا يهمه إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة»[(١٦١٤)].

١٣٩٩- فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل:

فمن أجل إيصال هذه النعمة العظمى والرحمة الكبرى إلينا، لننعم بها، وإلى الناس، تحمل الرسول ﷺ من المشقة والمعاناة ما يكاد يعجز عنه الوصف وصبر على ذلك حتى وصل إلينا الدين كاملاً ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

كان ذلك على يدي رسول الله ﷺ الذي حق للسماوات والأرض أن تبكي لبكائه، وحق للملائكة أن تبكي لبكائه لما جرى له في مكة ثم في الطائف حتى خوله جبريل عليه السلام - بأمر من ربه - أن يدعو الله عليهم إن شاء فلم يفعل، بل دعا بدعاء آخر، وادخر دعوته المستجابة إلى يوم القيامة من أجل أمته، قال ﷺ: (لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)[(١٦١٥)]، خبأها مع أشد الحاجة إليها، وادخرها إلى يوم القيامة ليشفع لي ولك ولأمته كافة.

جاء في «الرحيق المختوم»: «خرج النبي ﷺ إلى الطائف وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً سارها ماشياً على قدميه جيئة وذهاباً ومعه مولاه زيد بن حارثة... وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافها إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس فوقفوا له سماطين - أي صفين - وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان زيد ابن حارثه يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، ولما التجأ إليه رجعوا عنه.

(١٦١٤) تفسير القرطبي ج: ٨ ص: ٣٠٢.
(١٦١٥) متفق عليه: البخاري (٥٨٣٠)، مسلم ج: ١ ص:١٨٩ واللفظ له، وانظر أيضاً: ص ١٩٨ و ٢٠٠و٢٠١.

وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار، فلما جلس إليه واطمأن دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة[١٦١٦] وحزناً مما لقي من الشدة وأسفاً على أنه لم يؤمن به أحد، قال: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)....

فرجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيباً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير: (أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

(١٦١٦) نفضل عبارة (ألما وحسرة وحزناً) بدلا من عبارة (كآبة وحزناً) لأن الله تعالى ما وصف نبيه ﷺ بحصول الكآبة له قط في كل أحواله بسبب الصلة الدائمة مع الله تعالى والمعية منه له ، ولا هو وصف نفسه بذلك في السنة النبوية - حسب اطلاعي - وإنما وصفه الله تعالى بالحسرة عليهم ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وبالألم ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]، وبالحزن ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]. ولأن الكآبة بوصفها مصطلحاً لا تجتمع مع الصلة الدائمة بالله تعالى. والمعية منه لعبده توجب نقيض الكآبة من اطمئنان العبد إلى ربه وإن كان في حالة حزن وحسرة وألم، والله أعلم.

فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي لفعلت -، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان -، قال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً)[1617].

وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره»[1618].

فهذا بعض فضله علي وعليك وعلى عباد الله في الدنيا.. فمن أولى منه ﷺ بالحب؟.

١٤٠٠- ب - الرحمة والمنفعة الحاصلة للأمة في الآخرة بشفاعته ﷺ :

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)[1619].

«وقد وردت أحاديث الشفاعة عن النبي ﷺ من حديث أنس وأبي سعيد وجابر وأبي هريرة وعوف بن مالك الأشجعي وأبي ذر وابن الجدعاء ويقال ابن أبي الجدعاء وعتبة بن عبد السلمي وعمران بن حصين وحذيفة وكلها في الصحيح»[1620].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لكل نبي دعوة دعاها لأمته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)[1621].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أولى

(١٦١٧) متفق عليه: صحيح البخاري (٢٩٩٢) كتاب بدء الخلق ١/ ٤٥٨ واللفظ له، مسلم (٣٣٥٢) باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩

(١٦١٨) المباركفوري: الرحيق المختوم ص ١١٣-١١٥.

(١٦١٩) متفق عليه: البخاري (٥٨٣٠)، و مسلم ج: ١ ص:١٨٩ واللفظ له، وانظر أيضاً: ص ١٩٨ و٢٠٠و٢٠١.

(١٦٢٠) حاشية ابن القيم ج: ١٣ ص: ٥١-٥٢.

(١٦٢١) متفق عليه: البخاري (٥٨٣٠)، ومسلم (٢٩٩) واللفظ له..

منك لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)[(١٦٢٢)].

فهذا بعض فضله المرجو علي وعليك في الآخرة.. فمن أولى منه ﷺ بالحب؟؟.

١٤٠١- السبب الثاني - اتصاف النبي ﷺ بالكمالات الجالبة للمحبة:

وأما الكمالات الجالبة لمحبة الرسول ﷺ فيكفي فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: (كان خلق رسول الله ﷺ القرآن)[(١٦٢٣)]... ومعنى هذا: أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل»[(١٦٢٤)].

وقال صاحب الظلال في تفسير الآية: «... وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم [ﷺ]؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله [ﷺ]، يقول له فيها: (وإنك لعلى خلق عظيم). ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!...

ولقد رويت عن عظمة خلقه [ﷺ] في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة. وكان واقع سيرته [ﷺ] أعظم شهادة من كل ما روي عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر. أعظم بصدورها عن العلي الكبير. وأعظم بتلقي محمد

(١٦٢٢) البخاري (٩٧)، وأيضا بلفظ: (من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه)(٦٠٨٥).

(١٦٢٣) مسلم (١٢٣٣)، والنسائي(١٥٨٣)، وأبو داود (١١٤٤)، وأحمد (٢٣٤٦٠) و(٢٤١٣٩) و(٢٤٦٢٩) والدارمي (١٤٣٩).

(١٦٢٤) تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ٤٠٣.

[ﷺ] لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً. لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير! .

والله أعلم حيث يجعل رسالته. وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه - من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى. فيكون كفئاً لها، كما يكون صورة حية منها...

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربه، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان.. لقد كان - وهو بشر - يثني على أحد أصحابه، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم.. وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر. وأصحابه يدركون أنه بشر. إنه نبي نعم. ولكن في الدائرة المعلومة الحدود. دائرة البشرية ذات الحدود.. فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله. وهو يعلم من هو الله. هو بخاصة يعلم من هو الله! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه. ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير... إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير!!.

إنه محمد [ﷺ] - وحده - هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة.. إنه محمد [ﷺ] - وحده - هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني. إنه محمد [ﷺ] - وحده - هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ؛ حتى لتتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان.. إنه محمد [ﷺ] - وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام. والله أعلم حيث يجعل رسالته - وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم. وأعلن في الأخرى أنه - جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته، يصلي عليه هو وملائكته (إن الله وملائكته يصلون على النبي). وهو - جل شأنه - وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم...»[(١٦٢٥)].

وبعد معرفة هذين السببين الجالبين لمحبة الرسول ﷺ : الرحمة والمنفعة العظمى الحاصلة لنا بسببه في الدنيا وفي الآخرة، ثم الكمالات التي اتصف بها وكلها جالبة للمحبة، ستجد قلبك منجذباً ومنساقاً إلى محبة الرسول ﷺ . وستجد عينيك تذرفان دمعاً أنك لم تر رسول الله ﷺ ، وتود لو تشتري رؤيته بأهلك ومالك. وربما كان بعض عزائك

(١٦٢٥) سيد قطب: في ظلال القرآن: ص٣٦٥٧ وما بعدها.

في عدم رؤيته أن تصاحبه مصاحبة في القلب والشعور، وتسلي نفسك بأنك من أتباعه ومحبيه ﷺ.

١٤٠٢- محبة صحابته الأبرار وآل بيته الأطهار:

ويلحق بمحبته ﷺ محبة صحابته الأبرار وآل بيته الأطهار، قال ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك محبة صحابته وقرابته كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)[١٦٢٦] وقال: (لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر)، وقال علي رضي الله عنه: (إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق)[١٦٢٧]، وفي السنن أنه: (قال للعباس: والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي)[١٦٢٨] يعني بني هاشم، وقد روي حديث عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال:(أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لأجلي)»[١٦٢٩].

١٤٠٣- كل من آمن بالنبي ﷺ له حظ في محبته:

قال القرطبي: كل من أمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة، لكنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما

(١٦٢٦) متفق عليه: البخاري (٣٥٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٩).

(١٦٢٧) مسلم (١١٣)، والنسائي (٤٩٣٦)، وابن ماجة (١١١)، وأحمد (٦٠٧).

(١٦٢٨) مصنف ابن أبي شيبة:٦/ ٣٨٢، والمعجم الكبير: ١١/ ٤٣٣ كلاهما بلفظ (لن ينالوا خيراً حتى يحبوكم لله ولقرابتي). والحديث بلفظ آخر: (لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي) في: مسند أحمد (١٦٨١)، ومسند البزار: ٦/ ١٣١، وشعب الإيمان: ٢/ ١٨٨، وتهذيب الكمال: ٣٣/ ٣٤٠، والإصابة: ٤/ ٣٨٠.

(١٦٢٩) ابن تيمية: التحفة العراقية ج:١ ص:٦٧.

ذكر لما وقر في قلوبهم من أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات والله المستعان. انتهى ملخصا»[(١٦٣٠)].

١٤٠٤- الطريق للترقي في محبة الرسول ﷺ :

ذكر ابن القيم أن «الحياة الطيبة» في ظل المراتب العليا من الإيمان تفضي بالعبد إلى أن يرزق زيادة محبة للنبي ﷺ واستيلاء روحانيته عليه فقال:

«فأول طريقها [أي الحياة الطيبة]: أن تعرف الله وتهتدي إليه طريقاً يوصلك إليه ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة فينجذب إليها بكليته ويزهد في التعلقات الفانية ويدأب في تصحيح التوبة والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة وترك المنهيات الظاهرة والباطنة ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله ولا بخطرة فضول لا تنفعه فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها فيفدى من أسرها ويصير طليقاً فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه...

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول واستولت روحانيته على قلبه فجعله إمامه ومعلمه وأستاذه وشيخه وقدوته كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه فيطالع سيرته ومبادئ أمره وكيفية نزول الوحي عليه ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه في حركاته وسكونه ويقظته ومنامه وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه...»[(١٦٣١)].

وسيأتي مزيد تفصيل للحياة الطيبة في ظل الإيمان وكيف يترقى العبد فيها حتى ينال مرتبة الإحسان.

١٤٠٥- ثانياً - توقيره وتبجيله واحترامه حياً وميتاً:

وهذا هو الواجب الثاني من واجبات المسلم تجاه النبي ﷺ بعد واجب المحبة الذي شرحناه في الفقرة السابقة، أن يوقره المسلم ويبجله ويحترمه حياً وميتاً - بأبي هو وأمي - ﷺ.

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [النور: ٦٣]، لأن الرسول الكريم ليس كواحد من الناس، إنه رسول الله ﷺ وعلى الناس أن يوقروه ويجلوه

(١٦٣٠) أشار إليه وقدمه ملخصاً صاحب فتح الباري ج: ١ ص: ٥٩.

(١٦٣١) ابن القيم: مدارج السالكين: ج: ٣ ص: ٢٦٧-٢٦٨ .

ويشرفوه حتى في ندائهم له، فعليهم أن يقولوا له: يا رسول الله، يا نبي الله. وهذا بعض معاني هذه الآية.

ومن مظاهر توقيره واحترامه عدم سبقه بالقول أو رفع الصوت عند كلامه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٣].

ويبقى هذا الاحترام والتوقير بعد وفاته ﷺ فلا ينبغي رفع الصوت في مسجده وعند قبره.

كما يجب التأدب عند سماع حديثه الشريف وسنته المطهرة والإصغاء الكامل لها والرضا بها وعدم الخروج عليها أو معارضتها بالآراء الفاسدة، فإذا سمع المسلم (قال رسول الله ﷺ) فليعلم أنه لا قول لأحد مع قوله ﷺ ولا معارضة لقوله، وإنما هو الاستماع، وفهم هذا القول النبوي الكريم والعزم على العمل به.

١٤٠٦- ثالثاً - نصرته ومناصحته والعمل بشريعته والدفاع عنها:

وهذا هو الواجب الثالث بعد الواجبين السابقين، نصرة المسلم للنبي ﷺ، وأن يعمل بشريعته، وأن يحبها ويغار عليها ويدافع عنها، ولا يقف متفرجاً أمام تعدي الكائدين من الكفار والمنافقين.

قال تعالى في وصف الصحابة المهاجرين بقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] قال النسفي في تفسيرها: «أي ينصرون دين الله ويعينون رسوله أولئك هم الصادقون في إيمانهم وجهادهم»[١٦٣٢]، وهكذا يجب أن يكون شأن من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١٦٣٢) تفسير النسفي ج: ٤ ص: ٢٣١.

وأما مناصحته ﷺ فقد أرشد القرآن إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١]، وقال ﷺ: (الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)(١٦٣٣).

قال العلماء في معنى النصيحة لرسوله بأنها: «نصيحة رسول الله ﷺ: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها، والحظ عليها، والدعوة إلى الله، وإلى كتابه وإلى سنة رسوله، وإلى العمل بها»(١٦٣٤) وأضاف بعضهم في معنى النصيحة لرسوله: «المثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك»(١٦٣٥).

ونخلص مما تقدم إلى أن:

نصرة الرسول ﷺ: تستلزم الجهاد في سبيل الله مدافعاً عن شريعته بكل أنواع الجهاد باللسان والمال والنفس لإعلاء كلمة الإسلام.

ومناصحته: تستلزم إحياء السنة وإماتة البدعة، والبر وحسن الصلة بشخصه الكريم ﷺ، وصحابته الأبرار، وآل بيته الأطهار.

١٤٠٧- رابعاً - الابتعاد الكامل والتام عن إيذاء النبي ﷺ:

وهذا هو الواجب الرابع على المسلم تجاه النبي ﷺ.

إن إيذاء النبي ﷺ في أي شيء وبأي قدر من الإيذاء حرام حرمة مؤكدة وهو من الكبائر لتوعد صاحبه بالعذاب الأليم، وقد يؤدي إلى خروج المسلم من الإسلام، قال

(١٦٣٣) الترغيب والترهيب ج: ٢ ص: ٣٦١ وقال: رواه مسلم [واللفظ له]، والنسائي وعنده: «إنما الدين النصيحة»، وأبو داود وعنده: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة» الحديث، ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة بالتكرار أيضاً وحسنه.

(١٦٣٤) أبو إبراهيم: إسحاق التجيبي، أشار إليه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ٥١٠.

(١٦٣٥) أبو بكر البغدادي الآجري، أشار إليه المرجع السابق ص٥١٠.

تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

ويدخل في نطاق إيذائه المحرم: إيذاؤه ﷺ بالطعن في زوجاته الكريمات أو سبهن أو عداوتهن فهن أمهات المؤمنين بنص القرآن، قال تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وهن زوجاته الكريمات في الدنيا والآخرة.

كما يدخل في إيذائه ﷺ : إيذاؤه بالطعن في آل بيته الأطهار وصحابته الأبرار أو سبهم أو عداوتهم.

١٤٠٨- خامساً - الصلاة والسلام عليه:

وهذا هو الواجب الخامس على المسلم تجاه النبي ﷺ فقد ورد الأمر بذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، كما ورد أيضا الذم لمن لم يصل ويسلم عليه، وذلك يدل على وجوبهما:

١٤٠٩-١- الأمر في القرآن والسنة بالصلاة والسلام عليه:

أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة والسلام على النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفي الصحيحين عن كعب بن عجرة قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[١٦٣٦].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ : (قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[١٦٣٧].

(١٦٣٦) متفق عليه: البخاري (٣١١٩)، ومسلم (٦١٤) واللفظ له.

(١٦٣٧) متفق عليه: البخاري(٣١١٨) واللفظ له، مسلم (٦١٥).

وفي رواية أخرى لمسلم[١٦٣٨] وغيره[١٦٣٩] في آخرها قوله ﷺ : (والسلام:كما قد علمتم)، قال العلماء[١٦٤٠]: «هو ما علمهم الله في التشهد من قوله: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

١٤١٠-٢- ذم من ترك الصلاة والسلام عليه:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (رَغِم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فانسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة) قال ربعي: ولا أعلمه إلا قد قال: أو أحدهما)[١٦٤١].

وفي حديث آخر عن جابر يعني ابن سمرة ﷺ قال: (صعد النبي ﷺ المنبر فقال: آمين، آمين، آمين، قال: أتاني جبريل ﷺ فقال يا محمد: من أدرك أحد أبويه فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين، فقلت: آمين، فقال: يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار فأبعده الله فقل آمين، فقلت: آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين، فقلت: آمين)[١٦٤٢].

(١٦٣٨) مسلم (٦١٣).

(١٦٣٩) أحمد (٢١٣٢٠)، ومالك (٣٥٨)، والدارمي (١٣٠٩).

(١٦٤٠) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ٥٦٥.

(١٦٤١) الترمذي (٣٥٤٥) وقال حديث حسن غريب، وأحمد (٧١٣٩).

(١٦٤٢) الترغيب والترهيب للمنذري ج: ٣ ص: ٢١٨-٢١٩ حديث رقم (٣٧٦١) وقال: رواه الطبراني بأسانيد أحدها حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة إلا أنه قال فيه: ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين، رواه أيضاً من حديث مالك بن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده وتقدم ورواه الحاكم وغيره من حديث كعب بن عجرة وقال في آخره: فلما رقيت الثالثة قال بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت آمين وتقدم أيضاً رواه الطبراني من حديث ابن عباس بنحوه وفيه ومن أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما دخل النار فأبعده الله وأسحقه قلت آمين . قال ابن القيم في «جلاء الأفهام» صفحة (٣٨٣): «ولا ريب أن الحديث بتلك الطرق المسندة يفيد الصحة» .

وعن علي ابن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (البخيل، كل البخيل، الذي ذكرت عنده فلم يصل علي)[١٦٤٣].

وعن قتادة عن النبي ﷺ: (من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي علي)[١٦٤٤].

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ، قال: (لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه على النبي إلا كان عليهم حسرة - وإن دخلوا الجنة - لما يرون من الثواب)[١٦٤٥].

١٤١١- سادساً - سؤال «الوسيلة» له:

وهذا هو المطلوب السادس من المسلم تجاه النبي ﷺ:

ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)[١٦٤٦].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[١٦٤٧].

(١٦٤٣) ذكره الحافظ في الفتح ١١/١٦٧ وقال: (أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وإسماعيل القاضي.. ولا يقصر عن درجة الحسن) (انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص٥٧٢).

(١٦٤٤) حديث مرسل أخرجه عبد الرزاق في جامعه كما في الفتح(١١/١٦٨) والقول البديع ص٢١٥ قال السخاوي «رواته ثقات» ورمز لضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٨٢١٥). وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣١٢١) من حديث محمد بن علي مرسلاً. (الجفاء) هو ترك البر والصلة، وغلظ الطبع (فيض القدير:٦/٧).

(١٦٤٥) أخرجه الترمذي عقب الحديث (٣٣٨٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٧٨٨٦). وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٤١٠) موقوفاً على أبي سعيد.

(١٦٤٦) البخاري (٤٣٥٠).

(١٦٤٧) مسلم (٥٧٧) واللفظ له، والنسائي (٦٧١)، وأبو داود (٤٣٩)، وأحمد(٦٢٨٠).

فتلك هي الواجبات والمطلوبات الستة تجاه النبي ﷺ ، فاعرض نفسك عليها ثم انظر أين أنت من المصطفى ﷺ ، فإن وجدت تقصيراً في حالك فتداركه، والله يرعاك والمؤمنين والمؤمنات كافة.

١٤١٢- الاحتراز والحذر من الخلط بين ما لله وما للرسول من حق (١٦٤٨):

ومما يجب الانتباه إليه والحذر التام منه أن يخلط المسلم ما لله تعالى من حق بما للرسول ﷺ من حق، فإن الله تعالى هو الذي شرع ما يكون للرسول من حقوق على الأمة من المحبة والنصرة والتوقير والصلاة والسلام عليه وعدم الإيذاء، وغير ذلك، فإذا فعلها المسلم فإنما يفعلها طاعة لله تعالى بنية عبادة الله وحده لا شريك له وذلك بطاعة الأمر والنهي الإلهي كتاباً وسنة.

إلا أن المسلم قد يقع في خلط ما لله بما للرسول دون أن يشعر، أو يقع فيه متعمداً ظاناً أنه من واجب المسلم نحو الرسول ﷺ وأنه من حقه على المسلم، أو أن ذلك من مزيد محبته للنبي ﷺ فيقع في الشرك الخفي أو الجلي وبالتالي يقع في سخط الله. ومن هنا وجب بيان الحدود الفاصلة التي تعصم المسلم من الوقوع في الشرك.

إن محبة الرسول ﷺ الحقيقية هي متابعته والمسارعة إلى مرضاته ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦٢]، وهذا لا يتم إلا بتجريد المتابعة لشرعه الذي جاء به من ربه ولسنته القولية والفعلية، ومن المعلوم أن ما جاء به ﷺ من ربه إفراد الله بالعبادة بجميع أشكالها وصورها وعدم إعطاء ذرة منها لأحد كائناً من كان، وهذا هو معنى كلمة التوحيد كما بينا ذلك من قبل. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالعبادات مبناها على أصلين:

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله وحده لا نعبد من دونه شيئاً لا ملكاً ولا نبياً ولا صالحاً ولا شيئاً من المخلوقات.

والثاني: أن نعبده بما أمرنا به على لسان رسوله لا نعبده ببدع لم يشرعها الله ورسوله» (١٦٤٩).

(١٦٤٨) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ٣٦ وما بعدها. (بتصرف).

(١٦٤٩) ابن تيمية: التحفة العراقية ج: ١ ص: ٦٧.

ولتحقيق هذه المعاني العالية في نفوس المسلمين بين القرآن الكريم: أن محمداً ﷺ بشر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠].
وإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً وإنما المالك لهذا وذاك هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعلى هذا فالاستغاثة وطلب العون وكشف الضر يكون من الله تعالى الذي دعانا إلى الطلب منه والتوجه إليه قال تعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

كما إن الخشية والتقوى تكون لله، والتوكل يكون على الله، فهو الكافي جل جلاله قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

فهذه الآيات صريحة في تحديد ما لله من حق وما للرسول من حق:

فمن حقوق الله تعالى وحده: الخشية منه، والتقوى له، والكفاية لعبده، والتوكل عليه، والرغبة إليه، والتوجه بالدعاء إليه.

أما الطاعة فهي من حق الله وحق رسوله ﷺ، وطاعة الرسول في حقيقتها طاعة الله، وكذلك من حق الرسول إعطاء ما يراه من غنائم وفيء وغيرها من يرى إعطاؤه.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله)[١٦٥٠] أو كما قال ﷺ. وقال رجل للنبي ﷺ (ما شاء الله وشئت) فقال ﷺ (أجعلتني لله نداً، قل: ما شاء الله ثم شئت)[١٦٥١].

(١٦٥٠) البخاري (٣١٨٩) و(٦٣٢٨)، وأحمد (١٤٩) و(١٥٩)، و(٣١٣)، والدارمي (٢٦٦٥).
(١٦٥١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨) وقال: «رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجة».

فالنبي الكريم ﷺ جاء بالتوحيد الخالص لله رب العالمين . ومن حرصه الشديد على ما ينفع المسلمين كان يبين لهم التوحيد كما يبين لهم معاني الشرك لئلا يقعوا فيه، وهذا من كمال نصحه ورحمته ورأفته بأمته - بأبي هو وأمي- ﷺ ، فجزاه الله عنا خير الجزاء. قال تعالى في بيان بعض أوصافه الكريمة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال جل ثناؤه: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

المبحث السابع
المحاسبة اليومية وأثرها في دوام التوبة

١٤١٣- حاجة المسلم بعامة والتائب بخاصة إلى المحاسبة:

المحاسبة اليومية تدفع الغفلة وتقطع الاسترسال فيها، وتسهم في تقوية اليقظة فتمكن من مزيد من تجديد التوبة بملاحظة التفريط، وتنبه على ضرورة إحسان العمل، إبقاء على حالة التقوى، وإحرازا للترقي في مدارجها. ومن هنا كانت المحاسبة اليومية وسيلة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر.

١٤١٤- منشأ المحاسبة: استشعار رقابة الله، والخوف من التفريط، ومراقبة العاقبة:

تتولد المحاسبة من: استشعار رقابة الله على أعمال العبد، والخوف من التفريط، والتفكر في العاقبة. فإذا استشعر رقابة الله عليه وخاف من التفريط متفكراً في العاقبة سعى إلى إصلاح حاله مع الله تعالى بأقصى ما يقدر عليه، وسدد وقارب، طمعاً في نوال رضوان الله تعالى.

واستشعار رقابة الله تعالى على العبد وحضور ذلك في قلبه وتيقنه أن الله تعالى من فوقه حاضر ناظر سامع بصير شهيد من أنفع ما يعود على العبد في تدارك التفريط وفي تحسين العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن.

والقرآن الكريم قصد إلى إحضار ذلك في قلب المؤمن وإشعاره بأنه ما من عمل أو كلمة أو همسة أو نظرة أو خاطرة إلا وهي أمام علم الله مثل كتاب مفتوح، وأنها تستنسخ وتكتب أولاً بأول من الكرام الكاتبين، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال: ﴿إِذْ

﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢]، وقال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ومن هنا كان حرياً بالمؤمن الكيس أن يحاسب نفسه قبل أن تحاسب، وأن يزن أعماله قبل أن توزن عليه، قال ﷺ لرجل سأله: أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعدادا)[١٦٥٢]، وإنما ينشأ ذلك من اليقظة والمحاسبة.

وأما الخوف من التفريط فقد تكلمنا عنه سابقاً بالتفصيل في مبحث الخوف بوصفه ركنا من أركان إحياء القلب.

وأما مراقبة العاقبة: فإنها مبنية على علم العبد بأنه صائر إلى الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب على التفريط في الواجبات واقتحام المحرمات، فإن حاسبه بعدله وناقشه الحساب هلك في نيران الجحيم والعياذ بالله، وإن عامله بفضله ورحمته نجا وفاز بجنات النعيم، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(١٦٥٢) ابن ماجة (٤٢٤٩) ولفظه: (... عن ابن عمر أنه قال كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال أحسنهم خلقاً، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس).

[البقرة: ٢٨١]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

١٤١٥- قول الإمام الغزالي في المحاسبة:

وقد تكلم الإمام الغزالي في المحاسبة كلاماً طويلاً نجتزئ منه ما تمس الحاجة إليه - مع التشذيب والاختصار والتعقيب - ومع المحافظة على عبارته، قال(١٦٥٣):

«الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض تحركت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت، وتنظر فيما قدمت وأخرت.

فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت. فسبحان من عمت نعمته كافة العباد، وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت...

فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات

(١٦٥٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٩٣-٤٠٦ (بتصرف).

ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه.

ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم: أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها.

وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

[قلت: ونحن سنقتصر على إيراد ثلاثة منها هي:

أولاً: المشارطة: وهي تتضمن الاشتراطات على النفس قبل مباشرة الأفعال لتذكيرها وإلزامها بالطاعة، وذلك يتضمن إحداث النية الصالحة كل يوم في أول النهار، وتجديد اليقظة وما ينبني عليها من العزم على إلزام النفس بالأمر والنهي الإلهي طوال النهار.

ثانياً: المراقبة: بمعنى مراقبة النفس قبيل البدء بمباشرة الأعمال وأثناء مباشرتها فعلا مع استشعار رقابة الله، فما كان لله أمضاه وما كان للهوى تركه.

ثالثاً: المحاسبة: في آخر النهار، وما ينبني عليها من تجديد التوبة والاستغفار على النقص والتفريط وتجديد العزم على التدارك.

فهذه الأمور الثلاثة تحقق الغرض من بحثنا في المحاسبة بوصفه وسيلة من وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر، وبوصفه طريقا لإحراز الاستقامة لكل مسلم، فالمشارطة والمراقبة سببهما المحاسبة، والثلاثة: تمثل مرابطة في الثبات على الاستقامة التي تحقق رضوان الله جل جلاله، وهي من معاني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]].

١٤١٦- أولاً - المقام الأول من المرابطة: المشارطة [العزم على إلزام النفس بالأمر والنهي الإلهي]:

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله.

وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى: أن يشارطه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال،كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء...

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة، أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك، خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل.

١٤١٧- اصطحاب نية إلزام النفس بطاعة الله تعالى في كل حين وفي كل عمل (المحاسبة قبل مباشرة الأعمال):

... [فليحاسب النفس كل يوم قائلاً] ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه

وأنسأ في أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها [أي لا تقوم بثمن فهي أغلى من كل ثمن]، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة... فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار، وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩]، فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان، والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس [أي بادعاء ذلك باللسان]، ومذمة الخلق والأطعمة، واللعن، والدعاء على الأعداء [أي أعدائه الشخصيين بغير حق]، والمماراة في الكلام، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق

للذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر، ونظره عبرة، وصمته فكرة، و ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها.

هكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها.

وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي.

ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرها مغبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قبله للتحذير، قال الله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهذا للمستقبل.

١٤١٨- التعريف بحقيقة المحاسبة والحث عليها:

وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦]، ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل.

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مُكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة.

وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

وروى شداد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[١٦٥٤] دان نفسه: أي حاسبها، ويوم الدين: يوم الحساب، وقوله: (أئنا لمدينون) أي لمحاسبون.

وقال عمر ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيؤوا للعرض الأكبر.

وكتب إلى أبى موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، وقال لكعب: كيف تجدها في كتاب الله[١٦٥٥]؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء

(١٦٥٤) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. الحديث أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجة من حديث شداد بن أوس. انظر تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٣١، قلت: وهو عند الترمذي برقم (٢٣٨٣)، وعند ابن ماجة برقم (٤٢٥٠) وأخرجه أحمد أيضاً برقم (١٦٥٠١)، وكذلك أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (١٩١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وبرقم (٧٦٣٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والحديث عند الجميع بلفظ (والعاجز من...) بدلاً من (والأحمق من...).

(١٦٥٥) أي في التوراة لأن كعباً كان من علماء اليهود قبل إسلامه.

فعلاه بالدرة وقال: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف، إلا من حاسب نفسه.

وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل [أي المحاسبة قبل الفعل] إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت، ومعناه: وزن الأمور أولاً وقدرها وانظر فيها وتدبرها، ثم أقدم عليها فباشرها.

١٤١٩- ثانياً - المرابطة الثانية: المراقبة [مراقبة النفس عند مباشرة الأعمال مع استشعار رقابة الله]:

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت.

١٤٢٠- فضيلة المراقبة ودرجاتها:

ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها:

١٤٢١-١- فضيلة المراقبة:

أما الفضيلة فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(١٦٥٦).

وقال عليه السلام: (اعبد الله كأنك تراه...)(١٦٥٧)، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ [المعارج:٣٢-٣٣].

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل.

وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي بغيره.

(١٦٥٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر (انظر: تخريج العراقي لأحاديث الإحياء في موضع الاقتباس نفسه).

(١٦٥٧) أحمد (٥٨٨١) ولفظه عنده: (... عن عبد الله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم.

وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات.

وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على أصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل، ويكون العلم على ظاهرك قائماً.

وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك...

وحكي أن زليخا لما همت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها، فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار؟.

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحي؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟.

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل...

وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الله تعالى.

وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة...

وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمة عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، فقال معناه: ذلك لمن راقب ربه عز وجل، وحاسب نفسه، وتزود لمعاده.

وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب.

وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب	وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

وقال فرقد السبخي: إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى...

١٤٢٢-٢- بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

١٤٢٣- أ- حقيقة المراقبة:

اعلم أن حقيقة المراقبة هي: ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه.

ويعنى بهذه المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة: فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة: فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك [لأنه يعلم السر

وأخفى، والأخفى: هو سر ونية في قلبك لم يوجد بعد وربما سينشأ بعد خمسين سنة وهو معلوم له الآن][1658]. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً أعني أنها خلت عن الشك، ثم استولت بعد ذلك على القلب، قهرته - فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت - فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه.

١٤٢٤- ب - درجات المراقبة :

والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى: الصديقين، وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين:

١٤٢٥- الدرجة الأولى - مراقبة المقربين من الصديقين:

وهي مراقبة التعظيم والإجلال: وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا، وهذه مراقبة لا نطوِّل النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد...، فإذا صار [القلب] مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ...

فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

(١٦٥٨) جاء في تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ١٤٤: « قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (يعلم السر وأخفى) قال: السر: ما أسره ابن آدم في نفسه، وأخفى: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)، وقال الضحاك: (يعلم السر وأخفى) قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد، وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدا، وقال مجاهد : وأخفى: يعني الوسوسة، وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: وأخفى: أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه ».

١٤٢٦- الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين:

وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إنما مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة، وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات: فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته، وسكناته، وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل.

١٤٢٧- المراقبة -: نظر قبل العمل، ونظر في العمل:

١٤٢٨- أ - النظر الأول للمراقبة: المراقبة قبل العمل [قبيل البدء به]:

أما قبل العمل: فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره، أهو لله خاصة؟ أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان، فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه وهَمِّه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته، وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه... وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه.

وقال الحسن: رحم الله تعالى عبداً وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر، وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: (اتق الله عند همك إذا هممت)[١٦٥٩].

(١٦٥٩) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك إذا هممت أخرجه أحمد والحاكم وصححه (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٤٠٠).

وقال محمد بن علي: إن المؤمن وقّاف متأن، يقف عند همه، ليس كحاطب ليل.

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر، هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة، فهو رأس كل شقاوة، وأساس كل خسران.

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به.

فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر، فإن جميع ما وراءه يتبعه.

ومهما أشكل على العبد ذلك، وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له، فيتفكر في ذلك بنور العلم، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا... فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مُسْتَضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أولاً في إحكام العلم...

ومن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: (فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك

بخاصة نفسك)[1660]، وكل من خاض في شبهه بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله ﷺ : (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)[1661] وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه، ولصعوبة هذا الأمر وعظمته كان دعاء الصديق رضي الله تعالى عنه: (اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً عليّ فأتبع الهوى)...

فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم، ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣] وأراد به العلم، وقال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل:١٢]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٩]، وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩].

وقال علي كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة، ونعم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة... وليكن سرورك بما قدَّمت، وأسفك على ما خلَّفت، وشغلك لآخرتك، وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: ومن التوفيق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة: أهي لله أم للهوى؟ وقد قال ﷺ: (ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا)[1662]،

(١٦٦٠) حديث فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً. الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٣ ص:٣٦٩).

(١٦٦١) حديث إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.(تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٢ ص:١٧٧).

(١٦٦٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٣٥٩).

وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه)[١٦٦٣].

١٤٢٩- ب - النظر الثاني للمراقبة: عند الشروع في العمل:

وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله.

فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها: بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب.

فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة، لقوله ﷺ : (خير المجالس ما استقبل به القبلة)[١٦٦٤]،... وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها، فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد: أما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية: فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.

وإن كان في مباح : فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة، بل لا ينفك العبد في كل حال: من فرض لله تعالى عليه أما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على

(١٦٦٣) حديث من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه أخرجه الترمذي وقال غريب، وابن ماجة، وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلاً. (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٣ ص:٣٩٨).

(١٦٦٤) حديث خير المجالس ما استقبل به القبلة أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٤٠٢).

طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة.

فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث:

ساعة مضت: لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.

وساعة مستقبلة: لم تأت بعد، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا؟ ولا يدري ما يقضي الله فيها.

وساعة راهنة: ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى، ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته، كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله ﷺ : (لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، أو مَرَمَّة لمعاش، أو لذة في غير محرم)(١٦٦٥).

وما روى عنه أيضا في معناه: (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو

(١٦٦٥) حديث أبي ذر لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه.(تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٤٠٣).

فيها للمطعم والمشرب)[1666]، فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات، ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح...

وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت...

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال، وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

١٤٣٠- ثالثا - المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل:

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها:

١٤٣١-١- فضيلة المحاسبة:

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وفي الخبر أنه ﷺ جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني، فقال: أمستوص أنت؟ فقال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه. وفي الخبر: (وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه...)[1667]، وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وقد قال ﷺ: (إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في

(١٦٦٦) حديث على العاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل أن ذلك في صحف إبراهيم (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج: ٢ ص: ٣٠).

(١٦٦٧) قال العراقي: حديث على العاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه، رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل أن ذلك في صحف إبراهيم. تخريج العراقي: إحياء علوم الدين: (٢/ ٣٠).

اليوم مائة مرة(١٦٦٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وعن عمر ﷺ: أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟.

وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل...

وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاته.

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره.

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه، ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني، وإنك من حاجتي، ولكن هيهات، حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

(١٦٦٨) أخرجه مسلم (٤٨٧١)، وأبو داود (١٢٩٤)، وابن ماجة (٣٨٠٥)، وأحمد (٤٤٩٦) و(٩٤٣١)، والدارمي (٢٦٠٧).

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً...

وقال ميمون بن مهران: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح.

وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي...

وحكى صاحب للأحنف ابن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

١٤٣٢-٢- بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل وتلافي التفريط:

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم، حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل.

فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار، ومعامله نفسه الأمارة بالسوء.

فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل.

وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة.

فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة.

وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره، وقيامه وقعوده، وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوباً له، فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه، كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون: أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلى بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه.

فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء، ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة، وكان بالرقة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب؟ فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى.

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة.

ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦] »[١٦٦٩].

وهكذا إذا حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفه معصية، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها، فإنه أن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل عليه بالندم والاستغفار وتجديد التوبة.

وهكذا تكون المحاسبة اليومية وسيلة من وسائل بقاء اليقظة وحفظ التوبة ودوامها إلى آخر العمر.

قال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة[١٦٧٠].

والآن وقد انتهينا من الكلام في المحاسبة اليومية بوصفها وسيلة من وسائل دوام التوبة والثبات عليها إلى آخر العمر، وهو آخر مبحث في الفصل الثاني الذي استوفينا فيه تلك الوسائل بالتفصيل، نرى أن نختم هذا الفصل المهم بفقرة ختامية تبين ثمرة الدوام على التوبة وثمرة اتباع تلك الوسائل التي شرحناها والمفضية إلى الحياة الإيمانية الطيبة مع بيان خطوات الترقي في مدارج الإيمان إلى أعلى مراتبه بتوفيق الله تعالى.

(١٦٦٩) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٩٣-٤٠٦ (بتصرف).

(١٦٧٠) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٤٠٩.

١٤٣٣- فقرة ختامية: من التوبة ومرتبة الإيمان.. إلى مرتبة الإحسان:

قد تبين لنا فيما تقدم أن جميع وسائل دوام التوبة إلى آخر العمر تفضي إلى تخلية القلب والجوارح من المعاصي والاشتغال بالعبادات القلبية والعبادات العملية وهي مهمة بالنسبة للتائب بخاصة وللمسلم بعامة لأن نتيجتها: أن يحييه الله حياة طيبة ويزيده ترقياً إلى أعلى مراتب الإيمان ثم إلى مرتبة الإحسان، وهي أطيب حالة يحصل عليها المؤمن في الحياة الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فما وصْفُ هذه الحياة الإيمانية الطيبة الناشئة من الترقي في مدارج الإيمان؟ وما خطوات الوصول إليها؟ وما الموانع التي تحول دون الوصول ؟.

١٤٣٤- مراتب حياة الناس: أسفلها وأعلاها، مع بيان خطوات الترقي:

تكلم ابن القيم عن مراتب حياة الناس: أسفلها، وأعلاها: وهي الحياة الطيبة في ظل المراتب العليا من الإيمان، مع بيان خطوات الترقي فيه، ونحن نورد كلامه بخصوص المرتبة العليا وهي الحياة الطيبة - مشذباً ومختصراً مع المحافظة على عبارته -، قال: «...والمقصود أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها من عقله مسبي في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات، فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم؟

فلو أنه تجرد من نفسه، ورغب عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس إلى طهارة القدس، لرأى الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوي بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله، وسد قذى في عين بصيرته، وشجا في حلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه.

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء، فهل يمكنك وصف طريقها لأصل إلى شيء من أذواقها، فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة، قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة وطلب علمها ومعرفتها لدليل على حياتك وأنك لست من جملة الأموات .

فأول طريقها: أن تعرف الله وتهتدي إليه طريقاً يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها، فيفدى من أسرها ويصير طليقاً، فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه، ومعلمه، وأستاذه، وشيخه، وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه في حركاته وسكونه ويقظته ومنامه وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه وما أريد بها وحظه المختص به منها من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه، فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به،

وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه وعرضها عليه، فيشاهد قلبه: رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلاً لكتبه، معبوداً مطاعاً، لا شريك له ولا مثيل ولا عدل له، ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له، فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير، فلا حركة ولا سكون ولا نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره، فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال،وهي الحياة، التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيومية المصححة لجميع الأفعال، فالحي القيوم: من له كل صفة كمال وهو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فتح له مشهد القرب والمعية، فيشهده سبحانه معه غير غائب عنه، قريباً غير بعيد مع كونه فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والخلق والأمر، فيحصل له مع التعظيم والإجلال الأنس بهذه الصفة، فيأنس به بعد أن كان مستوحشاً، ويقوى به بعد أن كان ضعيفاً، ويفرح به بعد أن كان حزيناً، ويجد بعد أن كان فاقداً، فحينئذ يجد طعم قوله: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[١٦٧١]، فأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد، فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه وربه قريب منه، قد صار له حبيبه - لفرط استيلائه على قلبه ولهجه بذكره وعكوف همته على مرضاته - بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه، فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به، فإن صعب عليك فهم هذا المعنى وكون المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه، وذاته غائبة عنه، فاضرب عنه صفحاً، وخل هذا الشأن لأهله:

خـل الهـوى لأنـاس يعرفـون بـه ... قـد كابـدوا الحـب حتـى لان أصـعبه

(١٦٧١) أخرجه البخاري (٦٠٢١).

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين:

- استفراغ القلب في صدق الحب.
- وبذل الجهد في امتثال الأمر.

فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه، ولكن يتوارى عنه ذلك أحياناً ويبدو أحياناً، يبدو من عين الجود، ويتوارى بحكم الفترة، والفترات أمر لازم للعبد، فكل عامل له شرة، ولكل شرة فترة، فأعلاها فترة الوحي وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين، وفترة العمل للعابدين، وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة وتجديد الشوق إليها ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقر وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له، بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفيساً عنه، فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه عاكفاً على مزيد محبته وأسباب قوتها فهو يعمل على هذا، ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له فيعمل على حصول ذلك، ولا يعدم الطلب الأول ولا يفارقه البتة، بل يندرج في هذا الطلب الثاني، فتتعلق همته بالأمرين جميعاً، فإنه إنما يحصل له منزلة (كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به) بهذا الأمر الثاني وهو كونه محبوباً لحبيبه، كما قال في الحديث: فإذا أحببته كنت سمعه وبصره إلخ، فهو يتقرب إلى ربه حفظاً لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه، فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل والخوف والرجاء، ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه، وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه، وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تنال إلا به، ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب وهذه الطريق، وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع أولاً في التقربات بالأعمال الظاهرة وهي ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته، بروحه وقلبه وعقله وبدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان: فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه

بأعمال القلوب من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجود بروحه ونفسه وأنفاسه وإرادته وأعماله لحبيبه، حالاً لا تكلفاً، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه، وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط، فليدم على ذلك وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام، فعساه أن يحظى بحال القرب، ووراء هذا القرب الباطن أمر آخر أيضاً وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله عن هذا المعنى حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى: (من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[١٦٧٢]، فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً، فذكر من مراتب القرب ثلاثة ونبه بها على ما دونها وما فوقها، فذكر تقرب العبد إليه بالشبر وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعاً، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني أسرع المشي حينئذ إلى ربه فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة، وههنا منتهى الحديث منبهاً على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالة له على المراتب المتقدمة فكأنه قيل له وقس على هذا، فعلى قدر ما تبذل منك متقرباً إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه.

وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه، أي من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه وإرادته وأقواله وأعماله تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه، وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية ولا مماسة، بل هو قرب حقيقي والرب تعالى فوق سماواته على عرشه والعبد في الأرض، وهذا الموضع هو سر السلوك وحقيقة العبودية، وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القوم، وملاك هذا الأمر هو: قصد التقرب أولاً، ثم التقرب ثانياً، ثم حال القرب ثالثاً وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب، وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك، بل يصير

(١٦٧٢) متفق عليه: البخاري (٦٩٨٢) و(٦٩٨٣)، ومسلم (٤٨٣٢) و(٤٨٥٠) و(٤٨٥٢).

ذلك هو مجموع حظك ومرادك، وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جوزي على ذلك بقرب هو أضعافه، وعرفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته، بظاهره وباطنه وبوجوده إلى حبيبه، فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه العذل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف أضعاف ما تقرب به فما الظن بمن أعطي حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله؟ وعلى هذا: فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه عوضاً عن كل شيء، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه، ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته، ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه، ومنها: قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ومنها: قوله في الحديث القدسي: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)[١٦٧٣]، ومنها: (قوله من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً) الحديث.

فالعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدم له، وهذا المتقرب بقلبه وروحه وعمله يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة، بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته، كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها، بل أعظم من ذلك. فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة فكيف إن انصبغ القلب به وصار حالاً ملازماً لذاته فالله المستعان.

(١٦٧٣) متفق عليه: البخاري (٦٨٥٦)، ومسلم (٤٨٣٢) و(٤٨٥١).

فهذه الحياة هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة، فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به... فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه.

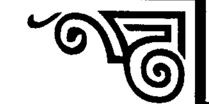
ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يلم شعثه بغير ذلك البتة، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات، فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات فإن همته لا ترضى فيها بالدون، وإن كان مهيناً خسيساً فعيشه كعيش أخس الحيوانات. فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى … ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى … وحنينه أبدا لأول منزل»[١٦٧٤]

وبهذا ننتهي من الكلام في دوام التوبة والثبات عليها إلى آخر العمر، ووسائل ذلك، وهو موضوع الفصل الثاني - من الباب الخامس - بكل مباحثه التفصيلية التي مرت بنا، لنبدأ موضوعاً جديداً هو: معاودة التائب للذنب أو الذنوب التي تاب منها، أو نقض التوبة على ما سماه بعض العلماء، فما أحكام ذلك؟ وماذا يلزمه؟ وإذا تاب توبة جديدة فما حكمها؟ وما حكم توبته السابقة؟ ونحو ذلك، وهو موضوع الفصل الثالث القادم إن شاء الله تعالى.

(١٦٧٤) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ٣ ص: ٢٦٧-٢٧٤ .



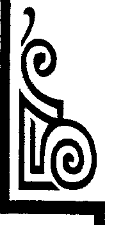



الفصل الثالث

معاودة التائب للذنب [نقض التوبة]

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: أهمية مسألة معاودة التائب للذنب وما جاء في القرآن والسنة بشأنها.
- المبحث الثاني: أقوال العلماء في معاودة التائب للذنب وبيان القول الراجح.









الفصل الثالث

معاودة التائب للذنب [نقض التوبة]

١٤٣٥- تمهيد وتقسيم:

الأصل أن يتوب المسلم توبة نصوحاً، ومن أركانها العزم على أن لا يعود إلى الذنب الذي تاب منه ما عاش، أي إلى آخر العمر. ولكنه مع هذا العزم، ومع استعمال الوسائل لدوام التوبة التي شرحناها سابقاً لن يكون معصوماً من الوقوع في الذنب مرة أخرى.

فإذا وقع في الذنب ثانية فما حكم توبته السابقة؟ هل انتقضت وتبين أنها لم تكن توبة نصوحاً بدليل العودة إلى الذنب؟، أم تكون التوبة الماضية صحيحة ولا يقدح في صحتها وقوع الذنب ثانية لأنها كانت يومها مستجمعة شرائط التوبة النصوح وكان عازماً فعلاً على عدم العودة إلى الذنب؟ ويكون وقوع الذنب معصية مستأنفة لا تقدح في صحة التوبة الماضية، ولا تقدح في صحة ما مضى منها فترة الالتزام بها إلى حين وقوع الذنب ثانية؟

وعلى ذلك انقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

- المبحث الأول: أهمية مسألة معاودة التائب للذنب وما جاء في القرآن والسنة بشأنها.
- المبحث الثاني: أقوال العلماء في معاودة التائب للذنب وبيان القول الراجح.

المبحث الأول

أهمية مسألة معاودة التائب للذنب
وما جاء في القرآن والسنّة بشأنها

١٤٣٦- أهمية هذه المسألة وآثارها:

فهذه مسألة عظيمة يترتب عليها آثار خطيرة:

فإن القول بنقض توبته بحيث تصبح باطلة وكأنها لم تكن، يجعله بلا توبة، فيعود إليه إثم الذنوب السابقة التي وقعت قبل التوبة، وهو قول القلة من الفقهاء خلافاً للجمهور كما سننقل بعض أقوالهم بعد قليل.

بينما القول بصحة توبته السابقة، وأن وقوعه في الذنب لا يقدح في صحة ما مضى منها، بل هو معصية مستأنفة توجب توبة جديدة، يجعل ذنوبه السابقة مؤهلة لأن تكون قد غفرت بالتوبة الماضية، فلا تعود إليه مع ارتكابه الذنب الجديد، وهذا هو قول الجمهور من العلماء الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وهو ما نراه صواباً.

١٤٣٧- العودة إلى الذنب قطع لاستمرار التوبة وليس نقضاً لها من الأصل:

ذلك أن التوبة متى وقعت مستجمعة لشروطها من الندم على ما فرط العبد في جنب الله، والإقلاع عن الزلة في الحال، والعزم على عدم معاودة الذنب في الاستقبال، تكون صحيحة ومقبولة وإن كان يتصور عقلاً وشرعاً أن يعود إلى الذنب لأنه غير معصوم منه، فإذا ثبت على توبته أياماً أو شهوراً أو سنين ثم عاد إلى الذنب فيكون قد قطع استمرار التوبة وكمال الانتفاع بها، وليس هذا نقضاً لها من الأساس بحيث يجعلها كأنها لم تكن أصلاً مع أنه يوم تاب كان عازماً بصدق وإخلاص أن لا يعود إلى الذنب: فوقعت توبته صحيحة، ودامت فترة، فله أجرها وآثارها من مغفرة الذنوب السابقة بها، وأجر الفترة التي التزم بها وداوم عليها. والذنب الجديد ذنب مستأنف يوجب توبة جديدة، ولا يحبط أجر التوبة السابقة، ولا يؤثر في صحتها، بل يؤثر في كمالها أي كمال الفائدة منها إلى آخر العمر.

١٤٣٨- لا يصح قياس معاودة الذنب من المسلم التائب على الردة من حيث حبوط الحسنات:

ولا يصح قياس المعاودة على الردة التي تحبط الحسنات السابقة، فإن الردة لها شأن خاص فهي تحبط جميع الحسنات بدون استثناء بالإجماع، وليس كذلك معاودة الذنب من المسلم. ولأن المرتد نقض إيمانه فصار كافراً فحبط عمله بكفره ولا يقبل منه عمل إلا بعد أن يسلم بخلاف التائب فإن عودته إلى الذنب لا تحبط أعماله ومنها توبته السابقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً، وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً. وقد تنازع العلماء في التائب من الكفر إذا ارتد بعد إسلامه ثم تاب بعد الردة وأسلم هل يعود عمله الأول على قولين مبناهما أن الردة هل تحبط العمل مطلقاً أو تحبطه بشرط الموت عليها، فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقاً، ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها، والردة ضد التوبة، وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا الردة»[(١٦٧٥)].

١٤٣٩- دلالة القرآن والسنة على اعتبار التوبة السابقة وإن تكرر الذنب:

١٤٤٠- أولاً - القرآن الكريم دل على اعتبار التوبة السابقة وصحتها وإن تكرر الذنب:

١٤٤١-١- ثناء القرآن على العبد الأواب ودلالته:

وقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى يغفر الذنب الثاني بالتوبة كما غفر الذنب الأول بالتوبة، وسمى القرآن من هذه حاله بـ (الأواب)، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥].

قال ابن كثير في أحد وجوه تفسير الآية: «عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥] قال: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون، وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري ومعمر عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب به وكذا قال عطاء بن يسار»[(١٦٧٦)].

(١٦٧٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ج: ١١ ص: ٧٠٠.

(١٦٧٦) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٣٧، ومثل ذلك قوله تعالى: (إن الله يحب التوابين)، فالعبد التواب: الكثير التوبة، صيغة مبالغة من تائب، بمعنى أنه كل ما أذنب تاب ولو كان ذنبه هو نفسه =

وجاء في تفسير الصنعاني: «عن سعيد بن المسيب قال: الأواب: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب»(١٦٧٧).

١٤٤٢-٢- دلالة بعض الأسماء الحسنى كالتواب والغفار:

فاسمه جل جلاله: التواب، يشتمل على معنى قبول توبة عباده مرة بعد مرة، واسمه: الغفار، يشتمل على معنى أنه يغفر الذنوب الكثيرة مرة بعد مرة، وكلاهما يدل على تكرار قبول توبة عبده وتكرار المغفرة له.

قال العلماء في معنى اسمه: التواب: «التواب: فعال، من تاب يتوب، أي: يقبل توبة عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفعال من أبنية المبالغة مثل ضراب للكثير الضرب، لقبوله توبة عباده وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواحداً بعد واحد على طول الزمان»(١٦٧٨).

وقال أبو سليمان الخطابي: «التواب: الذي يتوب على عبده ويقبل توبته، كلما تكررت التوبة تكرر القبول»(١٦٧٩).

قلت: إن تشريع مبدأ تكرار قبول التوبة يتضمن تقرير مشروعية توبات متعددة معتبرة، وفي هذا اعتبار للتوبة السابقة على أنه حسنة قبلها الله تعالى لا تنعدم أو تبطل بالعودة إلى الذنب، وإنما ينقطع استمرار الاستفادة منها بانقطاع دوام التوبة، وفي دوامها أمان عظيم للعبد وملازمة للتقوى، لكنه إذا أذنب ثانية وجبت عليه توبة ثانية وهي حسنة أيضا يقبلها الله تعالى.

ومثل ذلك يقال فيما يستفاد من معنى اسمه عز وجل: الغفار. فهو جل ثناؤه: غافر، وغفور، وغفار. فالغافر: بمعنى يغفر الذنوب، والغفور - صيغة مبالغة -: يغفر الذنوب

= الذي تاب منه، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (إن الله يحب التوابين) «أي من الذنب وإن تكرر غشيانه» (تفسير ابن كثير: ج:١ ص:٢٦١)، وجاء في تفسير البغوي في بيان تفسير الآية (ج: ١ ص: ١٩٨): «والتواب: الذي كلما أذنب تاب، نظيره قوله تعالى: (فإنه كان للأوابين غفوراً)»، وانظر أيضاً: الطبري ج:١٥ ص:٦٩، والدر المنثور ج:٥ ص:٢٧١.

(١٦٧٧) تفسير الصنعاني ج: ٢ ص: ٣٧٦.

(١٦٧٨) اشتقاق أسماء الله: ٩٦.

(١٦٧٩) الخطابي: شأن الدعاء: ٩٠.

الكثيرة، والغفار - صيغة أبلغ في المبالغة -: يغفر الذنوب الكثيرة مرة بعد مرة. والتوبة أهم أسباب المغفرة، وهذا يدل على تكرار التوبة وتكرار المغفرة واعتبار التوبة السابقة إلى حين انقطاعها بالذنب، ثم اعتبار اللاحقة أيضاً، على نحو ما شرحناه قبل قليل[١٦٨٠] .

١٤٤٣- ثانياً - السنة النبوية دلت على اعتبار التوبة السابقة وصحتها وإن تكرر الذنب:

١٤٤٤-١- الحديث الأول:

«فعن عقبة بن عامر الجهني أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله: أحدنا يذنب، قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب، قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب، قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا»[١٦٨١] .

١٤٤٥-٢- الحديث الثاني:

وعن عائشة قالت: جاء حبيب بن الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني رجل مقراف، قال: فتب إلى الله يا حبيب، قال: يا رسول الله إني أتوب ثم أعود، قال: فكلما أذنبت فتب، قال: يا رسول الله إذاً تكثر ذنوبي، قال: عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب بن الحارث)[١٦٨٢] .

(١٦٨٠) سبق أن شرحنا معاني هذه الأسماء الحسنى بمناسبة الكلام على صفة العظمة لله تعالى في الباب الأول من هذا الكتاب مع ذكر المصادر والمراجع هناك، فليرجع إليها.

(١٦٨١) البيهقي: شعب الإيمان:ج: ٥ ص: ٤٠٨-٤٠٩حديث رقم (٧٠٩٧). ومجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٠٠ ولفظه: (عن عقبة ابن عامر أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب قال: يكتب عليه قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: يغفر له ويتاب عليه قال فيعود فيذنب قال: فيكتب عليه قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن. وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ١٢٦ و ٤/ ٢٨٥، والمعجم الأوسط ٨/ ٢٩٨، والمعجم الكبير١٧/ ٢٨٧، وجامع العلوم الحكم ١/ ١٦٤.

(١٦٨٢) مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٠٠ وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه نوح بن ذكوان وهو ضعيف، وأخرجه أيضاً: المعجم الأوسط ٥/ ١٢٣ و٥/ ٢٦٠، وجامع العلوم والحكم =

١٤٤٦-٣- الحديث الثالث:

وعن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أذنبت، فقال رسول الله ﷺ: إذا أذنبت فاستغفر ربك، قال: فإني أستغفره ثم أعود فأذنب، قال: فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك، قال: فإني أستغفر ثم أعود فأذنب، قال: إذا أذنبت فعد فاستغفر ربك، فقالها في الرابعة، فقال: إذا أذنبت فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المخسور)[١٦٨٣].

١٤٤٧-٤- الحديث الرابع:

وعن وهب بن جرير عن أبيه قال: كنت جالساً عند الحسن إذ جاءه رجل فقال: يا أبا سعيد ما تقول في العبد يذنب الذنب ثم يتوب؟ قال: لم يزدد بتوبته من الله إلا دنواً، قال: ثم عاد في ذنبه ثم تاب، قال لم يزدد بتوبته إلا شرفاً عند الله، قال: ثم قال لي: ألم تسمع ما قال رسول الله ﷺ؟ قلت: وما قال؟ قال: مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتستقيم أحياناً، وفي ذلك تكبر، فإذا حصدها صاحبها حمد أمره كما حمد صاحب السنبلة بره، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]»[١٦٨٤].

١٤٤٨-٥- الحديث الخامس:

وفي صحيح مسلم عن أبي أيوب أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: (لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم)[١٦٨٥].

= ١/ ١٦٤، وشعب الإيمان ٥/ ٤٠٧، ونوادر الأصول ١/ ٢١٧، والبيان والتعريف ٢/ ٩٩، وفيض القدير ٤/ ٣١٨.

(١٦٨٣) مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٠٠- ٢٠١ وقال: رواه البزار وفيه بشار بن الحكم الضبي، وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به وبقية رجاله وثقوا.

(١٦٨٤) البيهقي: شعب الإيمان: ج: ٥ ص: ٤٠٨ حديث رقم (٧٠٩٦).

(١٦٨٥) مسلم (٤٩٣٤) وأحمد(٢٢٤١٥).

وفيه أيضا: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[١٦٨٦].

وفي بعض روايات الحديثين المتقدمين (يذنبون كي يغفر لهم)[١٦٨٧] و (يذنبون ليغفر لهم)[١٦٨٨] والمراد بذلك: إظهار آثار أسمائه وصفاته جل جلاله فإنه: العفو، والغافر، والغفور، والغفار، ونحوها، وآثارها تظهر بوجود ذنب يغفره وخطيئة يعفو عنها سواء كان هذا العفو والمغفرة بسبب يمارسه العبد كالتوبة والاستغفار أو بدون سبب من العبد بل بمحض المشيئة فيما سوى الشرك الذي يموت عليه صاحبه حسبما دلت عليه نصوص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

١٤٤٩-٦- الحديث السادس

وفي الحديث الشريف: (لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة)[١٦٨٩].
وكذلك قوله ﷺ: (إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب)[١٦٩٠].

١٤٥٠-٧- الحديث السابع:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك

(١٦٨٦) مسلم (٤٩٣٦)، وأحمد (٢٤٩٢) و(٧٧٠٠) و(٧٧٣٦).
(١٦٨٧) أحمد (٧٧٠٠).
(١٦٨٨) أحمد (٢٤٩٢).
(١٦٨٩) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة. (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٤). وانظر: مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٠١ حيث جاء فيه: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق، وإن المؤمن خلق مفتناً تواباً نساء، إذا ذكر ذكر) وقال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار وأحد أسانيد الكبير رجاله ثقات.
(١٦٩٠) أحمد (٥٧١) و(٧٦٩).

وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال: تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك)[١٦٩١].

وجاء في «فتح الباري» في شرح هذا الحديث: «... قال النووي في الحديث إن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفاً وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته وقوله اعمل ما شئت معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك»[١٦٩٢].

وقال القرطبي في شرحه لهذا الحديث بمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، قال: وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب، لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، [أي نقض استمرار التوبة وليس نقضها من الأصل لما دل عليه كلامه قبل قليل من أنها طاعة قد انقضت وصحت] فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم وأنه لا غافر للذنوب سواه، وقوله في آخر الحديث: اعمل ما شئت أمر معناه: الإكرام، في أحد الأقوال، فيكون من باب

(١٦٩١) متفق عليه: البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (٤٩٥٣) واللفظ له. ولفظ البخاري: حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام حدثنا إسحاق بن عبد الله سمعت عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: سمعت أبا هريرة قال: سمعت النبي ﷺ قال: (إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال أذنب ذنباً، فقال: رب أذنبت، وربما قال: أصبت، فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت أو أصبت آخر، فاغفره، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً وربما قال: أصاب ذنباً قال، قال: رب أصبت أو قال: أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي - ثلاثاً - فليعمل ما شاء).

(١٦٩٢) فتح الباري ج: ١٣ ص: ٤٧٢.

قوله: ادخلوها بسلام، وآخر الكلام خبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه»[١٦٩٣].

١٤٥١- قدر الله في الإنسان: أن يوجد منه الذنب الذي يستلزم التوبة:

والذي يفهم من الأحاديث النبوية المتقدمة وأمثالها : أن مراد الله تعالى القدري ليس هو وجود العبد الذي لا يذنب أبداً فيخال نفسه مستغنياً عن العفو والمغفرة والافتقار إلى رحمة الله، ومستغنياً عن اللجوء إلى بابه لطلب العفو والمغفرة، بل مراده وجود العبد الذي يبتلى بالذنب وكلما أذنب يتوب، وهذا يستلزم قبول التوبة وقبول تجديدها كلما وقع الذنب. وهذا راجع للحكمة من وقوع الذنب، وبعض هذه الحكمة إلجاء الخلق جميعاً إلى طلب عفوه ومغفرته فلا يقدر أحد على أن يستغني عن ذلك البتة، فتظهر آثار أسمائه الحسنى كالغفار والتواب والعفو والغفور ونحوها.

١٤٥٢- الفهم الصحيح لحديث: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون...) الحديث:

ولا ينبغي أن يفهم من الأحاديث المتقدمة وبخاصة حديث: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[١٦٩٤]، وحديث (ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة)[١٦٩٥]: أن يذنب الإنسان عمداً ويكرر الذنب ليتوب بعد ذلك، لأن نصوص الإسلام الصريحة تأمره بالتقوى التامة والحرص عليها أشد الحرص، فيجب عليه التزام التقوى والعمل بالأمر والنهي الإلهي، ولكنه سيجد نفسه في النهاية قد صدرت منه الذنوب ولو كان في طاعة الصديقين، وذلك من أجل إلجائه إلى الخوف والخشية ولزوم طرق باب الكريم بطلب مغفرته وعفوه بالاستغفار والتوبة وتجديدها.

(١٦٩٣) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١٣. واعتمد هذا المعنى صاحب فتح الباري حيث نقل عبارة القرطبي مستدلاً بها (تنظر: فتح الباري ج: ١٣ ص: ٤٧١).

(١٦٩٤) أخرجه مسلم (٤٩٣٦)، والترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (٢٤٩٢).

(١٦٩٥) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠١)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار وأحد أسانيد الكبير رجاله ثقات، والمعجم الأوسط (٦/ ٨٩)، حديث رقم (٥٨٨٤) ولفظه: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (ما من مؤمن إلا وله ذنب يصيبه الفينة بعد الفينة إن المؤمن نساء إذا ذكر ذكر)، والمعجم الكبير (١١/ ٣٠٤) برقم (١١٨١٠) وأيضاً (١٢/ ٥٦) برقم (١٢٤٥٧)، وشعب الإيمان (٥/ ٤١٩) برقم (٧١٢٤).

المبحث الثاني
أقوال العلماء في مسألة معاودة التائب للذنب

ونقدم فيما يلي طائفة من أقوال الجمهور وغيرهم بشأن معاودة التائب للذنب وأثر ذلك على توبته واستمرارها:

١٤٥٣- أولاً - قول الجمهور: معاودة الذنب لا تنقض (تبطل)التوبة الماضية بل هي معصية مستأنفة:

١٤٥٤- أ- من الفقه المالكي:

فمن الفقه المالكي قولهم: «...بل يأمرهم [أي الإمام] بتوبة، أي إقلاع عن المعصية وتندم عليها من حيث كونها معصية وعزم على عدم العود إليها ، وإن عاد فلا تنتقض، ويجب تجديد التوبة... وعلى كل، إذا أذنب بعدها لا تعود ذنوبه على الصحيح»[١٦٩٦].

١٤٥٥- ب - من الفقه الشافعي:

ومن الفقه الشافعي قولهم: «تصح [التوبة] من ذنب دون ذنب وإن تكررت وتكرر منه العود إلى الذنب، ولا تبطل به، بل هو مطالب بالذنب الثاني دون الأول»[١٦٩٧].

وقولهم: «وفي الروض وشرحه: تجب التوبة من المعصية على الفور بالاتفاق وتصح من ذنب دون ذنب وإن تكررت توبته وتكرر منه العود إلى الذنب ولا تبطل توبته به بل هو مطالب بالذنب الثاني دون الأول»[١٦٩٨].

١٤٥٦- ج - قول الهيتمي:مذهب أهل السنة: صحة التوبة بشروطها وإن تكرر الذنب:

بين الهيتمي في الفتاوى الفقهية الكبرى، وهو من كبار فقهاء الشافعية، أن هذا هو مذهب أهل السنة فقال: «مذهب أهل السنة: صحة التوبة بشروطها من الذنب وإن تكرر.

(١٦٩٦) منح الجليل شرح مختصر خليل ١/ ٤٧٧.

(١٦٩٧) الهيتمي: تحفة المحتاج في شرح المنهاج١٠/ ٢٤٣.

(١٦٩٨) البكري الدمياطي: إعانة الطالبين ج: ٤ ص: ٢٩٢ والنص نفسه جاء في حواشي الشيرواني ج:١٠ ص:٢٤٥. إلا أنه أضاف بعد عبارة: «وتجب التوبة من المعصية» فقال: «ولو صغيرة..».

وفيما يلي نص ما جاء في الكتاب المذكور: «(وسئل) رضي الله تعالى عنه عن عبد أذنب ثم ندم وعقد توبة نصوحاً، ثم أذنب ثم ندم وعقد أيضا، ثم أذنب وعقد أيضاً، وهذا حاله، وهو في غاية الخشية من الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن الذنب مقدر ومحتم عليه وهو مأمور بالتوبة النصوح وقد فعل ما أمر به فكيف خلاصه من ذلك؟

(فأجاب) نفعنا الله سبحانه وتعالى بعلومه بقوله: مذهب أهل السنة صحة التوبة بشروطها من الذنب وإن تكرر.

فعلى العبد عقب فعله أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى ويجتهد في تحقيق شروطها، فإن من آفة التساهل في الشروط ميل النفس إلى العود، بل سرعة عودها إلى الذنب، لأنها ذاقت حلاوته، ولم تسل عليها سيوف المجاهدة والندم الحقيقي، ولو حق ندمها لبعد عودها، فعلى العبد الاجتهاد في تحقيق ذلك، وتقريع نفسه بأن يعرض عليها المراهم الحادة: من مظاهر الجلال والانتقام، حتى يكسبها ذلك خشية تامة من سطوات الحق وانتقامه. ويكون مع ذلك كله: متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى في قبوله توبته، وغفران زلته، ورحمة حوبته، فإن من أدمن قرع باب الغني الكريم لا بد وأن يفتح له، ويتفضل عليه بما لم يكن في حسابه، فعليك بصدق الابتهال، ودوام الذلة والخشية، لتفوز من ربك بأفضل الأعمال، إنه الكبير المتعال، تاب الله سبحانه وتعالى علينا توبة نصوحاً بفضله، وأدام علينا هواطل جوده ووابل عفوه آمين»[١٦٩٩].

وجاء في الأشباه والنظائر: «من تاب من المعصية ثم عاود الذنب ، هل يقدح في صحة التوبة الماضية؟ والمشهور: لا»[١٧٠٠].

١٤٥٧- د - قول القرطبي: التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت:

وقال القرطبي في شرحه للحديث الذي في الصحيحين الذي يذكر تكرر الذنب وتكرر التوبة وطلب المغفرة، والذي رمزنا له قبل قليل بـ (الحديث السابع).. قال: «وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب، لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة»[١٧٠١].

(١٦٩٩) أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي: الفتاوى الفقهية الكبرى: ٤/ ٣٥٨.

(١٧٠٠) السيوطي: الأشباه والنظائر: ص ٣٧-٣٨.

(١٧٠١) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ٢١٣.

١٤٥٨- هـ - من فقه الزيدية:

ونص الزيدية على مثل ذلك فقد جاء في «البحر الزخار»: «ومن تاب من معصية ثم عاد لم يعد عقاب الأولى [وعللو ذلك بأن العقاب على المعصية الأولى]: سقط بالتوبة، والفعل الثاني متجدد»[١٧٠٢].

ونصوا أيضاً على أن إثم الذنب قد ذهب بالتوبة فصار كالمعدوم فلا يعود إلى من عاود الذنب، بمعنى أنه مطالب بالذنب الثاني دون الأول، فإن كان الذنب الثاني من محبطات الأعمال وتاب عنه عادت إليه حسناته التي حبطت فقالوا: «ومن تاب بعد انحباط ثوابه[١٧٠٣] تجدد له استحقاق الثواب في المستقبل على طاعاته الماضية كالمستقبلة، إذ سقوط ثوابها الماضي بالموازنة[١٧٠٤] [بفعل ذنب من النوع الذي يحبط العمل] لا يصيرها كالمعدومة، بخلاف سقوط المعصية بالتوبة فليس بالموازنة ، بل بالتوبة صارت [المعصية] كالمعدومة فبطلت في الحال والمآل»[١٧٠٥].

(١٧٠٢) البحر الزخار: أحمد بن يحيى المرتضى: ١/ ٨٠.

(١٧٠٣) قلت يحبط ثوابه أي حسناته إما بالردة التي تحبط جميع الحسنات أو بأحد الأفعال المنصوص عليها أنها محبطة للحسنات كالمن والأذى بعد الصدقة فهو محبط للأعمال أو رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض فإنه محبط أيضاً، والمقصود بالاقتباس المثبت في المتن أنه يعود للتائب بتوبته حسناته الماضيات التي كانت قد أحبطها أحد الذنوب المذكورة.

(١٧٠٤) سقوط الثواب بالموازنة يقصد به الموازنة بين الحسنات والسيئات فكما أن الحسنات تمحو السيئات فكذلك بعض السيئات (المحبطة للأعمال) تذهب بالحسنات.

(١٧٠٥) البحر الزخار: أحمد بن يحيى المرتضى: ١/ ٨٠. ومعنى عبارتهم التي في المتن التي فرقت بين (انحباط الثواب - بالموازنة - وآثاره) وبين (سقوط الذنب - بالتوبة - وآثاره) فإنهم يقصدون بذلك: أن سقوط الثواب (انحباطه) بذنب يحبط العمل لا يجعل العمل غير قابل للعودة، فإن ثوابه يعود بالتوبة، فالساقط هنا يعود، هذا من ناحية السيئات المحبطة للحسنات، أما من ناحية الحسنات المذهبة للسيئات كالتوبة فإنها تمحو إثم الذنب محواً غير قابل للعودة أي يصبح معدوماً لأن الله تعالى قد غفره بالتوبة، فالساقط هنا وهو إثم الذنب لا يعود لأن سقوطه تم بالتوبة لا بالموازنة.

١٤٥٩- و- قول ابن تيمية بصحة التوبة الأولى وقبولها وعليه أن يتوب ثانية إذا عاود الذنب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، فمن خرج من قلبه: الشبهة، والشهوة، لم يعد إلى الذنب، فهذه التوبة النصوح، وهي واجبة بما أمر الله تعالى. ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى، ثم إذا عاد استحق العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضاً، ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر، بل يتوب، ولو عاد في اليوم مائة مرة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي [ﷺ] أنه قال: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)[١٧٠٦] وفى حديث آخر: (لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار)[١٧٠٧]، وفى حديث آخر: (ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة) »[١٧٠٨].

١٤٦٠- ثانياً: قول بعض العلماء بأن العودة إلى الذنب تنقض التوبة السابقة وتبطلها:

بينما يرى قلة من العلماء بأن العودة إلى الذنب تنقض التوبة الماضية ويعود إليه إثم الذنوب السابقة.

فقد نقل صاحب «الزواجر»عن الباقلاني قوله: لو نقض التائب توبته جاز أن تعود عليه ذنوبه لأنه ما وفى بها، لكنه أقل إثماً ممن تركها دائماً. قال الأذرعي: وعلى هذا من شروط التوبة ألا يعود إلى الذنب فإن عاد إليه كان نقضاً للأولى»[١٧٠٩].

(١٧٠٦) أخرجه أحمد (٥٧١) و(٧٦٩).

(١٧٠٧) مسند الشهاب ج: ٢ ص: ٤٤ ولفظه: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ثم لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار) وجاء في شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٨٧ (وروي عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم (لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار). وانظر أيضا:تفسير القرطبي ٥/ ١٥٩، وتفسير الطبري٥/ ٤١، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧، والفردوس بمأثور الخطاب٢/ ٨٧، وشرح سنن ابن ماجة١/ ٢٥، وفيض القدير٦/ ٤٣٦.

(١٧٠٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ج: ١٦ ص: ٥٨، والحديث أخرجه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩) وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة وليس إسناده بالقوي. ولفظه عندهما: ... ولو عاد في اليوم سبعين مرة.

(١٧٠٩) الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٣٦٦.

١٤٦١- ثالثا - الموسوعة الفقهية اعتمدت رأي الجمهور:

وجاء في الموسوعة الفقهية موازنة مختصرة تبين رجحان رأي الجمهور واعتماد الموسوعة له حيث جاء فيها:

«لا يشترط في التوبة عدم العود إلى الذنب الذي تاب منه عند أكثر الفقهاء ، وإنما تتوقف التوبة على الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته ، فإن عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة ، ولا يعود إليه إثم الذنب الذي ارتفع بالتوبة ، وصار كأن لم يكن وذلك بنص الحديث: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[١٧١٠]. وقال بعضهم يعود إليه إثم الذنب الأول؛ لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع الردة.

والحق: أن عدم معاودة الذنب واستمرار التوبة شرط في كمال التوبة ونفعها الكامل لا في صحة ما مضى منها»[١٧١١].

وكما ترى فإن هذا الموضع يحتاج إلى تحقيق وتحرير للانتهاء إلى الرأي الصواب الذي يطمئن إليه المؤمن. وقد كفانا العلامة ابن القيم رحمه الله هذا الأمر فحرر هذا الموضع تحريراً حسناً مع الاستدلال.

١٤٦٢- رابعاً - تحرير ابن القيم لمسألة عودة التائب إلى الذنب وآثاره:

سنورد هنا قول ابن القيم رحمه الله - مشذباً ومختصراً وبقدر ما تمس الحاجة إليه ويحقق الغرض - مع المحافظة على عبارته، قال[١٧١٢]: «ومن أحكام التوبة أنه: هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً أم ليس ذلك بشرط؟.

(١٧١٠) ابن ماجة (٤٢٤٠). ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠ ولفظه:عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. وانظر: الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٤٨ وقال: رواه ابن ماجة والطبراني كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ولم يسمع منه، ورواة الطبراني رواة الصحيح، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعا أيضاً من حديث ابن عباس.

(١٧١١) الموسوعة الفقهية: ج:١٤ ص:١٢٣.

(١٧١٢) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٧٦- ٢٨٢.

فشرط بعض الناس عدم معاودة الذنب وقال: متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته - فإن كانت في حق آدمي فهل يشترط تحلله فيه تفصيل سنذكره إن شاء الله - فإذا عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده، صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن مات مصراً، أو إن ذلك [الذنب] قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثمه، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان: فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول لفساد التوبة وبطلانها بالمعاودة.

١٤٦٣- أ- رأي القائلين ببطلان التوبة السابقة بالمعاودة وعودة إثم الذنب الأول إليه وأدلتهم:

قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإن ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة، كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: (من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)[١٧١٣]، فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام، فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها والموافاة عليها والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه.

(١٧١٣) متفق عليه: البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (١٧٢).

قالوا: والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً، مدى العمر، فوقتها مدة العمر، إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار ثم نقض إمساكه بالمفطرات بطل ما تقدم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئا من يومه.

قالوا: ويدل على هذا: الحديث الصحيح، وهو قوله: (إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)[١٧١٤]، وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفراً موجباً للخلود، أو معصية موجبة للدخول.

فإنه لم يقل: «فيرتد فيفارق الإسلام»، وإنما أخبر: أنه يعمل بعمل يوجب له النار... فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية، والأعمال بالخواتيم.

فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات، وهذا قول المعتزلة، والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبي [ﷺ] لمعاذ: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[١٧١٥].

قيل: والقرآن والسنة قد دلا على الموازنة وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه- فعل أهل الهوى والتعصب - بل نقبل الحق ممن قاله، ويرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة (الأعراف: ٨-٩)[١٧١٦] و (الأنبياء:٤٧)[١٧١٧]

(١٧١٤) متفق عليه: البخاري(٦٩٠٠)، ومسلم (٤٧٨١).

(١٧١٥) أحمد(٢٠٣٩٢) و(٢٠٤٣٥)، والدارمي (٢٦٧١).

(١٧١٦) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

(١٧١٧) في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

و(المؤمنين ١٠١-١١١)(١٧١٨) والقارعة(١٧١٩)، والحاقة (١٩- ٣٧)(١٧٢٠).

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣]، وتفسير الإبطال ها هنا بالردة لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها، شبه سبحانه بطلانها بالمن والأذى بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وفي الصحيح عن النبي [ﷺ] قال: (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)(١٧٢١)، وقالت عائشة رضي الله عنها لأم ولد زيد بن أرقم وقد باع بيع العينة : (أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب)(١٧٢٢)، وقد نص أحمد على هذا في رواية فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه فيستدين ويتزوج لا يقع في محظور فيحبط عمله .

فإذا استقرت قاعدة الشريعة: أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع [كالردة عن الإسلام]، ومنها ما يحبطها بالنص [كرفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له

(١٧١٨) ضمن المقطع المشار إليه آيتان هما محل الشاهد وهما قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

(١٧١٩) قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ [القارعة: ٦-١١].

(١٧٢٠) في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ١٩-٣٧].

(١٧٢١) البخاري(٥٢٠)، والنسائي(٤٧٠)، وابن ماجة(٦٨٦)، وأحمد(٢١٨٧٩).

(١٧٢٢) سنن البيهقي: ٥/ ٣٣٠، وسنن الدارقطني: ٣/ ٥٢، وانظر من أجل البحث الفقهي في الأثر المذكور: تفسير القرطبي: ٢/ ٥٩، و٣/ ٣٥٩، وتفسير ابن كثير: ١/ ٣٢٨، وحاشية ابن القيم: ٩/ ٢٤٦، والمحلى: ٧/ ٢٩، و٧/ ١٧٨، والأم: ٣/ ٧٨، والمدونة الكبرى: ٩/ ١١٨، وبداية المجتهد: ٢/ ١٠٧، والإحكام لابن حزم: ٢/ ٢٠٤.

بالقول كجهر بعضكم لبعض، وكالمن والأذى بعد الصدقة ونحو ذلك مما ورد به نص خاص]، جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة[١٧٢٣]، فتصير التوبة كأنها لم تكن، فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعاً.

قالوا: وقد دل القرآن، والسنة، وإجماع السلف على الموازنة، وفائدتها: اعتبار الراجح، فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح، قال ابن مسعود: «يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته، كان من أصحاب الأعراف»[١٧٢٤]..

١٤٦٤- ب - رأي الجمهور: المعاودة لا تبطل ما مضى من التوبة السابقة فلا يعود إليه إثم الذنب الأول:

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة[١٧٢٥]- بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله، وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

(١٧٢٣) قلت: الأعمال المحبطة للحسنات ورد بكل منها نص خاص كما ذكر في المتن، فأين النص الخاص بأن المعاودة تحبط حسنة التوبة؟ بل النصوص جاءت بضد ذلك كما أوردناها تحت عنوان: السنة النبوية دلت على اعتبار التوبة السابقة وصحتها وإن تكرر الذنب. ولا يفوت القارئ الكريم أن ابن القيم هنا يحرر رأي القائلين بأن المعاودة تحبط حسنة التوبة السابقة وآثارها كمغفرة الذنوب بها فيعود إليه إثم الذنوب السابقة، وهو لا يتبنى هذا الرأي بل يعارضه كما سترى في ترجيحه بين الرأيين في آخر البحث.

(١٧٢٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢١٨، وتفسير الطبري: ٨/ ١٩١.

(١٧٢٥) نرى أن التعبير (بنقض التوبة) في بيان رأي الجمهور محل نظر، حتى ولو استعمله بعض الجمهور، فإن لازمه بطلانها، وهم لا يقولون بذلك، وإنما يقولون بأنها وقعت صحيحة مستجمعة لأركانها وشروطها ومنها العزم على عدم العودة إلى الذنب وليس من شروطها العصمة منه في المستقبل من حيث الواقع، وعلى ذلك فلا تنتقض ما دامت وقعت صحيحة في حينها وإنما الذي ينقطع هو استمرار التوبة والانتفاع بها إلى آخر العمر بوقوع المعاودة التي قطعت استمرارها ودوامها، ولذلك فإن الذي يلائم قول الجمهور هو تعبير (قطع التوبة) أي قطع استمرارها وهو التعبير الذي يثبت (صحة ما مضى منها) حسب عبارة الجمهور، =

قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى المات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال، فإن الكفر له شأن آخر، ولهذا يحبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات، فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات، وهذا باطل قطعاً، وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب، والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة التي تقدمها الألوف من الحسنات، فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار، ولكن الخوارج: كفروهم، والمعتزلة: فسقوهم، وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام، مخالف للمنقول والمعقول. وموجب العدل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده مرفوعاً إلى النبي [ﷺ]: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)[١٧٢٦].

قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه. فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة. فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥]، والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

= ولازمها: انقطاع الانتفاع بها من حين وقوع المعاودة، ولكنني لم أجد - حسب إطلاعي - من عبر بهذا التعبير (قطع التوبة) حتى من الذين يصرحون بعدم بطلان التوبة السابقة بالمعاودة، واستمرارها قائمة إلى حين معاودة الذنب الذي قطع استمرارها وأوجب توبة جديدة، وأرى أن الجمهور لو كانوا قد استعملوا هذا التعبير(قطع التوبة) بالمعاودة ليدل على صحة ما مضى منها لكان مفيداً في تمييز رأيهم عن رأي القائلين بـ (نقض التوبة) بالمعاودة بحيث تصبح باطلة وكأنها لم تكن. والله تعالى أعلم.

(١٧٢٦) أخرجه أحمد (٥٧١) و(٧٦٩).

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأما التوبة: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل، كما تقدم تقريره، بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟. بل نظير من صلى ولم يصم، أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول السنة أظهر، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له، من وجهين أيضاً، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله. كما قال تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي. فالخفي: قد يغفر، وأما الجلي: فلا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

١٤٦٥- ج - ترجيح ابن القيم:

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦][١٧٢٧].

(١٧٢٧) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٧٦- ٢٨٢.

[قلت: ولازم قول ابن القيم هذا: أن التائب تبقى توبته التي وقعت صحيحة منتجة آثارها من حيث مغفرة الذنب بها ومحبة الله لصاحبها من جهة توبته السابقة وأن المعاودة ذنب مستأنف يجعل صاحبه مبغوضا عند الله من جهة الذنب إن لم يبادر إلى توبة جديدة تزيل عنه بغض الله وتجمع له محبة الله له عن التوبة السابقة وعن التوبة اللاحقة، ومغفرة الإثم السابق بالتوبة السابقة والإثم اللاحق بالتوبة اللاحقة، والله أعلم].

١٤٦٦- د- الرأي الراجح: معاودة الذنب لا تبطل التوبة السابقة وتوجب توبة جديدة:

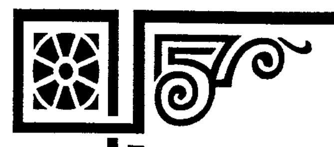
والذي نراه راجحاً هو رأي الجمهور الذي يقول بصحة ما مضى من التوبة الصادقة قبل المعاودة، ومغفرة الذنب الأول بها فلا يعود إليه، وأنه استمر منتفعاً بها ناهياً النفس عن الهوى مثاباً على ذلك إلى حين قطعها بالمعاودة، وأن المعاودة هي ذنب مستأنف يوجب توبة جديدة.

وسبب هذا الترجيح قوة الأدلة التي جمعها ابن القيم عند عرضه لرأي الجمهور حتى توصل بها إلى تبني رأيهم وهو نفس رأي ابن تيمية رحمه الله، ورأي الشافعية والمالكية وغيرهم ممن عرضنا بعض أقوالهم سابقاً.

ويعضد ذلك ما قدمناه في أول المبحث من تفسير قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥]، وتفسير معنى بعض الأسماء الحسنى كالتواب والغفار التي تدل على مشروعية تكرار توبة الله على عبده وتكرار مغفرته، وكذلك السنن النبوية التي قدمناها أيضاً وكلها تدل على صحة التوبة الأولى وصحة التوبة الثانية بل والثالثة وهكذا، ما دامت كل منها مستجمعة لشروط التوبة الصحيحة الصادقة والخالصة وقت إيقاعها من التائب. والله تعالى أعلم.

وبهذا ننتهي من الباب الخامس الذي خصصناه لدوام التوبة إلى آخر العمر وبينا فيه وسائل دوام التوبة والمحافظة عليها ورعايتها بالتفصيل، وختمناه ببيان أحكام معاودة الذنب الذي تاب منه وهو ما سماه جمهور العلماء بـ (نقض التوبة) - ونفضل تسميته بـ (قطع التوبة) - وآثار ذلك ومنها وجوب تجديد التوبة والعودة إليها، لنبدأ البحث في باب جديد نخصصه: للكلام في توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم بوصفها نماذج للتوبة تحفز المسلمين عليها وتدعوهم إليها رغبة في حصول المغفرة لهم كما حصلت لأولئك التائبين إلى الله تعالى، وهو موضوع الباب السادس القادم إن شاء الله تعالى.









الباب السادس



توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم



وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلاقة توبتهم بالعصمة من الذنوب.
- الفصل الثاني: نماذج لتوبة الصحابة والتابعين.
- الفصل الثالث: نماذج للتوبة في العصر الحديث.








الباب السادس

توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم

١٤٦٧ - تمهيد وتقسيم :

الرسل والأنبياء هم خيرة خلق الله تعالى من البشر، قد اجتباهم الله تعالى واصطفاهم وهداهم إلى صراط مستقيم، ومع ذلك فقد ألجأهم الله تعالى إلى التوبة والتضرع إليه من أجل العفو والمغفرة، وليكونوا قدوة للخلق في المتاب.

والكلام في توبة الأنبياء والعباد الصالحين يضع أمام المسلم قدوة حسنة ومثلاً أعلى يقتدي به في التوبة إلى الله تعالى، ويريه رحمة الله تعالى بالتائبين، وهو داخل في معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وسنقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

نتناول في الفصل الأول: توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلاقة توبتهم بالعصمة من الذنوب.

ونبحث في الفصل الثاني: نماذج لتوبة الصحابة والتابعين.

وندرس في الفصل الثالث: نماذج للتوبة في العصر الحديث.











الفصل الأول

توبة الأنبياء وعلاقة توبتهم بالعصمة

وفيه سبعة مباحث:

- المبحث الأول: ثناء الله تعالى على الرسل والأنبياء وبيان معنى العصمة.
- المبحث الثاني : توبة آدم عليه السلام .
- المبحث الثالث: توبة نوح عليه السلام .
- المبحث الرابع : توبة موسى عليه السلام
- المبحث الخامس: توبة داود عليه السلام .
- المبحث السادس: توبة يونس عليه السلام .
- المبحث السابع : توبة الله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم .










الفصل الأول

توبة الأنبياء وعلاقة توبتهم بالعصمة

١٤٦٨- تقسيم البحث:

سنبحث في هذا الفصل إن شاء الله تعالى ثناء الله تعالى على رسله وأنبيائه وبيان معنى العصمة وأثارها في مبحث أول، ثم نبحث نماذج من توبة الأنبياء مخصصين لتوبة كل منهم عليهم الصلاة والسلام مبحثاً مستقلاً.

وعلى ذلك انقسم هذا الفصل إلى سبعة مباحث:

- المبحث الأول: ثناء الله تعالى على الرسل والأنبياء وبيان معنى العصمة.
- المبحث الثاني : توبة آدم عليه السلام .
- المبحث الثالث: توبة نوح عليه السلام .
- المبحث الرابع : توبة موسى عليه السلام .
- المبحث الخامس: توبة داود عليه السلام .
- المبحث السادس: توبة يونس عليه السلام .
- المبحث السابع : توبة الله على النبي محمد ﷺ .

وفيما يلي تفصيل ذلك:

المبحث الأول
ثناء الله تعالى على الرسل والأنبياء وبيان معنى العصمة

١٤٦٩- ثناء الله تعالى على رسله وأنبيائه جماعة وآحاداً:

أثنى الله تعالى في التنزيل العزيز على رسله وأنبيائه بذكرهم جماعة وبذكرهم آحاداً، وفيما يلي بيان ذلك:

١٤٧٠-١- ثناء الله تعالى على رسله وأنبيائه جماعة ثناء عاماً:

أثنى الله تعالى على أنبيائه ثناء عاماً مبيناً أنهم خيرة خلقه ممن اجتباهم واصطفاهم وهداهم إلى صراط مستقيم فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام:٨٣-٩٠].

وفي سورة الأنبياء ذكرهم بتفصيل أكبر مثنياً عليهم ومبيناً فضل الله تعالى عليهم بالرسالة والنبوة وبعض ما جرى لهم مع أقوامهم، ذاكراً أعمالهم الصالحة وتوبتهم، ثم ختم ذلك الثناء عليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأثنى على بعضهم جماعة نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

١٤٧١-٢- الثناء على الرسل والأنبياء آحاداً:

وأثنى عليهم آحاداً ثناءً خاصاً، فمن ذلك قوله تعالى عن آدم: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وقال عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن إدريس: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦-٥٧]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وقال عن إسماعيل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥٤]، وقال عن موسى ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، وقال عن أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، ومثل ذلك عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فجعل توبة كل منهما تعليلاً لوصفه بنعم العبد، وقال عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، وأعظم ثناء أثنى به الله تعالى على نبي هو الثناء على سيد المرسلين محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

١٤٧٢- لم يجعل الله أنبياءه مستغنين عن التوبة:

ومع ما ذكرناه من الثناء على أنبياء الله ورسله فإن الله تعالى لم يجعلهم مستغنين عن التوبة بل أحوجهم إليها ليعلي منزلتهم عند الله بالتوبة التي تزيد في النفس معاني العبودية والافتقار إلى عفو الله ورحمته، وليمارسوا سبباً مهماً من أسباب محبة الله تعالى فإن الله تعالى يحب التوابين.

والتوبة وإن كانت لا تستلزم بالضرورة ذنباً بمعنى المعصية تكون التوبة منه، إذ قد تكون توبة عن ترك الأولى، إلا أن القرآن الكريم ذكر ذنوباً بمعنى الوقوع في الزلة، ونسبها إلى من وقعت منه من الأنبياء وتابوا منها.

١٤٧٣- تسجيل القرآن لزلة الأنبياء وتوبتهم:

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم فذكر الزلة والتوبة منها كقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:

١٢١-١٢٢]، وقوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقول آدم وزوجه تائبين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقول نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

وقول إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] .

وقال تعالى: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ١٧-٣٤].

وقال لسيد الأنبياء والمرسلين: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩]. وقال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧].

١٤٧٤- تفسير ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بالوقوع في الذنب:

ومع ما أجمع عليه العلماء من عصمة الأنبياء من الكبائر فيبقى تفسير ما وقع منهم من الصغائر مما يشعر بأنه ذنب، فما تفسيره عند العلماء؟:

الصحيح الذي عليه كبار العلماء أن تلك الذنوب اليسيرة والنادرة الوقوع وقعت منهم، ولكنهم يوفقون للتوبة ويلهمونها، ويرفعون بها منزلة ودرجات كما هو مذهب

أهل السنّة والجماعة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كما سيأتي بيان قوله في ذلك في فقرة تالية - ويضاف إلى ذلك ما وقع من الأنبياء في ترك الأولى والأفضل.

وترك النبي ﷺ للأولى إنما يكون في الأمور التي لم يرد فيها وحي، فيعمل بما يهديه إليه اجتهاده، ويبذل وسعه، ومع ذلك يكون رأيه قابلاً للخطأ ما دام لم ينزل فيه وحي، لكن الوحي من ورائه يصحح له ويصوب ما قد يكون من خطأ متمثل في ترك الأولى، ومثال ذلك ما حصل لنبينا محمد ﷺ بشأن الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك حيث نزل الوحي بقوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، أو اهتمام النبي ﷺ بدعوة صناديد قريش منشغلاً بهم عن إجابة الأعمى فنزل الوحي معاتباً على ترك الأولى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس:١-٢] [(١٧٢٨)]، وبذا تكون العصمة حاصلة بمعنى أن لا يمر الخطأ من غير تصحيح وتوبة، بينما يحصل الخطأ لغير الأنبياء ويمر من غير تصحيح وتوبة حيث لا عصمة لهم.

١٤٧٥- الحكمة من تسجيل زلة الأنبياء وتوبتهم :

فإن قيل: فما بال زلة الأنبياء حكيت في القرآن بحيث تتلى على مر الدهور مع أن الله تعالى غفار ستار، وقد أمرنا بالستر على مرتكب الذنب؟ وبخاصة بعدما غفره الله تعالى بتوبة صاحبه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؟

والجواب: إن تسجيل زلة الأنبياء وتوبتهم يدل على ما يأتي:

١- صدق الأنبياء، وأن ما يبلغونه يكون بأمر الله تعالى من غير إخفاء لشيء منه.
٢- إن الله تعالى لم يجعلهم مستغنين عن التوبة بل أحوجهم إليها ليعلي منزلتهم بالتوبة ويرفع درجتهم وليحصلوا سبباً مهماً من أسباب محبة الله تعالى فإن الله تعالى: (يحب التوابين)، وقد أخبر بأن (نعم العبد) عند الله: العبد الأواب.
٣- لكي يحصل الاقتداء بهم في التوبة فإن الأنبياء على جلالة قدرهم وكثرة طاعاتهم يلجؤون إلى الله تعالى دائماً بالاستغفار والتضرع في أدنى زلة، فعلى الناس - وهم أدنى مرتبة منهم بكثير - أن يتضرعوا إلى الباري كل حين.

(١٧٢٨) انظر تفسير القرطبي، ج: ٨ ص: ١٥٥، ج: ١٩ ص: ٢١١-٢١٥.

والكلام في توبة الأنبياء يستلزم إعطاء فكرة عن عصمة الأنبياء، فما معنى عصمة الأنبياء؟.

١٤٧٦- معنى عصمة الأنبياء:

العصمة لغة هي: الحفظ.

واصطلاحاً: عرفها بعضهم: «هي لطف من الله تعالى، يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء»(١٧٢٩).

١٤٧٧- قول القرطبي في عصمة الأنبياء:

قال الإمام القرطبي: «واختلف العلماء في هذا الباب، هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص ...

فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم... واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث وهذا ظاهر لا خفاء فيه.

وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها(١٧٣٠) لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم

(١٧٢٩) المسامرة ص٢٢٩.

(١٧٣٠) وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك فقال: « والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها... وعمدة من وافقهم من الفقهاء [أي من وافق المعتزلة ومن على شاكلتهم] أن الإقتداء بالنبي ﷺ في أفعاله مشروع ولولا ذلك ما جاز الاقتداء به، وهذا ضعيف، فإنه قد تقدم أنهم لا يقرون بل لا بد من التوبة والبيان، والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر، فأما المنسوخ والمنهي عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق، فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها فالأفعال التي لم يقر عليها أولى بذلك . وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب فقد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك . وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ : (أنه كان يدعو: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر =

وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير إلزام قرينة فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الحظر أو المعصية ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين ...

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور...، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة، قال: وهذا هو الحق. فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه»[١٧٣١].

١٤٧٨- قول شيخ الإسلام ابن تيمية في عصمة الأنبياء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

= لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في استفتاح الصلاة: (اللهم أنت الملك لا شريك لك أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، قال ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت) ثم مضى ابن تيمية يذكر الكثير من الأحاديث المتضمنة استغفار النبي ﷺ وتوبته. (رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٧٦وما بعدها).

(١٧٣١) تفسير القرطبي ج: ١ ص: ٣٠٧-٣٠٩ (مشذباً ومختصراً مع المحافظة على عبارة القرطبي).

وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ.

فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: ٥٢-٥٣][١٧٣٢].

وقال في موضع آخر: «والله تعالى قص علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب وأما ما ذكره سبحانه أن الاقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها فلم ينهوا عنها ولم يتوبوا منها فهذا هو المشروع فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون المنسوخ من أفعالهم»[١٧٣٣].

ثم تكلم عن عناية الله تعالى بيوسف عليه السلام فذكر ذلك وذكر أن من توبات الأنبياء ما كانت عن أمور هي حسنات بالنسبة لغيرهم فقال: «...فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق [في قصته مع امرأة العزيز] ذنب أصلاً، بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة، ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفاراً [عن ذنب بعينه] كما ذكر توبة الأنبياء كآدم و داود ونوح وغيرهم، وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة ولله الحمد... ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلي به من دواعي الفاحشة وتقواه وصبره في ذلك. وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله

(١٧٣٢) ابن تيمية: رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٦٩.

(١٧٣٣) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٨٠.

اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)»[١٧٣٤].

والآن وقد انتهينا من الكلام في ثناء الله تعالى على رسله وأنبيائه والحكمة من تسجيل زلة الأنبياء وبيان معنى العصمة من الذنوب يمكن أن نتقدم للبحث في نماذج لتوبة الأنبياء في المباحث التالية .

(١٧٣٤) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٥ والحديث أخرجه البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١)، والترمذي (٢٣٩١)، والنسائي (٥٣٨٠).

المبحث الثاني
توبـــة آدم عليه السلام

١٤٧٩- خلق آدم وتكريمه وأكله من الشجرة الممنوعة وتوبته:

خلق الله تعالى آدم وكرمه فنفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، وأعلمه أن الشيطان عدو له ولزوجه، ومن عليه بكل نعيم الجنة إلا شجرة واحدة أمره وزوجه أن لا يقرباها، فوسوس لهما الشيطان بالأكل منها فوقعا في المعصية وأخرجا من الجنة وتابا إلى الله تعالى فتاب الله عليهما، فكانت توبته أول توبة وبها صار قدوة للتائبين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٧].

١٤٨٠- التعليل الراجح للأكل من الشجرة الممنوعة[١٧٣٥]:

والراجح في تعليل أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة اجتماع عدة أمور في نفس آدم، وفيما قاله إبليس وبيان ذلك ما يأتي:

١٤٨١- أولا - نسيان آدم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

والمعنى: ولقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب من الشجرة فنسي هذا العهد أي هذا الأمر بأن لا يقرب من هذه الشجرة، (ولم نجد له عزماً) أي تصمياً في حفظه، أي في حفظ العهد الذي هو أمره بعدم الاقتراب من الشجرة أي بنهيه عن الأكل منها. ولو كان له التصميم على حفظ العهد لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره[١٧٣٦].

(١٧٣٥) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٢٠-٢١ (بتصرف).

(١٧٣٦) تفسير القاسمي ١١/ ١٩٧.

وقال الإمام الرازي في قوله تعالى: (فنسي): وفي نسيان آدم قولان:

(أحدهما): ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان.

(والثاني): إن المراد بالنسيان: الترك، وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها. (ولم نجد له عزماً): على التحفظ والاحتراز عن الغفلة[١٧٣٧].

١٤٨٢- ثانياً - العوامل المساعدة على نسيان آدم:

ولكن هذا النسيان الذي حصل لآدم بالمعنى الذي ذكره الرازي والقاسمي، حتى انخدع بقول إبليس، إنما حصل له لعدة أمور:

أ- بما ذكره ابن حزم وغيره من التأويل لنهي الله تعالى له عن الأكل من الشجرة حيث قال ابن حزم: إن آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن متأولاً وقاصداً إلى الخير، لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً، فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به. وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه[١٧٣٨].

ب- بما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب: أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس أنه ناصح، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات أحدها القسم بالله، ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فظن صدقه، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة

(١٧٣٧) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٤. وانظر أيضا: تفسير زاد المسير(٥/ ٢٢٨) حيث قال: ومعنى (فنسي): « في هذا النسيان قولان: أحدهما: أنه الترك قاله ابن عباس ومجاهد، والمعنى: ترك ما أمر به. والثاني: أنه من النسيان الذي يخالف الذكر حكاه الماوردي. ومعنى (ولم نجد له عزما): العزم: في اللغة توطين النفس على الفعل وفي المعنى أربعة أقوال:

أحدها: لم نجد له حفظاً، رواه العوفي عن ابن عباس، والمعنى: لم يحفظ ما أمر به.

والثاني: صبراً، قاله: قتادة ومقاتل، والمعنى: لم يصبر عما نهي عنه .

والثالث: حزماً، قاله: ابن السائب قال ابن الأنباري...

والرابع: عزماً في العود إلى الذنب ذكره الماوردي... ».

(١٧٣٨) تفسير القاسمي ٢/ ١٠٨.

الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية(١٧٣٩).

ج- قول القرطبي: «إن إبليس أثار في نفس آدم بعض ما جبلت عليه من حب بلوغ المراتب العالية، ومنها مرتبة الملكية، وحب الخلود فيما يكون فيه الإنسان من نعيم، قال تعالى: (حكاية عما قاله إبليس لآدم وزوجه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠](١٧٤٠)، وأردف إبليس هذا الإدعاء بادعاء آخر مقرونا بالحلف بالله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١] فكان هذا كله مسهلاً لوقوع آدم في نسيان ما عهده إليه ربه من عدم الأكل من الشجرة، ومن لزوم التصميم على رعاية هذا العهد، فوقع المحذور وأكل هو وزوجه من الشجرة الممنوعة. قال القرطبي: «قوله تعالى (فدلاهما بغرور): أوقعهما في الهلاك، قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما، وقال قتادة: حلف بالله لهما حتى خدعهما...»(١٧٤١).

١٤٨٣- ما بعد الأكل من الشجرة الممنوعة (١٧٤٢):

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

(١٧٣٩) تفسير القاسمي ٢/ ١٠٨-١٠٩.

(١٧٤٠) فكان من وسوسة الشيطان لهما أنه (وعدهما ومناهما) كذباً وغروراً كما أخبر الله تعالى عنه ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ومن تطبيقات ذلك ما ورد في هاتين الآيتين: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢٠-١٢١]، وقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وكان من وسائل الشيطان في الخداع - كما تقدم - أن أقسم بالله كاذباً أنه يريد النصح لهما قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢]. وكان آدم وحواء يظنان أنه ليس هنالك من يقسم بالله كاذبا قط.

(١٧٤١) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ١٨٠.

(١٧٤٢) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٢١-٢٢ (بتصرف).

قوله تعالى: (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما) أي لما أكلا من الشجرة الممنوعة أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما[١٧٤٣]. وقيل: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما[١٧٤٤]. وقيل: كان لباسهما من حلل الجنة[١٧٤٥]. وقال صاحب تفسير المنار: لا دليل على نوع اللباس الذي كانا يلبسانه في الجنة، ولم يصح به أثر عن المعصوم ﷺ[١٧٤٦]. والراجح أن يقال: أنه كان لآدم وزوجه لباس يسترهما ويستر سوءاتهما والله أعلم بحقيقته ونوعه وأن هذا اللباس نزع عنهما بعد أكلهما من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما.

وقوله تعالى: (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا بها بعد أن نزع عنهما لباسهما[١٧٤٧].

وقوله تعالى: (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين)، والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ، أي قال لهما ربهما: ألم أنهكما وأحذركما من الأكل من تلك الشجرة وأخبركما بأن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة فلا تطيعاه لئلا يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغيد إلى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في الحياة، وهذا ما ورد في سورة طه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وإنما أسند الشقاء إلى آدم وحده دون زوجه حواء مع اشتراكهما في الأكل من الشجرة لأن في ضمن شقاء الرجل - وهو قيم وأمير على أهله - شقاؤهم، كما أنه في ضمن سعادته سعادتهم، فاختص الكلام بإسناده إليه وهو يعلل ذلك بأنه أريد بالشقاء في الآية الكريمة التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة[١٧٤٨].

(١٧٤٣) تفسير القاسمي ٧/ ٣٨.
(١٧٤٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٦، تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٧.
(١٧٤٥) صفوة التفاسير ١/ ٢٣٩.
(١٧٤٦) تفسير المنار: ٨/ ٣٤٩.
(١٧٤٧) صفوة التفاسير ١/ ٢٣٩.
(١٧٤٨) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٥.

١٤٨٤- اعتراف آدم وزوجه بالخطيئة:

ولما سمع آدم وزوجه نداء الله تعالى لهما، وما تضمنه ذلك النداء من العتاب والتوبيخ على أكلهما من الشجرة المنهي عنها، علما بأن الشيطان قد خدعهما وأوقعهما في مخالفة الرب، فندما وحزنا وتوجها إلى الله تعالى معترفين بالخطيئة تائبين من الذنب طالبين المغفرة والرحمة من ربهم الغفور الرحيم، قال تعالى حكاية عما قالاه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

١٤٨٥- توبة الله على آدم وزوجه:

وكان ما دعا به آدم وزوجه وهو قولهما ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، هو الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وهي قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧] قالها آدم عليه السلام ودعا بها بخشوع وتضرع إلى الله تعالى وتبعته في ذلك زوجته، وهكذا تاب الله على آدم وزوجه[١٧٤٩]. وإنما اكتفي بذكر توبة آدم دون ذكر توبة زوجه حواء لأنها كانت تبعاً له، وقد ذكر الاثنان في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية[١٧٥٠].

١٤٨٦- إخراج آدم وزوجه من الجنة:

لقد تاب الله على آدم وزوجه كما قلنا، ولكن هذه التوبة لم تمنع إخراجهما من الجنة[١٧٥١]، لأن الله تعالى قال لهما بعد دعائهما ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى

(١٧٤٩) تفسير المنار ٢٨/ ٣٥٠-٣٥١.

(١٧٥٠) تفسير الرازي ٣/ ٢٦.

(١٧٥١) قلت: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٣٧-٣٨]، فأخبر أنه تاب عليه بالكلمات التي تلقاها منه، وقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فأخبر أنه أمرهم بالهبوط عقب هذه الكلمات، وأخبر أنه تاب عليه عقب الكلمات وأمره بالهبوط، فكان أمره بالهبوط عقب الكلمات التي تلقاها منه، وهي قولهما: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أو كلمات تشبه هذه الكلمات، ذكر ذلك =

﴿ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، والخطاب لآدم وزوجه حواء وإبليس، أي اهبطوا من الجنة بعضكم وهو الشيطان، عدو لبعض وهو آدم وزوجته وذريتهما، والمتبادر أن إخراج آدم وزوجه من الجنة كان عقاباً على تلك المعصية، معصية الأكل من الشجرة، لكون هذه المعصية ظلماً منهما لأنفسهما وهو نوع من العقاب الذي قضت به سنته تعالى بأن يكون أثراً طبيعياً للعمل السيئ مترتباً عليه ترتب المسبب على سببه. وأما النوع الآخر من العقاب على العمل السيئ من حيث هو عصيان الرب تعالى الذي يكون في الآخرة، فقد غفره الله تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثر المعصية من النفس وجعلتها أهلا لاصطفائه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]»[١٧٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، أي ولكم في الأرض استقرار أو مكان تستقرون فيه ومتاع تنتفعون به في معيشتكم (إلى حين) أي إلى زمن مقدر في علم الله تعالى وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم والمتاع هو ما ينتفع به[١٧٥٣].

١٤٨٧- المسارعة إلى التوبة دون إبطاء:

«عندما وقع آدم وزوجه في المعصية ناداهما ربهما مذكراً لهما بنهيه عن الأكل من الشجرة التي عينها لهما، فسارع آدم وزوجه إلى الاعتراف بالذنب طالبين المغفرة والرحمة من ربهم الكريم قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

= طائفة كثيرة من المفسرين، ومن ذكر أن الكلمات التي تلقاها من ربه غير هذه لم يكن معه حجة في خلاف ظاهر القرآن، وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة في هذه الكلمات أشياء كثيرة كلها تدور على ما ذكره الله في كتابه من قول آدم و حواء: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) » (ابن تيمية: رسالة الرد على البكري ١/ ٦٨).

(١٧٥٢) تفسير المنار ٨/ ٣٥١.

(١٧٥٣) تفسير المنار ٨/ ٣٥٢.

هكذا اعتراف سريع بالذنب مقرونا بندم شديد مفهوم من قولهما (ظلمنا أنفسنا) وتوبة خالصة مقرونة برجاء قبولها لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين، وهذا يفهم من قولهما: (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين). فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التوبة وطلب المغفرة من الله تعالى مع علو منزلتهما فالواحد منا أولى بذلك(١٧٥٤) وقد بادرا إلى التوبة دون إبطاء وهكذا يجب أن يفعل المسلم إذا وقع في المعصية»(١٧٥٥).

١٤٨٨- كيفية التوبة بالكلمات التي تلقاها آدم من ربه:

وقد ورد عن السلف تفصيل للكلمات التي دعا بها آدم وزوجه ربهما بخضوع وخشوع وتذلل واعتراف بالذنب وطلب مغفرته، الوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

جاء في تفسير زاد المسير:

«قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]: (تلقى) بمعنى أخذ، وقبل: قال ابن قتيبة: كأن الله تعالى أوحى إليه أن يستغفره ويستقبله بكلام من عنده ففعل ذلك آدم (فتاب عليه)...

وفي الكلمات أقوال:

أحدها: أنها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء الخراساني وعبيد بن عمير وأبي بن كعب وابن زيد. [قلت: وهذا قالاه كما أخبر به القرآن، ولكن «الكلمات» قد لا تكون مقصورة عليه كما تدل عليه بعض أقوال السلف والمفسرين](١٧٥٦).

(١٧٥٤) تفسير الرازي ٣/ ٢٦.

(١٧٥٥) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٣٠.

(١٧٥٦) قال الطبري في تفسيره (ج: ١ ص: ٢٤٤) بعد أن ذكر جملة من أقوال السلف في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: ومن الكلمات أيضاً: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).

والثاني: أنه قال: أي رب، ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك إلي قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسجد لي ملائكتك وتسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال نعم، حكاه السدي عن ابن عباس[١٧٥٧].

والثالث: أنه قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني فأنت خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد وقد ذكرت أقوال من كلمات الاعتذار تقارب هذا المعنى.

قوله تعالى: (فتاب عليه): أصل التوبة: الرجوع، فالتوبة من آدم رجوعه عن المعصية وهي من الله تعالى رجوعه عليه بالرحمة، (والتواب) الذي كلما تكررت توبة العبد تكرر قبوله...»[١٧٥٨].

(١٧٥٧) وانظر أيضا: تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٨٢ حيث قال: « وقال السدي عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال قال آدم ﷺ يارب ألم تخلقني بيدك قيل له بلى ونفخت في من روحك قيل له بلى قال أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة قال نعم وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم في مستدركه ٢٥٤٥ من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

(١٧٥٨) زاد المسير ج: ١ ص: ٦٩ -٧٠. وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٤٥) بعد أن حكى الأقوال في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: « وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفاظ فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقى آدم كلمات، فتلقاهن آدم من ربه، فقبلهن وعمل بهن وتاب بقيله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئته، معترفاً بذنبه، متنصلاً إلى ربه من خطيئته، نادماً على ما سلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه، وندمه على سالف الذنب منه . والذي يدل عليه كتاب الله أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه هن الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه معترفاً بذنبه، وهو قوله: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وليس ما قاله من خالف قولنا هذا من الأقوال التي حكيناها بمدفوع قوله، ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه . وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم من قيله الذي لقاه إياه فقاله تائباً إليه من خطيئته تعريف منه جل ذكره جميع المخاطبين بكتابه كيفية التوبة إليه من الذنوب ».

ثم كان الامتحان والابتلاء لآدم وزوجه وبنيه في الأرض، بعد أن أهبطه الله تعالى مزوداً بتجربة الخطيئة والتوبة، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

قال ابن كثير: «قال الرازي: اعلم أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه: الأول: إن من يتصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان ونيل فوز العابد

أنسيت ربك حين أخرج آدماً ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القاسم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها»[١٧٥٩].

(١٧٥٩) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٨٢-٨٣.

المبحث الثالث

تـوبـة نـوح عليه السلام

١٤٨٩- خلاصة قصة نوح عليه السلام :

«نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام [(١٧٦٠)]، أرسله الله تعالى إلى قومه، ليأمرهم بعبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه من أصنام ونحوها، وخوفهم من عذاب الله إن خالفوه ولم يؤمنوا به، ولكنهم استمروا على كفرهم.

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً[(١٧٦١)]. وظل يدعوهم هذه المدة ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية، وجادلهم وجادلوه في دعوته، ومع هذا كله لم يؤمن من قومه إلا القليل.. وقد أخبره الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وهم قلة كما قلنا.

وحينئذ دعا نوح على قومه فقال تعالى عن دعاء نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]. قال الضحاك: «فدعا عليهم نوح لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن» ذكر ذلك الإمام القرطبي في تفسيره عن الضحاك[(١٧٦٢)]. وقال ابن كثير: وإنما دعا نوح على قومه بهذا الدعاء لخبرته بهم، أي لخبرته بقومه ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما[(١٧٦٣)].

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوته فأمره بصنع السفينة فلما أتم صنعها وحان وقت هلاكهم بالغرق أمره الله تعالى بأن يحمل فيها ما أخبرنا به، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ

(١٧٦٠) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٣ و٤/ ٧١.

(١٧٦١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤].

(١٧٦٢) تفسير القرطبي ٩/ ٢٩.

(١٧٦٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٧.

ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]، وهكذا أهلكهم الله بالغرق بعد أن أمهلهم هذه المدة الطويلة لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وهذا جزاء الظالمين الكافرين»[(١٧٦٤)].

١٤٩٠- نداء نوح ربه بشأن ابنه ثم توبته من ذلك[(١٧٦٥)]:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

ذهب الإمام ابن كثير في تفسيره إلى أن هذا النداء من نوح لربه هو سؤال عن حال ولده الذي غرق مع أنه من أهله، قال ابن كثير: «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق (فقال رب إن ابني من أهلي) أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) أي ليس من الذين وعدت بنجاتهم، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول) فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام»[(١٧٦٦)].

وذهب غير ابن كثير من المفسرين إلى أن هذا النداء من نوح كان في إثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب، (فقال رب إن ابني من أهلي) أي فكان نداؤه أن قال: يا رب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة (وإن وعدك الحق) الذي لا خلف فيه، وهذا منه، (وأنت أحكم الحاكمين) أي أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم وخيرهم حكماً.

ومراد نوح عليه السلام بهذا أن ينجي ابنه الذي تخلف عن السفينة بعد أن دعاه إليها، فامتنع معللا نفسه بأن يأوي إلى جبل يعتصم به من الغرق، ولم يقتنع بقوله له: (لا عاصم

(١٧٦٤) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ١٢٩-١٣٠.

(١٧٦٥) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ١٤٩-١٥١.

(١٧٦٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٧-٤٤٨.

اليوم من أمر الله إلا من رحم)، فالمعقول أن الدعاء وقع بعد هذه المحاورة مع ابنه وقبل أن يحول بينهما الموج ويغرق الابن[١٧٦٧].

(قال يا نوح إنه ليس من أهلك) الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة لإنجائهم من الغرق، والسبب: (إنه عمل غير صالح) كأنه لفساده واجتنابه للصلاح، والتزامه العمل غير الصالح كأنه صار نفس العمل غير الصالح. ومن المعلوم أن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين ويوجب براءة بعضهم من بعض[١٧٦٨] فكأن ابن نوح لم يعد من أهله لكفره، قال الإمام الرازي: «وهذه الآية (إنه ليس من أهلك) تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله: (إنه ليس من أهلك)»[١٧٦٩].

وقد يقال: كيف وقع هذا الدعاء مع نوح؟ أي دعاؤه ربه أن ينجي ابنه، وقد علم أن ﴿ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠] هم الكافرون الذين قضى الله بهلاكهم وكان ابنه منهم، ولا يعقل أن يخفى عليه أمره؟.

والجواب: يحتمل أن نوحاً حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظن أنه جنح إلى الإيمان، وصار من أهله الذين وعد الله بنجاتهم. ويحتمل أن يكون قد فهم أن ابنه غير داخل في عموم قوله تعالى: (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن)، لأنه تعالى جعل الناجين صنفين: أهله إلا من استثني، ومن آمن من قومه. فجاز في فهمه عليه السلام أن يؤمن من أهله من كان كافراً، لأنهم صنف قائم بذاته، وليسوا قسماً من الصنف الآخر، وهم المؤمنون من قومه، ووافق هذا الفهم وقواه رحمة الأبوة وشفقتها، فسأل الله تعالى ما سأله بشأن ابنه، فعاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: (فلا تسألني ما ليس لك به علم) أي فلا تسألني في شيء من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب[١٧٧٠]. (إني أعظك

(١٧٦٧) تفسير المنار ١٢/ ٨٣-٨٤.
(١٧٦٨) تفسير المنار ١٢/ ٨٤.
(١٧٦٩) تفسير الرازي ١٢/ ٢-٣.
(١٧٧٠) تفسير المنار ١٢/ ٨٤-٨٥.

أن تكون من الجاهلين) أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك منه كراهية أن تكون من الجاهلين، أي الآثمين[1771].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. والمعنى أنه تعالى لما قال له: (فلا تسألني ما ليس لك به علم) فكأنه قال عند ذلك: قبلت يا رب هذا التكليف ولا أعود إليه، إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا قال: (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم)، ثم أعلن توبته مما قاله، وذلك بقوله: (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)، لأن التوبة تقوم بأمرين: (الأول) في المستقبل وهو العزم على الترك، وإليه الإشارة بقوله: (إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم)، (والثاني): في الماضي: وهو الندم على ما صدر منه، وإليه الإشارة بقوله: (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)[1772].

(١٧٧١) تفسير القرطبي ٩/ ٤٨.

(١٧٧٢) تفسير الرازي: ١٨/ ٥.

المبحث الرابع
توبة موسى عليه السلام[1773]

١٤٩١- توبة موسى عليه السلام من قتل القبطي وما كان يريد قتله:

ذكر القرآن الكريم توبة موسى عليه السلام مما حصل منه من قتل القبطي، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:١٤-١٥].

والمعنى: لما بلغ موسى شدة البدن (واستوى) أي تكامل عقله وحزمه وذلك ببلوغ الأربعين من عمره، آتاه الله (حكماً) أي حكمة، (وعلماً)أي معرفة بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمات النبوة[1774].

ودخل موسى المدينة - مدينة من مدن مصر - في وقت القائلة وهو وقت الغفلة حيث إن الغالب نوم الناس في هذا الوقت، فوجد في المدينة رجلين يتنازعان، أحدهما من شيعة موسى أي من بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، (فاستغاثه الذي من شيعته) أي طلب منه العون والنصرة على خصمه لأنه كان مظلوماً (فوكزه موسى) أي ضربه بجمع كفه (فقضى عليه) أي فقتله، وما كان يريد قتله، وإنما كان يريد دفع ظلمه، فقال موسى: (هذا) أي قتل القبطي (من عمل الشيطان) أي من إغوائه[1775].

١٤٩٢- موسى يستغفر ربه مما فعله:

ندم موسى على ما صدر منه واعتبر قتل القبطي الكافر من عمل الشيطان وبأنه ظلم لنفسه، فاستغفر ربه من ذلك فغفر له، قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى

(١٧٧٣) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٣٠٤-٣٠٦.

(١٧٧٤) تفسير ابن عطية ١١/ ٢٧٣.

(١٧٧٥) تفسير القرطبي ١١/ ٢٥٩-٢٦١ .

﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]. وإنما اعتبر موسى قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه، لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنباً يستغفر منه، وإن كان غير متعمد[١٧٧٦]. لأن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، بل إن موسى عليه السلام لم يزل يعدد ذلك على نفسه مع علمه أنه قد غفر له حتى إنه في يوم القيامة يقول: (إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها) كما جاء في حديث الشفاعة[١٧٧٧].

١٤٩٣- موسى يعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين:

قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، قال الإمام ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: «ثم قال موسى عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: رب بنعمتك علي وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم أن لا أكون معيناً للمجرمين[١٧٧٨]، وقد احتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمورهم، ورأوا أن هذه الآية تتناول ذلك، وهذا ما ذهب إليه الفقيه التابعي عطاء بن أبي رباح فقد روي عنه قوله: «لا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين[١٧٧٩].

(١٧٧٦) تفسير الزمخشري ٣/ ٣٩٨.

(١٧٧٧) تفسير ابن عطية ١١/ ٢٧٦، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٦١.

(١٧٧٨) تفسير ابن عطية ١١/ ٢٧٦.

(١٧٧٩) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٣، وتفسير ابن عطية ١١/ ٢٧٧.

المبحث الخامس

تـوبـة داود عليه السلام

١٤٩٤- توبة داود عليه السلام من التسرع في الحكم:

ذكر الله تعالى توبة داود عليه السلام من التسرع في الحكم من غير سماع الطرف الثاني في الدعوى، وإصدار الحكم لمصلحة من ظنه مظلوماً من غير استكمال أصول المرافعة التي تحقق العدالة، والقرآن الكريم إذ يذكر هذه القصة فإنما يرشد إلى دستور الحكم ودستور القرار الصائب الذي يوصل إلى الحق والعدل والذي بدونه لا يمكن أن يتحقق العدل.

١٤٩٥- قصة الخصمين مع داود [(١٧٨٠)]:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص: ٢١-٢٢]. (الخصم): يطلق على المفرد والمثنى والجمع، والمراد به في هذه الآية: ملكان جاءا بصورة آدميين، وقد (تسوروا المحراب)، أي أتوا داود من أعلى سور المحراب. أي علو سوره ونزلوا على داود من فوق المحراب، والمحراب هو: الموضع الأرفع من الدار أو المسجد وهو موضع التعبد. (ففزع منهم) أي خاف منهم، وإنما كان ذلك لأنه عليه السلام كان في محرابه، ودخلوا عليه من غير استئذان ومن غير باب الدخول، وكان دخولهم عليه ليلاً، فإن قيل: لم لم يأمر داود عليه السلام بإخراجهم وكان دخولهم بالكيفية التي ذكرناها؟ والجواب - كما يبدو- اعتذارهم بأن الموكلين على قصر داود أو على بابه لم يأذنوا لهم بالدخول، فاضطروا إلى الدخول عليه عن طريق التسور، لئلا يتفاقم الخصام بينهما، فقبل داود اعتذارهما. وقالوا له: (لا تخف) فما جئنا لنفتك بك ولا للاعتداء عليك وإنما نحن (خصمان بغى بعضنا على بعض) أي شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك بسبب أن أحدنا بغى على الآخر بتعديه على حقوقه وخروجه على واجبه نحوه، (فاحكم بيننا

(١٧٨٠) العنوان المشار إليه والعناوين الجانبية التابعة له: د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة الدعاة ١/ ٤١٢-٤١٦.

بالحق) أي بما يطابق شرع الله، (ولا تشطط) أي تبعد عن الحق ولا تتجاوزه، (واهدنا إلى سواء الصراط) أي وسطه، وهذا مثل ضرب لعين الحق وعدم الميل عنه[(١٧٨١)].

١٤٩٦- موضوع دعوى الخصم:

وبعد أن طمأن الخصمان داود عليه السلام، وبينا له أنهما ما جاءا للاعتداء عليه وإنما جاءا للتحاكم إليه، بدأ أحدهما بعرض دعواه أو شكواه فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي أن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي أنثى من الضأن، ولي نعجة واحدة، أي فلم ينظر إلى غناه عنها ولا إلى افتقاري إليها، بل أراد التغلب علي: (فقال أكفلنيها) أي: ملكنيها بأن تجعلني كافلها كما أكفل ما تحت يدي، أو بمعنى: اجعلها كفلي أي نصيبي: (وعزني في الخطاب) أي وقهرني وغلبني في المكالمة، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل[(١٧٨٢)].

١٤٩٧- اعتراض ودفعه:

قلنا: إن المراد بالخصم فيما نتحدث عنه، ملكان جاءا إلى داود بصورة آدميين، فكيف جاز لهما نسبة البغي إلى أحدهما على الآخر، والادعاء بوجود الخصومة بينهما، وقول أحدهما: (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة)، ولا حقيقة لشيء مما ادعياه؟ أليس هذا من الكذب الذي لا يجوز نسبته إلى الملائكة وهما منهم؟ والجواب: ما قاله الملكان اللذان جاءا بصورة آدميين، هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الآدميين، كما نقول في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمر له أربعون شاة وأنت تشير إليهما فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمر لا قليل ولا كثير من الشياة[(١٧٨٣)].

١٤٩٨- داود يصدر حكمه في الدعوى:

قال تعالى مخبرا عما حكم به داود في فرضية الخصم: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ

(١٧٨١) تفسير ابن عطية ١٢/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ١١/ ١٦٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣١.

(١٧٨٢) تفسير الزمخشري ٤/ ٨٣، وتفسير القاسمي ١٤/ ١٥٤-١٥٥.

(١٧٨٣) تفسير الزمخشري ٤/ ٨٥.

مَّا هُمْۗ ﴾ [ص: ٢٤]. أي قال داود ﷺ: لقد ظلمك بطلب نعجتك الوحيدة ليضمها إلى نعاجه مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها (وإن كثيراً من الخلطاء) أي الشركاء أو الإخوان والأصدقاء المتخالطين في شؤونهم (ليبغي بعضهم على بعض) بغي الأعداء، مع أن من واجب خلطتهم وأخوتهم النصفة والعدل فيما بينهم، وعدم تعدي بعضهم على حقوق بعض، وهذا في الأقل من حقوق بعضهم على بعض إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي فإنهم لا يبغون: (وقليل ما هم) أي وهم قليل(١٧٨٤).

١٤٩٩- إصدار الحكم قبل سماع دفع المدعى عليه:

أخبرنا الله تعالى عن داود ﷺ أنه سمع قول المتظلم من الخصمين وهو المدعي، ولم يخبرنا الله تعالى عن داود أنه سأل المدعى عليه - المتظلم منه - عما يقوله المدعي، وهل يقر بما قاله وادعاه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع به دعوى المدعي وتظلمه؟ فكان ظاهر ذلك أن داود ﷺ رأى في المدعي - المتظلم - مخائل الضعف والهضيمة فجعل أمره على أنه مظلوم، ودعاه ذلك أن لا يسأل الخصم الآخر - المتظلم منه -، فقال داود مستعجلاً للمتظلم: (لقد ظلمك) مع إمكان أنه لو سأل المتظلم منه لنفى ذلك ولم يعترف به(١٧٨٥).

١٥٠٠- امتحان داود بالدعوى المرفوعة إليه:

قال تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، (وظن) معناه: شعر وعلم، والعرب تعبر بهذه الكلمة عن العلم الذي يقارب اليقين، ولكن ليس لهذه الكلمة معنى اليقين التام البتة، فبينها وبين اليقين درجة(١٧٨٦).

[قلت: وهذا الذي ذهب إليه الإمام ابن عطية في معنى (ظن) غير مسلم به، والصواب على ما نرى خلافه لقوله تعالى في وصف المؤمنين مثنيا عليهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦]، والظن هنا لا يحتمل سوى اليقين البتة لأن

(١٧٨٤) تفسير الزمخشري ٤/ ٨٧، تفسير القاسمي ١٤/ ١٥٥.

(١٧٨٥) تفسير القرطبي ١٥/ ١٧٥.

(١٧٨٦) تفسير ابن عطية ١٢/ ٤٤٧ -٤٤٨.

أي شك يتطرق إليه ينقض الإيمان أو على الأقل ينقصه، والله تعالى لا يثني عليهم بنقصان الإيمان، والصواب - على ما نرى - ما قاله جمهور المفسرين، ومنهم القرطبي حيث قال: «قوله تعالى: (وظن داود أنما فتناه) أي ابتليناه و (ظن) معناه: أيقن، قال أبو عمر والفراء: ظن: بمعنى أيقن»[1787]].. وقوله تعالى: (وظن داود أنما فتناه) أي علم داود أن الله تعالى ابتلاه أي امتحنه بتلك الحكومة أي بتلك الدعوى.

١٥٠١- داود يستغفر ربه من تعجله بالحكم:

قال تعالى: (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب)، واختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه داود عليه السلام على أقوال: أرجح منها قول من قال: أنه عليه السلام حكم لأحد الخصمين في الدعوى التي رفعها إليه الخصمان قبل أن يستمع إلى حجة الخصم الآخر، وإنما اكتفى باستماع ادعاء المتظلم المدعي فقط[1788].

وقال الإمام أبو جعفر النحاس في قوله تعالى: (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك) فيقال: إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام لأنه قال: (لقد ظلمك) من غير تثبت ببينة ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا كذا أو لم يكن. وقد قال الإمام القرطبي عن هذا القول الذي ذكره النحاس: وهو حسن إن شاء الله تعالى[1789]. وقال الإمام البرهان البقاعي في تفسيره على ما يرويه عنه القاسمي في تفسيره، في قوله تعالى: (فغفرنا له ذلك) أي وقوع داود عليه السلام في إسناد الظلم إلى أحد الخصمين بدون سماع لكلامه ودفعه لما أسند إليه أو إقراره به. ثم قال البقاعي رحمة الله عليه: وهذه الدعوى - دعوى الخصمين أمام داود - تدريب لداود عليه السلام في الأحكام، وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة بجميع أموره على الدوام[1790]. وأيد البقاعي ما ذهب إليه بقوله: «ولما ذكر ربنا سبحانه وتعالى هذا، ربما

(١٧٨٧) تفسير القرطبي:١٥/ ١٧٩، وانظر من جمهور المفسرين: الآلوسي: روح المعاني ٢٣/ ١٨٢ ورد على ابن عطية في إنكاره الظن بمعنى اليقين، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤، والشوكاني: فتح القدير ٤/ ٤٢٦، وتفسير النسفي ٤/ ٣٧.

(١٧٨٨) تفسير القرطبي ١٥/ ١٨٠.

(١٧٨٩) تفسير القرطبي ١٥/ ١٧٥.

(١٧٩٠) تفسير القاسمي ١٥/ ١٥٨.

أوهم شيئاً في مقام داود عليه السلام فدفعه تعالى بقوله: (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)، فقصة الخصمين مع داود عليه السلام وردت للتدريب في الحكم لا لشيء آخر[1791].

وقال سيد قطب رحمه الله في بيان وجه الفتنة التي امتحن الله بها نبيه داود عليه السلام: «شخصين تسورا على داود المحراب ففزع منهم فبادرا يطمئنانه وقالوا: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، وجئنا للتقاضي أمامك، والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا تحتمل التأويل، ولهذا اندفع داود عليه السلام يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يسأله عما يقول رداً على ادعاء خصمه، وهكذا أصدر حكمه قائلاً: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان - فقد كانا ملكين جاءا للامتحان - امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل وليتبين الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكن القاضي عليه أن لا يستثار وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة الإدلاء بقوله وحجته فقد يتغير وجه المسألة كلها أو بعضه وينكشف أن ذلك الظاهر كان غير صحيح، عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء: (وظن داود أنما فتناه) وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب... (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)»[1792].

ومعنى (وخر راكعاً) أي خر ساجداً وقد يعبر عن السجود بالركوع (وأناب) أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله[1793]، وخطيئته هي استعجاله في إصدار الحكم قبل أن يسمع حجة الخصم الآخر، وذكرنا أقوال من ذهب إلى ذلك وهو ما رجحناه. وقوله تعالى: (فغفرنا له ذلك) أي غفرنا له ما استغفر منه (وإن له عندنا لزلفى) أي لقربا (وحسن مآب) أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة[1794].

(١٧٩١) تفسير القاسمي ١٤/ ١٥٨-١٥٩.

(١٧٩٢) تفسير سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

(١٧٩٣) تفسير القرطبي ١٥/ ١٨٢.

(١٧٩٤) تفسير القاسمي ١٤/ ١٥٦.

المبحث السادس
توبة يونس عليه السلام [1795]

١٥٠٢- التعريف بيونس وبمن أرسل إليهم:

هو يونس بن مَتَّى عليه السلام، وهو من رسل الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩] وقد بعثه الله تعالى إلى أهل قرية، قال المفسرون: إنها قرية نينوى من أرض الموصل، وإن يونس عليه السلام دعا أهل هذه القرية إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فأبوا عليه وظلوا على كفرهم[1796]، وكان من خبرهم وخبر يونس ما نذكره في الفقرات التالية.

١٥٠٣- إيمان قوم يونس قبل معاينتهم العذاب:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها وعدم إيمانها برسولها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته، كما فعل فرعون (فنفعها إيمانها) بأن يقبله الله منها، ويكشف عنها بسببه العذاب (إلا قوم يونس) أي: لكن قوم يونس لما آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا (ومتعناهم إلى حين) أي: إلى آجالهم[1797]، ومعاينة العذاب التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو حضور الموت الإنسان، كما حدث لفرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا إلى هذا الحد[1798]، أي: إنهم آمنوا قبل وقوع العذاب بهم فعلاً، أو قبل معاينته.

(١٧٩٥) العنوان المشار إليه والعناوين الجانبية التابعة له: د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٤٦١- ٤٦٧.

(١٧٩٦) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩١.

(١٧٩٧) تفسير الزمخشري ٢/ ٣٧١، تفسير القاسمي ٩/ ٨٢.

(١٧٩٨) تفسير ابن عطية ٧/ ٢٢٣.

وروي: أنهم رأوا علاماته، ورؤية علاماته لا تعني معاينة العذاب أو وقوعه بهم فعلاً. إلا أن قوم يونس علموا بقرب وقوع العذاب بهم من خروج نبيهم من بينهم الذي أنذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا[1799].

١٥٠٤- يونس يخرج مغاضباً لقومه قبل إيمانهم:

قال تعالى عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي: اذكر (ذا النون)، وهو لقب ليونس عليه السلام لابتلاع النون إياه، والنون: الحوت، (إذ ذهب مغاضباً) أي: خرج يونس مغاضباً لقومه من أجل ربه، بعد أن أنذرهم أن العذاب سينزل بهم في مدة حددها لهم لبقائهم على الكفر، فيونس عليه السلام غضب على قومه لكفرهم بربه، فكان ذنبه: خروجه من بينهم من غير إذن ربه، إذ كان عليه أن يصابر، ويبقى بين قومه، وينتظر الإذن من الله تعالى بالخروج والمهاجرة عنهم.

ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لهم، لخوفهم حلول العذاب بهم عند مغادرته[1800].

١٥٠٥- معنى: (فظن أن لن نقدر عليه):

قلنا إن يونس عليه السلام خرج مغاضباً لقومه من غير إذن من ربه، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى عن يونس: (فظن أن لن نقدر عليه):

فذهب جمهورهم إلى أن المراد بهذا القول: فظن يونس أن لن يضيق الله عليه في مغاضبته لقومه، وخروجه من بينهم قبل أن يأذن الله له بالخروج.

وذهب آخرون إلى أن المراد هو: فظن يونس أن لا يقضي الله عليه بعقوبة من جراء خروجه من بين قومه بدون إذن من ربه[1801].

(١٧٩٩) تفسير المنار ١١/ ٤١٢
(١٨٠٠) تفسير الزمخشري ٣/ ١٣١، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٢٩، تفسير ابن كثير٣/ ١٩٠.
(١٨٠١) تفسير الزمخشري ٣/ ١٣٢، تفسير القرطبي ١١/ ٣٣١.

١٥٠٦- يونس يُلقى في البحر فيلتقمه الحوت:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢]، ولما خرج يونس من قومه مغاضباً لهم، بعد أن أنذرهم نزول العذاب بهم. وقد سمى الله تعالى خروجه وتباعده عن قومه من غير إذن ربه «إباقاً» على طريقة المجاز.

فذهب وركب في الفلك المشحون، أي: في السفينة المملوءة وقد أحس ركابها بثقلها، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم، يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس. قال تعالى: (فساهم فكان من المدحضين) أي: فقارع فكان من المُدحضين، أي: من المغلوبين، حيث وقعت القرعة عليه. فتجرد يونس من ثيابه، ثم ألقى بنفسه في البحر (فالتقمه الحوت وهو مُليم) أي: أرسل الله حوتاً التقمه، وهو - أي: يونس - قد أتى بما يلام عليه[١٨٠٢].

١٥٠٧- يونس يدعو ربه وهو في بطن الحوت:

قال تعالى عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. بعد أن وقعت القرعة على يونس وألقى بنفسه في البحر والتقمه الحوت، وأخذ يسير به، وهو في بطنه يذكر الله ويسبحه دعا ربه وهو في ثلاث ظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[١٨٠٣].

وكان دعاؤه عليه السلام بتقديم إقراره واعترافه وإيمانه أن لا إله إلا الله، ثم أعقب ذلك بتسبيح الله تعالى، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، فقال: (سبحانك) ثم أقر بأن ما فعله وهو خروجه من بين قومه قبل أن يأذن الله له بالخروج - هذا الفعل منه - اعتبره ظلماً.

(١٨٠٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٢٣، تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٩٩ وج ٤ ص ٢٠.

(١٨٠٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٣٣، تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٩٢.

١٥٠٨- استجابة الله لدعاء يونس:

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨] أي: فاستجبنا له دعاءه (ونجيناه من الغم) أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، بأن قذفه الحوت إلى الساحل[١٨٠٤].

وقال بعضهم في مضمون استجابة دعاء يونس وما تلاها: بأنه لما خرج يونس من بين قومه مغاضباً لهم، من غير أمر ولا إذن من الله تعالى، كان ذلك ذنباً كما أشار إليه بقوله: (إني كنت من الظالمين)، فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه. فالاستجابة عبارة عن قبول توبة يونس، وعدم مؤاخذته، وما حصل ليونس بعد هذه الاستجابة من إلقاء الحوت له بالساحل، وما أعقب هذا الإلقاء، هذه كله زيادة إحسان من الله على مطلوبه عليه السلام[١٨٠٥].

١٥٠٩- وكذلك ننجي المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨] وهذه الآية تبين لنا سنة من سنن الله تعالى، وهي أنه تعالى كما نجى يونس عليه السلام من الغم الذي كان فيه، فإنه تعالى ينجي المؤمنين، بما يشاء وكيف يشاء: ينجيهم من الكرب والهم والغم والضيق والشدائد التي تحل بهم، ما داموا متصفين بصفات المؤمنين، ومتحققة فيهم معاني الإيمان، التي بها يستحقون اسم المؤمنين. فشرط تولي الله نجاتهم من كل غم وكرب: أن يكونوا مؤمنين.

فإذا تحقق فيهم شرط الإيمان، تحقق لهم ما وعد الله به المؤمنين، وهو نجاتهم من الشدائد.

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: (وكذلك نُنجي المؤمنين) أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء. فقد جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت:

(١٨٠٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٢.

(١٨٠٥) تفسير القاسمي ج ١١ ص ٢٨٨.

(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»، ورواه أيضاً الترمذي والنسائي[(١٨٠٦)].

١٥١٠- العمل الصالح من دواعي تفريج الكربات:

قال تعالى عن يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] قيل: لولا ما تقدم له من العمل الصالح في الرخاء (للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون) أي: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بـ (فلولا أنه كان من المسبحين) هو قول يونس ﷺ في بطن الحوت: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وقال بعض أهل العلم: (من المسبحين) أي: من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: (من المسبحين) أي: من المصلين، وعن قتادة: كان يونس ﷺ كثير الصلاة في الرخاء، قال: وكان يقال: العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صُرع وجد متكئاً[(١٨٠٧)].

وهذا كله ترغيب من الله في إكثار المؤمن من ذكره تعالى بما هو أهله، وإقباله على عبادته وعلى كل عمل صالح، وهو ما يحبه الله ويرضاه، لينفعه في الشدائد والضيق.

١٥١١- الحوت يقذف بيونس إلى الساحل:

قال تعالى عن يونس: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٦] أي: حملنا الحوت على طرح يونس بالعراء، وهو الأرض الفيحاء التي ليس فيه نبت ولا بناء. (وهو سقيم) أي: ضعيف البنية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد، (وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين) واليقطين: كل ما لا يقوم على ساق من عود كالبقول والقرع والبطيخ ونحوه مما يموت عامه. وعن ابن عباس: اليقطين: القرع خاصة. ومشهور اللغة أن

(١٨٠٦) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٢ – ١٩٣.

(١٨٠٧) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١، تفسير الزمخشري ج ٤ ص ٦١-٦٢.

اليقطين هو القرع. وقد أنبتها الله فوقه مظلة له، وتمنع من وصول الذباب إليه، لأن الذباب لا يقربها[١٨٠٨].

١٥١٢- بعثته إلى مئة ألف أو يزيدون:

وبعد أن شفي يونس وعادت إليه عافيته بها أنبت الله عليه من شجرة من يقطين، أرسله الله تعالى إلى قوم يبلغ عددهم مئة ألف أو يزيدون. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]. أي: أرسله الله تعالى إلى القوم الذين أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. وقال بعضهم أرسله الله إلى أُمة أخرى.

قال ابن كثير: (ولا مانع أن يكون الذين أُرسل إليهم أولاً أمره الله بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه وآمنوا به. وقوله تعالى: (إلى مائة ألف أو يزيدون) أي: في مرأى الناظر، أي إذا رآها الرائي قال: هي مئة ألف أو أكثر. فالغرض هو الوصف بالكثرة. (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أُرسل إليهم يونس جميعهم، (فمتعناهم إلى حين) أي إلى وقت آجالهم[١٨٠٩].

(١٨٠٨) تفسير ابن عطية ج ١٢ ص٤٠٠، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١-٢٢، والزمخشري ج٤ ص٦٢.

(١٨٠٩) تفسير ابن كثير٤/ ٢٢، وتفسير الزمخشري٤/ ٦٢، وتفسير القاسمي٤/ ١٢٠.

المبحث السابع
توبة الله على النبي محمد ﷺ

١٥١٣- النبي محمد ﷺ أكمل التائبين والمستغفرين:

جعل الله نبينا محمداً ﷺ أكمل التائبين توبة، وأكمل المستغفرين استغفاراً، فقد كان مصاحباً للتوبة والاستغفار قائماً وقاعداً وعلى جنب، وثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: (يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[١٨١٠] وثبت عنه في الصحيح أنه قال: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[١٨١١].

ونقل عن الصحابة قولهم: (كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم)[١٨١٢] وجعل الاستغفار دعاءه الذي يلهج به في كل حين، وجعله آخر حياته مصاحباً لركوعه وسجوده.

وقد هداه الله تعالى لهذه الحال، حال الاستغفار الدائم والتوبة الدائمة ليكمل له عبوديته لله تعالى وليؤهله ليكون أكمل التائبين وأكمل المستغفرين وليكون أهلاً للغفران الكامل التام كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١-٢]، وليكون أهلاً للموقف المحمود والشفاعة العظمى التي ينفرد بها من بين سائر الأنبياء يوم القيامة كما في حديث الشفاعة المشهور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومحمد أكمل الخلق وأكرمهم على الله، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات، فهو أفضل المحبين لله، وأفضل المتوكلين على الله،

(١٨١٠) أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، والترمذي (٣١٨٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٣٨٠٦)، وأحمد (٧٤٦١) و(٨١٣٧).

(١٨١١) أخرجه مسلم (٤٨٧٠)، وأبو داود (١٢٩٤)، وأحمد (١٧١٧٤) و(١٧١٧٥) و(١٧٥٧٥).

(١٨١٢) أبو داود (١٢٩٥).

وأفضل العابدين له، وأفضل العارفين به، وأفضل التائبين إليه، وتوبته أكمل من توبة غيره، ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبهذه المغفرة نال الشفاعة يوم القيامة كما ثبت في الصحيح أن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم فيقول: إني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها نفسي نفسي، ويطلبونها من نوح فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أومر بها نفسي نفسي، ويطلبونها من الخليل ثم من موسى ثم من المسيح فيقول: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنب وما تأخر، قال: فيأتوني فأنطلق فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فأقول أي رب أمتي فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة[(١٨١٣)]، فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه دلهم على محمد وأخبر بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له، إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد، ومحض الجود والإحسان من الرب عز وجل. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه)[(١٨١٤)]... فهو ﷺ لكمال عبوديته لله وكمال محبته له وافتقاره إليه وكمال توبته واستغفاره صار أفضل الخلق عند الله فإن الخير كله من الله وليس للمخلوق من نفسه شيء بل هو فقير من كل وجه فكلما ازداد العبد تواضعاً وعبودية ازداد إلى الله قرباً ورفعة ومن ذلك توبته»[(١٨١٥)].

ونعود الآن إلى المقصود وهو بيان توبة الله تعالى على النبي محمد ﷺ في سياق الآيات النازلة في غزوة تبوك.

١٥١٤- توبة الله على النبي ﷺ بقوله: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية

وتمام الآية قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

(١٨١٣) متفق عليه: البخاري (٤١١٦) و(٦٨٦١)، ومسلم (٢٨٦).

(١٨١٤) متفق عليه: البخاري (٥٢٤١) و(٥٩٨٢) و(٥٩٨٦)، ومسلم (٥٠٣٧).

(١٨١٥) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص٥٦- ٥٧.

١٥١٥- اختلاف أقوال المفسرين في آية التوبة (١٨١٦):

اختلفت أقوال أهل التفسير في المراد بتوبة الله على النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ونذكر فيما يلي بعض أقوالهم:

(١٨١٦) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة:٢/ ٤٤٩ -٤٥٣. ومن المفيد أن نذكر هنا تفسير قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]، قال القرطبي (ج: ١٦ ص: ٢٤٢): (واستغفر لذنبك): يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب، الثاني: استغفر الله ليعصمك من الذنوب. وقيل: لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار، وقيل: الخطاب له والمراد به الأمة وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين وقيل: كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين فنزلت الآية أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله فلا تعلق قلبك بأحد سواه وقيل: أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة. (وللمؤمنين والمؤمنات): أي ولذنوبهم وهذا أمر بالشفاعة.

وجاء في تفسير «أبي السعود» أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] (ج: ٨ ص: ٩٧) قال: « (واستغفر لذنبك): وهو الذي ربما يصدر عنه ﷺ من ترك الأولى عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين، وإرشاد له ﷺ إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل. وللمؤمنين والمؤمنات أي لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانها وفى إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلقية جنسا وفى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إشعار بعراقتهم في الذنب وفرط افتقارهم إلى الاستغفار».

وجاء في تفسير النسفي (ج: ٤ ص: ١٤٨) لقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]: « فاعلم أنه أن الشأن (لا إله إلا الله) (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، وفي « شرح التأويلات »: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له، ولكنا لا نعلمه غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر ».

١٥١٦- التفسير الأول:

قال الإمام ابن عطية: التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ، لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين. وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا[١٨١٧].

١٥١٧- التفسير الثاني:

وقال الإمام القرطبي: قال ابن عباس كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود، دليله قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، وتوبته على المؤمنين من المهاجرين والأنصار من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عن النبي ﷺ. وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة، وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعُبر عن ذلك بالتوبة، وإن خرج من عرفها، لوجود معنى التوبة فيه، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى[١٨١٨].

١٥١٨- التفسير الثالث:

وقال الزمخشري قوله تعالى: (لقد تاب الله على النبي) هو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين، ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣][١٨١٩].

(١٨١٧) تفسير ابن عطية ج ٧ ص ٦٧.

(١٨١٨) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٧٨.

(١٨١٩) تفسير الزمخشري ج ٢ ص ٣٩٦.

١٥١٩- التفسير الرابع:

وقال الآلوسي: قال أصحاب المعاني: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي ﷺ تشريفاً لهم، وتعظيماً لقدرهم، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فالمراد: توبته على المهاجرين والأنصار. وتوبته عليهم: عفوه سبحانه وتعالى عن زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين. وقيل: المراد ذكر التوبة عليه ﷺ وعليهم.

والذنب بالنسبة إليه ﷺ : من باب خلاف الأولى نظراً إلى مقامه الجليل، وفُسر هنا على ما روي عن ابن عباس بالإذن للمنافقين في التخلف.

وبالنسبة إليهم رضي الله تعالى عنهم لا مانع من أن يكون حقيقياً، إذ لا عصمة عندنا لغير الأنبياء، ويُفسر بها فسر أولاً. ويجوز أن يكون من باب خلاف الأولى بناء على ما قيل: أن ذنبهم كان الميل إلى القعود عن غزوة تبوك، حيث وقعت في وقت شديد. وقد تفسر التوبة بالبراءة عن الذنب، والصون عنه مجازاً، حيث إنه لا مؤاخذة في الكل، وظاهر الإطلاق الحقيقة، وفي الآية ما لا يخفى من التحريض على التوبة للناس كلهم(١٨٢٠).

١٥٢٠- التفسير الخامس:

وقال صديق حسن خان في تفسيره القيم فتح البيان: (لقد تاب الله على النبي) أي أدام توبته على النبي فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف عن غزوة تبوك، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وليس من لوازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أو له، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه على النبي ﷺ من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق، كما في قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣] ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ ، لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لابسوه منها. وقال أهل المعاني: التوبة على النبي ﷺ هو مفتاح كلام للتبرك، وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ ، كما ضُم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] فهو تشريف له ﷺ . وكذلك تاب الله على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما

(١٨٢٠) تفسير الآلوسي ج١١ ص ٣٩-٤٠.

صح عنه ﷺ من قوله: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١٨٢١]. والإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل[١٨٢٢].

١٥٢١- التفسير السادس:

وجاء في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: قوله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) هذا خبر مؤكد بلام القسم مع حرف التحقيق، بين به تعالى فضل عطفه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها. وللتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين إلى الله تعالى من كل إعراض عنه، وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم وهذا أعلاهما، وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم[١٨٢٣]...

١٥٢٢- التفسير السابع:

وجاء في تفسير القاسمي: اعلم أن الله تعالى لما بين فيها تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ختم بفرقة من المؤمنين كانوا تخلفوا ميلاً للدعة، وهم صادقون في إيمانهم ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية، وصدرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار كل على حسبه، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى. وقد جمع الله تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ووصفهم بأتباعه، فوجب القطع بموالاتهم[١٨٢٤].

(١٨٢١) متفق عليه: البخاري (٢٧٨٥) و(٢٨٥١) و(٤٥١١) و(٥٧٨٩)، ومسلم (٤٥٥٠).

(١٨٢٢) فتح البيان ج ٥ ص ٤١٦-٤١٧.

(١٨٢٣) تفسير المنارج ١١ ص ٦٤.

(١٨٢٤) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٤٥-٢٤٦.

١٥٢٣- تفسير بقية الآية:

وقوله تعالى (الذين اتبعوه) وهذا وصف للمهاجرين والأنصار بأنهم (الذين اتبعوه) أي اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه (في ساعة العُسرة) وقد وقع الاتفاق بين الرواة والمفسرين أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك، وتسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة، والمقصود بساعة العسرة أي وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشي واليوم. والعسرة: حالهم في غزوة تبوك، فقد كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على البعير الواحد. وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة - أي الدهن المنتن، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان. وفي عسرة من الماء حتى إن بعضهم نحر بعيره، ليعتصر فرثه ويشرب ماءه. وفي شدة زمان: في شدة الحر، ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة(١٨٢٥).

وقوله: (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أي: اتبعوا النبي ﷺ من بعد ما قرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام بعصيان الرسول ﷺ حين أمر بالنفير العام إذ تثاقل بعضهم عن النفر(١٨٢٦). وفي تفسير القرطبي: واختلف في معنى (تزيغ) فقيل تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس: تميل عن الحق بترك النصرة، وقيل من بعد أن هم فريق منهم بالتخلف والعصيان، ثم لحقوا به، وقيل هموا بالرجوع(١٨٢٧). قوله (ثم تاب عليهم) تأكيد ظاهر للتوبة التي تفضل الله بها على من تقدم ذكر التوبة عنهم، ويحتمل أن تكون التوبة للفريق الذين كادوا أن تزيغ قلوبهم، لأنهم لا جرم محتاجون إلى التوبة عليهم(١٨٢٨).

(١٨٢٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص ٣١٨، فتح البيان ج٥ ص ٤١٧.

(١٨٢٦) تفسير المنار ج١١ ص٦٥.

(١٨٢٧) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٨٠-٢٨١.

(١٨٢٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨، تفسير الآلوسي ج١١ ص٤١.






الفصل الثاني

نماذج من توبة الصحابة والتابعين وتابعيهم



وفيـه:

- أولاً: توبة الله تعالى على الصحابة المشاركين في غزوة العسرة.
- ثانياً: نموذج لتوبة من تدارك التخلف فلحق بالنبي ﷺ.
- ثالثاً: توبة المتخلفين عن غزوة تبوك.
- رابعاً: توبة الأنصار توبة جماعية.
- خامساً: نماذج لتوبة التابعين وتابعيهم.









الفصل الثاني

نماذج من توبة الصحابة والتابعين وتابعيهم

١٥٢٤- أولاً - توبة الله تعالى على الصحابة المشاركين في غزوة العسرة:

وهؤلاء قد ورد ذكر توبة الله تعالى عليهم ضمن كلام القرآن الكريم عن توبة الله تعالى على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقد تقدم نقل أقوال المفسرين بشأن توبة الله تعالى عليهم في الفصل السابق.

١٥٢٥- ثانياً - نموذج لتوبة من تدارك التخلف فلحق بالنبي ﷺ:

ومن هؤلاء الصحابي أبو خيثمة، وكان قد تخلف ثم تدارك نفسه فلحق بالنبي ﷺ فشملته توبة الله تعالى على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة على النحو الذي شرحناه في الفصل السابق، ولكن ماذا كان من خبره وتوبته عن التخلف؟

١٥٢٦- توبة أبي خيثمة رضي الله عنه:

«عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثني أبي قال: قال ابن إسحاق: تخلف أبو خيثمة، أحد بني سالم، عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ، رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، ثم قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر - يعني بالضح الشمس - وأبو خيثمة في ظل، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، فأدركه حين نزل تبوك.

قال: وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلفت عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل، ثم سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك.

فلما طلع قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فلما دنا قال الناس: يا رسول الله هذا والله أبو خيثمة، فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أولى لك أبا خيثمة، ثم أخبره الخبر، فقال له خيراً ودعا له»[(١٨٢٩)].

١٥٢٧- توبة مخشن بن حمير:

«وقد كان رهط من المنافقين منهم مخشن بن حمير رجل من أشجع حليف لبني سلمة مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، قال: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنا غداً مقرنون في الحبال، فأطلع الله تعالى نبيه عليهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون، وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فعفا الله عنه بقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] قال: وهي الطائفة التي عفا عنها فسمي عبد الرحمن بن حمير، قال: وسأل الله تعالى أن يقتل شهيدا لا يعلم مكانه، فأصيب يوم اليمامة ولم يوجد له أثر»[(١٨٣٠)].

١٥٢٨- ثالثاً - توبة الصحابة المتخلفين عن غزوة تبوك[(١٨٣١)]:

١٥٢٩- أ- توبة أبي لبابة وأصحابه:

وهؤلاء قوم تخلفوا كسلاً وعصياناً لا شكاً ونفاقاً، ولكن سرعان ما عرفوا ذنبهم، فندموا وتابوا إلى الله تعالى فتاب عليهم، قال تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] وهذه الآية تتعلق بالذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال تعالى: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أي أقروا بها واعترفوا بها فيما بينهم وبين ربهم، ولهم

(١٨٢٩) ابن قدامة المقدسي: كتاب التوابين ج: ١ ص: ٩٢-٩٤.

(١٨٣٠) المرجع السابق ١/ ٩٤.

(١٨٣١) د. عبد الكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ٢/ ٤٤١ وما بعدها (بتصرف).

أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية وإن نزلت في أناس معنيين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين. قال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أبي لبابه وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقام أبو لبابة وتسعة من أصحابه المتخلفين وربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، ويلاحظ هنا أنه قال تعالى: (عسى الله أن يتوب عليهم) ولم تذكر توبتهم؟ والجواب ذكر في الآية اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فكان ذلك بمنزلة ذكر توبتهم[١٨٣٢].

(١٨٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧. وقد حدث من أبي لبابة ذنب آخر تاب منه أيضاً فقد ذكر المقدسي في كتاب التوابين - بسنده - عن السائب بن أبي لبابة عن أبيه قال: لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم حين اشتد عليهم الحصار دعاني رسول الله ﷺ فقال: اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس، قال: فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار، فهشوا إلي وقالوا: يا أبا لبابة نحن مواليك دون الناس كلهم فقام كعب بن أسد فقال: أنا بشير قد عرفت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث وكل حرب كنتم فيها، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، فما ترى فإنا قد اخترناك على غيرك، إن محمداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه، قال: نعم فانزلوا وأومأ إلى حلقه، فهو الذبح، قال: فندمت فاسترجعت، فقال كعب مالك يا أبا لبابة، فقلت: خنت الله ورسوله، فنزلت، وإن لحيتي لمبتلة بالدموع والناس ينتظرون رجوعي إليهم، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً آخر حتى أتيت المسجد فارتبطت، وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعت، فقال: دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء، لو كان جاءني استغفرت له، فأما إذ لم يأتني وذهب فدعوه، قال: فحدثني معمر عن الزهري قال: وارتبط أبو لبابة سبعاً في حر شديد لا يأكل ولا يشرب وقال: لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي، قال: فلم يزل كذلك حتى يسمع الصوت من الجهد، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله عليه، فنودي: إن الله قد تاب عليك، وأرسل رسول الله ﷺ إليه ليطلق عنه رباطه، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ . قال الزهري فحدثتني هند بنت الحارث عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: رأيت رسول الله ﷺ يحل رباطه، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته، وما يدري كثيراً مما يقول له من الجهد والضعف، ولقد كان الرباط حز في ذراعه وكان من شعر، وكان يداويه بعد ذلك دهراً. (المقدسي: كتاب التوابين:ج: ١ ص: ١٠٣-١٠٤). والقصة مشهورة ومذكورة في =

١٥٣٠- خذ من أموالهم صدقة:

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، روى أن أبا لبابة والجماعة التائبة معه التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) جاءت رسول الله ﷺ لما حصلت لها التوبة من الله عز وجل، فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض بأموالكم إلا بأمر من الله» فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فهم المراد بها. فروي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: (خذ من أموالهم) فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المفسرين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وقوله تعالى: (تُطهرهم وتُزكيهم بها) و(تُطهرهم) خطاب للنبي ﷺ (وتزكيهم بها) خطاب للنبي ﷺ . والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه. أو بمعنى الإنماء والبركة في المال. (وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، (إن صلاتك سكن لهم) أي: فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم، وطمأنينة لقلوبهم بأن الله قد تاب عليهم. (والله سميع) يسمع اعترافهم بذنبهم (عليم) بما في ضمائرهم[1833].

١٥٣١- ب - توبة الثلاثة الذين خلفوا:

قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]. و(الثلاثة) هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال ابن أمية. ومعنى (خُلفوا) خلفوا عن الغزو أي عن غزوة تبوك.

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أي برُحبها أي ضاقت عليهم الأرض مع سعتها، وهو مثل لحيرتهم في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه (وضاقت عليهم أنفسهم) أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها حرجت

= التفاسير عند تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(١٨٣٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧، تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٠-٢٢.

من فرط الوحشة والغم (وظنوا) أي: وعلموا (أن لا ملجأ من الله) أي: لا ملجأ من سخط الله (إلا إليه) أي: لا ملجأ من سخط الله إلا باستغفاره والرجوع إليه بالتوبة. (ثم تاب عليهم ليتوبوا) ثم رجع إليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم، ويثبتوا وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علماً منهم أن الله تواب على من تاب، ولو عاد في اليوم مائة مرة[١٨٣٤].

١٥٣٢- توبة كعب بن مالك ورفيقيه من النماذج الفريدة والعالية :

وقد روى كعب بن مالك قصة تخلفه وتوبته وتوبة الله تعالى عليه وعلى رفيقيه في التخلف ممن تابوا توبة نصوحاً علم الله تعالى صدقها فتاب عليهم وأنزل في توبتهم قرآناً يتلى على مر الدهور. وهي من النماذج الفريدة والعالية من توبة الصحابة لا ينبغي لأحد الغفلة عنها، بل يجب دراستها بعناية تامة لما فيها من الفوائد للمسلم بعامة والتائب بخاصة، وقد وردت رواية كعب بن مالك وتفاصيل ذلك في الصحيحين، وقد نقلناها سابقاً بكل تفاصيلها من صحيح البخاري عند كلامنا عن موضوع (التوبة من ترك الجهاد) في هذا الكتاب لضرورة ذكرها هناك، فارجع إليها إن شئت حيث لم نر إعادتها هنا - مع أهميتها القصوى - منعاً للتكرار.

١٥٣٣- رابعاً - توبة الأنصار توبة جماعية :

أورد المقدسي: عن أنس بن مالك قال فتحنا مكة ثم إنا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوف رئيت أو رأيت قال فلم نلبث أن انكشفت خيلنا وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس، قال: فنادى رسول الله ﷺ : يا للمهاجرين يا للمهاجرين.. يا للأنصار يا للأنصار، قال: قلنا: لبيك يا رسول الله، قال: فتقدم رسول الله ﷺ، قال: وايم الله ما أتيناهم حتى هزمهم الله، قال: فقبضنا ذلك المال، قال: فنزلنا فجعل رسول الله ﷺ يعطي الرجل المائة، ويعطي الرجل، قال: فتحدثت الأنصار بينها: أما من قاتله فيعطيه، وأما من لم يقاتله فلا يعطيه، قال: فرفع الحديث إلى رسول الله[١٨٣٥]... ثم ذكر بقية القصة. وهي متفق عليها في الصحيحين مجملة، وفي غيرهما مفصلة، فنرى أن ننقلها كما وردت مفصلة في مسند أحمد.

(١٨٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨-٣١٩.

(١٨٣٥) المقدسي: كتاب التوابين ١/ ١٢٧ وما بعدها.

فقد أخرج احمد في مسنده، قال: «عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا بذاك، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

قال: فأتاهم رسول الله ﷺ : فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، قالوا بل الله ورسوله أمن وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك. وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا[(١٨٣٦)].

(١٨٣٦) متفق عليه: البخاري (٣٩٨٥)، ومسلم (١٧٥٨)، وأحمد (١١٣٠٥) واللفظ له. وانظر أيضا: أحمد (١١١٢٢) و(١١٤١٤) و(١٢٤٨٤) و(١٥٨٧٤). ومجمع الزوائد١٠/ ٢٩-٣٠، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤١٨.

١٥٣٤- خامساً - نماذج لتوبة التابعين وتابعيهم:

١٥٣٥-١- توبة أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان:

ذكر ابن قدامة المقدسي - بسنده - «عن مروان بن محمد قال:دخلت عزة صاحبة كثير على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر، فقالت لها: يا عزة ما معنى قول كثير:

قضى كل ذي دين علمت غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

ما هذا الدين الذي يذكره؟

قالت: اعفني.

قالت: لا بد من إعلامك إياي.

فقالت عزة: كنت وعدته قبلة فأتاني لينتجزها فتحرجت عليه ولم أف له.

فقالت لها أم البنين: أنجزيها منه وعلي إثمها.

ثم راجعت نفسها فاستغفرت الله، وأعتقت لكلمتها هذه أربعين رقبة، وكانت إذا ذكرت ذلك بكت حتى تبل خمارها وتقول: يا ليتني خرس لساني عندما تكلمت بها، وتعبدت عبادة ذكرت بها في عصرها من شدة اجتهادها، فرفضت فراش المملكة، تحيي ليلها، وكانت كل جمعة تحمل على فرس في سبيل الله وكانت تبعث إلى نسوة عابدات يجتمعن عندها ويتحدثن، فتقول: أحب حديثكن فإذا قمت إلى صلاتي لهوت عنكن.

وكانت تقول: البخيل كل البخيل من بخل على نفسه بالجنة.

وكانت تقول: جعل لكل إنسان نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء، والله للعطية والصلة والمواصلة في الله أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع، والشراب البارد على الظمأ، وهل ينال الخير إلا بالاصطناع. وكانت على مذهب جميل حتى توفيت رحمها الله تعالى» (١٨٣٧).

١٥٣٦-٢- توبة إبراهيم بن أدهم:

أورد المقدسي - بسنده - «عن محمد بن إسحاق السراج قال: سمعت إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم يقول: قلت: يا أبا إسحاق كيف كان أوائل أمرك؟ قال: كان

(١٨٣٧) المقدسي: كتاب التوابين ج: ١ ص: ١٤٩-١٥٠.

أبي من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان، وحبب إلينا الصيد، فخرجت راكباً فرسي وكلبي معي، فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداء من ورائي: ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت، فوقفت: أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله إبليس.

ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحداً، فقلت: لعن الله إبليس.

ثم حركت فرسي، فأسمع نداء من قربوس سرجي: يا إبراهيم ما لذا خلقت ولا بذا أمرت، فوقفت، فقلت: أنبهت أنبهت، جاءني نذير من رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي.

فرجعت إلى أهلي، ثم جئت إلى أحد رعاة أبي، فأخذت منه جبة وكساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، أرض ترفعني وأرض تضعني، حتى وصلت إلى العراق، فعملت بها أياماً، فلم يصف لي منها، يعني الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال لي: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام، فصرت إلى بلاد الشام، فسرت إلى مدينة يقال لها المنصورة، وهي المصيصة، فعملت بها أياماً فلم يصل لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ فقالوا لي: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس فإن فيها المباحات والعمل الكثير، فتوجهت إلى طرسوس، فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد، فبينا أنا قاعد على باب البحر جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانه، فكنت في البستان أياماً كثيرة، فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه فقعد في مجلسه.

ثم صاح: يا ناطور.

فقلت: هو ذا أنا.

فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه.

فذهبت فأتيته بأكبر رمان، فأخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة.

فقال: يا ناطور أنت في بستاننا منذ كذا وكذا تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا ولا تعرف الحلو من الحامض.

قال إبراهيم: قلت والله ما أكلت من فاكهتك شيئاً ولا أعرف الحلو من الحامض.

فأشار الخادم إلى أصحابه فقال: أما تسمعون كلام هذا؟ أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا، فانصرف، فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عنق من الناس، فلما رأيته قد أقبل مع الناس اختفيت خلف الشجر، والناس داخلون فاختلطت معهم وهم داخلون وأنا خارج هارب، فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرطوس إلى بلاد الرمال»(١٨٣٨).

١٥٣٧-٣- توبة هارون الرشيد:

ذكر ابن قدامة المقدسي عن من روى عنه «عن الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد، فبينا أنا نائم بمكة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال ويحك قد خطر في نفسي شيء فانظر لي رجلا أسأله، فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه.

فأتيناه، فقرعت الباب فقال: من ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، قال: اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، فقلت: هاهنا عبدالرزاق بن همام، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال: من هذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي لأتيتك، قال: خذ لما جئناك له رحمك الله، فحادثه ساعة ثم قال: أعليك دين؟ قال: نعم، قال: يا عباسي اقض دينه. ثم انصرفنا، فقال لي: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، قلت هاهنا الفضيل بن عياض فقال: امض بنا إليه، فأتيناه وإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، قال: اقرع الباب، فقرعته، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول

(١٨٣٨) المقدسي: كتاب التوابين: ج: ١ ص: ١٥٥-١٥٧.

عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كف ما أنعمها وألينها إن نجت غداً من عذاب الله، فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي.

فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله.

فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي، فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت، وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك، وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت. وإني لأقول لك هذا، وإني لأخاف عليك أشد الخوف في يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء من يشير عليك أو يأمرك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشي عليه، فقلت له: أرفق بأمير المؤمنين، قال يا ابن أم الربيع: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟

ثم أفاق، فقال: زدني رحمك الله.

فقال: بلغني يا أمير المؤمنين أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه، قال: فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى باب الرب نائماً ويقظان، وإياك أن ينصرف بك من عند الله إلى النار، فيكون آخر العهد ومنقطع الرجاء، قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك لا وليت لك ولاية حتى ألقى الله.

فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال له: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أمرني، فقال له النبي ﷺ : يا عباس يا عم النبي، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تتأمرن على أحد فافعل.

قال: فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال له: زدني رحمك الله.

قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة.

فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال: عليك دين؟

قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن ساءلني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال: فقال إنما أعني من دين العباد.

قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إن ربي أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها وتقو بها على عبادة ربك.

فقال: يا سبحان الله، أنا أدلك على النجاة وأنت تكافيني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا.

فخرجنا من عنده، فلما أن صرنا على الباب، قال لي هارون: يا عباسي إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم، - قال: غير أبي عمر - فبينا نحن كذلك، إذ دخلت عليه امرأة من نسائه، فقالت: يا هذا، قد ترى سوء ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال تفرجنا به.

قال: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه وأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون الكلام قال: نرجع فعسى أن يقبل المال، قال: فدخل، فلما علم فضيل خرج فجلس على تراب في السطح على باب الغرفة، وجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلم يجبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله، قال: فانصرفنا»[١٨٣٩].

(١٨٣٩) المقدسي: كتاب التوابين: ج:١ ص:١٦٤-١٧٠.

١٥٣٨-٤- توبة مالك بن دينار:

جاء في كتاب التوابين: «روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: كنت شرطياً وكنت منهمكاً على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حباً وألفتني وألفتها، قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت، فأكمدني حزنها.

فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملاً من الخمر ولم أصل فيها عشاء الآخرة، فرأيت فيما يرى النائم: كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حساً من ورائي، فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون، أسود أزرق، قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة، فسلمت عليه فرد السلام، فقلت: أيها الشيخ أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ، وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه.

فوليت هارباً على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح ارجع فلست من أهلها، فاطمأننت إلى قوله، ورجعت، ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ، فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك.

قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة، وستور معلقة، على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر مفصلة باليواقيت مكوكبة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هارباً والتنين من ورائي، حتى إذا قربت منه، صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف علي من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنين مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم، فلما رأتني بكت، وقالت: أبي والله،

ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هارباً.

ثم أجلستني وقعدت في حجري، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]، فبكيت، وقلت: يا بنية: وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت: نحن أعرف به منكم.

قلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني.

قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم.

قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي.

قالت: يا أبت: ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء.

قلت: يا بنية: وما تصنعون في هذا الجبل؟

قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم.

قال مالك: فانتبهت فزعاً، وأصبحت فأرقت المسكر، وكسرت الآنية، وتبت إلى الله عز وجل، وهذا كان سبب توبتي»[١٨٤٠].

١٥٣٩-٥- توبة بشر بن الحارث الحافي:

أورد المقدسي - بسنده - عن «محمد بن الدينوري يقول سمعت بشر بن الحارث وسئل ما كان بدء أمرك؟... قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم؟ كنت رجلا عياراً صاحب عصبية، فجزت يوماً فإذا أنا بقرطاس في الطريق، فرفعته فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فمسحته وجعلته في جيبي، وكان عندي درهمان، ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية[١٨٤١]، ومسحته في القرطاس، فنمت تلك الليلة، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول: يا بشر بن الحارث: رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة، ثم كان ما كان.

(١٨٤٠) المقدسي: كتاب التوابين ج: ١ ص: ٢٠٢-٢٠٥.

(١٨٤١) الغالية: نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن، وهي غالية القيمة. (النهاية) لابن الأثير: ج:٢ ص٣١٨، (معجم مقاييس اللغة): ج:٤ ص٣٨٨ مادة (غلا).

وحكي أن بشرا كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون، فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب، فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حر، فقال: صدقت، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب، فسمع بشر محاورتهما، فسارع إلى الباب حافياً حاسراً وقد ولى الرجل، فقال للجارية: ويحك من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما جرى، فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه بشر حتى لحقه فقال له: يا سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد علي الكلام، فأعاده عليه، فمرغ بشر خديه على الأرض، وقال: بل عبد، عبد، ثم هام على وجهه حافيا حاسراً حتى عرف بالحِفاء، فقيل له: لم لا تلبس نعلاً؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى المات»[١٨٤٢].

١٥٤٠-٦- توبة الفضيل بن عياض:

أورد المقدسي - بسنده -: «عن علي بن خشرم قال: أخبرني رجل من جيران الفضيل بن عياض قال: كان الفضيل يقطع الطريق وحده، فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يقال له الفضيل، قال: فسمع الفضيل فأرعد فقال: يا قوم: أنا الفضيل جوزوا والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبداً، فرجع عما كان عليه. وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦][١٨٤٣] قال: بلى والله قد آن، فكان هذا مبتدأ توبته. وقال إبراهيم بن الأشعث:

(١٨٤٢) المقدسي: كتاب التوابين: ج: ١ ص: ٢١٠- ٢١١.

(١٨٤٣) قال القرطبي « قوله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا) أي يقرب ويحين قال الشاعر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا ... وأن يحدث الشيب المبين لنا عقلا

وماضيه أنى بالقصر يأنى، ويقال: آن لك - بالمد - أن تفعل كذا يئين أيناً، أي: حان مثل أنى لك، وهو مقلوب منه... وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين » (تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٤).

سمعت فضيلاً ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: ونبلو أخباركم، ويردد ويقول: وتبلو أخبارنا؟ إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا، وسمعته يقول [مخاطباً نفسه]: تزينت للناس وتصنعت لهم وتهيأت لهم ولم تزل ترائي حتى عرفوك، فقالوا: رجل صالح فقضوا لك الحوائج، ووسعوا لك في المجلس، وعظموك، خيبة لك، ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك؟ وسمعته يقول: إن قدرت أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف؟ وما عليك إن لم يثن عليك؟ وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله محموداً؟»[١٨٤٤].

(١٨٤٤) المقدسي: كتاب التوابين ج: ١ ص:٢٠٧-٢٠٨.









الفصل الثالث

نماذج للتوبة في العصر الحديث

وفيـــه:

- توبة جندي عرف الله.
- توبة شاب أدركته عناية الله.
- سورة ق.. سبب هدايتي.
- توبة فتاة بعد سماعها لآيات من القرآن الكريم.
- توبة رجل عاص على يد ابنته الصغيرة.








الفَصْلُ الثَّالِث

نماذج للتوبة في العصر الحديث

١٥٤١- تمهيد:

نقدم في هذا الفصل جملة من قصص التائبين التي وجدناها مؤثرة ومحفزة على التوبة، ولا شك أنه يوجد مئات بل آلاف غيرها وبعضها لمشاهير من الناس من الرجال والنساء الذين مَنَّ الله تعالى عليهم بالتوبة وهداهم إليها [(١٨٤٥)]، إلا أن غرضنا في هذا الفصل تقديم نماذج محدودة ومتنوعة يتحقق بها المقصود إن شاء الله تعالى.

١٥٤٢-١- توبة جندي عرف الله[(١٨٤٦)]:

حدثني هذا الرجل بقصته يوم تاب إلى الله تبارك وتعالى، إنها قصة عجيبة، إنها قصة الإنسان يوم يعيش حياتين وفترتين ومرحلتين.. يوم يعيش الظلام والنور.. الهدى والضلال.. الحفظ والضياع.. هذا الرجل لا أذكر اسمه، وهو مشهور بين أهل بلده بعبادته وبكائه وخشوعه وتلاوته، يحدثك عن قصة عودته إلى ربه وعيناه تذرفان.

(١٨٤٥) هذا مع فرحنا وسرورنا بما سمعناه وقرأناه وشاهدناه من توبة الكثير من هؤلاء المشاهير ممن عرضهم التلفاز في حوارات متنوعة بمناسبات متعددة ومنهم نسوة قد كن قبل التوبة ممثلات ومغنيات حَوَّلهن الإيمانُ إلى تائبات عابدات منيبات خاشعات لله تعالى قد أذاقهن الله تعالى حلاوة الإيمان والتوبة فصارت الواحدة منهن لا تقدر أن تمسك دموعها بمجرد أن يذكر الله أو القرآن أو الرسول وتود إحداهن لو تشتري رؤية رسول الله ﷺ بنفسها وأهلها ومالها، فهنيئاً لهؤلاء التائبين والتائبات حياة العلم والإيمان والتقوى والتوبة، ودعاؤنا لنا ولهم بحسن الختام إن شاء الله تعالى وأن يجعلنا وإياهم من أهل قوله تعالى: (فإنه كان للأوابين غفوراً) وقوله عز وجل (يحبهم ويحبونه) وقوله جل جلاله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقوله سبحانه (وهم من فزع يومئذ آمنون).

(١٨٤٦) إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ص١٨٩ وما بعدها.

كان جندياً بإحدى المدن يحمل بندقيته في حراسة متقطعة، وكان في تلك الفترة قوي البنية لكنه ميت القلب.. ريان الشباب لكنه مفلس الإرادة.. عملاق الجسم لكنه هزيل الإيمان.

أخبرني أنه كان لا يسجد لله سجدة، لا يعرف الصلاة وما هي الصلاة وما قيمة الصلاة، لا يدخل المسجد إلا مجاملة إذا اضطر إلى ذلك مصانعة للناس ومراءاة لهم ومداجاة.

كان معرضاً تماماً عن ذكر الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]. قال لي بأنه كان يستهزئ بالدين الإسلامي لا يحب الصلاح والصالحين.. إذا دُعي إلى الله تعالى ردد كلمته المشهورة: «كفر صراح ولا دين مخشخش».

كان لا يغتسل من الجنابة، وربما يضطر لمصانعة الناس فيدخل المسجد بجنابته ليصلي، لا يعرف الوضوء لأن القلب في سبات عميق وفي غمرة هائلة، يقف في نوبته فيشعل السيجارة من السيجارة.

أطلق لقلبه الهيام في أودية المعاصي والشهوات، وأطلق لعينه النظر إلى الحرام، وأطلق لسمعه التلذذ بالغناء والفحش، وأطلق لجوارحه العبث بالقيم والمبادئ.

يرى الفتاة فيتابعها بعينيه اللتين كأنهما رصاصتان.. أما ليله فمعه ثلة من الشباب الحيران الضائع يسهر معهم في المجون، في البذاءة، في الهيام والغواية، فإذا زاره النوم رمى بجثمانه على الأرض كالجثة الهامدة حتى يُدعى لنوبته، ينام بلا طهارة بلا صلاة بلا قرآن بلا ذكر.. ينام نومة الهائم الضال الذي ما عرف الطريق.

كره الصالحين والأخيار لا لشيء إلا لأنهم متدينون صادقون.. بينه وبين والديه ما يقارب ثلاثمائة ميل لكنه هجرهم وقاطعهم، ومن قطع حبله مع الله فجدير به أن يقطعه مع الناس.

ومضت الأيام والليالي والساعات والدقائق يملؤها باللهو واللعب ويحشوها بالمجون والاستهتار.

وأتى الله تعالى إلى تلك البلدة بداعية عملاق، داعية مؤثر، جد مؤثر، شيخ علم، ورجل فضل، خطيب مصقع، ومتكلم قدير، هو العالم الداعية محمد بن حمود يمني، مات

قبل سنوات، لم تذكره الكتب ولكن ذكرته القلوب، ولم تتكلم عنه الصحف ولكن تكلمت عنه العيون بدموعها.

كان هذا الداعية إذا تكلم تسابقت دموعه وكلماته، يقول أحد الصالحين: رأيت في المنام كأني دخلت سوقاً قد احتشد فيه الناس وكأن الرسول ﷺ قائماً خطيباً في هذه السوق وبكى في أثناء خطبته بأبي هو وأمي فأغمي على بعض الناس من كثرة التأثر حتى رُشوا بالماء، قال: وفي الصباح نزلت إلى سوق البلدة، فلما اجتمع الناس قام هذا الداعية يعظ فارتفع صوته بالوعظ والبكاء حتى رأيت بعض الناس يسقطون في الشمس من التأثر ويرشون بالماء فكان هذا تأويل رؤياي من قبل.

والمقصود أن هذا الداعية زار بلدة هذا الجندي فدخل مسجداً صغيراً بجانب الإدارة التي يعمل بها هذا الرجل.

كان الجندي في حراسته بجانب المسجد، وقام الداعية بعد الصلاة فتكلم، وسافر بالقلوب في رحلة إلى الدار الآخرة، تكلم ولكنه أسر الأرواح فأصبحت في يديه، فإما منا بعد وإما فداءً، وأنصت الجندي بأذنيه لكلام الشيخ، وكان الشيخ يشرح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

وأفاض الداعية في ذكر الآخرة وما فيها من عجائب وأهوال، وتحدث عن الجنة وعن النار، وسلم الجندي قلبه للداعية ليصله بالله عز وجل.

يقول الجندي عن نفسه: لقد أصبحت في حالة تشبه الذهول، لا أدري أين أنا، لقد فقدت قوتي على القيام فجلست على الأرض، وأتاني من البكاء ما الله به عليم.

لقد خاطب هذا الداعية الفطرة المودعة في هذا الرجل، فطرة الإيمان والتوحيد: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولقد تذكر هذا الجندي أيامه السوداء البائسة، وتذكر وقوفه بين يدي ربه تبارك وتعالى في يوم العرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. حينها استفاق قلبه واستيقظ إيمانه وغلى وجدانه.. لا إله إلا الله ما أقوى هذا الدين إذا تغلغل في الأرواح، ولا إله إلا الله ما أنفذ سلطان التوحيد إذ تملك القلوب.

انتهى الواعظ من موعظته، ولكن هذا المذنب النادم لم ينته من بكائه، ولن ينتهي، ولماذا ينتهي.

وجاءه زملاؤه يهرعون إليه وهو في غيبوبة البكاء. مالك يا فلان؟ مالك يا فلان؟ ماذا أصابك؟... سلامتك..!! وما رد عليهم إلا بالبكاء.

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ   تبين من بكى ممن تباكى

أخذوا سلاحه من يديه، وقام يتوكأ على زميله، ودخل غرفته يواصل نحيبه وحسرته، وفجأة انفجر كالبركان يعلن توبته أمام الله تعالى.. أتوب إلى الله أستغفر الله يا رب تبت إليك.. غفرانك.. رحمتك يا رب..

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ذهب فاغتسل من الجنابة، وخلع ملابسه ولبس ملابس أخرى نقيه طاهرة، واستهل أول حياته، حياة الإيمان بصلاة المغرب ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ولما انتهت صلاة المغرب ذهب التائب المنيب مع الشيخ الداعية إلى بيته المجاور للمسجد، ولما طاب المجلس اقترب صاحبنا من الشيخ وقص عليه قصة حياته، قصة الضياع، قصة الحرمان، قصة عدم المبالاة، فانطلق الداعية الحكيم يصف له طريق الهداية وسبيل السعادة، ويعلمه بمبادئ أمور الإسلام، وسنن الصلاة، وطلب من بعض الحاضرين تعليم هذا التائب كتاب الله عز وجل تجويداً وتلاوةً وحفظاً وعملاً.

قال لي هذا التائب: والله ما نمت تلك الليلة من فرحي بالهداية والإقبال على الله، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر:٢٢].

واستمر هذا المقبل يعيش حياة الإيمان، وتالله لقد قال لي: لقد حفظت القرآن في أربعة أشهر فحسب عن ظهر قلب، لقد عكف على القرآن ينام في الليل والنهار ساعتين فحسب، يقرأ القرآن قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وواصل النوافل، وصلح حاله وانشرح باله

وذهبت غمومه. هو اليوم فوق الخمسين من عمره وهو من أعبد من رأيت من الناس. يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، وله أوراد من الأذكار الشرعية. أما دموعه فما أسرعها من دموع. طلق المحيا، بشوش، ترى الولاية ظاهرة عليه، وهذه الوقائع سجلتها منه، وإنني أعرف أن كثيراً من الأحبة يعرفونه، وإن في قصته لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

لهـا أحاديـث مـن ذكـراك تـشغلها   عـن الطعـام وتلهيهـا عـن الـزاد
لهـا بوجهـك نـور تستـضيء بـه   ومـن حـديثك في أعقابهـا حـادي[(١٨٤٧)]

١٥٤٣-٢- توبة شاب أدركته عناية الله[(١٨٤٨)]:

أنقل هذه القصة بواسطة داعية ثقة مؤمن بالله تعالى حدثنا عن شاب تنكر لدينه ونسي ربه وغفل عن نفسه، كان يضرب به المثل في التمرد والعناد حتى لقد بلغ من أذيته للناس أن دعا عليه الكثير بالهلاك ليريح الله الناس من شره.

وعظه بعض الدعاة فما قبل، نصحوه فما سمع، حذروه فما ارتدع. كان يعيش في ظلمات من شهواته، دخل عليه أحد الدعاة وكان هذا الداعية مؤثراً صادقاً فوعظ هذا المعرض حتى أبكاه وظن أنه استجاب لله وللرسول ﷺ ولكن دون جدوى عاد كما كان وكأنه ما سمع شيئاً أبداً.

لا يعرف المسجد حتى يوم الجمعة، يخرج من بيته بعد العشاء مع عصابة من الأنذال ولا يعود إلا قبيل الفجر ثم ينام النهار كله، ترك الوظيفة وهدر العمل فأفلس في الدين والدنيا، كانت أمه تنوح بالبكاء مما تراه من واقع ولدها بل تمنت كثيراً أن يموت.

(١٨٤٧) قال صاحب كتاب «التائبون إلى الله» (١/ ١٩٣): ذكرها الأخ عايض القرني في كتابه شباب عادوا إلى الله.

(١٨٤٨) إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ١/ ١٩٣ وما بعدها.

ينام على الأغنية ويستيقظ عليها وعنده من صور الخلاعة والجنس والمجون ما يهدم إيمان أهل مدينة. بل ثبت عنه تعاطي المخدرات فأصابه سكار في العقل والروح.

طال شذوذه عن الله وحلم الله يكتنفه، طال تمرده والله يمهله، كثرت معاصيه ونعم الله تحوطه.

يسمع كل شيء إلا القرآن، ويفهم كل شيء إلا الدين، ويحب كل شيء إلا ذكر الله وما والاه.

سبحان الله كيف يرتكس القلب إذا لم يعرف الله، وسبحان الله كيف يتبلد الإحساس يوم يعرض عن الله عز وجل.

وتمر أيامه المسودة بالمعصية المتغبرة بالمخالفات، ويفكر أحد الصالحين من الدعاة في طريقة طريفة لانتشال هذا العاصي من المعصية، إنها طريقة مبتكرة وأوصى بها الدعاة وطلبة العلم وأهل النصح والإرشاد، إنها طريقة إهداء الشريط الإسلامي، إدخاله بيوت الناس وسيارات الناس، الشريط الإسلامي الذي ينقل علم المتكلم ونبرته وتأثيره.

وتم إهداء هذا الشاب مجموعة من الأشرطة المؤثرة، أخذها ووضعها في سيارته ولم يكن له اهتمام بسماعها، وسافر عن طريق البر إلى الدمام، وطال الطريق، واستمع ما شاء من غناء وسخف، ثم جرب أن يزجي وقته بسماع شريط إسلامي ليرى كيف يتكلم هؤلاء الناس، وما هي طريقتهم في الكلام: وابتدأ الشريط يبث ذبذبات الإيمان حية على هواء الصدق مباشرة عبر أثير الإخلاص بذبذبة طولها الرسالة الخالدة لمستمعيها في مدينة المعرضين وما حولها.

أنصت الشاب للشريط وكان الحديث عن الخوف من الله تعالى وأخبار الخائفين، ووصلت الكلمات إلى قلب الشاب فاستقرت هناك في قرار مكين، وانتهى الشريط وقد استعد الشاب واستنفر قواه الذهنية وراجع حسابه مع الله جلت قدرته، وفتح الشريط الثاني: وكان الحديث عن التوبة والتائبين، وارتحل الشاب بفكره إلى ماضيه المحزن المبكي فتتابع الشريط والبكاء في أداء عرض من النصح أمام القلب وكأن لسان حال الموقف يردد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، واقترب من مدينة الدمام وهو لا يكاد يتحكم في سيارته من التأثر لقد دخل جسمه تيار

الإيمان فأخذ يهزه هزاً: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل:٨٨].

وصل المدينة فدخلها وقد دخل قبلها مدينة الإيمان، تغيرت الحياة في نظره، أصبح ينظر بنظرة العبد التائب بعد أن كان ينظر بنظرة المعرض المتمرد.

بدأ بالمسجد وتوضأ والدموع مع الماء:

إذا كان حب الهائمين من الورى بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا
فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي سرى قلبه شوقاً إلى العالم الأعلى

ودخل المسجد فاستفتح حياته بالصلاة وبدأ عمراً جديداً: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وعاد إلى أهله سالماً غانماً: سالماً من المعاصي غانماً من الطاعات. دخل البيت بوجه غير الوجه الذي خرج به، لأنه خرج بوجه المعصية والذنب والخطيئة وعاد بوجه أبيض بنور الطاعة والتوبة والإنابة.

وتعجب أهله!! ماذا جرى لك يا فلان؟ ماذا حدث؟ قال لهم: حدث أعظم شيء في حياتي، عدت إلى الله، تبت إلى الله، عرفت الطريق إلى الله، ودمعت عيناه فدمعت عيونهم معه فرحاً، ومن الدموع دموع تسمى دموع الفرحة:

طفح السرور علي حتى إنني من عظم ما قد سرني أبكاني

وأشرقت أنوار البيت، تسامع الناس وأخذوا يدعون للتائب المنيب، فهنيئاً له بتوبة ربه عليه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرما قد شبت في الرق فأعتقني من النار

١٥٤٤-٣- سورة ق.. سبب هدايتي[١٨٤٩]:

تقول إحدى التائبات: كنت متمادية في المنكرات والعصيان.. ولكم حاولت والدتي نصحي وتذكيري، لدرجة أنها تبكي أمامي! ولكن بدون فائدة، ظللت أسير في طريق مظلم كالح، أتخبط فيه بين الأوهام والخيالات.

وعندما يسدل الليل ستاره الأسود المخملي أفكر فيما أفعله غداً، وعندما يشرق النهار أبلج واضحاً، أحمل هم الليل وبماذا سأقضيه، ليس لي هم غير الدنيا وإضاعة الأوقات بدون فائدة، وتمر ساعات وأنا ما بين أغنية أو مجلة أو فيلم ساقط.. وهكذا ألبستني الغفلة من ثيابها ألواناً شتى.

وذات يوم مللت من ذلك الروتين اليومي، ومن نصح والدتي وتذكيرها لي بوالدي المتوفى - رحمه الله - وحرصه علي.. وفجأة دخلت غرفتي التي تضج بالأشرطة والمجلات والصور وفتحت نافذة غرفتي فإذا بصوت إمام المسجد يهز مسامعي.. وكلمات بارئي تفعل ما تفعله في نفسي من تأثير كبير.. سبحان الله.. وما أشد تلك الكلمات وما أعظمها:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ١٦-٣٥].

إنها الحياة الحقيقية.. ما أقسى الموت! وما أشد غفلتي عنه!! والقبر لقد طوته الغفلة في طي النسيان في حياتي، والصلاة ماذا عنها؟ إنها مجرد عادة إن وجدت نفسي متفرغة

(١٨٤٩) إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ١/ ٢٠٠ وما بعدها.

أديتها، وإلا تركتها كغيرها من الفرائض.. وكتاب الله لا تمسه يداي إلا في المدرسة إن حضرت هذه الحصة وإلا هربت مع قريناتي..!! ودق جرس الإنذار في نفسي مدوياً وانهالت الأسئلة من كل جانب من جوانحي... يا إلهي ماذا أعددت لسؤال ربي؟ ماذا أعددت للقبر وضمته.. وللموت وسكرته..؟ لا شيء أبداً!!! لا رصيد لدي أنجو به.. ولا زاد أتزود به.. سوى حفظ عشرات الأغاني الماجنة!!.

يا إلهي ماذا سأفعل؟!

راح من العمر الكثير، ذنوب في الليل وآثام في النهار...!! إذاً لا بد من الرجوع.. الرجوع إلى الله.. والاستعداد ليوم يشيب فيه الولدان وتضع كل ذات حمل حملها... لا بد من الاستيقاظ والعمل بالجد والإخلاص... لعل الله يعفو عن الكثير ويقبل مني القليل.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٥٤٥-٤- توبة شاب على يد رجل من أهل الحسبة [١٨٥٠]:

قال من أعرفه: أمام تلك المرآة القابعة في الزاوية الشرقية من غرفتي كنت أسرح شعري في أصيل يوم قائظ.. وكانت نغمات الموسيقى تملأ الجو صخباً وضجيجاً.. وفجأة خفق قلبي خفقاناً شديداً لم أعرف سببه.. اتجهت إلى المسجل وأسكت تلك الموسيقى الغربية وذلك الضجيج الذي لا أفهم منه شيئاً.. وزاد قلبي خفقاناً.. اتجهت إلى النافذة لأستنشق الهواء، إلا أنني أحسست بشعور غريب لا أعلم كنهه ولا أدرك سببه! فما هي أول مرة أستعد هذا الاستعداد.. ثم أتجه إلى أحد الأسواق كي أنقل طرفي هنا وهناك.. وأستأثم بمعاكسة الفتيات.

وخلال عبوري البيت متجهاً إلى الباب الخارجي مررت بأمي.

وبعد أن تجاوزتها ببضع خطوات نادتني: أحمد لقد رأيتك البارحة في المنام.. إلا أني تظاهرت بعدم السماع وواصلت المسير.. لحقتني وأمسكت بذراعي وقالت: ألن تضع حداً لهذا الاستهتار وضياع الوقت يا أحمد.

(١٨٥٠) عبد الله العلي: جريدة الجزيرة عدد٦٩٩٩، أشار إليه إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ١/ ٢٤٩ وما بعدها.

وعندما التقت عيناي بعينيها عاودني ذلك الخفقان القلبي المريب.. واتجهت إلى الباب صامتاً ومن ثم خرجت إلى صديقي، وبعد أن امتطيت سيارته الفارهة.. التفت إلي مبتسماً ونفث في وجهي شيئاً من دخان سيجارته الملتهبة.

أما أنا فلا زال قلبي يضرب بقوة.. رفعت صوت المسجل عله يصرف عني ما بي.. أي سوق سنذهب إليه الآن؟

سألني.. وعندما سمعت هذه الكلمة اقشعر جسدي.. أجل السوق.. وتلك الكلمات التي سمعتها ليلة البارحة وكأنما صمت أذناي فلم أعد أسمع شيئاً سوى صدى تلك الكلمات المتدفقة بالحياة: «أخي أليس من العيب أن تضيع شبابك لاهثاً.. ساعياً.. وراء بنات المسلمين، وأن تساهم في إفساد المجتمع وأن تدعم مخططات الأعداء وأنت من فلذات أكبادنا ومن أبنائنا.. أخي ألا تتقي الله؟ ».

وهكذا أصبحت هذه الكلمات تدوي في سماء عقلي كالرعد المجلجل.. وصورة ذلك الرجل الذي يضيء وجهه إيماناً وطهراً لا تفارق مخيلتي، رجل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمسك معصمي البارحة وأنا أتجول في أحد الأسواق ألاحق الفتيات.. وهمس في أذني بتلك الكلمات التي كانت أبلغ من كل تهديد أو وعيد..

فتحت عيني فإذا بصديقي يهزني بيده سائلاً: ما بك؟

التفت إليه وقلت: لا شيء.. أريد أن أرجع إلى البيت. ولا أدري ما هي القوة التي دفعت بصاحبي بأن يرجعني إلى البيت بدون مناقشة.

هبطت من السيارة واتجهت إلى البيت دون أن أودع صاحبي.. وكم كان عجبي شديداً عندما رأيت البيت ممتلئاً.. رجالاً.. ونساء ذهلت.

اتجهت إلى أخي الصغير لما رأيته ينتحب باكياً.. سألته: ما بك؟! نشج.. ثم سعل.. ثم رفع رأسه الصغير إلي وقد امتلأت عيناه دموعاً وقال: أحمد.. لقد ماتت أمي.. أصيبت بنوبة قلبية.. وماتت.. أحسست بقلبي يتوقف رويداً رويداً، وتمنيت أن يعاوده ذلك الخفقان، إلا أنه لم يفعل. لقد مضى على هذه القصة ثلاث سنوات، وهاأنذا الآن أرويها بدموعي.. وأردد الدعاء وجزيل الشكر لذلك الرجل الذي منحني عاطفة صادقة وكلمات ناصحة من القلب.

١٥٤٦-٥- توبة فتاة بعد سماعها لآيات من القرآن الكريم[١٨٥١]:

تقول هذه الفتاة:

نشأت في بيت متدين بين والدين صالحين، يعرفان الله - عز وجل - كنت ابنتهم الوحيدة.. فكانا يحرصان دائماً على تنشئتي تنشئة صالحة، ويحثاني على الالتزام بأوامر الله - عز وجل - وخاصة الصلاة، وما إن قاربت سن البلوغ حتى انجرفت مع التيار، وانسقت وراء الدعايات المضللة، والشعارات البراقة الكاذبة التي يروج لها الأعداء بكل ما يملكونه من طاقات وإمكانيات.. ومع ذلك كنت بفطرتي السليمة أحب الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وأخجل أن أرفع عيني في أعين الرجال.. كنت شديدة الحياء، قليلة الاختلاط بالناس، ولكن - وللأسف الشديد - زاد انحرافي وضلالي لدرجة كبيرة بعد أن ابتلاني الله بزوج منحرف لم أسأل عن دينه.. كان يمثل علي الأخلاق والعفة. عرفني على كثير من أشرطة الغناء الفاحش الذي لم أكن أعرفه من قبل، وأهدى إلي الكثير من هذه الأشرطة الخبيثة التي قضت على ما تبقى في من دين حتى تعودت أذني سماع هذا اللهو الفاجر.. تزوجته ووقع الفأس في الرأس.. زواجي في بدايته كان فتنة عظيمة لما صاحبه من المعازف وآلات الطرب والتبذير والإسراف والفرق الضالة والراقصات الخليعات.. مما صد كثيراً من الحاضرين عن ذكر الله في تلك الليلة.

ومع مرور الأيام التي عشتها مع هذا الزوج الذي كان السبب الأول في انحرافي وشرودي عن خالقي، تركت الصلاة نهائياً، ونزعت الحجاب الذي كنت أرتديه سابقاً.. ولأنني لم أعمل بحديث النبي، ﷺ «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» قطعت الصلة بربي فقطع الصلة بي ووكلني إلى نفسي وهواي.. ويا شقاء من كان هذا حاله.. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولكني لم أجد السعادة بل الشقاء والتعاسة.. كنت دائماً في هم وفراغ كبير جداً أحسه بداخلي مع ما وفره لي زوجي من متاع الدنيا الزائل... لقد أنزلني هذا الزوج إلى الحضيض.. إلى الضياع.. إلى الغفلة بكل معانيها.. كنت دائماً عصبية المزاج غير مطمئنة.. ينتابني قلق دائم واضطراب نفسي.. وعقوبة لي من الله حُرمت الذرية.. وكما كنت متبرجة

(١٨٥١) إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ١/ ٢٥١ وما بعدها.

ينظر إلي الرجال، كذلك كان زوجي يلهث وراء النساء ولم يخلص لي في حبه، فقد تركني وانشغل بالمعاكسات، والجري وراء النساء.. تركني وحيدة أعاني ألم الوحدة والضياع، وأتخبط في ظلمات الجهل والضلال.. حاولت مراراً الانتحار لكي أتخلص من هذه الحياة الكئيبة ولكن محاولاتي باءت الفشل، وأحمد الله على ذلك.. إلى أن تداركني الله بفضله ورحمته واستمعت إلى شريط للقارئ أحمد العجمي وهو يرتل آيات من كتاب الله بصوته الشجي.. آيات عظيمة أخذت بمجامع فكري وحركت الأمل بداخلي.. تأثرت كثيراً.. وكنت أتوق إلى الهداية ولكني لا أستطيعها، فهرعت إلى الله ولجأت إليه في الأسحار أن يفتح لي طريق الهداية ويزين الإيمان في قلبي ويحببه إلي، ويكره إلي الكفر والفسوق والعصيان.. كنت دائماً أدعو الله بدعاء الخليل إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ورزقني الله بشائر الهداية فحافظت على الصلاة في أوقاتها، وارتديت الحجاب الإسلامي، وتفقهت في كثير من أمور ديني.. حافظت على تلاوة كتاب الله العزيز باستمرار، وأحاديث المصطفى، ﷺ، وسيرته العطرة، والكثير من الكتب النافعة، وأصبحت أشارك في الدعوة إلى الله، وقد حصل كل هذا الخير بعد أن طُلقت من هذا الزوج المنحرف الذي كان لا يلتزم بالصلاة، وفارقته مع حبي له، وآثرت قرب خالقي ومولاي، فلا خير في زوج طالح صدني عن ذكر الله.. «ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه»(١٨٥٢).

وها أنا الآن - والحمد لله - أعيش حياة النور الذي ظهرت آثاره على قلبي ووجهي، هذا بشهادة من أعرفه من أخواتي المسلمات، يقلن لي أن وجهك أصبح كالمصباح المنير، وقد لاحظن أن النور يشع منه [قلت: وليس هذا القول من قبيل المبالغة فإنه معلوم ومحسوس لذوي الأبصار والبصائر، وقد ورد عن ابن عباس وغيره آثار صريحة في ذلك. قال ابن القيم: «وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة، لذتها فوق لذة المعصية، بأضعاف مضاعفة، لا نسبة لها إليها، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تربي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة، قال ابن عباس:

(١٨٥٢) قال صاحب كتاب « التائبون إلى الله » ١/ ٢٥٢: هذا عنوان لكتاب قمت بتأليفه وهو كتاب ينبغي على المسلم قراءته وتوزيعه على إخوانه المسلمين ففيه قصص واقعية.

إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»[1853]]، وهذا فضل عظيم من الله سبحانه. أدعو الله أن يثبتني على دينه وسائر المسلمين.

١٥٤٧-٦- توبة رجل عاص على يد ابنته الصغيرة[1854]:

كان يقطن مدينة الرياض. يعيش في ضياع ولا يعرف الله إلا قليلاً.

منذ سنوات لم يدخل المسجد، ولم يسجد لله سجدة واحدة.. ويشاء الله - عز وجل - أن تكون توبته على يد ابنته الصغيرة.

يروي القصة فيقول:

كنت أسهر حتى الفجر مع رفقاء السوء في لهو ولعب وضياع تاركاً زوجتي المسكينة وهي تعاني من الوحدة والضيق والألم ما الله به عليم، لقد عجزت عني تلك الزوجة الصالحة الوفية، فهي لم تدخر وسعاً في نصحي وإرشادي ولكن دون جدوى..

وفي إحدى الليالي، جئت من إحدى سهراتي العابثة ، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، فوجدت زوجتي وابنتي الصغيرة وهما تغطان في سبات عميق، فاتجهت إلى الغرفة المجاورة لأكمل ما تبقى من ساعات الليل في مشاهدة بعض الأفلام الساقطة من خلال جهاز الفيديو.. تلك الساعات، والتي ينزل فيها ربنا - عز وجل -، فيقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه سؤله؟..»[1855].

وفجأة.. فتح باب الغرفة، فإذا هي ابنتي الصغيرة التي لم تتجاوز الخامسة.

نظرت إلي نظرة تعجب واحتقار، وبادرتني قائلة: «يا بابا، عيب عليك، اتق الله..»، رددتها ثلاث مرات، ثم أغلقت الباب وذهبت. أصابني ذهول شديد، فأغلقت جهاز

(١٨٥٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٤٢٣-٤٢٤.

(١٨٥٤) جريدة المسلمون، جريدة الرياض، أشار إليها إبراهيم بن عبد الله الحازمي: التائبون إلى الله ١/ ٢٥٦ وما بعدها.

(١٨٥٥) متفق عليه: البخاري (١٠٧٧) و(٦٩٤٠)، ومسلم (١٢٦١).

الفيديو، وجلست حائراً وكلماتها لا تزال تتردد في مسامعي وتكاد تقتلني.. فخرجت في إثرها فوجدتها قد عادت إلى فراشها..

أصبحت كالمجنون، لا أدري ما الذي أصابني في ذلك الوقت، وما هي إلا لحظات حتى انطلق صوت المؤذن من المسجد القريب ليمزق سكون الليل الرهيب، منادياً لصلاة الفجر.

توضأت، وذهبت إلى المسجد، ولم تكن لدي رغبة شديدة في الصلاة، وإنما الذي كان يشغلني ويقلق بالي، كلمات ابنتي الصغيرة.

وأقيمت الصلاة.. وكبر الإمام، وقرأ ما تيسر له من القرآن، وما إن سجد وسجدت خلفه ووضعت جبهتي على الأرض حتى انفجرت ببكاء شديد لا أعلم له سبباً، فهذه أول سجدة أسجدها لله - عز وجل - منذ سبع سنين.

كان ذلك البكاء فاتحة خير لي، لقد خرج مع ذلك البكاء كل ما في قلبي من كفر ونفاق وفساد، وأحسست بأن الإيمان بدأ يسري بداخلي.

وبعد الصلاة جلست في المسجد قليلاً ثم رجعت إلى بيتي فلم أذق طعم النوم حتى ذهبت إلى العمل، فلما دخلت على صاحبي استغرب حضوري مبكراً فقد كنت لا أحضر إلا في ساعة متأخرة بسبب السهر طوال ساعات الليل، ولما سألني عن السبب، أخبرته بما حدث لي البارحة.. فقال: احمد الله أن سخر لك هذه البنت الصغيرة التي أيقظتك من غفلتك، ولم تأتك منيتك وأنت على تلك الحال.

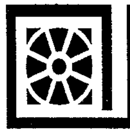
ولما حان وقت صلاة الظهر، كنت مرهقاً حيث لم أنم منذ وقت طويل، فطلبت من صاحبي أن «يستلم» عملي، وعدت إلى بيتي لأنال قسطاً من الراحة، وأنا في شوق لرؤية ابنتي الصغيرة التي كانت سبباً في هدايتي ورجوعي إلى الله.

دخلت البيت، فاستقبلتني زوجتي وهي تبكي.. فقلت لها: ما لك يا امرأة؟ فجاء جوابها كالصاعقة: لقد ماتت ابنتك.. لم أتمالك نفسي من هول الصدمة، وانفجرت بالبكاء.. وبعد أن هدأت نفسي، تذكرت أن ما حدث لي ما هو إلا ابتلاء من الله - عز وجل - ليختبر إيماني، فحمدت الله - عز وجل - ورفعت سماعة الهاتف، واتصلت بصاحبي، وطلبت منه الحضور لمساعدتي.

حضر صاحبي، وأخذ الطفلة وغسلها وكفنها، وصلينا عليها، ثم ذهبنا بها إلى المقبرة، فقال لي صاحبي: لا يليق أن يدخلها في القبر غيرك.. فحملتها والدموع تملأ عيني، ووضعتها في اللحد.. أنا لم أدفن ابنتي، وإنما دفنت النور الذي أضاء لي الطريق في هذه الحياة، فأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلها ستراً لي من النار، وأن يجزي زوجتي المؤمنة الصابرة خير الجزاء.

وبهذا ننتهي من الكلام في الباب السادس الذي خصصناه لتوبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم من المخلطين الذين نقلتهم التوبة إلى صف التائبين المحبوبين عند الله تعالى، لنبدأ الكلام في باب جديد نخصصة لبيان: قبول الله تعالى لتوبة التائب هل هو مقطوع به ومؤكد، أم هو مظنون ومحتمل؟ وهو موضوع على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة للتائبين خاصة والمسلمين عامة، وهو موضوع الباب السابع القادم إن شاء الله تعالى.












قبول التوبة من الله تعالى

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: قبول التوبة من الله تعالى هل هو قطعي أم ظني.
- الفصل الثاني : علاقة قبول التوبة بالتقوى، وعلامات صحة التوبة وقبولها.
- الفصل الثالث: متعلقات مسألة قبول التوبة.








الباب السابع

قبول التوبة من الله تعالى

١٥٤٨- تمهيد وتقسيم :

تبينا فيما سبق أن التائب قد يتوب من ذنب معين، وقد يتوب توبة عامة من كل الذنوب السابقة، وهي التوبة العامة الشاملة، وفي الحالتين فإن التائب ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقد جاء الوعد من الله تعالى بقبول توبة التائبين في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] ونحو ذلك من آيات القرآن الكريم.

ومن السنة النبوية ما ذكرناه سابقاً في مبحث (لزوم الاستغفار والمواظبة عليه) وغيره من المباحث من العدد الكثير من الأحاديث النبوية التي تنص على وعد الله تعالى بالمغفرة للتائبين وقبول استغفارهم وتوبتهم. إلا أننا هنا نذكر من السنة النبوية ما يدل على أن الله جل جلاله أثبت حقاً للعباد على الله تعالى بمحض فضله ورحمته وإحسانه ووعده الصادق، ويدخل في ذلك قبول توبتهم.

فمن ذلك: حديث معاذ في الصحيحين، عن أنس عن معاذ قال: (كنت ردف النبي ﷺ، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك،

قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم)[١٨٥٦].

وفي الصحيحين أيضاً عن معاذ بن جبل قال: (كنت ردف رسول الله ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قال: قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)[١٨٥٧] وإنما أخبر معاذ بذلك والله أعلم خوفاً من إثم كتمان العلم.

وقد اختلف الفقهاء في قبول التوبة من الله تعالى: هل هو قطعي أم ظني؟ فقال بعضهم إنه قطعي، وقال آخرون إنه ظني.

وموضوع قبول التوبة من الله تعالى يثير جملة أمور يجب بحثها:

منها: ما يتعلق بقطعية قبول التوبة أو ظنيته وهو أهم موضوع في هذا الباب لأنه يمثل الغاية الكبرى بالنسبة لجميع التائبين.

ومنها: ما يتعلق بعلاقة قبول التوبة بالتقوى، وعلامات صحة التوبة وقبولها.

ومنها: ما يتصل بمتعلقات قبول التوبة : كبيان حكم توبة الكافر، أو بيان المشمولين بقوله تعالى: (لن تقبل توبتهم)، أو قوله تعالى: (يعملون السوء بجهالة)، وكانتهاء وقت التوبة بحضور الموت وبطلوع الشمس من مغربها، ونحو ذلك.

وعلى ذلك سنقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

نبحث في الفصل الأول: قبول التوبة من الله تعالى هل هو قطعي أم ظني؟
ونبحث في الفصل الثاني: علاقة قبول التوبة بالتقوى، وعلامات صحة التوبة وقبولها.
ونتناول في الفصل الثالث: متعلقات مسألة قبول التوبة.

(١٨٥٦) متفق عليه: البخاري(٥٥١٠)، ومسلم (٤٣).
(١٨٥٧) متفق عليه: البخاري (٢٦٤٤)، ومسلم (٤٤).







الفصل الأول

قبول التوبة من الله تعالى : هل هو قطعي أم ظني

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: أقوال المذاهب الفقهية في قبول التوبة هل هو قطعي أم ظني.
- المبحث الثاني: أقوال كبار العلماء القائلين بأن قبول التوبة مقطوع به وردهم على المخالفين.
- المبحث الثالث: القول الراجح وأدلته.








الفصل الأول

قبول التوبة من الله تعالى : هل هو قطعي أم ظني

١٥٤٩ – تمهيد وتقسيم:

سنقدم فيما يلي أقوال المذاهب الفقهية في مبحث أول، ثم أقوال مشاهير العلماء والمفسرين ممن خصوا هذا الموضوع ببيان أكثر من غيرهم كالغزالي والقرطبي وابن تيمية وغيرهم، في مبحث ثان، مع بيان الرأي الذي نرجحه بناء على قوة الدليل، ونخصص المبحث الثالث لبيان القول الراجح وأدلته، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول
أقوال المذاهب الفقهية في قبول التوبة هل هو قطعي أم ظني؟

١٥٥٠- إيراد أقوال المذاهب الفقهية:

اختلف فقهاء المذاهب الفقهية في قبول التوبة من الله تعالى هل هو مقطوع به ومؤكد وحتمي أم هو على سبيل الظن فتحتمل القبول وعدمه؟ وأحياناً نجد هذا الخلاف عند فقهاء المذهب الواحد، وفيما يلي بعض أقوالهم:

١٥٥١-١- من فقه المالكية:

جاء في حاشية الدسوقي على الشرح الكبير قوله: «اعلم أن توبة الكافر مقبولة قطعاً وأما توبة المؤمن العاصي فمقبولة ظناً على التحقيق، وقيل قطعاً»[١٨٥٨].

وجاء في شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: «... وقال ابن المنير: قبول التوبة عند المعتزلة واجب على الله تعالى عقلاً، وعندنا واجب بحكم الوعد والتفضل والإحسان...

وأما إذا فرضنا: [شخصاً] معيناً صحيح التوبة:

فقيل: يقطع بقبول توبته وعليه طائفة منها الفقهاء المحدثون لأنه تعالى أخبر عن نفسه بذلك وعلى هذا يلزم أن تقبل توبة جميع التائبين [الذين صحت توبتهم].

وذهب أبو المعالي وغيره إلى أن ذلك: لا يقطع به على الله بل يقوي في الرجاء.

والقول الأول أرجح، [أي قبول التوبة قطعاً بحكم الوعد والتفضل والإحسان] ولا فرق بين التوبة من الكفر والتوبة من المعاصي بدليل أن الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها»[١٨٥٩].

(١٨٥٨) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/ ٤٠٦-٤٠٧.

(١٨٥٩) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ج: ٢ ص: ١١٨.

١٥٥٢-٢- من فقه الشافعية:

جاء في طرح التثريب: «قبول الله تعالى توبة العبد إذا وقعت على الوجه المعتبر شرعاً:

إذا كانت توبة الكافر من كفره فهي مقطوع بقبولها... وإن كانت سواها من أنواع التوبة فهل قبولها مقطوع به، أو مظنون؟ فيه خلاف لأهل السنة واختار إمام الحرمين أنه مظنون قال النووي: وهو الأصح. قال أبو القاسم القشيري: التائب من الذنب على يقين، ومن قبول التوبة على خطر فينبغي أن يكون دائم الحذر»[١٨٦٠].

وجاء في فتاوى الرملي: « (سئل) عن توبة المسلم إذا وجدت شروطها هل يقطع بقبولها كتوبة الكافر أو لا؟ (فأجاب): بأن التوبة غير مقطوع بقبولها»[١٨٦١].

وجاء في مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: «إن سقوط الذنب بالتوبة مظنون لا مقطوع به ، وسقوط الكفر بالإسلام مع الندم مقطوع به وتائب بالإجماع. قال في أصل الروضة: وليس إسلام الكافر توبة من كفره ، وإنما توبته ندمه على كفره ولا يتصور إيمانه بلا ندم فيجب مقارنة الإيمان للندم على الكفر. اهـ. وإنما كان توبة الكافر مقطوعاً بها؛ لأن الإيمان لا يجامع الكفر والمعصية قد تجامع التوبة»[١٨٦٢].

١٥٥٣-٣- من فقه الحنابلة:

جاء في «الآداب الشرعية»: «... وذكر في شرح مسلم أن أهل السنة قالوا: لا يجب عقلاً لكن كرماً منه وفضلاً، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع وهذا معنى قول غير واحد من أصحابنا... وقد قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] أي واجبا أوجبه هو على نفسه...

وقال الشيخ تقي الدين: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك. ووعده صدق ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً

(١٨٦٠) عبد الرحيم العراقي طرح التثريب ٨/ ٢٤٠.

(١٨٦١) فتاوى الرملي: ٤/ ٣٨٠-٣٨١ .

(١٨٦٢) الخطيب الشربني: مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ٦/ ٣٦٦.

زائداً على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال النبي ﷺ لمعاذ: (أتدري ما حق العباد على الله عز وجل إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم)[١٨٦٣].

لكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه مخلوق. والمعتزلة يدعون: أنه واجب عليه بالقياس على الخلق وأن العباد هم الذين أطاعوا بدون أن يجعلهم مطيعين ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا في ذلك ... وحديث معاذ المذكور في الصحيحين عن أنس عن معاذ قال: (كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: يا معاذ قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم)[١٨٦٤]. وفي الصحيحين عن عمرو بن ميمون عن معاذ قال (كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله عز وجل قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وإن حق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)[١٨٦٥].

وفي الصحيحين عنه (أنه كان رديف النبي ﷺ على الرحل، فناداه ثلاثاً، كل مرة يجيبه لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار، قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشرون؟ قال إذاً يتكلوا. وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً)[١٨٦٦]. قال ابن هبيرة: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين سمعوا بمثل هذا ازدادوا في الطاعة ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة فلا وجه لكتمانها

(١٨٦٣) متفق عليه: البخاري (٢٦٤٤) و(٥٧٩٦) و(٧٨٢٥)، ومسلم (٤٣) و(٤٤) و(٤٥).

(١٨٦٤) متفق عليه: البخاري (٢٦٤٤) و(٥٧٩٦) و(٦٨٢٥)، ومسلم (٤٣) و(٤٤) و(٤٥).

(١٨٦٥) متفق عليه: البخاري (٢٦٤٤)، ومسلم (٤٤).

(١٨٦٦) متفق عليه: البخاري (١٢٥)، ومسلم (٤٧).

عنهم... قال: وقوله: «ما حق العباد على الله؟» أي ما جزاؤهم؟ فعبر عن الجزاء بالحق... كذا قال والله أعلم.

وتوبة الكافر من كفره، قبولها مقطوع به جزم به في شرح مسلم وغيره... وذكر في شرح مسلم أن فيها [أي توبة المسلم] خلافاً لأهل السنة في القطع والظن، واختيار أبي المعالي الظن وأنه أصح والله أعلم»[(١٨٦٧)].

١٥٥٤-٤- من فقه الحنفية [(١٨٦٨)]:

لم أجد في مصادر الحنفية الكثيرة - حسب اطلاعي - كلاماً مباشراً عن قبول التوبة قطعاً أو ظناً، ولكني وجدت كلاماً عن قبول عمل المطيعين حتماً وواجباً بحكم صدق الوعد وأن ذلك حاصل بالسمع وكائن بحكمته تعالى، ولا ريب أن الكلام بعمومه يشمل كل الطاعات بما في ذلك التوبة الصحيحة.

قال ابن عابدين في «رد المحتار على الدر المختار» وهو يتكلم عن الصلاة على النبي ﷺ ومعنى كونها مقبولة قطعاً ثم شمل بكلامه الثواب على جميع الطاعات إذا خلت من العوارض [أي كانت صحيحة وخالصة]، وجعل القبول حتمياً إنجازاً للوعد الصادق:

قال: «... نعم، حيث وعد سبحانه وتعالى بالثواب على الطاعة، ونحو الألم حتى الشوكة يشاكها، بمحض فضله تعالى، لا بد من وجوده [الثواب] لوعده الصادق، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وعلى هذا: فعدم القبول لبعض الأعمال إنما هو لعدم استيفاء شروط القبول: كعدم الخشوع في نحو الصلاة، أو عدم حفظ الجوارح في الصوم، أو عدم طيب المال في الزكاة والحج، أو عدم الإخلاص مطلقاً [أي: في أي عمل كان] ونحو ذلك من العوارض. وعلى هذا فمعنى أن الصلاة على النبي ﷺ

(١٨٦٧) محمد بن مفلح بن محمد المقدسي: الآداب الشرعية ١/ ١١٨-١٢١.

(١٨٦٨) أخرنا الكلام على فقه الحنفية مع أنه الأول من المذاهب الأربعة من حيث الزمان، نظراً لأن الكلام الذي اقتبسناه من مذهبهم لم يكن مباشراً في موضوع التوبة وإنما هي مشمولة به بالتعميم، فرأينا أنه يحسن أن يطلع القارئ الكريم على معاني قطعية قبول التوبة وظنيتها ومعنى حق العباد على الله تعالى، والواجب على الله تعالى للعباد بحكمته، ونحو ذلك من المعاني من خلال أقوال المذاهب الثلاثة التي أوردنا أقوالها أولا والتي تكلمت مباشرة في الموضوع، وبعدها يسهل فهم قول الحنفية، فلذلك أخرناه.

قد ترد عدم إثابة العبد عليها لعارض كاستعمالها على محرم كما مر، أو لإتيانه بها من قلب غافل أو لرياء وسمعة؛ كما أن كلمة التوحيد التي هي أفضل منها لو أتى بها نفاقا أو رياء لا تقبل، وأما إذا خلت من هذه العوارض ونحوها فالظاهر القبول حتما إنجازا للوعد الصادق كغيرها من الطاعات ، وكل ذلك بفضل الله تعالى ...»[(١٨٦٩)].

وذكر الجصاص في تفسيره «أحكام القرآن» جواز القول بأن ثواب المطيعين واجب على الله في حكمته، فقال: «ألا ترى أنه جائز أن يقال: إن ثواب المطيعين واجب على الله في حكمته ولا يجوز أن يقال إنه فرض عليه؟، إذ كان الفرض يقتضي فارضاً، وقد يكون واجباً في الحكمة غير مقتض موجباً...»[(١٨٧٠)].

١٥٥٥-٥- من فقه الإباضية:

جاء في «شرح النيل وشفاء العليل»: «واعلم أن التوبة إذا استجمعت شروطها مقبولة لا محالة ، لأن الله تعالى وعد بقبولها ، ولا يخلف الميعاد ، ولا طاقة لظلمة المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لليل مع النهار والتوبة كالصابون ، وكل نظيف من الثياب مقبول ، وقد تتراكم الذنوب فتمنع صاحبها من التوبة كالوسخ المتراكم الداخل في تجاويف الثوب اللازق لا يغسله الصابون ، فكما أنه لا بد من زوال الوسخ بالصابون كذلك قبول التوبة واجب أعني أنها تقبل لا محالة بفضل الله ، ولا واجب على الله ، وليس كما قيل عن المعتزلة: إنها واجبة على الله بل كما تقول إذا شرب العطشان وجب الري، وإذا غسل بالصابون وجبت النظافة ولكن الري والنظافة يتيقنهما الشارب والناظر للثوب والتوبة لا يتيقن قبولها التائب ولا غيره للشك في وجود شرائطه»[(١٨٧١)].

(١٨٦٩) ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ١/ ٥١٩ وما بعدها.

(١٨٧٠) الجصاص: أحكام القرآن ٢/ ١٠٣ . ومعلوم في علم الأصول أن الحنفية ينفردون بالتفرقة بين الفرض والواجب بينما يجعل منهما بقية الأصوليين والفقهاء شيئاً واحداً (انظر ذلك في كتب أصول الفقه، ومنها « الوجيز » في أصول الفقه لأستاذنا الدكتور عبد الكريم زيدان مبحث: الواجب).

(١٨٧١) محمد أطفيش: شرح النيل وشفاء العليل ١٧/ ٣٧٠-٣٧١ ويظهر أن صاحب شرح النيل قد اقتبس معظم ألفاظه من الإمام الغزالي بما في ذلك الأمثلة التي ساقها كما سنرى ذلك عند إيراد كلام الغزالي في المسالة.

المبحث الثاني
أقوال كبار العلماء القائلين بأن قبول التوبة مقطوع به وردهم على المخالفين

١٥٥٦- أولاً - قول الإمام الغزالي بأن التوبة الصحيحة مقبولة قطعاً:

بين الإمام الغزالي أن التوبة الصحيحة مقبولة من الله تعالى قطعاً وليس على سبيل الظن، ثم قدم الأدلة على ذلك، ونحن ننقل كلامه في ذلك - مشذباً ومختصراً وبقدر ما تمس الحاجة إليه مع وضع عناوين جانبية لتوضيح الأفكار الرئيسية في كلامه - قال تحت عنوان[١٨٧٢]: «بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة: اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة.

١٥٥٧- كل قلب سليم فهو مقبول عند الله ومتنعم بجواره:

فالناظرون بنور البصائر، المستمدون من أنوار القرآن: علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى.

وعلموا: أن القلب خلق سليماً في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها.

١٥٥٨- زوال أثر الذنب نتيجة حتمية للتوبة:

وعلموا: أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون.

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره.

(١٨٧٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٣-١٥.

وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول.

١٥٥٩- قبول التوبة الصحيحة سبق به القضاء الأزلي:

فإنما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩].

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر: أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره، ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل، وأعنى به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه؟

١٥٦٠- التوبة الصحيحة سبب حتمي للقبول بالإرادة الأزلية في ترتيب السبب وأثره:

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول، إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة.

١٥٦١- الدليل من القرآن والسنة والآثار على أن التوبة الصحيحة مقبولة قطعاً:

ولكنا نعضد جناحه: بنقل الآيات، والأخبار، والآثار، فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به.

١٥٦٢- أ- من القرآن الكريم:

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

١٥٦٣- ب - من السنة النبوية:

١٥٦٤-١- التعبير بالفرح الإلهي بالتوبة يدل على القبول وزيادة:

وقال ﷺ: (لله أفرح بتوبة أحدكم)[١٨٧٣] الحديث، والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة.

١٥٦٥-٢- التعبير ببسط اليد ليتوب المسيء يتضمن القبول:

وقال ﷺ: (إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار، ولمسيء النهار إلى الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[١٨٧٤]. وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل.

١٥٦٦-٣- المعضدات الأخرى من السنة النبوية لقبول التوبة الصحيحة قطعاً:

وقال ﷺ: (لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم)[١٨٧٥].

(١٨٧٣) أخرجه مسلم (٤٩٥٤)، وأحمد (١٨٧٠٨) و(١٨٧٩٣).

(١٨٧٤) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار الحديث رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٣).

(١٨٧٥) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب عليكم أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٣).

وقال أيضاً: (إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة)(١٨٧٦).

وقال ﷺ :(كفارة الذنب الندامة)(١٨٧٧).

وقال ﷺ : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)(١٨٧٨)...

ويروى: (أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه)(١٨٧٩).

وقال ﷺ : (إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ)(١٨٨٠).

والأخبار في هذا لا تحصى.

(١٨٧٦) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبى هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبى الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٤).

(١٨٧٧) حديث كفارة الذنب الندامة أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكري ضعيف(تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٤).

(١٨٧٨) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٠).

(١٨٧٩) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ فذكرته احتياطاً (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٤).

(١٨٨٠) قال العراقي: حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ٤/ ١٤).

١٥٦٧- ج - الآثار المنقولة عن السلف: تدل على قبول التوبة الصحيحة:

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] في الرجل: يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، وقال الفضيل قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب...

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقاً منه فيغفر له.

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس.

وقال عبدالرحمن بن أبي القاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل: إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

قال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي، قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب علي.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى أنه كان في بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك...

فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

١٥٦٨- قبول التوبة الصحيحة قطعاً ليس من قبيل القول إنه واجب على الله:

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموت. وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلا للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

١٥٦٩- سبب شك التائب في قبول توبته مع أن الله يقبل التوبة قطعاً:

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه، فلم يشك فيه؟ فأقول: شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها،كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل؟ وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة...»[١٨٨١].

(١٨٨١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ١٣-١٥.

١٥٧٠- ثانياً - قول البيهقي: قبول التوبة الصحيحة واقع لا محالة بحكم الوعد:

قال البيهقي في «شعب الإيمان»: «قال الحليمي رحمه الله:... وإذا تاب العبد فليس بواجب على الله جل جلاله أن يقبل توبته، ولكنه لما أخبر عن نفسه أنه يقبل التوبة عن عباده ولم يخبر أن يخلف وعده، علمنا أنه لا يرد التوبة الصحيحة على صاحبها فضلاً منه، ولا يجب لعباده عليه شيء بحال، فليس هو تحت أمر آمر ولا نهي ناه فيلزمه شيء، وقوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فمعناه: أنه لما قضى ذلك وأخبر به فهو يفعله ولا يخلف وعده، وقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فمعناه: إنما التوبة التي وعد الله قبولها وهو لا يخلف وعده بالقبول، منه واقع لا محالة، كما يقع الفعل الواجب ممن وجب عليه»[١٨٨٢].

١٥٧١- ثالثاً- قول القرطبي: الأدلة السمعية تدل على قبول التوبة بوعده ولا خلف فيه:

تكلم القرطبي عن هذه المسألة بمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فقال:

قوله تعالى: (إنما التوبة على الله)... اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) وتصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه - خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب ولا فرق بين معصية ومعصية - هذا مذهب أهل السنة.

١٥٧٢- المشيئة المطلقة تقتضي الخيار ولكنها تجري حسبما وعد الله به فيجب سمعاً لا عقلاً:

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها وإن شاء لم يقبلها، وليس قبول التوبة واجباً على الله من طريق العقل كما قال المخالف [أي المعتزلة] لأن من شرط

(١٨٨٢) شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٣٩٥ حديث رقم (٧٠٦٢).

الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه [عقلاً] تعالى عن ذلك.

١٥٧٣- إخبار الله تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء:

غير أنه قد أخبر سبحانه وهو الصادق في وعده بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه: ٨٢]، فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء، والعقيدة: أنه لا يجب عليه شيء عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب.

قال أبو المعالي وغيره: وهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله بقبول التوبة، قال ابن عطية: وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى.

فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامة الشروط، فقال أبو المعالي: يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته كما أخبر عن نفسه جل وعز، قال ابن عطية: وكان أبي رحمه الله يميل إلى هذا القول ويرجحه وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥] وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ ﴾ [طه: ٨٢].

[قال القرطبي]: وإذا تقرر هذا: فاعلم أن في قوله: (على الله) حذفاً، وليس على ظاهره، وإنما المعنى: على فضل الله ورحمته بعباده، وهذا نحو قوله ﷺ لمعاذ: (أتدري ما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يدخلهم الجنة)[١٨٨٣]، فهذا كله معناه: على فضله ورحمته بوعده الحق، وقوله الصدق، دليله قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢]، أي: وعد بها، وقيل: (على) ها هنا معناها: عند، والمعنى واحد، التقدير: عند الله، أي إنه: وعد، ولا خلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها»[١٨٨٤].

(١٨٨٣) مجمع الزوائد:١/ ٥٠، والمعجم الكبير:٢٠/ ١٢٢ .

(١٨٨٤) تفسير القرطبي ج: ٥ ص:٩٠-٩١.

١٥٧٤- الشوكاني ينقل عن القرطبي القول بقطعية قبول التوبة الصحيحة:

قال الشوكاني: «إن التوبة تكفر المعاصي والكبائر، وذلك في التوبة من الكفر قطعي، وفي غيره من الذنوب خلاف بين أهل السنة هل هو قطعي أو ظني؟ قال النووي: الأقوى أنه ظني. وقال القرطبي: من استقرأ الشريعة علم أن الله يقبل توبة الصادقين قطعا»(١٨٨٥).

١٥٧٥- الشك في قبول التوبة راجع إلى الشك في كمالها:

وقال القرطبي في موضع آخر من تفسيره: «فإن قال قائل: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكونوا قد بقي من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به، فهم يخافون من المطالبة به»(١٨٨٦). [قلت: وهم أيضاً لا يضمنون لأنفسهم حسن الخاتمة فهم على خطر يوجب دوام الحذر].

١٥٧٦- رابعاً - قول ابن تيمية: قبول التوبة الصحيحة قطعي بطريق السمع:
١٥٧٧- الأمر بالتوبة يستتبع قبولها إذا وقعت صحيحة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية «... ومنها أن أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنما أمروا بها لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]...»(١٨٨٧).

١٥٧٨- كل من تاب فإن الله يتوب عليه:

وقال في موضع آخر: «وكل من تاب من أي ذنب كان فان الله يتوب عليه كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

(١٨٨٥) الشوكاني: نيل الأوطار: ٨/ ١٩٦.
(١٨٨٦) تفسير القرطبي ج: ١٣ ص: ١٦١.
(١٨٨٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٠٤.

﴿جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥]، فقد أخبر الله في هذه الآية أنه يغفر الذنوب أي لمن تاب...»[١٨٨٨].

وقال في موضع آخر: «لا ريب أن من تاب إلى الله توبة نصوحا تاب الله عليه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]...»[١٨٨٩].

١٥٧٩- غفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به لم يعلقه الله تعالى بالمشيئة:

وأصرح من كل ما تقدم ما جاء في كتابه «شرح العقيدة الطحاوية» حيث قال: «وقوله [أي الطحاوي]: وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وان لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين [يعني: من أهل الإيمان]، وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وان شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته...»[١٨٩٠].

ثم شرح ابن أبي العز ذلك فقال: «وقوله: وهم في مشيئة الله وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، إلى آخر كلامه، فصل الله تعالى بين الشرك وغيره، لأن الشرك أكبر الكبائر، كما قال وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور، وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة...»[١٨٩١].

(١٨٨٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٦٣.

(١٨٨٩) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٣٠٠.

(١٨٩٠) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ج: ١ ص: ٤١٦.

(١٨٩١) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ج: ١ ص: ٤٢٠.

١٥٨٠- القول بأن العبد يكون له حق على الله بالقبول صحيح إذا أخبر الله بوقوعه:

وقال في موضع آخر: «ومن قال بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته.. فإنه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم إيراده[١٨٩٢]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]... فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم، ووعد السائلين بأن يجيبهم، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد، قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين»[١٨٩٣].

١٥٨١- المؤمن لا يجزم بقبول أعماله - ومنها توبته - لأنه لا يجزم بكمالها:

تكلم ابن تيمية عن هذا بمناسبة الكلام على الاستثناء الذي يدل على عدم الجزم بسبب الشك في كمال العمل كقول القائل أنا مؤمن إن شاء الله، أو تائب إن شاء الله، فيعلق ذلك على المشيئة لعدم القطع بكمال الفعل فقال:

«... والمأخذ الثاني في الاستثناء: أن الإيمان المطلق: يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء

(١٨٩٢) أي الحديث الذي فيه (أتدري ما حق العباد على الله؟) وهو حديث معاذ الذي جاء في الصحيحين، عن أنس عن معاذ قال: (كنت ردف النبي ﷺ، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم) «متفق عليه: البخاري(٥٥١٠)، ومسلم (٤٣)».

(١٨٩٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١ ص:٢١٨ - ٢١٩.

الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة، فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال الخلال في كتاب السنة: حدثنا سليمان بن الأشعث يعني أبا داود السجستاني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال له رجل قيل لي: أمؤمن أنت؟ قلت: نعم، هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟... قال أحمد: أليس الإيمان قولا وعملا؟ قال له الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني؟.

قلت [أي ابن تيمية]: والقبول متعلق بفعله كما أمر، فكل من اتقى الله في عمله ففعله كما أمر فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة: يا رسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال لا يا بنت الصديق، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه...»[١٨٩٤].

وقال في موضع آخر: «وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتي بالعمل على وجهه المأمور وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، وصليت إن شاء الله، لخوف أن لا يكون آتى بالواجب على الوجه المأمور به»[١٨٩٥].

ومن كل ما تقدم من الاقتباسات التي قدمناها من أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية يتبين أنه يرى أن العمل الصالح الصحيح - ومنه التوبة - مقبول قطعاً بحكم الوعد

(١٨٩٤) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٤٦-٤٤٧ ثم بين ابن تيمية أن الصحيح هو أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن بلا استثناء ويريد به الإيمان المقيد ويقرنه بما يفيد ذلك، ونقل عن الإمام أحمد أنه لم ينكر على من لم يستثن إذا لم يكن قصده الإيمان المطلق الكامل وإن كان يكره ذلك (مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٤٩).

(١٨٩٥) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة ج: ٧ ص: ٤٩٦.

الصادق من الله تعالى وبما أوجب على نفسه بحكمته وفضله، ولكن صاحب العمل لا يمكنه الجزم بقبوله للشك في كمال الفعل.

١٥٨٢- خامساً- قول الآلوسي: التوبة الصحيحة مقبولة لا محالة بحكم سبق الوعد فضلاً من الله تعالى:

قال الآلوسي في تفسيره: «وأنت تعلم أن في عدم تكفير التوبة الذنب مقالاً، والمنقول عن السبكي أنه قال: إن قبول التوبة عن الكفر مقطوع به تفضلاً، وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة، والمختار عند إمام الحرمين أن تكفير التوبة للذنب مظنون وادعى النووي أنه الأصح.

وفي شرح البرهان: الصحيح عندنا القطع بالتكفير. وقال الحليمي: لا يجب على الله تعالى قبول التوبة لكنه لما أخبر عن نفسه أنه يقبل التوبة عن عباده ولم يجز أن يخلف وعده علمنا أنه سبحانه وتعالى لا يرد التوبة الصحيحة فضلاً منه تعالى»[١٨٩٦].

وقال الآلوسي في موضع آخر من تفسيره: «ولما وصف سبحانه نفسه بالتواب الرحيم عقب ذلك ببيان شرط قبول التوبة بقوله جل شأنه ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٧] أي: إن قبول التوبة، و(على) وإن استعملت للوجوب حتى أستدل بذلك الواجبة عليه فالمراد أنه: لازم متحقق الثبوت البتة يحكم سبق الوعد حتى كأنه من الواجبات، كما يقال واجب الوجود.

وقيل: (على) بمعنى من، وقيل: هي بمعنى عند، وعليه الطبرسي، أي إنما التوبة عند الله للذين يعملون السوء أي المعصية صغيرة كانت أو كبيرة... قال مجاهد فيما أخرجه عنه البيهقي في الشعب وغيره: كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى به فهو جهالة عمداً كان أو غيره. وروي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقال أبو عبد الله ﷺ : كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل فيه حين خاطر بنفسه في معصية ربه...

(١٨٩٦) الآلوسي: تفسيره: روح المعاني ج: ١٢ ص: ١٥٩.

قوله تعالى: (يتوب الله عليهم)... وهذا وعد بالوفاء بما وعد به سبحانه أولاً فلا تكرار، وضمن (يتوب) معنى يعطف فلذا عدي بـ (على)، وجوز أن يكون ذلك من المذهب الكلامي كأنه قيل: التوبة كالواجب على الله تعالى، وكل ما هو كالواجب عليه تعالى كائن لا محالة، فالتوبة أمر كائن لا محالة...»[1897].

(١٨٩٧) الآلوسي: روح المعاني: ج: ٤ ص: ٢٣٨-٢٣٩.

المبحث الثالث
القول الراجح وأدلته

١٥٨٣- الراجح: قبول الله تعالى للتوبة الصحيحة قطعي بحكم الوعد الصادق فضلاً منه وإحساناً:

وبعد هذه الرحلة الطويلة والمهمة في أقوال فقهاء المذاهب الفقهية، ثم أقوال كبار العلماء والمفسرين، يترجح لي قول من قال: بأن قبول الله تعالى للتوبة الصحيحة قطعي بحكم الوعد الصادق من الله تعالى فضلاً منه وإحساناً، وأن مشيئته جارية وفق ما وعد به وأخبر به أنه كائن من قبول التوبة، وأن هذا القبول لا يتخلف لأن وعده الصادق لا يتخلف، وأن ما أوجبه الله تعالى على نفسه كائن بمشيئته تفضلاً منه، وأن ذلك ثابت بطريق السمع [أي بالأدلة الواردة في الكتاب والسنة] وليس بطريق العقل.

١٥٨٤- سبب الترجيح لما رجحناه من أقوال العلماء:

وسبب هذا الترجيح قوة الأدلة التي قدمها القائلون بقطعية قبول التوبة الصحيحة، وهي أدلة تستند إلى الكتاب والسنة والاستنباط الصحيح منهما وفقاً لأصول الفقه. في حين لم نجد مع القائلين بأن قبول التوبة الصحيحة من الله تعالى ظني ما ينتقصون به من قيمة تلك الأدلة، وأيضاً لم يقدموا دليلاً يعول عليه ويطمأن إليه.

١٥٨٥- استدلال إضافي يعضد ما رجحناه:

ونضيف إلى أدلة القائلين بقطعية قبول التوبة الصحيحة: أن القرآن الكريم ما جاء في أي موضع منه النص على تعليق قبول التوبة بالمشيئة بينما علق المغفرة بدون توبة بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأيضاً فإنه بين أصلاً مهماً: وهو أن قبول التوبة مراد لله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، قال القرطبي: «والمعنى: يريد توبتكم أي يقبلها ويتجاوز عن ذنوبكم»[١٨٩٨]، قلت: وإنما يريدها ليقبلها، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ

(١٨٩٨) تفسير القرطبي ١٤٨/٥.

لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

قال سيد قطب رحمه الله في تفسير الآية: «الآية... تفتح باب التوبة على مصراعيه، وباب المغفرة على سعته، وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول: ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيًما.. إنه - سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب... وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين، ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوه تائبين. هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب! حيثما جاؤوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً..»(١٨٩٩).

هذا بالنسبة لقطعية قبول التوبة الصحيحة من الله تعالى.

١٥٨٦- التائب لا يمكنه الجزم بقبول الله توبته لعدم قطعه بتوافر شروط الصحة والكمال فيها:

أما بالنسبة للتائب نفسه فلا يمكنه أن يجزم بأن الله تعالى قبل توبته وإنما يرجو ذلك ولا يقطع به نظراً لعدم قطعه بتوافر شروط الصحة والكمال في توبته، وكل الذي يقدر عليه أن يسدد ويقارب كما قال ﷺ: (ولكن سددوا وقاربوا وأبشروا)(١٩٠٠)، ويدعو الله تعالى وندعو معه أن يصلح لنا أعمالنا ويتقبلها، ويغفر لنا ذنوبنا، كما قال تعالى: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١]، جاء في تفسيرها: «قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم، وقال مقاتل: يزك أعمالكم»(١٩٠١)، وإذا كان حسن توبتنا وحسن أعمالنا قليلا يزيده بفضله ورحمته من عنده تزكية وتضعيفاً وثواباً كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ

(١٨٩٩) سيد قطب: في ظلال القرآن ص ٧٥٥.
(١٩٠٠) متفق عليه: البخاري(٥٩٨٦)، ومسلم (٥٠٤٣).
(١٩٠١) تفسير البغوي ٣/٥٤٦.

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣][١٩٠٢]»، ثم يختم لنا بعد التوبة بحسن الخاتمة، إنه ولي المتقين، وحبيب التائبين، وهو نعم المولى ونعم النصير.

١٥٨٧- صفوة القول:

وصفوة القول إن ها هنا مسألتين: قبول الله للتوبة الصحيحة وهو أمر متعلق به جل جلاله، وعلمنا بهذا القبول وهو أمر متعلق بنا:

فالمسألة الأولى: قبول الله تعالى للتوبة الصحيحة، فهذا قطعي بحكم الوعد الصادق من الله تعالى الذي أخبر بأنه يقبل توبة التائبين، وما يخبر الله تعالى بوقوعه كائن لا محالة، فقوله الحق ووعده الصدق، وهذا فعل الله تعالى متعلق به وقد أخبر بوقوعه، فلا بد من التصديق به على سبيل اليقين.

والمسألة الثانية: (علمنا) بوقوع القبول لتوبة تائب معين ، وهذا مبني على مقدمة غير يقينية وهي توافر شروط الصحة والكمال في توبته وهو لا يقدر أن يجزم بذلك، ولا أحد من العالمين يقدر أن يجزم له به، فيكون العلم بقبول توبته ظنياً لا قطعياً، فهو يرجو قبول توبته ويظن ذلك ظنا، ويستثنى من ذلك من أخبر الله تعالى بقبول توبته فيكون علمه يقينيا كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

(١٩٠٢) جاء في تفسير الطبري: «يقول تعالى ذكره: ومن يعمل حسنة وذلك أن يعمل عملاً يطيع الله فيه من المؤمنين (نزد له فيها حسناً) يقول: نضاعف عمله ذلك الحسن فنجعل له مكان الواحد عشراً إلى ما شئنا من الجزاء والثواب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل» (تفسير الطبري:ج:٢٥ ص:٢٦).







الفصل الثاني

علاقة قبول التوبة بالتقوى، وعلامات صحة التوبة وقبولها

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: علاقة قبول التوبة بالتقوى
- المبحث الثاني: علامات صحة التوبة وقبولها.









الفصل الثاني

علاقة قبول التوبة بالتقوى، وعلامات صحة التوبة وقبولها

١٥٨٨- تقسيم البحث:

نتناول في هذا الفصل بيان علاقة قبول التوبة بالتقوى وهو ما نخصص له المبحث الأول، ثم علامات صحة التوبة وقبولها وهو ما نخصص له المبحث الثاني وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول
علاقة قبول التوبة بالتقوى

١٥٨٩- تمهيد وإيراد سؤال مهم:

ورد في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧].

فإذا تأملت قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين) وجدت فيه (إنما) وهي تفيد الحصر، والمعنى: أنه يتقبل من المتقين دون غيرهم.

فهل المراد: يتقبل الأعمال ممن كانت حاله التقوى الدائمة ولا يتقبل من غيره؟ أم المراد أنه يتقبل العمل ممن اتقاه في ذلك العمل فعمله خالصاً وصواباً وإن كانت له ذنوب تخرجه عن حال أهل التقوى؟.

فهذه مسألة على درجة كبيرة من الأهمية تحتاج إلى تجليتها وإيضاحها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما نحن فيه من الكلام على قبول التوبة.

١٥٩٠- البحث في معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

ولا يصح - حسب فهمنا - أن يكون معنى الآية أنه سبحانه يتقبل ممن حاله التقوى الدائمة فقط دون غيره، لأن هذا القول يستلزم أنه لا يقبل أي عمل صالح من أهل الذنوب فلا يتقبل عملاً صالحاً ممن عنده كبائر لأنه ليس من المتقين، ولا يتقبل توبته لأنه صاحب ذنوب يريد أن يتوب عنها وليس من المتقين، ولا يتقبل إسلام الكافر لأنه كافر ليس من المتقين، ولا يتقبل التوبة من ذنب دون ذنب. ولا يتقبل من المخلطين عملاً صالحاً قط، وكل ذلك مخالف للكتاب والسنة.

فالمقرر في الشرع خلاف ذلك كله، فإنه تعالى يقبل توبة كل تائب مهما كان قبل التوبة بعيدا عن مسمى التقوى ومضمونها.

١٥٩١- المعنى الصحيح للمراد بكلمة (المتقين) في الآية:

وعلى ذلك فإن المعنى الراجح بل الصحيح للمراد بكلمة (المتقين) في هذه الآية أنه: الذي يعمل العمل بتقوى، ليكون عملاً متقبلاً، فيجعل عمله: صواباً على السنة، وخالصاً

لله تعالى، فيقبله الله تعالى وإن كان صاحبه له ذنوب أخرى لم يتب منها وقد تكون من الكبائر، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

وهذا التفسير الذي نعتقد صوابه هو الذي عليه أكابر المفسرين وأكابر علماء الأمة، وهو رأي أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

١٥٩٢- تفسيرنا للآية في ضوء منهج تفسير القرآن بالقرآن والسنة:

ومعلوم أن من المناهج المهمة في التفسير: تفسير القرآن بالقرآن وتفسيره بالسنة وهو المسمى بالتفسير بالأثر في مقابل التفسير بالرأي (الاجتهاد)، أو التفسير الإشاري، أو اللغوي، أو غيرها من مناهج التفسير، أي أن الآية: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] يجب أن يتم تفسيرها في ضوء:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

١٥٩٣- شرطا قبول العمل: الإيمان، وصلاح العمل بأن يتقي الله فيه:

فهذه الآيات جميعاً اشترطت لقبول العمل والجزاء الحسن عليه: أن يكون صاحبه مؤمناً لقوله تعالى:(وهو مؤمن) ، أي أن يكون من صدر منه العمل من أهل الإيمان فلا عبرة بالعمل الصادر من أهل الكفر لأنه محجوب عن القبول بالكفر، إلا عمل واحد هو إسلامهم فيقبل ثم تقبل بقية الأعمال الصالحة الصادرة ممن أسلم بعد إسلامه.

ومعلوم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] هو حكاية لقول أحد ابني آدم وهو هابيل في مواجهة أخيه الذي لم يتقبل الله قربانه، ولا شك أن ابن آدم قابيل كان مؤمناً غير كافر فهذا الشرط متوفر فيه، فما هو الشرط الآخر غير المتوفر فيه والذي جعل عمله لا يتقبل منه؟ لم يبق إلا أنه لم يتق الله في ذلك العمل فلم يقبل منه مع أنه مؤمن، وهذا هو الشرط الثاني لقبول العمل الصالح بعد شرط الإيمان: أن يكون صاحبه قد اتقى الله فيه وهو معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين)، فكيف يتقي الله فيه؟

يتقي الله فيه بأن يجعل عمله خالصاً وصواباً، خالصاً: مراداً به وجه الله تعالى وحده، وصواباً: وفقاً للشريعة. قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة»[١٩٠٣].

١٥٩٤- ابن آدم قابيل لم يتق الله في قربانه فلم يتقبل منه ذلك العمل:

وهذا هو الناقص في فعل ابن آدم قابيل بتقديم القربان فلم يكن صواباً ولم يكن خالصاً، لم يكن صواباً: لأنه قدم قرباناً: أردأ ماله، وأيضاً أكل منه أثناء تقديمه خلافاً لأحكام شريعته في القربان - كما يتبين من أقوال المفسرين بعد قليل - ولم يكن خالصاً: لأنه قدمه ساخطاً غير راض ولم يرد به وجه الله تعالى، فبذلك لم يتق الله فيه فهو ليس من المتقين في عمله ذاك فلم يتقبل منه مع أنه مؤمن لأن القبول مقصور على من يتق الله في ذلك العمل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١٩٠٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢١٧.

وهذا هو المعنى الصحيح - في فهمنا - للآية الكريمة في ضوء منهج تفسير القرآن بالقرآن لأن جميع الآيات التي ذكرناها سابقاً تقبل العمل الصالح بشرط الإيمان فما بقي إلا أن يكون هو في ذاته عملاً صالحاً وهو يكون كذلك إذا اتقى الله فيه على النحو الذي شرحناه.

فالمؤمن الذي يتبع صدقته بالمن والأذى لا يقبل عمله لأنه لم يتق الله فيه.

والمؤمن الذي يصلي الصلاة ناقصة في أركانها أو شروطها لا تقبل منه لأنه لم يتق الله فيها.

والمؤمن الذي يداخله الرياء في زكاة ماله لا يقبل منه لأنه لم يتق الله فيه.

وهكذا في سائر العبادات والمعاملات(١٩٠٤) التي: إما أن ينقصها الصواب فلا تقبل، أو ينقصها الإخلاص فلا تقبل، أو ينقصها كلاهما فلا تقبل، وإن كان صاحبها مؤمنا، لأنه لم يتق الله فيها.

وبعد هذا البيان يحسن بنا أن ننقل أقوال المفسرين للآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ثم نتبعها بتحرير ابن تيمية رحمه الله لهذه المسألة المهمة.

١٥٩٥- تحرير معنى (المتقين) في الآية: (إنما يتقبل الله من المتقين): عند أهل التفسير وغيرهم:

١٥٩٦- أولا - أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

١٥٩٧-١- قول القرطبي في معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

جاء في تفسير القرطبي: «وفي قول هابيل: (إنما يتقبل الله من المتقين) كلام قبله محذوف لأنه لما قال له قابيل: لأقتلنك، قال له: ولم تقتلني وأنا لم أجن شيئاً ولا ذنب لي في قبول الله قرباني؟ أما إني اتقيته... و(إنما يتقبل الله من المتقين). قال ابن عطية: المراد بالتقوى هنا: اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة، فمن اتقاه [أي الشرك] وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة، وأما المتقي الشرك والمعاصي [معاً] فله الدرجة العليا من القبول والختم بالرحمة، علم ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلاً...»(١٩٠٥).

(١٩٠٤) والمعاملات هي عبادات من وجه فكل من أجرى المعاملة على الوجه المسنون في الشريعة مريداً وجه الله تعالى ورضاه فإن عمله طاعة وعبادة. ولو كان بيعاً أو إجارة أو نكاحاً أو نحوها.

(١٩٠٥) تفسير القرطبي ج: ٦ ص: ١٣٥

١٥٩٨-٢- قول ابن كثير في معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

وجاء في تفسير ابن كثير: «ومعنى قوله: (إنما يتقبل الله من المتقين)[١٩٠٦]: أي ممن اتقى الله في فعله ذلك.

وقال ابن أبي حاتم... عن تميم يعني ابن مالك المقرئ قال سمعت أبا الدرداء يقول: لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها إن الله يقول (إنما يتقبل الله من المتقين)... وعن ميمون بن أبي حمزة قال كنت جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال بلى: سمعته يقول: يحبس الناس في بقيع واحد، فينادي مناد أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر، قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة»[١٩٠٧].

١٥٩٩-٣ - قول الشوكاني في معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

وجاء في تفسير فتح القدير للشوكاني: «...قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسميهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل لأنه كان صاحب زرع، واختارها

(١٩٠٦) وأورد ابن كثير جملة أحاديث في سبب قول هابيل لأخيه قابيل (إنما يتقبل الله من المتقين) منها: « وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن خثيم قال أقبلت مع سعيد بن جبير فحدثني عن ابن عباس قال نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة فقال أخو الدميمة أنكحني أختك وأنكحك أختي فقال لا أنا أحق بأختي فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله » إسناد جيد...وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو قال إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم وأنهما أمرا أن يقربا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه... غير طيبة بها نفسه وأن الله عز وجل تقبل قربان صاحب الغنم ولم يتقبل قربان صاحب الحرث وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه. (تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٤٣-٤٤).

(١٩٠٧) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٤٤.

من أردأ زرعه، حتى إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشاً لأنه كان صاحب غنم، أخذه من أجود غنمه، فتقبل قربان هابيل فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدي به الذبيح عليه السلام، كذا قال جماعة من السلف، ولم يتقبل قربان قابيل، فحسده وقال: لأقتلنك، وقيل سبب هذا القربان: أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، إلا شيثاً عليه السلام فإنها ولدته منفردا، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت جميلة واسمها إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك واسمها ليوذا، فلما أراد آدم تزويجهما، قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على القربان، وأنه يتزوجها من تقبل قربانه.

قوله: (بالحق) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر (واتل): أي تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبأ، أي نبأ متلبساً بالحق، والمراد بأحدهما هابيل وبالآخر قابيل، وقال لأقتلنك: استئناف بياني كأنه: فماذا قال الذي لم يتقبل قربانه؟ وقوله: قال: (إنما يتقبل الله من المتقين): استئناف كالأول، كأنه قيل: فماذا قال الذي تقبل قربانه؟ و(إنما): للحصر، أي: إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك»[١٩٠٨].

وقال في موضع آخر بمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] قال: «...ولهذا قال (ومن أراد الآخرة) أي: أراد بأعماله الدار الآخرة (وسعى لها سعيها) أي السعي الحقيق بها اللائق بطالبها وهو: الإتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب وكان الإتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى، وهو مؤمن بالله إيماناً صحيحاً، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والجملة في محل نصب على الحال، والإشارة بقوله: (فأولئك) إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها، وخبره:كان سعيهم مشكوراً عند الله، أي: مقبولاً غير مردود، وقيل: مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه في كون

(١٩٠٨) الشوكاني: فتح القدير ج: ٢ ص: ٣٠-٣١.

السعي مشكوراً أموراً ثلاثة: الأول: إرادة الآخرة، الثاني: أن يسعى لها السعي الذي يحق لها، والثالث: أن يكون مؤمناً»[1909].

١٦٠٠-٤ - قول الآلوسي في معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين):

وجاء في تفسير روح المعاني: «...(قربا قرباناً): فقرب هابيل جذعة، وقيل: كبشاً، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول، وكان أكل القربان غير جائز في الشرع القديم، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك، فأجابه بها قص الله تعالى... والقربان: اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو غيرها، كالحلوان اسم لما يحلى أي يعطى، وتوحيده لما أنه فى الأصل مصدر، وقيل: تقديره: إذ قرب كل منهما قرباناً، (فتقبل من أحدهما) وهو هابيل، (ولم يتقبل من الآخر) لأنه سخط حكم الله تعالى: وهو عدم جواز نكاح التوأمة، (قال): استئناف سؤال نشأ من الكلام السابق، كأنه قيل: فماذا قال من لم يتقبل قربانه؟ فقيل: قال لأخيه لفرط الحسد على قبول قربانه ورفعة شأنه عند ربه عز وجل كما يدل عليه الكلام الآتي، وقيل: على ما سيقع من أخذ أخته الحسناء، (لأقتلنك) أي: والله تعالى لأقتلنك بالنون المشددة، وقرئ بالمخففة، (قال): استئناف كالذي قبله، أي: قال الذي تقبل قربانه لما رأى حسد أخيه: (إنما يتقبل الله) أي القربان والطاعة من المتقين في ذلك بإخلاص النية فيه [أي في ذلك العمل] لله تعالى لا من غيرهم. وليس المراد من التقوى التقوى من الشرك التي هي أول المراتب كما قيل، ومراده من هذا الجواب: إنك إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها عن لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التي هي السبب في القبول؟ وهو جواب حكيم مختصر جامع لمعان»[1910].

١٦٠١- ثانياً - تحرير ابن تيمية لتفسير الآية: (إنما يتقبل الله من المتقين):

وقد حرر هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية في العديد من المواضع في مصنفاته وذكر في بعض المواضع ما لم يذكره في مواضع أخرى، وكلها متوافقة، لكن في بعضها

(١٩٠٩) الشوكاني: فتح القدير ج: ٣ ص: ٢١٧.

(١٩١٠) الآلوسي: تفسير روح المعاني ج: ٦ ص: ١١١-١١٢.

زيادات ضرورية، ونحن نحاول فيما يلي جمعها لتشكل تحريراً للمسألة، ونذكر ذلك - مشذباً ومختصراً وبقدر ما تمس الحاجة إليه مع المحافظة على عبارته -:

قال في «منهاج السنة النبوية»[1911]:

١٦٠٢- أقوال الفرق في تفسير الآية:

«... والله تعالى إنما يتقبل من المتقين، والناس لهم في هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧] ثلاثة أقوال: طرفان، ووسط:

فالخوارج والمعتزلة يقولون: لا يتقبل الله إلا ممن اتقى الكبائر وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال.

والمرجئة يقولون: من اتقى الشرك.

١٦٠٣- السلف والأئمة: المعنى: لا يتقبل العمل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل:

والسلف والأئمة يقولون: لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ففعله كما أمر به، خالصاً لوجه الله تعالى، قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة.

فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه.

ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمل لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملاً آخر.

وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به، ففي السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: (إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، حتى قال: إلا عشرها)[1912]، وقال ابن عباس: (ليس لك من صلاتك إلا ما

(١٩١١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢١٦-٢٢٢.

(١٩١٢) أحمد (١٨١٣٦) ولفظه: حدثنا صفوان بن عيسى أخبرنا ابن عجلان عن سعيد المقبري عن عمر بن الحكم عن عبد الله بن عنمة قال رأيت عمار بن ياسر دخل المسجد فصلى فأخف =

عقلت منها)[1913]، وفي الحديث: (رب صائم حظه من صيامه العطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر)[1914] وكذلك الحج والجهاد وغيرهما.[قلت: أي لم يتق الله في العمل فلم يقبل].

وفي حديث معاذ موقوفاً ومرفوعاً وهو في السنن: (الغزو غزوان: فغزو: يبتغى به وجه الله، ويطاع فيه الأمير، وتنفق فيه كرائم الأموال، ويياسر فيه الشريك[1915]، ويجتنب فيه الفساد، ويتقى فيه الغلول، فذلك الذي لا يعدله شيء. وغزو: لا يبتغى به وجه الله، ولا يطاع فيه الأمير، ولا تنفق فيه كرائم الأموال، ولا يياسر فيه الشريك، ولا يجتنب فيه الفساد، ولا يتقى فيه الغلول، فذاك حسب صاحبه أن يرجع كفافاً)[1916]. وقيل لبعض السلف: الحاج كثير، فقال: الداج كثير والحاج قليل.ومثل هذا كثير. فالمحو والتكفير يقع

= الصلاة قال فلما خرج قمت إليه فقلت يا أبا اليقظان لقد خففت قال فهل رأيتني انتقصت من حدودها شيئاً قلت لا قال فإني بادرت بها سهوة الشيطان سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها) وأيضاً (١٨١٢٢)، وانظر أيضاً: صحيح ابن حبان: ٥/ ٢١١، وموارد الظمآن: ١/ ١٣٩، وسنن البيهقي الكبرى:٢/ ٢٨١، ومسند أبي يعلى ٣/ ٢١١، وشعب الإيمان ٣/ ١٣٦، وفيض القدير ٢/ ٣٣٤ وقال: قال الحافظ الزين العراقي: رجاله رجال الصحيح.

(١٩١٣) قال الغزالي: «... وقال ﷺ (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) «قال العراقي في تخريجه: حديث ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل لم أجده مرفوعاً وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان ابن أبي دهرش مرسلاً لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه » (انظر تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج:١ ص:١٥٩).

(١٩١٤) أخرجه ابن ماجة (١٦٨٠) عن أبي هريرة بلفظ: (قال رسول الله ﷺ : رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر)، وأخرجه أحمد (٨٥٠١) عن أبي هريرة بلفظ: (قال رسول الله ﷺ رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر).

(١٩١٥) من المياسرة: أي المساهلة، والمعنى: يكون سهلاً متعاوناً مع رفقائه في الجهاد.

(١٩١٦) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٩٤، وسنن الدارمي٢/ ٢٧٤، وسنن البيهقي الكبرى ٩/ ١٦٨، وسنن أبي داود٣/ ١٣، وموطأ مالك٢/ ٤٦٦، ومسند أحمد٥/ ٢٣٤، والمعجم الكبير٢٠/ ٩١، وشعب الإيمان٤/ ٣٠، وشرح الزرقاني٣/ ٦٠، وعون المعبود٧/ ١٣٧، والأم٤/ ١٦٢، ونيل الأوطار٨/ ٤٩.

بما يتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من يكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيراً، فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يقبل من الجمعة شيء، وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة.

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر،كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: (يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: لا ظلم عليك، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات)[١٩١٧]، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة.

وكذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:(بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له)[١٩١٨]. وفي لفظ في الصحيحين (إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فسقته به، فغفر لها)[١٩١٩]، وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل.

(١٩١٧) ابن ماجة (٤٢٩٠)، وأحمد (٦٦٩٩).

(١٩١٨) متفق عليه: البخاري (٢١٩٠)، ومسلم (٤١٦٢).

(١٩١٩) متفق عليه: البخاري (٣٢٠٨) و(٣٠٧٤)، ومسلم (٤١٦٣) و(٤١٦٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له)[1920]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت)[1921].

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها، وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا والله لا يناله الدم المهراق، ولا اللحم المأكول والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب...

فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله، عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض»[1922].

وقال في «الفتاوى الكبرى»:

«... تنازع الناس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فعلى قول الخوارج والمعتزلة: لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً فلم يأت كبيرة.

وعند المرجئة: إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين.

١٦٠٤- يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه وإن كان عاصيا في غيره وبالعكس:

وعند أهل السنة والجماعة: يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه، فعمله: خالصاً، موافقاً لأمر الله. فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصياً في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه

(١٩٢٠) متفق عليه: البخاري (٦١٥) و(٢٢٩٢)، ومسلم (٣٥٣٨)و(٤٧٤٣).

(١٩٢١) متفق عليه: البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٤٩٥١) و(٤٧٥١).

(١٩٢٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢١٦-٢٢٢.

وإن كان مطيعاً في غيره، والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] »(١٩٢٣).

وقال في موضع آخر من «الفتاوى الكبرى»:

«وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] أي ممن اتقاه في ذلك العمل بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله وأن يكون موافقاً للسنة كما قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله خالصا واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً... »(١٩٢٤).

وجاء في «الفتاوى الكبرى» أيضا:

«سئل عن رجل مدمن على المحرمات وهو مواظب على الصلوات الخمس ويصلي على محمد مائة مرة كل يوم ويقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله كل يوم مائة مرة فهل يكفر ذلك بالصلاة والاستغفار؟

الجواب الحمد لله: قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فمن كان مؤمناً، وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى، فإن الله لا يظلمه بل يثيبه عليه، وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة، ويرجى له من الله التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وإن مات ولم يتب فهذا أمره

(١٩٢٣) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٥٣-٣٥٤.

(١٩٢٤) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص: ٣١٠-٣١١.

إلى الله تعالى هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته ولا يشهد له بجنة ولا نار بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يقولون: إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع حسناته.

١٦٠٥- أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات وأمرهم إلى الله:

وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الإحباط بل أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات وأمرهم إلى الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] أي: ممن اتقاه في ذلك العمل بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله وأن يكون موافقاً للسنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]...»[١٩٢٥].

١٦٠٦- لا يجوز أن يراد بالآية أن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها:

وقال في «مجموع الفتاوى» أيضاً:

«لا يجوز أن يراد بالآية أن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها، لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقياً، فإن كان قبول العمل مشروطاً بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق في حال تخلصه منه.

وأيضا فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقاً.

وأيضا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف، وكذلك الذمي، إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه، فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم بل يكون مع إسلامه مخلداً [في النار على قول المعتزلة]، وقد كان الناس يسلمون على عهد رسول الله [ﷺ] ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات...»[١٩٢٦].

(١٩٢٥) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى ج: ٤ ص:٣١٢- ٣١٣.

(١٩٢٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٩٦-٤٩٧.

١٦٠٧- صفوة القول: يتقبل العمل بشرطين: الإيمان، وأن يتقي الله في ذلك العمل:

قلت: وعلى ذلك فالأعمال الصالحة تقبل بشرط أن يكون صاحبها من أهل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، أي من أهل الإسلام لا من أهل الكفر، وأن يكون العمل الذي يقدمه للقبول عملاً صالحاً فعلاً بأن يكون خالصاً وصواباً لكي يقبل فيكون قد اتقى الله فيه، وهو معنى قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين)، وعلى رأس تلك الأعمال التي تقبل: التوبة، سواء أكانت التوبة من ذنب معين أو التوبة الشاملة العامة التي تنقله من الفسوق والعصيان ومن صف المخلطين إلى صف التائبين. وبها يحرز ثمرات التوبة العظمى ومزاياها الكبرى التي شرحناها تفصيلاً في أثناء هذا الكتاب.

المبحث الثاني
علامات صحة التوبة وقبولها

١٦٠٨- تمهيد: حال بعض التائبين ساعة إيقاع التوبة:

التوبة الصحيحة المقبولة لها علامات تشعر صاحبها بقبولها، وبعض هذه العلامات يحس بها ساعة وقوع التوبة أي ساعة ممارستها، وبعضها الآخر بعد حصول التوبة.

فأهم العلامات التي تحصل ساعة إيقاع التوبة والتي تدل على حسن التوبة وصحتها وتؤهلها للقبول هي شدة الندم على الذنب أو الذنوب، فكلما كان الندم أشد كان ذلك أدل على حسن التوبة وصحتها ومن ثم قبولها، ومن علامات حسن الندم وشدته كسرة خاصة تحصل للتائب قال عنها ابن القيم: «... ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً... فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها...»[١٩٢٧].

(١٩٢٧) ابن القيم: مدارج السالكين: ١/ ١٨٦-١٨٧.

وقد تكلمنا عن الندم الذي هو ركن التوبة الأهم في مبحث سابق بالتفصيل فلا نعود إليه منعا للتكرار.

١٦٠٩- علامات صحة التوبة وقبولها:

أما العلامات التي تحصل للتائب بعد التوبة وتكون إشارات على قبول التوبة، وإشارات على أن توبته وقعت صحيحة وهي من قبيل المبشرات له إذا حصلت له كلها، أو معظمها، أو قدر حسن منها، فنذكرها فيما يلي:

١٦١٠-١- أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها:

وذلك من حيث رعاية حسن أداء الواجبات والحذر من المحرمات فيكون عمله الصالح في ازدياد. قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، فرتب على التوبة زيادة الإيمان والعمل الصالح وزيادة الهداية، فإن من تاب توبة صحيحة يزيد إيمانه ويزيد عمله الصالح وتزيد أنواع الهداية التي يكون عليها، وهذا شأن كل تائب تاب توبة صحيحة، ونستدل لذلك بما ورد عن بعض السلف من قولهم (أن نبي الله داود كان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة)[١٩٢٨].

١٦١١-٢- حصول حال الإنابة إلى الله تعالى بعد التوبة:

وهي تحصل لبعض التائبين بدرجة عالية ولبعضهم في حدها الأدنى بحسب درجة حسن التوبة[١٩٢٩]. وبخاصة لأصحاب التوبة العامة الشاملة، فتراه متجافياً عن دار الغرور، منيباً إلى دار الخلود، متأهباً للقاء الله تعالى مستعداً للموت قبل نزول الموت، لأن التائب ينشرح صدره بالتوبة التي تزيد إيمانه وتحسن إسلامه فتدخل النور إلى قلبه فيشرق

(١٩٢٨) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٢٩٢ ونسب القول إلى شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى. ومعلوم أن فعل نبي الله داود ﷺ الذي عد خطيئة هو تعجله في الحكم بين الخصمين من غير أن يسمع من الآخر فأراد أن يحق الحق ويدفع الظلم لوضوح الحق في نظره في الواقعة التي حكم فيها، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه لابد أن يسمع من الخصمين، وقد شرحنا قصته في باب (توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم) وهو الباب الخامس من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

(١٩٢٩) وقد تكلمنا عن حال الإنابة التي تكون حالاً للتائب بعد توبته بوصفها نتيجة طبيعية للتوبة الصحيحة في مبحث سابق فارجع إليه إن شئت.

قلبه بنور الله فيحس بانشراح الصدر قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال القرطبي: «روي أن عبد الله بن مسعود قال: يا رسول الله وهل ينشرح الصدر؟ فقال: نعم يدخل القلب نور، فقال: وهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[١٩٣٠].

١٦١٢-٣- أن يجد في قلبه بعد التوبة الإحساس بمزيد من محبة الله ورسوله والمؤمنين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال[١٩٣١] محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه...، فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لا بد أن يريد من العمل ما تقتضيه هذه المحبة مثل إرادته نصر الله ورسوله ودينه والتقريب إلى الله ورسوله ومثل بغضه لمن يعادي الله ورسوله»[١٩٣٢]، وهذه المحبة لله ورسوله هي نتيجة متلازمة مع ما حصل من محبة الله له بسبب التوبة فقد جاءت النصوص بأن التوبة تفضي إلى محبة الله للتائب كقوله تعالى ﴿إِنَّ

(١٩٣٠) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ٨١. وانظر أيضا تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ١٧٥ حيث جاء فيه: «...وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح، قالوا: فهل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٤٦، وشعب الإيمان ٧/ ٣٥٢. وسنن سعيد بن منصور٥/ ٨٥، ومصنف ابن أبي شيبة٧/ ٧٧.

(١٩٣١) وهي المذكورة في الحديث الوارد في الصحيحين : عن أنس بن مالك ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله عز وجل، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) متفق عليه: البخاري (٢٠) واللفظ له، وأيضاً (١٦) و (٦٤٢٨)، ومسلم (٦٠) وأيضاً (٦١).

(١٩٣٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٧٥١-٧٥٢.

﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله ﷺ : (التائب حبيب لله تعالى)[١٩٣٣]، ومن أحبه الله أنشأ في قلبه محبة الله فرزقه إياها ورزقه المزيد منها ومن لوازمها.

١٦١٣-٤- الرغبة في الاستقامة وتحقيقها في الواقع:

وهي حال جديدة يحصل عليها التائب بناء على توبته وانتقاله من صف المخلطين إلى صف التائبين فيصبح مسارعا في الطاعات، حذراً من الذنوب، متحرياً الامتثال للأمر والنهي الإلهي، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، قال القرطبي في تفسير الآية: «قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت) الخطاب للنبي ﷺ ولغيره، وقيل: له والمراد أمته، قاله السدي، وقيل: استقم: اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك، فتكون السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر الله: أطلب الغفران منه. والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امتثال أمر الله. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: (قل آمنت بالله ثم استقم)[١٩٣٤] وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس فقلت: أوصني، فقال: نعم، عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع. (ومن تاب معك) أي: استقم أنت وهم، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته...»[١٩٣٥].

١٦١٤-٥- ذهاب الوحشة وقسوة القلب وضيق الصدر التي سببها المعاصي:

فيحل محلها لين القلب، وحياة القلب، مع سهولة دمعة العين لذكر الله والبكاء من خشية الله، وهي نتيجة لصقل القلب الناشئ من التوبة الصحيحة، قال ﷺ : (إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا نزع وتاب واستغفر صقل قلبه)[١٩٣٦] وقال بعض

(١٩٣٣) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في أحاديث الرسول ج: ٢ ص: ٣٤٩ وتمام الحديث: (عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والندم توبة، التائب حبيب لله تعالى، إن الله يحب التوابين).

(١٩٣٤) مسلم (٥٥)، وأحمد (١٤٨٦٩) و(١٤٨٧٠) و(١٨٦١٤).

(١٩٣٥) تفسير القرطبي ج: ٩ ص: ١٠٧ .

(١٩٣٦) أخرجه الترمذي (٣٢٥٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٤٣٣٤)، وأحمد (٧٦١١).

السلف: (جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة وأسرع دمعاً)[١٩٣٧]، وهو علامة على صحة الندم الذي هو ركن التوبة الأهم، فإن علامته رقة القلب وغزارة الدمع.

١٦١٥-٦- الإحساس بالفرح بتوبته:

وهو شيء يمنحه الله له مقابل فرح الله بتوبته، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك: إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[١٩٣٨]. وأيضاً فمن أسباب هذا الفرح أنه يحس - وقد من الله تعالى عليه بالتوبة - كأنه قد ظفر بكنز لا مثيل له بين الكنوز، ظفر به وحازه وصار بين يديه بعد أن كان بينه وبينه أمداً بعيداً. وكيف لا يملأ الفرح والسعادة قلبه وهو يحس أنه كان أعمى فصار مبصراً، وكان أصم فصار سامعاً، فمن أشد فرحاً منه بما ناله من التوبة؟.

١٦١٦-٧- الإحساس بكراهية العودة إلى الحال السابقة على التوبة:

فيكره العودة إلى حاله السابقة وهي حال الذنوب بعد إذ نجاه الله منها بالتوبة فأنقذه من حال المخلطين ووضعه في صف التائبين وهذا من حلاوة الإيمان التي جاءت بها التوبة فإن التوبة توجد حلاوة الإيمان فيكره العودة إلى المعاصي، يدل على ذلك حديث الرسول ﷺ: الوارد في الصحيحين : عن أنس بن مالك ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله عز وجل، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)[١٩٣٩].

فهذه بعض العلامات المهمة التي تدل على صحة التوبة وقبولها إن شاء الله تعالى فإن الأحوال المذكورة في الفقرات السبعة آنفا تشكل بشارات حسنة وإمارات مرجحة لأنها من ثمرات القبول بإذن الله.

(١٩٣٧) قال العراقي:... وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فإن رحمه الله إلى النادم أقرب. وقال أيضاً: فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب. وقال أيضاً: التائب أسرع دمعاً وأرق قلباً (تخريج العراقي: إحياء علوم الدين ج: ٤ ص: ٣٤).

(١٩٣٨) متفق عليه: البخاري(٥٨٣٣)، ومسلم (٤٩٣٢) واللفظ له .

(١٩٣٩) متفق عليه: البخاري (٢٠) واللفظ له، وأيضا (١٦) و(٦٤٢٨)، ومسلم (٦٠)) وأيضاً (٦١).







الفصل الثالث

متعلقات مسألة قبول التوبة

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: توبة غير المسلم بمعنى إسلامه مقبولة قطعاً بالإجماع.
- المبحث الثاني: بيان المشمولين بقوله تعالى: (الذين يعملون السوء بجهالة).
- المبحث الثالث: انتهاء زمن قبول التوبة.
- المبحث الرابع: معنى قول الفقهاء في باب الجنايات:(لا تقبل توبته).
- المبحث الخامس: المشمولون بقوله تعالى: (لن تقبل توبتهم).









الفصل الثالث

متعلقات مسألة قبول التوبة

١٦١٧- تقسيم البحث:

خصصنا هذا الفصل لبيان متعلقات مسألة قبول التوبة والتي لم يرد بحثها من قبل على وجه التفصيل وهي مسائل لا غنى عنها نذكر منها ما يأتي :

١- توبة غير المسلم بمعنى إسلامه مقبولة قطعاً بالإجماع.

٢- بيان المشمولين بقوله تعالى: (للذين يعملون السوء بجهالة).

٣- انتهاء زمن قبول التوبة.

٤- معنى قول الفقهاء في باب الجنايات: (لا تقبل توبته).

٥- المشمولون بقوله تعالى: (لن تقبل توبتهم).

وسنتناول ذلك في خمسة مباحث متتالية وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول
توبة غير المسلم بمعنى إسلامه مقبولة قطعاً

١٦١٨- تمهيد وتقسيم :

يثير الكلام في توبة غير المسلم إذا أسلم مسألتين: الأولى حكم توبته وكونها مقبولة قطعاً وأقوال العلماء في ذلك، والثانية حكم الأعمال التي عملها قبل إسلامه ومتى يؤاخذ بها ومتى لا يؤاخذ، ومتى تحسب له ومتى لا تحسب.

وعلى ذلك انقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

- نبحث في الأول منهما: حكم توبة غير المسلم أي إسلامه .
- ونتناول في الثاني:حكم أعماله قبل الإسلام ومتى يؤاخذ عليها ومتى تحسب له.

المطلب الأول
غير المسلم إذا أسلم فهي توبة مقبولة قطعاً بالإجماع

١٦١٩- الإجماع على قطعية قبول توبة غير المسلم وهي إسلامه :

أجمع العلماء على أن توبة غير المسلم بأن يسلم مقطوع بقبولها إذا وقعت قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها، لأنه قد ثبت قبولها بنص القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهو دليل قطعي على قبولها، وأيضاً لما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قال (الإسلام يجب ما قبله)(١٩٤٠)، والحكمة من ذلك أن في قبولها القطعي فتحاً لباب الإيمان وسوقاً إليه.

ولم يوجد بين العلماء من قال بأن توبة غير المسلم بانتقاله إلى الإسلام مقبولة على سبيل الظن لا القطع، بل أجمعوا على القطعية.

١٦٢٠- أقوال العلماء في القطع بقبول توبة غير المسلم بإسلامه :

فمن أقوالهم في ذلك:

(١٩٤٠) أخرجه أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و(١٧١٥٩).

١- **قول الحنفية**: «بل التوبة من الكفر مقبولة قطعاً»[١٩٤١].

٢- **وقول المالكية**: «اعلم أن توبة الكافر مقبولة قطعاً»[١٩٤٢]. وقولهم: «توبة الكافر إسلامه وتقبل توبة الكافر قطعاً لقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقال ﷺ: (الإسلام يجب ما قبله) أي يقطعه»[١٩٤٣].

٣- **وقول الشافعية**: «إذا كانت توبة الكافر من كفره فهي مقطوع بقبولها»[١٩٤٤]، وقولهم: «وسقوط الكفر بالإسلام مع الندم مقطوع به وتائب بالإجماع. قال في أصل الروضة: وليس إسلام الكافر توبة من كفره، وإنما توبته ندمه على كفره ولا يتصور إيمانه بلا ندم فيجب مقارنة الإيمان للندم على الكفر. اهـ. وإنما كان توبة الكافر مقطوعاً بها؛ لأن الإيمان لا يجامع الكفر والمعصية قد تجامع التوبة»[١٩٤٥]، وقال الهيتمي في «الزواجر»: «... والصحيح كما قاله النووي وغيره أن قبول توبة الكافر بإسلامه قطعي... قال الإمام: وإذا أسلم فليس إسلامه توبة من كفره، وإنما توبته ندمه على كفره، ولا يتصور أن يؤمن ولا يندم على كفره، بل تجب مقارنة الإيمان للندم على الكفر، ثم وزر الكفر يسقط بالإيمان والندم على الكفر بالإجماع هذا مقطوع به... وقد أجمعت الأمة على أن الكافر إذا أسلم وتاب عن كفره صحت توبته [أي إسلامه] وإن استدام معاصي أخر...»[١٩٤٦].

٤- **وقول الحنابلة**: «وتوبة الكافر من كفره، قبولها مقطوع به جزم به في شرح مسلم وغيره»[١٩٤٧].

٥- **وقال الشوكاني**: «إن التوبة تكفر المعاصي والكبائر، وذلك في التوبة من الكفر قطعي»[١٩٤٨].

(١٩٤١) ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ٢/ ٢١٢.

(١٩٤٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير١/ ٤٠٦-٤٠٧، وانظر أيضاً حاشية الصاوي على الشرح الكبير ١/ ٥٤٠ والمصنف أبو العباس الصاوي من فقهاء المالكية.

(١٩٤٣) أحمد النفراوي: الفواكه الدواني ١/ ٧٦. والحديث أخرجه أحمد (١٧١٠٩)، و(١٧١٤٥).

(١٩٤٤) عبد الرحيم العراقي طرح التثريب ٨/ ٢٤٠.

(١٩٤٥) الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ٦/ ٣٦٦.

(١٩٤٦) الهيتمي:الزواجر: ٢/ ٣٦٠-٣٦١.

(١٩٤٧) محمد بن مفلح بن محمد المقدسي: الآداب الشرعية ١/ ١١٨-١٢١.

(١٩٤٨) الشوكاني: نيل الأوطار: ٨/ ١٩٦.

٦- وجاء في الموسوعة الفقهية: «اتفق الفقهاء على أن توبة الكافر - أي إسلامه - مقبولة إذا كانت قبل الغرغرة»(١٩٤٩).

٧- ونقل الآلوسي عن الأشعري قوله عن توبة الكافر: «أما هي فالإجماع على قبولها قطعا بالسمع لوجود النص المتواتر بذلك كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨](١٩٥٠).

وإذا كانت توبة غير المسلم بإسلامه مقبولة قطعاً بالإجماع كما تبين لنا في هذا المطلب فما حكم الإسلام في الأعمال التي صدرت منه قبل إسلامه؟ سواء أكانت حسنة أو سيئة، فهذا هو موضوع المطلب الثاني.

المطلب الثاني
حكم الأعمال الصادرة من غير المسلم قبل إسلامه

اختلف العلماء في حكم عمله قبل الإسلام، ومتى يؤاخذ به ومتى يحسب له وهو ما نبينه في الفقرة التالية:

١٦٢١- حكم الأعمال السيئة أو الحسنة الصادرة منه قبل أن يسلم:

غير المسلم الذي أسلم له أعمال قبل إسلامه منها ما هو حسن كصلة الرحم وإغاثة الملهوف وبذل المال للمحتاج فهل ينتفع بها بعد إسلامه؟ مع أنها صدرت منه في وقت لم يكن يقبل له عمل، لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك عملاً قط.

وله أعمال سيئة كالزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها فهل محيت عنه بإسلامه أم محي عنه الكفر الذي تاب منه وبقيت هي محتاجة إلى توبة منها في الإسلام شأنه شأن أهل الكبائر من المسلمين؟ بمعنى أنه تاب من ذنب الكفر وبقي عليه أن يتوب من الكبائر السابقة؟

تكلم عن هذا الموضوع ابن حزم في «المحلى» والهيتمي في «الزواجر» وابن القيم في «إعلام الموقعين»، والمفسرون عموماً عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن

(١٩٤٩) الموسوعة الفقهية: ٣١/ ١٨٠.

(١٩٥٠) روح المعاني ج: ٢٨ ص: ١٦٠.

يَـنتَهُواْ يُغْـفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ونحن نذكر بعضاً منها فيما يلي:

١٦٢٢- أولاً - حكم الأفعال السيئة التي صدرت منه قبل أن يسلم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «...الأصل الثاني: أن من له ذنوب فتاب من بعض دون بعض فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما علمت في هذا نزاعاً إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه.

١٦٢٣- هل تغفر له الذنوب التي فعلها قبل أن يسلم ولم يتب منها في الإسلام؟

وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما: يغفر له الجميع لإطلاق قوله: (الإسلام يهدم ما كان قبله)[١٩٥١] رواه مسلم، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر.

وهذا القول [الثاني] هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص فإن في الصحيحين: (أن النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر)[١٩٥٢]، فقد دل هذا النص: على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منها فلم يحسن.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن

(١٩٥١) أخرجه أحمد (١٧١٠٩) و(١٧١٤٥) و(١٧١٥٩).

(١٩٥٢) متفق عليه: البخاري(٦٤١٠)، ومسلم (١٧٢).

شيء يغفر له ما سلف من غيره، وذلك لأن قول القائل لغيره: إن انتهيت غفرت لك ما تقدم، ونحو ذلك، يفهم منه عند الإطلاق: أنك إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه، كما يفهم مثل ذلك في قوله إن تبت، لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره.

وأما قول النبي ﷺ : (الإسلام يهدم ما قبله)(١٩٥٣)، وفى رواية: (يجب ما كان قبله)(١٩٥٤) فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له: (يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن التوبة تهدم ما كان قبلها وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها)(١٩٥٥)، ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب»(١٩٥٦).

ذلك هو حكم الأعمال السيئة الصادرة من غير المسلم قبل إسلامه: يغفر له بالإسلام الكفر الذي كان عليه فإن أحسن في الإسلام عملاً بالطاعات وتجنباً للمحرمات غفر له سيئاته القديمات وإن عاودها في الإسلام عادت له سيئاته القديمات.

ولكن ما حكم الأعمال الحسنة التي عملها قبل الإسلام؟

١٦٢٤- ثانيا - حكم الأعمال الحسنة التي عملها قبل الإسلام :

عن ابن شهاب أخبرنا عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: (أي رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : أسلمت على ما أسلفت من خير)(١٩٥٧).

(١٩٥٣) مسلم (١٧٣).

(١٩٥٤) أحمد (١٧١٠٩)، و(١٧١٤٥)، و(١٧١٥٩).

(١٩٥٥) مسلم (١٧٣).

(١٩٥٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٢٣-٣٢٥، وانظر أيضاً له: الفتاوى الكبرى ج:٢ ص:٣٥٤ وما بعدها.

(١٩٥٧) متفق عليه: البخاري(٢٣٥٣)، ومسلم (١٧٥).

قال ابن حزم أخذاً من النص السابق: «من عمل في كفره أعمالاً صالحة[1958] [قلت: حسنة] ثم أسلم جوزي في الجنة بما عمل من ذلك في شركه وإسلامه»[1959].

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: (قلت يا رسول الله: إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[1960].

فهذا النص دال على أن الله تعالى لا يقبل مع الشرك أو الكفر عملاً قط، بمعنى اعتباره عملاً صالحاً ينفع صاحبه في الآخرة، وذلك لأن شرط العمل الصالح كما حررناه من قبل: الإيمان، وأن يتقي الله في ذلك العمل. وقد تظافرت نصوص القرآن والسنة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

قال ابن كثير في تفسيرها: «هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة في يوم عاصف، أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا علي شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]»[1961].

(١٩٥٨) نفضل تسميتها أعمالاً حسنة وليس أعمالاً صالحة لأن العمل الصالح مصطلح قرآني دال على العمل الصادر من المسلم وكان صواباً وخالصاً. أي أن الشرط لتسميته عملاً صالحاً صدوره من المسلم وأن يكون خالصاً لله وصواباً على السنة.

(١٩٥٩) ابن حزم: المحلى ١/ ٤١.

(١٩٦٠) مسلم(٣١٥)، وأحمد(٢٣٤٨٠).

(١٩٦١) تفسير ابن كثير ج:٢ ص:٥٢٨.

وإذن فما هو جزاء العمل الحسن الذي يعمله غير المسلم إذا لم يكن لعمله الحسن الذي عمله في الدنيا اعتبار في الآخرة كما دلت عليه النصوص؟.

والجواب في الحديث الذي أخرجه مسلم:

عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحساب ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها)[١٩٦٢].

والمعنى: انه يجزى بأعماله الحسنة في الدنيا بمصالح دنيوية ينتفع بها في دنياه فيستنفد جزاء أعماله الحسنة في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها.

قال ابن حزم في المحلى: «ومن عمل في كفره أعمالا صالحة ثم أسلم جوزي في الجنة بما عمل من ذلك في شركه وإسلامه؛ فإن لم يسلم جوزي بذلك في الدنيا ولم ينتفع بذلك في الآخرة»[١٩٦٣].

إلا أن بعض العلماء يرى أن ذلك يمكن أن يخفف من نوع عذابه الخالد في الآخرة فقد جاء في «الآداب الشرعية»: «يتوجه أن يقال: ... يخفف عن الكافر من عذاب الآخرة [بما عمله من خير وإحسان] في كفره... »[١٩٦٤].

(١٩٦٢) مسلم (٥٠٢٢).

(١٩٦٣) ابن حزم: المحلى ١/ ٤١.

(١٩٦٤) محمد بن مفلح المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية ١/ ٩٣-٩٥.

المبحث الثاني
بيان المشمولين بقوله تعالى: (للذين يعملون السوء بجهالة)

١٦٢٥- ورود عمل السوء مقترناً بالجهالة في القرآن الكريم:

جاء لفظ عمل السوء مقترناً بالجهالة في ثلاثة مواضع في التنزيل العزيز هي:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩].

١٦٢٦- كل معصية فهي جهالة وصاحبها جاهل حتى ينزع:

ولكي لا ينصرف الذهن إلى أن المقصود بذلك أنهم الذين عملوا السوء عن طريق الخطأ فقط أو أنهم عملوا السوء جاهلين بالحلال والحرام وأن هؤلاء هم الذين لهم توبة على الله إذا تابوا دون غيرهم ممن عمل السوء عامداً عالماً بالتحريم، من أجل أن لا ينصرف الذهن إلى هذا رغبنا أن نوضح ذلك من خلال أقوال المفسرين والعلماء الذين نقلوا أقوال الصحابة والتابعين في فهمهم لهذه النصوص، وخلاصته: أن كل من عمل السوء فهو جاهل حين عمله مهما كان حاله من العلم أو الجهل أو العمد أو الخطأ، وهذا يشمل كل من عمل السوء فعصى الله تعالى فإنه في جهالة حتى ينزع ويتوب .

١٦٢٧- أقوال المفسرين والعلماء في معنى (يعملون السوء بجهالة):

١٦٢٨-١- ما جاء في تفسير البيضاوي:

قال البيضاوي في تفسير آية النساء: «(للذين يعملون السوء بجهالة): متلبسين بها سفها، فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته»[١٩٦٥].

(١٩٦٥) تفسير البيضاوي ج: ٢ ص: ١٦٠.

وقال البيضاوي في تفسير آية الأنعام: (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة): بسببها أو ملتبسين بها، ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة، والسوء يعم الافتراء على الله وغيره...»[١٩٦٦].

١٦٢٩-٢- ما جاء في تفسير القرطبي:

وقال القرطبي: «قوله تعالى: (للذين يعملون السوء بجهالة): السوء في هذه الآية، والأنعام: (أنه من عمل منكم سوءا بجهالة): يعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته، قال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة عمداً كانت أو جهلاً وقاله ابن عباس والضحاك ومجاهد والسدي، وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالا: الجهالة هنا العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، يريد الخاصة بها الخارجة عن طاعة الله، وهذا القول جار مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد: ٣٦]...»[١٩٦٧].

١٦٣٠-٣- ما جاء في تفسير ابن كثير:

وجاء في تفسير ابن كثير: «يقول سبحانه وتعالى إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة... قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة رواه ابن جرير، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصي الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره، وقال ابن جريج أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها، قال ابن جريج وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوه، وقال أبو صالح عن ابن عباس: من جهالته عمل السوء»[١٩٦٨].

(١٩٦٦) تفسير البيضاوي ج: ٣ ص: ٤٢٥.

(١٩٦٧) تفسير القرطبي ج: ٥ ص: ٩٢.

(١٩٦٨) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٤٦٤ وانظر أيضا تفسير أبي السعود ج: ٥ ص: ١٤٨، و فتح القدير ج: ١ ص: ٤٣٩، وتفسير النسفي ج: ٢ ص: ٢٧٥.

١٦٣١-٤- ما جاء في تفسير زاد المسير:

وجاء في تفسير «زاد المسير»: «قوله تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة): إنما سموا جهالاً لأنهم آثروا أهواءهم على ما علموا أنه الحق»[١٩٦٩].

١٦٣٢-٥- قول شيخ الإسلام ابن تيمية:

وقال ابن تيمية: «ولهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل..

وعن قتادة قال: أجمع أصحاب محمد رسول الله ﷺ على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة عمداً كان أو لم يكن...

وكذلك قال التابعون ومن بعدهم: قال مجاهد: من عمل ذنباً من شيخ أو شاب فهو بجهالة وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته... وروى عن مجاهد والضحاك قالا: ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً ولكن من جهالته حين دخل فيه... وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال: هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم، قيل له: أرأيت لو كانوا قد علموا؟ قال: فليخرجوا منها فإنها جهالة.

قلت [أي ابن تيمية]: و مما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكل من خشيه وأطاعه وترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩]، وقال رجل للشعبي: أيها العالم فقال: إنما العالم من يخشى الله. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم، فإنه لا يخشاه إلا عالم. و يقتضي أيضاً أن العالم من يخشى الله كما قال السلف، قال ابن مسعود كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً»[١٩٧٠].

(١٩٦٩) تفسير زاد المسير ج: ١ ص: ٢٨٧.

(١٩٧٠) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج: ١٤ ص: ٢٩١-٢٩٣، وأيضاً: ج: ١٦ ص: ١٧٨ وانظر أيضاً: لابن تيمية: الحسنة والسيئة: ١/ ٦٢.

١٦٣٣-٦- قول العلامة ابن القيم:

قال ابن القيم في قوله تعالى: (يعملون السوء بجهالة): والجهالة ههنا: جهالة العمل وإن كان عالماً بالتحريم قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل»[١٩٧١].

(١٩٧١) ابن القيم: مدارج السالكين ج: ١ ص: ٢٨٤.

المبحث الثالث
انتهاء زمن قبول التوبة

١٦٣٤- أمران ينتهي بكل منهما زمن قبول التوبة :

ينتهي وقت التوبة بأحد أمرين: حضور الموت، وطلوع الشمس من مغربها بوصفه واحدة من العلامات الكبرى للساعة التي بها يغلق باب التوبة، وفيما يلي بيانهما:

١٦٣٥- أولاً - انتهاء زمن قبول التوبة بحضور الموت:

يجب على المحتضر ومن في حكمه أن يتوب إلى الله من ذنوبه قبل وصول الروح إلى الحلقوم ؛ لأن قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة ، فإن كان تائباً أصلاً فينبغي له أن يجدد التوبة في تلك الساعة لقوله ﷺ : (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)(١٩٧٢).

وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية تحديد الوقت أو الحال الذي عند حصوله لا تقبل التوبة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧-١٨].

وقال ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)(١٩٧٣).

ومعنى مالم يغرغر: أي: قبل الغرغرة، والغرغرة «تكون قرب كون الروح في الحلقوم... وفي القاموس: غرغر: جاد بنفسه عند الموت. قلت: وكأنها مأخوذة من غرغر بالماء إذا أداره في حلقه فكأنه يدير روحه في حلقه»(١٩٧٤).

(١٩٧٢) ابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥).

(١٩٧٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

(١٩٧٤) ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ٢/ ١٩٠.

ومن هذه النصوص الكريمة وغيرها استدل العلماء على الوقت - من عمر الإنسان - الذي ينتهي فيه قبول التوبة. وفيما يلي بعض أقوال المفسرين والفقهاء التي انتقيناها لوضوحها ووفائها بالمقصود :

١٦٣٦- أقوال المفسرين والعلماء بشأن انتهاء زمن قبول التوبة بحضور الموت وبيان معناه:

١٦٣٧- ١- ما جاء في تفسير القرطبي:

قال القرطبي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، قال ابن عباس والسدي معناه قبل المرض والموت وروي عن الضحاك أنه قال كل ما كان قبل الموت فهو قريب وقال أبو مجلز والضحاك أيضاً وعكرمة وابن زيد وغيرهم : قبل المعاينة للملائكة، والسوق، وأن يغلب المرء على نفسه... قال علماؤنا رحمهم الله: وإنما صحت التوبة منه في هذا الوقت لأن الرجاء باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، وقد روى الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١٩٧٥]، قال: هذا حديث حسن غريب، ومعنى ما لم يغرغر: ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به، قاله الهروي.

وقيل: المعنى يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار، والمبادر في الصحة أفضل وألحق لأمله من العمل الصالح... وقال الحسن أيضا: (إن إبليس لما هبط قال بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده، قال الله تعالى: فبعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم تغرغر نفسه).

قوله تعالى: (وليست التوبة): نفى سبحانه أن يدخل في حكم التائبين من حضره الموت وصار في حين اليأس كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، لأن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع، لأنها حال زوال التكليف، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين. وأما الكفار يموتون على كفرهم فلا توبة لهم في الآخرة...»[١٩٧٦].

(١٩٧٥) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

(١٩٧٦) تفسير القرطبي ج: ٥ ص: ٩٢-٩٣.

١٦٣٨-٢- ما جاء في مطالب أولي النهى:

وجاء في مطالب أولي النهى: «تقبل توبة العبد من سائر الذنوب التي بينه وبين الله تعالى: ما لم يغرغر، أو ما لم يعاين الملك، أو ما دام مكلفاً، ثلاثة أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً:

فحجة القائلين بالقول الأول [ما لم يغرغر]: حديث أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم: (إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١٩٧٧]، أي: يقرب من الزهوق، ويقال غرغر إذا جاد بنفسه.

وحجة القائلين بالقول الثاني [ما لم يعاين الملك]: حديث ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري: (سألت النبي ﷺ متى تنقطع معرفة العبد من الناس، قال: إذا عاين)[١٩٧٨]، يعني إذا عاين الملك الموكل بقبض روحه.

وحجة القائلين بالقول الثالث [ما دام مكلفاً]: حديث ابن أبي الدنيا عن علي: (لا يزال العبد في مهلة من التوبة ما لم يأته ملك الموت بقبض روحه، فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذ)، وظاهر هذا أنه بمجرد نزول الملك ينسد على المنزول به باب التوبة، سواء عاينه أو لم يعاينه.

وأما التكليف فواضح، وهو قوي جداً؛ إذ المدار عليه، قال في «تصحيح الفروع» والأقوال الثلاثة قريب بعضها من بعض. والصواب قبولها، أي: التوبة ما دام عقله ثابتاً، وإلا فلا»[١٩٧٩].

١٦٣٩-٣- ما جاء في «شعب الإيمان»:

قال البيهقي بعد أن أورد حديث: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١٩٨٠]: ومعناه: ما لم تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المفازة التي يرى فيه مقعده من الجنة أو

(١٩٧٧) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

(١٩٧٨) ابن ماجة (١٤٤٣).

(١٩٧٩) مصطفى الرحيباني: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى ٦/٧٠١-٧٠٢ (من الفقه الحنبلي).

(١٩٨٠) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

مقعده من النار، وعسى أن يعاين فيه الملك، ولعل من بلغ أمره أن يغرغر بروحه لم يقبل في تلك الحال توبته أو لم يتمكن منها، فكان هذا القول إشارة إلى أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما دام يتوب، وهو ما لم يغرغر بروحه يمكن أن يتوب، فإن تاب قبلت توبته. قال الحليمي رحمه الله: وقد يجوز أن يحدد وقت التوبة مما هو أبين من هذا وأشبه بقول الله عز وجل: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء: ١٨]، وهو أن يقول: إن التوبة تقبل ما لم تبطل الدواعي التي تكون للأحياء إلى ضروب المعاصي، فإذا بطلت تلك الدواعي بسقوط القوى وبطلان الشهوات والاستسلام للممات فقد انقضى وقت التوبة، ولا ينقضي وقتها بعجز الحي عن بعض المعاصي بما يحول دونها فإنه لا يخلو مع ذلك من أن تعرض له الدواعي فيقول في نفسه لولا العجز لكنت،... وأما من انقطعت الدواعي عنه وانمحت آثارها فلا يبين لتوبته أثر قط لا بالعزم ولا بالفعل فلذلك لم تصح توبته، والله أعلم»[١٩٨١].

١٦٤٠-٤- ما جاء في الموسوعة الفقهية:

وجاء في الموسوعة الفقهية: «إذا أخر المذنب التوبة إلى آخر حياته:

فإن ظل آملاً في الحياة غير يائس بحيث لا يعلم قطعاً أن الموت يدركه لا محالة فتوبته مقبولة عند جمهور الفقهاء وإن كان قريباً من الموت، لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، ولقوله ﷺ : (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١٩٨٢]. وإن قطع الأمل من الحياة وكان في حالة اليأس (مشاهدة دلائل الموت) [كالمعاينة أو الغرغرة] فاختلفوا فيه:

قال المالكية - وهو قول بعض الحنفية: ووجه عند الحنابلة ، ورأي عند الشافعية، ونسب إلى مذهب الأشاعرة: أنه لا تقبل توبة اليائس الذي يشاهد دلائل الموت ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ

(١٩٨١) البيهقي: شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٣٩٦.

(١٩٨٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء: ١٨]. قالوا: إن الآية في حق المسلمين الذين يرتكبون الذنوب ويؤخرون التوبة إلى وقت الغرغرة ، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء: ١٨]، لأنه تعالى جمع بين من أخر التوبة إلى حضور الموت من الفسقة وبين من يموت وهو كافر ، فلا تقبل توبة اليائس كما لا يقبل إيمانه. ولقوله ﷺ : (إن الله يقبل التوبة ما لم يغرغر)[١٩٨٣]، وهذا يدل على أنه يشترط لصحة التوبة صدورها قبل الغرغرة وهي حالة اليأس وبلوغ الروح الحلقوم.

وعند بعض الحنفية - وهو وجه آخر عند الحنابلة - وعزاه بعضهم إلى مذهب الماتريدية: أن المؤمن العاصي تقبل توبته ولو في حالة الغرغرة، بخلاف إيمان اليائس فإنه لا يقبل، ووجه الفرق: أن الكافر غير عارف بالله تعالى، ويبدأ إيماناً وعرفاناً، والفاسق عارف وحاله حال البقاء [أي بقاء الإيمان الموجود أصلاً لأن فسقه يضعف الإيمان ولا يزيله كلية]، والبقاء أسهل من الابتداء، ولإطلاق قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى:٢٥].

ولا خلاف بين الفقهاء في عدم قبول توبة الكافر بإسلامه في حالة اليأس بدليل قوله تعالى حكاية عن حال فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩٠-٩١] »[١٩٨٤].

١٦٤١- ثانياً - انتهاء قبول التوبة بطلوع الشمس من مغربها:

طلوع الشمس من مغربها إحدى العلامات الكبرى للساعة، وعند حصول هذه العلامة أو الآية يغلق باب التوبة فلا تقبل توبة أحد.

(١٩٨٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

(١٩٨٤) الموسوعة الفقهية: ١٤ / ١٢٥-١٢٦، وقوله تعالى: (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) استفهام إنكار بين فيه أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها من الله تعالى، لأنها توبة عند حضور الموت.

١٦٤٢ - ما جاء في القرآن والسنة بشأن انتهاء زمن قبول التوبة بمجيء الآيات:

١٦٤٣- أولاً - من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

١٦٤٤- ثانيا - من السنة النبوية:

وأورد البخاري تحت عنوان: «باب لا ينفع نفساً إيمانها»: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين: «لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا»)[١٩٨٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (أن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[١٩٨٦].

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)[١٩٨٧].

وفى السنن عنه أيضاً أنه قال: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)[١٩٨٨].

وعن صفوان بن عسال مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: (إن من قِبَل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه سبعون سنة فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة حتى تطلع الشمس من

(١٩٨٥) متفق عليه: البخاري: (الجزء الخاص في التفسير) ج: ٤ ص: ١٦٩٧ حديث رقم (٦٠٢٥) وكذلك رقم (٤٢٧٠)، وانظر مسلم (٢٢٦).

(١٩٨٦) مسلم (٤٩٥٤)، وأحمد (١٨٧٠٨) و(١٨٧٩٣).

(١٩٨٧) مسلم (٤٨٧٢)، وأحمد (٨٧٦٧) و(٩١٤٤) و(١٠٠١٦) و(١٠١٧٦).

(١٩٨٨) أبو داود(٢١٢٠)، وأحمد(١٦٣٠١)، والدارمي (٢٤٠١).

نحوه فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[1989].

وعن أبي سعيد مرفوعا: « (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قال: طلوع الشمس من مغربها)[1990].

١٦٤٥- أقوال بعض المفسرين بشأن انتهاء زمن قبول التوبة بطلوع الشمس من المغرب:

١٦٤٦-١- ما جاء في تفسير ابن كثير:

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة بعد أن أورد جملة من الأحاديث:

«فقوله تعالى: (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك: فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: (أو كسبت في إيمانها خيراً) أي لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك، وقوله تعالى: (قل انتظروا إنا منتظرون) تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤-٨٥]»[1991].

١٦٤٧-٢- ما جاء في تفسير القرطبي:

وجاء في تفسير القرطبي: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم - لإيقانهم بدنو القيامة - في حال من

(١٩٨٩) ابن ماجة (٤٠٦٠)، وأحمد(١٧٣٩٩).

(١٩٩٠) أحمد (١٠٨٣٦) و(١١٥٠٠).

(١٩٩١) تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ١٩٦.

حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت، قال ﷺ: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١٩٩٢]، أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالشاهد له مردودة ما عاش، لأن علمه بالله تعالى ونبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة...»[١٩٩٣].

(١٩٩٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

(١٩٩٣) تفسير القرطبي ج: ٧ ص: ١٤٦-١٤٧.

المبحث الرابع
معنى قول الفقهاء في باب الجنايات: (لا تقبل توبته)

١٦٤٨- إطلاق الفقهاء عبارة (لا تقبل توبته) في باب الجنايات:

يطلق الفقهاء كثيراً في باب الحدود أو الجنايات عبارة (لا تقبل توبته)، فيطلقونها على الزنديق وهو المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر على ما رجحه ابن تيمية[١٩٩٤] أو هو الذي لا يتمسك بشريعة ولا يتدين بدين على ما جاء في الموسوعة الفقهية[١٩٩٥]، ويشمل أصحاب الأهواء كالملاحدة وغيرهم، ويطلقون العبارة نفسها على المحارب بعد القدرة عليه، والسارق بعد الرفع إلى الإمام وثبوت السرقة عليه بالبينة من غير شبهة، وكذلك في سائر الحدود.

(١٩٩٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٧١-٤٧٢ حيث قال: « والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء [أي بعرف المذاهب الفقهية] هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره سواء أبطن ديناً من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم أو كان معطلاً جاحداً للصانع والمعاد والأعمال الصالحة، ومن الناس من يقول: الزنديق هو الجاحد المعطل، وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس. ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه هو الأول، لأن مقصودهم هو التمييز بين الكافر وغير الكافر، والمرتد وغير المرتد، ومن أظهر ذلك أو أسره، وهذا الحكم يشترك فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة، فإن الله أخبر بزيادة الكفر بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة:٣٧] كما أخبر بزيادة الإيمان [بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة: ١٢٤]]... كما أخبر بزيادة عذاب بعض الكفار على بعض في الآخرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل: ٨٨]، فهذا أصل ينبغي معرفته فإنه مهم في هذا الباب، فإن كثيراً ممن تكلم في مسائل الإيمان والكفر لتكفير أهل الأهواء لم يلحظوا هذا الباب ولم يميزوا بين الحكم الظاهر والباطن مع أن الفرق بين هذا وهذا ثابت بالنصوص المتواترة والإجماع المعلوم، بل هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، ومن تدبر هذا علم أن كثيراً من أهل الأهواء والبدع قد يكون مؤمناً مخطئاً جاهلاً ضالاً عن بعض ما جاء به الرسول وقد يكون منافقاً زنديقاً يظهر خلاف ما يبطن.

(١٩٩٥) الموسوعة الفقهية: ١٤/ ١٢٦-١٢٧.

١٦٤٩- مقصود الفقهاء: أنه لا تقبل توبته ظاهرا أمام القضاء فلا تسقط بها عقوبته:

ولكي لا يلتبس الأمر على غير المتخصص كان من الضروري بيان ذلك فنقول : إن قصد الفقهاء في ذلك هو عدم قبول توبته ظاهراً في القضاء فإنه إذا تاب بعد ثبوت الجريمة واستحقاقه العقوبة عليها فإن توبته لا تقبل لإسقاط عقوبته. ولا يقصدون بذلك أنها لا تقبل بينه وبين الله تعالى إذا كانت توبة صحيحة، فإن كل من تاب توبة صحيحة فإنها مقبولة بينه وبين الله تعالى ما لم يغرغر أو ما لم تطلع الشمس من مغربها.

وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أكثرهم: لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق، وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله، وكذلك قول كثير منهم أو أكثرهم في سائر الجرائم كما هو أحد قولي الشافعي وأصح الروايتين عن أحمد، وقولهم في هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم، فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم، أي لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة، [أي لا تقبل توبته أمام القضاء وهي المسماة توبة الظاهر في مقابل توبة الباطن][١٩٩٦]، بل يعاقب: إما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها، وإما لأن رفع العقوبة بذلك يفضى إلى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم.

١٦٥٠- التوبة الصحيحة بين العبد وبين الله مقبولة في كل الأحوال:

ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته في الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء، بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ الآية [النساء:١٧-١٨][١٩٩٧].

(١٩٩٦) قال ابن تيمية في موضع آخر: « والفقهاء إذا تنازعوا في قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو في الحكم الظاهر » (انظر: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٠).

(١٩٩٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٨٩-١٩٠.

المبحث الخامس
المشمولون قوله تعالى : (لن تقبل توبتهم)

١٦٥١- الآيات الدالة على عدم قبول توبة فريق من الناس وتفسيرها:

ورد ذلك في الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ومثل ذلك من حيث المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء: ١٣٧] .

ولكن قد تبين لنا فيما سبق أن التوبة الصحيحة تقبل من أي ذنب كان لإطلاق قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: ٥٣]، ودعوته للكافرين مهما أوغلوا في الكفر إلى أن ينتهوا فيغفر لهم ما قد سلف، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على قبول التوبة من كل ذنب مهما كان.

فمن هم أولئك الذين (لن تقبل توبتهم)؟ وما سبب عدم قبولها؟ ومثلهم الذين قال فيهم (لم يكن الله ليغفر لهم)؟.

١٦٥٢- أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: (لن تقبل توبتهم):

بالرجوع إلى مختلف التفاسير نجد أن أقوال المفسرين بعضها نقل عن السلف آراء متعددة في تفسير عدم قبول التوبة كالقرطبي، وبعضهم أعطى تفسيراً واحداً هو الراجح عنده كابن كثير، وبعضهم ذكر أقوال السلف ثم رجح ما رآه راجحاً كالشوكاني، وبعضهم لخص بترتيب حسن أقوال السلف في بيان من نزلت فيهم الآية، ثم أقوالهم في

علة عدم قبول التوبة من غير أن يرجح شيئاً كصاحب «زاد المسير». ونحن سنورد أقوالهم ثم نحاول الترجيح بشأن معنى قوله تعالى: (لن تقبل توبتهم)[1998] حسب قواعد التفسير وضوابطه.

١٦٥٣-١- ما جاء في تفسير القرطبي:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠]: «قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى (كفروا) بمحمد ﷺ (بعد إيمانهم) بنعته وصفته (ثم ازدادوا كفرا): بإقامتهم على كفرهم، وقيل: (ازدادوا كفرا) بالذنوب التي اكتسبوها، وهذا اختيار الطبري وهي عنده في اليهود.

(لن تقبل توبتهم): مشكل [قلت: ظاهراً] لقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥].

فقيل: المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت قاله النحاس وهو قول حسن، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨] وروي عن الحسن وقتادة وعطاء، وقد قال ﷺ : (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1999]...

وقيل: لن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا لأن الكفر قد أحبطها.

وقيل: لن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام.

(١٩٩٨) انظر أيضاً: تفسير أبي السعود ج: ٢ ص: ٥٦-٥٧، وفتح القدير ج: ١ ص: ٣٥٩-٣٦٠، وروح المعاني ج: ٣ ص: ٢١٨ وغيرهم.

(١٩٩٩) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤٢٤٣)، وأحمد (٥٨٨٥) و(٦١٢٠) و(١٤٩٥٢).

وقال قطرب: هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [آل عمران: ٩٠] أي: لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر، فسماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عزم والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم»[٢٠٠٠].

١٦٥٤-٢- ما جاء في تفسير ابن كثير:

«يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا أي استمر عليه إلى الممات ومخبرا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت) الآية، ولهذا قال هاهنا: (لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي»[٢٠٠١].

١٦٥٥-٣- ما جاء في تفسير فتح القدير:

وقال الشوكاني في تفسيره (فتح القدير): «... والأولى: أن يحمل عدم قبول التوبة في هذه الآية على من مات كافراً غير تائب، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية: وهي قوله: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) في حكم البيان لها»[٢٠٠٢].

«وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك، فذلك قوله تعالى: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار) الآية»[٢٠٠٣].

(٢٠٠٠) تفسير القرطبي ج: ٤ ص: ١٣٠-١٣١.
(٢٠٠١) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٣٨١.
(٢٠٠٢) فتح القدير ج: ١ ص: ٣٥٩.
(٢٠٠٣) فتح القدير ج: ١ ص: ٣٦٠.

١٦٥٦-٤- ما جاء في تفسير زاد المسير:

وقدم صاحب تفسير «زاد المسير» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]، قدم أقوال السلف وغيرهم مرتبة مع بيان علة عدم قبول توبتهم على النحو الآتي:

«قوله تعالى: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت فيمن لم يتب من أصحاب الحارث بن سويد، فإنهم قالوا: نقيم بمكة ونتربص بمحمد ريب المنون، قاله: ابن عباس و مقاتل.

والثاني: أنها نزلت في اليهود (كفروا) بعيسى والإنجيل (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد والقرآن، قاله: الحسن وقتادة وعطاء الخراساني.

والثالث: أنها نزلت في اليهود والنصارى (كفروا) بمحمد بعد إيمانهم بصفته (ثم ازدادوا كفراً) بإقامتهم على كفرهم، قاله: أبو العالية، قال الحسن: كلما نزلت آية كفروا بها فازدادوا كفراً.

وفي علة امتناع قبول توبتهم أربعة أقوال:

أحدها: أنهم ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم، قاله: ابن عباس.

والثاني: أنهم قوم تابوا من الذنوب في الشرك ولم يتوبوا من الشرك، قاله: أبو العالية.

والثالث: أن معناه: (لن تقبل توبتهم) حين يحضرهم الموت، وهو قول: الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي.

والرابع: (لن تقبل توبتهم) بعد الموت إذا ماتوا على الكفر، قاله: مجاهد»(٢٠٠٤).

١٦٥٧- القول الراجح في بيان العلة في عدم قبول توبتهم (لن تقبل توبتهم):

ونظراً لأهمية هذا الموضوع حيث يتعلق بفريق من الناس يقول الله تعالى بشأنهم (لن تقبل توبتهم) وهو متعلق بأهم ما في هذا الباب الذي نبحث فيه وهو (قبول التوبة

(٢٠٠٤) تفسير زاد المسير ج: ١ ص: ٤١٩.

من الله تعالى) فكان لا بد من أن نولي هذا الموضوع عناية خاصة أثناء ترجيح أحد الأقوال التي ذكرها العلماء.

وإذا كان المفسرون قد ذكروا في سبب نزول الآية أقوالاً عدة نسبوها إلى السلف بينوا فيها من نزلت فيهم الآية الكريمة سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو من آمن من كفار قريش ثم ارتد، وأن كل من ثبت منهم على كفره ولم يكن مآله الإيمان برسالة محمد ﷺ فقد ازداد كفراً، فإننا نقول إن الآية الكريمة تشمل من ذكروهم وتشمل أيضاً كل من ينطبق عليه ذلك من بني آدم إلى يوم القيامة لأن القاعدة الأصولية المعتبرة أن (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، فما هي العلة في عدم قبول توبة هذا الفريق من الناس مع أن الأصل قبول التوبة من كل من يتوب؟.

١٦٥٨- الراجح: (لن تقبل توبتهم) لوقوعها عند حضور الموت:

ونحن يترجح لنا في علة عدم قبول توبتهم القول الثالث المذكور آنفاً - حسبما أورده صاحب زاد المسير ونسبه إلى بعض السلف - وهو أنهم (لن تقبل توبتهم) حين يحضرهم الموت، جمعاً بين النصوص الشرعية وانسجاماً مع معناها في السياق.

وبيان ذلك: أن قوله تعالى: (ثم ازدادوا كفرا) الوارد في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] وجعل جزاءه (لن تقبل توبتهم)، والآية: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧]، وجعل جزاءه: (لم يكن الله ليغفر لهم) يدل على أنه كفر يزيد يوماً بعد يوم ويتمادى فيه صاحبه، إما بإضافة مزيد من أنواع الكفر إليه، وإما بإقامة صاحبه عليه وإصراره عليه حتى يدركه الموت، وعند المعاينة أو الغرغرة يتغير حاله وتوجد عنده دواعي التوبة - لأنه سبق له إيمان قبل كفره - فيتوب توبة غير صحيحة وغير مقبولة لأنها عند حضور الموت، وقد شرحناها سابقاً، يدل على ذلك جملة أمور:

١- في ضوء العمومات التي تدل على قبول التوبة الصحيحة من أي ذنب كان، لا يمكن فهم التوبة التي لا تقبل إلا أن تكون توبة غير صحيحة فلا تقبل وهو وقوعها عند حضور الموت.

٢- لو تاب قبل حضور الموت لتوقف عن الازدياد في الكفر بينما الآية تقول: (ثم ازدادوا كفراً)، بل لنقص كفره بالقياس إلى استمراره فيه وهو الازدياد، فدل ذلك على أن الزيادة في الكفر بمعنى الإصرار عليه إلى الموت حيث استمر يزيد ولا ينقص.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بشأن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧]: «قال مجاهد وغيره من المفسرين: ازدادوا كفرا: ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر، فقوله: ثم ازدادوا بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره فلم يزدد بل نقص، بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه»[٢٠٠٥].

٣- أن القرآن الكريم بين أن من آمن ثم كفر ثم انتهى إلى الإيمان فإنه تقبل توبته. وهذا الذي انتهت حاله إلى الإيمان والتوبة بعد الكفر لم يزدد كفرا بل توقف وتاب، وهو المرتد الذي تاب، وكذلك من تكررت ردته ثم انتهى إلى الإيمان والتوبة، فبين القرآن أن توبته مقبولة، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩].

قال ابن تيمية: «وقوله: (كيف يهدى الله) أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين، ولهذا قال: (والله لا يهدي القوم الظالمين)، فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا، لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد، والمقصود: أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا»[٢٠٠٦].

(٢٠٠٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٩.

(٢٠٠٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٨.

فقبل توبتهم، مع أنهم آمنوا، ثم كفروا، لكنهم انتهوا إلى الإيمان والتوبة، فلم يزدادوا كفرا حيث لم يثبتوا عليه إلى النهاية وهي حال حضور الموت التي هي حال من لا تقبل توبتهم الذين قال الله فيهم: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) فدل ذلك أن المقصود توبتهم عند حضور الموت وهي غير صحيحة وغير مقبولة كما قال تعالى: (لن تقبل توبتهم)، فالمرتد إذا تاب لم يزدد كفرا فلا يكون داخلاً في الآية.

والقول الذي رجحناه هو ما قال به الأكثرون من السلف، فهو قول الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي، على نحو ما نقلناه سابقاً.

وفي ضوء الفقرات الثلاث المتقدمة نفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٣٧][٢٠٠٧] فقوله تعالى: (ثم ازدادوا كفرا) دال على بقائهم عليه لحين حضور الموت ولم يذكر توبتهم عند حضور الموت في هذه الآية، ولو حصلت منهم فلا عبرة بها لأنها تقع غير صحيحة ولأن الله لا يهديهم سبيلاً إليها أصلاً، وذكر الأهم وهو (لم يكن الله ليغفر لهم) حيث لا سبيل لهم للمغفرة البتة، لأن من ثبت على كفره إلى الموت فقد وقع في العذاب المتيقن دون المشيئة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]. ولا فائدة من الإيمان الذي بين الكفرين أو السابق عليهما لأن

(٢٠٠٧) وهذا النص شامل لمن كفر برسالة محمد ﷺ من اليهود والنصارى ومن تكررت ردته حتى مات عليها كما جاء في التفاسير، ومن ذلك ما جاء ملخصاً في تفسير البيضاوي (ج: ٢ ص: ٢٦٧) حيث قال: « (إن الذين آمنوا) يعني: اليهود آمنوا بموسى ﷺ ، (ثم كفروا) حين عبدوا العجل، (ثم آمنوا) بعد عوده إليهم، (ثم كفروا) بعيسى ﷺ ، (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد ﷺ . أو قوماً تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في الغي (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم. (وانظر أيضا تفسير القرطبي ج: ٥ ص: ٤١٥-٤١٦).

ثبوته على الكفر الأخير إلى الموت أحبط حسناته التي كسبها في الإيمان فانعدمت، وأعاد له سيئاته عن الكفر الأول فأضافها إلى الكفر الأخير[2008]. والله تعالى أعلم.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧]: «يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال: (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً)، قال ابن أبي حاتم... عن ابن عباس في قوله تعالى: (ثم ازدادوا كفراً) قال: تمادوا على كفرهم حتى ماتوا، وكذا قال مجاهد»[2009].

ونخلص مما تقدم إلى أن الله جل ثناؤه يقبل توبة كل التائبين على ما كان منهم من الخطايا إذا تابوا توبة صحيحة، وأنه وعده بالمغفرة والرحمة لهم ما لم تكن التوبة عند حضور الموت، أي المعاينة، فإنها حينئذ توبة اضطرار لا تقبل، لأن الإيمان المعتبر هو الإيمان بالغيب لا الإيمان عند المعاينة وحضور الموت، وكذلك ما لم تكن التوبة عند طلوع الشمس من مغربها حيث لا يقبل الإيمان وقتها لأنه إيمان اضطرار لا إيمان اختيار، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

(٢٠٠٨) قال ابن تيمية: «... وفى الآية الأخرى قال: (لم يكن الله ليغفر لهم) وذكر أنهم: (آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا)، وقيل: لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول و الثاني كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، و من أساء في الإسلام أخذ بالأول و الآخر...» (انظر: مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٠).

(٢٠٠٩) تفسير ابن كثير ج: ١ ص: ٥٦٧.

الخاتمة

١٦٥٩- الخاتمة:

وبعد: فهذا ما يسره الله جل ثناؤه من أبواب هذا الكتاب وفصوله ومباحثه ومطالبه وفقراته، فصلت القول فيه تفصيلاً ليحقق الغاية المرجوة إن شاء الله تعالى، فما كان فيه من الصواب فمن الله وهو محض فضل الله تعالى علي ورحمته وإحسانه، وما قد يكون فيه من خطأ فمن نفسي وأستغفر الله وأتوب إليه، وإذا دلني إخواني علماء الأمة على شيء من ذلك فسأصححه طاعة لله ورسوله ﷺ، وإنما قصدت النفع الواسع والكبير لأخواني المسلمين والمسلمات في الأرض، وعسى الله تعالى أن يحقق هذا النفع، وحسبي أنني تحريت الصواب في كل ما كتبته في هذا الكتاب ماضياً مع ما تقرره أدلة الأحكام، فعسى أن لا أحرم من الأجر والثواب فقد قال رسولنا الكريم ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)(٢٠١٠). داعياً الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وأن يجزينا برحمته فإنها خير لنا من أعمالنا، كما أرجو من إخوتي المؤمنين والمؤمنات الذين يقرؤون هذا الكتاب أن لا ينسوني في دعائهم جزاهم الله خيراً، فإن دعوة المؤمن لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى(٢٠١١)، والملك يقول له: ولك

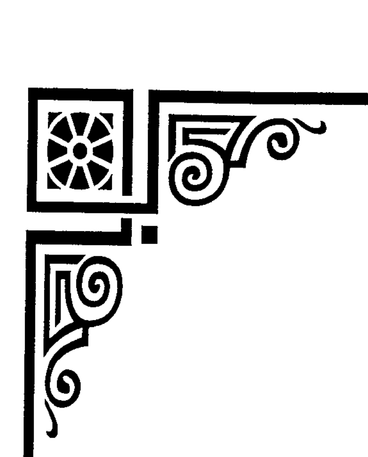
(٢٠١٠) متفق عليه: البخاري (٦٩١٩) ج:٦ ص: ٢٦٧٦، ومسلم (١٧١٦) ج: ٣ ص:١٣٤٢.

(٢٠١١) مسلم (٤٩١٤) ولفظه: - بسنده عن أبي الدرداء وأم الدرداء - أن النبي ﷺ كان يقول: (دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل). وأيضاً: ابن ماجة (٢٨٨٦)، وأحمد (٢٠٧١٧) و(٢٦٢٧٨) و(٢٦٢٧٩).

بمثل[٢٠١٢] أي مثل ذلك. وحين انتهيت من تأليف هذا الكتاب الذي دام تأليفه سنين عديدة وجدتني بتقدير الله تعالى في ليلة الإسراء والمعراج من غير قصد مني أن أنتهي منه في ليلة معينة، فلله الفضل والمنة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ الدكتور: منير حميد البياتي
الأردن / الزرقاء في ٢٧/ رجب / ١٤٢٥ هـ
الموافق: ١٢/ ٩ / ٢٠٠٤ م

(٢٠١٢) مسلم (٤٩١٢) ولفظه: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : (ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل). وأيضا: أبو داود (١٣١١)، وابن ماجة (٢٨٨٦)، وأحمد (٢٦٢٧٨).







الفهارس

- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس تفصيلي للجزأين الأول والثاني مرتباً بحسب أرقام الفقرات.
- فهرس الجزء الثاني.









فهرس المصادر والمراجع

(مرتبة بحسب ألقاب أصحابها وفقاً لحروف المعجم - الهجاء -)

أولا - القرآن الكريم وكتب التفسير وعلوم القرآن

١- القرآن الكريم.

٢- الآلوسي، مفتي بغداد العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي أبو الفضل (١٢٧٠هـ): **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المعروف بتفسير الآلوسي**، دار إحياء التراث العربي ط٢، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣- البغوي، الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد (٥١٦هـ): **معالم التنزيل**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧.

٤- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد بن عبدالله الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ): **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١.

٥- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم الحراني (٧٢٨هـ):**دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية**، مؤسسة علوم القرآن،دمشق،١٤٠٤هـ.

٦- الجصاص، الإمام أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص (٣٧٠هـ): **أحكام القرآن** المعروف بتفسير الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٧- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ): **زاد المسير في علم التفسير**،المكتب الإسلامي، بيروت،١٤٠٤هـ.

٨- الرازي، الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ): **التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب**، المطبعة البهية المصرية ١٣٥٧هـ.

٩- رشيد رضا، العلامة محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ): **تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار**، دار المعرفة، بيروت .

١٠- الزمخشري، جاد الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ): **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي.

١١- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود (٩٥١هـ): **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** المعروف بتفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (٩١١هـ):**الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.

١٣- الشوكاني، الإمام المجتهد محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ): **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الفكر، بيروت.

١٤- الصنعاني: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ): **تفسير القرآن**، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ.

١٥- الطبري، محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ): **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

١٦- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور: **تفسير التحرير والتنوير**، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤.

١٧- ابن العربي، محمد بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن العربي المالكي (٥٤٢هـ): **أحكام القرآن**، دار الكتب العلمية.

١٨- القرطبي، الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ): **الجامع لأحكام القرآن** المعروف بتفسير القرطبي، دار الشعب ط٢- القاهرة، ١٣٧٢هـ.

١٩- قطب، سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مكتبة عيسى الحلبي.

٢٠- ابن القيم، العلامة المحقق محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (٧٥١هـ): **التبيان في أقسام القرآن**، دار الفكر، بيروت.

٢١- ابن كثير، الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ): **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٢٢- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد (ت ٧١٠هـ): **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** المعروف بتفسير النسفي، دار القلم -الدار الشامية، دمشق، ١٤١٥هـ.

ثانياً: كتب الحديث وشروحه وعلومه

٢٣- أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ): **مسند الإمام أحمد**، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.

٢٤- ابن الأثير، الإمام مجد الدين أبو السعادات محمد بن المبارك المشهور بابن الأثير (٦٠٦هـ): **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المطبعة الخيرية.

٢٥- البخاري، الإمام البخاري (٢٥٦هـ): **صحيح البخاري**، دار القلم، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٦- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ): **السنن الكبرى**، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة،١٤١٤هـ.

٢٧- **شعب الإيمان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

٢٨- الترمذي، محمد بن عيسى (٢٧٩هـ): **سنن الترمذي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩- الجراحي، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (١١٦٢هـ):**كشف الخفاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣٠- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥٩٧هـ): **العلل المتناهية**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.

٣١- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ): **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠.

٣٢- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (٣٥٤هـ): **صحيح ابن حبان**، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٣.

٣٣- الحكيم الترمذي: محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي: **نوادر الأصول في أحاديث الرسول**، دار الجيل، بيروت،١٩٩٢.

٣٤- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (٣١١هـ): **صحيح ابن خزيمة**، المكتب الإسلامي، بيروت،١٩٧٠.

٣٥- الدارقطني، الإمام علي بن عمر البغدادي الدارقطني (٣٨٥هـ): **سنن الدارقطني**، دار المعرفة، بيروت،١٣٨٦هـ.

٣٦- الدارمي، الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥هـ): **سنن الدارمي**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ – ١٤٠٧هـ.

٣٧- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ): **سنن أبي داود**، دار الفكر.

٣٨- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ): **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٥.

٣٩- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (١٠٩٩هـ): **شرح الزرقاني لموطأ الإمام مالك**، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١١هـ.

٤٠- الشوكاني، الإمام المجتهد محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٥هـ): **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

٤١- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (٢٣٥هـ): **مصنف ابن أبي شيبة**،مكتبة الرشد، الرياض،١٤٠٩هـ.

٤٢- الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير (١١٨٢هـ): **سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٣- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ): **المعجم الكبير**،مكتبة العلوم والحكم، الموصل،١٩٨٣.

٤٤- **المعجم الأوسط**، دار الحرمين، القاهرة،١٤١٥هـ.

٤٥- **المعجم الصغير**، المكتب الإسلامي- دار عمار، بيروت-عمان،١٩٨٥.

٤٦- أبو الطيب، محمد شمس الحق العظيم أبادي: **عون المعبود**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
٤٧- عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ): **مصنف عبدالرزاق**، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٢-١٤٠٣هـ.
٤٨- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (٨٥٢هـ): **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت،١٣٧٩هـ.
٤٩- **الإصابة**، دار الجيل، بيروت،١٩٩٢.
٥٠- **تلخيص الحبير**،طبعة المدينة المنورة،١٩٦٤.
٥١- **تغليق التعليق**،المكتب الإسلامي – دار عمار، بيروت – عمان١٤٠٥هـ.
٥٢- العيني، الإمام بدر الدين محمود بن أحمد العيني أبو محمد(٨٥٥هـ):**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٣- القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي (٤٥٤هـ): **مسند الشهاب**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.
٥٤- ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (٧٥١هـ): **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٥.
٥٥- ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله بن القزويني ابن ماجة(٢٧٥هـ): **سنن ابن ماجة**، دار إحياء التراث العربي،١٩٧٥.
٥٦- مالك، الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ): **الموطأ**،دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨.
٥٧- المباركفوري، صفي الرحمن المباركفوري: **الرحيق المختوم**، مكتبة العبيكان، ١٩٩٧.
٥٨- المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري أبو العلا(١٣٥٣هـ): **تحفة الأحوذي**، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٩- المزي، يوسف بن الزكي بن عبد الرحمن أبو الحجاج المزي (٧٤٢هـ). **تهذيب الكمال**،مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٠.
٦٠- مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ): **صحيح الإمام مسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦١- المناوي، العلامة عبد الرؤوف المناوي: **فيض القدير**، المكتبة التجارية الكبرى، مصر،١٣٥٦هـ.
٦٢- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد (٦٥٦هـ): **الترغيب والترهيب**، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٧١هـ.
٦٣- النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي(٣٠٣هـ): **سنن النسائي**، دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٦.
٦٤- النووي، يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا (٦٧٦هـ): **شرح النووي على صحيح مسلم**،دار إحياء التراث العربي،بيروت،١٣٩٢هـ.

٦٥- **رياض الصالحين**، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٩.
٦٦- الهمذاني، أبي شجاع بن شيرويه الديلمي الهمذاني (٥٠٩هـ): **الفردوس بمأثور الخطاب**، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٦.
٦٧- الهيثمي، علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ): **مجمع الزوائد**، دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي ، القاهرة- بيروت،١٤٠٧هـ.
٦٨- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ): **مسند أبي يعلى**، دار المأمون للتراث، دمشق،١٩٨٤.

ثالثاً: كتب الفقه

أ- فقه الحنفية:

٦٩- البابرتي، الإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (٧٨٦هـ): **العناية شرح الهداية**.
٧٠- الزيلعي، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي (٧٤٣هـ): **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، دار الكتاب الإسلامي.
٧١- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ): **رد المحتار على الدر المختار في شرح تنوير الأبصار**،دار الفكر، بيروت،١٣٨٦هـ.
٧٢- الكاساني ، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء (٥٨٧هـ)، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٣- ابن نجيم، زين بن إبراهيم بن محمد (٩٧٠هـ): **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، دار المعرفة، بيروت.
٧٤- النسفي، الشيخ نجم الدين بن حفص النسفي (٥٣٧ هـ): **طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية**، دار الطباعة العامرة، القاهرة ١٣١١هـ.
٧٥- ابن الهمام، الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام الحنفي (٦٨١هـ): **شرح فتح القدير** ، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت.

ب- فقه المالكية:

٧٦- الباجي، سليمان بن خلف الباجي: **المنتقى شرح الموطأ**، دار الكتاب الإسلامي.
٧٧- أبو الحسن، أبو الحسن المالكي: **كفاية الطالب**، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
٧٨- الحطاب، محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي (٩٥٤هـ): **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٧٩- ابن جزي، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي (٧٤١هـ): **قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية**، دار العلم للملايين، بيروت.
٨٠- الخرشي، محمد بن عبد الله (١١٠١هـ): **شرح مختصر خليل**، دار الفكر.

٨١- الدسوقي، محمد بن عرفه الدسوقي (١٢٣٠هـ): **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير**، دار الفكر، بيروت.

٨٢- الصاوي، أبو العباس أحمد الصاوي: **بلغة السالك المعروف (حاشية الصاوي على الشرح الصغير)**، دار المعارف.

٨٣- العدوي، علي الصعيدي العلوي المالكي : **حاشية العدوي**، دار الفكر، بيروت،١٤١٢هـ.

٨٤- عليش، محمد بن أحمد بن محمد عليش: **منح الجليل شرح مختصر خليل**، دار الفكر.

٨٥- مالك، الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ). **المدونة الكبرى**، دار صادر، بيروت.

٨٦- المواق، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الشهير بالمواق (٨٩٧هـ): **التاج والإكليل لمختصر خليل**، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٨٧- النفراوي، أحمد بن غنيم النفراوي المالكي (١١٢٥هـ): **الفواكه الدواني**، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

جـ - فقه الشافعية:

٨٨- الأنصاري، أبو يحيى زكريا (٩٢٥هـ). **أسنى المطالب شرح روض الطالب**، دار الكتاب الإسلامي ١٤١٤هـ.

٨٩- الجاوي، محمد بن عمر بن علي بن نووي الجاوي: **نهاية الزين**، دار الفكر، بيروت.

٩٠- الدمياطي، السيد البكري بن السيد محمد شطا الدمياطي: **إعانة الطالبين**، دار الفكر، بيروت.

٩١- الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي (١٠٠٤ هـ): **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**، دار الفكر، بيروت.

٩٢- العراقي، عبد الرحيم بن الحسين العراقي: **طرح التثريب**،دار إحياء الكتب العربية.

٩٣- الرملي، شهاب الدين أحمد بن أحمد الرملي: **فتاوى الرملي**، المكتبة الإسلامية.

٩٤- الشافعي، الإمام محمد بن إدريس (٢٠٤هـ): **الأم**، دار المعرفة - بيروت،١٣٩٣هـ.

٩٥- الشربيني، محمد الخطيب (ت ٩٩٧هـ): **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، مطبعة الاستقامة - مصر، ١٩٥٥م.

٩٦- الشرواني، عبد الحميد الشرواني: **حاشية الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج**، دار الفكر، بيروت.

٩٧- الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (٤٧٦ هـ): **التنبيه**، عالم الكتب، بيروت، ط١-١٤٠٣هـ.

٩٨- عز الدين، عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (٦٦٠هـ).: **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٩- الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ): **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت.

١٠٠- قليوبي وعميرة، أحمد سلامة القليوبي وأحمد البراسي عميرة: **حاشيتا قليوبي وعميرة**، دار إحياء الكتب العربية.

١٠١- النووي، محيي الدين بن شرف (٦٧٦هـ): **روضة الطالبين**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٠٢- الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي: **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، دار إحياء التراث العربي.

١٠٣- **الفتاوى الفقهية الكبرى**، المكتبة الإسلامية.

١٠٤- **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، دار الفكر.

د - **فقه الحنابلة:**

١٠٥- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي الحنبلي(١٠٥١ هـ) : **كشاف القناع عن متن الإقناع**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ.

١٠٦- **شرح منتهى الإرادات.**

١٠٧- الرحيباني، مصطفى بن سعد الرحيباني (١٢٤٣هـ): **مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى**، ١٢٤٣هـ، المكتب الإسلامي.

١٠٨- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (٧٩٤هـ): **المنثور في القواعد الفقهية**،طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.

١٠٩- ابن قدامه، الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ): **المغني على مختصر الخرقي**، دار الفكر،بيروت،ط١-١٤٠٥هـ.

١١٠- المرداوي، علي بن سليمان (٨٨٥هـ): **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١١- المقدسي، محمد بن مفلح (٧٦٢ هـ): **الفروع**، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١- ١٤١٨هـ.

١١٢- **الآداب الشرعية.**

هـ - **فقه الزيدية:**

١١٣- الشوكاني، الإمام المجتهد محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٥هـ): **نيل الأوطار**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

١١٤- الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير (١١٨٢هـ): **سبل السلام شرح بلوغ المرام**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤ – ١٣٧٩هـ.

١١٥- المرتضى، المجتهد المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (٨٤٠هـ): **البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار**، دار الكتاب الإسلامي.

و- **فقه الظاهرية:**

١١٦- ابن حزم، الإمام علي بن احمد بن حزم الظاهري أبو محمد (٤٥٦هـ):**المحلى بالآثار**، المطبعة المنيرية، ١٣٥١هـ.

ز -	الفقه العام:

١١٧- الأشقر، أ. د. عمر سليمان عبد الله الأشقر (معاصر): **نحو ثقافة إسلامية أصيلة**، دار النفائس، عمان، ٢٠٠٢.

١١٨- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني: **حجاب المرأة المسلمة**، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩.

١١٩- البياتي، أ.د. منير حميد البياتي (المؤلف - معاصر): **النظم الإسلامية**، دار البشير، عمان،١٩٩٤.

١٢٠- **المدخل إلى الدين الإسلامي**، مطبعة جامعة بغداد.

١٢١- **النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية**، دار البشير، عمان،١٩٩٤.

١٢٢- ابن تيمية، الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني (٧٢٨هـ): **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، مطابع الرياض.

١٢٣- **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه**، مكتبة ابن تيمية.

١٢٤- **الفتاوى الكبرى**، دار الكتب العلمية.

١٢٥- الخالدي، صلاح عبد الفتاح الخالدي (معاصر): **تهذيب كتاب مشارع الأشواق في مصارع العشاق في فضائل الجهاد للدمياطي**.

١٢٦- ابن رشد، محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٩٥هـ): **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، دار الفكر، بيروت.

١٢٧- زيدان، أ. د. عبد الكريم (معاصر): **المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤١٥هـ.

١٢٨- **أصول الدعوة**، مؤسسة الرسالة، بيروت- عمان، ١٤٠٩هـ.

١٢٩- **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، مؤسسة الرسالة،بيروت، ٢٠٠٠.

١٣٠- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي المالكي (٥٤٤هـ): **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دمشق، مكتبة الغزالي، ٢٠٠٠.

١٣١- القرضاوي، الشيخ أ.د. يوسف القرضاوي (معاصر): **فقه الزكاة**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٣٢- ابن القيم، العلامة محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، (٧٥١هـ): **زاد المعاد في هدى خير العباد**، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت ط١٤- ١٤٠٧هـ.

١٣٣- **أعلام الموقعين عن رب العالمين**،دار الجيل، بيروت،١٩٧٣.

١٣٤- **تحفة المودود بأحكام المولود**، مكتبة دار البيان، دمشق،١٩٧١.

١٣٥- **الصلاة وحكم تاركها**،دار ابن حزم، بيروت،١٩٩٦.

١٣٦- مصنفو الموسوعة الفقهية، جماعة من العلماء (في العصر الحديث): **الموسوعة الفقهية الكويتية**، تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية.

رابعاً - كتب أصول الفقه :

١٣٧- ابن حزم، الإمام علي بن أحمد بن حزم الظاهري أبو محمد (٤٥٦هـ): **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

١٣٨- زيدان، أ.د. عبد الكريم (معاصر): الوجيز في **أصول الفقه**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٣٩- الشاطبي، أبو إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ): **الموافقات في أصول الشريعة**، دار المعرفة، بيروت.

١٤٠- الشوكاني، الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ): **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، المطبعة المنيرية، القاهرة.

١٤١- العطار، حسن بن محمد بن محمود العطار: **حاشية العطار على شرح الجلال المحلي**، دار الكتب العلمية.

خامساً - كتب العقائد والأخلاق والرقائق:

١٤٢- الأشقر، أ. د. عمر سليمان عبد الله الأشقر (معاصر): **أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرفة به**،دار النفائس، عمان، ٢٠٠٤.

١٤٣- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٤٣٠هـ): **حلية الأولياء**،دار الكتاب العربي، بيروت،١٤٠٥هـ.

١٤٤- الإيجي، عضد الدين بن عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (٧٥٦هـ): **المواقف**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧.

١٤٥- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ): **شعب الإيمان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٤٦- **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٤٠١ هـ.

١٤٧- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم الحراني المعروف بابن تيمية (٧٢٨هـ): **التحفة العراقية**، المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٩٩هـ.

١٤٨- **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في العقيدة**،مكتبة ابن تيمية.

١٤٩- **الزهد والورع والعبادة**، مكتبة المنار، الأردن،١٤٠٧هـ.

١٥٠- **رسالة في التوبة** (ضمن كتاب جامع الرسائل)، مصر.

١٥١- **الاستقامة**،جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة،١٤٠٣هـ.

١٥٢- **قاعدة في المحبة**، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

١٥٣- **منهاج السنة النبوية**،مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ.

١٥٤- **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، دار ابن حزم،بيروت،١٤١٧هـ.

١٥٥- الحازمي، إبراهيم بن عبد الله (معاصر): **التائبون إلى الله**.

١٥٦- حبنكة، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، بيروت، ١٩٩٤.

١٥٧- ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٥٠هـ): **جامع العلوم والحكم**، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٥٨- ابن حزم، الإمام علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد (٥٤٨هـ): **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٥٩- حكمي، حافظ بن أحمد حكمي (١٣٧٧هـ): **معارج القبول**، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠هـ.

١٦٠- ابن عيسى، أحمد بن إبراهيم بن عيسى (١٣٢٩هـ): **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم**، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٦١- عبد الباقي، عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن إبراهيم (١٠٧١هـ): **العين والأثر في عقائد أهل الأثر**، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٧.

١٦٢- عبد الحق، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد (٥٨١هـ): **العاقبة في ذكر الموت**، مكتبة دار الأقصى، الكويت، ١٩٨٦.

١٦٣- ابن أبي العز، ابن أبي العز الحنفي: **شرح العقيدة الطحاوية**، ط٣، المكتب الإسلامي، دمشق.

١٦٤- العزي، عبد المنعم صالح العلي العزي (معاصر): **تهذيب مدارج السالكين**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨.

١٦٥- الغزالي، الإمام محمد بن محمد الغزالي أبو حامد (٥٠٥هـ): **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، الجفان والجابي، قبرص، ١٩٨٧.

١٦٦- **معارج القدس**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٥.

١٦٧- **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت.

١٦٨- القرطبي، الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر: (٦٧١هـ): **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧.

١٦٩- القشيري، الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري القشيري: **الرسالة القشيرية في علم التصوف**، القاهرة، ١٩٥٧.

١٧٠- القنوجي، صديق بن حسن بن علي القنوجي: **يقظة أولي الاعتبار**، مكتبة عاطف – دار الأنصار، القاهرة، ١٩٨٧.

١٧١- ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية (٧٥١هـ): **إغاثة اللهفان**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥.

١٧٢- **بدائع الفوائد**، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٦.

١٧٣- **الجواب الكافي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٤- **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٥- **الروح**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥.

١٧٦- **طريق الهجرتين**، دار ابن القيم، الدمام، ١٩٩٤.

١٧٧- **عدة الصابرين**، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧٨- **الفروسية**، دار الأندلس، السعودية – حائل،١٩٩٣.
١٧٩- **مفتاح دار السعادة**، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨٠- **مدارج السالكين**، دار الكتاب العربي، بيروت،١٩٧٣.
١٨١- **الوابل الصيب**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥.
١٨٢- المحاسبي، الحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣هـ): **التوهم**، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٢.
١٨٣- المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي(٦٢٠هـ):**كتاب التوابين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

سادساً – المعاجم وكتب اللغة:

١٨٤- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الجرجاني (٨١٦هـ): **التعريفات**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٨٥- عبد الباقي، محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧.
١٨٦- الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (٨١٧هـ): **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ.
١٨٧- مجمع اللغة العربية، (جماعة من العلماء في العصر الحديث): **المعجم الوسيط**، مطبعة مصر، ١٩٦١.
١٨٨- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري(٧١١هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.



فهرس تفصيلي للجزأين الأول والثاني

بحسب أرقام الفقرات

فهرس الجزء الأول

(مرتباً بحسب أرقام الفقرات)

المقدمة

الباب الأول

حقائق الإيمان أساس التوبة

الفصل الأول

الحقيقة الأولى : الإيمان بالله تعالى وصفاته

المبحث الأول

الإيمان بالله رباً خالقاً لكل شيء

المبحث الثاني
الإيمان بالله إلهاً معبوداً مطاعاً

المبحث الثالث
الإيمان بصفات الله تعالى

الفصل الثاني

الحقيقة الثانية : عبادة الله هي حكمة الإيجاد والتكليف

المبحث الأول

آدم وبنوه .. والامتحان

المبحث الثاني

الدنيا وأسباب الافتتان بها وتحذيرات القرآن

المبحث الثالث

أقسام البشر في الدنيا ومصائرهم حسب تقسيم القرآن

الفصل الثالث

الحقيقة الثالثة : رجوع العالمين إلى رب العالمين

المبحث الأول

عناية القرآن الكريم بترسيخ فكرة رجوع العالمين إلى الله تعالى

(الإتيان) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله ١٣٩-٧- استعمال كلمة (الجمع) ومشتقاتها لبيان جمع العالمين إلى الله ١٤٠-٨- استعمال كلمة (البعث) ومشتقاتها لبيان رجوع العالمين إلى الله ١٤١-٩- استعمال كلمات أخرى في القرآن غير ما تقدم .

المبحث الثاني
رجوع العالمين إلى الله يبدأ بالموت ، وبيان أحوال الناس فيه

١٤٢- تمهيد ١٤٣- مشاهد الموت وما بعده في القرآن والسنة : ١٤٤- أولاً - الموت ١٤٥- تعريف الموت ١٤٦- ثانياً - حضور الملائكة لقبض الروح ١٤٧- ثالثاً - أقسام الناس ساعة الموت وتعامل الملائكة معهم : ١٤٨-١- في القرآن الكريم : ١٤٩- أ- حال المقربين ، وأصحاب اليمين ، والمكذبين الضالين ١٥٠- ب - حال المؤمنين خاصة ساعة الموت ١٥١- ج - حال الكافرين والضالين خاصة ساعة الموت ١٥٢-٢- في السنة النبوية : ١٥٣- تعامل الملائكة مع المحتضر بحسب حاله ساعة قبض الروح وعقيبها ١٥٤-رابعاً - القبر أول منازل الآخرة وما يكون فيه ١٥٥- حياة البرزخ وسؤال القبر ١٥٦- أ- معنى البرزخ ١٥٧- ب - سؤال القبر ١٥٨- ج - نعيم القبر وعذاب القبر في القرآن والسنة ١٥٩- تصور عذاب القبر ونعيمه ١٦٠- عذاب القبر ونعيمه ليس من جنس المعهود في الدنيا ١٦١- عذاب القبر ونعيمه ينال مستحقه وإن لم يقبر ١٦٢- السنة النبوية ذكرت أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة في القبر وغيره .

المبحث الثالث
قيام الساعة وما يرافقها من أهوال

١٦٣- تمهيد : قيام الساعة هو البداية ليوم القيامة بكل مشاهده ١٦٤- أهم أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم : (١- يوم القيامة ٢- يوم الدين ٣- اليوم الآخر ٤- الساعة ٥- الطامة الكبرى ٦- الحاقة ٧- الغاشية ٨- الواقعة ٩- القارعة ١٠- الصاخة ١١- يوم البعث ١٢- يوم الخروج ١٣- يوم الفصل ١٤- يوم الخلود ١٥- يوم الحساب ١٦- يوم الآزفة ١٧- يوم الجمع ١٨- يوم الوعيد ١٩- يوم التلاق ٢٠- يوم التناد ٢١- يوم التغابن ٢٢- يوم الحسرة ١٦٥- علم الساعة عند الله ١٦٦- مجيء الساعة بغتة ١٦٧- منكر الساعة كافر ضال ومعتد أثيم مصيره النار ١٦٨- قرب الساعة ١٦٩- أهوال الساعة ١٧٠- قيام الساعة بالنفخ في الصور .

المبحث الرابع
البعث والنشور وأدلته

١٧١- تمهيد وتقسيم : يتضمن مطلبين : المطلب الأول : التعريف بالبعث والنشور وبيان حقيقته . المطلب الثاني : الأدلة على البعث والنشور .

المطلب الأول
التعريف بالبعث والنشور وبيان حقيقته

المطلب الثاني
الأدلة على البعث والنشور

المبحث الخامس
كلمات جامعة في مشاهد القيامة

الباب الثاني

التوبة : فضلها ومشروعيتها وأركانها وأقسامها

الفصل الأول

تعريف التوبة وبيان فضلها ومكانتها في الإسلام

المبحث الأول

التوبة لغةً واصطلاحاً

المبحث الثاني
مكانة التوبة وفضلها في الإسلام

الفصل الثاني
مشروعية التوبة وحكمها في الإسلام

المبحث الأول
وجوب التوبة في القرآن الكريم

المطلب الأول
إيجاب التوبة بالصيغ الدالة على الوجوب

المطلب الثاني
تأكيد الوجوب وإحاطته بمزيد من العناية

المبحث الثاني
وجوب التوبة في السنة النبوية

المبحث الثالث
انعقاد الإجماع على وجوب التوبة وأنها على الخلق كافة

المبحث الرابع
أثر التوبة في تحصيل حسن الخاتمة وتجنب سوئها

الفصل الثالث
أركان التوبة

المبحث الأول
الركن الأول : الندم على ما فرط العبد في جنب الله

المطلب الأول
حقيقة الندم والباعث عليه

من الصغائر إضافة إلى الكبائر ٣٧٠- المعرفة الإيمانية .. ومحاسبة المؤمن نفسه نادماً ٣٧١- البصيرة تورث الندم وطلب التدارك ٣٧٢- في القرآن الكريم نموذج لندم المؤمنين على ذنوبهم .

المطلب الثاني
الأسباب الجالبة للندم

٣٧٣- الأسباب الخمسة الجالبة للندم ٣٧٤- شرح الأسباب الخمسة الجالبة للندم:٣٧٥- السبب الأول - تعظيم الأمر والنهي الإلهي ٣٧٦- السبب الثاني - تعظيم الآمر وهو الله تعالى ٣٧٧- السبب الثالث - تعظيم الجناية ٣٧٨- السبب الرابع - معرفة العدو ٣٧٩- السبب الخامس - التصديق بالجزاء مع حضوره في القلب ٣٨٠- ماذا يفعل من لم يحصل له الندم على الذنب ٣٨١- قول الغزالي فيمن قسا قلبه فلم يندم على معاصيه ويتوب .

المبحث الثاني
الركن الثاني : الإقلاع عن الزلة وتركها في الحال

٣٨٢- حقيقة الإقلاع عن الزلة في الحال وسببه ٣٨٣- الندم ينشأ منه إرادتان عند العلماء ٣٨٤- الندم ينشأ منه إرادة ثالثة أيضاً ٣٨٥- متى يكون الإقلاع عن الذنب محبوباً ومرغوباً ٣٨٦- الحالات التي يشملها الإقلاع عن الزلة في الحال ٣٨٧- الحالة الأولى : ذنب طارئ يقطعه تائبا منه ٣٨٨- الحالة الثانية : ذنوب دائمة مستمرة يتوقف عنها تائباً ٣٨٩- الحالات التي تشتبه بالتوبة وليست بتوبة : ٣٩٠- الحالة الأولى - النية الصادقة للتوبة مستقبلاً مع الندم في الحال لا تكون توبة ٣٩١ - الحالة الثانية - الإقلاع عن لذنب لغير الله ليس بتوبة حتى مع الندم.

المبحث الثالث
الركن الثالث : العزم على عدم العودة للذنب في المستقبل

٣٩٢- حقيقة العزم على عدم المعاودة للذنب ٣٩٣- يكفي في صحة (العزم) صدقه ساعة وقوع التوبة ٣٩٤- تحرش الشيطان بصاحب (العزم) الصادق لثنيه عن الوفاء بعزمه ٣٩٥- توبة العاجز عن العودة إلى الذنب وعلاقتها بصحة (العزم) على تركه ٣٩٦- العجز الدائم عن الذنب وعلاقته بصحة (العزم) ٣٩٧- العجز المؤقت عن الذنب وعلاقته بصحة (العزم) .

المبحث الرابع
الركن الرابع : التحلل من حقوق الغير

٣٩٨- لا تكتمل توبة من ظلم الغير إلا بالتحلل من حقوقهم ٣٩٩- نماذج لأقوال العلماء في التحلل من حقوق الغير : ٤٠٠-١- قول الغزالي في التحلل من حقوق الغير ٤٠١-٢- قول ابن حزم في التحلل من حقوق الغير ٤٠٢-٣- قول ابن تيمية في التحلل من حقوق الغير ٤٠٣- ما الحكم يوم القيامة إذا لم يتحلل التائب من حقوق الغير لعجزه عن ذلك .

الفصل الرابع
أقسام التوبة

٤٠٤- تمهيد : في بيان تقسيمات التوبة أو أنواعها : يتضمن خمسة مباحث: المبحث الأول : التوبة النصوح والتوبة المعلولة . المبحث الثاني : التوبة من ذنب معين والتوبة الشاملة . المبحث الثالث : التوبة الواجبة والتوبة المستحبة . المبحث الرابع : التوبة في الباطن والتوبة في الظاهر. المبحث الخامس : التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها .

المبحث الأول
التوبة النصوح والتوبة المعلولة

٤٠٥- تمهيد وتقسيم : يتضمن مطلبين : المطلب الأول : التوبة النصوح . المطلب الثاني : التوبة المعلولة.

المطلب الأول
التوبة النصوح

٤٠٦- دعوة القرآن المؤمنين إلى التوبة النصوح ٤٠٧- أقوال المفسرين والعلماء في التوبة النصوح ٤٠٨- أولاً - التوبة النصوح في تفاسير القرآن الكريم ٤٠٩-١- التوبة النصوح عند القرطبي ٤١٠- توجيهنا لأقوال السلف التي أوردها القرطبي في التوبة النصوح ٤١١-٢- التوبة النصوح عند ابن كثير ٤١٢- ابن كثير يذكر رأيين في مسألة أثر معاودة الذنب على التوبة السابقة ٤١٣- مسألة معاودة الذنب هل تبطل التوبة السابقة ؟ ٤١٤-٣- التوبة النصوح عند البيضاوي ٤١٥-٤- التوبة النصوح في تفسير فتح القدير ٤١٦-٥- التوبة النصوح عند الآلوسي ٤١٧-٦- التوبة النصوح في تفسير «في ظلال القرآن» ٤١٨- ثانياً - التوبة النصوح في أقوال العلماء من غير أصحاب التفاسير: ٤١٩-١- قول الغزالي في التوبة النصوح ٤٢٠-٢- التوبة النصوح فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان ٤٢١-٣- قول ابن تيمية في التوبة النصوح ٤٢٢-٤- قول ابن قيم الجوزية في التوبة النصوح ٤٢٣- تذكير مختصر بحقيقة الندم وعناصره عند الغزالي وغيره من العلماء ٤٢٤- استشعار التائب مرارة الذنوب رغم أنها مشتهاة ٤٢٥- قول الغزالي في وجدان التائب مرارة الذنوب رغم أنها مشتهاة : ٤٢٦- المؤمن يعمل السيئة مع كراهيته وبغضه لها وأقوال العلماء في ذلك ٤٢٧-١- قول ابن تيمية في كراهية المؤمن للسيئة أثناء فعلها ٤٢٨-٢- قول ابن القيم في كراهية المؤمن للسيئة حال فعلها ٤٢٩-٣- توجيهنا لكراهية المؤمن وبغضه للسيئة أثناء فعلها ٤٣٠- التوبة النصوح تتضمن الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ٤٣١- المقصود بالاعتراف بالذنب أمام الله وليس أمام الناس ٤٣٢- أقوال العلماء في الاعتراف بالذنب أمام الله تعالى ٤٣٣-١- قول القرطبي في الاعتراف بالذنب ٤٣٤-٢- قول ابن كثير في الاعتراف بالذنب : ٤٣٥-٣- قول ابن تيمية في الاعتراف بالذنب ٤٣٦-٤- قول ابن القيم في الاعتراف بالذنب ٤٣٧-٥- قول الشوكاني في الاعتراف بالذنب ٤٣٨- نموذج لمناجاة التائب توبة نصوحا ودعائه متضمنا الاعتراف بالذنب .

المطلب الثاني
التوبة المعلولة

المبحث الثاني
التوبة من ذنب معين والتوبة العامة (الشاملة)

المطلب الأول
التوبة من ذنب معين

المطلب الثاني

التوبة العامة (الشاملة) وكيفيتها

نصوحاً ٥٢٧- جميع المؤمنين والمؤمنات يمكنهم الحصول على مزايا التوبة النصوح ٥٢٨- استحباب صلاة التوبة وأقوال العلماء فيها ٥٢٩- بعض أقوال المذاهب الفقهية في صلاة التوبة : ٥٣٠-١- قول الحنفية في صلاة التوبة ٥٣١-٢- قول المالكية في صلاة التوبة ٥٣٢-٣- قول الشافعية في صلاة التوبة ٥٣٣-٤- قول الحنابلة في صلاة التوبة .

المبحث الثالث
التوبة الواجبة والتوبة المستحبة

٥٣٤- تمهيد وتقسيم : يتضمن مطلبين : المطلب الأول : التوبة الواجبة وأحكامها . المطلب الثاني : التوبة المستحبة وأحكامها .

المطلب الأول
التوبة الواجبة

٥٣٥- التوبة الواجبة تكون عن ترك الواجب وفعل المحرم ٥٣٦- وجوب التوبة يشمل كل المسلمين والمؤمنين ويتصف بالفورية ٥٣٧-١- الوجوب يشمل المسلمين والمؤمنين جميعا بدون استثناء ٥٣٨-٢- أن هذا الوجوب على الفور وليس على التراخي ٥٣٩- وجوب التوبة بعد الذنب على الفور يدفع محذورين كبيرين ٥٤٠- المحذور الأول : أنه قد يخطفه الموت فيموت مخلطا لا تائباً ٥٤١- والمحذور الثاني : زيادة الإثم حسب طول مدة التأخير ٥٤٢- أقوال العلماء في أن الوجوب في التوبة على الفور: ٥٤٣-١- من فقه المالكية ٥٤٤-٢- من فقه الشافعية ٥٤٥-٣- من فقه الحنابلة ٥٤٦- الفورية في التوبة ثابتة بالإجماع ٥٤٧- الموسوعة الفقيهة تنقل الإجماع على الفورية في التوبة ٥٤٨- وجوب التوبة على الفور يخص التوبة الواجبة لا المستحبة ٥٤٩- تقسيم ابن تيمية للتوبة إلى واجبة ومستحبة ودليله ٥٥٠-١- تقسيمه التوبة إلى واجبة ومستحبة ٥٥١-٢- دليل تقسيم التوبة إلى واجبة ومستحبة ٥٥٢-٣- شرحنا لاستدلال ابن تيمية ٥٥٣- التوبة من الصغائر واجبة وإن كانت يكفرها اجتناب الكبائر ٥٥٤- من أقوال المذاهب الفقهية في أن التوبة من الصغائر واجبة على كل حال ٥٥٥- أساس الخلاف في وجوب التوبة من الصغيرة ٥٥٦- رأي الجمهور: وجوب التوبة من الصغائر ٥٥٧- رأي المعتزلة : الصغائر تقع مكفرة بمجرد اجتناب الكبائر ٥٥٨- الطريق إلى استنباط الحكم الشرعي الصحيح في كل مسألة شرعية ٥٥٩- ما ذهب إليه الجمهور هو الصواب لصحة طريقتهم في الاستنباط ٥٦٠- الأدلة على وجوب التوبة من الصغائر وإن كانت يكفرها اجتناب الكبائر : ٥٦١- أولاً - عموم الأدلة على وجوب التوبة من الكبائر والصغائر ٥٦٢- ثانياً - خصوص الدليل على وجوب التوبة من الصغائر على كل المكلفين ٥٦٣- ثالثاً - تعدد أسباب المغفرة لا يستلزم سقوط التكليف بالتوبة ٥٦٤- رابعاً - في التوبة مطلوبات شرعية مرادة لذاتها غير موجودة في المكفرات الأخرى ٥٦٥- خامساً - تأخير التوبة معصية بالإجماع فكيف يقره الشرع عليها بانتظار المكفر ؟ ٥٦٦- اجتماع أسباب المغفرة مع بعضها وآثارها ٥٦٧- سادساً - ترك التوبة من الصغيرة إصرار عليها يحولها إلى كبيرة فلا يتحقق اجتناب الكبائر أصلا ٥٦٨- سابعاً - وجوب التوبة من الصغائر حتى في حالة كون الذنب مغفورا أصلا

المطلب الثاني

التوبة المستحبة

المبحث الرابع

التوبة في الباطن والتوبة في الظاهر

المطلب الأول

التوبة في الباطن

المطلب الثاني

التوبة في الظاهر

المبحث الخامس

التنبيه على التوبة الجماعية وبيان حكمها

- توبة قوم يونس بصورة جماعية وقبول الله تعالى توبتهم ٦٠٠- د- أمر الله تعالى القوم الذي كفروا بعد إيمانهم وعبدوا العجل من بني إسرائيل بأن يتوبوا توبة جماعية ٦٠١- ثانياً - الدليل من السنة النبوية على مشروعية التوبة الجماعية ٦٠٢- أ- دعوة النبي ﷺ الصحابة إلى توبة جماعية في وقت واحد ٦٠٣- ب - توبة الأنصار توبة جماعية ٦٠٤- ثالثاً- تشريع التوبة مرافقة لعبادات تؤدى بصورة جماعية في زمن معين ٦٠٥- أ- توجيه الحجيج إلى الدعاء والاستغفار في المناسك وفي عرفة ٦٠٦- ب - تشريع التوبة والاستغفار بمناسبة صلاة الاستسقاء ٦٠٧- ج - تشريع التوبة والاستغفار مع الجهاد .

الباب الثالث
الباعث على التوبة والبواعث على الإصرار والتسويف

٦٠٨- تمهيد وتقسيم : يتضمن فصلين : الفصل الأول : الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك . الفصل الثاني : البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة .

الفصل الأول
الباعث على التوبة ونتائجه ووسائل التدارك

٦٠٩- تمهيد وتقسيم ٦١٠- لابد من باعث من داخل القلب يبعث على التوبة ٦١١- يقظة القلب ما هو مصدرها؟ ٦١٢- نتائج يقظة القلب ٦١٣- تقسيم الفصل إلى ثلاثة مباحث : المبحث الأول : يقظة القلب من رقدة الغافلين. المبحث الثاني: نتائج اليقظة. المبحث الثالث: وسائل التدارك (وسائل مغفرة الذنوب) .

المبحث الأول
يقظة القلب من رقدة الغافلين

٦١٤- أسباب اليقظة ومن ثم التوبة ٦١٥- السبب الأول لليقظة ٦١٦- السبب الثاني لليقظة ٦١٧- أقوال العلماء في أسباب اليقظة ، والباعث على التوبة ٦١٨- قول القرطبي في الباعث على التوبة ٦١٩- أ- الباعث على التوبة (إدامة الفكر) في القرآن وما جاء فيه من الوعد والوعيد ٦٢٠- ب - الباعث على التوبة تنبيه إلهي ٦٢١- ما يشهد لصحة قول القرطبي في الباعث على التوبة ٦٢٢- من إدامة الفكر .. إلى دخول النور في القلب وظهور علاماته ٦٢٣- قول ابن القيم في اليقظة الباعثة على التوبة ٦٢٤- تعريف اليقظة ٦٢٥- الآثار المباشرة لليقظة ٦٢٦- أ- (العزم) الجازم على المسير إلى الله تعالى ٦٢٧- ب - (الفكرة) : وهي تحديق القلب إلى المطلوب ٦٢٨- ج - (البصيرة) : وهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد فيبعثه على التوبة ٦٢٩- من إدامة الفكر .. إلى البصائر الثلاث : ٦٣٠- البصيرة الأولى : بصيرة في معرفة الله تعالى وصفاته ٦٣١- البصيرة الثانية : بصيرة في معرفة أمره ونهيه ٦٣٢- البصيرة الثالثة : بصيرة في معرفة وعده ووعيده ٦٣٣- نور التنبيه يكون كسبيا ويكون وهبيا فيفضي إلى التوبة ٦٣٤- اليقظة المفاجئة بسبب فعل أو مشهد وإفضاؤها إلى التوبة.

المبحث الثاني
نتائج اليقظة

٦٣٥- نتائج اليقظة كثيرة وعظيمة ٦٣٦- قول ابن القيم في نتائج اليقظة بوجه عام ٦٣٧- نتائج اليقظة المرتبطة بالتوبة ٦٣٨- النتيجة الأولى لليقظة : المحاسبة للنفس ٦٣٩- قول ابن القيم : المحاسبة

المبحث الثالث
وسائل التدارك (وسائل مغفرة الذنوب)

الفصل الثاني
البواعث على الإصرار على الذنوب والتسويف في التوبة
(الآفات المانعة من التوبة)

المطلب الثاني
طول الأمل الباعث على الإصرار والتسويف

الفقرة الأولى
في التعريف بطول الأمل وآثاره

الفقرة الثانية
أقوال المفسرين في طول الأمل وأثره في الصرف عن التوبة

الفقرة الثالثة
أقوال العلماء في طول الأمل وأثره في الصرف عن التوبة

المطلب الثالث
التعلق بالرجاء من غير عمل

المطلب الرابع
القنوط من رحمة الله بوصفه باعثا على الإصرار

والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ٨٤٥-١٤- المس ٨٤٦-١٥- الاقتران والملازمة للعاصي الأعشى عن ذكر الله ٨٤٧-١٦- الإنساء ٨٤٨-١٧- الفتنة عن طاعة الله ٨٤٩-١٨- تلقف المنسلخ من آيات الله وإغوائه ٨٥٠-١٩- النزغ للمؤمنين والنزغ فيما بينهم ٨٥١-٢٠- مس بعض المتقين بطائف منه، ومد الغاوين بالغي الدائم ٨٥٢-٢١- الدعوة إلى النار ٨٥٣-٢٢- التسويل والإملاء بالارتداد عن الهدى ٨٥٤-٢٣- استهواء أهل الضلال وإيقاعهم في الحيرة ٨٥٥-٢٤- العداوة لكل نبي ٨٥٦-٢٥- الكفر وتعليم الناس السحر ٨٥٧-٢٦-الإيحاء للضالين والكافرين لمجادلة المؤمنين ٨٥٨-٢٧- الهمزات والحضور ٨٥٩-٢٨- التنزل على كل أفاك أثيم ٨٦٠-٢٩- تغيير خلق الله ٨٦١-٣٠- الصد عن الصراط المستقيم ٨٦٢-٣١- التلبيس للدين ٨٦٣- طموح الشيطان في الإغواء أكبر من قدرته الحقيقية ٨٦٤- من الوسوسة والتزيين .. إلى الاستجابة والإتباع ٨٦٥- المعصية تفتح نافذة للشيطان يدخل منها ٨٦٦- وسائل تحصين المؤمن من الشيطان ٨٦٧- بدايات المعصية .. من أين ؟ ٨٦٨- عندما يكون الشيطان وسيلة - رغم أنفه - لرفع درجة المؤمن عند الله !! ٨٦٩- من البدايات .. إلى النهايات ٨٧٠- علاج البدايات قبل أن تصبح عزما على الفعل ٨٧١- الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين ٨٧٢- أولويات الشيطان في مراده من بني آدم : العقبات السبع ٨٧٣- العقبة الأولى : عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه ٨٧٤- العقبة الثانية : وهي عقبة البدعة ٨٧٥- العقبة الثالثة : وهي عقبة الكبائر ٨٧٦- العقبة الرابعة : وهي عقبة الصغائر ٨٧٧- العقبة الخامسة : وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها ٨٧٨- العقبة السادسة : وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ٨٧٩- [العقبةالسابعة]: عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى.

المطلب الثامن
معالجة البواعث على الإصرار والتسويف في التوبة

٨٨٠- تمهيد : تشخيص الداء ووصف الدواء ٨٨١- الدواء لحل عقدة الإصرار والتسويف كما يصفه الغزالي ٨٨٢- أصلان يعتمد عليهما في معالجة عقدة الإصرار العلم، والصبر ٨٨٣- الأصل الأول: العلم ٨٨٤- نوع العلم المطلوب لحل عقدة الإصرار ٨٨٥- دور العلماء والدعاة في تعليم الناس ما يدفع الذنوب عنهم ويحل عقدة الإصرار ٨٨٦- مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان لثلاث علل ٨٨٧- أربعة أنواع من العلم مختصة في حل عقدة الإصرار ٨٨٨- النوع الأول : تذكر آيات القرآن المخوفة للمذنبين والعاصين ٨٨٩- النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ذات الصلة بالذنب والتوبة ٨٩٠- النوع الثالث : العلم بتوقع تعجيل العقوبة في الدنيا على الذنب ٨٩١- النوع الرابع : ذكر العقوبات الشرعية على آحاد الذنوب كالخمر والزنا وغيرهما ٨٩٢- العلم العام الذي يشترك عموم الخلق في الحاجة إليه بوصفه دواء لحل عقدة الإصرار ٨٩٣- الأصل الثاني لحل عقدة الإصرار : الصبر ٨٩٤- الإصرار على الذنوب عند المؤمن سببه ضعف الإيمان ٨٩٥- أربعة أسباب مساعدة على الوقوع في الذنب والإصرار عليه مع بقاء أصل الإيمان ٨٩٦- سبب خامس هو من نواقض

فهرس الجزء الثاني

(فهرس تفصيلي مرتب بحسب أرقام الفقرات)

الباب الرابع
الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها

الفصل الأول
أقسام الذنوب ومتعلقاتها

المبحث الأول
انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر

المبحث الثاني
ذنوب القلب وذنوب الجوارح

المبحث الثالث
الذنوب المقتصرة على حق الله والذنوب التي فيها ظلم العباد

الفصل الثاني
التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات

المبحث الأول
التوبة من فعل المحرمات

المبحث الثاني
التوبة من ترك الواجبات

المطلب الأول
التعريف بالواجب وأقسامه ودرجة أهمية التوبة من تركه

المطلب الثاني

التوبة من ترك الصلاة والصيام متعمدا

المطلب الثالث

التوبة من ترك الزكاة والحج

الفرع الأول

التوبة من ترك الزكاة

الفقرة الأولى
التعريف بالزكاة ومشروعيتها وفضلها في الإسلام

الفقرة الثانية
من تجب في ماله الزكاة ، ومصارفها وحكم مانعها وعقوبته في الآخرة

الفقرة الثالثة
التوبة من ترك الزكاة أو التقصيرفيها وكيفية إبراء الذمة منها

الفرع الثاني
التوبة من ترك الحج

الفقرة الأولى
التعريف بالحج ومشروعيته وفضله والحكمة من فرضه والتحذير من تركه

الفقرة الثانية
شروط وجوب الحج وهل هو على الفور أم على التراخي

الفقرة الثالثة
التوبة من ترك لحج وكيفية إبراء الذمة منه

المطلب الرابع
التوبة من معصية ترك الجهاد وهي من الكبائر

الباب الخامس
دوام التوبة : لزومها والثبات عليها إلى الموت

الفصل الأول
حال التائب بعد التوبة

المبحث الأول
ما يجب أن يكون عليه حال التائب بعد توبته (إنابة التائب إلى الله تعالى)

المبحث الثاني
بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الفصل الثاني
وسائل دوام التوبة ولزومها إلى آخر العمر

المبحث الأول
الشكر والصبر أهم أركان دوام التوبة

المطلب الأول
الركن الأول في دوام التوبة : شكر الله تعالى على نعمة التوبة

المطلب الثاني

الركن الثاني في دوام التوبة : الصبر

المبحث الثاني

لزوم الاستغفار والمواظبة عليه

المطلب الأول
تعريف الاستغفار وبيان صلته بالتوبة وبالدعاء والحاجة إليه وفضله

المطلب الثاني
صيغ الاستغفار في القرآن والسنة

المطلب الثالث
الأحكام المتعلقة بالاستغفار

المبحث الثالث

قطع سبل الرجوع عن التوبة

(الابتعاد عن كل ما يغريه في الوقوع فيما تاب منه)

المبحث الرابع

إبقاء القلب حيا بمعاني الإيمان وتنشيط الجوارح بأنواع العبادات

المطلب الأول

إبقاء القلب حيا بمعاني الإيمان

الفقرة الأولى

محبة الله تعالى وأثرها في دوام التوبة

الفقرة الثانية

الخوف من الله تعالى وأثره في دوام التوبة

الفقرة الثالثة
التفكر في الآخرة وأثره في دوام التوبة

المطلب الثاني
تنشيط الجوارح بأنواع العبادات والطاعات وأثره في دوام التوبة

الفقرة الأولى
تزكية النفس بأنواع العبادات والطاعات وأثرها في دوام التوبة

الفقرة الثانية
ممارسة الذكر الكثير وأثره في دوام التوبة

المبحث الخامس
إتباع مسلك المراغمة للشيطان وأثره في دوام التوبة

المبحث السادس
اتخاذ القدوة الحسنة وأثره في دوام التوبة

المبحث الثاني
أقوال العلماء في مسألة معاودة التائب للذنب

الباب السادس
توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم

الفصل الأول
توبة الأنبياء وعلاقة توبتهم بالعصمة

المبحث الأول
ثناء الله تعالى على الرسل والأنبياء وبيان معنى العصمة

المبحث الثاني
توبة آدم عليه السلام

المبحث الثالث
توبة نوح عليه السلام

المبحث الرابع
توبة موسى عليه السلام

المبحث الخامس
توبة داود عليه السلام

المبحث السادس
توبة يونس عليه السلام

المبحث السابع
توبة الله على النبي محمد ﷺ

الفصل الثاني
نماذج من توبة الصحابة والتابعين وتابعيهم

الفصل الثالث
نماذج للتوبة في العصر الحديث

الباب السابع
قبول التوبة من الله تعالى

الفصل الأول

قبول التوبة من الله تعالى هل هو قطعي أم ظني

١٥٤٩- تمهيد وتقسيم : يتضمن ثلاثة مباحث : المبحث الأول : أقوال المذاهب الفقهية في قبول التوبة هل هو قطعي أم ظني . المبحث الثاني : أقوال كبار العلماء القائلين بأن قبول التوبة مقطوع به وردهم على المخالفين . المبحث الثالث : القول الراجح وأدلته.

المبحث الأول

أقوال المذاهب الفقهية في قبول التوبة هل هو قطعي أم ظني ؟

١٥٥٠- إيراد أقوال المذاهب الفقهية ١٥٥١-١- من فقه المالكية ١٥٥٢-٢- من فقه الشافعية ١٥٥٣-٣- من فقه الحنابلة ١٥٥٤-٤- من فقه الحنفية ١٥٥٥-٥- من فقه الإباضية.

المبحث الثاني

أقوال كبار العلماء القائلين بأن قبول التوبة مقطوع به وردهم على المخالفين

١٥٥٦- أولاً- قول الإمام الغزالي بأن التوبة الصحيحة مقبولة قطعا : ١٥٥٧- كل قلب سليم فهو مقبول عند الله ومتنعم بجواره ١٥٥٨- زوال أثر الذنب نتيجة حتمية للتوبة ١٥٥٩- قبول التوبة الصحيحة سبق به القضاء الأزلي ١٥٦٠- التوبة الصحيحة سبب حتمي للقبول بالإرادة الأزلية في ترتيب السبب وأثره ١٥٦١- الدليل من القرآن والسنة والآثار على أن التوبة الصحيحة مقبولة قطعا ١٥٦٢- أ- من القرآن الكريم ١٥٦٣- ب - من السنة النبوية ١٥٦٤-١- التعبير بالفرح الإلهي بالتوبة يدل على القبول وزيادة ١٥٦٥-٢- التعبير ببسط اليد ليتوب المسيء يتضمن القبول ١٥٦٦-٣- المعضدات الأخرى من السنة النبوية لقبول التوبة الصحيحة قطعا ١٥٦٧ - ج - الآثار المنقولة عن السلف تدل على قبول التوبة الصحيحة ١٥٦٨- قبول التوبة الصحيحة قطعا ليس من قبيل القول أنه واجب على الله ١٥٦٩ - سبب شك التائب في قبول توبته مع أن الله يقبل التوبة قطعا ١٥٧٠- ثانياً- قول البيهقي : قبول التوبة الصحيحة واقع لا محالة بحكم الوعد ١٥٧١- ثالثاً- قول القرطبي : الأدلة السمعية تدل على قبول التوبة بوعده ولا خلف فيه ١٥٧٢- المشيئة المطلقة تقتضي الخيار ولكنها تجري حسبها وعد الله به فيجب سمعا لا عقلا ١٥٧٣- إخبار الله تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء ١٥٧٤- الشوكاني ينقل عن القرطبي القول بقطعية قبول التوبة الصحيحة ١٥٧٥- الشك في قبول التوبة راجع إلى الشك في كمالها ١٥٧٦- رابعاً- قول ابن تيمية : قبول التوبة الصحيحة قطعي بطريق السمع ١٥٧٧- الأمر بالتوبة يستتبع قبولها إذا وقعت صحيحة ١٥٧٨- كل من تاب فإن الله يتوب عليه ١٥٧٩- غفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به لم يعلقه الله تعالى بالمشيئة ١٥٨٠- القول بأن العبد يكون له حق على الله بالقبول صحيح إذا أخبر الله بوقوعه ١٥٨١- المؤمن لا يجزم بقبول أعماله - ومنها توبته - لأنه لا يجزم بكمالها ١٥٨٢- خامساً- قول الآلوسي : التوبة الصحيحة مقبولة لا محالة بحكم سبق الوعد فضلا من الله تعالى .

المبحث الثالث
القول الراجح وأدلته

١٥٨٣- الراجح : قبول الله تعالى للتوبة الصحيحة قطعي بحكم الوعد الصادق فضلا منه وإحسانا ١٥٨٤- سبب الترجيح لما رجحناه من أقوال العلماء ١٥٨٥- استدلال إضافي يعضد ما رجحناه ١٥٨٦- التائب لا يمكنه الجزم بقبول الله توبته لعدم قطعه بتوافر شروط الصحة والكمال فيها ١٥٨٧- صفوة القول .

الفصل الثاني
علاقة قبول التوبة بالتقوى ، وعلامات صحة التوبة وقبولها

١٥٨٨- تقسيم البحث : يتضمن مبحثين : المبحث الأول : علاقة قبول التوبة بالتقوى . المبحث الثاني: علامات صحة التوبة وقبولها .

المبحث الأول
علاقة قبول التوبة بالتقوى

١٥٨٩- تمهيد وإيراد سؤال مهم ١٥٩٠- البحث في معنى قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٥٩١- المعنى الصحيح للمراد بكلمة (المتقين) في الآية ١٥٩٢- تفسيرنا للآية في ضوء منهج تفسير القرآن بالقرآن والسنة ١٥٩٣- شرطا قبول العمل : الإيمان ، وصلاح العمل بأن يتقي الله فيه ١٥٩٤- ابن آدم قابيل لم يتق الله في قربانه فلم يتقبل منه ذلك العمل ١٥٩٥- تحرير معنى (المتقين) في الآية : (إنما يتقبل الله من المتقين) عند أهل التفسير وغيرهم ١٥٩٦- أولاً- أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٥٩٧-١- قول القرطبي في معنى قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٥٩٨-٢- قول ابن كثير في معنى قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٥٩٩-٣ - قول الشوكاني في معنى قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٦٠٠-٤ - قول الآلوسي في معنى قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٦٠١- ثانياً- تحرير ابن تيمية لتفسير الآية : (إنما يتقبل الله من المتقين) ١٦٠٢- أقوال الفرق في تفسير الآية ١٦٠٣- السلف والأئمة : المعنى : لا يتقبل العمل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ١٦٠٤- يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه وإن كان عاصيا في غيره وبالعكس ١٦٠٥- أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات وأمرهم إلى الله ١٦٠٦- لا يجوز أن يراد بالآية أن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها ١٦٠٧- صفوة القول : يتقبل العمل بشرطين: الإيمان، وأن يتقي الله في ذلك العمل.

المبحث الثاني
علامات صحة التوبة وقبولها

١٦٠٨- تمهيد : حال بعض التائبين ساعة إيقاع التوبة ١٦٠٩- علامات صحة التوبة وقبولها : ١٦١٠- ١- أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها ١٦١١-٢- حصول حال الإنابة إلى الله تعالى بعد التوبة

١٦١٢-٣- أن يجد في قلبه بعد التوبة الإحساس بمزيد من محبة الله ورسوله والمؤمنين ١٦١٣-٤- الرغبة في الاستقامة وتحقيقها في الواقع ١٦١٤-٥- ذهاب الوحشة وقسوة القلب وضيق الصدر التي سببها المعاصي ١٦١٥-٦- الإحساس بالفرح بتوبته ١٦١٦-٧- الإحساس بكراهية العودة إلى الحال السابقة على التوبة .

الفصل الثالث
متعلقات مسألة قبول التوبة

١٦١٧- تقسيم البحث : يتضمن خمسة مباحث : المبحث الأول : توبة غير المسلم بمعنى إسلامه مقبولة قطعا بالإجماع . المبحث الثاني : بيان المشمولين بقوله تعالى : (للذين يعملون السوء بجهالة) . المبحث الثالث : انتهاء زمن قبول التوبة . المبحث الرابع معنى قول الفقهاء في باب الجنايات : (لا تقبل توبته). المبحث الخامس : المشمولون بقوله تعالى : (لن تقبل توبتهم) .

المبحث الأول
توبة غير المسلم بمعنى إسلامه مقبولة قطعاً

١٦١٨- تمهيد وتقسيم : يتضمن مطلبين : المطلب الأول : غير المسلم إذا أسلم فهي توبة مقبولة قطعاً بالإجماع . المطلب الثاني : حكم الأعمال الصادرة من غير المسلم قبل إسلامه .

المطلب الأول
غير المسلم إذا أسلم فهي توبة مقبولة قطعاً بالإجماع

١٦١٩- الإجماع على قطعية قبول توبة غير المسلم وهي إسلامه ١٦٢٠- أقوال العلماء في القطع بقبول توبة غير المسلم بإسلامه .

المطلب الثاني
حكم الأعمال الصادرة من غير المسلم قبل إسلامه

١٦٢١- حكم الأعمال السيئة أو الحسنة الصادرة منه قبل أن يسلم ١٦٢٢- أولاً - حكم الأفعال السيئة التي صدرت منه قبل أن يسلم ١٦٢٣- هل تغفر له الذنوب التي فعلها قبل أن يسلم ولم يتب منها في الإسلام ؟ ١٦٢٤- ثانياً - حكم الأعمال الحسنة التي عملها قبل الإسلام .

المبحث الثاني
بيان المشمولين بقوله تعالى : (للذين يعملون السوء بجهالة)

١٦٢٥- ورود عمل السوء مقترنا بالجهالة في القرآن الكريم ١٦٢٦- كل معصية فهي جهالة وصاحبها جاهل حتى ينزع ١٦٢٧- أقوال المفسرين والعلماء في معنى (يعملون السوء بجهالة) ١٦٢٨-١- ما جاء في تفسير البيضاوي ١٦٢٩-٢- ما جاء في تفسير القرطبي ١٦٣٠-٣- ما جاء في تفسير ابن كثير

المبحث الثالث
انتهاء زمن قبول التوبة

المبحث الرابع
معنى قول الفقهاء في باب الجنايات (لا تقبل توبته)

المبحث الخامس
المشمولون بقوله تعالى : (لن تقبل توبتهم)



فهرس الجزء الثاني
(مرتباً بحسب أرقام الصفحات)

الباب الرابع: الأشياء التي يتاب منها وكيفية التوبة منها

الباب الخامس: دوام التوبة: لزومها والثبات عليها إلى الموت

الباب السادس: توبة الأنبياء والعباد الصالحين وغيرهم

الباب السابع: قبول التوبة من الله تعالى



